

البحوث الكيفية في العلوم الإجتماعية

تأليف

شارلين هس - بيبر

باتريشيا ليقي

ترجمة

هناء الجوهري

مراجعة وتقديم

محمد الجوهري

1783

سلسلة العلوم
الاجتماعية للباحثين



3

يقدم هذا الكتاب أشمل وأوفى نص عربي يتناول البحوث
الكيفية فى العلوم الاجتماعية بطرائقها المختلفة، المؤلف
منها: كالملاحظة، والمقابلة، والبحث الإثنوجرافى، وتحليل
المضمون، وجماعات المناقشة المركزة. كما يولى اهتماما
خاصا لطرائق البحث الكيفى المستحدثة: كالتاريخ الشفاهى،
وطرائق البحث غير التدخلية، كتلك التى تجرى على المادة
الغزيرة المتجددة المتاحة فى مواقع الإنترنت، وفى قاعات
المناقشة، والفيسبوك، واليوتيوب، وغيرها. وأخيرا طرائق
البحوث البصرية، والبحوث التى تستخدم خليطا من
الطرائق.

ويعتمد عرض مادة الكتاب على نماذج واقعية متعمقة،
وممارسات ميدانية حقيقية. كما يولى الكتاب اهتماما فائقا
للقضايا الأخلاقية المرتبطة بممارسة البحوث الكيفية، وهو
مبحث غير مطروق فى كتب البحث العربية، وينتهى كل
فصل من فصوله بتعريف بأهم المصطلحات، وأسئلة
للمناقشة، واستعراض لأهم مواقع الإنترنت المتصلة بموضوع
الفصل، وقائمة المراجع.

البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين
المشرف على السلسلة: فيصل يونس

- العدد: 1783
- البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية
- شارلين هس- بيبير، وباتريشيا ليفى
- هناء الجوهري
- محمد الجوهري
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

The Practice of Qualitative Research, 2nd edition,
By Sharlene Nagy Hesse-Biber and Patricia Leavy
Copyright © 2006 by Sage Publications, Inc.

This translation is published by arrangement with the proprietor:
Sage Publications, Inc. and it is the original publisher in the
United States, London and New Delhi

تصدر هذه الترجمة بالتنسيق مع Sage Publications, Inc. وهى الدار المالكة
للحقوق والناشر الأصلي للكتاب فى الولايات المتحدة الأمريكية ولندن ونيو دلهى.

هذا العمل يصدر بالتعاون مع مؤسسة فورد

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية

تأليف

باتريشيا ليفى

شارلين هس-بيبر

**ترجمة: هناء الجوهري
مراجعة وتقديم: محمد الجوهري**



2011

بيير، شارلين هسى.

البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية/ تأليف:

شارلين هسى - بيير، باتريشيا ليفى؛ ترجمة: هناء

الجوهري؛ مراجعة وتقديم: محمد الجوهري..

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٦٣٢ ص : ٢٤ سم - - (المركز القومى للترجمة)

تدمك ٠ ٨٧٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - العلوم الاجتماعية - طرق البحث.

أ - ليفى، باتريشيا. (مؤلف مشارك)

ب - الجوهري، هناء. (مترجم)

ج - الجوهري، محمد. (مراجع ومقدم)

هـ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٨٥٠ / ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 876 - 0

ديوى ٣٠٠، ٧٢

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

9	مقدمة الترجمة العربية.....
27	شكر وتقدير.....
29	مقدمة الكتاب: ملاحظات على الجانب التعليمي للكتاب.....

القسم الأول

نموذج البحث الكيفي

100 - 35	الفصل الأول: براعة البحث الكيفي: نظرة عامة وكلية.....
	مقدمة (ص ٣٧) الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي في دراسة صورة الجسد (ص ٤٠) الوضعية والموضوعية والرابطة البحثية: الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي (ص ٥٠) المفاهيم الكلية لبناء المعرفة: المنظورات الكيفية (ص ٦٧) المنظورات الفكرية النسوية (ص ٧١) إبستمولوجيا الرؤية النسوية (ص ٧٨) إدراك ما وراء الكواليس. النظرية، وطريقة البحث، والإبستمولوجيا عند الممارسة (ص ٨٦) تعريف بالمصطلحات (ص ٨٧) أسئلة للمناقشة (ص ٩٥) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٩٥) المراجع (ص ٩٨).

160 - 101	الفصل الثاني: عملية البحث.....
	النماذج النظرية: نوافذ للإطلاع على الحقيقة (ص ١٠١) سؤال البحث (ص ١٠٧) استخراج أسئلة البحث (ص ١٠٩) خلف الكواليس مع دافيد كارب (ص ١١٥) تصميم البحث (ص ١١٩) الصدق والثبات (ص ١٢٢) اختيار العينات (المعينة) (ص ١٢٥) تصميم البحث الكيفي (ص ١٢٦) الصدق في البحث الكيفي (ص ١٢٦) الثبات المنهجي في البحوث الكيفية (ص ١٣٤) عملية اختيار العينات والبحث الكيفي (ص ١٤٤) قضية البحث الكيفي: حركة دينامية (ص ١٤٥) خلف الكواليس مع باري ثورن (ص ١٤٩) خاتمة (ص ١٤٩) تعريف بالمصطلحات (ص ١٥٠) أسئلة للمناقشة (ص ١٥٥) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ١٥٥) المراجع (ص ١٥٦).

208 - 159	الفصل الثالث: أخلاقيات البحث الاجتماعي.....
	دراسة مرض الزهري بمدينة Tuskegee (ص ١٥٩) الدروس الأخلاقية المستفادة من التجربة الطبية في Tuskegee: الموافقة الصريحة عن علم

(ص ١٦٠) الأهمية المحورية للأخلاق فى المشروع البحثى (ص١٦٣) تاريخ موجز لأخلاقيات البحث (ص١٦٤) الخطوط الإرشادية والقوانين الحاكمة لعملية البحث (ص١٦٥) إلى أى مدى يحظى المبحوثون بمستوى جيد من الحماية حالياً؟ (ص١٦٧) المآزق الأخلاقى للبحث السرى (المستتر) (ص١٧٢) باحث للبيع؟: صراعات المصالح فى عملية البحث (ص١٧٨) المآزق الأخلاقى: الولاء الموزع (ص١٧٩) هل الموافقة عن علم هى الحل للانتهاكات الأخلاقية فى ممارسة البحث؟ (ص ١٨٢) خلف الكواليس مع سارة ماديسون (ص ١٩٠) ممارسة الأخلاقيات فى البحث الاجتماعى (ص١٩٣) قضايا ملحة فى مجال البحث الملتزم بالأخلاقيات: هل نحن فى طريقنا إلى نموذج نظرى جديد "لأخلاقيات"؟ (ص ١٩٥) خاتمة (ص ١٩٦) تعريف بالمصطلحات (ص ١٩٩) أسئلة للمناقشة (ص٢٠١) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٢٠٣) المراجع (ص ٢٠٧).

القسم الثانى

طرق جمع البيانات

الفصل الرابع: المقابلة المتعمقة.....211 - 255

تصميم دراسة مقابلة متعمقة (ص ٢١٨) خلف الكواليس مع دافيد كارب (ص٢٢٣) المقابلة: إجراء المقابلات المتعمقة (ص٢٢٥) خلف الكواليس مع دافيد كارب (ص ٢٢٩) نقاط الاختلاف (ص٢٣١) تحليل وتفسير بيانات المقابلة (ص٢٤٦) خاتمة (ص٢٥٠) تعريف بالمصطلحات (ص٢٥٠) أسئلة للمناقشة (ص٢٥٣) مواقع مختارة على الإنترنت (ص٢٥٤) المراجع (ص٢٥٤)

الفصل الخامس: التاريخ الشفاهى. طريقة مساعدة للمقابلة القائمة على

السيرة (الذاتية).....257 - 329

اختلاف التاريخ الشفاهى عن المقابلة المتعمقة (ص٢٦١) التاريخ الشفاهى: الألفه، والإصغاء، والقص بوصفها تقنيات بحثية (ص٢٧٠) خلف الكواليس مع دانا جاك (ص٢٧٥) التعاون والسلطة: قضايا الصوت، والتفسير، والتمثيل فى التاريخ الشفاهى (ص٢٩١) البحث الإثنوجرافى الذاتى (ص٣١١) خلف الكواليس مع كارولين إليس (ص٣١٦) تعريف بالمصطلحات (ص٣٢٤) أسئلة

للمناقشة (ص ٣٢٥) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٣٢٦) المراجع (ص ٣٢٨).

الفصل السادس: مقابلات جماعات المناقشة المركزة..... 331 - 385
نبذة إيضاحية عن جماعات المناقشة المركزة (ص ٣٣٢) الفارق بين مقابلة جماعات المناقشة المركزة والمقابلة المتعمقة أثناء جمع البيانات: جماعات المناقشة المركزة كخبرة فريدة ومصدر متميز للبيانات (ص ٣٣٦) تصميم دراسة لجماعة المناقشة المركزة: سؤال البحث (ص ٣٤٦) خلف الكواليس مع جوليا جونسون وروثبرج (ص ٣٧٥) تحليل البيانات وعرضها (ص ٣٧٧) خاتمة (ص ٣٧٨) تعريف بالمصطلحات (ص ٣٧٩) أسئلة للمناقشة (ص ٣٨٢) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٣٨٣) المراجع (ص ٣٨٥).

الفصل السابع: البحث الإثنوجرافي..... 387 - 467
خلف الكواليس مع ويليام فوت وايت وهو يتأمل دراسته عن "مجتمع النواصي" (ص ٣٩٤) ممارسة البحث الإثنوجرافي (ص ٣٩٦) خلف الكواليس مع كارول بيلى (ص ٤٠١) اختيار مجتمع البحث (ص ٤٠٥) الحصول على مدخل لمجتمع البحث وتقرير دورك فيه (ص ٤٠٨) خلف الكواليس مع ساره ماديسون (ص ٤٢٨) مغادرة الميدان (ص ٤٣٠) جمع البيانات فى موقع البحث (ص ٤٣٤) معالجة بيانات المذكرات الميدانية (ص ٤٣٦) تحليل مذكراتك الميدانية وغيرها من المواد: اللغز الإثنوجرافي (ص ٤٣٩) اللغز الإثنوجرافي (ص ٤٤٤) التحليل العادى ومشكلات التفسير/ أو التأويل (ص ٤٤٨) قضية عرض النتائج: فن الحكى (ص ٤٤٩) خاتمة (ص ٤٥٥) تعريف بالمصطلحات (ص ٤٥٦) أسئلة للمناقشة (ص ٤٦٢) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٤٦٤) المراجع (ص ٤٦٤).

الفصل الثامن: تحليل المضمون وطرق البحث غير التدخلية.... 469 - 524
خلف الكواليس مع ديانا روز (ص ٤٧٦) الطرق غير التدخلية: الاتجاهات الكمية والاتجاهات الكيفية (ص ٤٧٩) التحليل الكيفى للنصوص وعلاقته بما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية (ص ٤٨٩) خلف الكواليس مع ليندساي بريور (ص ٤٩٦) البحوث البصرية: الصور الفوتوغرافية، والصور، والبحوث البصرية التفاعلية (ص ٥٠٠) تمرين على تصنيف الإعلانات (ص ٥٠٥) التحليل السمعى البصرى: العمل مع "الميادين المركبة" (ص ٥٠٩) تحليل

المضمون باستخدام الكمبيوتر. هل هو طريقة غير تدخلية، وكيف يمكن القيام به بما يتفق مع الأخلاق؟ (ص ٥١٥) خاتمة (ص ٥١٦) تعريف بالمصطلحات (ص ٥٢٠) أسئلة للمناقشة (ص ٥٢١) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٥٢٢) المراجع (ص ٥٢٣).

الفصل التاسع: البحث القائم على طرق مختلطة.....525 - 563
البحث ذو الطرق المختلطة (ص ٥٢٧) هل ثمة حروب بين النماذج الفكرية؟ (ص ٥٣٢) خطط البحث ذات الطرق المختلطة (ص ٥٣٥) الخطط ذات الطرق المختلطة، مع أمثلة لها (ص ٥٣٦) مشكلات وآفاق الخطط ذات الطرق المختلطة (ص ٥٤١) بعض المسارات المستقبلية في البحث المختلط الطرق (ص ٥٤٣) عملية التكميم: أى تحويل فئات التصنيف (الكيفية) إلى متغيرات (كمية): مثال على ذلك (ص ٥٤٤) عملية الربط بين الكيفي والكمي (تكميم الكيف بالكم) (ص ٥٤٦) استخدام المتغيرات الكمية في تحسين مستوى التحليل الكيفي مباشرة: تكيف البيانات (تحويلها من الكمي إلى الكيفي) (ص ٥٤٩) خاتمة (ص ٥٥٤) خلف الكواليس مع جانيس مورس (ص ٥٥٦) تعريف بالمصطلحات (ص ٥٥٨) أسئلة للمناقشة (ص ٥٦٠) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٥٦٠) المراجع (ص ٥٦١).

القسم الثالث

التحليل والعرض

الفصل العاشر: تحليل وتفسير البيانات الكيفية.....567 - 609
خطوات تحليل وتفسير البيانات الكيفية (ص ٥٦٨) التصنيف والتحليل: الاتجاه القائم على النظرية الموثقة (ص ٥٧٤) كتابة الحواشي والتعليقات (ص ٥٧٥) برامج الكمبيوتر واستخدامها في تحليل البيانات الكيفية (ص ٥٨٩) استعمالات برامج الكمبيوتر في الدراسات الكيفية (ص ٥٩١) التفسير والتدوين النهائي للبيانات الكيفية: حكايات واقعية وحكايات غير واقعية (ص ٥٩٧) خلف الكواليس مع دافيد كارب (ص ٦٠٠) الخاتمة (ص ٦٠٣) تعريف بالمصطلحات (ص ٦٠٦) أسئلة للمناقشة (ص ٦٠٧) مواقع مختارة على الإنترنت (ص ٦٠٨) المراجع (ص ٦٠٨)

الفصل الحادى عشر: الرابطة البحثية، التركيز المستمر وبناء المعرفة...611 - 631
بعض الأساليب الكيفية في دراسة أحد الأوبئة: خلق المعرفة الحيوية (ص ٦١٢) خاتمة: الرؤية الكيفية لبناء المعرفة (ص ٦٢٢) المراجع (ص ٦٢٤)

مقدمة الترجمة العربية

محمد الجوهري

هذا الكتاب حلقة من سلسلة كتب تمثل مشروعاً طموحاً لترجمة أمهات الكتب العلمية التأسيسية في مجالات فروع العلوم الاجتماعية. وهو المشروع الذى يجرى تنفيذه بهمة فى رحاب المركز القومى للترجمة بالقاهرة. وتتركز الأعمال المترجمة فيه على محور المناهج وطرائق البحث فى تلك العلوم. ويشترط فيما يترجم أن يخدم الباحثين فى تلك التخصصات وكذلك طلاب الدراسات العليا فيها، بحيث تمثل كتب هذا المشروع نافذة أولئك الباحثين والطلاب على اتجاهات العلم الحديث فى العالم. وقد صدرت منه بالفعل سبعة كتب، شارك فريق العمل فى هذا الكتاب بثلاثة منها.

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ يمثل أشمل وأوفى نص عربى يتناول البحوث الكيفية فى العلوم الاجتماعية بطرائقها المختلفة، المؤلف منها: كالملاحظة، والمقابلة، والبحث الإثنوجرافى، وتحليل المضمون، وجماعات المناقشة المركزة. كما يولى اهتماماً خاصاً لطرق البحث الكيفى المستحدثة: كالتاريخ الشفاهى، وطرق البحث غير التدخلية، كتلك التى تجرى على المادة الغزيرة المتجددة المتاحة فى مواقع الإنترنت وقاعات المناقشة والفيديو واليوتيوب وغيرها.

وهو لا يكتفى بالحديث عن الطرق، ولكنه يمهّد للعمل بنظرة طائر إلى ميدان البحوث الكيفية نفسه كنشاط ذى طبيعة خاصة يتطلب فيمن يمارسه مهارات خاصة، ويفرض عليه شروطاً بعينها، لأن البحث الكيفى فى نظر المؤلفتين "مهارة" خاصة تحتاج إلى "براعة وحكمة" فيمن يمارسها. وفى هذا القسم التمهيدى أيضاً يركز الكتاب على قضية الأخلاق فى البحث الكيفى، وهى مسألة سوف نتوقف عندها فى حديثنا هنا قليلاً. ذلك أن أى بحث كيفى إنما هو ثمرة علاقة "شراكة" بين الباحث والمبحث، لا بل هو ثمرة علاقة "حميمة" بينما تتطلب التزامات أخلاقية صارمة تراعى حرمان المبحوث وخصوصياته، وكذلك رؤيته للموضوع المدروس ووجهة نظره فيه.

وبعد أن يفرغ الكتاب من استعراض مختلف الطرق (فى القسم الثانى الذى يمثل أكثر من ثلثى الكتاب) ينتقل فى الخاتمة ليستوفى مرحلة ما بعد جمع البيانات، وأعنى بها عمليات التصنيف، والتفسير (التأويل) والعرض (أو كتابة تقرير البحث).

واضح إذن أن الهدف الأول والرئيسى لكتابنا هذا هو دراسة طرق البحث الكيفية دراسة شاملة متكاملة. غير أن الكتاب لم يتجاهل أو ينسى أن طرق البحث الكمية كانت موجودة على الساحة العلمية - بل ومسيطر عليها- فى مراحل تاريخية سابقة، وستظل موجودة بعدها.

وبغض النظر عن اعتبارات المجاملة التى لا مكان لها فى تناول العلمى الصارم للمناهج خصوصاً، فإن نوعى الطرق: الكمية، والكيفية يمكن أن تتبادل المنافع والخدمات. وقد تناول الكتاب هذه القضية فى أكثر من موضع، ولكنى ألقت النظر خصوصاً إلى فقرة: التصميمات المتعددة الطرق: الجمع بين البيانات الكيفية والكمية.(فى الفصل التاسع من الكتاب). ووجهة النظر التى تدافع عنها المؤلفتان على امتداد الكتاب أن البحث الكيفى ليس مجرد زيادة تضاف إلى البحث الكمي. وإنما الأحرزى أن البحث الكيفى يساعدنا على طرح تشكيلة متنوعة من أسئلة البحث ومن الإجابة عليها. وبذلك يضيف إضافة هائلة إلى رصيدنا من المعرفة عن أى موضوع من الموضوعات.

هذا الكتاب- أيضاً - نوع من التعويض

عن التدريب الميدانى على البحث

أوضحنا فى تقديمنا للكتاب الذى حررناه عن البحث الإثنوجرافى الميدانى فى العلوم الاجتماعية أنه لا يمكن للباحث المبتدئ أن يبلغ مستوى الإجابة فى إجراء البحوث الكيفية إلا بالتدريب العلمى ميدانياً عليها تحت إشراف وتوجيه الأستاذ الباحث ذى الخبرة. ويمكن أن يتم هذا الإشراف عبر متابعة الأستاذ الدقيقة والآنية للمادة التى يحصل عليها الطالب/ الباحث من الميدان، ومراجعته لها، وتعليقه عليها، وتوجيه هذا الطالب لسبل تلاقى أوجه القصور وتعظيم نواحي القوة فى عمله.

ومن هنا لا يتم تدريس أساليب البحث الميداني نظرياً فقط، وإنما يكون التدريب العملي جزءاً لا يتجزأ من عملية إكساب هذه الخبرة للطلاب وتدريبه على تجويدها والارتقاء بها. ومن أسف أن هذا الأسلوب كان هو المتبع في جامعاتنا بالنسبة لتدريس مناهج البحث الميداني، سواء في الأنثروبولوجيا، أو في علم الاجتماع، أو الخدمة الاجتماعية، أو في غيرها من تخصصات العلم الاجتماعي عموماً. وكان التدريب الميداني مجالاً لالتقاط وفرز الباحثين الموهوبين وفرصة لاختيار موضوعات لرسائل الماجستير والدكتوراه لطلاب الدراسات العليا (من المعيدين والمدرسين المساعدين وغيرهم) ممن يرافقون الرحلة الميدانية التي يقودها أستاذ أو عدد من الأساتذة.

وطبيعي أن هذا الأسلوب العملي قد شهد تراجعاً حاداً في العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة نتيجة عوامل متعددة، من أبرزها قلة الموارد المالية المتاحة للإنفاق على مثل هذه الأنشطة المكلفة (من انتقالات، وإعاشة، ومبيت... إلخ) وكثرة عدد الطلاب في جميع الكليات وفي كل التخصصات. وهذا بالطبع فضلاً عن قلة أعداد أعضاء هيئة التدريس المؤهلين للاضطلاع بهذا النشاط التعليمي الأساسي والمهم في نفس الوقت.

ولهذا أعتقد أن إخراج مجموعة من الأعمال العلمية والمتميزة عن مناهج وطرق العمل الميداني في العلوم الاجتماعية - وهو الأمر الذي يكرس له نفسه مشروعنا هذا - سوف يسهم جدياً في تلافي هذا النقص الخطير في تأهيل طلابنا، خاصة في مستوى الدراسات العليا، للقيام ببحوثهم الميدانية بالكفاءة المرجوة أو قريباً منها.

التوجه النقدي الإنساني لهذا العمل

بعيداً عن دروس تعليم البحوث الكيفية، وعن استعراض الأسس والقواعد العلمية الواجب اتباعها، والتميز الواضح في معالجة كل ذلك بأسلوب شديد الوضوح؛ بعيداً عن كل هذا يكشف لنا الكتاب ثراء إنسانياً هائلاً يغمر كل صفحة من صفحاته الكثيرة. وهذا التوجه الإنساني الصريح - الناجم عن توجه نقدي قوى ومستنير - يتجلى في:

• بداية فى الدفاع عن حقوق المبحوثين- فى أى زمان ومكان - فى أن يُسمع صوتهم، وتتاح لهم فرصة التعبير عن مكنون عواطفهم وآرائهم تجاه البحث ونتائجه، وتجاه الباحث وأساليبه.

• الدفاع المباشر الصريح دون أدنى موارد عن الفئات المهمشة أو المقهورة التى تم التعتيم على آرائها ومشاعرها دهوراً طويلاً، وأن الأوان لكى تخرج إلى السطح وتتسم مشاعر الحرية والمساواة: المرأة، والسود، وذوى الاحتياجات الخاصة، والمهاجرين (الأجانب) فى كل مجتمع، والفقراء، والمهمشين... إلخ.

• يتطلب تبنى هذا التوجه النقدى الإنسانى ليس فقط كل هذا الحرص فى تخطيط المشروع البحثى أو تنفيذه، وإنما يفرض على الباحث أن يناقش النتائج التى توصل إليها مع مبحوثيه الذين تدور حولهم تلك النتائج وتتحدث عن حياتهم. إنهم خير من يعرف إن كان الباحث قد أصاب كبـد الحقيقة، أم أنه حاد عن جادة الصواب. ومن خلال مثل هذا الحوار يتم تصحيح النتائج فتزداد رسوخاً وقوة وبالتالي فعالية على صعيد الواقع. فى التقرير النهائى للبحث لا يجوز للباحث أن يتكلم نيابة عن الناس (الذين درسهم)، وإنما الناس هم الذين يتحدثون عن أنفسهم. وسوف أستعرض كل موضوع على حدة فيما يلى.

البحث الكيفى شراكة بين الباحث والمبحوث

ينطلق الكتاب الذى بين أيدينا من تصور كيفى لعملية البحث الاجتماعى تتسم بعدة ملامح بارزة، يأتى فى مقدمتها أن عملية توليد البيانات وبناء المعرفة هى شراكة وجهـد تعاونى بين الباحث والمبحوثين، على نحو ما سنطالع تفصيلاً فى كل فصول الكتاب.

لهذا يجتهد الكتاب أن يبرهن لنا- فى كل مناسبة ممكنة- على أن الحقيقة التى يلتزمها الباحث فى العلم الاجتماعى لن تتولد إلا بالمشاركة بينه وبين مبحوثه (أو مبحوثيه). وعليه أن يدخل كيانهم ومشاعرهم وآراءهم وخبراتهم وتصوراتهم فى الحساب فى كافة مراحل البحث: منذ تصميم خطة البحث، مروراً بعمليات جمع المادة، وتصنيفها، وتحليلها، وحتى كتابة التقرير النهائى.

المبحوث هنا إنسان كامل الأهلية وصاحب حقوق مقدسة وكيانه مساو لكيان الباحث، وهو شريك في توليد المعرفة لأنه شريك في صنع حياته، أو هو يسعى - على الأقل - إلى ذلك لأنه يعي به تمام الوعي. ولا يقتصر الأمر على عملية البحث، وإنما تكون مسألة الانتفاع بنتائجه من الأمور التي تهتمه كما تهتم الباحث، لأنه شريك في صنع تلك النتائج، لذلك يتعين أن يكون له رأى في تطبيقها.

هذا علم حر لأناس أحرار، ولذلك قد يبدو بعض الكلام الذي يحويه هذا الكتاب بين دفتيه عجيباً أو مثيراً للتساؤلات، أو حتى جديداً، لأننا كباحثين في دول عالم ثالث ننظر إلى الناس من عل، فلا يكفى تعالى حكامهم عليهم، وإنما نشارك نحن برؤيتنا الوضعية في قهرهم كبشر. هذا الكتاب دعوة تنويرية للدفاع عن كل المبحوثين من المهجورين، سواء وقع القهر عليهم من المجتمع أو من المشتغلين بالبحث الاجتماعي.

إذا كان المشروع البحثي يمثل عملاً تعاونياً يشارك فيه الباحث المبحوث، فإنه يترتب على هذا التصور إثارة مشكلة القوة بين الطرفين "المشاركين" في توليد المعرفة (أي المشكلة السياسية)، والحاجة إلى التأكيد على اقتسام السلطة داخل الموقف البحثي برمته: منذ وضع الخطة، وحتى كتابة تقرير البحث. وهو ما يسميه الكتاب "الطابع التعاوني الكلي الشامل".

هذه نظرة تختلف اختلافاً حاسماً مع الموقف البحثي الوضعي، الذي لا يرى في الفرد المبحوث سوى رقم من بين أفراد العينة، ولا يخطر ببال ذلك الباحث أن يستمع لمبحوثه أو يتعمق في فهم همومه ومشكلاته وسبر أغواره خارج نطاق أسئلته المحددة... فتلك المسائل ليست مطروحة لديه أصلاً. هو وراء المعلومة، يريد أن يقتنصها اقتناصاً ولا يبغى بعد ذلك شيئاً من المبحوث. فالباحث هو الذي سيقوم بعملية "تأويل" إجابات ذلك المبحوث، وهو الذي سيؤطرها ويحللها ويفسرها، هو وحده متعهد بتوليد المعنى والحديث نيابة عن كل مبحوثيه.

ولاشك أن أوهام الوضعية هي التي تصور للباحث فهمه لنفسه على هذا النحو المغلوط، فهو العارف، "والآخرون" (المبحوثون) هم مجرد مادة،

وهو لا يريد زيادة عما فى استثمارته ولا أنقص منها.. ويسمى ذلك انضباطاً وضبطاً منهجياً. وهذا التصور خلاب فعلاً فى كل البدايات الأولى لنشأة المنهج العلمى الاجتماعى، بعد ما كانت الكتابة عن البشر - أو عن تطور المجتمع - تتم فى الماضى فى غرف مكاتب وثيرة دون إقامة أى صلة أو احتكاك مع هؤلاء الناس الذين نتحدث عنهم وننظر لهم. وهذه هى فئة علماء الاجتماع فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذين كانوا يسمون Armchair Sociologists (وهو ما يعنى علماء الاجتماع من فوق الكراسى الوثيرة، أو ما معناه العلماء المكتبيون الذين لم ينزلوا أبداً إلى الناس الذين يكتبون عنهم).

فى ضوء ما تقدم يهجر الكتاب الذى بين أيدينا أو يكاد - استخدام مصطلح المبحوثين. فمنظوره الديموقراطى إلى عملية البحث يحارب كل ما يُشتَم منه تسلط الباحث على مبحوئه أو مبحوثيه. فهم الذين يعرفون وهم الذين نريد "سماع صوتهم" فى تقرير البحث، بل هم الذين يتعين - مثالياً - أن نعرض عليهم نتائج البحث لإقرار مدى صدقها فى التعبير عنهم.

هم - إذن - شركاء فى البحث أو مشاركون فى البحث Participants، وليسوا مبحوثين، هم فاعلون وليسوا مفعولاً بهم. وقد رأينا أن استخدام كلمة مشاركين أو "شركاء" وحدها قد يوحى للقارئ العربى بأنهم باحثون آخرون زملاء للباحث، فيحدث التباس يدمر الهدف كله من العرض. ولذلك ترجمنا الكلمة - كلما كان ممكناً - بالمبحوث والمبحوثين، وتركناها فى عدد كبير من المواضع كما وردت: أى "مشاركين" أو "الأفراد المشاركون" وكتبنا بجوارها بين قوسين (المبحوثين). ونعتقد أننا نكون قد نقلنا بأمانة وجهة نظر المؤلفتين إلى طبيعة العلاقة المنشودة بين الباحث والمبحوث فى المشروع العلمى الكيفى.

المهم أن هذه النظرة تلغى بقوة وبإصرار أى وضع متفوق للباحث على مبحوثيه، هو "لا يملك" الحقيقة، وإنما هذه الحقيقة لدى أولئك المبحوثين، وهو "يتعاون معهم" فى الكشف عنها. بل إن عليه أن يعرض عليهم ما انتهى إليه من نتائج: "ولو فرض أننى أمارس شكلاً من أشكال الصدق التواصلى،

فربما أطلب من الطلاب الذين قمت بمقابلتهم (المبحوثين) فى بحث أن يعلقوا على نتائج بحثى. هل يوافقون على تفسيرى للمقابلات التى أجريت معهم؟ وماذا يكون إذا لم يوافقوا؟ إلخ".

وكما أن ممارسة عملية البحث الكيفى تتجذر فى إيمان راسخ بالعدالة الاجتماعية، كذلك هى تتوسل إلى تحقيق غايتها - وهى إنتاج معرفة ذات معنى - بممارسات بحثية ذات طبيعة ديموقراطية حقيقية.

فمن مبادئ ممارسة البحث فى التاريخ الشفاهى - مثلاً - العمل على هدم تمركز السلطة فى الموقف البحثى (تقليدياً فى يد الباحث)، والحرص على اقتسام تلك السلطة مع المبحوث. فقد ظل الباحثون - على امتداد التاريخ - يحظون بوضع فوقى بالقياس إلى المبحوث. وذلك باعتبار أن الباحث هو الطرف العارف، وهو الذى كان يحتكر السيطرة على عملية البحث وعلى المعرفة الناتجة عنه.

ثم جاءت الممارسة العلمية المعاصرة للتاريخ الشفاهى لتعلمنا "أن المبحوث له من الخبرات الحياتية، والأفكار، والمشاعر ما يمكنه أن يساعدنا على أن نفهم الحقيقة الاجتماعية، أو نفهم جانباً منها على أفضل وجه. أى أن لدى هذا المبحوث معرفة متميزة ذات قيمة عالية. وهذا الراوى - وحده - هو الذى يعرف قصته الشخصية، ومن ثم فإنه يؤدى دور الراوى. وبهذا تتيح طريقة البحث هذه للمبحوث أن يحتفظ بسلطته على معرفته أثناء جمع البيانات...".

من هنا نستطيع أن نفهم دعوة بعض المشتغلين بالتاريخ الشفاهى (من الناشطين الاجتماعيين خصوصاً) إلى اقتسام السلطة أثناء مراحل المشروع البحثى كلها من أجل الإنتاج الديموقراطى للمعرفة، والذى يمكنه أن ينفع الجماعات التى غالباً ما نجرى بحثنا من أجلها، وبأقصى درجات الفعالية والتأثير.

يتضح من هذا العرض أن مثل هذا النوع من البحوث التى يروج لها هذا الكتاب تتطلق من مواقف مبدئية، بعضها أخلاقى، وبعضها سياسى، وكثير منها علمى... إلخ. وقد تكرر التأكيد - فى غير موضع - على أن من أهم

منطلقات البحوث الكيفية أن الباحث لا يملك وحده الحقيقة، ليس لقصور فيه أو لنقص ما، وإنما لأنه لا يملك اليقين. إنها دعوة إلى التواضع الأخلاقي والعلمي في نفس الوقت.

ولو نجح مثل هذا الكتاب في أن يقنعنا بقيمة التواضع الأخلاقي والعلمي، فإنه بذلك يبنى حجراً مهماً في صرح نهضة مجتمعنا.. المجتمع الذي يعاني من سيطرة الاتجاهات المتطرفة على كل صعيد، في الدين، كما في السياسة، ثم في العلم أيضاً. فالتطرف عدو البحث الكيفي لأن المتطرف يدعى امتلاك اليقين، فهو - إذن - يملك الحقيقة. والبحث المتطرف (هو هنا الوضعي التقليدي) يدعى هو الآخر امتلاك اليقين، ويعرف أن الحقيقة موجودة، وأن كل ما عليه هو أن يبادر إلى التفتيش عنها والإمساك بها. البحث الكيفي ليس اختراعاً هبط على تلك المجتمعات من السماء، وإنما هو ثمرة طبيعية لمجتمع يريد أن ينفذ عن نفسه غرور القوة وتطرف الرؤية إلى العالم.

البحث الكيفي صوت من لا صوت لهم

استفاضت مؤلفتا الكتاب في بيان أن الطرق الكيفية هي الوسيلة الأساسية لإسماع صوت من لا صوت لهم، أو الذين قهرتهم مجتمعاتهم وحجبت أصواتهم عن الآخرين، أو حجبت الدارسين منهم عن تناول الكيفي لشئون الحياة الاجتماعية. من هم هؤلاء المقهورين الذين لم يكن يُسمع صوتهم حتى سنوات قريبة. إنهم في مجتمع مؤلفتي الكتاب: الملونون، والشواذ، والنساء، والمهاجرون، والأقليات العرقية، وكذلك نحن أبناء العالم الثالث (الأقليات الثقافية)، وكل أصحاب التوجهات المناوئة للتيارات السائدة عموماً... إلخ.

وقد يبادر أحدهم إلى القول: إذا لم يكن في بلادنا كل هذه الفئات، فليست بنا حاجة إلى بحث كيفي يأخذ بالتوجهات النقدية ويؤمن بالتعددية الثقافية. ولكني أشدد إننا إن فعلنا هذا وخلصنا إلى هذه النتيجة، فنحن نحرم أنفسنا من رؤية جوهر الكلام المعروض علينا وضاع منا معناه. ففي

مجتمعاتنا من المهمشين والمقهورين أكثر مما فيها من الميسورين أو حتى من يحصلون على حقوقهم. ففي بلد كمصر يندرج ضمن هذه الشريحة- على أقل تقدير ومع إعمال حسن الظن- نصف السكان الذين يعيشون على أرضها. ولا حاجة إلى القول بأن هناك عشرات البلاد - حولنا أو على مسافات منها - تضاهينا وتزيد عنا في نسبة المهمشين والمقهورين من أبنائها.

ولكن ليس لأحد أن يخاف أو يستشعر أى حرج: نحن لن نبث فيهم وعيا جديدا، أو نحثهم على التمرد على وضعهم، أو ندافع عن قضيتهم. ليس هذا هدف مؤلفتي الكتاب ولا هدف مترجميه، إنما القصة ببساطة هي: دعوة إلى النظر إليهم- عند إجراء بحث اجتماعي علمي- كبشر، ومعاملتهم على هذا الأساس، واتخاذهم شركاء لنا في عملية بناء المعرفة.

فممارسة البحث الكيفي تستند إلى جذر راسخ يؤمن بالعدالة الاجتماعية ويمارسها على أرض الواقع. وعلى رأس الفئات المهمشة في أى مجتمع- ولكن في مجتمعاتنا العربية بشكل أخص- تأتي المرأة. ومن شأن تبني أساليب البحث الكيفي بتوجهاتها الإنسانية التي أوضحناها أن يسمع الناس صوت النساء، وأن تتقدم الدراسات النسوية ويتقوى مركز الباحثات النسويات.

وقد يرد البعض- مدافعا - بالإشارة إلى حجم الدراسات التي أنجزت عن أوضاع المرأة وقضاياها ومشكلاتها، وربما لافتا إلى أن عددها ليس بالقليل. ولكن حقيقة الأمر أن الغالبية الغالبة من مثل هذه الدراسات كانت تتم من منظور ذكوري يرتبط حتما بالهيمنة والاستعلاء، هيمنة الباحث على المبحوث واستعلائه عليه. أو يتم من منظور طبقي اجتماعي لا يرى من النساء سوى نساء الطبقات العليا. ليس هذا فحسب ولكن المنظور المستخدم وطبيعية المشكلات التي تعالجها تلك الدراسات لم تكن تخدم في النهاية سوى تأكيد تبعية المرأة ودونيتها، وبالتالي تساعد على الاستمرار في هضم حقوقها. ولعلنا نكتفى في هذا الصدد بالإشارة إلى عمل المرأة داخل المنزل، وكيف أن جميع الأطراف البحثية التي تناولته- بدءا من أجهزة الإحصاء والتعداد الرسمية مروراً بالبحوث الأكاديمية وانتهاء بالكتابات شبه العلمية- لا تدرجه ضمن أنواع العمل الذي يحقق قيمة اقتصادية مضافة، ولا تعطيه بالتالي أى

وزن بين أرقامها، وبذلك تغفل إسهاما اجتماعيا اقتصاديا للنساء، لو أنه أخذ حقه من الدراسة الموضوعية لكان إسهاما حقيقيا في إنصاف المرأة^(*).

ويأخذنا الكتاب- الذى بين أيدينا- إلى عالم السرد الشفاهى فى المقابلة، وتأثره الواضح بالأساليب الذكورية فى الحكى، وكذلك تبنيه أساليب الحوار والتواصل السائدة فى الطبقتين الوسطى والعليا. يقول الكتاب: " فى عالم يسوده الرجل، تكون أشكال التواصل الذكورية هى الأشكال المعيارية، كما يفترض فى التعبيرات المستخدمة فى التواصل والحوار- التى تختلف عن هذا النموذج- أن تكون أقل حظا فى القبول والاعتراف. والمقابلة الكيفية ليست محصنة من تأثير الثقافة التى تمارس فيها. لذلك نجد أن الوسط الأكاديمى ما يزال غارقا فى الأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع بناء المعرفة. بل إن طرق البحث اللاوضعية نفسها مازالت متأثرة بالأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع اللغة، واللغة تتضمن إجراء المقابلة الكيفية.

إن ما يحتاج إلى تغيير فى مقابلات التاريخ الشفاهى - مثلا - مع النساء هو إطار التواصل والحوار، وليس المرأة. فقد ظهرت طريقة إجراء مقابلة التاريخ الشفاهى، والمتأثرة بارتباطاتها بالتاريخ الأكاديمى وبممارسة أسلوب المقابلة بصفة عامة؛ ظهرت وتطورت داخل سياق نظام التواصل الاجتماعى الذكورى. ونظراً لأن الكلام الذكورى يكون هو المعيار المتبع فى هذا العالم الذكورى، فإن أى نوع آخر من الكلام يُعد فى رتبة دون هذا المعيار.

ونظراً لأننا منغمسون كل الانغماس فى ثقافتنا، فإننا معتادون على الأشكال الذكورية فى الحوار والتواصل (ولا ريب أن هذا المعنى يمكن التوسع فى فهمه ليستوعب ذلك التفضيل الذى تحظى به كافة المثل الاستعلائية التى تتكلم من موقع الهيمنة، ومنها أساليب الحوار والتواصل السائدة فى الطبقتين الوسطى والعليا البيضاء اللون). لذلك فإنه لكى نؤدى دورنا فى

(*) ويرجع الفضل إلى بحوث المرأة التى جرت على امتداد ثلاثة عقود تحت إشراف علياء شكرى، وما تمخض عنها من رسائل للمجستير والدكتوراه تبنت جميعها منظورا معاصرا جديدا لقضايا المرأة استطاع أن يتجاوز الأطر التقليدية..

تمكين الآخرين من رواية حكاياتهم، يتوجب علينا أن نكون لَمّاحين للتنوع الموجود في أساليب الحوار والتواصل وفي أشكال السرد أيضاً، بما يتضمنه موقفنا هذا من إمعان النظر في مدى ما لثقافتنا من تأثير على ما عندنا من مسلمات تتصل "بمواصفات الطريقة السليمة التي يروى بها المرء حكايته".

ويوضح لنا كثير من العلماء أنه عندما نكون منخرطين في هذه العملية فإننا سوف نواجه بالفروق أو الاختلافات الموجودة في أساليب التواصل والقائمة على أساس النوع الاجتماعي. فالنساء بصفة خاصة، وباعتبار أنهن فاعلات يستوعبن نظام اجتماعي عام، فإنهن يتحاورن أو يتواصلن فيما بينهن على نحو مختلف عن الرجال. زد على ذلك أن أساليب التواصل النسائية لم تحظ بعد بالاعتراف من الأوساط الأكاديمية ولا من المجتمع بصفة عامة. وعلى هذا يتوجب على الباحث، عند قيامه بإجراء مقابلات مع النساء، أن يفهم عملية الحكى التي تتبعها المرأة المبحوثة في المقابلة وأن يعترف بها".

ولكن بعيداً عن قضايا الذكورة والنسوية التي قد لا يجد فيها البعض مشكلة حقيقية، ويعدونها مشكلة "مستوردة" لنا من الخارج (رغم أنها ليست كذلك وإنما هي مشكلتنا بحق).. بعيداً عن كل ذلك لنتأمل موقف البحث الكيفي الملترم اجتماعياً وسياسياً من مشكلة مصرية "صميمة" ليست مستوردة وليست مفتعلة، وهي ليست محل خلاف من أحد؛ وأعني مشكلة أطفال الشوارع الذين تجاوزت أعدادهم المليونين ونصف المليون، من شتى الأوساط، والمناطق، والأعمار... إلخ، يوجه إليهم المجتمع أصابع الاتهام في اقتراف عشرات الأنواع من "الجرائم"، رغم أن المجتمع هو الذي "أجرم" في حقهم، حينما خلق بعض الأوضاع والظروف التي تقذف بهذه الأعداد الهائلة إلى الشوارع.

على أية حال نحن لسنا في موقف الحساب - العلمي والسياسي - ولا يتسع المجال للخوض فيه، ولكننا ننبه إلى إجماع كل الكتابات - العامة والعلمية المتخصصة - على فشل كل ما نفذ من حلول وإخفاق كل عمليات مواجهة هذه المشكلة، بل تحولت بعض مؤسسات إيواء أولئك الأطفال إلى "مدارس لتعليمهم فن الإجرام من مستوى أعلى". هل فكرنا في "استشارة" هؤلاء "المجرمين الصغار" في الحلول التي ندبرها لهم؟ هل سمعنا منهم

تصوراً لما يريدون هم لإصلاح أحوالهم، ولتصالحهم مع المجتمع؟ هل تجرأ بعض باحثينا وسألهم حتى عن سبل إصلاح دور الإيواء؟ هل سمعنا منهم عن طلباتهم من أسرهم؟ هل تحدثنا معهم عن إمكانيات إيوائهم في أسر بديلة غير أسرهم الأصلية المأزومة؟

عشرات الأسئلة والحلول والبدائل كان يمكن مناقشتها معهم كجزء من البحوث التي تجرى عن أطفال الشوارع. ولكننا لم نفعل لأننا نتبنى طول الوقت نظرة وضعية عفا عليها الزمن تجعلنا نحن ملاك الحقيقة، أو نحن القادرون على امتلاك الحقيقة. وبديهي أننا نعرف ما في صالح هؤلاء الصغار أكثر مما يعرفون هم. أليست تلك هي نظرية "المستبد العادل" بأوضح تجلياتها، الذي يعرف الخير لأهله بأكثر مما يعرفونه هم لأنفسهم!!

هنا أذكر البعض بحقيقة أن من أهم وأبرز سمات أطفال الشوارع سعة الخيال، والرغبة في كسر المألوف والخروج عليه، والتطلع إلى عوالم وخبرات أخرى، وحب المغامرة... إلخ. ألا يستحق أصحاب هذه السمات أن نسألهم عن رؤيتهم لما نعدده لهم من حلول لمشكلاتهم؟

ونحن لسنا ملزمين بالتفكير في حلول "حكومية" لمثل هذه المشكلة الضخمة، حقيقة أن المشكلة برمتها هي إفراز لكثير من السياسات الحكومية الفاشلة، ولكن الحكومة لم تعد تملك من الإمكانيات - بعد أن تخلت عن الكثير من مسؤولياتها وممتلكاتها - ما يتيح لها الإسهام في تمويل أى حل. الحلول إذن في رقبة المجتمع المدني، وهذا المجتمع المدني هو أداة المجتمع المصري كله للمواجهة. ومن هنا فهو يحتاج إلى بحوث كيفية ديمقراطية إنسانية تيسر فكره وترشد قراره وتشد إرادته وتعبئ موارده للمواجهة.

هذا درس من أهم الدروس التي نتعلمها من هذا الكتاب الذي صدر بلغة أجنبية، في بلاد بعيدة، عن مجتمعات غريبة عنا، ولكن إنسانيته وبصيرته هي التي يمكن أن تعلمنا كيف يمكننا أن نحسن التفكير في مشكلاتنا على أساس من العلم الجديد.

تحليل المضمون الكيفي

لا تعرف الغالبية العظمى من الباحثين الذين يستخدمون طريقة تحليل المضمون في دراسات العلم الاجتماعي في بلادنا (خاصة علم الاجتماع،

ودراسات الاتصال والإعلام)؛ لا تعرف سوى طريقة تحليل المضمون الكمي. ويقدم هذا الكتاب أوفى وأدق وأشمل عرض- منشور حتى الآن باللغة العربية- للأسلوب الكيفي في تحليل المضمون.

وفضلا عن ذلك يتميز هذا العمل بإنجاز مهم في حقل دراسات مضمون المادة الغزيرة على شبكة الإنترنت. فقد شهدنا مؤخرا اندفاع عدد غير قليل من الباحثين - في علوم: الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والاتصال- إلى إجراء دراسات تحليل مضمون للمادة التي تراكت، وتتجدد كل ساعة، على مواقع الإنترنت، سواء في قاعات الدردشة، أو على الفيسبوك، واليوتيوب... إلخ. ويقدر ما أتيج لي متابعة بعضها، وجدتها تتعثر منهجيا في التعامل مع هذه المادة الافتراضية، بل ومعاملتها أحيانا بوصفها مادة واقعية. هذا فضلا عن ضعف الدراية عموما بأساليب تحليل المضمون الكيفية. ويقدم كتابنا هذا دراسة منهجية منظمة ومفصلة لخوض غمار هذا الميدان الجديد والمهم من ميادين البحث العلمي الاجتماعي.

تلك لمحات سريعة عن بعض جوانب ومبررات أهمية العمل الذي بين أيدينا، من المؤكد أن القارئ سوف يكتشف المزيد منها عند مطالعته لكامل فصول الكتاب.

ولكن تبقى للبعض ملاحظات

حقا الكمال لله وحده، والجهد البشري يبقى دائما جهدا ناقصا يتطلب التصويب والاستكمال. ومسيرة العلم في التحسين والتطوير لم ولن تتوقف أبدا. وما أتوقف عنده هو أقرب إلى الملاحظات والتنبيهات، وليس التحفظات أو التصويبات.

• فهذا العمل يتبنى التوجهات المابعدية: ما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية، وما بعد الوضعية... إلخ. وقد سبق لكاتب هذه السطور أن أشار في أكثر من مقال وكتاب إلى أخطار التبنى الحرفي لهذه التوجهات المابعدية في مجتمعات لم تترسخ فيها أصول الحداثة ولا البنيوية ولا الوضعية. وأسمح لنفسى بالقول هنا إنه من الجهل الأخذ بمضامين تلك التوجهات المابعدية

وحدها ابتداء، واعتبارها بديلاً كافياً عن الحداثة والبنوية..... إلخ. ذلك أن البيئة التي أبدعت الاتجاهات "المابعدية" قد طبقت وهضمت ونفذت والتزمت بأصول تلك الاتجاهات أو سوابقها التي جاءت هي للثورة عليها. فمن يتبنى ما بعد الحداثة في مجتمع غربي معاصر هو نفسه سبق له تبني الحداثة وعاشها وتغلغل في عقله وقلبه.

ولكن لأن مثل هذا الهضم الكامل والالتزام الصارم من شأنه أن يخلق نوعاً من الجمود، أو قل المحافظة؛ ولأن الدينامية والتغير هي سنة المجتمع المتطور الذي لا يتوقف عن الحركة؛ لذلك جاءت هذه التوجهات "المابعدية" لتحرك الجمود وتغيير النظرة وتطور المعالجة، دون أن تعنى "كفراً" بالقديم أو تخلياً كاملاً تاماً عنه.

• وقد يذهب البعض إلى التساؤل: أليس من الأجدر أن يكون كتاباً أساسياً في طرق البحث الاجتماعي باللغة العربية موضوعاً بقلم عالم عربي استخلص خبراته وتجاربه من مجتمعه العربي؟

لا جدال أن الحق أحق أن يتبع، بمعنى أننا ندرك ونوافق على أن العمل العلمي التعليمي - خاصة في مجال البحث العلمي الاجتماعي - من الواجب أن تكون استشهاداته وأمثله ونماذج مستمدة من بحوث عربية، عن مجتمعات عربية، باعتبار أن الكتابة موجهة إلى قراء للعربية. ولكن تأليف مثل هذا الدليل المنهجي العربي لا يمكن أن يتم إلا بعد الإحاطة الكاملة والاطلاع الجيد على مثل هذه الأعمال الكبرى في التراث العالمي، التي يعد كتابنا المترجم هذا واحداً من أهم معالمه. ومعنى ذلك أن تقديم عمل عربي منهجي حديث يحتاج أولاً إلى مراجعته التراث والإفادة منه واستخلاص ثمراته الموضوعية. وهذه المهمة تبدأ - إذن - بما فعلناه، أن ننقل تلك الأعمال الكبرى إلى العربية لإتاحتها للباحثين والكتاب والأكاديميين العرب. فترجمة هذا الكتاب وكذلك الأعمال المنهجية الأخرى الصادرة ضمن هذه السلسلة تمثل بداية قصة النهضة المنهجية المنشودة في حقل العلوم الاجتماعية، وليست نهاية القصة.

• بل يمكن القول إن بعض نواحي تميز هذا الكتاب قد تكون هي نفسها مثاراً لبعض الجوانب الإشكالية عند ترجمته إلى العربية. فمجرد كون الكتاب - بحجمه الوفير هذا - يكرس نفسه كلية للبحث الكيفي، يمكن أن يصيب جانباً من القراء العرب - الذين لم تتح لهم فرصة كافية لمتابعة أحدث الاتجاهات المنهجية في العلوم الاجتماعية - أن يجدوا في كل هذا التوسع في دقائق البحث الكيفي حديثاً خارج الميدان الرئيسي لطرق البحث الذي عرفوه في مجالات تخصصهم: بحثاً وضعياً وكمياً في الآن معاً. وأعتقد أن القراءة المتأنية المستوعبة لهذا الكتاب كفيلة بإزالة هذا التخوف، والانفتاح على البحث الكيفي بوجهه الإنساني وروحه العصرية.

نظرة إلى المستقبل

خدمة البحث الكيفي وتطويره ونشره رسالة آمنت بها مؤلفتا هذا الكتاب. وهما تتطلقان في هذا من الإيمان بأن حقل الطرق الكيفية حقل دائم التغير نظراً لأن التوجهات النظرية الجديدة، كالتحول نحو ما بعد الحداثة ونحو النزعات واسعة النطاق التي تتجه لبناء مجتمع تتم عولمته ورقمنته بصورة متزايدة؛ هذه التوجهات النظرية الجديدة تطالب الباحثين أن يطرحوا أسئلة جديدة قد لا تطرحها طرق البحث التقليدية على نحو ملائم. فطرق البحث تتسم بالدينامية الواضحة، وهي ليست كيانات ساكنة ثابتة - كما سبق أن بينا - إنما هي تتسم "بالمرونة والقابلية الشديدة للتغير".

وتحدثنا المؤلفتان عن مشروعهما الجديد - تحت الطبع - لدراسة الطرق الكيفية الجديدة: "وتوجد في وقتنا هذا طرق كيفية بازغة (مستحدثة وقوية) قيد التأسيس تنتشر بين سائر التخصصات العلمية، وقد حاولنا الإشارة إلى بعضها في ثانيا كتابنا هذا. ونحن نسمى هذه الطرق "بازغة" emergent لأنها طرق جديدة أو صور مهجنة من تقنيات كيفية ثبتت صحتها بالتجربة. فتخيّل مدى ما يمكن لبعض هذه الطرق أن تقدمه لتواصل الإسهام في إثراء معرفتنا عن القضايا الاجتماعية المهمة. مثال ذلك، أن في كتابنا القادم بعنوان "الطرق البازغة في البحث الاجتماعي: النظريات، والطرق ومناهج البحث"^(٩).

(٩) Emergent Methods in Sociol Research: Theories, Methods and Methodologies.

نتكلم عن طريقة تُسمى: "بحثُ المذكرات اليومية" التي استحدثتها هايبرز Hyers، وسويم Swim، وماليت Mallet (٢٠٠٥).

وبموجب هذه الطريقة يحتفظ المشاركون في البحث (المبحوثون) بمذكرة يومية يُسجلون فيها أفكارهم، ومشاعرهم وملاحظاتهم عن موضوع معين. فتخيّل مدى ما يمكن لهذه الطريقة أن تسهم به في فهمنا لرعاية طفل أو شخص يعاني الموت لإصابته بالإيدز، أو فهمنا لخبرة المعيشة مع شخص مصاب بهذا المرض أو مثيله والتعامل مع ما يحدث كل يوم من التمييز في المعاملة (من محاباة أو تحامل). وهذه الطريقة مجرد واحدة من الطرق الكيفية الكثيرة البازغة التي ستواصل توسيع نطاق قاعدتنا المعرفية. وتواصل هذه الطرق تطورها لكي تعالج المخاوف، والأسئلة، والقضايا التي كشفت عنها المواقف النظرية والإبستمولوجية الجديدة. وبهذا الأسلوب يتأكد لنا بوضوح أن البحث الكيفي عملية كلية شاملة، ليس فقط في الممارسة العملية، وإنما كذلك من حيث تطورها، إذ يتم استحداث المزيد من الطرق لكي تقوم بعملها في إطار النظريات الجديدة".

وبعد: فهما كثرت النصائح وتعددت وتتوعدت الإرشادات، يظل البحث الكيفي فناً بقدر ما هو علم. وأعني أنه مهارة نكتسبها بالدرس والتعليم، ولكننا يجب أن نصقلها ونجودها بالممارسة والخبرات العلمية.

وفي مكان القلب من العمل الميداني - كيفيا كان أو كمياً - تأتي علاقة الباحث بمصدر مادته الأهم: المبحوث. وهذه العلاقة البحثية تتطلب - في كل الأحوال - قدراً كبيراً من حسن الإدراك والتدبير وبراعة الباحث في إجراء الحوار هي التي تفتح له مغاليق الراوي وتجعله يهب كل ما لديه عن طيب خاطر، إن لم يكن باستمتاع. فالمقابلة مثلاً ليست مجرد محادثة، ولكنها - فوق ذلك - حوار. ولا بد للمقابلة - كي تلقى نجاحاً - أن توهب الحرارة والتبادل الشخصي اللذين يوهبان للحوار. ونلفت النظر إلى أن ذلك لا يعني أن يفرض الباحث في التبسط والود حتى لا يفلت زمام المقابلة من بين يديه. ولا بد أن يبقى بعض من الطابع الرسمي، وإلا صعب السيطرة على الراوي المجيب وفقد الباحث الثقة. على الباحث أن يحافظ على التوازن بين: حد التعامل

الإنسانى الودود والتأكيد على أنه ليس أرفع من جمهور رواته، وحد التعامل الواضح من أنه فى النهاية لديه عمل لا بد أن ينجزه وبنجاح.

وتعبر المؤلفتان عن نفس المعنى بعبارة رقيقة ذات طابع أنثوى تقولان فيه: "فى الوقت الذى نزودك فيه ببعض "الخطوات" التى تدخلها فى حُسابك وأنت ماضٍ فى تحليلك، ينبغي ألا تتصور أن التحليل الكيفى يسير بطريقة تشبه الطرق الواردة فى كتب الطهى. إذ لا توجد طريقة صحيحة واحدة للقيام بالتحليل. فقد لاحظ سي. رايت ميلز C.Wright Mills منذ وقت مبكر، أن التحليل الكيفى إنما هو فى النهاية "مهارة عقلية". وكما تعلق ريناتا تش (١٩٩٠) فإن "التحليل الكيفى من الممكن - بل وينبغي - أن يمارس بأسلوب فنى، بل حتى بأسلوب "سلس"، إلا أنه يستلزم قدراً كبيراً من المعرفة المنهجية والكفاءة الفكرية". ويرى نورمان دنزين (٢٠٠٠) أنه يوجد "قن للتفسير". ويمكن أن يوصف هذا الفن بأنه انتقال من الميدان إلى النص إلى القارئ. وتتيح ممارسة هذا الفن للباحث الميداني بوصفه بناءً بارعاً ... أن يترجم ما حصله من معلومات فى صورة عمل نصي (مكتوب) ينقل هذا الفهم (فهمة للمعلومات) إلى القارئ".

محمد الجوهري

القاهرة أول يوليو ٢٠١٠

شكر وتقدير

في أثناء إعدادنا لهذا الكتاب تلقينا عوناً مشكوراً من عدد من الناس الذين دعموا جهداً. فشكراً لكثير من الأساتذة والباحثين الذين أطلعونا على "خلفيات" بحوثهم، ووقفنا منهم على حكاياتهم الشخصية عن عمليات البحث الكيفي التي اضطلعوا بها. كما ندين بكل العرفان للطلاب الذين درسوا معنا في كلية بوسطن وكلية ستونهيل، خاصة أولئك الذين درّسنا لهم مقررات عن طرق البحث الكيفي، لما قدموه لنا من إلهام ودعم مشكورين. ونود أن نشتمن العون البحثي الذي تلقيناه من الكثيرين.

نخص بالشكر من خريجي كلية ستونهيل كلا من لورا كيلى ولورين كوشي اللتين قامتا بإعداد الأقسام الخاصة "بمواقع الإنترنت المقترحة" الملحقة بكل فصل من فصول الكتاب. ونشكر كذلك من خريجي ستونهيل لورين ساردي لمساعدتها في استعراض المؤلفات المنشورة الخاصة بفصلي التاريخ الشفاهي وتحليل المضمون، وتعريفنا بالباحثين الذين أطلعونا على "خلفيات" بحوثهم التي عرضنا لها في فصول هذا الكتاب. ونتقدم بأعمق الشكر والاعتراف بالجميل لعدد من طلاب ستونهيل، نخص بالذكر منهم: بول ساكو ولورا ماكفي لجهدهما الفعال والقيم في تجميع مختلف أجزاء هذا الكتاب. فشكراً لكما بول ولورا على مساعدتكما في إعداد عرض التراث المنشور عن موضوعات الكتاب، وعلى جهدكما في تصميم النص، وتصحيح بروفاته، وكل الجهود التي بذلتها، بما ذلك طبيعتكما التي تتسم بالسماحة والمرح.

كما نشكر كل الشكر ما تلقيناه من عون من العاملين في كلية ستونهيل أساتذة وعاملين. نخص بالذكر منهم كلا من : بوني تروب وكاتي كونروي على إدارتهما برنامج الخبرة البحثية الميدانية لطلاب الليسانس (الصيفي)، وهو البرنامج الذي أتاح لنا فرصة الاستعانة بمساعدة بحثية من أوائل الطلاب على امتداد عامين كاملين. وشكراً لكاتي كونبوي نائب رئيس الشؤون الأكاديمية بالكلية، وكارين تالنتينو عميدة الكلية، لما قدمته من دعم لهذا المشروع ولمساعدتنا بمنح صغيرة وببعض لوازم المشروع. وشكراً لخبراء تكنولوجيا المعلومات بكلية ستونهيل: جاري هامون وجلين إيفريت، اللذان ساعدانا في

الجوانب الفنية لهذا المشروع، كأعداد الأشكال والرسوم البيانية الإيضاحية. ونود أن نقدم شكرا خاصا لستيفن فيدر خبير الاتصال بكلية بوسطن الذي عاوننا في إعداد الصور البيانية.

وتدين شارلين ناجي هيس بيبير بالفضل خصوصا لأفراد أسرتها لما أبدوه من صبر، وما قدموه من حب وتفهم طوال كل مراحل إعداد هذا الكتاب. لهذا تهدي شارلين هذا العمل لابنتيها المتميزتين: ساره ألكسندرا وجوليا آريل. وتود شارلين تقديم الشكر لزوجها مايكل بيتر بيبير (دكتوراه في الطب) لما قدمه لها من عون وتشجيع.

وتدين باتريشيا ليفي بأعمق الشكر لأفراد أسرتها وأصدقائها لما قدموه لها من عون ودعم، وما أبدوه نحوها من صبر وروح طيبة طوال فترة إعداد الكتاب. وتتقدم باتريشيا بالشكر خاصة لـ D. G. R. وتهدي باتريشيا هذا الكتاب لابنتها المتميزة مادلين كلير التي أسعدت كل يوم من أيامها وتذكرها الآن بأن "الأشياء الرائعة يمكن أن تتحقق". ونحن مدينون بالفضل لصديقتنا س. ديبورا لاوتون التي عاونتنا في إعداد المقترح الأولى للكتاب. كما نود أن نعبر عن تقديرنا للعون الجاد، والتشجيع، والنصح الذي تلقيناه من العاملين في دار نشر سيدج. ونخص بالشكر والامتنان كلا من : أليسون ماديت، وليزا كوفاس شو، وكارين ونج، وبيتر مكردي، ومارجوت بيت كروبين.

كما يستحق الشكر الوافر المراجعون التالية أسماؤهم لما قدموه من إسهام مقدر:

معهد بارك للاتصال بكلية إيتاكا	كمبرلي جريجسون
جامعة سونونا الحكومية	كاتي تشارماز
جامعة كلورادو الحكومية	كارين كامنسكي (دكتوراه الفلسفة)
كلية غرب ميسوري الحكومية.	مونیکا ناندين
جامعة نيو أورلينز	لويس باراديز (دكتوراه الفلسفة)

* * *

موافقات مشكورة

جميع الأشكال والرسوم الواردة في هذا الكتاب أعدت بطريقة مايكروسوفت، واستخدمت هنا وفقا لشروط استغلالها.

مقدمة الكتاب

ملاحظات على الجانب التعليمي للكتاب

البحث الكيفي ليس بالشيء الذي يمكن تعلمه من الشروح والكتابات المنشورة وحدها. إذ يعرف كل ممارسي البحوث الكيفية والأساتذة المتخصصين فيها أن المطلوب لفهم عملية البحث الميداني يتجاوز كثيرا جدا ما يمكن التقاطه أو تجميعه من أي قائمة لتوصيف طرق البحث. فالبحث الكيفي عملية معقدة تتضافر فيها - بشكل وثيق - كل من: نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا)، والنظرية، والمنهج. ولكي نيسر هذا الكتاب للطلاب والباحثين على السواء، ونمكنهم من الوقوف على كنه عملية البحث الكيفي، ضمنا كتابنا بعض الملامح والأدوات المتميزة.

واستلهاما لمفهوم إرفنج جوفمان المبتكر عن "مقدمة المسرح"، وخلف الكواليس؛ بدأنا ننبين أن المعلومات المتاحة في كثير من كتب طرق البحث إنما تمثل "مقدمة المسرح"، أو الواجهة الخارجية المعلنة والظاهرة لعملية البحث. إذ يمكن القول -بعبارة أخرى- أن الغالبية الغالبة من كتب طرق البحث تقدم تعريفات للمصطلحات والمفاهيم الأساسية متنوعة بتوصيف لكل طريقة من طرق البحث ولمختلف النماذج المعروفة لكيفية تصميم مشروع البحث. والأمر الذي يخفق مثل هذا الاتجاه في إدراكه هو الطبيعة المعقدة لعملية البحث الاجتماعي. وهو التعقيد الذي يظهر عندما نتساءل مثلاً:

- ما الذي يوجه الباحث في اختيار موضوعه؟
- كيف تؤثر المعتقدات الإبستمولوجية والالتزامات النظرية على عملية البحث؟
- ما هي القيم، والقضايا، والدوافع التي يحملها الباحثون معهم إلى مشروعاتهم البحثية؟
- كيف نتضرر الأخلاق أثناء الممارسة البحثية؟
- ما هي حقيقة الجوانب العاطفية لمشروع البحث؟

- لماذا يعمد بعض الباحثين إلى اختيار طرق بحث معينة، وكيف تمكنهم تلك الطرق من تنفيذ بحوثهم؟

ومحاولة منا لفهم بعض هذه القضايا والتساؤلات قمنا بإجراء مقابلات شخصية (مباشرة)، واتصالات عبر البريد الإلكتروني، وبواسطة الهاتف مع مجموعة متنوعة من الباحثين والأساتذة ذوي السمعة العلمية المتميزة. وقد ضمنا كتابنا هذا المادة التي حصلنا عليها منهم - وكثير منها فقرات كتبها أصحابها بأنفسهم - ويجدها القارئ في شتى الفصول مطبوعة داخل إطارات (براويز) تحمل عنوان "خلف الكواليس مع..."^(*). وتمدنا تلك "البراويز" (أو الأطر) بنظرة خاطفة على كواليس البحث الكيفي، فهي بمثابة نافذة على نقطة تميز الباحث الذي تحكي عنه.

وفضلاً عن فقرات "خلف الكواليس" لدى عدد من الباحثين، حرصنا على أن نضمّن كتابنا المواد التالية:

- مواقع مختارة على الإنترنت: بحيث يستطيع الطلاب والدارسون أن يتابعوا موضوعات البحوث التي تهمهم، وأن يتعرفوا على أحدث ما يصدر في ميدان البحث من أعمال.
- أسئلة للمناقشة: وهي أسئلة اقترحها وقام بتجربتها عملياً بعض طلاب قسم الليسانس بهدف الحفز على مزيد من التفكير في القضايا والمسائل الأساسية، وجماعات المناقشة المركزة، والتطبيق العملي لمختلف طرق البحث والتوجهات البحثية التي يعرض لها الكتاب.

(*) هذا التعبير ترجمة للتعبير المستخدم Behind the Scenes، وهو مستمد من عالم المسرح، ليشير إلى مراحل الإعداد والتدريب وتنفيذ الإضاءة والديكور... إلخ قبل فتح الستارة ليشاهد الجمهور العرض المكتمل. وكنت ميالاً في البداية إلى ترجمته: "خلف الستار"، أو "وراء الستار"، ولكنني صرفت النظر عنه سريعاً، لأنه يستدعي للذهن بُعد الإخفاء والستر، ثم أن المقصود - حتى لو أشرنا إلى المسرح - ليس ما وراء الستارة نفسها، وإنما كل ما يدور في الكواليس. ورغم حرصى الدائم على استخدام اللفظ العربي الصحيح - قدر الإمكان - إلا أنني وجدت تعبير "خلف الكواليس" هو الأكثر دلالة على المعنى المقصود. وذلك طبعاً بعد مشورة أساتذة المسرح الذين أقرأوا هذه الترجمة. (المراجع)

- تعريف بالمصطلحات: وقد قصدنا به ترسيخ معرفة الدارسين والطلاب بالمفاهيم الأساسية التي يحتوي عليها كل فصل.
- الأمثلة والنماذج المتعمقة: يجدها القارئ في كل فصل من فصول الكتاب، مثل المثال الرئيس عن دراسة صورة الجسد باستخدام طرق بحث مختلفة ومن أطر نظرية متباينة. وذلك بهدف أن يلمس الطلاب والدارسون كيف أن الأساليب المختلفة في تناول موضوع معين يمكن الباحث من أن يطرح أسئلة معينة، ويكتسب أنواعا معينة من الرؤى والفهم.

إننا نعتقد - بقوة - أن التعليم يستلزم أن يستغرق كل قارئ على عدة أصعدة مختلفة بمجرد أن يخطو خطواته الأولى داخل ميدان دراسي جديد، وكلنا أمل أن يفلح هذا الكتاب في تغذية روح المغامرة الكامنة داخل كل باحث. إننا نتصور أننا نأخذ قارئنا إلى رحلة عبر هذا الكتاب، رحلة تتحدى تفكيره، وتثير لديه عديدا من العواطف، وتزيد مهاراته الفنية والإبداعية، كما تنمي وتثري فهمه لطبيعة الواقع الاجتماعي.

فلنبدا الرحلة معا.

القسم الأول

نموذج البحث الكيفي

الفصل الأول

براعة البحث الكيفي

نظرة عامة وكلية

تَخِيلُ وبَاءَ يجتاح الكرة الأرضية، إلا أن هذا الوباء لا يُشبه أي وباء عرفه الإنسان من قبل. والمرَضُ المُسَبَّب لهذا الوباء له عواقب مُدمِّرة للجسم، كما أنه، وخِلافًا لكثيرٍ من الأمراض الأخرى، يتضمّن مرحلة كثيرًا ما يُشار إليها بوصفها مرحلة "المَيِّت الحي"، ومما يُؤسِفُ له، أنه لا يُوجدُ علاج لهذا المرض الذي يعصف بالقوة الجسمانية للمريض، وأن مُعدّل الوفاة يتزايد إلى درجة أن بعض المجتمعات تفقد أعداداً كبيرة من الأفراد. ولو ظل هذا المرض بلا علاج ناجع، فإن المُستقبل المُرتَقِب يبدو كئيباً. ولكن الأمر الذي يكمنُ فعلاً وراء هذا الانتشار المُدمِّر ومعدلات الوفيات العالية بسببه هو ما يجعل هذا المرض مختلفاً فعلاً عن غيره من الأمراض: وهو ما يرتبط بالإصابة به من دَلالات ووصمة اجتماعية، وهي الأمور التي تختلف باختلاف الثقافات. إذ يوجد وراء العواقب الاجتماعية غير المباشرة لهذا المرض مجموعة من الحقائق التعليمية، والصحية، والاقتصادية التي لا ترتبط بهذه الأمراض الواسعة الانتشار -كالسرطان مثلاً- ولكنها ترافق هذا المرض الذي يدوم طويلاً في كثير من الأحيان. زدّ على ذلك أن الأمر يصل إلى حدّ تَغْيُر الأبنية الأسرية بسبب هذا المرض، حيث تتعكس الأدوار، فيصاب الشباب بالمرض، ويكون من اللازم على كبار السن والأطفال أحياناً أن يعتنوا بالمرضى الذين يُعانون سكرات الموت. وليست تلك الظروف سوى القمّة الظاهرة لجَبَل الجليد. ولا شك أننا نعلمُ جميعاً أننا في غير حاجة لأن "نتخيل" مثل هذه الوباء، إذ أن لدينا فعلاً وباءً من هذا النوع هو: فيروس نقص المناعة لدى البشر، أو متلازمة نقص المناعة المكتسب (AIDS / HIV)، والذي لا توجد جَمَاعَة مُحَصَّنَة من الإصابة به.

والآن تَخَيَّلْ مدى الحاجة الملحة التي يستشعرها الباحثون في مختلف فروع المعرفة (العلوم الاجتماعية، والرعاية الصحية، والتعليم، والاتصالات) لبناء كيان متكامل من المعلومات عن هذا المرض بأنواعه ومراحله المختلفة، وهي معلومات تتضمن - من بين ما تتضمن - بُعدَه الاجتماعي والاستراتيجيات الفعالة للوقاية منه وللتدخل في علاجه. مثال ذلك، أن الأطباء قد توصلوا إلى معرفة كافية عن هذا المرض وعن انتقاله من شخص لآخر بحيث أصبحنا الآن مُدركين أنه مرض يمكن الوقاية منه. ولكن كيف يمكن توصيل هذه المعرفة بطرق مختلفة إلى الجماعات المختلفة الموجودة في شتى بقاع العالم؟ زدْ على ذلك، أنه بالرغم من طبيعة هذا المرض القابلة للوقاية منها، فإننا نواجه وباءً منتشرًا على مستوى العالم. وهذا الوضع يثير حَسَدًا من الأسئلة، منها مثلاً: لماذا يغامر بعض الناس بالتورط في سلوك جنسي محفوف بالمخاطر، وكيف تُشكّل الهوية الجنسية اتخاذ القرار الجنسي، وكيف يؤثر السياق الاجتماعي (من حيث: التعليم، والجغرافيا، والانحياز الجنسي للرجل، واشتراء الجنس المخالف) على العلاقات الحميمة للأفراد وعلى سلوكهم الجنسي؟ ولماذا يبدو أن التعليم الخاص بالأمراض التي تنتقل عن طريق الجنس لا يؤدي ثمرته؟ وهذه مجرد حفنة من الأسئلة القليلة التي تُثار عند محاولة فهم وباء الإيدز. وهناك المزيد من الأسئلة البحثية التي تُثار عند إمعان النظر في "الخبرة" (أي الإحساسات والمعايشات) الخاصة بمرض الإيدز، من وجهة النظر البدنية ومن وجهة النظر الاجتماعية. ومن هذه الأسئلة مثلاً: ما هو شعور المرء عندما تكون نتيجة الفحص المعملية إيجابية (أي عندما يتأكد من إصابته بالمرض)، وكيف يُشكّل التشخيص الإيجابي العلاقات الشخصية والجنسية للفرد المريض وكيف يُشكّل هويته، وما هي الخبرة اليومية التي يمر بها الفرد والناجمة عن هذا التشخيص الإيجابي فيما يتصل بالوصمة الاجتماعية المرتبطة بهذا المرض؟ هذا علاوة على موضوع الخبرة الخاصة برعاية الفرد من أحبّاء الإنسان المُصاب بمرض الإيدز، وهي الرعاية التي تختلف باختلاف الثقافات وتتضمن في كثير من الأحيان نوعاً من إعادة هيكلة الأسرة، وظهور بعض المشكلات المالية، وما إلى ذلك.

وتمثل الأسئلة السابقة مُجَرَّدَ طرفٍ من الأسئلة التي تُواجه الباحثين فيما يحيط بهذه القضية الاجتماعية. وليس بالإمكان طَرْحُ مثل هذا النوع من الأسئلة ولا الإجابة عنها إلا بالعمل من خلال النافذة الكيفية في بناء المعرفة. وهذه الأسئلة تبدأ بكلمات الاستفهام مثل "لماذا؟" و "كيف؟" و "ماذا؟". وهي تتطلب الحصول على معرفة معقدة تُسَمَّدُ مباشرةً من الأفراد الذين لهم صفات مُعَيَّنة أو خبرات حياتية مُعَيَّنة - أي معرفة بِخِبراتهم والظروف أو السياقات التي تؤثر على علاقاتهم بالآخرين، وعلى خِياراتهم السلوكية، وعلى اتجاهاتهم. ذلك هو نوع الأسئلة التي يمكن التوصل إلى إجابات عنها عن طريق الاتجاه الكيفي في البحث. وإلى أن يحين الوقت الذي نعوذ فيه إلى هذا المثال في الفصل الأخير، نأمل أن تكونوا قد أدركتم إلى أي مَدَى يتكامل البحث الكيفي مع معرفتنا بمرض الإيدز ومع كثير من القضايا المهمة الأخرى.

مقدمة

تقدم كثير من كُتُب البحث مجموعة من "الطُرُق" - أي وسائل أو أساليب جمع البيانات. ومع أن هذا الأمر يُعدُّ عنصراً مهماً في العملية البحثية، إلا أن الاختيار المناسب لطرق البحث لا يمكن أن يفصل عن الاهتمامات النظرية للباحث ولا عن تصوُّره لعملية بناء المعرفة. وعلى ذلك فإن هذا الكتاب يختلف عن مُعظم الكتب الأخرى التي تتناول طُرُق البحث في أننا نبدأ نقاشاً متعمقاً لعملية بناء المعرفة من منظور كلي. ويعني هذا أن نبدأ بمناقشة جميع جوانب عملية بناء المعرفة، والتي تُشكل طريقة جمع البيانات جانباً واحداً منها. أمّا الكلام عن طُرُق مُعَيَّنة لجمع البيانات قَبْلَ الكلام عن الفروض والمُسلّمات الخاصة بما يُمكن معرفته ومن هو العارف، وكيف نصل إلى المعرفة، فسيكون بمثابة وضع للعربة أمام الحصان. لذلك، وانطلاقاً من هذا التوجه العام سنعمد في هذا القسم الأول إلى مناقشة الاتجاهين الفكريين الرئيسيين في بناء المعرفة، ثم ندخل في مناقشة لتصميم البحث، والذي يتضمن اختيار طريقة جمع البيانات، ونختِم بعرضٍ لموضوع الأخلاقيات

والبحث العلمي. أضف إلى ذلك، أنه بالرغم من أن طرق البحث الكيفي تختلف عن بعضها البعض اختلافاً عظيماً، فإن الأمر الذي تشترك فيه المنظورات الفكرية التي يتناولها هذا الجزء، هو أنها تتأوى وجهات النظر الوضعية في بناء المعرفة. أمّا القسم الثاني فمُخصّص لدراسة متعمقة لبعض طرق جمع البيانات.

إن البحث الكيفي عبارة عن مجال فسيح رائع يقوم على تداخل فروع العلم، وهو مجال غنيّ بالمنظورات الفكرية إلى بناء المعرفة، كما أنه يستمد قوّته من استعماله لعدد كبير من الطرق والأساليب المتاحة لتوليد المعرفة. وتوفّر الممارسة الكيفية للمشتغلين بالبحث طائفة من الإمكانيات الإستمولوجية (أي المتعلقة بنظرية المعرفة)، والفكرية، والمنهجية. ونظراً لما تتسم به عملية بناء المعرفة من طبيعة كلية، فإن البحث الكيفي يكون بحثاً فريداً حقاً سواء من حيث المحتوى، أو بؤرة الاهتمام، أو الشكل. وحين نقول إن براعة البحث الكيفي تتضمن اتجاهاً فكرياً كلياً، فإننا نعني أن ممارسة البحث الكيفي ممارسة انعكاسية (أي نقدية)، وخاضعة للتطوير والتعديل أثناء العمل، وأنها تنتهي إلى إنتاج معرفة تحكمها الاعتبارات الثقافية وتشبّك بالأفكار النظرية من خلال تفاعل مستمر بين النظرية وطرق البحث من ناحية، وبين الباحث والمبحوثين من ناحية أخرى. وعلى هذا يتعين الإشارة على وجه الخصوص إلى أن البحث الكيفي يختلف عن نماذج البحث التي تركز على خلق المعرفة باستعمال نهج محدود وخاضع للأحداث.

وهذه الطبيعة الكلية لعملية البحث، والتفاعل القائم بين مراحلها، ابتداءً من مرحلة اختيار الموضوع وانتهاءً بكتابة التقرير النهائي للبحث، يجعلان البحث الكيفي - كما سوف نبين فيما بعد - منظوراً فكرياً فذاً وتطبيقاً مهماً. زد على ذلك، أن البحث الكيفي يزودنا بمعرفة تفسيرية أو تحليلية وذات مستوى عالٍ من القدرة على التصوير الدقيق، من حيث إنه يقلّل من التأكيد على أهمية النماذج والتفسيرات القائمة على علل مفردة، والتي سيطرت -تاريخياً- على عملية البحث في العلوم الاجتماعية.

فالبحث الكيفي - إذن - ليس مجرد مفهوم عام، أو مجرد مجموعة من الأساليب التي يسهل استعمالها، وإنما هو - فوق ذلك - مهارة عقلية، إبداعية دقيقة جداً، لا يكفي من يمارسها بتعلمها فقط بل إنه يسهم كذلك في تطويرها. ولكي نفهم ما يقوم به الباحثون الملتزمون بالبحث الكيفي، ونفهم المهارة التي تتصف بها هذه الممارسة، لا بد أن نكون - أولاً - قادرين على إدراك البحث الكيفي باعتباره حقلاً من حقول المعرفة يتسم بالطبيعة الخاصة المتميزة. ولتحقيق ذلك، لا بد من مقارنة الاتجاه الكيفي بنظيره الاتجاه الكمي وكشف وجوه التباين بينهما. ورغم وجود اختلافات وفروق نظرية وعملية كثيرة داخل حقل البحث الكيفي، فإننا سنفترض - مؤقتاً - أن الاتجاهين الكيفي والكمي وجهتان نظر عامتان مختلفتان - أي أن لكل منهما أسسه الخاصة التي ينهض عليها ويستمد منها وجوده، ولكل منهما طريقته المختلفة في طرح الأسئلة، وأسلوبه المتميز في التفكير. وإن وضع هذين التصورين الفكريين لبناء المعرفة بجانب بعضهما سوف يكشف لنا عن وجود علاقة شد وجذب بين الأسس الكيفية والأسس الكمية في البحث. ويظل هذا النزاع المتكرر بين هذين التصورين عنصراً دينامياً فيما يقدم عليه الباحثون من ممارسات عند اتخاذ القرارات بشأن إجراء بحوثهم. ومن خلال التمييز بين الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي سوف نشرح كذلك في تسليط الضوء على الإسهامات المتميزة للبحث الكيفي وخاصة ما يتصل منها بمفاهيمنا عن المعرفة وعن خلق المعرفة. فالبحث الكيفي - كما سنوضح فيما بعد - يقدم أسلوباً جديداً تماماً للتفكير في الواقع الاجتماعي وظواهره.

ولكي نبين الفرق بين البحث الكيفي والكمي، قد يكون من المفيد تقديم مثال إيضاحي على ذلك. وبعد أن نفرغ من الاستعراض المتعمق لهذا المثال، سوف نقوم بشرح الفروق الموجودة في الاتجاه الكيفي والكمي، من خلال إلقاء الضوء على الفروض والخيارات الأساسية الموجودة في ثلثي هذا المثال، وكيف أنها تعكس صراعاً تاريخياً بين ما يبدو عليهما أنهما طريقتان متباينتان للوصول إلى المعرفة.

الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي في دراسة صورة الجسد

كثيراً ما يُنظر إلى البحث الكمي باعتبار أنه يتميز بكونه علماً ثابتاً^(*) ينهض على أسس صلبة. فالباحثون الكميون يعتمدون على الأرقام، والمعدلات، والنسب المئوية التي جرت العادة على عرضها في جدول، و مخطط شبكي أو شكل بياني من أجل توصيل المعنى أو المدلول. (Hesse-Biber & Leavy, 2004, p.1).

ولإيضاح ذلك سوف نعمد إلى استخدام "صورة الجسد" كموضوع للبحث. وهنا قد يتناول الباحث الكمي موضوع صورة الجسد وعدم رضا بعض الناس عن أجسادهم عن طريق تصميم مسح اجتماعي مكون من أسئلة ذات خيارات متعددة، لكل سؤال منها عدد مُحدد من الإجابات الممكنة (وكثيراً ما يُستعمل هنا المقياس المأخوذ من النمط الذي وضعه ليكرت Likert).^(*) وحينئذ يتم توزيع استمارة هذا المسح، وهي أداة كمية، على عينة سبق اختيارها من المبحوثين لكي يستوفوا الإجابة على أسئلته. ويعتمد عمل الباحث على تمييز مجموعة من العوامل التي "تحدد"، أو تقيس، مدى استياء الفرد من صورة جسده، ثم تصميم الأسئلة المسحية التي تكشف عن البيانات الخاصة

(*) مقياس ليكرت Likert Scale: أسلوب واسع الاستخدام لقياس الاتجاهات. حيث يعرض على المستجيبين عدداً من البنود المصاغ بعضها صياغة إيجابية والبعض الآخر صياغة سلبية، والتي وجد أنها تميز - بأكبر قدر من الوضوح - بين وجهات النظر المتطرفة حول موضوع الدراسة. فعلى سبيل المثال، قد يتم مواجهة المستجيبين في دراسة حول الإدراك الشائع للعدالة الاجتماعية بعدد من العبارات مثل عبارة: توزيع الدخل في بلد ما يتسم بعدم العدالة، وعبارة: لكل فرد في مجتمعنا فرصة متساوية للحصول على تعليم جيد. ويطلب من كل واحد منهم أن يحدد كل عبارة في ضوء موافقته أو عدم موافقته عليها. ومن المألوف أن يتم تسجيل الاستجابات على مقياس ثنائي القطبية مكون من خمس درجات فئوية (أوافق بشدة، أوافق، لا رأي لي، لا أوافق، لا أوافق بشدة). ويتم ترميزها ١، ٢، ٣، ٤، ٥. ثم تجمع هذه الدرجات لكي تكون تقديرات مجمعة أو درجات اختبار أو قد يتم ربطها بمتغيرات أخرى أو تحليلها باستخدام التحليل العاملي، لكي تمثل مقياساً رقمياً أحادي البعد. انظر المزيد في موسوعة علم الاجتماع، تأليف جوردون مارشال، ترجمة محمد الجوهري وزملائه، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٣٨٤ (المراجع)

بكل مؤشر تم تمييزه من مؤشرات عدم الرضا عن صورة الجسد. بعد ذلك يعمد الباحث الكمي إلى عرض البيانات التي تضمنها هذا المسح في صورة إحصائية تظهر على شكل بياني أو رسم إيضاحي. ويقوم التفسير الذي يقدمه الباحث لهذه الإحصائيات على أساس نجاحه في تمييز مجموعة من المتغيرات التي تساهم في رضا الفرد عن صورة جسده.

مثال ذلك، أن بانفيلد Banfield وماكيب McCabe قاما بالبحث عن تعريف دقيق لمصطلح صورة الجسد، وتوصلا إلى البيانات المتعلقة بالأبعاد الخاصة بصورة الجسد (Banfield and McCabe, 2002, p. 373). ووفقاً للأهداف التي حددها لبحثهما، وضعا مسحين مُصنَّمين لقياس أربعة عوامل افتراضاً سلفاً أنها تكون صورة الجسد لدى صاحبه (انظر بحثهما: ٢٠٠٢، صفحة ٣٧٣). وبناءً على ما قاما به من مراجعة للمؤلفات المنشورة في هذا الموضوع، توصلا إلى تحديد أربعة عوامل رئيسية لصورة الجسد، هي:

(١) الإدراك الحسي،

و(٢) الاستجابة الانفعالية أو التأثير،

و(٣) المعرفة،

و(٤) السلوك.

كما اعتمد تحليلهما لهذا العمل فيما بعد على طرح أسئلة تهدف للوصول إلى البيانات الخاصة بكل بُعد من هذه الأبعاد على حدة. وقد جمعت هذه الأسئلة باستخلاصها من بين عشر أدوات لقياس صورة الجسد سبق البرهنة على صدقها (ص ٣٧٥). وكان هذا المقياس من نوع الأسئلة المقللة، كما اعتمد على "مقياس ليكرت" الذي يتأخ فيه للمبحوثين خمسة اختيارات ممكنة للإجابة. وقد قام بانفيلد وماكيب بتقديم ما توصلا إليه من بيانات في جداول إحصائية متعددة.

أما الباحث الملتزم بالاتجاه الكيفي فإنه يتناول موضوع صورة الجسد بطرق في غاية الاختلاف. مثال ذلك، أن الباحث الكيفي قد يكون مهتماً بإجراء مقابلات شخصية متعمقة مع الإناث اللاتي في سن الدراسة الجامعية بغية الوصول إلى فهم أفضل للكيفية التي بمقتضاها يشعرن بصورة الجسد،

وللطرق التي تشكّلت بها الهوية الجسدية عندهن، والتي مازالت تعمل على تشكيل حيواتهن. وفي مثل هذه الحال، يطرح الباحث الكيفي سلسلة من الأسئلة ذات النهايات المفتوحة عن الصورة الذاتية التي تراها هؤلاء الإناث لأنفسهن، مثل السؤال عن: كيف تبلورت وظهرت صورتهم الذاتية، وعما يرون أنه يمثل العوامل الثقافية والعلاقات الاجتماعية المهمة التي تؤثر على صورة الجسد عندهن، وما هي مواضع وتجليات الضغوط التي تمارسُ عليهن فيما يتصل بمظهرهن الجسدي، وما هي استراتيجياتهن السلوكية والانفعالية في التعامل مع إدراكهن لأجسادهن، وكذلك السؤال عما يرون أنه يمثل العوامل الجوهرية في حيواتهن الشخصية والمتصلة بالتصورات الإيجابية والسلبية للجسد. ولكي يفهم الباحث ما تضيفه الإناث من معنى على صورة الجسد في سياق ما يعايشنه من خبرات، فإنه ينطلق في بحثه من وجهة نظر أولئك الإناث محل الدراسة. فالباحث - بعبارة أخرى - يسعى للحصول على بيانات وصفية حيّة من هؤلاء المشاركات في البحث - فهن في رأيه أصل هذه البيانات، كما أنهن يؤثرن إلى حد كبير في تحديد نقاط التركيز والاهتمام أثناء جمع البيانات.

إن الباحث الملتزم بالاتجاه الكيفي والمهتم بدراسة كيف تفسر الإناث ذوات الانتماءات العرقية، والإثنية، والطبقية الاجتماعية المتعددة؛ كيف يفسرن صورة الجسد، وما هي العوامل التي يعتبرنها أساسية ومحورية في علاقاتهن بهوياتهن الجسدية وببيئتهن الاجتماعية. ولهذا يعمد مثل هذا الباحث إلى إجراء مقابلات مع جماعات مناقشة مركزة، وذلك من أجل سبر أغوار هذا الموضوع. وكجزء من دراسة كيفية واسعة النطاق عن صورة الجسد استعملنا طريقة المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، وغيرها من طرق المقابلات الكيفية الأخرى بغية الحصول على البيانات الوصفية الحيّة الخاصة بصورة الجسد من جهة نظر مختلف الجماعات، بما فيها الطالبات الجامعيات.

وقد أجرت هـس- بيير (١٩٩٥-١٩٩٩م) مقابلة مع جماعة مناقشة مركزة مكونة من طالبات في إحدى الكليات الإقليمية بغية فهم القضايا المتصلة بصورة الجسد عندهن وما يتعلق بها من آمال وتطلعات، وارتباط

هذين الموضوعين (صورة الجسد وما يتعلق بها من آمال) بمظهرهن وببقية أمور حياتهن. وبعد أن علمت الباحثة أن كَوْن الفتاة "جميلة/أو جذابة" يمثل أهمية أساسية لدى بعض الطالبات المشاركات، طرحت سؤالاً مفتوحاً من النوع التتبُّعي بُغية الوصول إلى فهم أوسع لما تعنيه الطالبات المبحوثات فقالت: "ماذا يعني، في نظرك، أن تبدين جذابة؟". وقد أجابت إحدى المشاركات، والتي لا بد أن تظل مجهولة الاسم، قائلة:

نعم، عندما يصل الأمر إلى مسألة حكايتي مع تناول الطعام، فإنني أرى أنه (أولاً) أريد أن أبدو شديدة الشبه بالفتيات اللاتي تظهر على صفحات المجلات المعنية بجمال المرأة وفي مجلة فوج *Vogue*، وسائر هذه المجلات، وذلك لأن هذا يمثل لي أحد المسارات التي أريد أن أسير على هديها. إنني أتطلع إلى كل هؤلاء النسوة الجميلات، فأجدهن نحيفات. وأنا أريد أن أكون مثلهن في الجمال تماماً، وأريد أن أكون في مثل نحافتهن. وذلك لأن هذا ما يُحبُّه الشبان.

ثم إنني أريد أن يُنجذبَ الشبان إليّ. كما أن دليلي النهائي الذي يثبتُ إلى أيّ مدى أنا جذابة، وإلى أيّ مدى أنا نحيفة، وما مدى روعة جسدي، إنما يتأكد عندما يتطلع الشبان نحوي، ويتجلى فيما يجول في ذهنهم بشأني. (مدونة الفقرة التصنيفية بعنوان: التطلعات والآمال، هـس - بيّنر، ص ١٤).

وكما ترى، فإن الذي أضفى على هذه البيانات ذلك التفصيل ووجَّهها في هذا الاتجاه، إنما يرجع إلى هذه الطالبة فيما قدَّمته في إجابتها من تفسير شخصي لمعنى كون الفتاة جذابة، وفيما تعدّه ذا دلالة وأهمية خاصة في نظرها. وقد يُفسَّر الباحثُ الكيفيُّ هذه البيانات عن طريق البحث عن الموضوعات الأساسية أو المحاور الفكرية الكامنة في الكلمات التي أجابت بها هذه الطالبة. ويقتضي هذا الاتجاه الكيفيُّ في التفسير من الباحث أن يعتنى بالنص ويقضي وقتاً مع الكلمات التي نطق بها الشخص محل الدراسة لكي يصوغ الموضوع الأساسي الحاسم من واقع وجهة النظر التي عبر عنها هذا الشخص. فالباحثون الكيفيون معنّيون بالنص والكلمات في مقابل الأرقام (التي يُعنى بها الباحثون الكميون).

وعلى ذلك، فإن الباحثين الكيفيين يقومون ببناء وتحليل الموضوعات الأساسية المتضمنة في طوايا النصوص المدونة التي أسهموا في توفيرها، والتي تمثل - كما ورد في مقابلات جماعة المناقشة المركزة التي أشرنا إليها - بيانات أو نصوصاً سابقة على جود البحث. ويخُذُ هذا لأن الباحثين الكيفيين يضعون نصب أعينهم التوصل إلى معرفة المعنى. ذلك أن بلورة مقولات وفئات الموضوعات الأساسية هي الطريقة التي يُحاولُ بها الباحثون الكيفيون استخلاص المعنى من البيانات التي تحصلوا عليها. ويعتبر الباحثون هذه الموضوعات الأساسية بمثابة فئات تصنيفية. والفئة التصنيفية مفهوم سوف نتناوله بالمناقشة المفصلة فيما بعد. ووفقاً لما ورد في النص المُستخلص من مدونة المقابلة المذكورة سابقاً، فإن الإجابة التي وردت أدرجت تحت فئة تصنيفية عنوانها: "هي تريد أن تكون جميلة"، والفئة المعنوية: "هي تقدر النحافة" (وهما الفئتان اللتان تعدان موضوعين أساسيين).. ونذكر هنا أن هذه الإجابة تعكسُ آمنيات هذه الطالبة في اكتساب الوزن والمظهر المناسبين باعتبار أن هذه الآمنيات ذات ارتباط بغيرها من المُسَلَّمات والاعتقادات والتطلعات. فهي تربط بين كونها "جذابة" ونحيفة وبين مُستقبلها في العمل ورغباتها الغرامية أو المتعلقة بإقامة علاقات مع الغير (الشباب). وبهذا تستمد هذه البيانات عمقها من معنى اجتماعي. وتقوم هذه البيانات الوصفية، والمستمدة من وجهة نظر الطالبة المبحوثة، تقوم بإظهار مشاعر هذه الطالبة المبحوثة المتعلقة بالجمال/ والنحافة في ضوء ارتباطها برغباتها وتطلعاتها الأخرى. وهكذا يقوم الاتجاه الكيفي بتوليد المعنى، وهو الأمر الذي لا يتأتى من المسوح الاجتماعية الكمية.

ويمكن للبيانات التي تُوفرها جماعات المناقشة المركزة كذلك التي عرفناها في المثال السابق، أن تكون كافية وحدها، أو يمكنها المساعدة في صياغة الأسئلة المستعملة في المقابلة المتعمقة أو في دراسة التاريخ الشفاهي، والتي تُطرح بناءً على قاعدة "سؤال يعقب سؤالاً"، حيث يؤدي كل سؤال إلى توليد بيانات وصفية بدرجة عالية من الجودة، كما يؤدي للوصول إلى فهم الظاهرة أو معناها، وذلك بفضل اتباع طريقة ذات خطوات توجهها عملية

البحث. ويوفر لنا التصميم الكيفي المتعدد الطرق (الذي يستخدم أكثر من طريقة في جمع المادة)، والمُشابه لهذا التصميم؛ يُوفّر لنا كلاً من البيانات التفسيرية والوصفية المتعلقة بالطريقة التي بها يَشعُرُ المحيطون بالمرء بصورتهم الشخصية لأجسادهم، وكيفية تفسيرهم لهذه الصورة. أضف إلى ذلك، وكما سنعرض بمزيد من التفصيل في موضع لاحق من هذا الكتاب، أن هاتين الطريقتين من طرق البحث والمذكورتين في هذا المثال لا تقتصران على أن كل واحدة منهما تعزّز الأخرى، بل إنهما كذلك تتفاعلان معا وتؤثران في بعضهما البعض.

إن الباحث الكيفي المهتم بفحص العلاقة بين العرق والقضايا المتصلة بصورة الجسد قد يقوم بإجراء مقابلات مع جماعات المناقشة المركزة أو يقوم بإجراء مقابلات متعمقة من أجل الحصول على البيانات الخاصة بصورة الجسد من وجهة نظر المشاركين في البحث. وهذا له أهمية خاصة عند دراسة العلاقة بين العرق وصورة الجسد، وذلك لأن البيانات الخاصة بمظاهر الاضطراب المرتبطة بصورة الجسد كانت تستمد - تقليدياً - من عيّات من العرق الأبيض (من أفراد الطبقتين الوسطى والعليا)، وهو الأمر الذي يؤدي إلى افتراض أن إناث الطبقتين الوسطى والعليا من العرق الأبيض هن أكثر الإناث عرضة لأن تكون صورة أجسادهن عندهن صورة رديئة، وعرضة للأمور المتصلة بهذه الصورة، كاضطرابات الأكل مثلاً. ولو أننا فرضنا تطبيق الاستبيانات التي ثبتت صحتها من قبل (والمنفذة على الإناث من البيض) على بحثنا هذا، فإن من المحتمل أن تصبح الفرضية القائلة بأن الأقليات الإثنية والعرقية بمنجاة من الإصابة بالاضطرابات "النفسية" المرتبطة بصورة الجسد؛ من المحتمل في هذه الحالة أن تصبح هذه الفرضية غير دقيقة. وذلك يرجع إلى أن أدوات القياس المذكورة (وهي الاستبيانات الموجهة للإناث البيض) قد تطرّح أسئلة هي مؤشرات على ما يشغل بال الفتيات والنساء البيض من أمور تتعلق بصورة الجسد عندهن، كما أن هذه الاستبيانات قد لا تتحقق مما يشغل بال النساء من الجماعات العرقية والإثنية الأخرى من أمور خاصة بهنّ يواجهنها في مجال صورة الجسد عندهن. وقد تمّ توضيح هذه

الحقيقة في الدراسة التي أجرتها هس- بيبير باتباع طريقة المقابلة مع جماعات المناقشة المركزة، والتي وَجَدَتْ فيها أن الفتيات السوداوات يُعانين من طائفة من الهموم المتصلة بصورة الجسد عندهن تَخْتَلِفُ عما لدى نظيراتهم من الفتيات البيض. فالفتيات السوداوات، بصورة خاصة، يُعانين هُموماً جمةً تتعلق بشعرهن أكثر مما تتعلق بالرغبة في النحافة التي تنتشر بين الفتيات البيض (Hesse-Biber, Leavy and Yaiser, 2004)

وبإمكان الباحثين ذوي الاتجاه الكمي -كذلك- أن يتعمقوا في دراسة الفروق في درجات عدم الرضا عن صورة الجسد وفقاً لاعتبارات العرق والإثنية؛ ومع ذلك، فإن من شأن هذا البُعد الذي يَدْخُلُ في خطتهم البحثية أن يقوم - فقط - على تقسيمهم لعينتهم (من الأفراد الذين يُجيبون على أسئلة المَسح) على أساس هوياتهم العرقية، وهو الأمر الذي يمكن تحقيقه عن طريق الاستيثاق من المعلومات الديموجرافية العامة وتوافقها مع ما هو وارد في الاستبيانات. وقد رَغِبَ مولوي وهرزبرجر (Molloy and Herzberger 1998) في معرفة : إلى أيّ مدى يَخْتَلِفُ الإدراك الجسدي للجسد باختلاف العرق والإثنية. وقد وضعا فرضية مفادها أن الأمريكيات السوداوات أكثر رضاً عن مظهرهن الجسدي من الأمريكيات البيض. وفي هذا المسار، قاما بإجراء مسح اجتماعي على مائة وأربع عشرة طالبة في كليتين محليتين (كليات المجتمع) وقَسَما عَيَّنَتَهُما على أساس العرق، والتي ضمت ٤٥ فتاة سوداء و ٦٩ فتاة بيضاء من اللاتي أُجِبْنَ على أسئلة الاستبيان. وقد عَزَزَتْ نتائج المسح الفرضية التي وضعاها والتي تذهب إلى أن النساء السوداوات يُبدِينَ قدراً من الاضطرابات النفسية المتعلقة بصورة الجسد عندهن (من أنواع الاضطرابات التي يجري قياسها) أقل مما لدى نظيراتهم من النساء البيض.

وتشتمل النماذج الأخرى من الدراسات التي تستعمل البيانات المسحية المقسمة على أساس العرق، والإثنية، والنوع الاجتماعي، والتي تُسْتَخَرُجُ منها البيانات الإحصائية؛ تشتمل على دراسات كل من: أبرامز وكوك ستورمر (Abrams and Cook Stormer, 2002) وتشامورو وفلورس-أورتيز (Chamorro and Flores-Ortiz 2000)؛ وتشاندلر، وأبود، ولي، وكفلاند

ودالي (Chandler, Abood, Lee, Cleveland and Daly, 1994)؛
 وفالكونر ونفيل (Falconer and Neville, 2000) ونيلسن (Nielsen
 2000). وإننا نُحذركَ حتى تكونَ يَقْظاً للفرضية التي مَقَّادُها أن النساءَ غَيْرَ
 البيض يُعْتَبَرْنَ -إلى حدِّ ما- بمنجاةٍ من الإصابة باضطرابات الأكل وعدم
 الرضا عن صورة الجسد عندهن، وذلك لأن بعض العلماء يُشير إلى أن النساء
 الملونَّات قد يَكُنَّ - في الواقع - أكثرَ تعرضاً لاضطرابات الجسد
 (Thompson 1996). وبالمثل، فإنه نظراً لأن أغلب البحوث التي أجريت
 على صورة الجسد قد تَمَّ تنفيذها على عيناتٍ من النساء البيض، فمن المحتمل
 تماماً أننا بحاجةٌ إلى أدوات قياس جديدة من أجل أن نفهم كيف تشعُرُ النساء
 الملونَّات بصورة الجسد عندهن وبالاضطرابات النفسية المتعلقة بأجسادهن.
 ولعلَّه من غير المناسب أن نضيف أولئك النساء الملونَّات إلى تلك النماذج
 المعروفة مسبقاً- وقد يُقدِّم لنا البحث الكيفي التفسيري رؤى ثاقبةً مهمةً في هذه
 الجزئية كذلك. وتوضُّحُ القائمة التالية، وبأسلوب عام، الخطوات التي يتبعُها
 الباحث الكيفي مقارنةً بخطوات الباحث الكمي:

النموذج الكيفي

- ١- تحديد مجالات الموضوعات الرئيسية.
- ٢- تحليل المجموعة الفرعية للبيانات.
- ٣- كتابة الفئات التصنيفية (حرفياً وبشكل عام).
- ٤- إعادة تحليل البيانات؛ تحليل بيانات إضافية.
- ٥- تدوين الملاحظات في المذكرات الموجزة.
- ٦- تحليل البيانات الإضافية.
- ٧- تنقيح فئات التصنيف؛ تأليف فئات عامة ذات طبيعة كلية وشاملة.
- ٨- تحليل البيانات الإضافية.
- ٩- تفسير المضمون.
- ١٠- العرض النهائي.

النموذج الكمي

- ١- صياغة سؤال البحث.
 - ٢- صياغة فرضية ما.
 - ٣- تحديد المتغيرات.
 - ٤- تصميم أداة القياس.
 - ٥- وضع فئات التصنيف.
 - ٦- اختيار العينة (عينة عشوائية).
 - ٧- اختبارات الصدق والثبات.
 - ٨- الاختبار الإحصائي (عند الضرورة)
 - ٩- حساب عدد النتائج.
 - ١٠- عرض النتائج (في أشكال أو رسوم بيانية كما هو المعهود) [وهذه هي الخطوة الأخيرة وتحتاج إلى صياغتها رقمياً].
- عندما تُقرر ما إذا كان مشروعك البحثي سيستعين بتصميم كمي أو تصميم كيفي (أو بتصميم يجمع بينهما) لابد أن تسأل أولاً:

• ما هو السؤال الأساسي للبحث؟

• أيُّ أجزاء الواقع الاجتماعي أريدُ إدراكه؟

وإذا كنتَ مهتماً بالأرقام التنبؤية والضابطة (وهي الأرقام الدالة على الكمية how many أو على الدرجة) و/أو العلاقات الموجودة بين المتغيرات وأيِّ عوامل وسيطة مؤثرة في النتائج (كعامل العرق مثلاً)، فإن التصميم الكمي سوف يُقدِّمُ لك نوع البيانات التي تبحث عنها. معنى ذلك بعبارة أخرى أن الاتجاه الكمي سيكون ملائماً للإجابة على أسئلة البحث بالصورة التي قمت بصياغتها.

فالاتجاه الكمي يُقدِّمُ الإجابات على ما تريدُ معرفته وما ترى أن بإمكانك معرفته. مثال ذلك، أن من شأن الباحث المهتم بالتنبؤ بما إذا كان، وإلى أي درجة، يعتبر النوع الاجتماعي مؤشراً جيداً للتعرض لاضطرابات الأكل؛ من شأنه أن يسأل: إلى أي درجة يتنبأ النوع الاجتماعي باحتمالات التعرض لاضطرابات الأكل؟ وكما شاهدنا في الدراسات الكمية لصورة

الجسد، تفيد الاتجاهات الكمية في تمييز العلاقات السببية المحتملة، والتي منها مثلاً: الرابطة بين النوع الاجتماعي والإصابة بالاضطراب المتعلق بصورة الجسد، وذلك عن طريق قيام هذه الاتجاهات الكمية بتفسير العوامل الوسيطة، كعامل العرق، والإثنية، والسلوك الجنسي، والطبقة الاجتماعية (إذا كانت هذه الأبعاد مُضمَّنة داخل تصميم البحث). ومع ذلك، فإن طبيعة هذه العلاقات، والظروف الاجتماعية التي تنشأ منها هذه الأنماط، وكذلك الفاعل الفرد والخبرة الفردية، قد تظلُّ مجهولة في الدراسة التي تقتصر على الاتجاه الكمي.

إن المثال المقارن لدراسة صورة الجسد انطلاقاً من الاتجاه الكيفي في مقابل الاتجاه الكمي يوضح لنا بجلاء أن البحث الكيفي معنيٌّ بفهم المعنى الاجتماعي، بينما يركزُ البحث الكميُّ على الأنماط وإمكانية التنبؤ.

معظم أساليب البيانات الكمية عبارة عن مكثفات للبيانات. فهي تُكثف البيانات من أجل إدراك الصورة الكبيرة... وعلى العكس من ذلك، فإن الطرق الكيفية تُفهم على أفضل الوجوه بوصفها أدوات لتعزيز أو تجريد البيانات. وعندما يتم تعزيز البيانات/ أو تجريدها يُمكنُ تبين الملامح الأساسية للحالات المدروسة بمزيد من الوضوح. (Charles Ragin, 1994, p. 92, as quoted by Neuman, 1997, p.14-15)

ويمكن القول بتعبير آخر إن البحث الكميُّ يُنتج كميةً من البيانات -ذات القابلية للتعميم- بينما يسعى الباحثون الكيفيون للعمق في بياناتهم وتحليلهم أكثر من سعيهم للكمية. والآن قد ثَبَّتَ وجود فارقٍ إجماليٍّ عام بين البحث الكيفي والكمي، لذلك نعود لمثالنا الإيضاحي عن صورة الجسد بُغْيَةً استكشاف ما أوردناه من فرضيات، واعتقادات وممارسات. وستتم هذه المناقشة في إطار مناقشة تاريخية للمذهب الوضعي ولمفهوم الموضوعية، وما ارتبط بذلك من تطور للبحث الكيفي تفاعلاً مع ذلك. أي أننا - بعبارة أخرى - سوف نشرح كيف أن المثال الخاص بدراسة صورة الجسد - والذي عرَضناه من وجهتي النظر الكمية والكيفية يعكس - بصورة فعلية - صور الصراع الواسع النطاق طوال مراحل عملية بناء المعرفة، والتحويلات الحادثة داخل هذه العملية.

الوضعية، والموضوعية، والرابطة البحثية:

الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي

سيطرت وجهة النظر الوضعية إلى الحقيقة الاجتماعية على امتداد تاريخ بناء المعرفة، والوضعية هي الأساس الإبستمولوجي (أي المعرفي) للنموذج الكمي. فقد لبثت زمناً طويلاً يُنظرُ إليها بوصفها الاتجاه الوحيد الموثوق به في البحث، وذلك لما تتصف به من اعتماد موضوعي على "الطريقة العلمية". وسوف نبحت موضوع الإبستمولوجيا بصورة أكثر عمومية ثم نتطرق إلى الفلسفة الوضعية والنماذج البديلة التي ظهرت مناوئة لمعتقدات الإبستمولوجيا الوضعية.

الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة)

إن الاتجاهين الكيفي والكمي كليهما مُشبَّعان بالإبستمولوجيا (Hesse, 2004, p.2) Biber & Leavy, 2004, p.2) إن أي إبستمولوجيا "هي نظرية للمعرفة" (Harding, 1987, p.3). واعتماداً على كتاب كروتسي Crotty (1998)، يتوسع كرسول Cresswell في التعريف السابق فيقول إن أي إبستمولوجيا هي "نظرية من نظريات المعرفة مُستبطنّة في طوايا أي منظور فكري" (Cresswell, 2003, p.4) وهي التي تشكل كافة جوانب العملية البحثية. وبتعبير آخر نقول إن أي إبستمولوجيا عبارة عن نسق من المعتقدات الفلسفية التي تتعلق بمن يُمكنه أن يكون عارفاً وبما يمكن أن يُعرف. (Harding, 1987; Guba & Lincoln, 1998; Hesse-Biber and Leavy 2004). ويجانب تساؤل الإبستمولوجيا عمّن يمكنه أن يكون عارفاً وعمّا يمكن أن يُعرف، فإنها تتناول كيفية خلق المعرفة: فالنظرية الإبستمولوجية هي التي ترسي الأساس لعملية بناء المعرفة. والأسئلة، والفروض، والمعتقدات - سواء ما كان منها موجوداً (في ذهن الباحث) عن وعي أو عن غير وعي - والتي يحملها الباحث معه إلى بحثه إنما تمثل الأساس الأول لأي نظرية إبستمولوجية. والأفعال والتصرفات التي تتضمنها العملية البحثية، شأنها شأن كافة المساعي التي يقوم بها الناس، تخضع وتتأثر بالمواقف التي سبق للباحث

أن التزمَ بها. فنحن نبحث ما نؤمن بأنه قابلٌ لأن يُعرفَ وبطرقٍ نؤمن أنها ستكون فعالة، وكلا الأمرين انعكاس لنظريتنا الإستمولوجية.

مثال ذلك، أن ما يفترضه الباحثُ حقيقياً أو متصلاً بموضوع صورة الجسد، وأن ما يُسلمُ ذلك الباحث أن بالإمكان معرفته، وأن ما يريد معرفته عن صورة الجسد؛ هذه الأمور جميعاً هي الأساس الذي تقوم عليه أيُّ إستمولوجيا. فمولوي Molloy وهرزبرجر كانا يؤمنان بوجود علاقة مباشرة بين العرق والتعرض للإصابة باضطراب صورة الجسد. وقد قام هذا الافتراض - والذي تجلّى في هيئة "فرض علمي" - قام بتوجيه كافة جوانب بحثهما، بما في ذلك اختيار الموضوع وصياغة الأسئلة. وبالمثل، افترضت هس - بيتر أن النساء ينسبن معانٍ متعددة لأهدافهنّ ومشاعرهنّ تجاه أجسادهن، والتي من الممكن فهمها على أفضل الوجوه انطلاقاً مما تتصوره كل امرأة نقطة تميز أو تفوق خاصة بجسدها، وقد أثر هذا الافتراض على جميع مراحل دراستها لصورة الجسد. إذن فالنظرة الإستمولوجية التي يأخذُ بها الباحث تُؤثر على كل جانب من جوانب العملية البحثية، بما فيها من اختيار الموضوع، وصياغة الأسئلة، واختيار طريقة البحث، والخلفية الفكرية، والرؤية المنهجية. ومن بين هذه الخيارات التي تتأثر خاصة بالنظرة الإستمولوجية للباحث النقاط التالية:

- من هم الأفراد الذين سيشملهم دراسة صورة الجسد (وفقاً لاعتبارات النوع الاجتماعي، والسن، والتنوع العرقي/أو الإثني، والتوجه الجنسي، والمكانة الاجتماعية الاقتصادية)؟
- ما هو الجانب الذي نحاول شرحه من جوانب صورة الجسد (الجانب الاجتماعي الثقافي، أم الجانب الاقتصادي، أم الجانب السيكولوجي، أم الجانب الطبي، أم الجانب السلوكي، أم الجانب المتعلق بالاتجاهات أم الجانب المتعلق بالإدراك الحسي)؟
- كيف سنحاول الوصول إلى فهم الخبرات التي يُعايشها المبحوثون والتي لها صلة بموضوعنا، وكيف سنفهم المعرفة التي تحصلنا عليها، وكيف سنوصلها إلى الآخرين؟

فإن كنا نحاول قياس العلاقة السببية بين العوامل الديموجرافية، كالنوع الاجتماعي والعرق من ناحية، وانتشار اضطرابات الأكل من ناحية أخرى، فإننا -حينئذ- نطرح سؤالاً كمياً يحمل في طياته فروضا عديدة تتعلق بطبيعة الحقيقة الاجتماعية.

الإبستمولوجيا الوضعية وصلتها بالموضوعية

إن من الأهمية فهم الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) التي من خلالها تطوّرت الممارسة الكمية بوصفها نموذج "العلم" (الحقيقي). فالعلم الوضعي يؤمن بمعتقدات أساسية عديدة تتعلق بطبيعة المعرفة، وهي المعتقدات التي تشكل في مجموعها الإبستمولوجيا الوضعية، التي هي الركيزة الأساسية للنموذج الكمي. فالوضعية تؤمن بوجود حقيقة قابلة للمعرفة، وأن وجودها مُستقل عن العملية البحثية. والعالم الاجتماعي، والمُشابه للعالم الطبيعي، تحكمه القواعد التي تتجلى في صورة أنماط. وتبعاً لذلك، فإن العلاقات السببية بين المتغيرات لها وجودها بل ويمكن تمييزها، والبرهنة عليها، وتفسيرها. ومن ثم فإن الحقيقة الاجتماعية النمطية يمكن التنبؤ بها، كما أن من خصائصها إمكان التحكم فيها. وهذا الكلام يصف طبيعة الحقيقة الاجتماعية من وجهة النظر الوضعية. ومن هنا فإن الاتجاه الكمي في دراسة صورة الجسد يمكن فهمه باعتباره مظهراً من مظاهر الافتراضات التالية: توجد حقيقة "خارجية" (أي خارج ذهن الباحث) وهي قابلة لأن تُعرّف ولأن يُتنبأ بها وهي قائمة على علاقات سببية واضحة، كالعلاقات النمطية القابلة للتنبؤ والموجودة بين النوع الاجتماعي والعرق من جهة، والأبعاد الكثيرة التي تتصف بها قابلية بعض الأفراد للإصابة باضطرابات الأكل من جهة أخرى، والتي تم تمييزها باعتبارها علاقات لها وجودها المُستقل بصرف النظر عن العملية البحثية، والتي - بناءً على وجودها المستقل هذا - تم "اختبارها" في مثالنا السابق. وحتى الآن، كنا نصف طبيعة الحقيقة الاجتماعية وفقاً لرؤية الوضعية، إلا أنه يتوجب علينا أن نمضي إلى أبعد من ذلك فنتمق أيضاً في فحص الافتراضات أو المسلمات الخاصة بالعلاقة بين تلك الحقيقة والباحث الذي يهدف للكشف عنها.

تَضَعُ الفلسفة الوضعية الباحثَ والمبحوثَ، أو الطرفَ العارفَ والطرفَ القابلَ للمعرفة، في مستويين مختلفين ضمن العملية البحثية. فالباحث والمبحوث، أو الفاعل والموضوع subject and object، يتم تصورهما عقلياً في صورة نموذج ثنائي. ولا يقتصر الأمر على وجود تفرقة شديدة بين الفاعل الموضوع، بل إن هذه التفرقة تعد - إلى جانب ذلك - تفرقة تدرجية أو هرمية، يحظى فيها الباحث بالأفضلية باعتبار أنه هو الطرف العارف. وهذه الجزئية لها أهميتها الخاصة في العلوم الاجتماعية، والتي يغلب أن تستمد البيانات فيها من الفاعلين البشريين الذين ينظر إليهم، في نطاق هذا التصور، باعتبارهم "موضوعات" للعمليات البحثية: أي أنهم يخضعون للآخرين - ألا وهم العارفون. مثال ذلك أن المسوح الاجتماعية التي استعملت في جمع البيانات الخاصة بمثلنا البحثي الكمي، أعطيت لفاعلين بشريين يتم تحويلهم، وفقاً للرؤية الوضعية العامة، إلى موضوعات للبحث قابلة للكشف عنها ومعرفة طبيعتها.

ويمكن أن نفهم الدراسة الكمية لصورة الجسد - والتي جرى وصفها في مثلنا البحثي القائم على المسح الاجتماعي - باعتبارها مظهراً يتجلى فيه الوضعية كما يتجلى فيه استعمالها لمصطلح "الموضوعية". ويدل على ذلك تلك الافتراضات/ أو المسلمات التي مفادها:

- (١) أنه توجد حقيقة يمكن معرفتها، وهي مستقلة عن العملية البحثية، والتي منها مثلاً الروابط السببية بين النوع الاجتماعي والعرق من جهة، وعدم الرضا عن صورة الجسد من جهة أخرى،
- (٢) إن الفصل بين الفاعل والموضوع جزء لا بد منه لاكتشاف المعرفة، وهو الأمر الذي يتوصل إليه الباحث عن طريق ما يقوم به من تصميم للاستبيانات ثم توزيعها بصورة موحدة على المشاركين في البحث. فالوضعية لها رؤية محددة "للموضوعية"، وهي الرؤية المتغلغلة داخل العملية البحثية أثناء مراحلها كلها، سواء أكان ذلك على المستوى الشعوري أو المستوى تحت الشعوري. وتفترض الإبستمولوجيا الوضعية أن هناك حقيقة موضوعية موجودة "خارج ذهن الباحث"، وأن

بالإمكان الكشف عنها على يد الباحثين الموضوعيين غير المتأثرين بالأحكام القيمية، من خلال استعمال طرق البحث الموضوعية القابلة للتكرار. وبعبارة أخرى، الحقيقة موضوعية ويمكن - من الناحية الإبيريقيّة - دراستها/أو اختبارها على يد الباحثين المحايدين من ناحية القيم. لذلك، فإنّ من السهل إحلال باحثين محلّ باحثين آخرين، وكذلك الحال بالنسبة للمبحوثين أيضاً، وذلك تحقيقاً للأغراض المتعلقة بتكرار البحث. ومن المفترض أن يكون الباحث غير متحيّز، وليس لديه مشاعر أو عواطف تجاه موضوع البحث، وليس له موقف سياسي أثناء ممارسته عملية بناء المعرفة. وقد تسبّب هذا المفهوم الخاص بالمعرفة، وخاصةً ما يتضمنه من دلالات تتصل بهذا النوع من الاعتماد على الموضوعية؛ تسبّب في جعل مجتمع البحث يقاومه منذ البداية وتساعدت هذه المقاومة إلى أن بلغت أوجها في تنامي الحقل المعرفي للبحث الكيفي.

أفكار بديلة عن طبيعة الحقيقة الاجتماعية

منذ وقت مبكر، ظهر التراث التأويلي، والذي يعرف عادة باسم المنظور التأويلي؛ ظهر كاعتراض مباشر على نظرية المعرفة الوضعية وعلى تفسيرها/أو تطبيقها لمفهوم الموضوعية. وتقوم نظرية المعرفة التأويلية على تأويل التفاعلات بين الأفراد وتأويل المعنى الاجتماعي الذي ينسبّه الناس لتلك التفاعلات (Nielsen, 1990, p.7). ويؤمن هذا المنظور - في بعده الإبستمولوجي - أنّ المعنى الاجتماعي يتم خلقه أثناء عملية التفاعل. ومفاد هذا الكلام أن الفاعلين الاجتماعيين المختلفين قد يفهمون الحقيقة الاجتماعية بصور مختلفة فعلاً، منتجين بذلك معان وتحليلات مختلفة أيضاً. زد على ذلك أن هذا المنظور الخاص ببناء المعرفة قائم على أساليب اكتساب المعرفة القائمة على ملاحظة المبحوثين والتفاعل معهم. ويتضمن البحث الذي من هذا النوع بناء علاقات بين الباحث والمبحوثين، الذين يكونون بمثابة مشاركين ومعاونين في العملية البحثية. ولكن العلاقات المتبادلة بين ذوات كافة المشاركين (أي الباحث والمبحوثين معاً) لم يكن يُنظرُ إليها دائماً باعتبارها جزءاً من الممارسة

التأويلية. شاهد ذلك أن شوتر (Schutz, 1967, 1974) اضطلع بزيادة مسيرة النظرية التأويلية، ولكن مع أنه أضفى الشرعية على الفكرة التي تذهب إلى أن الفعل الإنساني لا يمكن فهمه مجرداً من المعنى الذي يُنسب إليه، إلا أنه أقر ما تذهب إليه الوضعية من التفرقة أو الفصل بين الذات والموضوع عن طريق حثه للباحثين على أن "يُفصلوا" ذاتيتهم عن البحث أثناء اشتغالهم به (Nielsen, 1990,p.8). وقد عارض فكرة "الفصل" هذه كل من مفكري الحركة النسوية والمفكرين النقديين، على نحو ما سنرى تفصيلاً في موضع لاحق من هذه الكتاب، كما بلوروا نماذج جديدة لبناء المعرفة قائمة على أخذ بعد الذاتية في الاعتبار وعلى التفاعل المتبادل بين الباحث والمبحوثين، وعلى النظر إلى البحث كعملية.

وينأى المنظور التأويلي المفهوم الوضعي للموضوعية بأساليب متعددة، يعكس كل أسلوب منها مفهوماً مختلفاً لبناء المعرفة. فالمنظور التأويلي لا يقتنع بأن الحقيقة الاجتماعية موجودة "خارجاً" منتظرة اكتشافها وقياسها، بل يرى أنها حقيقة علائقية (تتخلق في العلاقات) وشخصية/أو ذاتية، وأنها تتولد أثناء العملية البحثية. ولا يُفترض أن يكون الباحث ملتزماً بالحياد و "موضوعياً" بل أن يكون مساهماً مساهمة إيجابية - وذلك بالتوازي مع المبحوثين - في بناء المعرفة الوصفية، الاستكشافية و المفسرة في نفس الوقت. وبالمثل، فإن قيمة البحث لا تعتمد على ما إذا كان قابلاً للتكرار من عدمه، بل تعتمد على مدى ما يقدمه إلى معرفتنا الأساسية في موضوع معين. وهكذا تَبْلُورُ التراث التأويلي في مواجهة الافتراضات التي تسلم بها الوضعية، وهو الآن مستمرٌ في إبداء المقاومة القوية التي تناوئ ما في الوضعية من مفاهيم وتصورات العمل البحثي.

فهذا مثالٌ على مدى ما وصلت إليه مقاومة الوضعية والاتجاه الكمي الذي تدعّمه، وهو مثال مبني على أسس إبستمولوجية. ويقوم البحث الذي يُجرى انطلاقاً من وجهة النظر التأويلية بتوفير نتائج كيفية تتمثل في صورة البيانات المستخلصة من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة في موضوع صورة الجسد. والمشكلة التي تواجه الباحثين الذين لا يأخذون بالمُسَلّمات

الوضعية هي أنه كثيراً ما يُستَهانُ بِقِيَمَةِ بَحْثِهِمْ. أما البيانات التي وفّرتها الدراسة الكميّة لصورة الجسد فقد كانت بيانات قابلة للتعميم وقابلة للتكرار ويَزْعُمُ القائمون بها أنها تُعَيِّنُ العلاقات السببيّة الأساسيّة بين العوامل الاجتماعيّة الثقافيّة ومدى القابليّة للتعرض لظاهرة النفور من صورة الجسد. وكثيراً ما تُشَيِّعُ الإشارة إلى هذه البيانات باعتبار أنها بيانات "صلبة" (أي راسخة وثابتة) و "علميّة"، مما يُضَيِّقُ عليها معنى من معاني المشروعية بين الأوساط البحثيّة والأكاديميّة. وأما البيانات الوصفية المتحصلة من البحث الكيفي لجماعات المناقشة المركزة فإن من شأنها أن توصف - كما هو معهود - بأنها "رَخْوَةٌ" (في مقابل البيانات "الصلبة" للبحث الكميّ)، ومن ثَمَّ فإنها أقلُّ "علميّة". وبالمثل، فإن البيانات الكميّة يُفْتَرَضُ فيها أنها "قابلة للتعميم" على أعداد أكبر من السكان، ومن ثَمَّ فإنها بيانات "ممثلة"، أو ذات صفة تمثيلية. وخلافاً لذلك، فكثيراً ما يُشارُ إلى البيانات الكيفيّة، والتي منها ما نراه في تقارير المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، كثيراً ما يُشارُ إليها بأنها بيانات "مَزْعُومَةٌ" أو "مُؤَلَّفَةٌ" مما يعنى ضمناً أنها أقلُّ علميّة، ومن ثَمَّ فهي أقلُّ دقّة وبالتالي أقلُّ أهميّة. وهذه الطُرق النمطيّة الجامدة (التي تضع البيانات الكميّة في درجة أعلى من البيانات الكيفيّة) في التفكير في البحث الكيفي وعلاقته بالبحث الكمي، هذه الطرق في التفكير ينبغي الانتباه إليها وكشفها واجتثاثها. وسوف يُصبح ذلك التحيز القديم العهد - الذي يُفضّل الوضعية على غيرها من طرق تحصيل المعرفة - أكثر وضوحاً عندما نتناول طرق جمع البيانات لاحقاً. أما الآن فدعنا نبحث الاتجاه الكيفي وفقاً لخياراته الإستمولوجيّة.

المعرفة الكيفيّة هي ثمرة لتشكيّة من النظريات الثريّة في مجال الحقيقة الاجتماعيّة. ومع أن هذه النظريات تتشارك في اهتمامها بالتأويل، إلا أنها تُركّزُ - كذلك - على جوانب مختلفة للحقيقة الاجتماعيّة، والتي منها مثلاً وجهات النظر النسويّة، والصراع، والثقافة الشعبيّة، وما إلى ذلك. ومن شواهد ذلك، أن وجهات نظر الحركة النسويّة كثيراً ما تُركّزُ على المكانة الاجتماعيّة، والثقافيّة، والاقتصاديّة للمرأة على المستوى المحلي والمستوى العالمي. كما أن

وجهات النظر ما بعدَ الحداثيّة كثيراً ما تُطبّق على الدراسة الكيفيّة للثقافة الشعبيّة وعلى وسائل الاتصال الجماهيريّة، بينما يترجّح أن تركز وجهات النظر النقديّة على ممارسات القوة في طائفة متنوّعة من السياقات المُشبّعة بالاعتبارات السياسيّة.

وسوف نناقش وجهات النظر هذه بمزيد من التفصيل فيما بعدُ في سياق هذا الفصل، أمّا الآن فمن المهم أن ندرك أن الاتجاه الكيفي يستمد ثراء كبيراً من عدد المدارس الفكرية الراسخة الموجودة خارج نطاق مظلة الاتجاه التأويلي. ومن بين هذه المدارس الفكرية: الفلسفة الوضعيّة، وما بعد الوضعيّة، التأويليّة الظاهريّة، والفلسفة الظاهريّة، والإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة)، ووجهات النظر النسويّة، وما بعد الحداثيّة، وما بعد البنيويّة، وما بعد الكولونياليّة/أو ما بعد الاستعمار، والنقدية. ويُعتبر البحث الكيفي حقلاً من حقول المعرفة مثيراً للاهتمام ومتفرداً إلى حدٍّ ما لآله يتميّز بطائفة مختلفة من وجهات النظر الإستمولوجية، ومن ثمّ فإنه يطرح أنواعاً كثيرة من الأسئلة العلميّة الاجتماعيّة، والتي تشملُ كلّاً من الأسئلة التي طُرِحت أو عُولِجت من قَبْلُ بأساليبٍ أخرى، والأسئلة التي لم تُطرح أصلاً قَبْلُ ذلك، كما أنه يُطرحُ الأسئلة القديمة بأساليب جديدة ومعقّدة.

ويُتيح البحث الكيفي، كما توضّح لنا سجلات بيانات المقابلات مع جماعات المناقشة المركّزة؛ يتيّح الحصول على توصيفات مفصّلة وغزيرة للحياة الاجتماعيّة (Geertz 1973) مقارنةً بالبيانات التي توفرّها المُسوّح الكميّة والتي تكون قابلةً للتعميم إلا أنها كثيراً ما تكون بيانات مُسطّحة. وكما رأينا أنه بالمقارنة بين الوضعيّة والمنظور التأويلي، فإن الإستمولوجيا لا تقتصرُ على معالجة الفروض المتعلّقة بطبيعة المعرفة وطبيعة العارف فقط، بل تعالج -إلى جانب ذلك- الفروض المتصلة بالعلاقة بين العارف وما يُمكن معرفته، أو بصيغةٍ أخرى، العلاقة بين الباحث وموضوع البحث (Guba & Lincoln 1998, p.201). لذلك فإنك عندما تقرّر ما إذا كانت دراستك لصورة الجسد سوف تستعمل اتجاهاً كيفياً من عدمه، فلا بد أن تُعطي أهمية كبيرة لما ستكون عليه طبيعة العلاقة بين الباحث والمبحوثين في هذه الدراسة.

فهل ستكون هذه العلاقة قائمةً على أساس تقسيم تدرّجي هَرَمي يفصل بين الباحث والمبحث، وذلك كما توصي به الوضعية، أم ستكون قائمةً على أساس تبادلي تفاعلي يتم بناؤه من خلال الألفة بين الباحث والمبحثين على نحو ما يوصي به التقليد التأويلي، أم أنها سوف تتخذ شكلاً آخر؟ ويّين لنا تحليل النظرية الوضعية وبدائلها من النظريات الأخرى أن هذه الخيارات يتم اللجوء إليها بصورة تحكّمية، بل إنها مرتبطة ارتباطاً حميماً بالأنساق الاعتقادية المتعلقة بالطريقة التي ينتج بها الناس المعرفة من خلال درجات وأشكال مختلفة من التفاعل. وهذا النسق الاعتقادي الموجه هو الأساس الوطيد لأي نظرية من نظريات المعرفة.

الإبستمولوجيا والنظرية

كما يبين كرسول (٢٠٠٣)، يُوجد في طوايا أي رؤية فكرية نظرية معينة للمعرفة. وبإمكاننا كذلك أن نقول إن أي نظرية للمعرفة مرتبطة بنظرية ما أو أن بينهما صلة حميمة، أو أن مسلمات أي نظرية للمعرفة إنما يتم تفعيلها من خلال إطار نظري. ويتغيّر عامٌّ، تُعدُّ النظرية تفسيراً للحقيقة الاجتماعية أو لأحد مكوناتها، يتسع لما هو أبعد نطاقاً مما تمّ بحثه منها إمبيريقياً، كما هو الحال مع موضوع عدم رضا الفرد عن صورة جسده (Hesse-Biber & Leavy, 2004, p.3) وتُعدُّ النظرية الاجتماعية -دائماً- جزءاً من العملية البحثية. وللنظرية أهمية خاصة في تطبيق البحث الكيفي، وذلك لأن من أول أهداف هذا البحث: توليد، وبناء، وتنقيح النظرية. فما يُجمَع من بيانات إمبيريقية أثناء القيام بدراسة معينة، يُمكن تَعميمه على الظواهر الاجتماعية الأوسع نطاقاً، وذلك من خلال بناء النظرية الاجتماعية. ولا يقتصر الباحثون الكيفيون على استعمال النظرية في بحثهم، وإنما هم يسهمون في خلقها أيضاً. وتُعتبر البيانات التي تحصلنا عليها من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة مثلاً لمدى قدرة كتابة الفئات التصنيفية وتحليلات الموضوعات المختلفة على الوصول إلى خلق النظرية. وفي تلك الحالة، وبعد استخلاصنا للموضوعات الأساسية من النص المدون للمقابلات، يتوفر لدينا عدد من الموضوعات الأساسية التي تبدو مُرتبطة بموضوع أساسي وأكثر

عمومية له صلة بآمال وتطلعات الأفراد المتعلقة بصورة الجسد عندهم. وفي هذه اللحظة تتبلور النظرية، حيث نستعين ببياناتنا الإمبريقية في استخراج الأحكام العامة ذات الصلة بالعلاقات بين طائفة من الآمال والتطلعات الشخصية، والقابلية للتعرض لاضطرابات الجسد.

ويطبق الباحثون النظرية على امتداد خطوات العملية البحثية، كما أن رؤيتهم النظرية تكون مرتبطة باعتقاداتهم الإستمولوجية. والبحث، بصورة عامة، يمكن إجراؤه باتخاذ منحى استدلالي أو منحى استقرائي. أما اختيار ما إذا كان المشروع البحثي يعتمد على المنطق الاستدلالي أو المنطق الاستقرائي، فهو أمر يرتبط ارتباطاً مباشراً بمدى تخيل النظرية الكامنة في ثنايا المشروع البحثي ومدى الانتفاع بها فيه، كما يرتبط بما إذا كان قد تم توليد نظرية جديدة من هذا المشروع أم لا. ومن المعهود أن يستعمل المنحى الاستدلالي في البحث الكمي الوضعي، وأن يشتمل هذا المنحى على فحص النظرية واختبارها.

في الدراسات الكمية، يستعمل المرء النظرية على نحو استدلالي كما أنه يتخذها منطلقاً له منذ بداية الخطة الخاصة بهذه الدراسة. ونظراً لأن الباحث يهدف إلى اختبار أو تحقيق نظرية ما أكثر من استهدافه تطويرها، فإنه يتبنى إحدى النظريات، ثم يشرع في جمع البيانات ليختبر بها النظرية، ويؤمن النظر في مدى ما تقدمه هذه النتائج من برهنة على صحة هذه النظرية أو نقضها لها. وتصبح النظرية إطاراً للدراسة بأكملها، أي نموذجاً ينظم الخطوات الخاصة بجمع البيانات.... فالباحث الكمي يختبر النظرية أو يتحقق منها عن طريق فحصه للفروض أو الأسئلة المستمدة من هذه النظرية (Cresswell, 2003, p.125-126).

هذا النموذج مختلف أشد الاختلاف عن الاتجاهات الاستقرائية في البحث، والتي من المعهود أن يستعملها الباحثون الكيفيون. فالباحثون الكيفيون معنيون بتوليد النظرية. ولأن الباحثين الكيفيين يضعون هذا الأمر نصب أعينهم، فإنهم كثيراً ما يعتمدون على النماذج الاستقرائية التي تستخلص فيها النظرية استخلاصاً مباشراً من البيانات. وإن مثل هذا النموذج الذي يكثر

استعماله على يد الباحثين التأويليين والمفكرين النسويين (ولو أن هذا الاستعمال ليس مقصوراً عليهم فقط، كما أنه لا يتم بصورة موحدة) هو نموذج النظرية الموثقة. ومع أننا نناقش هذه القضية بمزيد من التفصيل لاحقاً في هذا الكتاب عندما نتناول الاتجاهات الخاصة بالتحليل والكتابة، إلا أن النظرية، وفي ظل هذا الاتجاه "الكيفي" تتولد بصورة مباشرة من البيانات الإمبريقية. وبتعبير آخر، يقوم الباحثون الكيفيون، عن طريق أنتفاعهم بالسرديات التي تم إنتاجها أثناء إجراء المقابلات، أو في البحث الإثنوجرافي، أو في النصوص (وذلك في حالة القيام بتحليل المضمون) يقوم هؤلاء الباحثون الذين يستخدمون الاتجاهات الاستقرائية بالانتفاع بهذه البيانات الإمبريقية في بلورة نظريات أكثر عمومية وأوسع نطاقاً عن الحياة الاجتماعية تتبثق من واقع الناس الذين يعيشون ذلك الجانب الذي تجري دراسته من جوانب الحقيقة الاجتماعية. وسوف نستوفي إيضاح هذه القضايا فيما بعد. بجانب ذلك، فإن من المهم الآن أن نفهم الفارق الأساسي بين اختبار النظرية وتوليدها، أو قل: النهج الاستدلالي في مقابل النهج الاستقرائي في تحصيل المعرفة، وذلك لأن هذين النموذجين البحثيين يحملان عدة دلالات تتصل بطبيعة المعرفة نفسها. وربما يمكن فهم العلاقة بين النظرية والإبستمولوجيا على أفضل الوجوه من خلال مثال أو شاهد بحثي.

مثال ذلك، أنه إذا تقرر أن ندرس العلاقة بين الثقافة الرأسمالية الأبوية (الذكورية) واضطرابات الجسد الموجودة بين الفتيات والنساء، فقد نتبنى توجهها نظرياً نسوياً راديكالياً. ويُمثّل هذا الإطار النظري على نقد للنظام الأبوي باعتباره مصدراً لأشكال "العنف" الجسدية وغيرها من أشكال العنف الموجّه ضدّ الفتيات والنساء، بما فيها من مقاييس الجمال المتأثرة بالنظام الأبوي (Ritzer, 2000, p.462). وبتعبير آخر، يُسلّم هذا التوجه النظري بوجود علاقة عامّة بين قهر النساء ومقاييس الجمال المعاصرة التي تعكس الاهتمامات الرأسمالية الأبوية وترتبط بها بطريقة أخرى أحياناً (Hesse - Biber, 1996). ومن الأرجح أن تضطلع الإبستمولوجيا النسوية بتوجيه وتشكيل توظيف هذا الإطار النظري النسوي المتطرف. ويعني هذا أننا نأتي

بمُسَلَّماتٍ مُعينة لتؤثر على مشروعنا البحثي، بما فيها من الفكرة التي تذهب إلى أن من الممكن معرفة العلاقة بين الممارسات الأبوية على المستوى الاجتماعي العام والاضطرابات المتعلقة بصورة الجسد والتي تُشعرُ بها المبحوثات على كل من المستوى الكبير والمستوى الصغير (الماكرو والميكرو) للتحليل. زدْ على ذلك، أننا نُسَلِّمُ بأن بالإمكان أن تكون النساء عارفات، وبالإمكان أن تكون هموم النساء هي موضع التحليل، ونحن نسلم كذلك بأن الحقيقة الاجتماعية تتأثر بالفعل بالأساليب الأبوية والرأسمالية في رؤية العالم، وهي المسلمات التي يتعين علينا إيضاها ونشرها بين الناس. وسوف يزداد هذا الموضوع وضوحاً في الفصل الثاني من هذا الكتاب عندما نناقش مسألة "النماذج النظرية" أو "رؤى العالم".

طرق البحث بوصفها أدوات بحث

عندما يتكلم الناس عن البحث العلمي، يكون اهتمامهم منصباً في كثير جداً من الأحيان على طرق جمع البيانات، ومع ذلك فإن طرق البحث مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإبستمولوجيا والنظرية. ويَقِفُ الباحثون الكيفيون في مَوقِعِ الصدارة من حيث الاعتراف الصريح بوجود علاقة رابطة بين طريقة البحث ونظريته، ومن حيث الاهتمام بها في بحوثهم، وذلك في مواجهة من ينكرون هذه العلاقة. وطُرقُ البحث هي الأدوات التي يستخدمها الباحثون لكي يجمعوا البيانات. وتُنتِج لنا هذه الطرق الخاصة بالإحاطة بالحقيقة الاجتماعية أن نجمع البيانات من الأفراد، والجماعات، وكذلك من النصوص الموجودة في وسائل الاتصال المتعددة باعتبارهم مصادر معرفتنا. وتقدم ساندرا هاردنج Sandra Harding تعريفاً لطرق البحث على النحو التالي:

تُعتبر طريقة البحث أسلوباً.. لجمع الشواهد والأدلة. وإن بإمكان المرء أن يقول - بحق - إن كل أساليب جمع الشواهد تتدرج ضمن واحدة من الفئات الثلاث التالية: الإنصات إلى الإخباريين (أو سؤالهم)، أو ملاحظة السلوك، أو فحص الآثار والسجلات التاريخية (Sandra Harding, 1987, p.2)

وكثيراً ما يستعملُ الباحثون الكيفيون واحدة أو أكثر من طرق البحث التالية (ولو أن هذه القائمة ليست قائمة حصرية لهذه الطرق): البحث الإثنوجرافي، وإجراء المقابلات المتعمقة، والتاريخ الشفاهي، والبحث الإثنوجرافي الذاتي (أي الذي يكتبه الباحث بنفسه عن نفسه- المترجم)، وإجراء المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، ودراسة الحالة، وتحليل الخطاب، وتحليل المضمون. وكما ترى، فإن الباحثين الكيفيين يستعملون طائفة متنوعة الأشكال من طرق البحث، جاعلين بذلك الموضوعات والأسئلة البحثية الممكنة مُتَّسِعَةً باتساع ما لدينا من صور الخيال.

في مقابل ذلك يستخدم الاتجاه الكمي مجموعة مختلفة من طرق البحث، والتي تمثلها بصورة نموذجية: التجارب، والمُسوح/ أو الاستبيانات، والتقييم، وتحليل المضمون، والتحليل الإحصائي. ولما كان الاتجاه الكمي قائماً على أساس المُسلّمات الوضعية (ولو أن الباحثين من الآخذين بوجهات نظر إبستمولوجية أخرى، بما فيها وجهة النظر النسوية، يستعملون التصميمات البحثية الكمية)، فإن طرق القياس تكون ملائمة لهذا النسق الاعتقادي الفكري والإبستمولوجي، وهو النسق الذي يوجه الباحثين في اختيار طرق البحث وتطبيقها. ووفقاً لذلك، فإن هذه الطرق هي تلك التي تأخذ بعين الاعتبار مسألة اختبار الفروض وتنتهي بتقديم نتائج رقمية كمية.

وقد يصف بعض الباحثين طرق البحث الكيفية وطرق البحث الكمية بأساليب نمطية جامدة. فبالعودة إلى التفكير فيما قدمناه من مقارنة بحثية لصورة الجسد بين الاتجاه الكمي والاتجاه الكيفي، فإن ما تقدّمه المُسوح من بيانات قابلة للقياس قد تُسمى ببيانات علمية، وتتصف بالثبات، وتمثل مجتمع البحث، والصدق، والموضوعية. وبالمثل، قد توصف البيانات الوصفية الحية المستمدة من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة بأنها بيانات رخوة وقصصية، ومحددة بالأوضاع والظروف، وجزئية وذاتية. وكما يمكن أن ترى، فإن هذه الصفات جميعاً تجعل طرق البحث الكيفية تبدو وكأنها أقل أهمية من طرق البحث الكمية. وهذا الترتيب التدرجي القديم العهد والناجم عن التفكير النمطي الجامد، والذي يضع البحث الكمي في رتبة أعلى من البحث

الكيفي ليقوم في كثير من الأحيان على أساس طرق البحث المستخدمة ونوع البيانات التي تنتجها هذه الطرق. فمن الواضح أن أدوات القياس الكمية يُفترض فيها أنها دقيقة، كما يُفترضُ تبعاً لذلك أن البيانات الناتجة من استعمالها تترسخ بناءً على التسليم سلفاً بصدقها. أمّا طرق البحث الكيفية ذات النهايات المفتوحة والقائمة على تتبّع موضوعاتها، والمتمثلة في المقابلة، والملاحظة، وتحليل المضمون، فإنه يُفترض فيها -وبوصفها مقابلاً لطرق البحث الكمية- أنه يتقصّها الصدق وهي تسعى للوصول إلى العمق والأصالة. وإن من المهم أن نضع نصب أعيننا أن مفهومنا عن "الصدق" إنما ظهر وتبلور في ارتباط مباشر مع العلم الوضعي، والذي يُعدّ المقياس الذي يقاس به الصدق.

وقد تسببت الاتجاهات الكيفية في جعل مفهومنا للمشروعية نفسه موضعاً للخلاف والجدال، وذلك بالرغم من أن الترتيب التدرجي القديم العهد (الذي يُعطى البحث الكميّ رتبةً أعلى من البحث الكيفي) يظلّ مسألة خلافية كذلك. وقد مارس هذا التفضيل للمذهب الوضعي ضغطاً رهيباً على الباحثين لكي يمتثلوا لهذا النموذج البحثي المتوارث والذي يحظى بالمزيد من القبول. إذ سرعان ما يكتشف الباحثون -الذين يسعون للحصول على تمويل لدراساتهم- أن البحث الكميّ الوضعي هو الذي يحظى بالتمويل في كثير من الأحيان، والتمويل بمبالغ ضخمة، وأن فرصته أرجح من فرصة البحث الكيفي في أن يُنشر في المجلات العلمية المحكمة من المستوى الأرقى. وترتبط هذه الحقائق المادية بالطريقة التي يُنظرُ بها إلى أعمال الباحثين الكيفيين داخل مؤسساتهم الأكاديمية وبين نظرائهم في نفس التخصص. وتؤدي هذه الآليات الخاصة بتفضيل البحث الكمي، وكذلك مكافأة الباحثين المتوائمين مع هذا النموذج المعتمد؛ يؤديان معاً إلى إيجاد بيانات تتعرض لضغوط شديدة الفعالية تتغلغل فيها، وهي نفسها التي يتوجبُ على الباحثين الكيفيين أن يعملوا بداخلها. وسوف نواصل مناقشتنا لمسألة الصدق في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وبالرغم من أن طرق البحث المتعددة قد تُستعمل لدواعٍ مختلفة، فإن الباحثين الكيفيين -الذين يتعرضون للضغوط الخارجية التي تُشجّع البحث

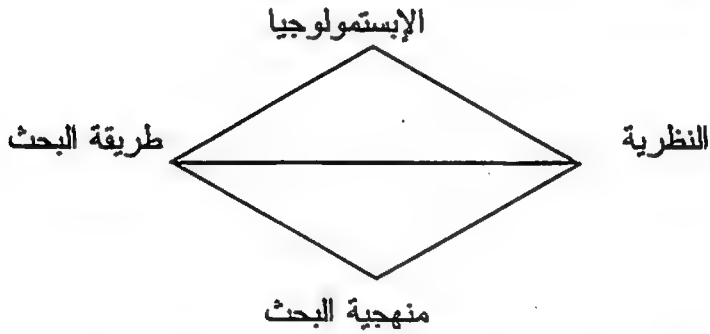
الكمي- قد يتبنون توجهات تقوم على استخدام طرق بحث متعددة كوسيلة للجمع بين طرق البحث الكيفية والكمية. مثال ذلك أن مادلين آلتابي (Madline Altabe 1998) جمعت بين الاتجاهين الكمي والكيفي لكي تدرس العلاقة بين التنوع الإثني واضطراب صورة الجسد. فإن كان الباحث يستعمل طرق البحث الكيفي في البحوث التي تستخدم ثلاث طرق بحثية أو بحوث تؤكد نتائج دراسات سابقة، فالأرجح أن يفضل الباحث البيانات الكمية إذا تبين وجود فرق بين النتائج الكمية والنتائج الكيفية وبدأ أنها غير متطابقة. وبناءً على ما قلناه هنا، فإن البحث الكيفي يتميز من حيث أنه يستعمل - في كثير من الأحيان - طرق بحث متعددة داخل سياق المشروع البحثي الواحد لكي يطرح أسئلة بحثية معقدة ولكي يجيب عنها.

وبجانب ما تقوم به الخطط البحثية ذات الطرق المتعددة في البحث من جمع بين الأساليب الكيفية والكمية، فإنها قد تظفر بالبيانات الكيفية في أشكال مختلفة. ومن المهم أن ننتبه إلى أن الخطط ذات الطرق البحثية المتعددة، وعند تنفيذها على خير الوجه، لا تقتصر فقط على استخدام أكثر من طريقة واحدة من طرق جمع البيانات بعبارة الحصول على "مزيد من البيانات" في حد ذاتها. ذلك أنه عند استعمال طرق البحث المتعددة، فإن هذه الطرق تتفاعل مع بعضها وتبعث الحياة في العملية البحثية ككل. والباحثون الكيفيون الملتزمون بأحد الاتجاهات الكلية في بناء المعرفة يدركون هذه الحقيقة إدراكاً تاماً. يضاف إلى ذلك أن الخطط التي تستعمل طرقاً متعددة في البحث تساعدنا في صياغة أسئلة بحثية جديدة لم يكن من الممكن صياغتها بدون هذه الطرق. وبالمثل، فإن المشروعات التي تستعمل طرقاً بحثية متعددة تساعدنا على تناول أسئلة سبق طرحها من قبل فتطرحها بأساليب جديدة وتكون ذات مدى أبعد في كثير من الأحيان. بل يصل الأمر إلى أن بعض الخطط القائمة على طرق بحثية متعددة قد تؤدي إلى تطوير طريقة بحث مستحدثة تماماً.

منهجية البحث: جسر بين النظرية وطريقة البحث

نتشابهك الإستمولوجيا، والنظرية، وطريقة البحث لتتشئ ما نسميه الرابطة البحثية، هذا فضلاً عن أن النظرية وطريقة البحث تجمعهما كذلك

علاقة متفردة مهمة داخل العملية البحثية. وإن الميثودولوجيا أو منهجية البحث هي التي فيها تلتقي النظرية بطريقة البحث لكي يُقدما معاً دليلاً لخطوة البحث ودليلاً يسرى في جميع أجزاء هذه الخطوة ابتداءً من صياغة الأسئلة مروراً بالتحليل وصولاً إلى عرض النتائج. وتشرح هاردنج ذلك بأن منهجية البحث هي بمثابة نظرية تبين كيف سينفذ البحث أو كيف ينبغي أن يأخذ مجراه (١٩٨٧، ص ٣). ومنهجية البحث هي الجسر الذي يجعل النظرية وطريقة البحث، أو قل يجعل المنظور الفكري وأداة البحث يلتقيان معاً. ومن المهم أن نتذكر أن هذا جسر ينتقل عليه الباحث في كل خطوة من خطوات عملية البحث. معنى ذلك بعبارة أخرى أن منهجية البحث تدمج النظرية وطريقة البحث في كيان واحد، مؤديةً بذلك دور الموجه الإستراتيجي -ولكن المرن- على امتداد التجربة البحثية. ولأن منهجية البحث منهجية مرنة، فإن بالإمكان تغييرها أثناء البحث إلى المدى الذي تَسْمَحُ به معتقدات الباحث الإستمولوجية فيما يتعلق بالتعديل والتحوير. ومن المرجح أن يؤثر تصورُ الباحث للذاتية والموضوعية على ما إذا كان سيراجع منهجية البحث الخاصة بهما بمجرّد البدء في جَمْع البيانات أم لا.



شكل ١/١ منهجية البحث: الجسر الرابط بين النظرية وطريقة البحث.

شاهد ذلك أن الباحثة النسوية إنجريد بوتنج, Ingrid Botting, (2000) أجرت دراسة على خدم المنازل ابتداءً من سنوات عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين الذين هاجروا إلى إحدى المدن الصناعية الصغيرة في نيوفاوندلاند (بكندا) للعمل بها. وقد قامت مرتين بتعديل مشروعها البحثي في ضوء مدى إمكانية الوصول إلى البيانات وعلى ما تحصلت عليه من نتائج

أولية، وهو الأمر الذي أدى إلى نوع من إعادة تشكيل البحث. وتبيّن تجربة بونتج مدى أهمية التأمل النقدي (الانعكاسية) في العملية البحثية وكذلك مدى أهمية ما يتصف به البحث الكيفي من طبيعة كلية وخضوع لمقتضيات العملية البحثية (فقد جمعت دراستها بين التواريخ الشفاهية للأفراد وإحصاءات التعدادات السكانية). ومن خلال قيامها بعملية تأمل نقدي دقيق، كانت بونتج قادرة على قراءة هذه البيانات^(*) وفهمها وترتيب النتائج عليها. ولذلك استطاعت، في نهاية الأمر، ومثلما استطاع كثير من الباحثين الكيفيين النسويين، أن تدعّ خطة بحث تكون فيها البيانات قادرة - أفضل ما تكون القدرة - على "التعبير عن نفسها".

بينما توجد طرق بحث تزودنا عموماً ببيانات كمية، ومنها مثلاً طريقة التاريخ الشفاهي، وطريقة المقابلة المتعمّقة، وطريقة البحث الإثنوجرافي، فإن بالإمكان استعمال طرق بحث أخرى كثيرة، كطريقة تحليل المضمون مثلاً، بأسلوب كيفي وبأسلوب كميّ على السواء. وكما ظهر لنا من استعراض الاتجاهات التي تستعمل طرق بحث متعددة، فإن الباحثين الكيفيين كثيراً ما يستعملون طرق بحث توفر بيانات كمية. زد على ذلك أن التوجهات النظرية لا هي كفية ولا هي كمية بحكم طبيعتها، وهو الأمر الذي برهن عليه الباحثون الكميون الذين يلتزمون بوجهة نظر نسوية أو الباحثون الذين يجرون بحوثاً نسوية إمبيريقية يتبنون فيها توجهاً وضعياً. فالباحثون النسويون ينتفعون بتلك التشكيلة الكاملة من طرق البحث المتوافرة، بما فيها المسوح الاجتماعية، والتي من شأنها أن تزودنا بنتائج كمية. وسوف نقوسّع الآن في شرح الإسهامات التي قدّمتها الحركة النسوية وغيرها من التوجهات النظرية لإثراء وتنويع ودعم تقبل البحوث الكيفية والإقبال على ممارستها. وفوق ذلك، سوف نبيّن الطريقة التي بمقتضاها ننظر جميع توجهات الممارسة البحثية الكيفية - كل بأسلوبه - إلى البحث باعتباره عملية كلية، كما سنبيّن كيف وسّعت هذه الاتجاهات نطاق أفكارنا الخاصة ببناء المعرفة.

(*) في الأصل الإنصات إلى هذه البيانات، والمعنى في كل الأحوال هو: قراءتها قراءة فاهمة مستوعبة. (المراجع)

المفاهيم الكلية لبناء المعرفة: المنظورات الكيفية

كنا ... حتى الآن - نناقش موضوع البحث الكيفي تحت مظلة التراث التأويلي، واقتصرنا على التلميح أو الإشارة إلى الاختلافات الموجودة في التطبيق الكيفي. فمع أن البحث الكيفي يتم إجراؤه بصفة عامة انطلاقاً من وجهة نظر أحد الاتجاهات الاستقرائية، وعلى الرغم من أنه يهدف إلى استخلاص المعنى الاجتماعي، وفهم العمليات الاجتماعية، وتوليد النظرية، فإنه توجد وجهات نظر كثيرة أخرى يتم إجراء البحث انطلاقاً منها. وهذه الرؤى والاتجاهات تختلف فيما بينها اختلافاً هائلاً، مما يجعلها تقدم للعلماء الاجتماعيين تشكيلةً من الأساليب لمزاولة البحث الكيفي، بجانب ما تقدمه لهم من الأساليب المتنوعة في التفكير في المعرفة وفي إنتاجها.

ما بعد الوضعية

يرتبط البحث الكيفي - كما هو معروف - بالمنظورات الفكرية التأويلية، والنسوية، والنقدية، ولا يرتبط بالمنظور الفكري الوضعي ولا بالمنظور الفكري لما بعد الوضعية، وهما المنظوران اللذان يمثلان نقطة انطلاق الباحثين الكميّين في عملهم؛ ومع ذلك توجد حالات لباحثين يعملون انطلاقاً من اتجاهات وضعية واتجاهات ما بعد الوضعية في ممارسة البحث الكيفي. وقد ناقشنا حالاً المعتقدات الأساسية للوضعية، لذلك فإننا سنتناول هنا - بصورة موجزة - ما بعد الوضعية باعتبارها اتجاهاً غير نمطيّ بالنسبة للباحثين الكيفيين.

إن ما بعد الوضعية توجه شديد الشبه بالوضعية، ويتمثل الفارق بينهما في أنه، عند دراسة الحقيقة الاجتماعية، تنتبّه ما بعد الوضعية إلى أنه لا يمكن للباحثين أن يكونوا وضعيين بصورة مطلقة فيما يتصل بدعواهم المعرفية (Creswell, 2003, p.7). وللتخلص من الفكرة الوضعية الخاصة بالبرهنة على وجود العلاقات العلية التي يتكوّن منها العالم الاجتماعي، يقوم الآخزون بما بعد الوضعية ببناء الدليل (أي تجميع الشواهد) لتأييد نظرية قائمة من قبل. وبتعبير آخر، يحاول الآخزون بما بعد الوضعية، باعتمادهم على المنطق الاستدلالي واختبار الفروض؛ يحاولون خلق الدليل الذي يعزز أو يُفند إحدى

النظريات، وإن لم يكن ذلك بصورة مُطلقة. وموجَزُ القول، إن ما بعد الوضعية تسلم بوجود حقيقة موضوعية "موجودة خارجياً": وتتكون من علاقات السبب والنتيجة القابلة للاختبار. وعلى ذلك فإن الحقيقة موجودة بصورة مُستقلة عن الباحث وعن المشروع البحثي. فهؤلاء الباحثون، وباعتمادهم على المنطق الاستدلالي، يشتغلون بالقياس وباختبار الفروض لكي يُنشئوا الدليل الذي يؤيد، أو يُفند، نظرية موجودة من قبل. وكما ترى، فإن هذا المنظور الفكري (لما بعد الوضعية) إذا أدخلنا في اعتبارنا ما به من مُسلمات تتصل بالحقيقة وبناء المعرفة، فسوف نتيين أنه أكثر توافقاً مع التحليل الكمي؛ ومع ذلك، فإن بعض الباحثين الكيفيين قد يختارون -أيضاً- أن يعملوا انطلاقاً من هذا النوع من أطر العمل النظرية.

ويعمل الباحثون الكيفيون -بصورة عامة- تحت المظلة التأويلية (وهو مصطلح نستعمله بشكل فضفاض)، وإن كان هذا لا يعني أن هؤلاء الباحثين يتبعون التراث التأويلي في حد ذاته. وبعد أن فرغنا توا من استعراض موضوع التراث التأويلي، سوف نتكلم الآن عن غيره من المنظورات الفكرية الرئيسية التي تقع ضمن إطار عمل أكثر تأويلية، وتميل إلى دراسة العالم الاجتماعي باعتباره ذا بنية اجتماعية محددة. وسوف نناقش، على وجه الخصوص، ما قدمته المنظورات الفكرية الإثنوميثودولوجية، والظاهراتية، والنسوية، والنقدية من إسهامات في مجال البحث الكيفي. ولم يقتصر ما قدمته هذه الاتجاهات من إسهام كبير على البحث الكيفي فقط بل شمل هذا الإسهام أيضاً تصوراتنا عن الحقيقة الاجتماعية، والمعرفة، وإنتاج المعرفة. فهذه الاتجاهات تعُدّ مواقف نظرية وإستمولوجية بعيدة الأثر وشديدة الاتساع تتطوي في داخلها على كثير من الاختلافات والتنويعات. وعلى ذلك، وكُمقدمة لهذه الاتجاهات، سوف نتكلم عنها بصورة عامة أساساً. ويرجى التنبُّه إلى أن استعمالنا للتعميمات يعني أننا سوف نغض الطرف عن كثير من الاختلافات الدقيقة، والفوارق، والتوترات الموجودة داخل هذه المنظورات الفكرية، ومن ثم فلن نتناولها في مناقشتنا. وللحصول على مناقشة أكثر عمقاً لهذه الموضوعات، يرجى الرجوع إلى كتابنا بعنوان "المدخل إلى البحث النسوي" (Hesse-Biber & Leavy, A Feminist Research Primer, Sage).

الظاهراتية

ترجع الأصول الأولى للظاهراتية (الفينومينولوجيا) إلى القرن التاسع عشر^(*)، والتي ظهرت في جانب منها كنقد للوضعية. وكان المفكرون الظاهراتيون ينتقدون العلوم الطبيعية لأنها تسلم بوجود حقيقة "موضوعية" مستقلة عن الوعي الفردي. وترتبط الظاهراتية ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة الأوروبية في مطلع القرن العشرين، والتي من أشهر مؤلفاتها أعمال الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل Husserl (هوسرل، ١٩١٣ [باللغة الألمانية] وترجم "إلى الإنجليزية" في سنة ١٩٣١؛ وانظر أيضاً هيدجر Heidegger)، كما ترتبط بالمفكر الظاهراتي الفرنسي ميرلوبونتي Merleau-Ponty (١٩٩٦). فقد كان هوسرل مهتماً بالوعي الإنساني باعتباره الطريق الموصل إلى فهم الحقيقة الاجتماعية، وخاصة ما يتصل بالطريقة التي بها "يفكر" المرء في الخبرة التي يعايشها. أو بتعبير آخر، "كيف يشعر المرء بوعيه". وفي رأى هوسرل، أن الوعي يكون "مُعَمَّداً" على الدوام، وبهذا المعنى، فإنه يكون موجهاً إلى ظاهرة ما. ويمكننا فهم الطريقة التي يعمل بها الوعي من إدراك الطريقة التي يخلق بها الأفراد فهمهم للحياة الاجتماعية. وكان هوسرل مهتماً بصفة خاصة بمسألة: كيف يعيش الأفراد خبرتهم بصورة واعية. كيف يتأتى لنا أن نصبح واعين بخبراتنا؟ وقد نقل ألفرد شوتز Alfred Schutz (١٩٦٧) - وهو أحد رفاق هوسرل - الفلسفة الظاهراتية إلى علم الاجتماع الأمريكي. فقد كان مهتماً اهتماماً خاصاً بالطريقة التي يدمج بها الأفراد خبرتهم في حياتهم اليومية. فالظاهراتية ليست فلسفة فقط وإنما هي - إلى جانب ذلك - طريقة من طرق البحث التي تهدف إلى إدراك ما يُعايشه الأفراد من خبرات. والظاهراتيون مهتمون بمسائل من قبيل:

- كيف يخبر الأفراد الموت أو الاحتضار؟ (Kubler-Ross, 1969)
- كيف يخبر المرء الاكتئاب؟ (Karp, 1997)
- كيف يخبر المرء واقعة الطلاق؟ (Kohler-Riesman 1987).

(*) ورد في النص الأصلي لفظ "القرن الثامن عشر"، وصحته "القرن التاسع عشر"، لأنه يتحدث عن الظاهراتية كاتجاه ينتقد الوضعية، والوضعية ظهرت في القرن التاسع عشر، حيث عاش واضعها أوجست كونت بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨٥٧ (المترجم).

ويرى المفكر الظاهراتي أنه لا توجد "حقيقة واحدة" للطريقة التي يمكن أن نخبر بها هذه الأحداث. ذلك أن الخبرة إنما تُدرك إدراكاً حسيّاً بالتوازي مع مجموعة متنوعة من الأبعاد والتي منها: كيف تُعاشُ الخبرة في الزمان والمكان وفي مواجهة علاقتنا بالآخرين، وكذلك كيف تُعاشُ الخبرة الجسدية. ويستعمل الظاهراتيون مجموعة متنوعة من طرق البحث، بما فيه الملاحظة، والمقابلة المتعمقة، وطريقة فحص الروايات المكتوبة للخبرات والموجودة في مواد كالفيديوهات مثلاً. لذلك فإن نمط السؤال الذي قد يُطرح في إحدى المقابلات ويتعلق بخبرة من الخبرات المذكورة هنا بعاليه يمكن أن يكون:

- هل تستطيع أن تُخبرني ما معنى أن تعيش حياة الاكتئاب (مهتداً بالموت الوشيك أو الطلاق)؟

وموجز القول إن الظاهراتية منظور فكري استهدف توليد المعرفة المتصلة بالطريقة التي يعي الناس بها الأمور.

الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة)

تعتمد الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) على الفلسفة الظاهراتية وترتبط بها في كونها تركزان على العملية التي بها يفهم الأفراد العالم الذي يعيشون فيه ويُضفون عليه معنىً من معاني النظام. ويهتم المفكرون الآخذون بمنظور منهجية الجماعة اهتماماً خاصاً بالطريقة التي يتم بها تداول المعنى في سياق اجتماعي معين من خلال عملية التفاعل مع الآخرين. وقد تم الترويج لمنهجية الجماعة كمنظور فكري في حقل علم الاجتماع خلال ستينيات القرن العشرين، من خلال كتاب هارولد جارفينكل Harold Garfinkel (1967). ويطرح مفكرو الإثنوميثودولوجيا أسئلة من قبيل الأسئلة التالية:

- كيف يفهم الناس حياتهم اليومية؟
 - ما هي الإستراتيجيات المعينة - وبالذات ما يبدو منها بديهيًا - التي يستعملها الأفراد في عملية صناعة المعنى (أي إضفاء المعنى)؟
- ويرى المفكر الإثنوميثودولوجي أن الحياة الاجتماعية يتم خلقها وإعادة خلقها بناءً على الفهم الدقيق الذي يضيفه الأفراد على "السياقات الاجتماعية" لحياتهم اليومية. ويستعمل مفكرو منهجية الجماعة طائفةً من طرق البحث

اللازمة لمباشرة عملهم في فهم عملية صناعة المعنى، وتتراوح هذه الطرق بين طريقة ملاحظة الأفراد في المواقف الطبيعية أثناء مباشرتهم لأموهم اليومية المتكررة، وطريقة الملاحظة بالمشاركة، والمقابلة. ويهتم مفكرو الإثنوميثودولوجيا بصورة خاصة بالطريقة التي بها يشارك الأفراد في الحوارات المتعلقة بخبراتهم، فيتساءلون - مثلاً - عن:

• كيف يتم خلق المعنى في الحوارات اليومية التي يجريها الأفراد فيما بينهم؟

وكما ترى فإن هذا التراث يتلاءم مع الطرق الكيفية. وبتعبير آخر، تتوافق المبادئ والأسس النظرية الرئيسية في الإثنوميثودولوجيا مع طريقتي الملاحظة والمقابلة اللتين تحتلان مكان الصدارة في ممارسة البحوث الكيفية.

المنظورات الفكرية النسوية

تطورت المنظورات النسوية باعتبارها أسلوباً لمعالجة الهموم أو المشاغل والخبرات الحياتية للنساء والفتيات اللاتي - وبسبب التحيز الذكوري الشائع - أمضين زماً طويلاً وهنَّ مُستبعدات من مجال بناء المعرفة سواء كنَّ باحثات أم كنَّ مبحوثات (أي موضوعات للبحث). ويُعدُّ تاريخ مقاومة التحيز الذكوري في العملية البحثية، والذي أعقبه دخول النساء في مجال البحث العلمي الاجتماعي، يُعدُّ من الأمور المهمة والمثيرة للاهتمام؛ وإن كان أمراً هامشياً بالنسبة لمجال الاهتمام الرئيسي لهذا الكتاب. وقد آل هذا الوضع إلى دخول النساء في العملية البحثية، ولو أن العملية البحثية نفسها ظلت على حالها لا اعتراض عليها. وبمرور الزمن، آل أمرُ الباحثين الذين يعملون انطلاقاً من وجهة نظر الفكر النسوي إلى التنبُّه إلى أن إضافة النساء إلى الأطر الفكرية الموجودة على الساحة بالفعل - كالوضعية مثلاً - إنما تكرر عملية إنتاج المعرفة المتبعة تقليدياً، وهو التكرار الذي يتم في وقتنا هذا بعد دخول النساء في هذا المجال - من الناحية العددية على الأقل - (للاطلاع على مناقشة مُتعمِّقة لهذا الموضوع، يُرجى الرجوع إلى كتابنا "المدخل إلى البحث

النسوي"). وهذه هي النقطة التي يندمج فيها حوارنا عن الفكر النسوي والبحث الكيفي مع هذا التقدم التاريخي.

بدأ كثير من المفكرين النسويين في التشكك في طبيعة بناء المعرفة نفسها، مدركين - على الدوام - أن الاهتمامات الجوهرية الجديدة وما يتصل بها من قضايا ومسائل بحثية (تتركز حول النساء) تتطلب استعمال أساليب جديدة في التفكير في البحث العلمي وفي مزاولته. وفي هذا الاتجاه بدأ بعض المفكرين النسويين في الاعتراض على المسلمات الإستمولوجية الرئيسية التي تركز عليها الفلسفة الوضعية. وقد أدت هذه الاعتراضات المبدئية إلى نوع من تجلية الحقائق المتعلقة بهذا النموذج السائد وبما أعقبه من التحولات والتغيرات في موضوع: ما الذي يمكن اعتباره قابلاً للمعرفة، وموضوع: كيف نتحصل على المعرفة.

وبصورة عامة، يعترض الفكر النسوي على ما يسود الوضعية من تفكير ثنائي، ومن ثم يزودنا بأساليب بديلة للتفكير في الحقيقة الاجتماعية، وللتفكير - بالتوازي مع ذلك - في العملية البحثية. وينتقد المفكرون النسويون الفصل بين الذات والموضوع (أي بين الباحث والمبحوث) باعتباره نوعاً من الازدواجية الزائفة التي تعد في ذاتها ازدواجية معيبة، ومُصطنعة وغير مرغوب فيها مطلقاً. ولهذا الانتقاد الذي يوجهه الفكر النسوي للفصل بين الذات والموضوع جذوره الموجودة في الجهود المبكرة التي بذلها المفكرون النسويون لفصح ومقاومة استبعاد النساء عن البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والطبيعية. شاهد ذلك أن هالبين Halpin (١٩٨٩) يربط - على نحو له دلالاته - بين الموضوعية العلمية التقليدية والعملية العامة للوصف بالمخالفة (أي وصف الغير بأنهم مختلفون عنا Othering، وهي العملية التي بمقتضاها اعتبرت النساء، والملونون، والأقليات الجنسية^(*) "مخالفين" "Other"، وعوملوا نتيجة لذلك بوصفهم أدنى مكانة من العالم الذكوري

(*) المقصود بذلك الجنسيون المثليون، الذين كانوا يعدون من وجهة نظر الأغلبية "آخرين" أي "مخالفين" أو "مختلفين" (المراجع).

الميل الجنسي الطبيعية^(*)، الأبيض اللون، الملتزم بالتقاليد. وقد أدت هذه العملية إلى ممارسة عملية قهر منظم في المجال العلمي" (Halpin, 1989). وقد تمثل أحد الأبعاد الرئيسية لهذا الاستبعاد/أو التشويه التاريخي المنظم (للمرأة، والملونين، والمثليين.. إلخ). في وضع الباحث في مستوى أعلى من المبحوثين، لأن الباحث يعتبر نفسه الطرف العارف (Sprague & Zimmerman, 1993).

وقد ظهرت النزعة الفكرية النسوية نفسها انطلاقاً من هذا الصراع التاريخي، وذلك في سياق سعيها إلى الكشف عن حقائق ترتبط بالظروف المحيطة بالحدث وتنسب بأنها ذات طبيعة جزئية، وحريصة على تحاشي الأحكام المطلقة التي قامت على امتداد التاريخ بقهر النساء وغيرهن من الأفراد المهمشين. معنى ذلك بعبارة أخرى أن مفكري النزعة النسوية يرفضون ما لدى الوضعية وما بعد الوضعية من "رؤية لا مصدر لها" (أي رؤية مطلقة) تسلم بها "الموضوعية" العلمية التقليدية. وهي تفعل ذلك من أجل خلق "رؤية لها مصدر" ما (Sprague & Kabryniewicz, 1999) أي خلق رؤية ملتزمة.

(*) التعبير الأصلي heterosexual male، وطبيعي أن يترجم "الذي يمارس الجنس مع النساء" - إن شئنا ترجمة حرفية - أما إذا أردنا فهم سياق الكلام فهماً دقيقاً وشاملاً، لأن الحديث عن الميل الجنسي للأفراد سيرد في الكتاب كثيراً، وقد فرضت ضوابط وقواعد على توصيف هذا الميل. فلم يعد من المسموح به - بسبب قوة ضغط المثليين - وصف ميل الأفراد العاديين (الرجل الذي يجامع امرأة، والمرأة التي تجامع رجلاً) بأنها "الميل الطبيعي"، ولا وصف الميل المثلية بأنها "شاذة" كما نفعل نحن في خطابنا اليومي العادي في مجتمعاتنا العربية. من هنا أثبت هذا التعبير "الذكر ذو الميل الجنسي الطبيعية" للتوضيح، ولمرة واحدة، وسنعود إلى وصف هذا الميل "الطبيعي" بأنه الميل الجنسي "العادي"، أو الممارسة الجنسية "العادية".

ومع كل هذه التحفظات فإن هذا الكتاب نفسه سوف يستخدم في عشرات المواضع وصفاً لصاحب الميل الجنسي الطبيعي بأنه Straight. ولو فتحنا أي قاموس لغوي سنجد هذه الكلمة مرتبطة بعشرات المعاني التي تدل على الاستقامة، والصحة، والأمر القويم، والأمين، والشريف، والمنصف العادل... إلخ وأخيراً: "مشته المغاير (جنسياً)". فوصف الطبيعي متجذر في اللغة الإنجليزية، ولكننا مع ذلك نستخدم وصف "العادي" بدلاً من "الطبيعي" (المراجع).

ولا يعني هذا الكلام أن المفكرين النسويين لا يشتبكون مع القضايا المعقدة المتصلة بالموضوعية والمتضمنة داخل العملية البحثية. فالواقع أن الفكر النسوي لم يقتصر على مجرد الارتباب في مسلماتنا الخاصة "بالموضوعية" بل قدّم أساليب جديدة مثيرة للتفكير فيها، مضيفاً بذلك إضافة كبيرة للنظريات والممارسات البحثية. فكثير من الباحثين النسويين لا يهدفون إلى التخلي عن الموضوعية، إنما يهدفون إلى تحويلها لتتحول إلى "موضوعية نسوية" (Bhavani, 1993; Haraway, 1991; Harding, 1993).

إن الموضوعية النسوية تعني ببساطة تامة المعارف المحددة بأوضاع أو مواقف خاصة. (Haraway, 1988, p.581).

ويعني هذا أن المفكرين النسويين يسعون للارتباط بالموضوعية البحثية، في نفس الوقت الذي يعترفون فيه باستحالتها، وذلك بناءً على حقيقة أن البحث العلمي كله إنما يجري داخل سياق اجتماعي ما.

تهتم الموضوعية النسوية بالوضع المحدود والمعرفة المحددة بوضع معين، ولا تهتم بالتعالى^(*) Transcendence وفصل الذات عن الموضوع. إنها نتيج لنا أن نصبح مسئولين عما نتعلم كيف نراه. (Haraway, 1988, p. 583).

وبعد تعرية ثنائية الموضوعية والذاتية (أو الباحث والمبحث) وضعتهما الموضوعية النسوية في علاقة جدلية يتم الالتزام بها على امتداد العملية البحثية بأسرها. (Hesse-Biber, et al., 2004). كما كانت ساندرا هاردنج في الطليعة من هذا النقاش (Sandra Harding, 1993).

(*) التعالى (الترانسندنتالية) مفهوم فلسفي يقوم على الاعتقاد بأن الله يقف خارج العالم الذي خلقه، ويوجد مستقلاً عنه. وهي تقابل عادة فكرة الحلول، أى الإيمان بأن الله يسكن هذا العالم، أى حال فيه. ويلاحظ أن مذهب الحلول شائع فى فلسفة وحدة الوجود، التى ترى أن الإنسان والطبيعة يمثلان جانبيين من جوانب كيان مقدس يحيط بكل شيء. والمعروف عادة أن الوحدانية أى ديانات التوحيد تأخذ بفكرة التعالى. للمزيد انظر: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق. (المراجع)

وترى هاردنج أن التصور الوضعي للموضوعية ليس هو الأمر المُشكّل، إنما يتمثل الإشكال في التطبيق المحدود "للموضوعية" داخل العملية البحثية الفعلية. وهذا مثال ممتاز لنوع التفكير الكليّ الشامل الذي نعتقد أنه يسمّى البحث الكيفي بسمّة خاصة ويُميزه عن البحث الكمي. وقد صكّت هاردنج مصطلح "الموضوعية القوية" باعتبارها وسيلة لحثّ الباحثين على تطبيق الموضوعية والانعكاسية (التأمل النقدي) على امتداد العملية البحثية. ونعني بالانعكاسية ذلك التساؤل المستمر عن مكان المرء (أي الباحث) وماله من علاقات قوّة داخل العملية البحثية كلها. وتشرح هاردنج ذلك الكلام قائلة إن الموضوعية، وعلى امتداد تاريخها، (وسواء أكانت هي المسؤولة عن إظهار نفسها بشكل معيب أم لا) لم تُطبّق إلا في مجال التبرير. ويشير هذا الكلام إلى التبرير الذي يُقدّمه الباحث ليبرر به "الطريقة" التي اتّبعتها في تقسيم المبحوثين إلى عينات أو في اختيارهم، وفي استعمال طرق البحث، وفي الاستيثاق من صدق أدوات القياس، وما إلى ذلك، وليس لتبرير "السبب" في قيامه بهذه الأمور. وباستعمال الموضوعية "بقوّة"، تدعو هاردنج إلى التطبيق الصارم للموضوعية وللانعكاسية (النقد) على امتداد مجال الاكتشاف كذلك. ويعني هذا أننا عندما نختار موضوعنا، ونبتكر أسئلتنا البحثية الأولية، ونضع تصميم بحثنا، ونتحرك مُتتقلين من جَمع البيانات، إلى تحليلها، إلى عرضها وتصويرها، يجب علينا ألا ننكر وجود تلك النزعة الذاتية (أي انفعالاتنا، وميولنا السياسية، ومواقفنا الفكرية) والتي يأتي بها كل واحد منا للتأثير على البحث الذي نقوم به. وعلينا - بالأحرى - أن نعرّف بها، ونُبدِها للعيان، ونتعامل معها تعاملًا نقدياً. والمقصود من الإسهام الكبير الذي قدّمته هاردنج في مجال فهمنا للعلاقة بين الموضوعية - والذاتية على امتداد العملية البحثية أن يكون بمثابة نموذج للاختلاف، كما يمثل إضافة للحوار الفكري الكبير حول الموضوعية، والذي يُعدّ جزءاً من الفلسفة النسوية.

ومن الأمور المرتبطة برفض الفلسفة النسوية -عموماً- للفصل بين الذات والموضوع، والذي سبق لنا مناقشته، انتقادها للفصل بين "العقلي - والانفعالي"، والذي يُعدّ، شأنه شأن الفصل بين الذات والموضوع، مكوناً

أساسيا من مكونات الوضعية بل حتى من مكونات الأطر الفكرية لنزعة ما بعد الوضعية بعد ذلك. وللمرة الثانية نقول، لا يقتصر أمر الفصل بين العقلي والانفعالي على أنه فصل مُصطنع، بل هو إلى جانب ذلك فصل غير مرغوب فيه لدى كثير من الباحثين. وقد يَصْدُقُ هذا الموقف الفكري بصورة خاصة على المفكرين النسويين الملتزمين بتحسين فرص الحياة للنساء والفتيات على المستوى المحلي وعلى المستوى العالمي كليهما. ويمكن القول بعبارة أخرى إن الاهتمامات الرئيسية للمفكرين النسويين تدور حول العدالة الاجتماعية، وكنتيجة لذلك، تدور حَوْلَ العمل الإيجابي على الصعيد الاجتماعي، و حول التغييرات في السياسة الاجتماعية، كما أن ما لدى المفكرين النسويين من تطلعات سياسية قوية يُؤثّر على عملهم أثناء مراحل العملية البحثية جميعها (ابتداءً من اختيار الموضوع وحتى العرض النهائي للبيانات).

وكما تشرّح أليسون جاجار (Alison Jaggar, 1989)، وسبراج وزيمرمان (Sprague and Zimmerman, 1993)، فكثيرا ما تقوم العواطف بدور الحافز للقيام بأحد المشروعات البحثية. ويصدق هذا التصور على بحثنا عن الفتيات وصورة الجسد، والذي تبلور انطلاقاً من التزامنا السياسي والعلمي بقضايا النساء ومن خبراتنا الشخصية مع الطالبات اللاتي يعشن في أحد "قُور الضغوط الثقافية"^(*). وبالمثل، وفي حالة البحث الكيفي، والذي منه البحث الإثنوجرافي مثلاً، فإن العلاقات العاطفية المتبادلة قد تكون مصدراً مهماً وضرورياً للحصول على البيانات (Bailey, 1996). وفي نفس هذا الاتجاه، تؤيد باتريشيا هيل-كولينز (Patricia Hill-Collins, 1990) الالتزام بشكل متعدد الوجوه من أشكال "أخلاقيات العناية" ethic of caring الموجهة للباحث الملتزم تجاه موضوع بحثه. ولا شك أن الطبيعة السياسية للبحث النسوي، ولأي بحث يتمحور اهتمامه حَوْلَ الإصغاء إلى أصوات أولئك الذين كُتِمَتْ أصواتهم، والذين حُكِمَ عليهم بأنهم مختلفون، والذين تَسبَّبَ النظام الاجتماعي السائد في تهميشهم؛ تؤدّي هذه الطبيعة السياسية للبحث النسوي،

(*) تشبيه بالمناخ الذي تعيش فيه النساء تحت الضغوط الثقافية الشديدة بوضع "حلة الطهي بالبخار"، التي يعمل فيها ذلك البخار العنيف الساخن على طهي الطعام. (المراجع).

والذي يمثل ذلك العمل الذي قام به عدد من المتظررين الشواذ وغيرهم ممن يعملون انطلاقاً من أطر فكرية متعددة الثقافات، تؤدي طبيعة هذه البحوث النسوية إلى جعل مفهوم البحث "المتحرر من القيم" أو البحث "المحايدة تجاه القيم" مفهوماً لا لزوم له على كافة المستويات.

وبهذا الشكل فإن الاهتمامات الاجتماعية الجديدة (النسوية) لا تقتصر على التشكيك في مدى مشروعية النظرة الإستمولوجية السائدة، بل إنها -بجانب ذلك- تكشف عن الحاجة لأساليب جديدة في التفكير في المعرفة والعملية البحثية. وبإدخال هذا النقد النسوي العام والمركز - والذي يوجهه النسويون للوضعية ولما بعد الوضعية - في الاعتبار، تتضح لنا الأسباب التي أدت إلى أن يستعمل عدد كبير من الباحثين النسويين طرق البحث الكيفية باعتبارها الطرق الأساسية أو التكميلية. وبصورة عامة، تعدّ المسلمات الموجودة في طوايا الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها باستخدام طرق البحث الكيفي، كما تعدّ أنواع هذه الأسئلة كذلك، متوافقة مع مبادئ الفكر النسوي التي يؤمن بها الكثيرون. وبصفة خاصة، فإن طرق البحث الكيفية المتبعة في المقابلات الشخصية وفي الملاحظة تستلزم وجود علاقات متبادلة يوضع فيها الباحثون والمبحوثون على نفس المستوى في العملية البحثية. وبالمثل، فإن طرق البحث الكيفية تقتضي من الباحث أن يكون مشغلاً اشتغلاً عميقاً بهذه البيانات من أجل الوصول إلى استخلاص المعنى، وفهم العملية الدينامية، وتعديل المشروع لجعله مناسباً (إذا كان الباحث راغباً في ذلك).

مثال ذلك، وفي حالة البيانات المستقاة من المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة في إطار بحثنا عن صورة الجسد، حدث أثناء القيام بعملية جمع البيانات أن اتضح للباحثة التي أجرت هذه المقابلات (وهي هس-بيير) أن لدى الفتيات السود مشكلات ذات أهمية محورية عندهن تفوق ما عند الفتيات البيض اللاتي سبق للباحثة أن أجرت مقابلات معهن. وعن طريق تناول الباحثة لهذه البيانات الجديدة تناولاً نقدياً، استطاعت إدراك ما هو مهم في حيوات هؤلاء الفتيات المبحوثات.

وتتلاءم طرق البحث الكيفية مع هذا النوع من التناول الانعكاسي (النقدي)، لأن هذه الطرق تُوفّر لنا بيانات استكشافية، وصفية تتأثر بمسار العملية البحثية بدلا من أن تقوم بمحاولة البرهنة على وجود علاقات سببية مُفترضة أو تأكيدها. فلا تقتصر طرق البحث الكيفية على أن تسأل: "ماذا هناك؟"، ولكنها تهتم بقدر أكبر بأن تتساءل قائلة "اشرح لي: كيف تجري هذه العملية، ولماذا، وما هي بالضبط، وما هي دلالتها؟. وتتم الإجابة على هذه الأسئلة من خلال المعالجة الفكرية الكلية والانعكاسية (النقدية) على كافة المستويات. ولكن بعد كل هذا، هناك ثمة عدد كبير من الفروق والاختلافات داخل النموذج الفكري النسوي. ومادام يُوجد نقاش مستفيض لهذه الآراء في كتابنا الذي جعلناه بمثابة دليل نسوي لهذا الكتاب، فسوف نتناول الآن -وبصورة موجزة- مناقشة إبستمولوجيا الرؤية النسوية" بوصفها منظورا نسبيا واحداً ينطلق منه كثيرٌ من الباحثين في بحوثهم.

إبستمولوجيا الرؤية النسوية

بالاستفادة من أفكار هيجل Hegel عن جدلية العلاقة بين السيد والعبد، وما أعقبها من أفكار كارل ماركس Karl. Marx، قامت دوروثي سميث (Dorothy Smith, 1974) ونانسي هارتسوك (Nancy Hartsock) بدور رائد في صياغة إبستمولوجيا الرؤية النسوية. وتنهض هذه الإبستمولوجيا (والتي تطورت حتى صارت منهجية بحث أيضا) - في جوهرها- على المُسلّمة التي تقول إنه في عالم اجتماعي ذي بنية هرمية أو تدرجية، لابدّ من ظهور "رؤى" مختلفة. مثال ذلك، أن للولايات المتحدة تاريخاً طويلاً من التورط في الإبادة الجماعية والرق والتفاوت الاجتماعي العرقي المستمر. ويشكل هذا الوضع بيئة ذات بنية تدرجية هرمية في شتى حقول النشاط الاقتصادي، والاجتماعي والسياسي القائمة على تركيبة العرق و/أو الإثنية. ويكون للناس في مثل هذه البيئة آراء مختلفة عن العالم قائمة على هذا التصنيف العرقي الذي يُجسّدونه وعلى موقعهم ومكانتهم في هذه البنية

الاجتماعية، والتي تكون بالضرورة ذات طابع تدرجي هَرَمِيّ، ومن ثم تكون بنية قائمة على التنوع.

وقد ركّز المُنظِّرون النسويون أساساً على الموقع الذي تشغله النساء داخل بيئة اجتماعية تتسم بوجود نظام أبوي يُقسّم الناس على أساس الربط بين الجنس والنوع الاجتماعي. ويشغل النساء والرجال مواقع اجتماعية مختلفة (بل إنها مواقع أشد تعقيداً بسبب عوامل العرق، والطبقة، والسلوك الجنسي) من شأنها أن تؤدي إلى خلق خبرات حياتية مختلفة، وحظوظ متفاوتة في الحصول على المزايا الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، ومن ثم تكوين ما يترتب عليها من رؤى مختلفة. ويذهب بعض المفكرين المشغولين بقضية الرؤى الفكرية إلى أن رؤية النساء لا تقتصر على كونها رؤية مختلفة، ولكنها في الحقيقة أكثر اكتمالاً وأقل تشوّهاً لأنهن يشغلن موقع القهر مما أوجب عليهن أن يصلن لفهم وضعهن الاجتماعي الخاص، مع فهم وضع الجماعة المسيطرة (Hartsock, 1983; Jaggar, 1989).

وتشرح نانسي هارتسوك ذلك، معتمدةً على التحليل الطبقي عند ماركس، فتقول إن هذه الظروف المادية المتفاوتة (وهي الظروف الاقتصادية وظروف العمل) التي يعمل في ظلها الرجال والنساء تؤدي إلى وجود رؤى مختلفة. وفي مثل هذا الوضع، لا يقتصر الأمر على أن يكون للرجال والنساء وجهات نظر مختلفة، بل يتجاوز ذلك إلى أن تكون لهم خبرات مختلفة في المجال الخاص والمجال العام، وهي أوضاع من شأنها أن توفر مادة بحثية ضخمة للعلماء، كما توفر أسلوباً جديداً لمباشرة العمل في البحث العلمي.

يختلف عمل النساء في كل مجتمع بصورة منتظمة عن عمل الرجال. وأنا أعتزم أن أتبع الفكرة القائلة بأن هذا الشكل من تقسيم العمل هو أول تقسيم للعمل، أو هو التقسيم الوحيد للعمل في بعض المجتمعات، والقائلة فوق ذلك بأن هذا التقسيم أمر رئيسي لتنظيم العمل الاجتماعي بصورة أعم. وبناءً على أحد التفسيرات القائلة بتقسيم العمل على أساس الجنس، ينبغي على المرء أن يكون قادراً على البدء باستكشاف صور التعارض والاختلاف بين النساء

والرجال وما يترتب عليها من نتائج تتصل بالإبستمولوجيا (Hartsock, 1983, p. 154).

وعن طريق فحص الظروف التي في ظلها تظهر الرؤى المتباينة، والتي منها مثلاً تقسيم العمل -بين الرجال والنساء- في كل من المجال الخاص والمجال العام يتضح لنا أن الرؤية الفكرية هي بمثابة إنجاز يمكنك أن تحققه أو تتحصل عليه من خلال خبراتك الحياتية. ونحن نكتسب رؤيتنا المتفردة التي نلتزم بها من خلال ما نعيشه من ظروف الواقع المادية والمعنوية.

وقد أضافت باتريشيا هيل-كولينز (Patricia Hill-Collins, 1990) قدراً عظيماً جداً إلى فهمنا للرؤية الفكرية باعتبارها إحدى الإبستمولوجيات وباعتبارها منهجية بحث نقدية، وذلك من خلال تقديمها لفكرة "الإبستمولوجيا النسوية ذات المحور الإفريقي" التي تبدأ بالرؤية الفكرية المتفردة للنساء السود. وخلاصة الأمر أن هيل-كولينز تبيّن لنا أننا نعيش في "مصفوفة من السيطرة" يتفوق فيها تقدير أهمية العرق والنوع الاجتماعي في صلتهم ببعضهما البعض، مما يؤدي إلى إيجاد رؤية فكرية متفردة ترعاها "نظم القهر المتداخلة". وعن طريق وصول الباحثين إلى الرؤى الفكرية المختلفة الموجودة داخل عالمنا الاجتماعي، فإنهم يستطيعون أن يطرحوا أسئلة جديدة وأن يجيبوا عليها، وأن يعترضوا على المفاهيم المذكورة آنفاً عن الحقيقة وعن طرق تحصيل المعرفة، بل ويستطيعون أن يتحدوها.

من النادر أن تشكل دعاوى المعرفة البديلة في حد ذاتها، ولا دعاواها التي تزعمها عن نفسها، من النادر أن تشكل تهديداً للمعرفة التقليدية. ذلك أن أمثال تلك الدعاوى تتعرض بصورة روتينية متكررة -للتجاهل، أو التشكيك فيها، أو يُكتفى بامتصاصها وتهميشها داخل النماذج القائمة. أما ما يُشكل تهديداً أكثر فهو اعتراض الإبستمولوجيات البديلة على العملية الأساسية التي يقوم بها أصحاب النفوذ والقوة لإضفاء الشرعية على دعاواهم المعرفية. ذلك أنه إن أصبحت هذه الإبستمولوجيا المستعملة في إضفاء الشرعية على المعرفة محلاً للشك، فإن كل الدعاوى المعرفية السابقة التي اعتمدت في ظل النموذج

المسيطر تُصبحُ بدورها موضعا للشك. وتعترض الإستمولوجيا البديلة على المعرفة المعتمَدة كلها، وتثير السؤال عما إذا كان بإمكان ما يُعدُّ حقيقيا أو صحيحا أن يصنّفَ أمام الاختبار الذي تجريه الأساليب البديلة لإثبات الحقيقة أم لا. لذلك فإن وجود رؤية فكرية للنساء السود حُدثَها بأنفسهن عن طريق استعمال إستمولوجيا نسوية ذات محور إفريقي؛ إن وجود هذه الرؤية الفكرية يُشكك فيما يجري إقراره حاليا باعتباره الحقيقة، كما يتحدى- في نفس الوقت- عملية الوصول إلى تلك الحقيقة (Hill-Collins, 1990, p. 205-206).

وهكذا نستطيع أن نرى أن إستمولوجيا الرؤية الفكرية تزودنا بأسلوب جديد للتفكير في كل من الحقيقة الاجتماعية نفسها وفي الأسلوب الذي يمكننا من مباشرة دراسة تلك الحقيقة. وبالمثل، فإن الفلسفة النسوية تعتبر رؤية فكرية خاصة تم اكتسابها من خلال الممارسة الملزمة سياسيا، الأمر الذي يجعل من ممارسة البحث النسوي نفسه إنجازاً.

المنظورات الفكرية النقدية

الاتجاهات النقدية في بناء المعرفة - شأنها شأن المنظورات الفكرية النسوية - اتجاهات عديدة، إذ تضمّ تنوعات كثيرة في الإستمولوجيا، والنظرية، والاهتمامات الجوهرية، والتصميمات المنهجية التي توجه البحث الكيفي. وبعد أن أكدنا ذلك، سنقدم إطلالة مختصرة وعامة جداً على بعض القضايا والاعتقادات الأساسية التي يقدمها أصحاب الفكر النقدي في مجال بناء المعرفة. حيث نعاود الحديث في هذه المنظورات الفكرية وننوسع في تناولها في الفصل الثامن من هذا الكتاب، والذي نناقش فيه طرق البحث التي تقوم على عدم التدخل (أو: غير التدخلية).

يرفض المفكرون النقادون الدعائم الأساسية للوضعية ويبينون أن المُسلّمات التي تقوم عليها الوضعية، والممارسة التاريخية لهذه النظرية الإستمولوجية قد حافظا - بصورة جذرية - على استدامة علاقات القوة غير المتكافئة. وهم يحترسون من الأفكار الخاصة "بالحقيقة" المطلقة بصفة خاصة ويركزون اهتمامهم على أساس مظاهر عدم التكافؤ التاريخي التي أدت إليها

تلك الرؤية المعرفية الصارمة. ذلك أن العملية العلمية التقليدية تعمل في الحقيقة - على خلق المعرفة التي تُستعمل في استدامة الأوضاع على ما هي عليه (وفي تبريرها، وتعزيزها وإعادة بنائها)، وهي الأوضاع التي يعاني فيها أولئك المُبعدون رغماً عنهم إلى هوامش النظام الاجتماعي (وهم النساء، والمُلونون، والأقليات الجنسية، والطبقات الاجتماعية الاقتصادية الدنيا) حيث يُعانون من القهر المتواصل الناجم عن إعادة إنتاج الإيديولوجيا التدرجية الهرمية المسيطرة. وهنا تسعى النظرية النقدية إلى الخروج - عن طريق التأمل والتساؤل - من أسر هذه الإيديولوجيا المسيطرة (بقدر ما يمكنها الخروج) وذلك من أجل أن تخلق فضاءً لإنتاج معرفة مقاومة ومُضادة للهيمنة تُزعزع أركان العلاقات المادية والرمزية المسيطرة. ويسعى المفكرون النقديون للوصول إلى "المعارف الخاضعة/ أو المقهورة"، كما أنهم كثيراً ما يُمكنون النظر في "علاقات القوة على المستوى المحلي" (Foucault, 1976). وتوجد كثير من التنويعات تحت المظلة العامة للنظرية النقدية. فما بعد الحداثة تطورت إلى أن أصبحت واحدة من التقاليد الإستمولوجية الرئيسة داخل ذلك المفهوم ذي المجال الفسيح، كما أنها تمارس اليوم على نطاقٍ واسع. وسوف نتناول الآن بالتفصيل بعض دعائم النظرية النقدية، مُركزين بصفة أساسية على إستمولوجيا ما بعد الحداثة (ولو أن كثيراً من العلماء الذين نذكرهم قد تمّ تصنيفهم وفقاً لأساليب مُختلفة، كأن يُصنّفوا مثلاً بوصفهم من أتباع ما بعد البنوية أو التفكيكية).

تركز النظريات ما بعد الحداثيّة وما يرتبط بها من نظريات على أهمية الإيديولوجيا المسيطرة وخطابات القوة التي تُضفي على هذه الإيديولوجيا صفة المعيارية بقصد الحفاظ على شكل من أشكال النظام العالمي المسيطر، سواء على المستوى المحلي، أو القومي، أو العولمي. وتهتم هذه النظريات بصفة خاصة بالفحص الدقيق لموضوع منطق الخطاب الذي يلزم النظام الرأسمالي ما بعد الحداثي. ويبيّن فرديريك جيمسون Jameson - الذي قدم إسهاماً كبيراً للغاية في تطوير النظرية ما بعد الحداثيّة - أنه يتوجب علينا أن ننتعق في دراسة "المنطق الثقافي للرأسمالية الحديثة" (والذي يسمى كذلك: ما بعد

الحدث) والذي يُشكل أهمية بالغة كما يُعدُّ نوعاً خاصاً من الخطاب (Jamson, 1991). ويوضح أنطونيو جرامشي Antonio Gramsci (1929) أن الناس تُدعَى إلى حدٍّ ما للقهر الذي ينزل بهم، وذلك من خلال تبني الإيديولوجيا المسيطرة واستدماجها بحيث تصبح جزءاً من تكوينهم. وبتعبير آخر نقول: إن السبب الذي يؤدي إلى الإبقاء على السُلطة المهيمنة - كما يرى فوكو (1976) - هو أن أفكارنا تصبح هي نفسها السلاسل التي تُقيدنا بكل قوة. ولأننا كائنات اجتماعية فإن أفكارنا لا تتولد من داخل عقولنا فقط، إنما هي جزءٌ من سياق اجتماعي وسياسي كبير له وجوده المادي الخاص به. ومن ثَمَّ يُصبح مشروع الثقافة النقدية هو الوصول إلى أصوات هؤلاء المقهورين والوقوف على معارفهم المتقردة، والتي يسميها فوكو "المعارف المقهورة"، وذلك بهدف تغيير شكل علاقات القوة. ونظراً لأن المعرفة بأجمعها يتمُّ إنتاجها داخل الميادين المتحولة للقوة (فوكو، 1976)، فلا بدُّ أن يكون البحث مرتبطاً بسياقه التاريخي (Bhavani, 1993). وإنَّ من طرق متابعة هذا المشروع الفكري المُسيَّس الاستعانة بطريقة التفكير النقدي. وهنا تَطْرَحُ المفكرة النسوية النقدية لوس إيريغاراي Luce Irigaray تصوُّراً للتفكير على النحو التالي، وذلك في ثنايا مناقشتها لموضوع قهر النساء في المجال الرمزي والمجال المادي، فنقول:

من المؤكد أن التفكير ليس قضية تفسير تأثير خطاب ما بينما نَظُلُ قابعين داخل نفس نمط التعبير الذي يُعدُّ النمط الوحيد الضامن لتحقيق تماسك الخطاب. فهذه القضية ليست قضية ابتداء نظرية جديدة.. بل هي قضية تعطيل هذا الجهاز الفكري نفسه، وقضية منعه من الادعاء بأنه يقدم حقيقةً ومعنى يتسمان بالأحادية بصورة مبالغ فيها. (Irigaray, 1977, 1996, p. 78) وعلامات الإبراز مضافة من عندنا).

وكما ترى فإن النظرية النقدية مهتمة بإحداث التوتر التحويلي (أي الذي يؤدي إلى إحداث التغير- المترجم) داخل النظام الاجتماعي نفسه، بدلا من تقديم المعرفة التي تُغذي هذا النظام. وفي هذا الاتجاه يُطالب المفكر النقدي جاك دريدا Jacques Derrida (1966)، والذي كان في طليعة المهتمين

بتغيير الطريقة التي يتبعها الباحثون في التفكير في المعرفة وفي إنتاجها؛ يطالب بطريقة للتفكير النقدي يتم بها تغيير شكل ما كان بسبب العمليات التاريخية الاجتماعية ليصير محلاً للفحص والدراسة (وهذه النقطة معروضة بإسهاب وتفصيل في الفصل الثامن من هذا الكتاب). وبهذا الشكل يخون البحث المابعد الحدائي عملية هدم للمركزية الفكرية من أجل خلق معارف مرتبطة بالسياق الاجتماعي و تتحدى الإيديولوجيا المسيطرة. وهذه العملية تُعتبر بالضرورة عملية قائمة على الالتزام. ويقدم بيير بورديو Pierre Bourdieu نظريته عن "علم الاجتماع الانعكاسي" بوصفه جزءاً يستمولوجيا وتطبيقياً ضرورياً للعملية البحثية^(١) فيقول:

أرى أنه ينبغي أن يكون علم الاجتماع علماً تحليلياً، إلا أنه ينبغي أن يواجه نفسه دائماً. ويتوجب عليه أن يستفيد من أدواته الخاصة به في اكتشاف حقيقته وفي اكتشاف ما يقوم به من عمل، وذلك محاولة منه ليعرف موقعه معرفة أفضل (Bourdieu & Wacquant, 1992, p. 191).

ويستعمل الباحثون مصطلحات كثيرة للدلالة على أهمية الانعكاسية (التوجه النقدي) في التطبيق المابعد الحدائي، بما فيها مصطلح تأمل ونقد علاقات القوة (Haraway, 1991) ومصطلح الحساسية لرؤية علاقات القوة (Pfahl, 1992). ويشير بهافاني (١٩٩٣) إلى محور فكري مشابه عندما يبين أنه لا يكفي مجرد التعرف على علاقات القوة على المستوى المحدود (الميكرو) التي تؤثر على الموقف الذي يجري بحثه، بل يجب علينا كذلك - أن نحلل هذه العلاقات (ص ٧٤).

وكثيراً ما يوجه إلى المفكرين المابعد الحدائيين النقد بأنهم "نسبيون" أكثر من اللازم، وذلك لأنهم يرفضون فكرة الحقيقة "الموضوعية"، ويؤكدون أن المعرفة كلها يتم إنتاجها في إطار علاقات قوة معينة على المستوى الاجتماعي والتاريخي، مما يجعلها ذات منشأ اجتماعي ومن ثم تصبح معرفة جزئية (Nielsen, 1990, p.9). فلنحلل هذا الانتقاد لكي نوضح واحدة من النقاط الرئيسية في النظرية النقدية نفسها. الواقع أنه من اللازم أن نتناول هذا الانتقاد الذي يكثر توجيهه إلى الفكر النقدي بأنه فكر "نسبي"، والذي يوجه بصورة أخصاً لنظرية ما بعد الحدائي؛ من اللازم أن نتناول هذا الانتقاد

بالتحليل انطلاقاً من منظور نقدي حتى يُمكن فهمه. والسبب في هذا يرجع إلى أن فلسفة ما بعدُ الحداثة لا تتكون من مفاهيم مستمدة من موقفها الفلسفي الخاص بها، وإنما هي مبنية على أساس المنطق الاستدلالي التقليدي للفلسفة الوضعية. لذلك يكون الأساس الذي قام عليه هذا الانتقاد أساس غريب. فهو موقف فكري يتم فيه الحكم على البحث المابعد الحداثي بمقتضى المُسلمات التي تقوم عليها المفاهيم الوضعية للعلم، وهي الموضوعية، والثبات، والقابلية للتعميم، والصدق. إلا أن هذه المفاهيم التي يستند إليها الحكم العلمي قد تم زعزعتها على يد مبادئ ما بعدُ الحداثة، ومن ثم يستطيع الباحث المابعد الحداثي أن يذهب إلى أن هذه المُسلمات التي تولدت على مدى زمني طويل وتجسدت فيها معايير القياس آل بها الأمر إلى أن تكون لها أهمية نابعة من عملية تشبعت وخرفت بفعل الاعتبارات السياسية. وهذا الانتقاد مُحرف وخارج عن موضوع، لأن الأساس الذي يركز عليه يظل محصلة الإيديولوجيا المسيطرة، وهي الإيديولوجيا التي تسعى نظرية ما بعد الحداثة لمعارضتها، ومقاومتها، وتغييرها.

أضف إلى ذلك أن كثيراً من وجهات النظر الوضعية، والمابعدُ الوضعية، والتأويلية، والنسوية التي تقيم المنتج المعرفي المابعد الحداثي يصل بها الأمر إلى أن تؤكد على أن هذا الاتجاه الفكري (أي ما بعد الحداثة) لا يقتصر على كونه يُنتج حقائق نسبية غير مؤكدة، بل إن نظرية ما بعدُ الحداثة، في محاولتها لخلق حقائق جزئية (والتي يذهب المفكرون المابعد الحداثيين -بطبيعة الأمر- إلى أن كل الحقائق جزئية، حتى وإن لم يُصرَّح بأنها كذلك) نقول: في محاولة نظرية ما بعد الحداثة لخلق حقائق جزئية، فإنها خلقت عدداً كبيراً من "الحقائق" غير المترابطة. ويُعدُّ هذا الانتقاد بصورة عامة أمراً مُشكلاً لأن الباحثين المابعد الحداثيين يهدفون إلى خلق حقائق ذات قوام واضح و غير مُنفصلة عن الحقائق المادية التاريخية التي أنتجتها. وفي هذا الشأن نقول، إنه بينما يغلبُ على ظن الكثيرين أن البحث المابعدُ الحداثي مناقض للنزعة الإمبريقية، فإن المعرفة المُنتجة انطلاقاً من منظور ما بعد حداثي تركز -بصورة تامة- على أصول راسخة في العمليات التاريخية المستمرة وعلى ما فيها من علاقات تربط بين القوة والمعرفة، وتتشابك معها.

إدراك ما وراء الكواليس

النظرية، وطريقة البحث، والإبستمولوجيا عند الممارسة

الغرض من هذا الفصل هو تعريفك بمجال البحث الكيفي. ومن أجل أن نميز ممارسة البحث الكيفي بوصفها مجالاً للعمل متفرداً ومتمراً، قمنا بمقارنتها بنظيرتها الكمية مُستخدمين أمثلةً بحثية من العالم الحقيقي تدور حول دراسة صورة الجسد. كما قدمنا في القسم الأخير من هذا الفصل عرضاً إجمالياً لبعض الاتجاهات الإبستمولوجية والنظرية التي يستخدمها الباحثون الكيفيون. ولأن بالإمكان استخدام النظريات وطرق البحث بأساليب كثيرة مختلفة، فإننا نرى أن الأمر الذي يُميزُ البحث الكيفي - فعلاً - بوصفه منظوراً فكرياً متفرداً في مجال بناء المعرفة هو أنه عملية كلية تقوم على الالتزام. ونأمل أن تبدأ في إدراك سبب ذلك.

وفي الفصل التالي نناقش بعض القضايا التي تأخذ في الظهور أثناء تصميم البحث، والتي منها قضية كيف يختار الباحث الكيفي موضوعاً ما ثم يبدأ في التفكير في ابتكار خطة منهجية للبحث تتناسب مع الأسئلة المطروحة في بحثه. وتوجد هذه المناقشة ضمن دراسة متعمقة لموضوع "النماذج النظرية" وموضوع "رؤى العالم".

كما نأمل أن تبدأ - من خلال الفصول التالية - في إدراك مدى ما تتصف به الممارسة الفعلية للبحث الكيفي من تعدد الوجوه والجوانب والتعقد في الآن نفسه. وفي هذا الاتجاه، أدرجنا في كل فصل من الفصول التالية فقرات داخل إطار خاص: بعنوان "خلف الكواليس". وتشتمل هذه الأقسام على مادة اعتنينا بجمعها من علماء ذوي مكانة محترمة في مجال البحث الكيفي. والمقصود من هذه الأقسام تعريفك بممارسة البحث الاجتماعي، أي كيف يتم العمل فعلاً باستخدام طرقٍ ومنهجيات بحثٍ معينة انطلاقاً من وجهة نظر الباحثين. ذلك أنه قلما نصل إلى إدراك بعض جوانب التعقيد الكامن في عملية تنفيذ البحث ما لم نكن مُنهمكين فعلاً في هذه العملية بأنفسنا. ومن خلال تلك اللحاحات المذكورة في فقرات "خلف الكواليس" والتي نشير فيها إلى المراحل المختلفة للمجهود البحثي، سيتم تعريفك بما هو خفيٌ أو غير ظاهر من أعمال الباحثين وهم يشتركون معاً في وضع أحد المشروعات. وقد ناقشنا في هذا

الفصل الصلة بين الطريقة، ومنهجية البحث، والإبستمولوجيا. ولكن ما هي الرابطة التي تربط جوانب البحث هذه في الممارسة الفعلية؟ وحيث إن البحث الكيفي قد كشف حقيقة التصور القائل بوجود "نظرة مطلقة" واستبدل بها "نظرة من مكان ما"، فإلى أي مدى تؤثر الرؤية الفكرية للباحث على الجوانب المختلفة لبحثه؟ وعن طريق الولوج خلف كواليس المشروع البحثي سنكون قادرين على الوصول إلى صميم وجهة نظر الباحثين (إذا جاز التعبير) أثناء مباشرتهم مشروعاتهم البحثية. وسوف يتم تعريفنا بتلك الطائفة من القضايا، والدوافع والقيم التي يطرحها الباحثون بوصفها ذات صلة ببحثهم. وسوف تساعد هذه الرؤية لما هو خلف الكواليس على ربط نظرية البحث الكيفي بالممارسة الفعلية للبحث الاجتماعي، مما يزودنا في نهاية الأمر برؤية أكثر شمولاً للمجهود الكيفي.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **Afrocentric Feminist Epistmology**
• الإبستمولوجيا النسوية ذات المحور الإفريقي

أضافت باتريشا هيل-كولينز (١٩٩٠) قدراً هائلاً إلى فهمنا للرؤية الفكرية كإبستمولوجيا ومنهجية بحث نقدية عن طريق طرحها للفكرة القائلة بوجود نوع من "الإبستمولوجيا النسوية ذات المحور الإفريقي" والتي تشكل المقدمة المنطقية لإبستمولوجيا الرؤية الفكرية، وتبدأ بالرؤية الفكرية المنفردة للنساء السود.

- **Context of Discovery**
• سياق الاكتشاف

يشير هذا المصطلح إلى صياغة موضوع البحث وأسئلة البحث، وإلى الطريقة التي نتبعها في تصميم المشروعات البحثية وتنفيذها. ووفقاً لما تذهب إليه ساندرا هاردنج (١٩٩٣)، فإننا عندما نختار موضوعاً، ونصوغ الأسئلة الأولية لبحثنا، ونضع خطتنا، ونتحرك على امتداد خطوات: جمع البيانات، وتحليلها، وعرضها، يجب علينا ألا ننكر ما لنا من عناصر ذاتية

(كالانفعالات، والميول السياسية، والرؤى الفكرية الشخصية) لها تأثيرها على بحوثنا، بل علينا أن نعترف بها، وأن نبديها للعيان، ونتناولها تناولاً نقدياً.

• سياق التبرير Context of Justification

يشير هذا المصطلح إلى نوع من التبرير الذي يقدمه الباحث للطريقة التي اتبعها في اختيار عينات موضوعات البحث (المبحوثين) أو انتقائهم، وكيف استخدمت طرق البحث، وكيف اعتمدت أدوات القياس، وما إلى ذلك، فذلك -إن- نوع من تبرير هذه الأمور وليس تفسيراً لأسباب الأخذ بها (لأن تفسير الأسباب يندرج ضمن سياق الاكتشاف).

• الاتجاه النقدي Critical Approach

تسعى النظرية النقدية إلى الخروج -عن طريق التأمل النقدي (الانعكاسية) - بعيداً عن نطاق الإيديولوجيا المسيطرة (بقدر ما يمكنها ذلك) لكي تخلق لنفسها فضاءً يتم فيه إنتاج معرفة مقاومة ومُضادة للهيمنة تزعزع أركان علاقات السيطرة المادية والرمزية الجائرة. ويسعى المفكرون النقديون إلى الوصول "للمعارف المقهورة" كما أنهم كثيراً ما يُعنعون النظر في "علاقات القوة على المستوى المحدود (الميكرو)". (فوكو، ١٩٧٦).

• التفكير النقدي Critical Deconstruction

نظراً لأن المعرفة بأجمعها يتم إنتاجها داخل المجالات المتغيرة للقوة (فوكو، ١٩٧٦) فلا بد أن يلتزم البحث بمراعاة الأطر التاريخية (بهافاني، ١٩٩٣). ومن طرق تنفيذ هذا المشروع الفكري المسيس طريقة التفكير النقدي، وهو اتجاه طوره جاك دريدا (١٩٦٦).

• الاتجاه الاستدلالي Deductive Approach

تبدأ الاتجاهات الاستدلالية، -التي تتبناها البحوث الكمية الوضعية عادة - تبدأ بأحد الفروض ثم تحاول اختباره من خلال البحث.

• الإبيستمولوجيا Epistemology

نظرية في المعرفة، أو هي "نظرية في المعرفة كامنة في ثنايا منظور فكري معين" (كرسويل، ٢٠٠٣، ص ٤) تشكل كافة جوانب العملية البحثية.

ويمكن القول بعبارة أخرى: إن الإيستمولوجيا نسق من المعتقدات الفلسفية التي تتناول مَنْ بإمكانه أن يكون عارفاً وما الذي بالإمكان معرفته (جوبا ولينكولن، ١٩٨٩؛ وهاردنج ١٩٨٧، هس-بيبروليفي، ٢٠٠٤). وبجانب تساؤل الإيستمولوجيا عَمَّنْ بإمكانه أن يكون عارفاً وعمَّا بالإمكان معرفته، فإنها تعالج طريقة خلق المعرفة: أي أنَّ النظرية الإيستمولوجية ترسي الأساس الذي تقوم عليه عملية بناء المعرفة. وتقوم الأسئلة، والمُسلّمات، والاعتقادات التي يجلبها الباحث معه إلى العملية البحثية، سواءً ما كان منها شعورياً أو لا شعورياً، تقوم بدور الأساس المبدئي لأي نظرية إيستمولوجية.

• الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) Ethnomethodology •

تعتمد منهجية الجماعة على المنظور الفكري الظاهراتي وترتبط بالظاهراتية في كونها كلتيهما تركزان على العملية التي بها يفهم الأفراد العالم الذي يعيشون فيه وبها يُضفون عليه معنى من معاني النظام. ويهتم الآخزون بفكر منهجية الجماعة اهتماماً خاصاً بالكيفية التي يتم بها تداول المعنى داخل سياق اجتماعي معين من خلال التفاعل مع الآخرين. وقد لقيت منهجية الجماعة ذيوماً كبيراً كمنظور فكري في حقل علم الاجتماع في ستينيات القرن العشرين من خلال كتابات هارولد جارفينكل (١٩٦٧). وي طرح المفكرون الآخزون بمنهجية الجماعة أسئلة من نوع: (١) كيف يُباشرون الناس فهم حياتهم اليومية؟ (٢) ما هي الاستراتيجيات المُحددة - وخاصةً ما يبدو منها متفقاً مع البداة الفطرية - التي يستعملها الأفراد وهم يباشرون عملية صناعة المعنى؟ ويرى الآخزون بمنهجية الجماعة أن الحياة الاجتماعية نفسها يتمُّ خلقها وإعادة خلقها بناءً على عمليات الفهم التي تتم على النطاق المحدود (الميكرو)، الذي يضفيه الأفراد على "السياقات الاجتماعية" لحياتهم اليومية. ويستخدم الآخزون بمنهجية الجماعة طائفةً من طرق البحث اللازمة للنفاد إلى هذه العملية الخاصة بصناعة المعنى وإدراكها. وتشتمل هذه الطرق على طريقة ملاحظة الأفراد في ظروفهم الطبيعية وهم يباشرون شئونهم اليومية المتكررة، وطريقة الملاحظة بالمشاركة، وطريقة المقابلة.

• المنظورات الفكرية النسوية • Feminist Perspectives

تبلورت المنظورات الفكرية النسوية كأسلوب لمعالجة الاهتمامات والمشاكل والخبرات الحياتية للنساء والفتيات اللاتي كنّ، بسبب ما كان شائعاً من التحيز الذكوري Androcentric Bias (والذي يعرف في الإنجليزية أيضاً باسم Sexism) كن مستبعدات زماناً طويلاً من مجال بناء المعرفة كبحاثات وكموضوعات للبحث (مبحوثات) أيضاً.

• إبستمولوجيا الرؤية الفكرية النسوية • Feminist Standpoint Epistemology

تقومُ إبستمولوجيا الرؤية الفكرية على أساس معرفة المجتمع من داخله. وهذا معناه أن الجماعات الموجودة في مواقع وأوضاع مختلفة في هذا المجتمع تكون لها خبرات مختلفة، ومن ثمّ فإنّها تكتسب رؤية مفردة خاصة بكل جماعة منها. وقد ركّز المفكرون الآخذون بفلسفة "الرؤية الفكرية النسوية" أساساً على الموقع أو الوضع الذي تشغله النساء داخل السياق الاجتماعي الذي يتميز بوجود نظام أبوي يقوم على أساس الجنس والنوع الاجتماعي.

• التراث التأويلي • Hermeneutic Tradition

انظر: المنظور التأويلي Interpretive Perspective

• التدرجي أو الهرمي • Hierarchical

هو التقسيم الموجود في العلاقة بين الباحث والمبحوثين والذي يتم بمقتضاه إعطاء الأفضلية للباحث باعتبار أنه هو العارف the knower.

• الكلي • Holistic

تتسم ممارسة البحث الكيفي بأنه ممارسة انعكاسية (نقدية) تتأثر بمجريات العملية البحثية، مما يؤدي به في نهاية الأمر إلى إنتاج معرفة خاضعة للاعتبارات الثقافية ومصطبغة بالنظرية. وذلك من خلال التفاعل المستمر بين النظرية والطرق، وبين الباحث والمبحوثين. ونحن نعني بمصطلح "الكلي" أنه يتوجب على الباحثين أن يكونوا على وعي مستمر

بالعلاقة بين الإيستمولوجيا والنظرية وطُرق البحث، وأن ينظروا إلى البحث باعتباره عملية، أي مكوناً من عددٍ من الخطوات أو التطورات.

• النموذج الاستقرائي Inductive Model

هو نموذج تتطور فيه النظرية فتظهر بصورة مباشرة من خلال البيانات، ومن أمثال هذا النموذج الذي كثيراً ما يُستعمل على يد الباحثين التأويليين والنسويين (ولو أن هذا الاستعمال ليس مقصوداً عليهم وحدهم، كما أنهم لا يستعملونه بصورة موحدة) نقول: من أمثال هذا النموذج: النظرية الموثقة Grounded Theory.

• المنظور التأويلي Interpretive Perspective

ظهر هذا المنظور الفكري كاعتراض مباشر على الإيستمولوجيا الوضعية وعلى تفسيرها وتطبيقها لمفهوم الموضوعية. وتقوم الإيستمولوجيا التأويلية على تفسير التفاعلات وعلى المعنى الاجتماعي الذي يُضفيه الناس على تفاعلاتهم (نيلسن، ١٩٩٠، ص٧). ويؤمن هذا المنظور الفكري - على المستوى الإيستمولوجي له - بأن المعنى الاجتماعي يتخلق أثناء التفاعل ومن خلال تفسيرات الناس لعمليات التفاعل. ومفاد ذلك أن الفاعلين الاجتماعيين المختلفين قد يفهمون الحقيقة الاجتماعية بصورة مختلفة فعلاً، مُنتجين بذلك معانٍ وتحليلات مختلفة. ويقتضي البحث الذي من هذا النوع بناء علاقات بين الباحث والمشاركين في البحث (أي المبحوثين) الذين يُعتبرون متعاونين معه في العملية البحثية.

• منهجية البحث Methodology

يحدث في إطار منهجية البحث أن تلتقى النظرية بالطريقة من أجل إيجاد مرشد يوجه الباحث في وضع خطة البحث، كما يُوجهه أثناء تنفيذها، ابتداءً من صياغة الأسئلة، وانتهاءً بالتحليل والعرض. وتبين هاردنج أن منهجية البحث عبارة عن نظرية أو تصور للطريقة التي يتعين أن يتم بها البحث أو الطريقة التي ينبغي أن يظهر بها (Harding, 1987, p.3). ومنهجية البحث هي الجسر الذي يجمع النظرية والطريقة معاً، أو يجمع المنظور الفكري والأداة معاً. ومن المهم أن نتذكر أن هذا الجسر هو الذي ينتقل عليه الباحث في كل خطوات العملية البحثية بأجمعها. معنى ذلك بعبارة أخرى أن منهجية البحث تدمج النظرية والطريقة في كيان واحد، قائمة

-بذلك- بدور الموجه الاستراتيجي -ولكن المرن- في كل خطوة من خطوات التجربة البحثية.

• الاتجاه المتعدد الطرق • Multimethod Approach

ويقصد بهذا الاتجاه أن يستخدم الباحث أكثر من طريقة في المشروع البحثي. فبإمكان الباحثين أن يجمعوا بين عدد من الطرق الكيفية أو يستعملوا الطرق الكيفية والطرق الكمية بربطها ببعضها. وعندما يراد استعمال هذا الاتجاه بصورة مثالية، ينبغي أن تعبر الطرق المستعملة عن قضية البحث وتعتبر كذلك عن بعضها البعض.

• الظاهراتية: الفينومينولوجيا • Phenomenology

للظاهراتية أصول ترجع إلى القرن الثامن عشر^(*)، باعتبارها تمثل في جانب منها نقداً للوضعية. وكان المفكرون الظاهراتيون ينتقدون العلوم الطبيعية لأنها تسلم بوجود حقيقة "موضوعية" مستقلة عن وعي الفرد. ولا يقتصر أمر الظاهراتية على كونها فلسفة فحسب، بل هي إلى جانب ذلك طريقة من طرق البحث تهدف إلى إدراك ما يعيشه الأفراد من خبرات. والمفكرون الظاهراتيون معنيون بأسئلة من قبيل: (١) كيف يشعُر الأفراد بالاحتضار (أي معاناة سكرات الموت) (Kubler-Ross, 1969)، (٢) كيف يخبرُ المرءُ الاكتئاب؟ (Karp, 1997)، (٣) كيف يخبرُ المرءُ الطلاق (أي كيف يشعر به) (Kohler - Riessman, 1987). ويرى الظاهراتيون أنه لا توجد "حقيقة واحدة" للطريقة التي يعي بها الناس كل حادثة من هذه الحوادث على حدة. ذلك أن الخبرة يتم إدراكها وفقاً لمجموعة متنوعة من الأبعاد: كيف تتم معاشة الخبرة في الزمان، وفي المكان، وفي ضوء علاقاتنا بالآخرين، وكيف نعيشها بوصفها خبرة جسدية. ويستعمل الظاهراتيون مجموعة متنوعة من الطرق، ومنها طريقة الملاحظة، وطريقة المقابلة المتعمقة، والاطلاع على الروايات التي دونها الناس عن تلك الخبرات والمسجلة في بعض مصادر البحث، كالمذكرات اليومية.

(*) سبق الإشارة إلى أن صحة هذا التعبير هي: "القرن التاسع عشر" (المترجم).

• Postmodernism

• ما بعد الحداثة

تركز نظرية ما بعد الحداثة وما ترتبط بها من نظريات على أهمية الإيديولوجيا المسيطرة وعلى خطابات القوة التي تجعل هذه الإيديولوجيا أمراً مشروعاً للحفاظ على نظام الحياة المسيطر، سواء على المستوى المحلي أو القومي، أو العولمي. وتذهب نظرية ما بعد الحداثة إلى أننا قد انتقلنا إلى ما وراء نطاق الحداثة ودخلنا إلى حقبة ما بعد حداثة تتسم بنوع من التركيز على تكنولوجيات إعادة الإنتاج. وتتطلب هذه الحقبة الجديدة اتجاهات فكرية جديدة في بناء المعرفة.

• Postpositivism

• ما بعد الوضعية

تتشابه ما بعد الوضعية مع الوضعية تشابهاً قوياً جداً. ونقطة الخلاف أن ما بعد الوضعية - في دراستها للحقيقة الاجتماعية - تعترف بأن الباحثين لا يمكنهم أن يكونوا وضعيين بصورة مطلقة فيما يتصل بدعواهم المعرفية (Creswell, 2003, p.7). وللخروج من نطاق الفكرة الوضعية الخاصة بالبرهنة على وجود العلاقات العلية التي يتألف منها العالم الاجتماعي، يقوم المفكرون الآخزون بما بعد الوضعية بتجميع الشواهد والأدلة التي تؤكد صحة إحدى النظريات القائمة مسبقاً. ويمكن القول بعبارة أخرى إن المفكرين الآخذين بما بعد الوضعية يحاولون - اعتماداً على المنطق الاستدلالي واختبار الفروض، كما يفعل الوضعيون - أن يجدوا من الأدلة والشواهد ما يؤيد أو يفند إحدى النظريات، وإن لم يكن ذلك بصورة مطلقة.

• Positivist Epistemology

• الإبستمولوجيا الوضعية

تؤمن الوضعية بوجود حقيقة قابلة للمعرفة، وأن تلك الحقيقة مستقلة عن العملية البحثية، كما أن بالإمكان اكتشافها واختبارها من خلال الوسائل الوضعية، وعلى يد باحثٍ محايد.

• Reflexivity

• الانعكاسية

هي التساؤل النقدي المستمر عن موقع الباحث وعن علاقات القوة داخل العملية البحثية.

• Research Methods

• طرق البحث

طُرُق البحث هي الأدوات التي يَسْتَعْمَلُها الباحثون لكي يجمعوا البيانات. فطريقة البحث عبارة عن أسلوب أو تقنية لجمع الشواهد والأدلة. ويُمكن للمرء أن يذهب - وبحق - إلى أن كافة أساليب تجميع الشواهد والأدلة تندرج ضمن واحدة من هذه الفئات الثلاث: الإصغاء إلى الإخباريين (أو طرح الأسئلة عليهم)، أو ملاحظة السلوك، أو فحص الآثار والسجلات التاريخية (Harding, 1987, p. 2). وكثيراً ما يستعمل الباحثون الكيفيون واحدة أو أكثر من طُرُق البحث التالية (ولو أن هذه القائمة ليست شاملة): طريقة البحث الميداني (الإثنوجرافي)، وطريقة المقابلة المتعمقة، وطريقة التاريخ الشفاهي، وطريقة البحث الإثنوجرافي الذي يكتُبُه المبحوث عن نفسه (البحث الإثنوجرافي الذاتي)، وإجراء المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، ودراسة الحالة، وطريقة تحليل الخطاب، وطريقة تحليل المضمون.

• Research Nexus

• الرابطة البحثية

هي "تشبيك" الإستمولوجيا والنظرية وطريقة البحث في نسيج واحد.

• Situated Knowledges

• المعارف النسبية/ أو الجزئية

وهي المعارف التي يَتَمُّ إنتاجها في كثير من الأحيان على يدِ المفكرين النسويين الذين يرفضون الفكرة القائلة بوجود حقائق يمكن البرهنة على صحتها، فهذه المعارف النسبية هي عبارة عن حقائق جزئية تنتمي إلى سياقاتٍ أو أوضاع معينة.

• Standpoint Epistemology

• إبستمولوجيا الرؤية الفكرية

وهي تقوم على أساس الافتراض القائل بأنه يتحتم في العالم الاجتماعي ذي البنية الهرمية أن تتولد "الرؤى الفكرية" المختلفة. وعن طريق الوصول إلى فهم الرؤى الفكرية المختلفة الموجودة داخل عالمنا الاجتماعي، يستطيع الباحثون أن يطرحوا أسئلة جديدة ويتحدوا - بل ويقاوموا - المفاهيم القديمة عن الحقيقة وأساليب تحصيل المعرفة. وفي النظام الاجتماعي الهرمي تُعدُّ رؤانا الفكرية وجهات نظرٍ مُكتسبة.

• Theoretical Perspective

• التوجه النظري

توجد الإبستمولوجيا كامنة في ثنايا التوجه النظري؛ بمعنى أن الإبستمولوجيا منشودة إلى النظرية، أو مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، أو أن الاعتقادات الإبستمولوجية يتم تفعيلها من خلال الإطار النظري.

• Triangulation

• استخدام ثلاث طرق بحث

هو استعمال ثلاث من طرق البحث^(*).

• Validity

• الصدق

يتصور الباحثون الذين يعملون في نطاق النموذج الفكري الكيفي الصدق على نحو يخالف تصورات الوضعيين التقليديين لهذا المصطلح. والصدق - بصورة عامة - قضية من القضايا التي يعالجها الباحثون عندما يقدمون شاهداً أو دليلاً على صحة المعرفة التي أنتجوها. ويمكن القول - بعبارة أخرى - إن تلك المعرفة التي تم إنتاجها إنما تعكس جانباً من جوانب العالم الاجتماعي و/أو تكون مقنعة بالضرورة.

* * *

أسئلة للمناقشة

- ١- ما معنى أن نفهم العملية البحثية فهماً كلياً؟ وكيف يؤثر هذا المنظور على عملية إنتاج المعرفة؟
- ٢- يفترض الباحثون الكيفيون عن المعنى، فكيف يؤثر تناول موضوع معين - بهدف اكتشاف المعنى - على العملية البحثية، وعلى التفسير، وعلى النتيجة النهائية؟

(*) ربما كانت الترجمة الأدق لهذا المصطلح هي كلمة التثليث، فرقم ثلاثة المشار إليه لا يقتصر على أدوات البحث، وإنما يتعداها كما اتضح من الشرح إلى عدد الدراسات التي تجرى عن نفس الموضوع، وإلى عدد الباحثين... إلخ، وقد رأينا عدم استخدام مصطلح التثليث لمذلوله الديني المسيحي المباشر. وعموماً يقصد بالمصطلح استخدام ثلاث دراسات على الأقل - ولكن الأفضل أكثر من ثلاثة - والأطر النظرية، والباحثين، ومجموعات البيانات لبحث مشكلة أو موضوع معين. وربما يقصد بصفة خاصة استخدام دراسات المستوى المحدود (الميكرو) ودراسات المستوى الكبير (الماكرو) وكذلك استخدام مناهج وطرق كمية ومناهج وطرق كيفية في دراسة نفس الموضوع. وبذلك يكمل كل منهما الآخر ويحققه، وذلك من أجل التوصل إلى نتائج مؤكدة. وقد درس هذا الأسلوب باستفاضة نورمان دنزين Norman K. Denzin. (المراجع)

- ٣- كيف يؤثر الموقف الإبستمولوجي للباحث على طرق البحث المستخدمة؟
- ٤- كيف يعمل التقسيم التدرجي الهرمي الذي خلقته الوضعية للتمييز بين الباحث والمبحوثين (الذات والموضوع) على التأثير على العملية البحثية؟
- ٥- ناقش كلا من الموضوعية والذاتية ودلالة كل منهما للعملية البحثية. وكيف تتنظر مختلف التوجهات النظرية والإبستمولوجية إلى كل من الموضوعية والذاتية؟
- ٦- ما هي الرابطة البحثية، وكيف تمارس تأثيرها على عملية بناء المعرفة؟
- ٧- كيف يمكن أن تعمل الإنعكاسية (التأمل النقدي) على إثراء بيانات الباحث وإثراء عملية التأويل؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- منتدى البحث الاجتماعي
الكمي
- Forum: Qualitative Social Research

<http://www.qualitative-research.net/fqs/fqs-eng.htm>

منتدى البحث الاجتماعي الكمي مجلة إلكترونية متعددة اللغات للبحث الكمي، تنشر مقالات وبحوثاً محكمة. والهدف الرئيسي لمنتدى البحث الكمي هو إثراء النقاش ودعم التعاون بين المشتغلين بالبحوث الكمية في مختلف الدول ومن شتى فروع العلم الاجتماعي.

- جمعية البحث الكمي
- Association for Qualitative Research

<http://www.latrobe.edu.au/aqr/>

هذا موقع إلكتروني مفيد، لأنه رغم أن منشورات الشهر الأخير لا تكون متاحة مجاناً لرواد الموقع، إلا أن كافة المنشورات السابقة تكون متاحة مجاناً. ويستطيع الطلاب الحصول على النص الكامل للمقال المنشور.

- جمعية مستشاري البحوث
الكمية
- Qualitative Research Consultants Association

<http://www.qrca.org/>

هذا الموقع تنظيم لا يهدف إلى الربح تقوم رسالته على دعم التميز في البحوث الميدانية. ويفيد الموقع أولئك الذين يريدون أن ينضموا إلى مؤسسة تعمل في مجال البحث الكمي.

- الجمعية البحث الكيفي The Association for Qualitative Research

<http://www.aqrp.co.uk/>

ترحب هذه الجمعية بكل المهتمين بالبحوث الكيفية كي ينضموا إليها. تأسست في ثمانينيات القرن العشرين، وأصبحت منظمة محترمة ومعترفاً بها في مجال خدمات تسويق البحوث الميدانية.

- تقرير البحوث الكيفية The Qualitative Research Report

<http://www.nova.edu/ssss/QR/qualres.html>

<http://www.nova.edu/ssss/QR/web.html>

مجلة إلكترونية بارزة للبحوث الكيفية، علاوة على كثير من المصادر العلمية في مجال البحث الكيفي.

- المنظمة القومية للمرأة The National Organization for Women

<http://www.now.org/>

هذا موقع إلكتروني حديث يحوي معلومات عن البحوث عن القضايا النسوية والبحوث التي تجريها نساء. وهو على اتصال يومي مباشر بالأحداث الجارية المتعلقة بالحركة النسوية وسائر المستجدات التشريعية.

- مؤسسة الأغلبية النسوية The Feminist Majority Foundation

(مركز بحوث)

http://www.feminist.org/research/1_public.html

يحتوي هذا الموقع الإلكتروني على كم وفير من المعلومات المتعلقة بقضايا المرأة، خاصة البحوث التي تجريها نساء وتتبنى الاتجاه النسوي. والموقع على اتصال بالبحوث الجارية، وبرامج دراسات المرأة، والمجلات (العلمية) النسوية، وأدوات البحث عن المواقع النسوية على الإنترنت، ومراكز بحوث ودراسات المرأة، والمجلات والصحف النسوية.

- المعهد النسوي للدراسات القانونية والاجتماعية The Feminist Institute for Studies on Law and Society

<http://www.sfu.ca/~fislslengines.htm>

لهذا الموقع وصلة تركز بشكل خاص على البحوث النسوية، وتقديم كذلك مرشدا لمجال موضوعي أوسع. كما يضم وصلات مع المجلات (العلمية) والمقالات النسوية، هذا فضلا عن قائمة بأدوات البحث النسوية.

- Sociological Research Online
- البحوث السوسولوجية الإلكترونية

<http://www.socresonline.org.uk/2/3/3.html>

هذه وصلة تربطك بأى مقال منشور في مجلة علمية معينة عن البحوث النسوية وخبرة المؤلفين مع البحوث النسوية. ويصف ميللر المناقشات حول أمور مثل: ممارسات القوة في العملية البحثية، وكذلك في العلاقة البحثية بين الباحث والمبحوثين، والخبرات الشخصية المكتسبة من البحوث النسوية. كما تتم مناقشة الإستمولوجيات المنهجية والنسوية(*)

* * *

المراجع References

- Abrams. L. & Cook Stormer, C. (2002). Sociocultural variations in the body image perceptions of urban adolescent females. *Journal of Youth and Adolescence*, 31 (6), 433-451.
- Altabe. M. (1998). Ethnicity and body image: Quantitative and qualitative analysis. *International Journal of Eating Disorders*, . 23, 153-159.
- Bailey, C. (1996). *A guide to field research*. Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
- Banfield, S., & McCabe, M. (2002). An evaluation of the construct of body image. *Adolescence*, 37 (146) 373-394.
- Bhavani, K. (1993). Tracing the contours: Feminist research and feminist objectivity. *Women's Studies International Forum*, 16(2), 95-104.
- Botting, I. (2000). Understanding domestic service through oral history and the census: The case of Grand Falls, Newfoundland. *Feminist Qualitative Research*, 28(1.2). 99-120.
- Bourdieu, P. (1992). *The logic of practice*. Stanford. CA: Stanford University Press.
- Bourdieu, P., & Wacquant, L. (1992). *An invitaion to reflexive sosiology*. Chicago: University of Chicago Press.
- Chamorro, R., & Flores-Ortiz, Y. (2000). Acculturation and disordered eating patterns among Mexican American women. *The International Journal of Eating Disorders*, 28(1), 125-129.

(*) المؤلف كان يخصص حديثه عن علم الاجتماع، وإن كنا نعتقد أنه يحسن به أن يوسع معالجته ومجال رؤيته لتشمل البحوث العلمية في سائر فروع العلم الاجتماعي، ولو على سبيل التمثيل لا الحصر.

- Chandler, S., Abood, D., Lee, D., Cleveland, M., & Daly, J. (1994). Pathogenic eating attitudes and behaviors and body dissatisfaction differences among black and white college students. *Eating Disorders: The Journal of Treatment and Prevention*, 2, 319-328.
- Creswell, J. W. (2003). *Research design: Qualitative, quantitative, and mixed methods approaches* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Crotty, M. (1998). *The foundations of social research: Meaning and perspective in the research process*. London: Sage.
- Derrida, J. (1966). The decentering event in social thought. In A. Bass (Trans.), *Writing the difference* (pp. 278-282). Chicago: University of Chicago Press.
- Falconer, J., & Neville, H. (2000). African American college women's body image: An examination of body mass, African self-consciousness, and skin color satisfaction. *Psychology of Women Quarterly*, 24, 236-243.
- Foucault, M. (1976). Power as knowledge. In R. Hurley (Trans.), *The history of sexuality, vol. 1: An introduction* (pp. 92-102). New York: Vintage Books.
- Garfinkel, H. (1967). *Studies in ethnomethodology*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- Geertz, C. (1973). *The interpretations of cultures*. New York: Basic Books.
- Gramsci, A. (1929). Intellectuals and hegemony. *Selections from the Prison Notebooks*. New York: International Publishers Co.
- Guba, E., & Lincoln, Y. (1998). Competing paradigms in qualitative research. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *The landscape of qualitative research: Theories and issues* (pp. 195-220). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Halpin, Z. (1989). Scientific objectivity and the concept of "The Other". *Women's Studies International Forum*, 12(3), 285-294.
- Haraway, D. (1991). *Simians, cyborgs, and women: The reinvention of nature*. New York: Routledge.
- Haraway, D. (1988). Situated knowledges: The science question in feminism and the privilege of partial perspective. *Feminist Studies*, 14(13), 575-599.
- Harding, S. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity?" In L. Alcoff & E. Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49-82). New York: Routledge.
- Harding, S. (1987). *Feminism and methodology*. Bloomington: Indiana University Press.
- Hartsock, N. (1983). The feminist standpoint: Developing the ground for a specifically feminist historical materialism. In S. Harding & M. Hintikka (Eds.), *Discovering reality* (pp. 283-305). Dordrecht, The Netherlands: Reidel.
- Heidegger, M. (1982). The Craft of Qualitative Research. In A. Hofstadter (Trans.), *The basic problems of phenomenology*. Bloomington: Indiana University Press. From the German original of 1975. The text of a lecture course in 1927.
- Heidegger, M. (1962). The Craft of Qualitative Research. In J. Macquarrie & E. Robinson (Trans.), *Being and time*. New York: Harper & Row. From the German original of 1927.
- Hesse-Biber, S. (1995-1999) Body Image Focus Group transcript (including aspiration codes).
- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet: The cult of thinness and the commercialization of identity*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S., Howling, S. A., Leavy, P., & Lovejoy, M. (2004). Racial identity and the development image issues among African American adolescent girls. *The Qualitative Report*, 9(1), 49-79.
- Hesse-Biber, S., & Leavy, P. (Eds.). (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S., Leavy, p. & Yaiser, M. (2004). Feminist approaches to research as a process: Reconceptualizing epistemology, methodology, and method. In S.

- Hesse-Biber & M. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 3-26). New York: Oxford University Press.
- Hill-Collins, P. (1990). Black feminist thought in the matrix of domination. *Black feminist thought: knowledge, consciousness, and the politics of empowerment*. London: Harper Collins.
 - Husserl, E. (1963). The Craft of Qualitative Research. In W.R. Boyce Gibson (Trans.), *Ideas: A general introduction to pure phenomenology*. New York: Collier Books. From the German original of 1913, originally titled *Ideas pertaining to a pure phenomenology and to a phenomenological philosophy*.
 - Husserl, E. (1931). The Craft of Qualitative Research. In W.R. Boyce Gibson (Trans.), *Ideas: General introduction to pure phenomenology*. New York: Macmillan.
 - Irigaray, L. (1985). *This sex which is not one*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
 - Jaggar, A. (1989). Love and knowledge: Emotion in feminist epistemology. *Inquiry*, 32, 151-172.
 - Jameson, F. (1991). *Postmodernism, or, the cultural logic of late capitalism*. Durham, NC: Duke University Press.
 - Karp, D. (1997). *Speaking of sadness: Depression, disconnection, and the meaning of illness*. New York: Oxford University Press.
 - Kohler-Riessman, C. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and Society*, 1, 172-207.
 - Kubler-Ross, E. (1969). *On death and dying*. New York: Macmillan.
 - Merleau-Ponty, M. (1996). The Craft of Qualitative Research. In C. Smith (Trans.), *Phenomenology of perception*. London and New York: Routledge. Taken from the French original published in 1945.
 - Molloy, B., & Herzberger, S. (1998). Body image and self-esteem: A comparison of African-American and Caucasian women. *Sex Roles: A Journal of Research*, 38(7-8), 631-644.
 - Neuman, W. L. (1997). *Social research methods: Qualitative and quantitative approaches* (3rd Ed.). Boston: Allyn & Bacon.
 - Nielsen, L. (2000). Black undergraduate and white undergraduate eating disorders and related attitudes. *College Student Journal*, 34(3), 353.
 - Nielsen, J. (1990). *Feminist research methods*. Boulder, CO: Westview.
 - Pfohl, S. (1992). *Death at the parasite café*. New York: St. Martin's Press.
 - Ragin, C. (1994). *Constructing social research*. Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
 - Ritzer, G. (2000). *Sociological theory* (5th Ed.) New York: McGraw-Hill.
 - Schutz, A. (1967). *The phenomenology of the social world* (G. Walsh & F. Lehnert, Trans.). Evanston, IL: Northwestern University Press.
 - Schutz, A., & Luckmann, T. (1974). The Craft of Qualitative Research. In R. M. Zaner & H. T. Engelhardt (Trans.), *The structures of the life-world: Volume 1*. London: Heinemann.
 - Smith, D. (1974). Knowing a society from within: A woman's standpoint. In *The conceptual practices of power: A feminist sociology of knowledge* (pp. 21-24). Boston: Northeastern University Press.
 - Sprague, J., & Kobrynowicz, D., (1999). A feminist epistemology. In J. Saltzman Chafetz (Ed.), *Handbook of the sociology of gender* (pp. 25-44). New York: Kluwer Academic/Plenum.
 - Sprague, J., & Zimmerman, M. (1993). Overcoming dualisms: A feminist agenda for sociological method. In P. England (Ed.), *Theory on gender/feminism on theory* (pp.255-279). New York: Aldine DeGruyter.
 - Thompson, B. (1996). Multiracial feminist theorizing about eating problems: Refusing to rank oppressions. *Eating Disorders*, 4(2), 104-114.

الفصل الثاني

عملية البحث

النماذج النظرية: نوافذ للإطلاع على الحقيقة

يُعدُّ عالم الاجتماع جوزيف دياز Joseph Diaz إثنوجرافياً "تقليدياً" استمد ثقافته من التراث الوضعي. ويقوم هذا التراث بتزويده "بنافذة" جاهزة للإطلاع على الطريقة التي يعالجُ بها مشروعاً بحثياً. وهو يريد القيام ببحث ميداني (إثنوجرافي) حديث عن أحد المستوصفات التي تباع البلازما (أي مصل الدم) والموجود في منطقة لاس فيجاس ستريب. يبدأ مشروعه البحثي بتدوين هذه الملحوظة:

أريت أن أكتب بحثاً إثنوجرافياً نابضاً بالحياة، ولكنني أردته أن يكون تقليدياً (أي ملتزماً بالأشكال التقليدية في البحوث الميدانية الإثنوجرافية)، حيث أعثر فيه على الأسباب والنتائج، وأفكُ فيه الشفرات الخفية للمتبرعين بدمائهم وللعاملين في هذا المجال. وإني لأظنُّ أنني مدينٌ بهذه المعالجة القاصرة في البحث لسبق دراستي لمنهج البحوث الكمية، الذي يُعلم دارسيه - في نطاق المنظور الفكري الوضعي - أنه تُوجدُ حقيقة بالإمكان معرفتها. (Diaz, 1999, p.1)

إلا أنه سرعان ما يكتشف دياز الأمر الذي أفرَّعه كثيراً، وهو أن هذه النافذة التي تطلُّ على العالم الاجتماعي لم تكن تعمل لصالحه. وفي هذا يقول:

في المرحلة المبكرة لجمع البيانات لهذه الدراسة، اضطررت للإقرار بأن خبرة التبرع بالدم بَتَّت في صورة لا هي متجانسة ولا هي من السهل قولبتها بوصفها مجموعة محددة ومتميزة من الأسباب والنتائج. وعندما لاحظتُ أن مذكراتي، وأفكاري، وخبراتي، واعتقاداتي، وملاحظاتِي المتصلة بخبراتي في التبرع بالدم كانت متعارضة مع بعضها، تنبَّهْتُ إلى أن طريقتي في المعالجة في حاجة للتغيير. ومُوجَزُ القول إنني سَعَيْتُ للعثور على "حقيقة" ما سرعان ما تحقَّقت أنها غير موجودة في "مجال" التفاعل الإنساني والخبرة

الإنسانية.... لذلك، حاولتُ أن أستخدم ذلك الذي بدا الأكثر تلاؤماً مع تلك الممارسة الخاصة ببيع الدم، والتي تتصف بالتشويش وبالتناقض مع بعضها البعض في كثير من الأحيان: ألا وهو البحث الإثنوجرافي الما بعد الحداثي (Diaz, 1999, pp.1-2).

كانت حقيقة الأحداث التي أخذتُ تتكشف في هذا المستوصف حقيقة بالغة "الذاتية"، وملينة بالتعارض. وسرعان ما وجد دياز نفسه يقوم بدور حاسم في جمع البيانات وفي تفسير ذلك العالم. وكما لاحظ مُشارك يكشف لنا الغطاء عن مجموعة من "الحكايات" عن خبرات المتبرعين بدمائهم، والتي منها حكايته هُوَ. يقول دياز:

.... في هذه الدراسة، أوافق على الأخذ بالفكرة الما بعد الحداثية التي تقول إن المؤلف لا يمكنه أبداً أن يكون موضوعياً بحق... ولا بالإمكان أن تكون الأوصاف، أو الأحداث، أو الأفراد، أو الأماكن، أو المواقف "صادقة" تماماً، أو واقعية على نحو صحيح، أو ممثلة (للمجتمع المدروس) بصورة موضوعية.... وبدلاً من أن أنحي نفسي (كمؤلف) عن هذه الدراسة وأدعي أن مسلماتي وتفسيراتي لأحداث معينة صحيحة ولا يمكن تنفيذها، وذلك كما يفعل المرء في كتابته "لبحث إثنوجرافي تقليدي"؛ بدلاً من ذلك سوف أجعل حضوري في هذه الدراسة صريحاً وسوف أجاوب مع الأحداث وأستدعي العواطف والأفكار بدلاً من محاولة تحديد/أو تعريف حادثٍ أو موقفٍ مُعَيَّن. (Diaz, 1999, p.2).

وقد بدأ دياز مشروعه البحثي بمجموعة من المسلمات الفلسفية تتعلق بطبيعة العالم الاجتماعي. وقد تظل هذه المسلمات في كثير من الأحيان - غير مُعلنة وغير مُختبرة، إلا أنها تمثل الركائز الأساسية للمشروع البحثي وتساعد على تشكيل خطواته. ذلك أن "البنية التحتية" الفلسفية للمشروع البحثي توجهنا وتوجه تفسيرنا للحقيقة فيما يتصل ببعض القضايا الميتافيزيقية الجوهرية والتي منها ما يلي:

- ما هي "طبيعة" الحقيقة الاجتماعية؟
- ما هي طبيعة الفرد؟ (مفهومنا عن الحقيقة الاجتماعية/ أو البشرية أو الأنطولوجيا)؟.

- كيف يتم بناء المعرفة؟
- من الذي يُمكنه أن يكون عارفاً؟
- ما الذي بالإمكان معرفته؟ (أي ما هي وجهة نظرنا عن الإستمولوجيا)؟

ويترتب على ذلك أن طريقتنا في الإجابة على هذه الأسئلة تؤثر على طريقتنا في التعامل منهجياً (أي نظرياً) مع العالم الاجتماعي المحسوس، وفي التعامل كذلك مع أنماط طرق البحث التي نعتبرها ملائمة للمشروع البحثي.

وجوزيف دياز تلقى تعليمه واكتسب خبرته كإثنوجرافي تقليدي يعمل في إطار التراث الكمي. وهو ذو نزعة فلسفية وضعية، ومن ثم فهو ينظر إلى العالم الاجتماعي بوصفه عالماً منظماً، وقابلاً للمعرفة، وموضوعياً. وكما عرَضنا في الفصل الأول، فإن الباحث ذا التوجُّه الكيفي، من ناحية أخرى، لديه توجُّهٌ مختلف كما أنه يستخدم "اتجهاً تأويلياً" في تناوله للحقيقة يكون هدفه منه أن يفهم ويستكشف طبيعة الحياة الاجتماعية. فبدلاً من أن يقوم المحلل الكيفي "باختبار الأحداث والتحكم فيها" على نحو ما شاهدنا جوزيف دياز يفعله عندما كان يطبق مفهوم "الأسباب والنتائج" لكي يفهم طبيعة هذا المستوصف الخاص بالتبرع بالدم؛ بدلاً من ذلك، يقوم المحلل الكيفي بطرح أسئلة من النوع التالي:

- ما هي المعاني التي يُضفيها الأفراد على طبيعة الواقع؟
- كيف يمكننا أن نفهم تشكيلة المعاني التي يُضفيها الأفراد على خبرة المتبرع بالدم؟

ولا يباشر كلُّ الباحثين الكيفيين عملهم بالنظر من خلال نفس النافذة تماماً إلى العالم الاجتماعي. بل إنهم يأتون انطلاقاً من عديد من الخلفيات ذات النماذج المختلفة. شاهد ذلك أن نموذج البحث "التقليدي" الذي بدأ به جوزيف دياز له أصوله التي ترجع إلى بداية سنوات القرن العشرين، والتي مازالت مؤثرة حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من أننا نربط هذا النموذج بأحد الاتجاهات الكمية في البحث، فإن باحثين كفيين تظفرو بحوثهم بروى ثاقبة مستمدة من هذا الاتجاه الكمي نفسه:

لا يزال للتراث الوضعي والتراث ما بعد الوضعي وجودهما المستمر الذي يلقي بظلاله على مشروع البحث الكيفي. فمن الناحية التاريخية، كان البحث الكيفي قد تم تحديده داخل نطاق النموذجي الوضعي، بينما حاول الباحثون الكيفيون أن يقوموا بإجراء بحث وضعي جيد باستخدام طرق للبحث وإجراءات أقل صرامة وشدة. وقد أعلن بعض من باحثي منتصف القرن العشرين الكيفيين (ومنهم على سبيل المثال: بَكر Becker، وجير Geer، وهيوز Hughes وستراوس Straus، ١٩٦١) أعلنوا عن نتائج لبحوث أجريت بطريقة الملاحظة بالمشاركة مستعملين في تلك لغة شبيهة بالإحصائيات. وحديثاً في سنة ١٩٩٨، حاول ستراوس و كوربن Corbin، وهما اثنان من رواد اتجاه النظرية الموثقة في البحث الكيفي، حاولا تعديل القواعد المألوفة في العلم (الوضعي) السليم حتى تتناسب مع تصوّرهم لما بعد الوضعي للبحث الدقيق. (Denzin & Lincoln, 2000, p.9)

ويُدرّسُ أحدُ المنظورات الفكرية الوضعية الحقيقة الاجتماعية المحسوسة باعتبارها شيئاً له وجود خارجي "جاهز للاكتشاف والتفسير، أو على الأقل تقديم صورة تقريبية له (وهو المنظور الفكري لما بعد الوضعية). ومن أجل القيام بهذا العمل، ينبغي أن يكون الباحثون "موضوعيين" في تفسيرهم لهذه الحقيقة، بمعنى أنهم لا يسمحون لقيمهم أو اتجاهاتهم أو مشاعرهم أن تتدخل في العملية البحثية، وذلك عن طريق تعليقها مؤقتاً، أو "فصل" هذه القيم والاتجاهات عن البحث. وكثيراً ما يتمّ عرض الطرف المبحوث باعتباره موضوعاً للبحث. لذلك فإن من المرجح إلى حد بعيد أن يتعامل الإثنوجرافيون التقليديون الذين يدرسون أحد المجتمعات المحلية؛ أن يتعاملوا مع القرويين بوصفهم "غرباء" أو بوصفهم "الآخر" المختلف، وأن يؤلفوا قصة يستمدونها من هذا الميدان يُظنُّ أن تكون وصفاً أو تقريراً "موضوعياً" لحوادث وقعت في هذا الميدان. إلا أن دنزن ولينكولن (١٩٩٨/١) يلاحظان أن هذه التقارير تكون في كثير من الأحيان أقرب شبهاً "بالحكايات" المستمدة من الميدان والتي كثيراً ما تعكس ما لدى باحثٍ إثنوجرافيٍّ معين من اتجاهات، ومعتقدات، وقيم (ص ١٤).

تَبْعَدُ أَنْ عَادَ "الإثنوجرافي منفرداً" إِلَى بَيْتِهِ وَمَعَهُ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي جَمَعَهَا، قَامَ بِكَتَابَةِ تَقْرِيرٍ مَوْضُوعِيٍّ عَنِ الثَّقَافَةِ الَّتِي دَرَسَهَا. وَهَذِهِ التَّقَارِيرُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَسَاسِ مَعَايِيرِ عِلْمِ الإِثْنُوْجَرَاْفِيَا التَّقْلِيدِيَّ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْحِزْمَةُ الْمُقَدَّسَةُ مِنْ الشُّرُوطِ (Rosaldo, 1989, p.31) تَقُومُ بِتَنْظِيمِ الْكَتَابَاتِ الإِثْنُوْجَرَاْفِيَّةِ وَفَقْاً لِأَرْبَعِ مَعْتَقَدَاتٍ وَالتَّزَامَاتِ هِيَ: الْإِلْتِزَامُ بِالْمَوْضُوعِيَّةِ، وَمُؤَاوَزَةُ الْمَصَالِحِ وَالسِّيَاسَاتِ الْإِمْبَرِيَالِيَّةِ، وَالْإِيمَانُ بِالنَّزْعَةِ الْمُتَحَفِيَّةِ (وَالَّتِي تَقُولُ إِنْ مِنْ شَأْنِ الْبَحْثِ الإِثْنُوْجَرَاْفِي أَنْ يَقْدِمَ لَنَا صُورَةً مُتَحَفِيَّةً تُشَبِّهُ صُورَةَ الثَّقَافَةِ الْمَدْرُوسَةِ)، وَالْإِيمَانُ بِالْإِلْتِزَامِ (أَيُّ أَنْ مَا تَمَتْ دِرَاسَتُهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ أَبَداً). وَهَذَا النَّمُودِجُ مِنَ الْبَاحْثِينَ، وَالَّذِي بِإِمْكَانِهِ كَذَلِكَ أَنْ يَكْتُبَ عَمَّا دَرَسَهُ نَظَرِيَّاتٍ مُعَقَّدَةٍ وَمُرَكَّزَةٍ، لَا يَزَالُ مَوْجُوداً حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا (Denzin & Linclon, 1998a, p. 14).

تَعَرَّضَ هَذَا النَّمُودِجُ التَّقْلِيدِيُّ لِلرَّفْضِ مِنْ قِبَلِ جِيلٍ جَدِيدٍ مِنَ الْبَاحْثِينَ الْكَيْفِيِّينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِوُجُوْهَاتٍ نَظَرٍ فِلْسَافِيَّةٍ فِي طَبِيعَةِ الْعَالَمِ الْاجْتِمَاعِيِّ تَخْتَلِفُ عَنِ ذَلِكَ أَشَدَّ الْاِخْتِلَافِ. وَيُنَوِّهُ دَنْزِنُ وَلِيْنْكُلُونُ بِأَهْمِيَّةِ ثَلَاثَةِ "نَمَازِجِ تَأْوِيلِيَّةٍ" فِي الْبَحْثِ الْكَيْفِيِّ هِيَ: النَّمُودِجُ التَّرْكِيبِيُّ - التَّأْوِيلِيُّ - Constructivist-interpretive والنَّمُودِجُ النَّقْدِيُّ (الْمَارْكَسِي، وَالتَّحْرِيرِيُّ) وَالنَّمُودِجُ النَّسْوِيُّ. كَمَا يَشِيرُ نِيُومَانُ (Neuman, 2003) إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْمَاطٍ مِنَ النَّمَازِجِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ: الْوُضْعِيَّةِ، وَالتَّأْوِيلِيَّةِ، وَالنَّقْدِيَّةِ (ص ٨٣). وَيَطْرَحُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْإِتْجَاهَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى هَذِهِ النَّمَازِجِ مُسَلِّمَاتٍ مُعَيَّنَةً تَتَعَلَّقُ بِطَبِيعَةِ الْحَقِيقَةِ وَطَبِيعَةِ الْفَرْدِ (أَيُّ بِالْأَوْنَطُولُوجِيَا)، وَبِنَمَطِ النَّظَرِيَّةِ (أَيُّ مِنْهَجِيَّةِ الْبَحْثِ) الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا، وَبِمَا هُوَ فِي الْإِمْكَانِ مَعْرِفَتَهُ، وَمَا الَّذِي يَشْكَلُ بِنَاءَ الْمَعْرِفَةِ (أَيُّ الْإِبْسْتَمُولُوجِيَا).

فَإِنْ أَخَذْتُ بِاتِّجَاهِ تَرْكِيبِيِّ أَوْ تَأْوِيلِيٍّ فِي الْبَحْثِ فَسَوْفَ أَفْتَرِضُ وَجُودَ حَقِيقَةٍ ذَاتِيَّةٍ تَتَأَلَّفُ مِنَ الْقِصَصِ أَوْ الْمَعَانِي الَّتِي أَضْفَاهَا أَوْ صَاغَهَا الْأَفْرَادُ الْمَوْجُودُونَ دَاخِلَ بَيِّنَاتِهِمُ "الطَّبِيعِيَّةِ". وَيُؤَكِّدُ الْمَفْكَرُونَ ذُووُ النَّزْعَةِ التَّرْكِيبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ أَنَّهُ لَا تَوْجُدُ حَقِيقَةً اجْتِمَاعِيَّةً "مَوْضُوعِيَّةً" ذَاتَ وَجُودٍ خَارِجِيٍّ مُسْتَقِلٍّ (عَنِ الْبَاحْثِ) تَنْتَظَرُ اكْتِشَافَهَا. شَاهِدَ ذَلِكَ أَنْ مِيلَرُ وَكَرَابْتَرِي (Miller and Crabtree, 1999) يُشِيرَانِ إِلَى الْمَفْكَرِينَ ذَوِي النَّزْعَةِ التَّأْوِيلِيَّةِ فِيَقُولَانِ:

تعود جذور هؤلاء التأويليين إلى الظاهراتية (Schutz, 1967) والتأويلية (Heidegger, 1927/1962). كما أن هذا التراث يعترف بأهمية الإبداع البشري الذاتي للمعنى، لكنهم لا يرفضون رفضاً تاماً بعض تصورات الموضوعية. ويؤكد أصحاب الاتجاه التأويلي على أهمية "التعددية"، وليس النسبية، مع تركيزهم على علاقة التوتر الدينامي بين الذات والموضوع. (ص ١٠).

ويتناول أحد النماذج النقدية مسألة كيف تسيطر القوة والضبط والإيديولوجيا على فهمنا للحقيقة. ويدور محور البحث هنا على الكيفية التي بمقتضاها تولد ديناميات القوة مجموعة معينة من المعاني (أي الإيديولوجيات) الخاصة بالحقيقة الاجتماعية للأفراد وبخبراتهم الحياتية. ونلمس مثالا لأحد الأعمال المنطلقة من وجهة نظر هذا النموذج (النقدي) في البحث المابعد الحداثي، والذي يتشكك في الأساس الذي يقوم عليه ما يعنيه المرء بأنه "الحقيقة". ذلك أن المفكر الما بعد الحداثي يدرُس الطريقة التي يتم بها إنتاج الحياة الاجتماعية وكيف يمنح حائزو القوة امتيازات لبعض الناس. فهدف بناء المعرفة هو "التحرير" كما يهدف إلى فضح الظلم الاجتماعي. ويُقال إن بعض تنويعات هذا النموذج تشتمل على الدراسات ذات النزعات الماركسية والنسوية، والإثنية، والثقافية، ودراسات الشواذ. وقد وُضِعَ دِنِزِن ولينكولن نموذجاً مستقلاً لهذه التنويعات التي أطلقا عليها مصطلح "الأونطولوجيا المادية-الواقعية" (Denzin & Lincoln, 2000, p.21) وفيها يُنظر إلى الحقيقة باعتبارها "تصورية" representational وليست "واقعية" أو أنها هي "الحقيقة".

والنماذج أو رؤى العالم لا يمكن أن تعد صواباً ولا خطأ؛ ذلك أن إحدى طرق الرؤية تمثل هي نفسها طريقة أخرى لعدم الرؤية. (أي أن إدراك أمرٍ ما يُمثل قوّة إدراك أمرٍ آخر - المترجم). إلا أن النماذج تُعد طرقاً قويّة للبحث في الحقيقة، كما أنها تزودنا بنوافذ للوصول إلى المعلومات المتعلقة بالعالم الاجتماعي، ونقوم في كثير من الأحيان بصياغة الأسئلة المعينة التي نسعى للإجابة عليها.

سؤال البحث

كثيراً ما نتصور أن الأسئلة الكيفية تتضمن اتجاهاً "استقرائياً"، وهو الاتجاه الذي يركز على وصف الآراء أو الأفكار المتعلقة بظاهرة اجتماعية معينة (مستعينة بالأسئلة التي تبدأ بكلمة "ماذا") أو على توليد هذه الآراء والأفكار. فالباحثون الكيفيون يطرحون أسئلة ذات نهايات مفتوحة من قبيل:

• ما الذي يحدثُ هنا؟

• كيف يفهم الأفراد خبراتهم التي يعاشونها؟

وإن من شأن أهداف البحث أن تكون استكشافية أو وصفية: أي أن تكتشف، وتشرح، وتولد الأفكار/أو النظريات المتعلقة بالظاهرة الخاضعة للفحص والدراسة؛ أي أنها تهدف إلى فهم وتفسير الأنماط الاجتماعية (مستعينة بالأسئلة التي تبدأ بكلمة "كيف"). وفي رأى لجبريوم Gubrium وهولستين Holstein (١٩٩٧)، أن البحث الكيفي يُميز بين الأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا" والأسئلة المبدوءة بكلمة "كيف"، ومن شأن ذلك أن نتبين الفروق بين أنماط النماذج الكيفية التي سبق وصفها.

يتركز الاهتمام الرئيسي لأغلب البحوث الكيفية على إجابات لأسئلة من قبيل: ماذا يحدث؟، وماذا يفعل الناس؟، وماذا يعني هذا عندهم؟ فالأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا" تعالج مضمون المعنى الذي يتجلى من خلال التفاعل الاجتماعي وأثناء تداوله بين الأفراد عن طريق الثقافة. ويترتب على ذلك أن مهمة البحث تتمثل في وصف الواقع وفقاً لصورته الطبيعية التي هو عليها. (Gubrium & Holstein, 1997, p.14)

وتركز الأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا" على الأفراد وعلى المواقف الاجتماعية، فهي تبحث عن المعاني الموجودة في هذه المواقف، والمنبثقة منها، والمهمة بالنسبة لها" (جبريوم وهولستين، ١٩٩٧، ص ١٤).

أما الأسئلة المبدوءة بكلمة "كيف" في البحث الكيفي فهي مختلفة. إذ أنها كثيراً ما تتحي المعنى جانباً، كما أنها تهتم بالطريقة التي بها يقوم المبحوثون الموجودون في موقف بحثي معين بتفسير المعنى:

... من المعهود أن تُؤكِّد الأسئلة المبدوءة بكلمة "كيف" على إنتاج المعنى. فالبحث يتوجّه إلى الممارسات اليومية التي يتكوّن منها ما في الحياة اليومية من وقائع لها معناها، وكذلك ممارسات إقرارها وتأكيدّها. لذلك فإن السؤال المَوْجّه هنا هو: كيف يتمّ تنفيذ وقائع الحياة اليومية؟ (جَبْرِيوم وهولستين، ١٩٩٧، ص ١٤).

هل يعني ذلك أن أسئلة البحث الكيفي لا تُعالجُ "سبب" الواقع الاجتماعي؟ مع إدخالنا في الاعتبار أن تقديم التفسيرات التي تَعْلِل أسباب ما يقع في الحياة الاجتماعية أمرٌ يتمّ اللّجوءُ إليه بشيء من الشكّ. وليس من عادة الباحثين الكيفيين أن يصدروا أحكاماً عامّة عن النظام الاجتماعي الكبير. ومن المألوف أن تكون الأسئلة المبدوءة بكلمة "لماذا" هي دائرة اختصاص الباحثين الكميّين. وحين يتصدى الباحثون الكيفيون للإجابة عن أسئلة مبدوءة بكلمة "لماذا"، فإنهم يَسْعَوْنَ "للوصول إلى الأجوبة بسلوكهم اتجاهاً مُخالفاً لفلسفتهم".

من الممكن أن يتعرّض تشخيص الباحث للظروف البعيدة عن ثقافته إلى خطر إهمال دقائق الأمور في حقائق الحياة اليومية، وإهمال الطرق التي بها يتمّ معاشة هذه الأمور وتقديمها. كما أن هذا التعرّض بالبحث للظروف المختلفة يفتح باب التساؤل الكيفي عن مدى إمكانية تصوير الحياة اليومية بوصفها مجرد نتاج لهذه الحقائق التي يُزعمُ أنها حقائق عامّة. ولا يعني هذا الكلام أنه... ينبغي على هذه الدراسات أن ترفض التفسيرات العامة الواسعة النطاق (الماكرو)، إنما يشير فحسب إلى أن المخاطرة بحجب السمات العامة للبحث الكيفي لحساب التفسيرات العامة تكون ماثلة في الخلفية في مثل هذه الأحوال. (جَبْرِيوم وهولستين ١٩٩٧، ص ١٩٦).

ولمواصلة مناقشة إحدى القضايا الكيفية، يُستعمل أسلوبٌ يتّصف بطابع استنتاجي أوضح؛ حيث يطرح أسئلة تُساعد على وصف الحوادث التي تقع في الواقع الاجتماعي، وعلى تفسيرها، بل والتنبؤ بها. وتركز هذه الأسئلة على العوامل القابلة للقياس الكميّ:

• كم عدد؟

• ما مقدار؟

• كم مرة؟

وبالعودة إلى مثالنا الخاص بصورة الجسد نقول : ما هي الصلة بين النوع الاجتماعي واضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين: ذلك أنه كثيراً ما نفترضُ الأسئلة الاستنتاجية -سلفاً- القيام "باختبار" ما للعلاقة بين "متغيرين" أو أكثر. والمراد من ذلك التوصل إلى حكم يكون قابلاً للاختبار في صورة قضايا (أي أحكام) عن العلاقة بين متغيرين أو أكثر، يكون أحدهما المتغير المستقل (ويُفترض فيه أن يكون هو السبب) ويكون الآخر هو المتغير التابع (ويُفترض فيه أن يكون هو الأثر أو النتيجة). وعلى ذلك، من المرجح أننا، في المثال المذكور، سنطرح السؤال التالي:

• ما هي العلاقة بين النوع الاجتماعي (المتغير المستقل) واضطراب الأكل (المتغير التابع) بين الطلبة الجامعيين؟

استخراج أسئلة البحث

• كيف يصوغ الباحثون الأسئلة؟

• ما هو السؤال الجيد للبحث؟

• كيف يفهم المرء الأفكار الواردة في البحث؟

تتشأ مشكلات البحث الكيفي من مجالات مختلفة كثيرة. وكما سبق أن ذكرنا من قبل، تركز أي مشكلة بحثية على مجموعة من المسلمات الفلسفية الخاصة بتصوير باحث معين للحقيقة. إلا أنه يحدث خارج نطاق هذه الرؤية الفكرية العامة المتصلة بالواقع الاجتماعي؛ يحدث في كثير جداً من الأحيان أن تثار بعض الأسئلة من واقع الخبرة الشخصية، كما أن بالإمكان كذلك أن تنبثق أسئلة أخرى من داخل قضية معينة وردت في أدبيات البحوث في موضوع ما.

وتقدم عالمة الاجتماع ديان فوجان في بحثها عن العلاقات الحميمة في كتابها بعنوان "الانفصال: نقاط التحول في العلاقات الحميمة" (Diane Vaughan, Uncoupling: Turning Points in Intimate

(Relationships, 1990) تقدم في هذا البحث مثلاً شامداً على كلامنا هذا. إذ تشتمل مسائل هذا البحث الخاصة بانتهاء هذه العلاقات الحميمة على طرح مجموعة من الأسئلة التي استمدتها من خبرتها الشخصية، وكذلك من الأدبيات البحثية التي تناولت هذا الموضوع:

كيف تنتهي العلاقات؟ لماذا يُصبح أحد الشريكين مُستاءً من شريكه بصورة مُفاجئة ولماذا لا تكون بداية هذا الاستياء مُفاجئة مع كل ذلك؟ ما هي الإشارات التي يرسلها كل شريك لشريكه ليعبر بها عن شكوكه؟ لماذا تمضي هذه الإشارات في أغلب الأحيان دون أن يلاحظها أحد؟ كيف يصل الأفراد الذين يرون أنفسهم شركاء لأحباء لهم إلى أن يتقبلوا، ليس مجرد غياب أحبائهم ولا هجرانهم، بل أن يتقبلوا أن يواصل الواحد منهم حياته بهوية جديدة هي هوية العازب. (فوجان، ١٩٩٠، الغلاف الخارجي للكتاب).

لقد نشأت قضية "الانفصال"، وهو الوصف الذي تطلقه فوجان على هذه الظاهرة، نشأت من خلال تجربتها الشخصية مع الانفصال والطلاق، ومن خلال تأملها الذي استعادت فيه النظر إلى هذه التغيرات الحياتية:

كُنْتُ متزوجة لمدة عشرين عاماً. وعندما تأملت هذه العلاقة بعد انفصالنا، بدا لي أن هذا الزواج قد أخذ في التفكك ببطء على امتداد السنوات العشر الأخيرة. من المؤكد أنه كانت لنا أوقات طيبة، إلا أنني أستطيع، عند استرجاعي لأحداث الماضي، أن أتيين نقاط التحول - وهي المراحل التي تغيرت فيها هذه العلاقة - والأوقات التي زادت فيها المسافة بيننا. لم تكن مراحل التغير هذه تدور حول النزاعات أو حول الإخفاقات العاطفية المعهودة التي يمكن أن تحل بأي علاقة. بدلاً من ذلك، بدأت لي نقاط التحول هذه مرتبطة بتغيرات حدثت في الحياة الاجتماعية لكل واحد منا. مثال ذلك، أنني بدأت الدراسة بالجامعة لأنني تبيّنت أنني لن أخطئ أبداً بالرفقة المستمرة مع شريك حياتي وأنني محتاجة لشيء يخصني أقوم به. وهذه الخطوة، والتي اتخذتها بسذاجة، غيرتني وغيرتنا... وعلى الرغم من أننا أحسنا شخصياً أن انفصام هذه العلاقة كان حدثاً رهيباً ومدمراً، فإن زوالها اتخذ شكل نوع من الإيقاع الاجتماعي. وإذا كان من المعقول أن تتصف الخبرة بالنظام

وبالاضطراب في نفس الوقت، فإن هذا أمر يخالف البداية. وربما كان هذا النظام راجعاً إلى أن زواجنا استمر زماناً طويلاً مما جعل انتهائه يستغرق فترة طويلة، متخذاً بذلك مظهر الانفصال المنتظم. ولعل هذا كان انعكاساً طبيعياً لمهمتي التي كنت أقوم بها في ذلك الوقت: فقد كنت طالبة جامعية تدرس علم الاجتماع، أي أنني كنت أعلم كيف أفتش عن النظام في حياة الناس (Vaughan, 1990, p.3).

كما أن الأسئلة التي وردت في بحثها نشأت من خلال مقالة علمية معينة اطلعت عليها في مطبوعة عن أدبيات البحث في الحياة الزوجية. فقد شئت إحدى المقالات التي تتحدث عن عملية الزواج انتباهها وشرحت لها الصورة المعكوسة لعملية زواجها التي كانت تعيشها:

تصادف خلال نفس هذه الفترة أن اطلعت على مقالة تصف الزواج باعتباره عملية يتبادل فيها فردان الحوار حول علاقتهما ببعضهما البعض وبالعالم من حولهما. فكل منهما يبني حياته حول صاحبه. كما يخلقان صداقات مشتركة، وانتماءات مشتركة، وذكريات مشتركة، ويخلقان كذلك مستقبلاً مشتركاً. وهما يُعيدان تعريف نفسيهما كزوج واحد (*a couple*) (مكون من فردين) في أعينهما وفي أعين الآخرين، الذين يستجيبون للهوية الزوجية التي يخلقانها.... وقد شئت هذه الأفكار انتباهي فوراً، وذلك لأن ما بدا لي أنه حدث، عندما تدهورت علاقتي الخاصة بزوجي، كان صورة مقلوبة لهذه العملية: فقد بدأنا (أنا وزوجي) نعيد تعريف أنفسنا كفردين منفصلين، وتم ذلك ببطء وعلى امتداد الزمن. وبدلاً من الانفصال الفجائي، بدأ انتهاء زواجنا وكأنه نوع من التحول التدريجي. وقبل أن ننفصل جسدياً بمدة طويلة، كنا قد انفصلنا اجتماعياً، فقد أخذنا نكون صداقات منفصلة، وخبرات منفصلة، ومستقبلين منفصلين... ولكي أجيب على الأسئلة التي أثارته تجربتي الشخصية وأثارها المستقبل الذي نبهتني إليه المقالة التي قرأتها، بدأت إجراء المقابلات مع الأفراد (المبحوثين) لكي أتعرف على كيفية انتهاء علاقاتهم (Vaughan, 1990, pp. 2-3)

وقد يتعرض الباحث كذلك لبعض القيود الاقتصادية والزمنية التي تكون مفروضة عليه فيما يتصل بالموضوع المخصص للمشروع البحثي. شاهد ذلك أن قرار جيمس بانكس James Banks الخاص بدراسة ملامح صورة الأمريكيين السود في الكتب المدرسية جاء - بصفة جزئية - بسبب القيود الاقتصادية والزمنية، وبسبب بعض المسائل العملية المتعلقة بالوصول إلى المبحوثين، والمؤثرة في استكمالهِ لرسالة الدكتوراه الخاصة به، وفي ذلك يقول:

كانت فكرتي الأولى لمشروع بحثي لرسالة الدكتوراه عن دراسة التأثيرات التي يُحدثها برنامج تدريب تجريبي على اتجاهات واعتقادات المدرسين في بعض المدارس الحضرية. وقد اضطررت إلى التخلي عن هذه الفكرة لأسباب متعددة. أولاً: كان من اللازم أن أكمل دراستي في بحر سنة واحدة، ولم يكن راجحاً أن أتمكن من تصميم وتنفيذ هذا النوع من الدراسة الذي في ذهني في حدود هذا المدى الزمني. ثانياً: كنت في حاجة للحصول على تعاون منطقة كبيرة بها مدارس حضرية، وتعاون عدد كبير من المدرسين لإجراء الدراسة. كما أن الاستجابة الأولى التي تلقيتها من إحدى المناطق الكبيرة التي بها مدارس حضرية أقتعتني بأنها غير راغبة في التعاون معي في تنفيذ الدراسة. ثالثاً: لو أن هذه الدراسة قد نفذت لكانت تكلفت تكلفة باهظة، كما أنه لم تكن لدي الموارد المالية اللازمة لتمويل هذا النوع من المشروعات البحثية. وعلى الرغم من أنني شعرت بالإحباط لعجزني عن تنفيذ دراستي "المثالية"، فإنني لم أياس. فقد كنت متأكداً من أنه على الرغم من أن مدرس الفصل هو أهم العوامل في البيئة التعليمية للطفل، فإنه توجد متغيرات أخرى تؤثر على تمكن الطالب من فهم المحتوى العلمي لمواد الدراسة، وعلى اكتسابه للاتجاهات المطلوبة. ومن بين هذه المتغيرات الأخرى، ربما كان الكتاب المدرسي هو أكثرها أهمية (Banks, 1976, pp. 383-384).

وقد يواصل الباحث دراسة موضوع معين وتجمعاً معيناً لوجود تمويل متاح لدراسة ذلك الموضوع. فقد توجد جهات أو هيئات تقدم منحاً دراسية، كالجهات الرسمية (الحكومية مثلاً) والجهات الخاصة (كالجمعيات الخيرية

مثلاً)، التي تمنح الموارد المالية اللازمة لدراسة قضايا مجتمعية معينة. وكانت هذه الحالة هي حالة الدراسة التي تضمنتها الرسالة العلمية التي قدمتها ستلا جونز Stella Jones (١٩٧٦/أ) عن الحراك الجغرافي. فقد كانت قبل ذلك مهتمة بموضوع التنشئة الاجتماعية للبالغين. وبتركيزها على الكتابات الوفيرة في هذا المجال، قامت جونز بتضييق نطاق موضوعها فقصرته على القضايا التي تتناول موضوع "مسارات اكتساب المكانة" لدى البالغين، أي: كيف يستطيعون التكيف مع التغيرات التي تحدث في حياتهم كبالغين وهم يمضون قُدماً في دورة حياتهم (جونز، ١٩٧٦/أ، ص ٣١٦). وأصبحت أشد اهتماماً بموضوع التأثيرات التي تحدثها مسارات اكتساب المكانة على شخصية الشخص البالغ، كما أن هذا الاهتمام قد أخذ يضيق نطاقه بالتدرج عندما أدخلت في اعتباري الأنثى الراشدة ودورها التقليدي كزوجة وأم (جونز ١٩٧٦/ب، ص ٣٢٨). وهذه المشكلة البحثية الخاصة وذلك المجتمع بعينه، اللذان اختارتهما لبحثها، قد فرضا عليها فرضاً بسبب نمط المبحوثين الذين استطاعت الوصول إليهم، وبسبب التمويل الذي أمكنها الحصول عليه لتنفيذ أهداف بحثها، وفي ذلك نقول:

بدأ قسم علم الاجتماع-الذي يتولى فيه زوجي إحدى الوظائف- يخطط لتنفيذ حلقة دراسية عن تأثيرات الحراك الجغرافي على الأم المتروجة. وكان من المقرر أن تمول هذه الحلقة الدراسية واحدة من كبريات شركات خطوط النقل. وقد خطر ببالي... أن بإمكانني تقديم إسهام بهذه المناسبة. وافترضت أن كوني أنثى سوف يساعدني في هذا المسعى. وكان خطاب الدعوة إلى المشاركة في هذه الحلقة الدراسية يدعو إلى تقديم بحث علمي يتسم بالأصالة... وكان معنى هذا النظام أنه يتعين على تطوير خطة بحث، والحصول على تمويل من شركة النقل المذكورة، والحصول على موافقة منظمي هذه الحلقة الدراسية... وكانت شركة النقل هي الأكثر ترحيباً بمشروع بحثي. وكانت السهولة النسبية في الحصول على التمويل، وإعطائي قائمة بعناوين النساء اللاتي انتقلن حديثاً؛ كانت مفاجأة تامة بالنسبة لي نظراً لعلمي

بمدى الصعوبة في الفوز بالوصول إلى المنظمات من أجل القيام بالبحث (جونز، ١٩٧٦/ب، ص ٣٢٨-٣٢٩).

وتوصي الممارسة البحثية السليمة (الملتزمة بالقواعد العلمية) بأنه ينبغي أن يكون اختيار مشكلة البحث هو العامل الذي يقرر نمط طريقة البحث المستعملة في الدراسة. ومع ذلك، فقد يحدث في بعض الحالات أن يؤدي تفضيل الباحث لطريقة بحث معينة إلى أن يفرض عليه المشكلة التي يتعين عليه دراستها. شاهد ذلك أن أنتوني إن.دوب وألان جروس (Anthony N.Doob and Alan E. Gross, 1976) كانا مهتمين بفهم الظاهرة السيكولوجية "للإحباط". وبجانب ذلك، فإنهما كانا يرغبان في دراسة هذا الموضوع باستعمال طريقة بحث "غير تدخلية" "unobtrusive"، والتي من شأن المبحوثين عن طريقها ألا يعلموا أنهم محل دراسة. وقد ساعدت طريقتهم هذه على توجيههما إلى نمط البحث الذي توصلا إليه لدراسة هذا الموضوع. وقد كتبا ملاحظة على هذا المأزق الذي مرّا به فقالا:

إنّ أغلب ما يُنفَّذ من بحوث في العلم الاجتماعي يبدو كما لو كان مخططاً وفقاً لأسلوب منطقي دقيق. ذلك أن التقارير تُكتب وكأن الأفراد الذين أعدوها قد انتهوا لساعتهم من قراءة الكتابات المنشورة المتصلة ببحثهم ثم رأوا أنّ ثمة سؤالاً معيناً بحاجة إلى أن يُجابَ عليه. ويبدو الأمر - بصورة عامة - كما لو أن هؤلاء العلماء قد فكروا كثيراً في أفضل طريقة للإجابة على هذا السؤال، ثم صمّموا بحثهم وفقاً لهذه الطريقة. أما بحثنا.. فإنه لا يندرج تحت هذا النمط. فهو، بدلاً من ذلك، يمثل ثمرة لمحاولة صريحة ومقصودة لتصميم دراسة ما تستعمل طريقة بحث معينة، كانت - في ذلك الوقت - قليلة الاستعمال نسبياً في مجال علم النفس. والواقع أنه حدث، في هذه الحالة، أن الموضوع الذي انتهينا إلى اختياره للدراسة والمسمى: إطلاق صفارة السيارة ("كلاكس" *horn honking*) إنما اخترناه فحسب لأنه كان مُتجاوباً مع طريقة البحث التي تهمنا. (Doob & Gross, 1976, p.487).

وقد أتاحت دراسة "إطلاق صُفارة العربة" (وهو مقياسٌ غير تَدخلي) في موقعٍ طبيعي؛ أتاحت للباحثين إجراء تجربةٍ استطاعا فيها قياس مُستوى الإحباط عند الأفراد (تبعاً لعدد مرّات إطلاقهم لصفارات عرباتهم) كما يلي:

فَكّرنا في عدد من الأساليب المختلفة التي تسبب الإحباط للناس، وانتهينا إلى أسلوب من أساليب الإحباط اليومية التي يُخبرها أغلبُ أبناء المُن، وهي الإحباطات الناجمة عن حالات الزحام في حركة المرور.. وسرعان ما تنبه واحدٌ منا إلى أنه من السهولة إحباط امرئٍ ما أثناء حركة المرور بمُجرد التوقف وعدم التحرك عندما تُضيء إشارة المرور الخضراء. وعند ذلك، وفي غضون دقائق قليلة، طوّرنا أفكارنا الخاصة بالمتغير التابع في هذه الدراسة. فما علينا إلا أن نقيس طول الوقت الذي يستغرقه قائدُ السيارة التي خَلَفنا في طابور السيارات حتّى يطلق صُفارة عَربته (Doob & Gross, 1976, p. 488).

لعلُّ أحد أكثر السبل شيوعاً للحصول على مشكلة للبحث، هو إلقاء نظرة عامة على التراث المنشور في موضوع معين. شاهد ذلك دافيد كارب - أحد علماء الاجتماع في بوسطن كولج- الذي ألف عدة كتب عن الاكتئاب. إذ يرى كارب أن إلقاء نظرة عامة على التراث المنشور يقوم بدور الجسر الذي يصل اهتماماته بأحد مجالات البحث التي في متناول المرء أن يفحصها بعناية. فهياً بنا ننضم إلى دافيد كارب حيث يعرض لنا ما وراء الكواليس.

خلف الكواليس مع دافيد كارب

حسناً، لقد أذهشني الأمر لغرابته، وذلك عندما نظرتُ إلى كل تلك الكتابات التي تتحدث عن الاكتئاب، وهي كتابات تضم مادة علمية هامة فعلاً تتحدث عن المتغيرات المستقلة التي تم ربطها بمعدلات الاكتئاب، وما إلى ذلك. ولكن الاكتئاب نوع من اضطراب المشاعر. إنه اضطراب وجداني. وهكذا أخذت -وأنا على ذلك الحال - في قراءة كل هذه المادة العلمية دون أن أستمع إلى مشاعر الناس الذين أصيبوا بهذا الاضطراب. وقد أذهشني كنوع من التناقض أن يكون هذا هو الواقع فعلاً حيث خلت تلك الكتابات حقيقة من ذكر مشاعر

هؤلاء الناس. وكما قلتُ من قبلُ، فإن أحد أهدافي، وهو أحد أهداف البحث الكيفي على الأقل، أن أدع الناس يتحدثون، وذلك حتى تُقرَّ بأن الأفراد الذين تجري معهم مقابلات شخصية هم خبراء فعلاً. فأنت تتحدث إليهم لأنهم هم الخبراء. وعلى ذلك، فإنه يتعين عليّ أن أقوم بواجبي في هذا المجال، وذلك لأن أحداً لم يستمع من قبل إلى أصواتهم. وكان بمكتبة أونيل O'Neill العامة مجلة علمية... فقد كنت أتجول يوماً ما بين رفوف الكتب، ف وقعت مصادفة على مجلة علمية اسمها "المجلة العلمية للاضطرابات الوجدانية" (*). وقد ملأت أعضائها نحو خمسة أقدام من الرفوف في هذه المكتبة، ولم يكن بها صوت واحد، ولا كلمة واحدة صدرت من شخص يُعاني فعلاً من الاكتئاب. فقلت: "يا للعجب، لقد ظفرت بشيء أقوم به في هذا المجال". وكانت هذه هي البداية.

ومع أن هذا القسم من الكتاب لا يستهدف الخوض في تفاصيل كيفية البحث في التراث المنشور حول الموضوع، إلا أننا سوف نناقش مختلف الأساليب التي تساعدك بها عملية استعراض التراث المنشور على صياغة مشكلة بحثك. ويؤودنا لوك Locke، وسبيردوزو Spirduso، وسيلفرمان Silverman (٢٠٠٠) بصورة مجازية مفيدة للتفكير في عملية استعراض التراث المنشور عندما يمشيرون إلى أنها تشبه نوعاً من "الحوار الموسّع" "extended conversation" (ص ٦٣)، حيث يقولون:

إن عملية التعرف على مواقع أصوات المتحاورين الأفراد تسمى -مثلاً- الاسترجاع retrieval. وهي عملية تشتمل على التنقيب داخل التراث المنشور عن الموضوع للعثور على ما سبق قوله (متى، وبواسطة مَنْ، وعلى أي أساس من الأدلة؟). أما عملية الإصغاء بعناية للحوار المستمر حول موضوع بحث فتُسمى "الفحص" أو المراجعة. وهي عملية تشتمل على دراسة النقاط التي سبق اكتشافها إلى أن نصل إلى فهم كل من تاريخ هذا الحوار وموقفه الراهن (ص ٦٤).

أولاً، إذا كان الأمر عندك غامضاً فيما يتصل بموضوع بحثك وتحتاج إلى الوصول إلى فكرة عما هو موجود من كتابات في هذا المجال، وذلك لكي تبدأ في تضيق نطاق الأمور التي يمكن دراستها، فإن البحث عن موضوعك من خلال استعراض التراث المنشور قد يكون أسلوباً جيداً للبداية. وقد تحتاج في مبدأ الأمر إلى الإلمام بأنظمة الاسترجاع الكمبيوترية الخاصة بعمليات استعراض الإنتاج الفكري المنشور، والتي قد تكون متاحة لك، ومنها تلك المجموعة الضخمة من قواعد البيانات ذات الموضوعات المحددة، والتي تتوافر حالياً بصورة مباشرة على شبكة المعلومات، أو بصورة منفصلة (على ديسكات مثلاً). وتحتوي أغلب قواعد البيانات المذكورة على مستخلصات (أي ملخصات موجزة) للمقالات والتقارير التي تمكنك من أن تحصل بسرعة على صورة عامة عن هذه الأعمال. وقد تحتاج كذلك إلى التفكير في بعض الكلمات أو التعبيرات الأساسية (المفتاحية) المهمة التي تستطيع إدخالها في قواعد البيانات المذكورة التي سوف تقدم لك أفضل وصف للموضوع محل الاهتمام.

- كيف يُحدد مؤلفو هذه المقالات موضوعاتهم؟
- ما هي المصطلحات والعبارات الأساسية التي يستعملونها؟ احتفظ بقائمة بهذه الأسئلة حتى تستطيع بناء مجموعة مفيدة من المصطلحات لتدخلها في قواعد بياناتك.
- كيف عالج الباحثون الآخرون موضوعك؟
- ما هو تاريخ البحوث في هذا الموضوع؟
- ما هي أبرز موضوعات الخلاف المثارة داخل هذا التراث المنشور؟
- ما هي نقاط الاتفاق وما هي نقاط الخلاف؟
- ما هي الأسئلة المحددة التي طرحت حول تلك النقاط؟
- ما هي النتائج التي تم اكتشافها؟
- ما هي نتائج البحث التي تبدو الأشد اتصالاً بموضوع بحثك؟
- ما هي الأمور التي لم تتجز ويتعين التصدي لها، أي ما هي القضايا الملتهبة التي لا تزال بحاجة للمعالجة فيما يتصل بموضوع بحثك؟

• أين هي الفجوات التي وَجَدْتَهَا في هذا التراث المنشور؟

وبالرجوع إلى الصورة المَجَازِيَّة الخاصة بتصوير استعراض التراث المنشور باعتباره نوعاً من "الحوار الموسَّع"، قد تكتشف أنه بالإجابة على كثير من هذه الأسئلة، فإنك تَظْفَرُ بفرصة للإصغاء إلى الحوار الدائر حول موضوع مُعَيَّن، مما يُفْضِي بك في نهاية الأمر إلى أن تكون طرفاً في هذا الحوار. وإن كنتَ قد قُمتَ بالفعل بِتضييق نطاق موضوع بحثك لِيَتَّوَلَّ قضايا مُحَدَّدة، فإن استعراض التراث المنشور يمكن أن يزودك بسياق تضع في داخله هذه القضايا، كما أنها سوف تتيح لك أن تطوِّع هذه القضايا في ضوء ما تجده في مراجعتك للتراث المنشور. ولعلَّكَ سوف تكتشفُ أنَّ باحثين عديدين قد طرحوا من قَبْلُ سؤالاَ مشابهاً: كيف سيؤثر ذلك على طريقة متابعتك لدراسة موضوعك؟ هل ستقرر أن تكررَ دراستهم، هل ستمدُّ نطاق دراستك لِيُغْطِي جمهوراً مختلفاً من المبحوثين، أم أنك ستقرر تغيير مُشكلاتك قليلاً لتواصل دراسة مَجَالٍ جديدٍ غير مطروق؟.

وعند القيام بتصميم بحثٍ كافيٍّ يكون من المهم عدم التفكير في مراجعة التراث المنشور باعتبارها خطوة تحدث في لحظة معينة مُحَدَّدة من مراحل عملية البحث، إذ أن المؤلف في البحث الكيفي، عادة، أن يجري استعراض موسع للتراث المنشور في بداية المشروع البحثي، كما تقوم هذه المراجعة بدور التبرير للسبب الذي جعلَ الباحث يطرح سؤالاً بعينه، وتبرير أهميته البحثية. ويخاطر الباحثون الكميون بالتعرض "للغرق في هذا التراث المنشور"، لأنهم قد يشعرون أنهم لا يمكنهم أن يبدعوا مشروعاً بحثياً بدون التققيب والبحث في كل شيء. لذلك قد يصدرُ منهم نوع من التشدد أو التصلب فيما يقومون به من مراجعة للتراث المنشور، كما أنه لا يحدث عادةً إلا في النهاية الأخيرة لمشروعهم أن يعودوا مرةً ثانيةً فيراجعوا استعراضهم للتراث المنشور حتى يُدرجوا في تقريرهم العلمي النتائج غير المتوقَّعة الموجودة في هذا التراث.

وبإدخال الطبيعة التكرارية لعملية البحث الكيفي في الحسبان، وتأكيداً على أهمية الاكتشاف، فإن استعراض التراث المنشور قد يتم في الواقع في

عدة مراحل من العملية البحثية، وذلك عندما يقع الباحث على اكتشافات جديدة في ثانياً بيانات بحثه، وعندما يتوقع الباحث من هذا الإنتاج المنشور أن يزوده بسياقٍ يستطيع أن يفهم في إطاره ما وصل إليه من نتائج. ويترتب على ذلك أن استعراض الإنتاج الكيفي المنشور قد يخذ أشكالاً كثيرة من "اللف والدوران"، لأن الباحث محكوم بما يقوم به من تحليل للبيانات التي تجعله يطرح أسئلة جديدة قد تقود إلى مجموعة مختلفة من الإنتاج العلمي المنشور. وفي بعض الأحيان يجد الباحثون الكيفيون أنه يشق عليهم اتباع خطة معيارية لمقترح بحث (كمي) تتطلب القيام بمراجعة مُسببة إلى حد ما للإنتاج المنشور، في الوقت الذي يكون فيه ما ينوون عمله هو اكتشاف مجموعة معينة من المشاكل و/أو القضايا، وليس "اختبار" الفروض المحددة التي التقطوها أو جمعوها شيئاً فشيئاً باستخرجها مما قاموا به من مراجعة للإنتاج المنشور. وبهذا الشكل قد يقوم استعراض التراث المنشور بوظائف مختلفة أشد الاختلاف داخل نطاق التحليل الكيفي مقارنة بوظائفه في نطاق التحليل الكمي.

تصميم البحث

تستند تساؤلات البحث - كما بينا - إلى رؤية فكرية فلسفية تتعلق بطبيعة الحقيقة، إلا أنها تتقيد كذلك بطائفة من العوامل مثل الاهتمامات الأكاديمية والشخصية، والقدرات والقيم الاجتماعية، كما تتأثر كذلك بالوسائل التي يستخدمها الباحث للوصول إلى الموارد الاقتصادية الخاصة، والمصادر المتصلة بأسلوب الحياة. ذلك أن هذه العوامل جميعها تحدد "مسار البحث" الذي يسلكه أي مشروع بحث.

وعند اختيار تصميم للبحث (وهو التصميم الذي يحدد كيف سيُنَفَّذ الباحث مشروع بحثه)، ربّما يكون من أهم الأسئلة التي يحتاج المرء أن يطرحها هذا السؤال:

- ما هو نوع التراث النظري الذي سوف يميز مشكلة بحثي (هل هو التراث التأويلي؟ أم تراث النظرية النقدية؟ أم هو النظرية الوضعية؟ أم ماذا؟).

مثال: تصميم بحث وضعي

تنشأ القضية البحثية التالية انطلاقاً من تراث وضعي/ وما بعد الوضعي، وتطرح السؤال التالي:

- ما هي العلاقة بين النوع الاجتماعي واضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين؟

فهذه القضية/ أو المشكلة البحثية تُقرر العلاقة بين متغيرين، يُسمى أحدهما المتغير المستقل (وهو المتغير الذي نعتقد أنه السبب، وهو هنا: النوع الاجتماعي، والآخر يُسمى المتغير التابع (والذي نعتقد أنه بحاجة للتفسير، وهو هنا: اضطرابات الأكل). وفي نطاق الإطار الفكري الوضعي/ الما بعد الوضعي، يكون الباحث مشغولاً بالبحث عن "سبب ونتيجة" (أو علة ومعلول). ولتقرير هذه العلاقة السببية، يكون من الأهمية أن يسبق المتغير المستقل المتغير التابع سبقاً زمنياً، وأن تُوجد علاقة بين هذين المتغيرين، وأنه لا يوجد متغير ثالث، بحيث إنه لو كان هذا المتغير مأخوذاً في الحسبان، فإن العلاقة الأصلية بين المتغير المستقل والمتغير التابع تظل موجودة فلا تختفي. ولمتابعة هذه القضية البحثية، فإنك تحتاج لأن تقرر من/أو ماذا ستبحثه، وأين ستجري متابعة البحث. وللإجابة على الجانب الخاص "بمن" أو "بماذا"، فإنك ستحتاج إلى تحديد "وحدة التحليل" الخاصة بدراستك: هل ستكون أفراداً، أم دولاً قومية، أم منظمات، أم ماذا؟ وحينئذٍ سوف تحتاج إلى أن تضع قائمة بالسلوكيات والملابسات والمجتمعات التي تهتم بدراستها (Golden, 1976, p.6).

ولكي نتابع دراسة هذه القضية البحثية، فمن المرجح جداً أننا سوف نصل إلى فهم كهذا الفهم التالي:

تقوم هذه الدراسة على أساس الإجابات التي تم الحصول عليها من ١٠٠٠ من الطلبة الجامعيين الذكور و ١٠٠٠ من الطالبات الجامعيات. وقد تم اختيار الطلبة من عينة عشوائية من خمس كليات تابعة لمجموعة أيفي بالولايات المتحدة U.S. Ivy League. وقد أعطى كل واحد من هؤلاء الطلبة استبياناً يُجيب عليه المبحوث بنفسه ليملاء، وكان هذا الاستبيان يشتمل على

عادات الأكل الشخصية، ونظم الحمية، واتجاهات المرء إزاء نفسه، وإزاء العائلة، والأصدقاء، والكلية، والقضايا المتصلة بذلك. وقد أُدرجَ في الاستبيان مقياسان مختلفان للسلوكيات المرتبطة باضطرابات الأكل، وقد أُطلق على أول هذين المقياسين "اختبار اتجاهات الأكل" (EAT)^(*)، وأطلق على المقياس الآخر "بيان اضطرابات الأكل" (EDI)^(**). وقد وضعت لهذين المقياسين درجات متعددة لتصنيف الطلبة إلى فئتين من الآكلين: الفئة السوية والفئة غير السوية.

في مثالنا السابق، تتمثل وحدة التحليل في الطالب الجامعي والطالبة الجامعية. ويتمثل مجتمع الدراسة في الكليات الجامعية التابعة لمجموعة أيفي، كما أن السلوكيات التي يشملها البحث هي: الاتجاهات نحو تناول الطعام (وهي تمثل المتغير المستقل) والقيم والعوامل الأخرى التي تدخل في تقرير السلوكيات المرتبطة باضطراب الأكل (وتمثل المتغير التابع). ويمكن استخراج مجموعة من الفروض من هذه القضية المبدئية:

الفرض رقم (١): النساء أرجح احتمالاً من الرجال في الالتزام بالحمية (النظام الغذائي).

الفرض رقم (٢): النساء أرجح احتمالاً من الرجال في الاهتمام بالأكل.

الفرض رقم (٣): النساء أرجح احتمالاً من الرجال في التصريح برغبتهم في فقدان الوزن.

الفرض رقم (٤): سوف تبدي النساء مُعدّلات من الاستياء من صورة أجسادهن أعلى من الرجال.

الفرض رقم (٥): سوف تبدي النساء مُعدّلات من السلوك المرتبط باضطرابات الأكل أعلى من الرجال.

وبمجرد صياغة قضية بحثية أولية وصياغة مجموعة من الفروض، يكون من الأهمية إدخال السؤالين التاليين في الحسبان:

(*) Eating Attitudes Test
(**) "Eating Disorders Inventory"

• كيف ستقوم "بقياس" هذه الأفكار؟ بمعنى: كيف ستضع يدك عليها في الواقع الاجتماعي المحسوس؟

• كيف تقرر ما إذا كان لدى المبحوثين نوعاً من اضطراب الأكل؟
إن القياس هو العملية التي نُحوّلُ بها المفاهيم - مثل "اضطرابات الأكل" - إلى "متغيرات". ويُطلق على عملية تحويل المفاهيم إلى متغيرات مصطلح "التعريف الإجرائي". وتعتبر بعض المتغيرات - مثل "النوع الاجتماعي" - أسهل في قياسها، كما أن بالإمكان أن نضع أيدينا عليها في الواقع الملموس من خلال طرح سؤال بسيط مثل: ما هو نوعك؟ وتساعد الإجابة التي يقدمها لك المبحوثون - في الدراسة - على تصنيفهم (أي تحويلهم إلى متغيرات) تبعاً لوضعهم من حيث النوع. وتكون بعض المفاهيم الأخرى، "كاضطرابات الأكل" شديدة التجريد وقد تتطلب بذل قدر كبير من التحليل النظري أو إعمال العقل فيما نعنيه بهذا المصطلح وبأبعاده المتعددة. فاضطرابات الأكل لها من الأبعاد ما هو سلوكي وما هو نفسي، وهي الأبعاد التي يتعين قياسها. وهو الأمر الذي يقتضي طرح عدد من الأسئلة لكي نستطيع أن نضع أيدينا على شتى المظاهر السلوكية لهذا الاضطراب، كالسلوكيات المتصفة بالشراسة المرضية، أو تلك المتصفة بفقد الشهية للطعام، والسلوكيات المرتبطة بالحمية الغذائية، فضلاً عن مختلف الأبعاد النفسية، مثل "مخاوف النضج" و "نزعة الحرص الزائد على الكمال"، ونحو ذلك. وقد يخرج المرء بمجموعة من الأسئلة في شكل قائمة ترصد كافة تلك المظاهر (تكون عبارة عن مقياس) يسمى ببيان اضطرابات الأكل (EDI)، يتألف من طائفة من العناصر التي تشمل الأبعاد السلوكية والنفسية للسلوكيات المرتبطة باضطرابات الأكل (Garner, Olmsted & Polivy, 1983)). ويمكن للمرء أن يوزع هذه الأسئلة على أفراد مجتمع البحث الذين اختارهم، وسيحدد في ضوء الإجابات عليها إلى أي مدى يمكن تصنيف الفرد بوصفه يتسم بواحد من سلوكيات اضطرابات الأكل.

الصدق والثبات

من القضايا المهمة التي يهتم بها مفكرو الوضعية/ وما بعد الوضعية فيما يتصل بموضوع القياس: قضية صدق وثبات المقاييس المستخدمة.

وترتبط وجهة نظر التراث الوضعي للحقيقة الاجتماعية - باعتبارها "أمراً قابلاً للمعرفة" - ارتباطاً شديداً بمفهوم تقليدي للصدق، حيث يُعرّف من ناحية القياس تعريفا صارماً على النحو التالي:

- هل يُقاسُ المقياسُ ما يُفترضُ منه قياسُه؟
- هل يوجد توافق بين هذا المقياس والحقيقة الاجتماعية الموضوعية؟
- مثال : هل يعتبر " بيان اضطرابات الأكل" (EDI) مقياساً صادقاً لاضطرابات الأكل؟

ويُعلق كفيل (Kvale ١٩٩٦) على ذلك فيقول:

في الفلسفة الوضعية، تصبح المعرفة انعكاساً للحقيقة: فلا يُوجد إلا رؤية صحيحة واحدة للعالم الخارجي المُستقل، كما أنه يوجد على مستوى المثال تطابق تام بين عناصر العالم الحقيقي وبين معرفتنا عن هذا العالم. (ص ٢٣٩).

ويرتبط مصطلح الصدق بأحد ميادين علم النفس، المعروف باسم "القياس النفسي".

ارتبط مفهوم الصدق - في مجال علم النفس - بالقياس النفسي، حيث يتم تقرير الصدق المتزامن والتنبؤي لأي اختبار سيكولوجي في صورة معاملات ارتباط تُنكّل على التوافق بين نتائج الاختبار وبعض المعايير الخارجية. (Kvale, 1996, p. 238).

لذلك، وعلى سبيل المثال، يكون بالإمكان استعمال درجات الاختبار المُسمّى "اختبار الاستعداد للتعلم" (*) في التنبؤ بالنجاح في الكلية (أي: في الصدق التنبؤي). ومن الممكن أن يكون مقياس النجاح هو ما يحصل عليه الطالب من مجموع تراكمي (GPA) في سنوات الدراسة في الكلية (وهو معيار خارجي).

أما المقياس المُسمّى تأكيد المعنى فيقيس صدق المفاهيم الأكثر تجريداً مثل مفهوم "التسلطية"، عن طريق افتراض ما قد تكون التسلطية مرتبطة به

(*) Scholastic Aptitude Test (SAT).

(نظرياً) لو أن هذا المقياس كان صادقاً. ولهذا، وعلى سبيل المثال، يمكننا أن نتوقع ارتباط أحد مقاييس التسلطية بفقدان الثقة والسلوك النزاع للشك (انظر دويتش Deutch و كراوس Krauss، ١٩٦٥).

ويهتم الباحثون الذين يلتزمون بالنموذج الوضعي - كذلك - بالقضايا المتصلة بالثبات. وي طرح الثبات سؤالاً يقول : إذا قُدِّمت "بيان اضطرابات الأكل" (EDI) إلى مجموعة من الطلبة في اليوم رقم (١)، فهل سَأحصل منهم في اليوم رقم (٢)، على نفس الإجابة التي حصلت عليها في اليوم رقم (١)؟ فإن لم يوجد سبب للشك في حدوث أي تغيّر حقيقي في حياة الطلاب من يوم إلى اليوم الذي يليه، فينبغي أن أتوقع أن يأتي هذا البيان (EDI) : بنتائج متسقة في إجابات الطلاب من اليوم رقم (١) إلى اليوم رقم (٢)، وإن لم يحدث هذا، فسوف أقلق على مدى ثبات هذا المقياس. فإن وُجِدَت نتائج متعارضة، ففعل ذلك راجع إلى وجود شيء ما في صميم الأسلوب الذي أستعمله في طرح بعض الأسئلة مما يجعل هذه النتائج تتسم بعدم الثبات، كما يجعلها عرضة للخطأ.

وهذا الوضع يختلف عن موضوع الصدق. فقد يكون بيان اضطرابات الأكل مقياساً صادقاً، ولكنه لا يتسم بالثبات. فقد يرجع سبب عدم الثبات، مثلاً، إلى الطريقة التي اتبعتها - مادياً - في تقديم الأسئلة بالاستبيان والتي جعلت من الصعوبة على المبحوثين أن يضعوا علامات على الخانة الملائمة في كل مرة. فهذا الوضع لا يرجع لطبيعة المقياس إنما يرجع إلى الطريقة التي قُدِّمَ بها. ولعله يجدر بي لكي أجعل بعض المقاييس أكثر ثباتاً أن أضحي ببعض التفاصيل في هذا المقياس، وقد تأتي هذه التوضيحية عن طريق طرح أسئلة أقل عدداً وأقل تعقيداً، بحيث أقدم مجموعة أبسط من الاختيارات تكون أقل عرضة للتعارض عند وضع المبحوثين للعلامات أمام خانات الاختيار. معنى ذلك أنني أستطيع أن أضحي بشيء من الصدق في مقابل مكسب ما من حيث الثبات. ومعنى هذا أنني أستطيع وضع مقياس لاضطرابات الأكل قد لا يكون أشمل المقاييس من حيث الإحاطة بكافة أبعاد قَضَايا اضطرابات الأكل، ولكنه يكون مقياساً أبسط وأسهل في تقديمه، كما يقلل من المشكلات الخاصة بالثبات.

وبصفتي باحثاً، فإنني أقوم على الدوام بإعطاء أهمية لثبات المقياس في مقابل صدقه. ومن الناحية المثالية، ينبغي على المرء أن يُقيم توازناً دقيقاً بين هذين الأمرين المهمين.

اختيار العينات (المعاينة)

القضية الثانية التي يحاول الباحث تأكيدها هي ما يتصل بقراره المتعلق باختيار العينات: فمن هم جمهور مجتمع البحث الذين ترغبُ في دراستهم؟ وهل تريد صياغة تعميمات عن الطلبة الجامعيين؟ إذا كان هدفك كباحثٍ كفيٍّ وضعي أن تقوم باستنتاج التعميمات، إذن فأنت بحاجة إلى أن تشغل نفسك باختيار جمهور بحثك بطريقة العينة العشوائية. وتُعني فكرة استخراج عينة عشوائية من بين جمهور كبير العدد أن بإمكان المرء أن يستخرج أحكاماً استنتاجية تنطبق على جمهور أكبر عدداً. فإذا اختيرت العينة عشوائياً، فإن بإمكان المرء الانتفاع بقوانين الاحتمال في حساب مدى الدقة في التشابه بين الفئة التي تتكون منها العينة والجمهور الحقيقي، وذلك على أساس أحد المتغيرات الواردة في دراسة مُعينة.

أضف إلى ذلك أنه توجد طائفة من العينات الاحتمالية (العينة العشوائية، والعينة الطبقية، والعينة العنقودية، والعينة المتعددة المراحل) وتوجد عينات غير احتمالية (مثل العينات العمدية أو الحكمية، أو العينات الحصية). والباحث في حالة استعمال العينات العمدية، قد لا يكون مهتماً بأن تكون العينة ممثلة للجمهور الكبير، كما أنه، في الواقع، قد لا يكون لديه فكرة عن هذا الجمهور الكبير من يكون. مثال ذلك، أنه لو فرض أنني كنت مهتماً بصياغة أحكام عامة عن اضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين المثليين، فقد يكون من الصعوبة البالغة عليّ أن أتحصل على "قائمة شاملة" تضم أسماء جميع الطلاب المثليين لكي أُنقي منهم العينة المطلوبة، وذلك بسبب الخلافات التي تدور حول موضوع الخوف المَرَضِي من المثلية، وموضوع حماية الهوية الشخصية للفرد.

تصميم البحث الكيفي

إذا قررنا أن ننهج مساراً بحثياً مختلفاً ورغبنا في دراسة اضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين انطلاقاً من منظور فكريّ كيفيٍّ لوجهة نظرٍ نسوية فإن هدف البحث يُصبح الوصول إلى فهمٍ لهؤلاء الأشخاص الذين ندرسهم انطلاقاً من وجهة نظرهم هم.

• ما هي علاقة الخبرة المُعاشة للرجال وللنساء المبحوثين بالطعام وبصورة الجسد لديهم؟

تَهتم وجهة النظر النسوية اهتماماً خاصاً بكشف الغطاء عن أي جوانب "مقهورة" أو "خفية" في خبرات الأفراد مما يكون قد فات الباحثين. وإن طرح الأسئلة المسحية المُستخرجة من التراث البحثي المنشور في هذا الموضوع، وتطبيق المقاييس التي تقيس اضطرابات الأكل، مثل بيان اضطرابات الأكل EDI لن يستطيعا الإحاطة "بالخبرات المُعاشة" لهؤلاء الطلبة الجامعيين. أي ما هي حكايتهم؟ لذلك فإننا لن نستطيع أن نبدأ بمجموعة (جاهزة) من المفاهيم أو "المقاييس"، وإنما يتعين أن نبدأ باستخراج هذه المفاهيم أو المقاييس من الأشخاص المستجيبين أنفسهم. وانطلاقاً من هذه المفاهيم يمكننا حينئذٍ أن نأملَ فهمَ العملية التي بمقتضاها تصبح القضايا المتصلة بالأكل وصورة الجسد خاضعة لاعتبارات النوع، بل قد نصل إلى حد الأمل في البدء بتكوين بعض الأفكار النظرية المتعلقة بهذا الموضوع.

فإذا أدخلنا هذا المسار البحثي النسوي في الاعتبار، تكون القضايا المتعلقة بالصدق، والثبات، واختيار العينات قضايا مختلفة تماماً بالمقارنة بالاتجاه الكيفي الوضعي الذي تكلمنا عنه أولاً.

الصدق في البحث الكيفي

إن السؤال عما إذا كانت علاقة الطلبة الجامعيين بالطعام وبصورة أجسادهم صادقة أم لا إنما يتوقف على أحد التصورات المختلفة لما نعنيه بكلمة الحقيقة. فإذا كان المنظور الفكري لمُعظم البحوث الكيفية يذهب إلى أن

الحقيقة الاجتماعية "مصنوعة اجتماعياً"^(*)، فإن استعمال مفهوم "الصدق" باعتباره "مطابقاً" لمفهوم الحقيقة "الموضوعية" لن يكون مفيداً. إذن فما الذي يفيد؟

... يتم التحقق من الصدق عن طريق فحص مصادر عدم الصدق. فكلما ازدادت قوة الرأي المطروح في الصمود أمام محاولات تفنيده، ازدادت هذه المعرفة صدقاً وجدارةً بالثقة بها (Kvale, 1996, p. 241).

يتخذ الصدق شكل إخضاع ما انتهى إليه المرء من نتائج بحثه للدعاري والتفسيرات المعارضة لها، كما يتخذ شكل تزويد القارئ بحجج قوية تؤيد دَعَوَاكِ المعرفية الخاصة (Kvale, 1996, p. 240).

عندما تنتهي من قراءة دراسةٍ كيفية، اسأل نفسك: ما هي العوامل التي تجعلك تتجاوبُ مع نتائج البحث؟ هل نجح الباحث في الوصول إلى الحقيقة الاجتماعية للمبجوثين الذين يدرسه؟ وفي هذا الصدد توصل كفيل (١٩٩٦) إلى ثلاثة معايير لإثبات صدق أي دراسةٍ كيفية معينة. وهو يعرف هذه المعايير على النحو التالي:

(١) الصدق بوصفه سمة الحرفية أو البراعة.

(٢) والصدق بوصفه تواصلاً.

(٣) والصدق بوصفها فعلاً.

الصدق بوصفه حرفية أو براعة

يتعين أن يرتبط المعيار المُسمَّى "الصدق بوصفه حرفية أو براعة" بالطريقة التي تتبناها في إدراكك لمصداقية الباحث والبحث إدراكاً حسيّاً. هل يتصف الباحث "بالاستقامة الخلقية" (كفيل، ١٩٩٦، ص ٢٤١)؟ وهذه الاستقامة والمصداقية إنما تتكون من واقع الأفعال التي تصدرُ عن الباحث والتي يتم إدراكها حسيّاً. ما مدى جودة ما فعله الباحث لمراجعة بحثه وتحقيقه؟ ما مدى جودة فحص الباحث لنتائج البحث التي يهتم بها هذا القارئ؟ هل تمّ اختبار هذه

(*) أي مؤلفة أو موضوعة من جانب أفراد الجماعة، ومفهومة لديهم أيضاً، الأمر الذي ينفي عنها صفة الإطلاق ويربطها دائماً بالجماعة. (المراجع).

النتائج، ومناقشتها، وتنظيرها؟ وبإمكان المعيار الذي يرى إثبات الصدق بوصفه عملاً من أعمال المراجعة والاختبار أن يشمل طائفة من الإجراءات التي تُنفَّذ على البيانات الكيفية (كالبحت عن الحالات السلبية (أي المخالفة للنتائج العامة - المترجم) في الدراسة التي يقوم بها المرء، والرجوع إلى المبحوثين عندما يغمضُ عليك فهمُ رأيٍ أبدوه. وربما تشمل هذه الإجراءات قيامك بطرح أفكارك على المبحوثين ليبدو رأيهم فيها حتى تقف على وجهة نظرهم، مستوثقاً من أن ما قمتَ به من إجراءات في اختيار العينات تتناغم مع المسألة التي يناقشها بحثك، وما إلى ذلك).

وكما ذكرنا من قبل، فإن أحد الجوانب المهمة في مراجعتك لبياناتك يتمثل في تحليل الحالات السلبية. وكثيراً جداً ما يتم ذلك التحليل كإجراء مستمر على امتداد سائر أجزاء الدراسة، وخاصةً عندما يستعمل المرء قدراً متزايداً من الاتجاه البحثي القائم على "النظرية الموثقة" (Glaser & Strauss, 1967). ذلك أن إثبات صدق شيء يقتضي البحث عن الحالات "السلبية" داخل الدراسة. فإن كنت ترى أنك قد توصلت إلى فكرة ما في بياناتك - كان تعثر على علاقة محورية مثلاً - فإنه يتعين عليك أن تتوقف لتبحث عن الحالات السلبية الموجودة في بياناتك، وهي الحالات التي لا تؤيدها هذه البيانات. من ذلك مثلاً أننا قمنا أثناء دراسة اضطرابات الأكل وصورة الجسد بين الطلبة الجامعيين باستنتاج مفهوم أطلقنا عليه مصطلح "مراقبة الحالة". فهذا مفهوم مجرد يصف تلك الطائفة من الأساليب التي يتبعها النساء عندما يتكلمن عن صورة أجسادهن في نظرن وفي نظر الآخرين أثناء ممارستهن لأنشطتهن اليومية. مثال ذلك أن هيلين - وهي طالبة جامعية تم إجراء مقابلة شخصية معها بخصوص مشروع بحثي عن موضوعات الأكل عند النساء - تقدم مثلاً لما يعنيه هذا المفهوم (الخاص بمراقبة المرء لحالته) من وجهة نظرها هي فتقول:

عندما أكونُ بالبيت أفقد بعض الوزن، وذلك لأن أُمي تتعقَّبني باستمرار. وعندما أخرجُ لأتناول طعاماً تأمرني بما ينبغي عليَّ أن أطلبه منه. وحينما أبدو في صورة جميلة لا تنطق أُمي بشيء عن جسدي، ولا حتى بكلمة

مدح. أمّا عندما يأخذ وزنني في الزيادة، فإنها تبدأ في توجيه النقد (Hesse-Biber, 1996, p.73).

وقد ظهر أن هذا المفهوم له صلة وثيقة بالأسلوب الذي تتبّعه النساء في الكلام عن علاقتهنّ بالطعام، وبالأخصّ عندما يتكلمن عن الطعام الذي يتناولنه وعن كمّيته. ولكي نقوم بتأكيد صدق هذه الدعوى، فلعلنا نحتاج إلى إجراء المقابلات الشخصية بالإضافة إلى البحث عن الحالات التي لا تصنّق عليها هذه الدعوى. ولو فرض أننا وجدنا "حالة سلبية" لكننا في حاجة لفهم السبب الذي جعل هذه العلاقة لا تنطبق على هذه الشخصية بعينها. ويقوم تحليل الحالات السلبية بتزويد الباحثين بالتغذية الاسترجاعية حول ما تقدّمه بياناتهم من تأكيدٍ لصدق دعاوهم النظرية الأولية. وفي هذا يلاحظ أحد الباحثين قائلاً:

يشتمل أحد الأنماط الأخرى لمراجعة نتائج البحث على ابتعادك عن طريقك الذي كنت تسلكه، من أجل تقديم تفسيرات نظرية بديلة لنتائج بحثك، ومن أجل محاولة القيام بالفحص النقدي لنقاط القوة والضعف النسبية الموجودة في وجهة نظرك وفي وجهات النظر البديلة لرأيك هذا. (Kvale, 1996, p.242).

ومن الجوانب المهمة الأخرى للصدق بوصفه حرفية أو براعة قدرة الباحثين على صياغة نظرية يستمدونها من بياناتهم الكيفية (كفيل، ١٩٩٦، ص ٢٤٤). هل يستطيع الباحث أن يحكي قصة مقنعة؟ بمعنى أنه، هل يستطيع الباحث أن يضع بيانات بحثه ضمن إطار نظريّ معين يكون محلّ تصديق القارئ؟ هل حدث في حالة الدراسة التي تناولت اتجاهات الطلبة الجامعيين إزاء الطعام وإزاء صورة الجسد أن استنتج الباحث رؤى نظرية مهمة استمدّها من البيانات؟ هل علمت المزيد عن مدى ارتباط النساء والرجال بأجسادهم، وهل توصلت إلى فهم أكمل لهذه القضايا؟ هل أغفل الباحث بعض الجوانب المهمة لقضية معينة؟

الصدق التواصلى

يمثل الصدق التواصلى شكلاً آخر من أشكال إثبات الصدق. وبوسع المرء أن يتصور هذا الشكل بوصفه حواراً يتم بين من يُعدّون عارفين بحق ممن يتوقع منهم أن يطرحوا - في كثير من الأحيان - دَعَاوى منافسة للمشاركة في عملية بناء المعرفة. والمراد بالصدق التواصلى أن يكون كل تفسير لأي نتيجة معينة من نتائج البحث معروضاً للنقاش والتفنيد من قبل مجتمع الباحثين الواسع، وأحياناً ما يتسع هذا النقاش ليشمل المجتمع الذي أُجرى فيه البحث نفسه. فهنا يوجد حوارٌ من أخذ وردٍ حول المعنى، وهو خطوة في اتجاه فكرة "الفهم المتبادل بين الأشخاص" للوصول إلى المعنى من خلال الحوار. ولا يتفق جميع الباحثين على من له حق المشاركة في هذا الحوار، أو على من له الحق في تفسير المعرفة، كما لا يتفقون جميعاً على الطريقة التي ينبغي أن تُحل بها الخلافات (كفيل، ١٩٩٦، ٢٤٤). ولو فُرض أنني أمارسُ شكلاً من أشكال الصدق التواصلى، فربما طلبت من الطلبة الذين قمت بمقابلتهم في بحث اتجاهات الأكل أن يُعلقوا على نتائج بحثي. هل يوافقون على تفسيري للمقابلات التي أُجريت معهم؟ وماذا يكون إذا لم يوافقوا؟ وكيف يمكن أن تُحل - فيما بعد - وجهات النظر الأخرى الواردة في نتائج البحث المذكورة؟

الصدق البراجماتي

يحاول الصدق التواصلى أن يصل إلى فهمٍ يتعلق بالدعاوى المعرفية المتداولة داخل مجتمع البحث الكبير وخارجة. أمّا الصدق البراجماتي فيخطو خطوة إلى الأمام محاولاً التعرف على مدى تأثير نتائج البحث على الأفراد المبحوثين، وليرى - كذلك - التغيرات التي تحدث في السياق العام الذي أُجريت هذه الدراسة فيه. وبالاعتماد على نمط تلك الدراسة وعلى النتائج التي انتهت إليها، يتوقع المرء أن يبحث عن نتائج "فعلية" معينة. مثال ذلك أننا وجدنا، في دراستنا للعلاقة بين النوع الاجتماعي واضطرابات الأكل بين الطلبة الجامعيين، أن مشكلة اضطرابات الأكل كانت أكثر انتشاراً بين الإناث عنه

بين الذكور، وأنه توجد عوامل مُعَيَّنة داخلَ الوسط الجامعي تساهم في التسبب في المشكلات التي تعانيها الإناث في شأن الطعام. ومن تلك العوامل أنواع الطعام المتوافرة في كافيتريا الكلية وفي آلات بيع الطعام. ومن العوامل الأخرى كذلك: ساعات العمل بالكافيتريا.

وربما يجدر بالباحث أن يرى ما هو الأثر الذي أحدثته نتائج البحث على الوسط الجامعي الكبير كنتيجة لنشر هذا البحث. هل غيّرت مرافق توفير التغذية بالكلية سياساتها في تقديم الطعام؟ هل دار حوارٌ في صحيفة الكلية حول هذه القضايا، وهل طالب طلاب آخرون بإحداث تغييرات في سياسات كافيتريا الكلية، كأن يطلبوا، مثلاً، توفير الأطعمة المنخفضة الدهون في قاعات تناول الطعام؟ هل تم تمكين الطلبة المبحوثين من إحداث تغييرات في حياتهم كنتيجة لمعايشتهم لهذا المشروع البحثي وعلمهم به؟ فمن المهم أن نتذكر دائماً ديناميات القوة التي يتضمّنها الأسلوب البراجماتي في إثبات الصدق. وذلك كما يشير إليه "كفيل" في قوله:

يشير الإثبات البراجماتي للصدق قضية العلاقة بين القوة والحقيقة في البحث الاجتماعي: أين يكون للقوة أن تقرر ما سوف تكون عليه النتائج المرجوة من وراء أي دراسة، أو تقرر اتجاه التغيير، وما هي القيم التي يتكوّن منها أساس السلوك؟ وبصورة أكثر عمومية، أين يكون للقوة أن تقرر ما هي أنواع البحث عن الحقيقة التي يتبعين اتباعها، وما هي القضايا البحثية التي تستحق التمويل؟ (١٩٩٦، ص ٢٥١).

إنه لَيُنْبَغِي على الباحثين أن يدخلوا هذه القضايا في حساباتهم إن كانوا يَرْجُونَ حدوث نوعٍ ما من التغيير الاجتماعي يكون ثمرة لما قاموا به من بحث.

استعمال ثلاث طرق بحث كأداة لإثبات الصدق

تتمثل إحدى الطرق المهمة للتأكد من صدق نتائج البحث في استعمال ثلاث طرق بحث، أو - على الأقل - استعمال طريقتين مختلفتين من طرق البحث لفهم نفس المشكلة التي يتناولها البحث، وذلك بهدف اكتشاف مدى

التطابق بين نتائج كل من الطريقتين (Greene, Caracelli and Graham, 1989). فإن وصلت طريقتان من طرق البحث إلى نفس النتيجة، فإن من شأن هذا أن يعزز صدق نتائج البحث. وهكذا، فإن بإمكاننا، مثلاً، أن ننتفع بمنحى ذي طرق بحث مختلفة في دراسة اتجاهات الطلبة الجامعيين في تناول الطعام، وذلك عن طريق الجمع بين خطة بحثية كيفية (كإجراء المقابلة الشخصية) وخطة بحثية كمية (كالمسح الاجتماعي) لنعرف ما إذا كانت النتائج المتعلقة بالاتجاهات الخاصة بصورة الجسد عندهم تتأكد باستعمال طريقتين منفصلتين من طرق البحث أم لا. وقد نستخدم توجّهين نظريين مختلفين (كالإتجاه النسوي واتجاه النظرية النقدية) لدراسة نفس المشكلة (أي نستعمل "أكثر من توجه نظري" Theoretical triangulation)، كما قد نستعمل مصدرين مختلفين من مصادر البيانات (وهو ما يسمى data triangulation) داخل نفس الدراسة لتعزيز صدق نتائج البحث.

أضف إلى ذلك أنه قد يتوافر لنا باحثون مختلفون يدرسون نفس الظاهرة (وهو ما يسمى Investigator Triangulation). وهكذا إذا أردنا -مثلاً- الحصول على نوعين مختلفين من البيانات في دراستنا لاتجاهات الطلبة في تناول الطعام، فقد ندرج فيها المذكرات الميدانية المستمدة من الملاحظات التي أجراها الباحثون في كافتيريا الطلبة، ونجمع هذه البيانات بتلك المستمدة من المقابلات التي أجريت مع طلبة الكلية، وذلك من أجل الوصول إلى فهم أكمل للتأثير الذي تحدثه الحياة الجامعية على اتجاهات الطلاب في تناول الطعام. كما أنه قد يتوافر لنا فاحصان مختلفان يجمعان مصادر البيانات هذه. ويمكن تطبيق أحد المنظورات الفكرية النسوية للوصول إلى فهم اتجاهات الطلبة إزاء تناول الطعام وإزاء صورة الجسد عندهم، وذلك بالتركيز على الفروق الناجمة عن اختلاف النوع الاجتماعي.

ومن شأن المنظور الفكري النقدي أن يبحث موضوع القوة وتأثير العوامل الثقافية الواسعة النطاق، كوسائل الاتصال الجماهيرية مثلاً، وذلك من أجل فهم الفروق الناجمة عن اختلاف النوع الاجتماعي والموجودة في اتجاهات الطلبة إزاء تناول الطعام وإزاء صورة الجسد عندهم. وقد يؤدي

الانتفاع بهذين المنظورين الفكريين معاً إلى إلقاء مزيد من الضوء على فهمنا للفروق الناجمة عن اختلاف النوع الاجتماعي والموجودة في الاتجاهات الخاصة بتناول الطعام، وذلك بهدف تعزيز صدق نتائج بحثنا (See Denzin, 1989, pp. 236-247). ومن المهم أن نلاحظ أن الوصول إلى الصدق في التحليل الكيفي ليس شيئاً مُحددًا أو هدفًا "موجوداً خارجاً عنا" ينتظر من الباحث أن يُمسك به. فالصدق عملية عن طريقها يظفر الباحث بثقة القارئ بأن ذلك الباحث قد "فهم الواقع فهما صحيحاً". وهكذا نتبين أن أهلية الباحث للثقة محل الحقيقة، وهنا يُعلق لنكون وجوباً (١٩٩٩) فيقولان:

إن القضية الأساسية فيما يتصل بأهلية الباحث للثقة أمر جد بسيط مؤداه: كيف يستطيع الباحث أن يُقنع جمهوره (بما فيهم نفسه) أن النتائج التي انتهى إليها بحث ما جديرة بالاهتمام بها، وجديرة بإدخالها في الحُساب؟ ما هي الحجج التي يُمكن تقديمها، وما هي المعايير التي استعينَ بها، وما هي الأسئلة التي طُرحت، والتي يُمكن أن تكون مُقنعة في هذا الصدد؟ (ص ٣٩٨).

تُوجد بعض الخطوط الإرشادية التي يمكن أن تدلنا على المخاطر الكبيرة التي "تهددُ الصدق"، كتحيُّز الباحث أو تَحْيِيز عملية القياس. ومع ذلك، فإنه لا يوجد اختبار واضح مُحدد نستطيع تقديمه ليوفر خاتم دمجة يكفل أو يضمن الإقرار بقبول أي مشروع بحثي كافي مُعين.

ويوجد بعضُ الباحثين الكيفيين الذين طَوَّروا مجموعة محددة من "السمات الجوهرية" للتحقق من صدق أي دراسة كيفية (See Spencer, Ritchie, Lewis, & Dillon, 2003)، وهو الأمر الذي يثير سؤالاً مهماً:

• هل ينبغي على الباحثين الكيفيين أن يتَّبِعُوا مجموعة ما من المعايير الأساسية في تقديرهم لمدى صدق بحثهم؟

وقد يؤدي البحث عن بعض المعايير المحددة التي يتمُّ بها تقدير أو تقييم نتائج البحث الكيفي إلى الرجوع إلى نموذج وضعي للعملية البحثية يُسلم بوجود "حقيقة" ما خارجاً عنا تنتظر اكتشافها. ويؤكدُ البحث الكيفي أهمية التفسير أي: كيف يَخْبِرُ الأفراد واقعهم الذي يعيشونه. وفي الواقع، قد ينظُر بعض الباحثين الكيفيين إلى مناقشتنا لموضوع استعمال عدة طرق بحثية كأداة

للتأكد من صدق تطابق نتائج البحوث؛ قد ينظرون إلى هذه المناقشة بوصفها وظيفة واحدة فقط لأسلوب تعدد الطرق في البحث. ذلك أن هذا الأسلوب يمكنه كذلك أن يستوعب منظورات فكرية بديلة ومتعددة فيما يتصل بالحقائق الاجتماعية! يُضاف إلى ذلك أن بالإمكان أن تثار الشكوك حول ما إذا كان بالإمكان تطبيق أمثال تلك العوامل "الأساسية" لإثبات الصدق، على جميع طرق البحث الكيفية المختلفة. مثال ذلك، هل يكون تقدير مدى صدق دراسة قائمة على تحليل المضمون مطابقاً تماماً للتأكد من مدى صدق نتائج بحث مستمدة من مشروع بحثي قائم على إجراء المقابلات؟ والواقع أن الدراسات التي تسعى لتطوير معايير أساسية محدّدة، لا تتفق دائماً مع بعضها فيما يتصل بما ينبغي أن تكون عليه هذه العوامل (قارن سيل Seale وسيلفرمان Silvemeun، ١٩٩٧، بما جاء في بوباي Popay، وروجرز Rogers وويليامز Williams، ١٩٩٨).

إن جميع مقاييس الصدق لا تخلو من نقاط الخلاف الخاصة بها، كما أنه ليس واضحاً ما إذا كان استعمال جميع ما سبق ذكره من طرق التحقق من الصدق سوف يؤدي إلى نوع من التطابق التام الدقيق أو التفصيلي لنتائج البحوث. أما ما تستطيع هذه الممارسات المتصلة بإثبات الصدق أن تنقلنا نحوه فهو التطبيق الأكثر منهجية "لدقة البالغة" أو "للجداراة بالثقة" في العملية البحثية، بحيث نستطيع أن "نوسع، ونكثف، ونعمق الأساس التأويلي لأي دراسة" (Denzin, 1989, p. 247).

الثبات المنهجي في البحوث الكيفية

يتحدث نيومان Neuman (٢٠٠٣) عن قضية الثبات فيما يتصل بجمع البيانات من الملاحظات التي تجرى على الأفراد والأحداث داخل مجتمع بحث معين. وهو يشير إلى "الاتساق الداخلي" للملاحظات الميدانية قائلاً: هل البيانات التي جمعتها معقولة؟ هل تتلاءم مع بعضها البعض؟ هل تضيف بياناتك شيئاً جديداً إلى ما هو معروف؟ هل يوجد اتساق في ملاحظتك "على امتداد الزمن وفي السياقات الاجتماعية المختلفة؟" (ص ٣٨٨). ويُشير الاتساق

الخارجي إلى "التَّثَبُّتُ من، أو التحقيق الدقيق للملاحظات باستعمال مصادر أخرى مختلفة من البيانات" (ص ٣٨٨). ويتعين على الباحث المَعْنِي بالاتساق الخارجي أن يَتَّبِعَ عن الأسلوب الذي يتبعه ليبحث عن شواهد أخرى تؤكد صحة نتائج بحثه. وهنا يُعَلِّق نيومان قائلاً:

يَتَوَقَّفُ الثَّبَاتُ فِي الْبَحْثِ الْمِيدَانِي عَلَى مَا لَدَى الْبَاحِثِ مِنْ بَصِيرَةٍ، وَوَعْيٍ، وَمَا يَدُورُ فِي زَهْنِهِ مِنْ شَكُوكٍ وَمَا يَطْرَحُهُ مِنْ تَسْأُلَاتٍ. فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْمَبْحُوثِينَ وَإِلَى الْأَحْدَاثِ مِنْ زَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ (قَانُونِيَّةٍ، وَاقْتِصَادِيَّةٍ، وَسِيَاسِيَّةٍ، وَشَخْصِيَّةٍ) وَيَعْمَلُ عَقْلُهُ فِي طَرَحِ الْأَسْئَلَةِ (ص ٣٨٨).

وهكذا نتبين أن الصدق والثبات يمثلان كلاهما قضيتين مهمتين ومعتدتين في البحث الكيفي، وذلك رغم أنه يُنْظَرُ إليهما هنا على نحوٍ مختلفٍ عمّا هو عليه في البحث الوضعي. وفيما يلي قائمة بالأسئلة التي تستعمل للتأكد من الثبات في الدراسات الكيفية التي صدرت تحت عنوان "المرح والمبتهج" (*) (Gay and Airisian 2003, p.536)، وذلك بعد نقلها بتصرف من سلسلة الإصدارات الإثنوجرافية التي يُصدرها شنصول Shencul وشنصول Schensul، ولوكونت LeCompte (١٩٩٩) والتي قد تحتاج إلى استعمالها عندما تفكر في القيام ببحث كيفي، خاصة الدراسة التي تتضمن جَمْعَ البيانات من المقابلات، أو في القيام بدراسة إثنوجرافية قائمة، على "الملاحظة بالمشاركة".

قائمة أسئلة التحقيق والمراجعة في كتاب "المرح والمبتهج"

والخاصة بتقييم مدى الثبات المنهجي في الدراسات الكيفية

- "هل تَمَّ استيفاء الوصف التفصيلي لعلاقة الباحث بالمجموعة وبمجتمع البحث؟"

(*) يُلاحظ أن كلمة "gay" تُستعمل في أصلها اللغوي للتعبير عن صفات متعددة، منها وصف الشخص بأنه مُرَحّ، أو مُبْتَهَج، أو مسرور، أو شديد الحساسية. إلا أن معناها الذي يَسْبِقُ للفهم في الولايات المتحدة الأمريكية هو: الشخص الشاذ جنسياً. أما كلمة "airisian"، وهي صفة مركبة من صفة أبسط منها هي: airy فتعني، عند وصف الأفراد بها، الشخص "المرح، أو المبتهج، أو المتصنع، أو المتكبر". (المترجم).

- "هل التوثيق الميداني شامل في كل أجزائه، وهل رُوجع مراجعة دقيقة وعلّق عليه تعليقات مستوفاة، وهل هو مُفصّل بدقة وإحكام؟"
- "هل كانت الملاحظات والمقابلات التي وُتّت تستعمل طرق بحث متعددة (كالمذكرات المكتوبة والتسجيلات الصوتية مثلاً)؟"
- "هل تمّ توثيق ما تلقاه الباحث القائم بإجراء المقابلة من تدريب؟"
- "هل تمّ توثيق كل ما يتصل بسائر الأدوات، من حيث التصميم، والتخطيط، والاختبار؟"
- "هل تمّ وصف الإخباريين الأساسيين وصفاً كاملاً، بما في ذلك الوصف من معلومات عن الجماعات التي يُمثّلها هؤلاء الإخباريون وعن مكانتهم في المجتمع؟"
- "هل تمّ التوثيق الكامل لأساليب اختيار العينات من حيث كونها واقية بأغراض الدراسة؟" (المرج والمُبتهج، ٢٠٠٣، ص ٥٣٦).
- ولكي نظفر برؤية ثاقبة عميقة لهذه القضايا، هلّم بنا نذهب إلى ما خلف الكواليس مع عالم الاجتماع دافيد كارب ونرى كيف تؤثر هذه القضايا على ممارسته البحثية:

خلف الكواليس مع دافيد كارب

حسناً، إنه لَيَترأى لي أنني لا أتفق مع هؤلاء الذين يقولون إن مَنْ يقومون ببحثٍ كيفيٍّ لا يستطيعون التعميم (أي لا يستطيعون الوصول إلى أحكامٍ عامّة). فأنا أفرّق في ذهني بين ما أعدّه "تعميمات إمبريقية" و "تعميمات تحليلية". وإني لأظن أنك لن تجد مثل هذا التفريق في الكتب الدراسية، إلا أنني أرى أن التعميم الإمبريقي يُعدّ نوعاً مما يفعله الناس عندما يقومون بالتحليل الإحصائي. فهم يقومون باستخراج الأحكام العامة من عينة ما ليطبقوها على عالم أكبر منها. والتحليل الإحصائي، في تصوّري، قريبٌ نوعاً ما مما كان جورج زيمل George Simmel يتحدث عنه عندما تعرّض لموضوع "الصور الاجتماعية"، أي اكتشاف الصور الاجتماعية الأساسية. فنوع التعميم الذي أحاول القيام به هو من نمط التعميم الذي يتحدث عنه زيمل. كما أنني

أرى أن من الممكن القيام بهذا النوع من التعميم التحليلي باستعمال عينات صغيرة من البيانات الكيفية. وإن كان لهذا الأمر مخاطره؛ التي لا يمكن أن أهون من أمرها. كانت هذه المقالة مبنية على ٣٥ مقابلة. أما كتابي بعنوان "الحديث عن الحزن" Speaking of sadness، فقد آل أمره إلى الاعتماد على ٥٠ مقابلة. وقد كتبت مقالتي بعنوان "جدل الاكتئاب" Dialectics of Depression ملتزماً بطريقة التعميم التحليلي. لقد كانت هذه هي محاولتي الأولى على الإطلاق لأن أقول شيئاً أستخرجُه من هذه البيانات. وعليك أن توازن دائماً بين الاتساع (اتساع أو شمول عدد مفردات البحث - المترجم) والعمق. أعني أن القيمة الكبيرة للبحث المسحي تتمثل في الاتساع. وإنك لتستطيع حقاً، وضمن نطاق احتمالات خطأ معروفة، أن تصل إلى تعميمات عن عالم أكبر من الناس. إنه أمر بالغ الفعالية والقوة أن تتمكن من عمل ذلك. ولكن حقيقة الأمر - في الواقع - أن المشكلة التي تدرسها هي التي تملئ عليك طريقة البحث التي سوف تستخدمها في دراستك. فأنت لا تستعمل مطرقة حينما يتطلب الأمر استعمال منشار. فعلاً بإمكان المرء أن يقول عن الـ ٣٥ فرداً الذين شملتهم هذه الدراسة أنهم ليسوا ممثلين (لمجتمعهم) بالقدر الكافي، وأنا أكاد أسمع هذا الكلام. وهم بصفة عامة من البيض، إذ شملت الدراسة شخصين من غير البيض. وأرى أن بإمكان المرء أن يقول وبحق: "حسناً، هل يمكن أن يختلف الإحساس بالاكتئاب لدى ذوي الأصول الإسبانية، ويكون مختلفاً كذلك بالنسبة للأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية، وهكذا؟ وأنا أقول: " لا ريب في ذلك!" ولكنه مجرد خطوة يمكنك أن تتطرق منها. خذ عملي وانتقل إلى ما وراءه، وافعل به شيئاً آخر غير ذلك. إذ لا توجد دراسة مكتفية بذاتها من البداية حتى النهاية. فكل دراسة - سواء أكانت دراسة إحصائية، أو دراسة قائمة على طريقة المقابلة المتعمقة - تجربها على ٥٠ شخصاً أو ٦٠، أو ١٠٠، أو ٢٠٠، سوف تعاني عدداً من أوجه القصور فيما يتصلف بموضوع القابلية للتعميم.

في النهاية، فإن اختبار الثبات المنهجي، أي اختبار ما إذا كنت ملتزماً كل الالتزام بالبيانات، واختبار ما إذا كنت فعلاً قد اكتشفت بعض الصور

الاجتماعية الأساسية، هو اختبار ما إذا كان الخبراء الحقيقيون - وهم الأفراد الذين درّسْتهم - سوف يقولون عندما يقرءون دراستك: "إنك أصبت الحقيقة". انظر، فأنا أعتقد أن الاختبار الجوهرى للثبات هو عندما يقول الناس الذين قرأوا عملك - وهذا شيء مُرضٍ جداً - عندما يقول الواحد منهم: "إنك تعرف، لقد أدركتَ فعلاً خبرتي و إحساسي. لقد وجدتَ الطريقة لنقل تجربتي نقلاً صحيحاً. إن ذلك يجعلني أفهم حياتي الشخصية فهماً أعمق". والحق أنني أرى أن قوة البحث السوسولوجي هي عندما تكون لديك خبرة ما بصفتك فرداً، خاصة إذا كانت أمراً يُشبه الاكتئاب، وتشعر ألا أحد آخر يمكن أن يفهم حقيقتها، إلا أنني عندما أعود فأصغي للناس، وأصغي جيداً، وأبحث عن هذه الأنماط، أي عن هذه الصور، أستطيع أن أرى أموراً لا يستطيع هذا الفرد أن يدركها في حياته الشخصية؛ وذلك لأنه ليس لديه إلا حياته الشخصية التي يبني عليها أحكامه التعميمية. لذلك، فإنني أرى أنه إذا كان حكمك العام غير مستند إلى أساس قوي، فسيرفض الناس عملك. وسيقولون: "إن حكمك هذا خارج نطاق الواقع. إنك تحاول الكتابة عن الاكتئاب، ولكن ما تكتبه بعيدٌ عن خبرتي للحدّ الذي يجعل تحليلك بلا أي قيمة على الإطلاق".

وهكذا نتبين أن الصدق، في الواقع العملي، مُرتبط كذلك بقضايا التمثيل والتعميم، وهذا ينقلنا إلى موضوع اختيار العينات.

اختيار العينات في البحوث الكيفية

يضع منطق البحث الكيفي الفهم العميق في المحل الأول من اهتمامه، حيث يعتمد في عمله عادة على استخدام العينات الصغيرة. والهدف من ذلك أن يدقق النظر في "عملية" ما أو يقف على "المعاني" التي يُضيفها الأفراد على وضعهم الاجتماعي المُعَيّن، فهو لا يسعى بالضرورة إلى صياغة التعميمات. فنحن لا نقصد من دراستنا لاتجاهات النساء إزاء صور أجسادهن أن نصوغ أحكاماً عامة شاملة عن عدد النساء اللاتي يُعانين مُشكلات تتعلق بـ صور أجسادهن، بل لنفهم كيف تشعر النساء بالبدانة، مثلاً، في ثقافة تُفضّل النحافة. ففي هذه الحالة نميل إلى الاهتمام بالعملية التي بمقتضاها تتقبل النساء - أو لا

تتقبلن - صُور أجسادهن، والطرق التي يتفاعلن بها مع الرسائل الثقافية المتعلقة بالحقافة التي يتلقينها من وسائل الإعلام ومن غيرها من الأفراد المهمين في حياتهن.

وكثيراً ما يهتم الباحثون الكيفيون باختيار العينات العمدية أو الحكمية. ويتوقف اختيار نمط العينة العمدية على أساس المشكلة المحددة التي يتناولها البحث، كما يتحدد في ضوء الموارد المتاحة للبحث. والواقع أن باتون Patton (٢٠٠٢، ص ٢٤٢) قد ميّزَ ١٦ نمطاً مختلفاً من العينات العمدية، كما أشار إلى أكثرَ من طريقة لاختيار العينات العمدية يُمكن استخدامها في أي دراسة كيفية معينة. وسوف ننتقي عدداً قليلاً من الأمثلة الدالة على الطريقة التي يتبّعها الباحثون في استخدام بعض هذه العينات الكيفية الخاصة في دراستهم.

وقد رغبت كاترين هندريكس Katherine Hendrix (١٩٩٨) في دراسة كيف يتحاور الطلبة في موضوع مصداقية الأستاذ الجامعي داخل قاعات الدراسة بالجامعة، ودراسة مدى تأثير العرق على إدراك الطالب للمصداقية التي يتصف بها الأستاذ الجامعي. وهي تعلقُ قائلة:

كان الطلاب الذين تناولهم البحث في الدراسة يمثّلون "عينة عمدية وليست عشوائية". وكان هدفي هو الظفر بمُشاركة ثنائيات من الطلاب الذكور الذين تربط بين كل زوج منهم صداقة حميمة، وهي المشاركة التي تعطي صورة عن الأساتذة الجامعيين الذين عملوا في نفس القسم ولّتهم خبرة في التدريس على المستوى الجامعي لسنواتٍ مماثلة. ومن ناحية ثانية، فإن ثلاثة من الأساتذة الجامعيين كانوا من السود، وثلاثة من البيض. (ص ٤٣).

كما رغبت هندريكس (١٩٩٨) في إجراء مقابلات مع عينة من الطلبة من كل فصل من هذه الفصول الدراسية، والذين تطوّعوا بقبول إجراء المقابلات معهم. وقد تم اختيار هؤلاء الطلبة وفقاً لسنواتهم الدراسية، وللعرق، وللتخصص الرئيسي لكل منهم، وذلك باستخدام إجراء عشوائي. ومن ناحية أخرى، ونظراً لقلّة عدد الطلبة المتطوعين، فقد أخضع هذا الإجراء العشوائي

للمراجعة لضمان الحصول على مجموعة متنوعة، كما أن الطلبة قد اختيروا لكي يتناسبوا مع معايير محدّدة، كالعرق مثلاً (ص ٤٤).

وقد استعملت هندريكس أساليب متعددة ومختلفة في اختيار العينات لتنفيذ مشروعها البحثي. وقد جاء القرار الأول في اختيار العينات مباشرة من وحي مشكلة بحثها: فقد لاحظت، عند استعراضها للتراث العملي المنشور عن موضوع تواصل المدرسين مع الطلبة أن هناك "علاقات تفاعل" مقيدة وغير سلسلة بين أعضاء هيئة التدريس السود وطلابهم من البيض. لذلك فقد خمنت هندريكس أنها قد تنتهي - في جامعة يغلب على طلبتها العنصر الأبيض - إلى وجود "تحديات معينة في بناء المصداقية والقبول.... للمدرس الأسود والأستاذ الجامعي الأسود (ص ٤٣)، ومن هنا أرادت متابعة التحقق من هذه الفكرة. فاختارت جامعة مدة الدراسة بها أربع سنوات يغلب على طلبتها أنهم من البيض أي إنها، انتقت عينة "متجانسة"، وهي "جامعة" معظم طلبتها من البيض، ممّا مكّنها من تخفيض الفارق العرقي في مجموع الطلبة، بحيث تتمكّن من أن تدرس مشكلتها. ومع ذلك، فإنها عندما بدأت في اختيار العينات الخاصة بستة من أعضاء هيئة التدريس ولمجموعة مختلفة من الطلاب تتنقيهم من الصفوف التي يدرس لها هؤلاء الأساتذة، وذلك لتجريّ معهم مقابلات؛ عمدت إلى استخدام "عينة عمدية طبقية" وذلك كي تضمن احتواء دراستها على "سمات" معينة لأعضاء هيئة التدريس وللطلاب. فقد كان اختيار العينات التي تعبر عن هذه الفروق أمراً مهماً جداً في تنفيذ الأهداف البحثية التي حددتها لنفسها.

ومع ذلك، ففي بعض الأحيان لا تسير عملية اختيار العينات وفق خطة منطقية، فنتم هكذا دون تدبر. وتتيح الظروف للباحث أحياناً فرصة اتباع أسلوب انتهازي في اختيار العينات". شاهد ذلك أن أحد الأنثروبولوجيين يسترجع بحثه الذي أجراه في غرب باكستان وكيف أن تتابع الأحداث قد أفضى إلى الاختيار غير المقصود للأفراد الذين قام بإجراء مقابلات معهم، فيقول:

إنني أتذكر استخدام الأسلوب الانتهازي في اختيار العينات خلال أول رحلة إثنوجرافية قمت بها إلى غرب باكستان. ذلك أن العدد الوفير من الزوار الذين تطوعوا بالقدوم إلى منزلي قاموا بتقديم إجابات على أسئلة تفوق الحصر، وقد كنت أسعى لسبر أغوار دوافعهم وغيرها من سمات شخصياتهم، وكنت في بعض الحالات أطلب منهم أن يجروا اختبار رورشاخ. وكنت في بعض الأحيان أستدرج ضيوفي بإعطائهم جدول مواعيد المقابلات (والذي كان قد سبق إعداده لإحدى العينات العشوائية)... كما أن زوجتي وأبنائي كانوا يستغلون الدعوات التي وجهت إليهم لزيارة بيوت الأسر الميسورة وبيوت عليّة القوم باعتبارها فرصاً لملاحظة بعض جوانب الحياة المنزلية "المحلية" وللحصول على المزيد من المعلومات. (Honigmann, 1982, p. 81)

ويتمثل جانب مهم من القيام بالعمل الميداني في الوصول إلى الإخباريين الذين يقومون بدور "المُرشدين" في توفير المعلومات المتصلة بمجتمع البحث. ومع ذلك، يحدث في كثير جداً من الأحيان أن يجد الباحثون أن فرص اختيار الإخباريين تتضاءل إلى أن تصل إلى القبول بمن يكون موجوداً منهم، ومن يكون لديه بعض المعرفة الخاصة بهذا المجتمع، ويكون راعياً في القيام بذلك الدور. ويُعرف هذا النوع من الاختيار باختيار الملاءمة Convenience sampling. وقد لا تتوافر الفرصة للاختيار من بين جماعة من الإخباريين وفقاً لبعض المعايير المحددة كالعمر، أو الجنس، أو الطبقة الاجتماعية مثلاً. ويبين البحث الميداني الذي أجراه الإثنوجرافي مايكل آجار Michael Agar بين أفراد إحدى الجماعات الفقيرة المهاجرة التي تُسمّى لامباردي Lambardi، والتي تُقيم بقرية تقع في ولاية كارناتاكا بالهند، يُبين كيف أن الباحث قد لا تتوافر له إمكانية اختيار إخباري ما. وعادة ما يُميّز المجتمع المحلي الفردي الإخباري، ذكراً كان أو أنثى، بأنه دليل "الأغراب"، أو يستطيع معاملة الأغراب. كما أن آجار، في الواقع، يُطلق على الإخباريين اسم "الأدلاء المُحتَرَفِينَ للغرباء". وفي هذا الصدد يعلق قائلاً:

كان الدليل المُحتَرَف للغرباء عند جماعة لامباردي رجلاً عجوزاً يُسمّى "ساكريا". وقد كان أول من جاء ليتكلم معي عندما دخلت هذه "التاندا"

the tanda (أي هذه القرية الصغيرة). وقد بيّن لي بطريقة لطيفة أن هذه "التاندا"/أو القرية الصغيرة شديدة الازدحام. لذلك كان عليّ أن أدرك أنه من غير الممكن أن أعيش فيها. وقد كان "ساكريا" هو الشخص الذي كان يظهر فجأة كلما كنت أبدأ في القيام بعمل مُستغرب في الأيام الأولى من العمل الميداني، كرسم خريطة ما أو قياس أبعاد أحد أكواخ القرية. وبعد شهرين، كان قرار "ساكريا" - بأنني جدير بالثقة - هو الذي أدّى، جزئياً إلى فتح مغاليتي هذه "التاندا" لي. (آجار، ١٩٩٦، ص ١٣٥).

ويُعرف نمطٌ مهم آخر من العينة العمدية باسم العينة النظرية *theoretical sampling*، وكثيراً ما يُستعمل هذا النوع من العينات كجزءٍ من أحد اتجاهات "النظرية الموثقة" في البحث. ويُقدم جلاسر وستراوس (١٩٦٧) تعريفاً لاختيار العينة النظرية بأنه: "عملية جَمْع البيانات لتوليد النظرية، والتي بها يقوم المُحلل بجمع بياناته، وتصنيفها، وتحليلها في نفس الوقت، كما يقرر - في أثناء ذلك - ما هي البيانات التي سيقوم بجمعها فيما بعد، وأين يجدها لكي يبلور... النظرية وهي تَبْزَغ أمام ناظريه بصورة تدريجية" (ص ٤٥). وهكذا فإن اختيار العينة النظرية يقتضي أن يقرر الباحث في كل مرحلة: مَنْ أو ماذا سيختاره كعينة في المرحلة التالية، بناءً على البيانات التي سبق جمعها في إطار نفس المشروع البحثي، وذلك بهدف عقد المقارنات - بصفة مستمرة - مع نتائج البحث السابقة. ذلك أن القيام بتحليلات لنتائج البحث الموجودة في تحليلك الراهن للبيانات، بجانب الرؤى النظرية التي تصل إليها؛ هذان الأمران يُزَوِّدانك بأسئلة جديدة لاختيار العينات مثل: مَنْ هو الشخص الذي سأتكلم معه فيما بعد؟ وما هي المصادر الإضافية للمعلومات التي ينبغي عليّ أن أكتشفها؟ وما هي البيانات التي تعارض أو التي تؤيد فهمي النظري لنتائج البحث هذه؟ (See Glaser & Strauss, 1967; Guba & Lincoln, 1989, Lincoln & Guba, 1985 and Patton, 2002). ويقدم لنا عالم الأنثروبولوجيا مايكل آجار (١٩٩٦) المثال التالي لاختيار العينة النظرية:

لنفرض أنك تعمل مع أربعة رجال في الزراعة. وقد تحدثت معهم فيما يتصل بتفسيرهم لمسار الأحداث التي يتألف منها العمل الزراعي، كما أنك قمتَ بملاحظتهم مرات متعددة وأنت تشاركهم العمل في الحقل. والآن أنت تبحثُ عن أربعة رجال آخرين لإجراء مقابلات معهم وعمل ملاحظات مختصرة معهم ممن يعيشون في الجانب الآخر من القرية. فأنت تختارهم بهدف التحقق من أوجه التشابه الموجودة في الروايات التي قدمها رجال العينة الأصلية. (١٧٢)

ويلاحظ آجار أنه إن وجدَ الباحثُ أن النتائج هي نفسها بالنسبة لما عرفه من الجماعة الأولى، وأنه لم يُضف إلى علمه شيئاً جديداً باختياره لمجموعة العينة الثانية، فقد وصل إلى لحظة "التشبع النظري" أو لحظة "كفاية البيانات" الخاصة بهذه الجماعة من الأفراد. وفي هذا الوقت قد يؤثر الباحثُ أن يُجرى مقابلات مع جماعة أخرى في هذه القرية، ولعلها تكون مكونة من أفراد لا يملكون أرضاً، وذلك ليرى إذا كان بالإمكان التأكد من وجود وجهة نظر مختلفة تتعلق بقضية الزراعة أم لا. وبالقيام بهذه الأمور، يرفع المرء من مستوى فهمه من خلال بحثه عن منظورات فكرية متعددة. (آجار، ١٩٩٦، ص ١٧٢). وتقدم جانيس مورس Janice Morse (١٩٩٥)، وهي باحثة كيفية مرموقة، تقدم الأفكار الثاقبة التالية لتوجه أسلوبك في اختيار العينة، والذي يقتضى وجود نوع من التوازن الدقيق بين الأرقام والرؤية -أو ما يعني بعبارة أخرى- أن "الدلالة الإحصائية" لا تعني "الدلالة النظرية":

... في طرق البحث الكمية تكون دلالة الأرقام مفهومة فهماً دقيقاً، وتكون الدلالة الإحصائية مبنية على أساس مُعدّلات التكرار، والمتوسطات، وتوزيع البيانات. فمُعْثَل التكرار أمر جوهري بالنسبة للتحليل، وإذا كانت إحدى الحالات المعنية تتنافى بشدة (مع مُعْثَل التكرار الموجود)، فقد يصل الأمر إلى حذفها من مجموعة البيانات بوصفها حالة "شاذة" أو بوصفها خطأ. وفي مقابل ذلك، وفي مجال التحليل الكيفي، يكون العكس صحيحاً. فكثيراً ما تكون الجوهرة النادرة أو غير المتكررة التي تضع بيانات أخرى داخل المنظور الفكري، هي التي تصبح المفتاح الرئيسي لفهم هذه البيانات ولتطوير

هذا النموذج. إن الضمني (غير الظاهر) هو الأمر المثير للاهتمام.
(ص ١٤٨).

وتقدم جانيس مورس (انظر النص التالي داخل الإطار) مجموعة من "المبادئ" التي يتعين اتباعها عند التفكير في حجم العينة وفي محاولة فهم قضايا "الاختلاف" والنفاذ إلى حقيقة وجودها في مشروعنا البحثي الكيفي.

عملية اختيار العينات والبحث الكيفي

"اختر عينة متماسكة. فكلما زاد تماسك العينة، وصلنا إلى لحظة التشبع بصورة أسرع، إلا أن المشروع البحثي سيكون أقل قابلية للتعميم. ويتضمن هذا الإجراء استعمال عينة متماسكة ثقافياً (أي مكونة من أفراد لهم ثقافة واحدة)، وعينة يشترك أفرادها - بأقل قدر من الاختلاف - في الخصائص التي تحدد موضوع البحث".

"سوف يتم تحقيق التشبع النظري بأسرع ما يكون إذا استعملت العينة النظرية. ويؤدي استعمال عينة الملاءمة (التي تختار حسب الظروف المتاحة) - والتي تسمى أيضاً عينة كرة الثلج Snowball- إلى تحقيق التشبع ببطء كبير. وباستعمال العينة العشوائية، قد لا يتحقق التشبع أبداً لأن هذه العينة قد تكون غير مناسبة نظرياً، أو لأن الإخباريين -الذين يفتقرون إلى المعلومات، إذ تتكرر حكاياتهم هي نفسها فلا توفر معلومات جديدة - قد يكون اختيارهم تم بطريقة عشوائية".

- "استخرج عينات كل صور التباين التي تظهر في ثنايا البيانات إلى أن يتم تشرب كل رأي يمثل "حالة سلبية". وعندما تكون بصدد صياغة نظرية ما، حدد موضع كل حالة سلبية "افتراضية" ممكنة، وأعط هذه البيانات اهتماماً متكافئاً كما لو كانت تمثل الخط الرئيسي للقصة".
- "تتسم البيانات المشبعة بأنها بيانات ثرية، وثامة، وكاملة. والنظرية التي تستخلص منها يكون لها معنى مفهوم، ولا تكون بها فجوات".
- كلما زادت درجة اكتمال التشبع، زادت سهولة تطوير نموذج نظري شامل". (نقلاً عن مورس، ١٩٩٥، ص ص ١٤٧-١٤٩).

قضية البحث الكيفي: حركة دينامية

يميل تصميم البحث الكيفي إلى عقد صلة وثيقة بين الإبستمولوجيا (أي رؤية الحقيقة الاجتماعية) و الميثودولوجيا (أي الرؤية النظرية للعالم الاجتماعي). وهذه هي الرابطة البحثية التي شرحنا في الفصل الأول من هذا الكتاب. وتساعد هذه العوامل على تشكيل مسار البحث الخاص بالمشروع الكيفي، أي تشكيل أنماط المشكلات المختارة، وتحديد أساليب اختيار العينات التي سوف تستخدم في الدراسة، وتحديد أنماط تحليل البيانات واستراتيجيات التفسير التي يستعملها الباحث (وهي الأمور التي سنناقشها بمزيد من التفصيل في القسم الثالث من هذا الكتاب). ويوجد بين عناصر العملية البحثية هذه نوع من التفاعل النشط. وطالما أننا فصلنا بين هذه الأجزاء لنبحث كل واحد على حدة في هذا الفصل، فإن بإمكاننا الآن أن نخطو خطوة إلى الوراء لننظر إلى هذه الإجراءات في مجموعها ككيان كلي واحد، ولننظر إلى أي مدى تؤثر على بعضها البعض. ولكي نفعل هذا - في إطار تراث البحث الكيفي - سوف نقارن أنماط الحركة الخاصة بتصميم البحث الكيفي بنظيرتها الخاصة بتصميم البحث الكمي.

من المعهود أن تصور العملية البحثية الكمية بوصفها "عجلة" أو دائرة. وتشكل الأجزاء المختلفة للعملية البحثية محيط هذه الدائرة، ويستطيع المرء أن يبدأ بحثه عند أي جزء من أجزاء هذه العجلة. كما توصف هذه العملية كذلك بأنها سلسلة من الخطوات (Crabtree & Miller, 1999, p.9).

الرسم التخطيطي لعملية البحث الكمية (الوضعية)
منقول بتصرف عن كرابتري، و ميلر ١٩٩٩:

الخطوة رقم ٩ : راجع الفروض.



الخطوة رقم ٨ : النتائج.



الخطوة رقم ٧ : تحليل البيانات.



الخطوة رقم ٦ : جمع البيانات.



الخطوة رقم ٥ : تحديد الأدوات و(اختيار العينات).



الخطوة رقم ٤ : تصميم البحث (طرق البحث).



الخطوة رقم ٣ : صياغة الفروض.



الخطوة رقم ٢ : استعراض التراث العلمي المنشور



الخطوة رقم ١ : تحديد مشكلة البحث

ويلاحظ كرابترى وميلر (ص ٨) أن هذا الشكل يمكن فهمه على أفضل الوجوه فهماً مجازياً باعتباره "سَلَمُ يَعْقُوب" (*). وفي هذا الشكل من أشكال البحث - الذي يُعدُّ أشدَّ ارتباطاً بالعلوم الطبيعية - "يتسلق الباحث سَلَمًا مُباشراً يوصله إلى حقيقة موضوعية أساسية (أو مُطلقة)" (ص ٨). وسوف تلاحظ أن الأسهم تُشير إلى اتجاه واحد فقط، فهي تتحرك دائماً صاعدة إلى أعلى السَلَم. وتُصبحُ العملية البحثية الكمية ذات طابع دائري عندما تُقضي النتائج التي انتهى إليها الباحث (في الخطوة رقم ٨) إلى مُراجعة للفروض الأولية، وتبدأ العملية البحثية من جديد من عند الخطوة رقم (١) بإعادة تعريف مشكلة البحث، ثم الاستمرار في باقي الخطوات. والوضع الأمثل في ظل هذا النموذج أنه من الممكن إقامة الدليل على صحة جميع النتائج (ذلك أن النظرية/ أو الفرض قد أخضع للاختبار وأنه صَمَدٌ له). كما يرى بعض الباحثين أن هذا

(*) سَلَمُ يَعْقُوب سَلَمٌ يُنسب إلى النبي يعقوب عليه السلام وأنه رآه في رؤيا منامية يصعد إلى السماء. ثم صار هذا التعبير رمزاً لأي سَلَمٍ ذي درجات يقود إلى الخير أو إلى النجاح (المترجم).

الفرض قابلٌ كذلك للتنفيذ من خلال البحث عن تفسيرات بديلة ومن خلال اختبار هذه التفسيرات بمضاهاتها بالفرض الأصلي (انظر، على سبيل المثال، مفهوم كارل بوبر Karl Popper (١٩٣٥) عن الدُخْصِ والتكذيب). والآن، يتحول معظم البحث الوضعي بالانتقال إلى مفهوم للحقيقة أكثر اتصافاً بما بعد الوضعية، وذلك عن طريق تعديل تعريف "الحقيقة" التي يُعبرُ عنها في وقتنا هذا على أساس مفهوم "الاحتمالات". وكما يلاحظ كرابتري و ميلر: "فإن المنظور الفكري المابعد الوضعي يسعى للوصول إلى القيم التقريبية المتوالية للحقيقة، غير أنه يُدرك استبعاد الوصول إلى الحقيقة المطلقة" (ص ٩).

• كيف يُمكن مراجعة هذا النموذج لو فُرضَ أن المرء انتقل إلى نموذج

كيفي في البحث الاجتماعي؟

• ما هي عناصر هذا النموذج التي يُمكنُ أن تبقى، وما هي العناصر التي

يتعين استبعادها؟

• كيف يُمكن أن ترتبط عناصر هذه العملية بَعْضُها ببعض باستعمال نهج

كلي؟

بناءً على ما تعلمته للتو في هذا الفصل، فإننا نستطيع أن نبدأ مباشرة في رؤية صورٍ شديدة الوضوح للحذف أو الاستبعاد في هذا الرسم التخطيطي. ولعل العنصر الأول المفقود في هذه العملية هو اعتراف ما بالتأثير الذي يحدثه وجود بنية تحتية فلسفية معينة (أي اختيار النموذج النظري) في عملية البحث. وعلى الرغم من أن النماذج النظرية للبحث الكيفي قد تختلف تبعاً لمُسلّماتها المتصلة بمدى إمكان أن تكون المعرفة "موضوعية" من غَدَمه، فإن معظم النماذج النظرية الكيفية توافق على أهمية المعاني الذاتية التي يُضيفها الأفراد على عملية البحث، كما أن هذه النماذج النظرية تُقر بأهمية التأسيس (أو التشكيل) الاجتماعي للحقيقة. ويوجد داخل عملية البحث الكيفي نوع من التفاعل الدينامي بين مشكلة البحث واستعراض التراث العلمي المنشور. فالنساؤلات التي يتصدى البحث لدراستها تساؤلات أولية (مؤقتة)، كما أن مُعظّمها لا يتم صياغته في صورة فروض. ذلك أن الهدف هو توليد النظرية. ولا يعني قولنا هذا أن الباحثين الكيفيين لا يهتمون "باختبار" أفكارهم. ففي

الواقع، يحرص معظمُ الباحثين الكيفيين، وخاصةً من كان منهم يستعمل المنظور الفكري للنظرية الموثقة (كارماز Charmaz، ٢٠٠٠)، على النظر الدقيق والمستمر في بياناتهم، ويقومون - دائماً - باختبار أفكارهم أثناء قيامهم بجمع بيانات بحوثهم. ذلك أنه توجد عملية دائرية بين جمع البيانات وتحليل البيانات وتوليد النظرية في عملية تُسمَّى بالاستقراء التحليلي. حيث يقوم المرء - وهو يجمع البيانات - بتفسيرها، وبصيغة طائفة من الأفكار التي يختبرها كلها بتطبيقها على البيانات الجديدة وهكذا دواليك. إذ يوجد نوعٌ من التفاعل الدينامي بين الخطوة رقم (٦) (خطوة جمع البيانات) والخطوة رقم (٧) (خطوة تحليل البيانات) والخطوة رقم (٣) (خطوة صياغة الفروض). ويمكن لخطوة جمع البيانات (الخطوة رقم ٦) وخطوة تحليل البيانات، يمكنهما أن يُفضيا إلى بلورة الأفكار/أو الفروض المتعلقة بهذه البيانات. وهو الأمر الذي قد يُفضي، بدوره؛ إلى قيام الباحث بجمع نوعيات محددة من البيانات عبر استعمال نهج أو أسلوب بعينه من أساليب اختيار العينات (وهي الخطوة رقم ٥)، أي أنه يختار عيناته من حالات خاصة ليختبر بها هذه الأفكار (وهو أسلوب اختيار العينة النظرية). وهكذا يتحرك الباحث جيئةً وذهاباً على امتداد خطوات البحث على نحو يكاد يماثل قيامه بأداء خطوات رقصة مفعمة بالحركة، تكون حركاتها في كثير من الأحيان غير منتظمة، إذ تخضع تماماً لنمط الموسيقى الذي يتصادف أن يكون الباحث مُنصتاً إليه في هذا الوقت (وهو هنا البيانات)، كما أن الباحث يكون منفتحاً على أية أنماط جديدة تطرأ (للرقص/أو البيانات) لحظة انتباهه لها (انظر أيضاً كرابتري وميلر ١٩٩٩). إذ لا توجد رقصة واحدة مناسبة، ولا يوجد نمط جامد يتعين اتباعه. بل يتعين على المرء أن يكون مُنفتحاً على اكتشاف الجديد. فلا يوجد لهذا النموذج نمط رقص يتخذ مساراً واحداً محدداً، ذلك أن هذا الشكل من أشكال البحث - الكيفي - لا يعمل بهذه الطريقة.

يعمل باري ثورن Barrie Thorne أستاذاً لعلم الاجتماع والدراسات النسوية في جامعة كاليفورنيا - بيركلي، وقد كتب كتابات غزيرة في مجال البحث الإثنوجرافي (الميداني). ويُعتبر الرقص الدينامي الذي يُميز البحث

الكيفى عادة، بمثابة تجسيد لاتجاه ثورن فى البحث. فهيا بنا ننضم إلى ثورن لنلقى نظرة على مشهد من خلف الكواليس:

خلف الكواليس مع بارى ثورن

اعتدت أن أبدأ بأسئلة عامة إلى حد ما، وأختار - استراتيجيًا - موقعًا من مواقع البحث (وفى ذهنى منطق دراسة الحالة)، ثم أواصل العمل فأقوم بالملاحظة، كما أقوم فى عملى الحالى بإجراء المقابلات، يُضاف إلى ذلك أننى أقوم بجمع الإحصائيات ذات الصلة بموضوع بحثى (والخاصة بمنطقة أوكلاند التى أدرُسها)، وهى إحصائيات استمدها - مثلاً - من الإحصاء الرسمى للسكان ومن المنطقة التعليمية. أما الأسئلة الإضافية، أو الأسئلة التى تُعاد صياغتها فتبرز فى ثنايا العمل. ومعنى هذا أنه توجد حركةٌ مجيء وذهابٍ مُستمرة بين القضايا النظرية التى قَدِّمْتُها وأقومُ بتطويرها والبيانات الإمبريقية. فهى عمليةٌ شُحذٌ وتَدقيق، كما أنها عملية استقرائية، تتصف بوجود قدرٍ عظيم من الاستكشاف وإعادة الصياغة على امتداد هذا الطريق (فالاستكشاف، وفرص العثور على الأشياء النفيسة أو السارة مصادفة، يُعدّان كذلك من الملامح المُميّزة لبعض أنواع البحث الكيفي).

خاتمة

فى هذه المرحلة من الكتاب، نأملُ أن تكون قد استوعبت ما يتصف به البحث الكيفي من تعقّد على المستويين النظرى والعملى معاً. خاصّةً وأن أى باحثٍ إنما يعملُ انطلاقاً من نموذج نظريّ معين أو انطلاقاً من رؤية معينة للعالم. لذلك يُؤثّر هذا المنظور الفكرى على كافة مراحل المشروع البحثي ويُشكّل البنية التحتية الفلسفية لهذا المشروع. وتقع الرابطة البحثية (التي تجمع بين الإبستمولوجيا، والنظرية، وطريقة البحث) تقع حيث تتداخل الركائز الفلسفية للمشروع البحثي مع تقنياته التى سوف تستخدمها. وتتأثّر القضايا الكثيرة المتعلقة بتصميم البحث، والتي استعرضناها فى هذا الفصل؛ تتأثّر كلّها بهذه القضايا الأساسية. وبهذه الطريقة يكون البحث الكيفي نشاطاً كلياً حقاً،

حيث تتداخلُ فيه الطبقات المتعددة للبحث، وكذلك تتداخلُ مراحلُه المتعددة معَ بعضها البعض. وبعد أن فرغنا من بيان ذلك لا يزال ثمة عنصر مستمر من عناصر البحث الكيفي يتوجب معالجته بدقة، وهذا أمر يتعلق بالأخلاق. لذلك فإننا ننتقلُ في الفصل القادم لمناقشة البنية التجريبية الأخلاقية للبحث، والتعرف على السبب الذي يجعل الباحثين الكيفيين ملتزمين بالتعامل مع الأخلاق بأسلوب كُلي.

* * *

تعريف بالمصطلحات

• الاستقراء التحليلي • Analytical Induction

عملية تكرار دائرية تجرى بين جمع البيانات وتحليل البيانات وتوليد النظرية.

• التحقق من صحة المفاهيم • Construct Validation

ويقىس صدق المفاهيم المجردة، كمفهوم "السلطوية" authoritarianism، عن طريق افتراض الأمور التي قد تكون مرتبطة (نظرياً) بهذه المفاهيم إذا كانت مفاهيم صادقة.

• الاتجاه التشكيلي • Constructive – Interpretive Approach

التأويلي

هذا الاتجاه واحد من النماذج النظرية التأويلية الثلاثة في مجال البحث الكيفي. فإذا التزمنا باتجاه تشكيلي Constructivist أو تأويلي interpretive في البحث، فإنني أسلم بحقيقة ذاتية، كما أنها تتكون من القصص أو المعاني التي يتم إنتاجها أو تشكيلها على يد الأفراد داخل مجتمعاتهم "الطبيعية". ويؤكد مفكرو التشكيل بالذات على أنه لا توجد حقيقة اجتماعية "موضوعية" "خارجاً عنا" في انتظار اكتشافها.

• عينة الملاءمة • Convenience Sample

في كثيرٍ جداً من الأحيان يجد الباحثون أن فرص اختيار الإخباريين تتضاءل حتى تصل إلى القبول بمن يكون متاحاً منهم، وهو الإخباري الذي

يكون لديه بعض المعرفة المتخصصة عن هذا المجتمع ويكون راغباً في القيام بهذا الدور. ويعرف هذا النوع من أنواع العينات باسم عينة الملاءمة.

• الاتجاه النقدي • Critical Approach

هو أحد النماذج النظرية التأويلية الثلاثة في البحث الكيفي، ويعالج النموذجُ النظريُّ النقدي موضوعَ كيفَ تَهَيِّمُ علاقات القوة، والضغط، والإيديولوجيا، على فَهْمِنَا للحقيقة.

• المنظور النسوي • Feminist Perspective

يولى المنظور النسوي اهتماماً خاصاً للكشف عن الجوانب التي يتم "قهرها" أو "إخفاؤها" من خبرات الفرد، والتي ربما تكون قد فاتت الباحثين.

• النظرية المؤتقة • Grounded Theory

في الواقع، يحرص بعض الباحثين الكيفيين، خاصةً مَنْ يستخدمون منهم منظورا منبثقاً من النظرية المؤتقة (Charmaz, 2000)، على النظر الدقيق والمستمر في بياناتهم، كما يقومون - دائماً - باختبار أفكارهم في أثناء قيامهم بجمع بيانات بحوثهم.

• المنظور التأويلي • Interpretive Perspective

ظهر هذا المنظور الفكري كاعتراض مباشر على الإبستمولوجيا الوضعية وعلى فهمها وتطبيقها للموضوعية. وترتكز الإبستمولوجيا التأويلية على أساس تفسير التفاعلات والمعاني الاجتماعية التي يَغْزُوها الناس إلى التفاعلات التي تَجْزى بينهم (Nielsen, 1990, p. 7). ويؤمن هذا المنظور - من الناحية الإبستمولوجية - بأن المعنى الاجتماعي يتمُّ خَلْقُهُ أثناء عملية التفاعل وعن طريق تفسيرات الناس لما يجرى بينهم من تفاعلات. ومفاد ذلك أن الفاعلين الاجتماعيين المختلفين قد يَحْدُثُ، في الواقع، أن يفهموا الحقيقة الاجتماعية فهوماً مختلفة، مُنتَجِينَ بذلك معانٍ مختلفة وتحليلات مختلفة لها. ويتضمن البحث الذي من هذا النوع بناء العلاقات بين الباحث والمبحوثين الذين يعتبرون شركاء له في عملية البحث هذه.

• الأنطولوجيا المادية – الواقعية • Materialist -Realist Ontology

يُنْظَرُ إلى الحقيقة هنا باعتبارها حقيقة "تصويرية" (*) وليست "واقعية" أو أنها تمثل "الحقيقة".

• الإجرائية • Operationalization

الإجرائية هي عملية تحويل المفاهيم إلى متغيرات.

• المسلمات الفلسفية • Philosophical Assumptions

قد يحدث في كثير من الأحيان أن تمضي هذه المسلمات بدون أن يُصرَّحَ بها وبدون أن تُختَبَر، إلا أنها تُعدُّ ركائز مهمة جداً للمشروع البحثي وتساعد على تشكيل مجرى عملية البحث. وتقوم هذه البنية التحتية الفلسفية للمشروع البحثي بتوجيهنا وتوجيه تفسيرنا للحقيقة في بعض القضايا الميتافيزيقية الجوهرية.

• البنية التحتية الفلسفية • Philosophical Substructure

هي ما نختاره من نموذج نظري.

• الوضعية • Positivism

تقترن وجهة النظر المستمدة من التراث الوضعي والتي ترى أن الحقيقة الاجتماعية "قابلة للمعرفة"؛ تقترن بمفهوم تقليدي للصدق، يتم تعريفه تعريفاً صارماً في ضوء عملية القياس.

• البحث المابعد الحداثي • Postmodernist Research

يناقش هذا المنظور الأساس الفعلي لما يعنيه المرء "بالحقيقة". ويُمكن المفكر الأخذ بما بعد الحداثة النظر في الطريقة التي يتم بها إنتاج الحياة الاجتماعية وكيف يتمتع حائزو القوة بامتيازات خاصة فيها.

(*) تم اختيار كلمة "تصويري" كترجمة لكلمة "representational" والمُدَوَّل عن ترجمتها بكلمة "تمثيلي" لأن الكلمة الإنجليزية هنا تتسع لمعنى "التصوير غير الدقيق، بل والادعاء كذلك"، أما كلمة "تمثيلي" التي هي ترجمة الكلمة الإنجليزية "representative" فتعني التصوير الدقيق والصادق. (المترجم)

• الصدق التنبؤى • Predictive Validity

من ذلك مثلاً أن تستخدم درجات الاختبار المسمى "اختبار الاتجاهات الدراسية" (SAT) Scholastic Attitudes Test للتنبؤ بالنجاح في المدرسة. ويمكن أن يكون مقياس النجاح متوسط ما يحصل عليه الطالب من مجموع تراكمي في كل سنوات الدراسة (GPA) في الكلية (وهو معيار خارجي).

• العينة العمدية • Purposive Sample

وتُسمى كذلك: العينة الحُكمية Judgment sample، وكثيراً ما يهتم الباحثون الكيفيون باختيار هذه الأنواع من العينات. ويقوم نمط العينة المختارة على أساس مشكلة البحث المطروحة، كما تعتمد على الاعتبارات المتعلقة بالمصادر المتاحة للباحث.

• مسار البحث • Research Trajectory

تستند مسائل البحث إلى وجهة نظر فلسفية تتعلق بطبيعة الحقيقة، إلا أنها تخضع كذلك لطائفة من العوامل كالاهتمامات الأكاديمية والشخصية، والقدرات، والقيم الاجتماعية للباحث. كما تخضع كذلك لمدى قدرته على الحصول على موارد اقتصادية معينة ومصادر ذات صلة بأسلوب الحياة. وتقوم هذه العوامل معاً بتحديد مسار البحث الذي يسير فيه المشروع البحثي.

• إجراءات اختيار العينات • Sampling Procedures

هي عملية الاختيار المنظم للمبجوثين من بين أفراد مجتمع البحث.

• العينات الصغيرة • Small Samples

يقوم منطبق البحث الكيفي على الاهتمام بالفهم المتعمق، الأمر الذي يدفع الباحث عادة إلى استخدام العينات الصغيرة العدد. ذلك أن الهدف هو بحث "عملية" ما أو بحث "المعاني" التي يعزوها الأفراد لوضعهم الاجتماعي، وليس من الضروري أن يكون الهدف وضع أحكام عامة، وهو الأمر الذي يفسر سبب كون العينات الصغيرة مناسبة غالباً.

• Subjective Meaning

• المعنى الذاتى

رَغَمَ أن النماذج النظرية للبحث الكيفى قد تختلف فيما يتعلق بما تأخذ به من مُسَلَّماتٍ بخصوص مدى إمكان أن تكون المعرفة "موضوعية"، فإن أغلب تلك النماذج النظرية الكيفية تتفق على أهمية المعانى الذاتية التى يأتى بها الأفراد للعملية البحثية، كما تعترف هذه النماذج بأهمية التشكيل الاجتماعى للحقيقة.

• Theoretical Sampling^(*)

• العينة النظرية

هى نمط مهم آخر من أنماط العينة العمدية. وغالبًا ما يستخدم هذا النوع من العينات كجزء من الاتجاه البحثى القائم على "النظرية المؤتقة". ويحدّد جلاسر وستراوس (١٩٦٧، ص ٤٥) معنى اختيار العينة النظرية بأنه "عملية جمع البيانات بهدف توليد النظرية التى بواسطتها يقوم المُحلّل - فى الوقت ذاته - بجمع بياناته، وتصنيفها، وتحليلها كما يقرر - فى أثناء ذلك - ما هى البيانات التى سيقوم بجمعها فيما بعد، وأين يمكنه أن يجدها حتى يبلور النظرية وهى تبرز أمام ناظره بصورة تدريجية.

• Theoretical Saturation

• التشبع النظرى

يشير آجار (١٩٩٦) إلى أنه إذا وجد الباحث أن النتائج مُتَمَّالة بالنسبة لجماعة من الأفراد، وأنها لم تضيف جديدًا إلى علم الباحث عن طريق إعادة اختيار العينات من بين أفراد مجتمع البحث؛ عندها يكون البحث قد وصل إلى مرحلة التشبع النظرى بالنسبة لهذه الجماعة.

• Theory Generation

• توليد النظرية

يحدث هذا التوليد عندما يستعمل الباحث بياناته لتطوير نظرية تتعلق بالعالم الاجتماعى أو بجانب مُحدّد من جوانبه.

(*) أثبتنا الكلمة كما وردت فى الأصل، وصحتها Sample، كما يتضح من سياق الكلام.
(المراجع)

• Validity

• الصدق

يتصور الباحثون العاملون في إطار النموذج النظري الكيفي، مفهوم الصدق على نحوٍ مخالفٍ للمفاهيم الوضعية التقليدية لهذا المصطلح. وبصورة عامة، فإن الصدق يمثل إحدى القضايا التي يُعالجها الباحثون وهم يُصوغون قضية أو يسوقون حجة تُثبت أن المعرفة التي تحصلوا عليها معرفة صحيحة. وبتعبير آخر، أن هذه المعرفة المُنتجة تَعكسُ بعض جوانب العالم الاجتماعي و/أو أنها مُلزِمة.

* * *

أسئلة للمناقشة

- (١) ما هي رؤية العالم وكيف تؤثر على العملية البحثية من وجهة النظر الكلية؟
- (٢) كيف يتأثر تصميم البحث بالاعتبارات الفلسفية والاعتبارات العملية؟
- (٣) لماذا يتعين على الباحث أن يكون منفتحاً لتعديل مشروع البحث في ضوء النظرية والمناهج؟
- (٤) كيف يفكر الباحثون الكيفيون في قضايا الصدق، والثبات، والقابلية للتعميم؟
- (٥) ما هي الاعتبارات المهمة التي يتعين مراعاتها عند اختيار عينة البحث؟
- (٦) ما معنى القول بأن الباحثين الكيفيين يستخدمون في عملهم نموذجاً في البحث يشبه "الرقصة"، ولا يستخدم نموذج "الخطوة"؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

مصادر البحث الكيفي

• Resources for Qualitative Research

<http://www.qualitativeversearch.uga.edu/Qual/Page>

هذا الموقع مكرس للبحث الكيفي فقط، مع روابط مفيدة كالأعمال المنشورة، ومنتديات الحوار، والمناهج، والمقالات العلمية، والهيئات والجماعات المهتمة بالبحوث الكيفية.

البحث الكيفي في نظم المعلومات

• Qualitative Research in Information Systems

<http://www.qual.auckland.ac.nz/>

يستهدف هذا الموقع تزويد الباحثين الكيفيين في نظم المعلومات، وكذلك الباحثين الذين يريدون التعرف على البحث الكيفي؛ تزويدهم بمعلومات عن تنفيذ، وتقويم، ونشر البحوث الكيفية.

* * *

المراجع References

- Agar, M. (1996). *The professional stranger: An informal introduction to ethnography* (2nd ed.). New York: Academic Press.
- Banks, J. A. (1976). Comment on "A Content analysis of the black American in text-books." In M. P. Golden (Ed.), *The research experience* (PP. 383—389). Itasca, IL: F.E. Peacock.
- Peacock, Becker, H., Geer, B., Hughes, E., & Strauss, A. (1961). *Boys in white: Student culture in medical school*. Chicago: University of Chicago Press.
- Charmaz, K. (2000). Grounded theory: Objectivist and constructivist methods. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed.) (pp. 509-535). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Crabtree, B. F., & Miller, W. L. (1999). The dance of interpretation. In B. F. Crabtree & W. L. Miller (Eds.), *Doing qualitative research* (2nd ed., pp. 127-143). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N. K. (1989). *The research act: A theoretical introduction to sociological methods*, (3rd ed). Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- Denzin, N., & Lincoln, Y. (Eds.). (2000). *Handbook of qualitative research* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA.: Sage.
- Denzin, N., & Lincoln, Y. (Eds.). (1998a). *The landscape of qualitative research: Theories and issues*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N., & Lincoln, Y. (Eds.). (1998h). *Strategies of qualitative inquiry*. Thousand Oaks, CA.: Sage.
- Deutsch, M., & Krauss, R. M. (1965). *Theories in social psychology*. New York: Basic Books.
- Diaz, J. (1999). Blood money: Life, death, and plasma on the Las Vegas Strip. *Electronic Journal of Sociology*, 4 (2). Retrieved from: <http://www.sociology.org/content/v01004.002/diaz.html>

- Dobb, A., & Gross, A. (1976). Status of frustration as an inhibitor of horn-honking responses. In M. P. Golden (Ed.), *The research experience* (pp. 481-486). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Garner, D. M., Olmsted, M. P., & Polivy, J. (1983). Development and validation of a multidimensional eating disorder inventory for anorexia nervosa and bulimia. *International Journal of Eating Disorders*, 2, 15-34.
- Gay, L. R., & Airasian, P. (2003). *Educational research: Competencies for analysis and application* (7th ed.). Upper Saddle River, NJ: Merrill/ Prentice Hall.
- Glaser, B. G., & Strauss, A. I. (1967). *The discovery of Grounded Theory: Strategies for qualitative research*. Chicago: Aldine.
- Golden, M. P. (Ed.). (1976). *The research experience*. Itasca, IL: F. E., Peacock.
- Greene, J. C., Caracelli, V. J., & Grahnan, W. F. (1989). Toward a conceptual framework for mixed-method evaluation design. *Educational Evaluation and Policy Analysis*, 11(3), 255-274.
- Guba, E. G., & Lincoln, Y. S. (1989). *Fourth generation evaluation*. Newbury Park, CA: Sage.
- Gubrium, J. F., & Holstein, J. (1997). *The new language of qualitative method*. New York: Oxford University Press.
- Heidegger, M. (1962). *Being and Time*. New York: Harper & Row. (Originally published in 1927).
- Hendrix, K. (1998). Student perceptions of the influence of race on professor credibility. *Journal of Black Studies*, 28(6), 738-763.
- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet: The cult of thinness and the commercialization of identity?* New York, Oxford University Press.
- Honigsmann, J. (1982). Sampling in ethnographic fieldwork. In R. Burgess (Ed.), *Field research: A sourcebook and field manual* (pp. 79-90). London: George Allen & Unwin.
- Jones, S. B. (1967a). Geographic mobility as seen by the wife and mother. In M. P. Golden (Ed.), *The research experience* (pp. 315-326). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Jones, S. B. (1967b). Personal reflections on the research process. In M. P. Golden (Ed.), *The research experience* (pp. 327-339). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Kvale, S. (1996). *Interviews: An introduction to qualitative research interviewing*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Lincoln, Y., & Guba, E. (1985). *Naturalistic Inquiry*. Beverly Hills, CA: Sage.
- Lincoln, Y., & Guba, E. (1999). Establishing trustworthiness. In A. Bryman & R. G. Burgess (Eds.), *Qualitative research, volume III* (pp. 397-434). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Locke, L., Spirduso, W. W., & Silverman, S. (2000). *Proposals that work: A guide for planning dissertations and grant proposals*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Miller, W. L., & Crabtree, B. F. (1999). Clinical research: A multimethod typology and qualitative roadmap. In B. F. Crabtree & W. L. Miller (Eds.), *Doing qualitative research* (2nd ed.) (pp. 3-30). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Morse, J. (1995). The significance of saturation. *Qualitative Health Research*, 5(2), 147-149.
- Neuman, W. (2003). *Social research methods: Qualitative and quantitative methods*, (5th ed.). Boston: Allyn & Bacon.

- Nielsen, J. M. (Ed.). (1990). *Feminist research methods*. Boulder, CO: Westview Press.
- Patton, M. (2002). *Qualitative research and evaluation methods* (3rd ed). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Popay, J., Rogers, A., & Williams, G. (1998). Rationale and standards for the systematic review of qualitative research in health services and research. *Qualitative Health Research*, 8, 341-351.
- Popper, K. R. (1959, 1935). *The logic of scientific discovery* (Originally published in German in 1935). New York: Basic Books.
- Rosaldo, R. (1989). *Culture and truth: The remaking of social analysis*. Boston: Beacon.
- Schensul, S. L., Schensul, J. J., & LeCompte, M. D. (1999). Essential ethnographic methods: Observations, interviews and questionnaires. In S. L. Schensul, J. J. Schensul & M. D. LeCompte (Eds.). *Ethnographer's handbook*, volume 2, PP. 278-289. Lanham, MD: Alta Mira/Rowman & Littlefield.
- Schutz, A. (1967). *The phenomenology of the social world* (G. Walsh & F. Lehnert, Trans.). Evanston, IL: Northwestern University Press.
- Scale, C., & Silverman, D. (1997). Ensuring rigour in qualitative research. *European Journal of Public Health*, 7, 379-384.
- Simmel, G. (1971). *On individuality and social forms* (D. Levine, Ed.). Chicago: University of Chicago Press.
- Spencer, L., Ritchie, U., Lewis, J., & Dillon, L. (2003). *Quality in qualitative evaluation: A framework for assessing research evidence*. London: Government Chief Social Researcher's Office.
- Strauss, A. L., & Corbin, J. (1998). *Basics of qualitative research: Techniques and procedures for developing grounded theory* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Vaughan, D. (1990). *Uncoupling: Turning points in intimate relationships*. New York: Vintage Books.

الفصل الثالث

أخلاقيات البحث الاجتماعى

دراسة مرض الزهري بمدينة Tuskegee

قامت وزارة الصحة بالولايات المتحدة الأمريكية بإجراء دراسة عن مَرَض الزهري بمدينة تصكيجى Tuskegee بدأتها سنة ١٩٣٢. وتناولت الدراسة بالفحص الدقيق الحالات التى لم تَتَلَقَّ علاجًا مِمَّن كانوا مصابين بالزهري الكامن من الأفراد الخاضعين للدراسة، وذلك من أجل تحديد "المسار الطبيعى" لهذا المَرَض. وقد شملت هذه الدراسة ثلاثمائة وتسعة وتسعين من الرجال السود من مدينة تصكيجى Tuskegee، بولاية ألاباما، مِمَّن كانوا قد وصلوا إلى مرحلة متأخرة من الإصابة بالزهري أجريت الدراسة عليهم فعلاً، فى نفس الوقت الذى توفرت فيه للدراسة عينة مُنَظَرَة مكونة من (٢٠١) من الرجال غير المصابين.

ولم يُطَلَب من المبحوثين أن يُدَلِّلوا بموافقتهم الصريحة على المشاركة فى هذا المشروع البحثى. وفى ذلك الوقت أُعْطِيَ مَنْ كانوا مصابين بالزهري فى السنوات الأولى من ثلاثينيات القرن العشرين العلاج المقرر لمثل هذه الحالات، والذي كان يتكون فى تلك الأيام من التداوى بالمعادن الثقيلة. ومع ذلك، فإن المشاركين فى هذه الدراسة لم يتلقوا هذا العلاج. فالواقع أن الطبيب المسئول عن هذه الدراسة لاحظ أن "الجميع اتفقوا على أن الإجراء المناسب هو مداومة ملاحظته للرجال السود الخاضعين لهذه الدراسة وفى ذهنه أنه سينتهى به الحال إلى مرافقتهم حتى مرحلة تشريح جُثثهم (بعد الوفاة)" (جونز Jones، ١٩٩٣، ص ١٣٢).

غير أنه بعد أن أصبحت المضادات الحيوية مُتَاحَة فى الأربعينيات من القرن العشرين، وتبين أن هذا العلاج من شأنه تحسين فُرَص المريض فى الشفاء؛ مَنَعَ استعمال العلاج بالمضادات الحيوية مع الأفراد المصابين، حتى على الرغم من أن الباحثين كانوا يعلمون أن ترك هؤلاء المصابين بدون

علاج سوف يؤدي - بالقطع - إلى تفاقم حالة المرض ليصل إلى مزيد من العجز الذي ينتهي إلى الوفاة المبكرة. ووفقاً لما جاء في بعض التقارير، فإنه "حدثت في حالات متعددة أن سعت وزارة الصحة الأمريكية لمنع العلاج" (Heintzelman, 1996, p. 49).

وقد استمرت هذه التجربة طوال أربعة عقود، ولم يحدث إلا سنة ١٩٧٢، أن قام المسؤولون الحكوميون أخيراً بإنهاء هذه التجربة، مدفوعين لذلك - عموماً - بما كشفتته وسائل الإعلام القومية من حقائق. وفي ذلك الوقت كان (٧٤) من المبحوثين لا يزالون أحياء؛ وقد سبق ذلك أن مات (٢٨) منهم على الأقل كنتيجة مباشرة لوصولهم لمرحلة متقدمة من الإصابة بالزهرى، بل إنه من المحتمل أن يزيد عددهم عن (١٠٠). (ص ٤٩). وفي منتصف سنة ١٩٧٢ بدأت الحكومة إجراء تحقيق رسمي عن المشروع بأكمله، وقد وجدت لجنة من الاستشاريين الذين قاموا بهذا التحقيق "أن هذه الدراسة غير مبررة أخلاقياً"، وذهبت إلى أنه كان ينبغي توفير البنسيلين لهؤلاء الرجال" (ص ٤٩).

الدروس الأخلاقية المستفادة من التجربة الطبية الحيوية

في مدينة Tuskegee: الموافقة الصريحة (عن علم)

لم يحدث في أي لحظة على امتداد ذلك المشروع البحثي أن طلب إلى المبحوثين أن يدلوا بموافقتهم على المشاركة في هذه الدراسة. ولم يتم إخبارهم بتفاصيل ما ستؤدي إليه هذه الدراسة. ففي الواقع، لم يكن هؤلاء الذين شاركوا في هذه الدراسة متطوعين في هذا المشروع. بل إنهم تعرضوا للخداع حتى يظنوا أنهم "يتلقون علاجاً مجانياً يقدمه الأطباء الحكوميون لعلاج مرض خطير". ولم يشرح لهم أحد أبداً أن هذا المسح الاجتماعي مقصود منه اكتشاف مرض الزهرى. ولم يخبر المبحوثين أبداً أنهم مصابون بالزهرى، كما لم يخبروا بمسار هذا المرض، ولا بالعلاج، والذي كان يتكون من عمليات بزل من العمود الفقري (Heintzelman, 1996, p. 51).

وقد استخرجنا نسخة من خطاب الاستدعاء الأصلي الذي أرسل في بادئ الأمر من "الإدارة الصحية بمقاطعة ماكون Macon County" والهيئة الصحية لولاية ألاباما ووزارة الصحة الأمريكية بالتعاون مع معهد

Tuskegee" إلى الأفراد المصابين بالمرض المذكور. وعندما تقرأ هذا الخطاب فسوف تلاحظ أنه لم يذكر شيئاً عن عمليات البزل من العمود الفقري كعلاج عادي مقرر، بل إنه - بدلاً من ذلك - يدّعي أن المبحوثين سوف يتلقون "علاجاً خاصاً". بل وصل الأمر إلى الزعم بأنهم "يحظون برعاية الأفراد الذين يقومون بخدمتهم". وبإمكانك أن تتصور أنه إن كنت تعيش في فقر شديد، فقد يبدو لك هذا الخطاب وكأنه "إنعام" بالحياة.

وفي كتابه بعنوان "الدم الفاسد: تجربة تصكيجي في علاج الزهري"^(٩). يشير المؤلف جيمس جونز إلى أن المبحوثين في هذه التجربة التي أجريت في مدينة تصكيجي كانوا يتقنون ثقة عمياء بالمجتمع الطبي. وفي ذلك يقول أحد المبحوثين المشاركين في هذه التجربة:

كنا نثق بهم لا اعتقادنا أن بإمكانهم أن يعملوا لما فيه صالحنا، أي لتحسين صحتنا الجسمية. ... فما كان منا إلا أن نمضي في رفقة الممرضة. وقد كنت أتصور أن [الأطباء] كانوا يُسدون إليّ معروفاً. (جونز ١٩٩٣، نقلاً عن هاينزلمان، ١٩٩٦، ص ٥٠).

وثمة سؤال آخر عما إذا كان الباحثون يخدعون - أو لا يخدعون - مجموعة من السكان المعرضين للإصابة، والذين يعرف عنهم هؤلاء الباحثون أنه لا تتوافر لهم الموارد المالية اللازمة لتحمل نفقات العلاج أو التعليم بحيث يمكنهم أن يرفضوا هذه الخدمة الطبية. يُضاف إلى ذلك أن ما كان الباحثون يتصفون به من اتجاهات عرقية راسخة نحو الرجال السود يَسَّرَت عليهم تبرير قرانهم بعدم توفير العلاج لهم:

الإدارة الصحية بمقاطعة ماكون

الهيئة الصحية لولاية ألاباما ووزارة الصحة الأمريكية

بالتعاون مع معهد تصكيجي

عزيزي:

منذ فترة مضت أجرى عليك فحص شامل، ومنذ تلك الفترة نأمل أن تكون قد حصلت على قدر كبير من علاج الدم الفاسد. والآن سوف تُمنح

^(٩) James Jones, Bad Blood: The Tuskegee Syphilis Experience.

فرصتك الأخيرة لإجراء فحص ثان. وهذا الفحص من نوع خاص جداً، وبعد أن ننتهي منه ستحصل على علاج خاص إن كان من المؤكد أنك فى حالة صحية تمكّنك من تحمله.

فإن كنت تريد هذا الفحص الخاص والعلاج الخاص، فإنه يتوجب عليك أن تقابل الممرضة فى يوم ساعة ظهراً. وسوف تُصحبك الممرضة إلى المستشفى التعليمى بتصكيجى للحصول على هذا العلاج المجانى. وسوف نكون مشغولين جداً أثناء إجراء هذه الفحوص والعلاجات، كما سيكون أماننا عدد كبير من الأفراد للقيام بتقديم العلاج لهم. وننبهك إلى أنه يتعين عليك الانتظار بعض الوقت عندما تجرى آخر فحص كامل لك، كما نود إخبارك بأنه نظراً لأننا نتوقع أن نكون مشغولين جداً فقد يكون ضرورياً أن تمكث فى المستشفى لمدة ليلة واحدة. فإن تبين ضرورة مبيتك فسيتم تزويدك بوجبات الطعام وبالفراش، كما سيتم توفير الفحص والعلاج لك مجاناً.

تذكر أن هذه هى فرصتك الأخيرة للحصول على علاج مجانى خاص. فاحرص على مقابلة الممرضة.

الإدارة الصحية لمقاطعة ماكون

تم نسخ هذا الخطاب من الموقع الإلكتروني التعليمى فى مركز بوينتر Poynter Center بجامعة اللينوى، للانتفاع به فى الدراسة التى تحمل عنوان "دراسة الأخلاقيات والمعاهد العلمية الأمريكية" <http://poynter.indiana.edu/sas/ib/fads.html>.

كان مبرر هذه الدراسة أن هذه الحالات موجودة "بصورة طبيعية"، وأن هؤلاء الرجال لن يتلقوا علاجاً بأية حال، وذلك وفقاً للمسئمة التى شكّلت صورة هذه الدراسة - وهى أن الرجال من الأمريكيين السود، ولكون الواحد منهم يُعاشر أكثر من امرأة واحدة بجانب كونه شهوانياً، لن يسعوا للحصول على العلاج أو المداومة عليه. (براندت Brandt، نقلاً عن هاينزلمان، ص ٤٩).

وقد أتاحت القرارات الخاطئة من جانب الباحثين، والمتأثرة بالتعصب الأعمى، أتاحت الفرصة لحدوث ذلك الأمر. بيد أن هذا النوع من البحوث مرفوض تماماً. فهو يكشف عن مدى ما يمكن أن تؤدي إليه النزعة العرقية من معاملة غير إنسانية للمبحوثين من البشر. وقد ذهب البعض إلى أن نتائج هذه التجربة تسببت - إلى حد ما - في إحداث تأثير (سئ) طويل الأمد على مجتمع الأمريكيين السود، ملفية "بظلال ممتدة على العلاقات المعاصرة بين الأمريكيين السود والمجتمع الطبى" (Gamble, 1997, p. 1773).

الأهمية المحورية للأخلاق فى المشروع البحثى

عادة ما تظل المناقشات الأخلاقية معزولة عن مناقشات المشروعات البحثية أو مهمشة فيها. والواقع أن بعض الباحثين يعتبرون هذا الجانب الخلقى من البحث نوعاً من الخواطر التى ترد على البال بعد إنجاز العمل. ومع ذلك فإن الاستقامة الخلقية للباحث تعد أمراً على جانب كبير من الأهمية إذ تضمن أن تكون عملية البحث والنتائج التى يصل إليها الباحث "جديرة بالثقة" وصادقة فى الآن معاً.

إن مصطلح ethics مستمد من الكلمة الإغريقية ethos التى تعنى "الخلق" "character". وإن التزامك بالبعد الخلقى لبحثك يقتضى منك أن تسأل نفسك عدة أسئلة مهمة:

- ما هى المبادئ الخلقية التى تُوجِّهُ بحثك؟
 - إلى أى مدى تَدْخُلُ المسائل الخلقية فى اختيارك لمشكلة البحث؟
 - إلى أى مدى تؤثر المسائل الخلقية فى الطريقة التى تُجرى بها بحثك؟
- أى: فى تصميم دراستك، وفى طريقتك فى اختيار العينات، وما إلى ذلك؟

- ما هى المسؤولية التى تتحملها تجاه الأفراد المبحوثين؟ مثال ذلك، هل حصلت على موافقتهم الصريحة (عن علم) بالمشاركة فى مشروعك البحثى؟ وما هى القضايا/ المآزق الخلقية التى قد تساهم فى تحديد

نتائج البحث التي سوف تنشرها؟ وهل سيعود بحثك بالنفع على من اشتركوا في هذه الدراسة بشكل مباشر؟

إن من الضروري أن يكون الاهتمام بالأخلاق جزءاً فائق الأهمية من البنية التحتية لعملية البحث، ابتداءً من التصور الأولي لمشكلتك وانتهاءً بتفسير نتائج البحث ونشرها. ومع ذلك فإن هذا الجانب الذي يشكل واحداً من جوانب عملية البحث لا يظهر كثيراً في الرسوم التخطيطية لنماذج البحوث التي ناقشناها في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وسوف يساعدنا الاطلاع على تاريخ موجز للجوانب الأخلاقية للبحث على حُسن فهم السبب الذي جعل هذه الجوانب تظل هكذا: غير ظاهرة في نماذج البحوث.

تاريخ موجز لأخلاقيات البحث

ظهر الاهتمام الرسمي بحقوق المبحوثين من واقع ما تكشف من الأفعال الوحشية الرهيبة التي كانت تُنفَّذ في صورة البحث العلمي الذي يُجرى على اليهود وعلى غيرهم من جماعات الأقليات العرقية والإثنية في معسكرات الاعتقال النازية أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان من نتائج الكشف عن هذه التجارب الطبية المُرعبة التي ارتُكبت باسم العلم، أن صدر في سنة ١٩٤٩ "ميثاق نورمبرج" Nuremberg Code، وهو ميثاق أخلاقي يبدأ بالنص على وجوب أن يكون الاشتراك في البحث (كمبحوث) اشتراكاً تطوعياً. وقد أعقب هذا الميثاق صدور موثائق أخرى، بما فيها "إعلان هلسنكي" "Declaration of Helsinki" (١٩٦٤). وقد تم تطوير هذا الميثاق بصفة خاصة ليكون بديلاً، إلى حد ما، لميثاق نورمبرج الذي كان يتناول حصرياً البحوث التي لا تتضمن العلاج بالعقاقير والجراحة (أي البحث الذي لا يقدم منفعة مباشرة للمبحوث)". (Alvino, 2003, p. 896). ويحمي هذا الميثاق المبحوثين في كل من البحوث العلاجية وغير العلاجية على السواء. ويشير إعلان هلسنكي إلى عدد من الإجراءات المحورية التي ينبغي تطبيقها في البحوث الطبية الحيوية:

لابد لكل مشروع بحثى طبي حيوى يشتمل على أفراد مبحوثين من البشر أن يكون مسبقاً بتقدير دقيق للمخاطر التى يمكن التنبؤ بها مقارنة بالمنافع المتوقع أن تعود على المبحوث وعلى الآخرين... إذ يتوجب بصفة دائمة احترام حق الفرد المبحوث فى الحفاظ على سلامته. كما يجب اتخاذ كل تدبير وقائى لاحترام خصوصية الفرد المبحوث ولتقليل أثر الدراسة على السلامة البدنية والعقلية للمبحوث وعلى شخصيته (ص ص ٨٩٦ - ٨٩٧).

كما أنشئ مجلس المنظمة الدولية للعلوم الطبية^(١) للباحثين الذين يجرون بحوثهم فى البلاد النامية (Beyrer & Kass, 2002). وعلى امتداد تاريخ البحث العلمى لفتت القضايا الأخلاقية انتباه العلماء كما لفتت انتباه وسائل الإعلام أيضاً. ومع أن الحالات المتطرفة للسلوك اللاأخلاقى تمثل الاستثناء وليست القاعدة فى المجتمع العلمى، فإن الإفصاح عن تلك المشروعات اللاأخلاقية يُمكن أن يزودنا بدروس مهمة لفهم ما يمكن أن يحدث عندما يتم إغفال البعد الخلقى للبحث بصورة كلية داخل العملية البحثية.

الخطوط الإرشادية والقوانين الحاكمة لعملية البحث

لسوء الحظ، أنه عندما بدأت تجربة تصكيجى، لم يكن هناك وجود لهيئة رسمية للفحص والمراجعة^(٢)، وذلك لمراجعة أهداف هذا المشروع. ولم يحدث إلا فى منتصف الستينيات من القرن العشرين أن بدأت الحكومة الفيدرالية عملية بلورة مجموعة من "القواعد الرسمية" التى تحكم معالجة البحث. وكانت هذه العملية فى جزء منها رد فعل لأمثال تلك الانتهاكات الطبية التى حدثت فى تجربة تصكيجى وفى غيرها من التجارب (Beecher, 1966, Jones, 1981)، والتى أدت فى نهاية الأمر إلى أن يجيز الكونجرس فى سنة ١٩٧٤ القانون القومى للبحوث National Research Act.

(١) The Council of International Organization of Medical Sciences (CIOMS).

(٢) Institutional Review Board (IRB).

وقد أنشأ هذا القانون "إدارة للوقاية من مخاطر البحوث" ^(٢) وألحقت بالمعاهد القومية للصحة. وقد طالب هذا القانون بإنشاء "لجنة لوقاية المبحوثين من البشر والمشاركين فى البحوث الطبية الحيوية والبحوث السلوكية (Alvino, 2003, p. 897). وقد أذنت هذه اللجنة بإعلان تلك المبادئ الأخلاقية فى سنة ١٩٧٨ فى تقرير عُرف "بتقرير بلمونت" Belmont Report، وهو التقرير الذى رُوجع فيما بعد لى يتضمن إجراءات وقائية إضافية لحماية الصغار الذين يشاركون فى عملية البحث (ص ٨٩٨).

وفى سنة ١٩٩١، حظيت هذه الخطوط الإرشادية بعد مراجعتها - والتى عُرفت باسم "القاعدة العامة" - بقبول واسع الانتشار لدى الهيئات الفيدرالية (ص ٨٩٨). وقد قضت هذه القاعدة العامة، ضمن ما قضت به من أحكام، بأنه يتعين على أى مؤسسة تتلقى اعتمادات مالية فيدرالية لإجراء بحوث أن تنشئ لجنة رسمية للفحص والمراجعة. ووظيفة هذه اللجان - التى عُرفت باسم "المجالس الرسمية للفحص والمراجعة" (IRBs) - هى مراجعة كافة المقترحات البحثية التى تتضمن العمل مع مبحوثين من البشر ومن الحيوانات. لذلك فإن الجامعات والكليات التى تتلقى اعتمادات مالية فيدرالية للبحوث المطبقة على مبحوثين من البشر، مثلاً، مطالبة بمقتضى القانون الفيدرالى بأن يكون بها مجالس للفحص والمراجعة وإلا فقدت حقها فى التمويل الفيدرالى. والمجالس الرسمية للفحص والمراجعة مسئولة عن تنفيذ ما أصدرته حكومة الولايات المتحدة من لوائح لتنظيم البحوث التى تُجرى على البشر. ويتوجب عليها أن تقرر ما إذا كانت منافع دراسة ما ترجح مخاطرها أم لا؛ وأن إجراءات الحصول على موافقة المبحوثين قد نُفذت بدقة وعناية، وأنه لم يُعامل أى مجموعة من الأفراد معاملة غير آمنة أو لم تستبعد من الانتفاع بالثمرات الإيجابية المُحتملة للبحث (Beyrer & Kass, 2002). ولا ريب أن هذا أمر مهم فى مجتمع ذى بنية هرمية لا يمكننا فيه أن نفترض - ببساطة - أن النزعة العرقية، والتعصب للجنس sexism (الإناث ضد الذكور - أو

(٢) Office for the Protection of Research Risks (OPRR).

العكس - المترجم)، ورهاب المثلية،^(*) والنزعة الطبقية، لن تتدخل فى البحث. وقد يكون لأنماط معينة من البحوث، كالبحث التربوى الذى يعالج موضوع "الاستراتيجيات التعليمية" مثلاً؛ قد يكون لها "وضع استثنائى" فلا تحتاج إلى المراجعة الشاملة من قبل المجالس الرسمية للفحص والمراجعة (DHHS, 1989).

ومن الأمور التى تستحق الانتباه أنه على امتداد أكثر من أربعة عقود، وحتى بعد أن انتهت وزارة الصحة الأمريكية (USPHS) من صياغة "ميثاق أخلاقيات البحث" الخاص بمعاملة المبحوثين، ظل مسموحاً باستمرار تجربة تصكيجى (Heintzelman, 1996, p. 52). ويثير هذا الوضع تساؤلات حول مدى فعالية وجدوى عرض المشروعات البحثية على مجالس الفحص والمراجعة، كما يثير تساؤلات حول فعالية مجموعة المواثيق والأخلاقيات المهنية التى تُشكل جزءاً من ضوابط العمل فى معظم التنظيمات المهنية المتخصصة، وتقوم حالياً بدور الخطوط الإرشادية لإجراء البحوث (انظر، مثلاً، الاتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع، ١٩٩٢، والاتحاد الأمريكى لعلم النفس، ١٩٨١؛ وانظر موقعه على شبكة الإنترنت:

<<http://www.apa.org/ethics/homepage.html>>

إلى أى مدى يحظى المبحوثون بمستوى جيد من الحماية حالياً؟
مر أكثر من ثلاثين عاماً على إصدار الحكومة للوائحها المنظمة لحماية المبحوثين من البشر المشاركين فى الدراسات التى تتلقى تمويلاً فيدرالياً، ومع ذلك فلا تزال توجد حالات تتضمن التعامل مع مبحوثين من البشر أفضت إلى إلحاق الضرر ببعضهم وإلى وفاة بعضهم. وفى هذا الصدد يُعلق أحد الباحثين بالقول: "وصف دارسو الأخلاق تاريخ البحوث التى تتعامل

(*) رهاب المثلية homophobia: خوف مريض من إثبات الجنسية المثلية. وينطبق هذا التعبير على الأفراد الذين يعانون من مشاعر سلبية قوية نحو الجنسية المثلية والأفراد الذين يؤيدون الأنشطة الخليعة. ويرجع بعض الأطباء النفسيين هذا الخوف إلى أن هذا الشخص يعانى من جنسية مثلية كامنة مصحوبة بجهود لإخفائها. (المراجع)

مع مبحثين من البشر بأنه تاريخ "للتقدم الذى تحركه الفضائح" (Alvino, 2003, p. 895). وفيما يتصل بالفضائح الموجودة حالياً فى ميدان البحوث الطبية الحيوية، يقول ألفينو:

أثارت وفاة جيسى جلسينجر *Jesse Gelsinger* التى شاع نكرها وانتشر (قد كان جيسى هذا مبحثاً مات نتيجة لمشاركته فى تجربة للعلاج بالجينات أجريت بجامعة بنسلفانيا) أثارت الانتباه البالغ لوسائل الإعلام كما أثارت القلق الجماهيرى فيما يتصل بسلامة التجارب الطبية داخل المستشفيات. وقصته هذه أبعد ما تكون عن أن تكون قصة مفردة... فقد عانت البحوث الطبية من مصيبة أخرى... وذلك عندما اكتُشف أن الباحثين وشركات إنتاج الأدوية المشاركين فى البحث فى جامعة كورنيل *Cornel* وتافس *Tuftes* لم يقوموا بإبلاغ معاهد الصحة القومية أن ستة ممن خضعوا للعلاج فى بحوث العلاج بالجينات قد ماتوا أثناء إجراء التجارب عليهم على امتداد فترة تسعة عشر شهراً. (ص ٩٠٢).

وفى الصميم من المناقشات الكثيرة التى تدور حول حماية المبحثين من البشر يقع السؤال عما إذا كانت الإجراءات الخاصة بالحصول على الموافقة الصريحة (عن علم) للاشتراك فى البحوث كافية لحماية المبحثين من البشر أم لا، وكذلك السؤال عن قدرة مجالس الفحص والمراجعة *IRBs* على مراقبة عملية البحث فى داخل المؤسسات الخاضعة لإشرافها. لماذا لم تبلغ مجالس الفحص والمراجعة عن حالات وفاة المبحثين إلى الهيئات الفيدرالية المشاركة فى تمويل هذه المشروعات؟ وهل أعطى المبحثون معلومات كافية عن الآثار الجانبية للدراسة؟ وفيما يتعلق بحالة جيسى جلسينجر، فقد كان طالباً جامعياً فى الثامنة عشرة من عمره فى الوقت الذى شارك فيه فى الدراسة التى أجرتها جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٩٩. وقد أثبت فحص واقعة وفاته أنه (١) لم يكن فى الحقيقة مرشحاً مناسباً للدراسة أصلاً و(٢) أنه لم يزود بالمعلومات الكافية فيما يتصل بالآثار الجانبية الشديدة الضرر التى سبق أن عانى منها مشاركون آخرون فى هذه الدراسة (ص ٩٠٨). ويُعلق والد جيسى قائلاً: "لقد بدا الأمر مأموناً... لقد صوّر لى الأمر

على أنه مأمون... لقد خدعوني" (جريدة شيكاغو سانداي تايمز، ٣ فبراير، ٢٠٠٠، ص ٢٣). هكذا سارت الأمور في كثير من الحالات.

وقد قامت الروابط المهنية، كالاتحاد الأمريكي للبحوث التربوية (AERA) والاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع (ASA)، والاتحاد الأمريكي لعلم النفس (APA)، قامت هذه الروابط المهنية بوضع المعالم الرئيسية للأطر الأخلاقية العامة لأعضائها. ولكل واحدة من هذه الروابط موقع على شبكة الإنترنت يناقش طائفة من الاهتمامات الأخلاقية المحددة في كل مهنة من هذه المهن. مثال ذلك أن موقع الاتحاد الأمريكي لعلم النفس على الشبكة (<http://www.apa.org/ethics/code2002.html>) يعرض المعالم الرئيسية لعدد معين من المفاهيم الأخلاقية لإجراء البحوث، ابتداءً من المبادئ العامة للسلوك المهني، وهي المبادئ التي تعالج قضايا عدة، كقضايا الاستقامة الأخلاقية، والعدالة، وانتهاءً بمسائل الممارسة المحددة، والتي منها خصوصية المرضى والمبجوثين والحفاظ على أسرارهم الشخصية. كما توجد كذلك إرشادات أخلاقية خاصة بالحفاظ على سجلات المرضى والمبجوثين وبألعاب الأطباء النفسيين، كما توجد توجهات أخلاقية خاصة بالأمور التي قد تطرأ في موقف العلاج، كتلك الأمور المتعلقة - خصوصاً - بالعلاقات الجنسية مع العملاء، والمتعلقة بعلاج من كانت تربط بينهم علاقات جنسية في السابق. وبالإضافة إلى ذلك توجد إرشادات لحل القضايا الأخلاقية، كقضية التعامل مع حالات التذمر والشكوى وصور التمييز.

كنا نركز - حتى الآن - على البحث الطبي الحيوي. ولكن إلى أي مدى يمكن نقل القضايا الأخلاقية الموجودة في مجال العلوم الطبيعية والحيوية إلى العلوم السلوكية والاجتماعية؟ كثيراً ما يُقدم الباحثون الذين يجرون دراسات طبية حيوية نوعاً من "البروتوكول" الذي يضع الخطوط الرئيسية للخطوات التي سوف يتبعونها في إجراء البحث على المبجوثين من البشر. ولكن البحث الكيفي - بحكم طبيعته الفعلية - مفتوح على إمكانية اكتشاف أهداف جديدة للبحث، أو تعديل بعض الأهداف التي كان قد حددها لنفسه بداية. وقد يكون أقرب للمُحال بالنسبة للباحث الكيفي أن يحيط بكل الأحداث التي

سوف تقع في مجتمع البحث، كما قد يكون من العسير التحرك جيئةً وذهاباً إلى إحدى "لجان المبحوثين من البشر" (والتي منها مثلاً مجالس الفحص والمراجعة IRB) للحصول على موافقتها في كل مرة يتخذ فيها المشروع منعطفاً غير متوقع. ويذهب أدلر وأدلر Adler and Alder (٢٠٠٢) إلى أن الحصول على الموافقة الصريحة من المبحوثين (عن علم) يُصيبُ الباحثين الذين يقومون بالملاحظة بالمشاركة بأقصى الضربات:

إن لدى الباحثين الذين يقومون بالملاحظة بالمشاركة تصوراً مشوشاً حول ما يُعد بحثاً، وما لا يُعد بحثاً، وذلك لأن الإثنوجرافيين يقومون بملاحظة الحياة اليومية وقد يقومون بتوليد الأفكار وجمع البيانات من الناس في كافة أنواع الأحوال (كحالة الجرسونة في أحد المطاعم، وحالة رفيق السفر على إحدى الطائرات، وحالة الشخص الذي له ابن في نفس سن ابن الباحث). وقد لا يكون هؤلاء الباحثون على علم مسبق بما هي المعلومات التي سوف تظهر في طريقهم والتي قد تثبت بصورة جلية أنها نافعة، سواء أكان ذلك في نفس وقت إجراء الملاحظة أو في المستقبل. (ص ٤٠).

يُضاف إلى ذلك، أنه يوجد في كثير من الأحيان ارتباط شخصي جداً بالمبحوثين لا يوجد بنفس الدرجة في البحث الطبي الحيوي، الأمر الذي يؤدي، وبصورة أكثر وضوحاً، إلى احتمال حدوث الاستغلال الشديد للقوة، والتأثير، والسلطة خلال عملية البحث.

وتُوجد بعض الأمثلة "التقليدية" للانتهاكات الصارخة للأخلاقيات المذكورة في الدوريات التي تنشر البحوث العلمية السلوكية والاجتماعية على السواء. ولعل واحداً من هذه الأمثلة الفظيعة يتمثل من مشروع بحثي أجرى سنة ١٩٦٣ عن موضوع "الإذعان للسلطة"، والذي قام به عالم النفس ستانلي ميلجرام Stanley Milgram. فقد أراد ميلجرام أن يفهم حقيقة الظروف التي في ظلها يُطيع الأفراد الشخصيات صاحبة السلطة. وكان بروتوكول بحثه يستلزم خداع المبحوثين المتطوعين بجعلهم يتصورون أنهم مشتركون في تجربة عن موضوع أثر العقاب على الذاكرة. حيث يبدأ المتطوعون بقراءة

مجموعة من قوائم الكلمات ذات المعانى المترابطة على الأفراد المشاركين للباحث فى إجراء بحثه، وذلك فى ظل تشكيلة متنوعة من الظروف التجريبية:

- (١) حيث لا يستطيعون أن يروا أو يسمعوا الشخص المشارك،
- (٢) وحيث يستطيعون أن يسمعوا احتجاج الشخص المشارك ولكنهم لا يرونه،

- (٣) وحيث يستطيعون أن يروا ويسمعوا الشخص المشارك،
- (٤) وحيث تتكرر نفس ظروف الموقف رقم (٣) باستثناء أن المبحوث كان مطالباً بأن يضع يد الشخص المشارك على شريحة الصدمات "الكهربائية".

فإذا عجز المشاركون عن تكرار هذه الكلمات، طُلب من المتطوعين أن يُسلطوا عليهم "صدمة كهربية"، وحيث يرفعون مقدار الجهد الكهربى عند صدور كل إجابة خاطئة، وذلك لكى يزدوا من سرعة تعلمهم. وكان موضوعاً أمام المبحوثين مقياس زائف للجهد الكهربى، عليه قراءات "تبدأ من الصدمة الخفيفة وتنتهى بالصدمة الشديدة"، كما توجد علامة للتحذير من خطورة استعمال هذا الجهاز موضوعة بجانب المقياس. وقد احتج بعض المبحوثين عند سماعهم المشاركين يشكون من الألم ومن بعض المشكلات الصحية. وحتى على الرغم من أن بعض المتطوعين أرادوا أن يتوقفوا عن الاستمرار فى التجربة، أصر المشرف على البحث على أن يستمروا، قائلاً إنه (أى هذا المسئول) يتحمل المسئولية كاملة. ومع ذلك، فإن بعض المبحوثين (المتطوعين فى تنفيذ التجربة) لم يحتجوا بل واصلوا التنفيذ إلى درجة أنهم سلطوا ما كانوا يعتبرونه أشد الصدمات قوة على شخص أحد المشاركين، وذلك حتى عندما لم ينتلقوا أى مؤشرات تفيد أن هذا الشخص (المشارك) لا يزال على قيد الحياة (مليجرام، ١٩٦٣).

لقد خدعت تجربة مليجرام مبحوثيه المتطوعين وقصرت فى الحصول على موافقتهم القائمة على معرفة صحيحة بما يدور. ولم يسمح بروتوكول هذه التجربة للمبحوثين أن يتوقفوا عن مواصلة التنفيذ حتى عندما احتج بعضهم على التجربة وطلبوا إيقافها. يُضاف إلى ذلك أن بعض المبحوثين عانوا من

الكرب النفسى لعلمهم أنهم قد يسلطون فعلاً ما يُمكن أن يُعتبر صدمة كهربية مميتة لإنسان آخر.

المأزق الأخلاقى للبحث السرى (المستتر)

يذهب بعض الباحثين إلى أنه من الضروري أن يجروا بحثهم بطريقة "سرية" (مستترة) covert، حتى يحصلوا على المعلومات التى يحتاجون إليها لفهم حقيقة بعض الظواهر الاجتماعية. مثال ذلك، أن بعض الباحثين قد ذهبوا متخفين لدراسة بعض الثقافات الخفية أو السرية كثقافة المخدرات (انظر ويليامز Williams، ١٩٩٦) واستعملوا الخداع ليطلعوا على الخفايا الداخلية للحياة الاجتماعية لتجار المخدرات ومتعاطيها، حيث كانوا كثيراً ما يلاحظون الأفراد وهم منهمكون فى هذه الأنشطة غير المشروعة، كما كانوا يجدون أنفسهم أحياناً مدعويين للمشاركة فى هذه الأنشطة نفسها. ولا مجال هنا لطلب الحصول على موافقة عن علم من هؤلاء الأعضاء فى هذا المجتمع المغلق، إذ الأرجح تماماً أنهم ليسوا راغبين فى دراسة تنظيمهم هذا. ويشير ويليامز، الذى قام بالملاحظة المشاركة فى ثقافة فرعية لتجار الكوكايين ومتعاطيه فى النوادى المسائية فى وسط المدينة، يشير قائلاً:

كُنْتُ موجوداً فى أحد نوادى مدينة بروكلين حيث كان من الواضح علىَّ أننى لست من متعاطى الكوكايين. كما بدا أننى كنت مقبلاً على المكان بدرجة مُفرطة. إذ كنت مغالياً فى التحديق فى الناس وكنت ألقى الكثير جداً من الأسئلة. وهنا جاءنى أحد ملاك النادى وقال: "أنصت أيها الرجل، إن كنت متخفياً (يقصد: شرطياً متخفياً - المترجم)، فعندى من يستطيعون التعامل معك". ولم أكن متأكداً مما إذا كان الرجل يقصد بالتعامل القوة أو يقصد رشوتى، إلا أننى - على أى حال - توقفت عن الذهاب إلى هذا النادى... وبوصفى باحثاً، فقد كنت أعرف ما هى البيانات التى أحتاج إليها: وهى معلومات عن متعاطى الكوكايين وعن حياة الليل المحيطة بهم، والأساطير المتداولة فى الشوارع حول تعاطى الكوكايين... ولكن، وكما يعرف معظم الباحثين، يتعين عليك أن تقدم المقابل فى كل موقف من مواقف

البحث... فقد كان يُطلبُ منى تقديم بعض الخدمات، كأن أقرض بعضهم مالا، أو أعثر على الأخصائيين الاجتماعيين الذين يقدمون لهم يد المساعدة... وفى كثير من الأحيان كان يُطلبُ منى المشاركة فى بعض الأعمال غير المشروعة... وقد وضعتنى هذه الطلبات وأمثالها فى وضع حرج (ويليامز، ١٩٩٦، ص ٣٠).

- هل من الأخلاق أن تتخفى؟
- هل من الأخلاق أن تشترك فى أنشطة غير مشروعة تحت قناع البحث العلمى؟

وبوسع المرء أن يتخيل هؤلاء العلماء الاجتماعيين وهم يدرسون السلوكيات المنحرفة، كالحياة فى العالم الخفى للتجارة غير المشروعة فى المخدرات، ومدى صعوبة الحصول على الموافقة الصريحة (عن علم) من كل امرئ مشترك فيها، للوصول إلى دراسة المسارات الخفية لهذه التجارة المحرمة فى المخدرات.

- ما الذى يفعله الباحث عندما يواجه معلومات أو مواقف يلاحظ فيها تورط بعض الأفراد فى انتهاكات كبرى للقانون؟
- هل الباحث ملزمٌ خلقياً بالتبليغ عن مثل هذه الأفعال؟
- ماذا عن المخاطر التى يتعرض لها الباحث فيما يتصل بحياته الخاصة إن هو تصرف بهذه الصورة؟

ولا يلزم أن يحدث الخداع فى البحث عن طريق "التخفى" فى تنفيذ المشروعات البحثية. فقد كانت تجربة ميلجرام دراسة فى الخداع. فمنذ البداية، لم يوضح ميلجرام بأمانة طبيعة التجربة، كما أنه خدع المبحوثين فجعلهم يتصورون أنهم يُسلطون - فعلاً - صدمات كهربية على إنسان آخر. كما أن هناك بعض طرق البحث الكيفية فى العلم الاجتماعى - كالعمل الميدانى مثلاً - تتطلب هى الأخرى نمطاً ما من الخداع بين الباحث والمبحوثين. ويحكى عالم الاجتماع هربرت جانز H. Gans، الذى قام بإجراء عمل ميدانى فى بارك فورست Park Forest (وهى ضاحية قريبة من شيكاغو) وفى منطقة وست إند West End فى بوسطن Boston، وفى ليفيتاون Levittown،

(وهى ضاحية بنيجورسى New Jersey)؛ يحكى تأملاته الشخصية فى القلق الذى عاناه مما اكتشف أنه "الخداع المتأصل فى طبيعة الملاحظة المشاركة"، فيقول:

بمجرد أن يتمكن الباحث الميدانى من الدخول إلى الجماعة، يميل الناس إلى نسيان أنه موجود ويتخلون عن حذرهم منه، إلا أنه لا يتخلى عن حذره منهم. ومهما بدا عليه أنه مشارك لهم، فإنه - فى الحقيقة - موجود فى هذا المكان ليلاحظ بل ليراقب ما يحدث عندما يتخلى الناس عن حذرهم. وتجده منغمساً فى مواقف ذات طابع شخصى يكون هو فيها، من الناحية العاطفية، الآخذ (المستفيد) دائماً دون أن يعطى أبداً، وذلك لأنه موجود فى هذا المكان ليتعلم، ومن ثم فهو موجود ليأخذ من الناس الذين يدرسه. فهم يزودونه دائماً بالمعلومات، ونادراً ما يتلقون شيئاً فى المقابل. حقيقة أنهم يشعرون بشيء من الرضا كونهم محل دراسة واهتمام، إلا أنهم عندما يسألون هذا الملاحظ المشارك أن يُعطى - كأن يُقدم عوناً أو نصيحة مثلاً - فلا بد عادة أن يرفض حتى يحافظ على حياده. زد على ذلك، أنه حتى على الرغم من أنه يبدو عليه أنه يُعطى من نفسه عندما يشارك، فإنه لا يفعل ذلك فى الحقيقة، ومن ثم فهو يخدع الناس الذين يدرسه. وهو يدعى أنه يشارك عاطفياً بينما هو لا يفعل ذلك؛ وهو يقوم بالملاحظة حتى عندما لا يبدو عليه أنه يلاحظ، وهو - شأنه شأن الباحث الرسمى الذى يقوم بإجراء المقابلات - يطرح الأسئلة التى يهدف من طرحها إلى تحقيق أغراض خفية يغلب على مستجيبه أن يكونوا غافلين عنها. ومُوجز القول إن الملاحظ المشارك يتصرف - سيكولوجياً - على نحو مُضلل، فهو يخدع الناس فيما يتصل بحقيقة مشاعره، ويخدعهم عندما يقوم بملاحظتهم فى الوقت الذى لا يعلمون فيه أنه يلاحظهم، فهو يتجسس فعلاً عليهم (Gans, 1982, p. 59).

ويقدم هيربرت جانز وجهة نظر خاصة عن دور الباحث كمشارك فى تجربة البحث الميدانى. ومؤداها أن الفكرة التى نقول إن على الباحث أن يبقى محايداً، و"منفصلاً" عن المبحوث، إنما تريد أن تقنعا بأنه يأمل فى تحقيق هدف "الموضوعية" فى عملية البحث. ويضاعف من هذه الموضوعية ذلك

الخداع الذى يجرى للمبحوثين. ولكننا رأينا فى العرض السابق، أن هذا الإطار البحثى "الموضوعى" ليس سوى واحد فقط من النماذج النظرية العديدة التى يستطيع المرء أن يستهدى بها فى تجربة البحث الميدانى. ويوجد من المفكرين من يؤمن بأن الباحث لا يحتاج إلى أن يحافظ على وجود مسافة بينه وبين المبحوثين. بل إن آن أوكلى Ann Oakley (١٩٨١) تنتقد هذا النموذج من الحياد، وتذهب إلى أنه - بدلاً من هذا الحياد - ينبغى عبور هذا الخط الفاصل بين الباحث والمبحوثين عن طريق التعاطف والتآلف. ويشعر إثنوجرافيون آخرون أن هذا النوع من التقارب بين الباحث والمبحوثين له مشكلاته أيضاً، كما يشعرون بأن من المحتمل أن يقترب الباحث من المبحوثين بدرجة أكثر من اللازم. وهنا يمكن أن يؤدى هذا الوضع - بدوره - إلى سلسلة من المنازعات وأشكال الخداع. وتعلق الإثنوجرافية جوديث ستاسى Judith Stacey على ذلك قائلة:

... إن الأمر المثير للسخرية الذى أحس به الآن هو أن طريقة البحث الإثنوجرافى (الميدانى) تُعرض المبحوثين لقدر من المخاطر والاستغلال أكبر بكثير مما تُعرضهم له طرق البحث ذات التوجهات الموضوعية، والتجريبية، والذكورية". ذلك أنه كلما زادت الألفة - أى كلما زادت العلاقة المتبادلة الظاهرة بين الباحث/ والمبحوثين - تعاظم هذا الخطر (J. Stacey, 1991, p. 114).

وتلاحظ ستاسى أنها كلما أصبحت أشد اندماجاً مع مبحوثيها، أصبحت أكثر تعرضاً لمواقف داخل هذا الميدان قد تلجئها إلى التلاعب بمبحوثيها وخداعها لهم (ص ١١٣). لذلك فإن بوسعنا أن ندرك أن قضية الإفصاح^(*) وقضية الثقة التى يوليها المبحوثون للباحث تمثلان قضيتين فى غاية التعقيد فعلاً.

(*) يلاحظ أن دلالة لفظ "الإفصاح" disclosure تتسع لمعنيين: أولهما: إفصاح الباحث للمبحوثين عن مقاصده الحقيقية من البحث، وهو المعنى المناسب للسياق المذكور قبل هذا بقليل، وثانيهما: إفصاح الباحث عن الأشخاص الذين هم مصادر معلوماته، وهو المعنى المناسب للسياق التالى، والمذكور بعد ذلك بقليل. (المراجع)

وقد يذهب البعض إلى أن الأمر قد يتطلب قدراً معيناً من الخداع "الاستراتيجي" عندما يكون الباحثون مهتمين اهتماماً خاصاً "بدراسة عليّة القوم" (انظر كورن Korn، ١٩٩٧) شاهد ذلك أن دراسة جماعات الصفوة ليست بالأمر الشائع في العلوم الاجتماعية (وبالنسبة للحالات الاستثنائية، انظر (Hertz & Imber., 1995 and Odendahl & Shaw, 2002). فالأفراد الذين تتكون منهم الصفوة وأشباه الصفوة يحتلون مواقع مهمة في المجتمع، ومع ذلك تظل أنشطتهم وقوتهم غير منظورة أو غير معروفة للمواطن العادي. وتحافظ فئات الصفوة على خصوصيتها عادة من خلال عدد كبير جداً من الحواجز التي يفرضونها على أنفسهم، والتي تتراوح بين عدم تسجيل أرقام تليفوناتهم في أدلة التليفونات وعدم ذكر عناوين بريدكم الإلكتروني في قوائم هذا البريد، واستئجارهم لمساعدين لهم يحجبون عن الناس ما يقومون به من مكالمات تليفونية واتصالات، وتوظيفهم لموظفي أمن ليمنعوا عنهم كل من لا يرغبون في الاحتكاك بهم من خارج نطاق ثقافتهم النخبوية.

ويشير أدلر وأدلر (٢٠٠٢) إلى أن مجالس الفحص والمراجعة والاتحادات المهنية الحالية التي تخشى أن ترفع عليها دعاوى قضائية قد وضعت مواثيق أخلاقية تحظر حالياً كافة مظاهر البحث السري (المتخفي)، مستغلة الحجة التي تقول إنه يكاد يكون من المحال الحصول على الموافقة الصريحة (عن علم) من المبحوثين. أضف إلى ذلك أن هذه الهيئات تعجز عن حماية الباحث من إجباره على الإفصاح عن شخصية مبحوثيه، في حالة مطالبته بهذا من قبل الموظفين الرسميين الذين يُجرون تحقيقاتهم في نتائج بحثه. وفي هذا المعنى يقول أدلر وأدلر:

من الواضح أنه يتعين إجراء تغييرات معينة إذا علمنا أننا لا نستطيع حماية مبحوثينا من التحقيقات الرسمية بما يحول دون دخولنا أو دخولهم السجن، وهو أمر لا يرغب فيه أي إنسان. فهل يكون هذا النظام الجديد هو الطريقة المثلى؟ إذ لو أنك أسدلت على بحثك ستاراً كثيفاً منذ البداية، فلن يُصيب مبحوثيك أي خطر، لأن الباحثين (الآخرين) لن يعرفوا في هذه الحالة شيئاً. (ص ٤٢)

ويتأمل جونسون وألتايد (Johnoson and Altheide, 2002) موضوع الأخلاقيات المهنية، في ضوء ما لهما من خبرة مشتركة على امتداد ٦٥ سنة كأستاذة جامعيين. ويرزان في حديثهما افتقاد العلماء الاجتماعيين الحماية القانونية فيما يتصل باحتفاظهم بسرية مصادر معلوماتهم، ويعتبران هذا الوضع قضية "سياسية" وليست قضية أخلاقية، فيقولان:

في الولايات المتحدة، يحمي التعديل الأول للدستور الصحفيين بكفالاته حرية التعبير وحرية النشر لهم. ويفتقد العلماء الاجتماعيون مثل هذه الحماية المتصلة بسرية مصادرهم. ومن هنا نتصور أنه من الأفضل النظر إلى هذا الوضع باعتباره وضعاً سياسياً، وليس وضعاً أخلاقياً. ولو أن الباحثين الاجتماعيين كانوا يحظون بمثل هذه الحماية، فإننا نظن أننا كنا سنواجه مجموعة مختلفة من القضايا الأخلاقية، من قبيل القضايا المتصلة بمدى إساءة استعمال العلماء الاجتماعيين لمثل هذه الحماية الدستورية الممنوحة لهم. (ص ٦٩)

ويذهب أدلر وأدلر (٢٠٠٢) إلى أن المجالس أو الهيئات المسؤولة عن مراقبة المسائل الأخلاقية قد تجاوزت حدود وظيفتها، مما أدى إلى ظهور نتيجة لم تكن في الحسبان، وهي محاباتها للطبقات المسيطرة على حساب الطبقات الضعيفة: "ففي وقتنا هذا، تستطيع جماعات الصفوة القوية أن تخفي - بطريقة أفضل - آلياتها في التحكم في حياة الآخرين، بينما فقدت الجماعات الضعيفة التي لا قوة سياسية لها القدرة على التعبير عن أحوال أفرادها من وجهة نظرهم الخاصة" (ص ٤٠). ويتفجع هؤلاء الباحثون (المدافعون عن إجراء البحوث السرية) حزنًا على أن هذه البحوث، والتي منها مثلاً البحث الذي أجراه إرفنج جوفمان Erving Goffman (١٩٦١) ونشره في مؤلفه الكلاسيكي، بعنوان "مصحات الأمراض العقلية"، والذي يزود القراء برؤية إجمالية للمعاملة التي يلقاها المرضى العقليون من القائمين على رعايتهم؛ والتي منها كذلك البحث الذي نفذه جاري ماركس Gary Marx (١٩٨٨) في مجال أنشطة أجهزة الضبط كالشرطة مثلاً؛ نقول: يتفجع هؤلاء الباحثون حزنًا على أن هذه البحوث لن يعود بالإمكان إجراؤها في ظل هذه التوجيهات الأخلاقية الجديدة.

وقد وضع هاجرتى Haggerty يده على ما أسماه ظاهرة "الزحف الأخلاقي" ethics creep الذى سيطر على البحث العلمى الاجتماعى "باسم الأخلاق". وهو يُعرف هذا المصطلح كما يلى: "يتميز هذا الزحف الأخلاقي بعملية مزدوجة تتوسع بمقتضاها المنظومة المتحكمة لتستوعب داخلها عدداً كبيراً من الأنشطة والمؤسسات الجديدة، وذلك فى نفس الوقت الذى تزيد فيه من وطأة تحكمها فى الأنشطة التى تعد داخلة فى نطاق مجالها أصلاً" (ص ٣٩١).

باحث للبيع؟: صراعات المصالح فى عملية البحث

يقع الباحثون الأكاديميون تحت ضغوط من جامعاتهم ليجتنبوا عن المنح اللازمة للبحث ويحصلوا عليها. ويأتى المزيد والمزيد من هذه المنح من المؤسسات التجارية، والى منها شركات الأدوية مثلاً:

أدت الزيادة الحادة فى البحوث التى يمولها القطاع الخاص (أى قطاع الصناعة) إلى خلق مناخ تتولد عنه الصراعات الناجمة عن البواعث المالية التى لا تقاوم. وقد تنشأ هذه الصراعات بسبب العلاقات المالية التى يقيمها الباحثون مع الشركات التى يدرسون منتجاتها، سواء أكانت الحكومة هى التى تمول البحث أم كانت هى الشركة نفسها. (Alvino, 2003, p. 906).

وفى بعض الحالات تتغمس الجامعات فى بعض المصالح البحثية الصناعية. وتشير أنجل Angell إلى مشكلة كيف أن علم الطب الأكاديمي قد أصبح معروضاً "للبيع"، فنقول:

يلاحظ أن المعاهد الطبية الأكاديمية أصبحت تدين بالفضل بصورة متزايدة للشركات الصناعية. وقد دخلت بعض المعاهد الأكاديمية فى شراكات مع شركات صناعة الدواء لإقامة مراكز بحثية ووضع برامج تعليمية يقوم فيها الطلاب وأعضاء هيئات التدريس الجامعيون - أساساً - بتنفيذ البحوث الصناعية. ويرى كلا الجانبين أن هذا الوضع يحقق فائدة عظيمة لكل منهما. فهو يعنى توفير المال لمراكز البحث الطبية التى تتصارع فيما بينها للحصول على الأموال. وهو يعنى عند الشركات التى تصنع الأدوية والمعدات الطبية الانتفاع بأصحاب المواهب فى البحث، وكذلك الانتفاع بالانتساب إلى إحدى الجهات المحترمة. (ص ١٥١٦)

ومن الممكن في بعض الحالات أن يكون لأعضاء يعملون بمجالس الفحص والمراجعة التابعة لإحدى الجامعات مصلحة قوية في نفس الدراسات التي يقومون بالإشراف عليها. وفي هذا يقول ألفينو:

على الرغم من أنه من المفترض أن يُحظر على أعضاء مجالس الفحص والمراجعة فحص أى مشروع بحثي أو دراسة يكون لهم فيها مصالح متعارضة... مع ذلك لا يوجد سبيل للتأكد من أن جهة البحث أو الباحثين لا يعملون مع وجود مثل هذه المصالح المتعارضة. (Alvino, 2003, p. 902)

وقد استشهدت مجلة لوس أنجلوس تايمز L. A. Times في مقالة لها بدراسة لجامعة ييل Yale تذكر فيها أن "رُبع الباحثين في مجال الطب الحيوى في الجامعات لهم ارتباطات تجارية بلغت من القوة حداً يستدعى إثارة التساؤل عن وجود تعارض مصالح مالية:" (Hotz, 2003, p. 14) نقلاً عن ألفينو، ٢٠٠٣، ص ٩٠٢). من تلك التساؤلات:

- ما هي الدلالات الخفية الضمنية لقبول التمويل من أجل البحث؟
- كيف يستطيع الأكاديميون ومجالس الفحص والمراجعة أن يعملوا معاً على أعلى درجة من الفعالية؟
- كيف تستطيع مصادر التمويل، كالمؤسسة القومية للعلوم (NSF)^(*) أو المعهد القومي للصحة العقلية (NIMH)^(**)، كيف تستطيع أن تخفف من حدة التوترات بين تمويل البحث والجوانب الأخلاقية؟

المآزق الأخلاقى: الولاء الموزع

يتحدث بل Bell ونُت Nutt (٢٠٠٢) عن "ولاءاتهما الموزعة" بمعنى أن التزامهما المهني والتزامهما الوظيفي يشدهما في اتجاهات كثيرة مختلفة عن بعضها، مما يسبب لهما مآزق أخلاقية تتبع من الأدوار المتعددة التي يؤديانها ويحملها معهما إلى مجتمع البحث. وتصف "نت" كيف أن دورها

(*) The National Science Foundation.

(**) The National Institute of Mental Health.

المهني كأخصائية اجتماعية مؤهلة "مقيدة بالموثيق العامة لممارسة مهنة الخدمة الاجتماعية" (ص ٧٩) يتعارض مع دورها كباحثة، فتقول إنها:

لاحظت "ليندا نت" أثناء مغادرتها لمنزل أسرة بديلة اختيرت حديثاً لرعاية أطفال محرومين بعد فراغها من إجراء مقابلة معهم وجود صورة جنسية مكشوفة على نحو لا غموض فيه معلقة بمدخل الصالة. وليس من شأن هذه الصورة أن تمثل مشكلة عند أغلب الباحثين؛ فالفن مسألة ذوق شخصي. إلا أن "ليندا نت" لم تكن مجرد باحثة، بل كانت - كذلك - أخصائية اجتماعية مسئولة. ونظراً لأنه يحدث في كثير من الأحيان أن الأطفال عندما يوضعون لدى أسر بديلة ترعاهم، فإنه لا يتوافر للباحثين من المعلومات عن خبراتهم الحياتية إلا القليل، لذلك يتم لفت نظر هذه الأسر البديلة إلى افتراض أن جميع مثل هؤلاء الأطفال قد تعرضوا لانتهاكات جنسية، ما لم يُنص صراحة على غير ذلك في حالات خاصة... وتوجد مسؤولية قانونية تترتب على التغاضي عن السرية عندما يكون الأطفال معرضين للخطر. ورغم ذلك، فإن "ليندا نت"، نظراً لرغبتها في الحفاظ على دورها واضحين ومنفصلين - وهما دورها كباحثة (لديها معلومات) وليست كموظفة ... (تستطيع أن تعطي هذه الأسر شيئاً من المعلومات) - لذلك - أثرت "ليندا" ألا تناقش هذه القضية مع أفراد هذه الأسرة البديلة الجديدة، غير أنها أمضت أياماً عديدة تقلب النظر في هذا المأزق الأخلاقي. وفي النهاية تغلبت شخصية الأخصائية الاجتماعية المؤهلة على شخصية الباحثة، وأخبرت "ليندا نت" السلطة المحلية بقلقها من هذه الصورة وتأثيرها المحتمل على الأطفال الموضوعين تحت رعاية تلك الأسرة (ص ٧٩).

يستعمل بعض الباحثين أساليب بحثية تثير قضايا أخلاقية تتعلق بالطريقة التي يُعامل بها المبحوثون. ويشير هومان Homan إلى ما يُسميه أساليب البحث المتبعة "لتلئين" (ربما بمعنى "استدراج" - المترجم) المبحوثين للحصول منهم على المعلومات الشخصية التي قد يكونوا غير راغبين في البوح بها، فيقول:

يتجلى ما تتصف به أساليب البحث (المتبعة لتلئين المبحوثين) من مكر ودهاء في استخدام بعض الأسئلة الخارجة عن الموضوع والتي يحتفظ بها

الباحثون حتى المراحل الأخيرة من المقابلات واستيفاء بيانات الاستبيانات، والتي يكون فيها المبحوثون أكثر طواعية: حيث تسعى هذه الأساليب إلى الوصول - بحد - إلى نوع من الموافقة العامة من المبحوثين ومن والديهم والحصول على إقرار منهم بذلك (Homan, 1992, p. 328).

وفي كثير من الأحيان يتطلب البحث الكيفي - وبحكم طبيعته الذاتية - الارتباط العاطفي بأولئك الذين نبني المعرفة بواسطتهم. وتناقش جين دونكومب وجولي جسوب (Jean Duncombe & Juli Jessop, 2002) كيف يمكن أن يَفْقِدَ بعضُ الباحثين التعاطفَ مع المبحوثين الذين يدرسونهم ويتظاهرون - زيفاً - باهتمامهم وانشغالهم بهم. وتصف دونكومب كيف آل بها الأمر في التعامل مع بعض المبحوثين في مشروع بحثي^(١) كانت تشرف عليه:

... تبين لنا أنه من العسير تحقيق الألفة عندما لا تَشْعُرُ بالتعاطف التلقائي مع الأفراد الذين تُجري المقابلات معهم. مثال ذلك ما حدث في دراسة سابقة عن "مشاريع تدريب الشباب" (YTS)^(٢)، فقد أحسَّتْ "جين" أنها أقامت نوعاً من الألفة "الصادقة" - وإن كانت غير عميقة - مع المتدربين في هذه المشاريع ومع أصحاب العمل ذوي الأمانة ممن ينظرون إلى عملية التدريب بجدية، وذلك لأنها كانت "منحازة لهم". ولكنها في تعاملها مع أصحاب العمل والمدرِّبين الذين يتصفون بكثير من الاستغلالية (والذين لم يوفرُوا للشباب فرص العمل ولا التدريب)، أدركت أنها كانت تتظاهر بالمودة معهم "لِتَحْدِثَهم" حتى تكشف معاييرهم المزدوجة، كما أنها في بعض الأحيان، وأثناء تَبَسُّمها في وجوههم، كانت تكاد تسخرُ من نفسها، وهي تفكر متعجبة: "يا لهُ من دليل كاشف". ... فقد كانت "جولي" تشعر بالقلق وبأنها مُعْرَضَةٌ شخصياً لتغمس في هذا، عندما اكتشفت أنه لكي تجري مقابلة ناجحة ربما يستلزم الأمر أن تَبْسِمَ، وأن تُومئ برأسها علامة على الموافقة، وبذلك تتواطأ مع وجهات نظرٍ تعارضها بقوة. (Duncombe & Jessop, 2002, p.115).

(١) Youth Training Schemes.

والباحثون إنما هم بشر يشبهون سائر البشر. لذلك فإننا جميعنا نجلبُ معنا إلى مشاريعنا البحثية جميع ما نحبه وما نكرهه من الأمور، وجميع قيمنا ودوافعنا. وليس من الواقعية أن نتوقع أنك سوف تُحبّ -دائماً- أولئك الذين تدرُسهم، أو أنك سوف تشعرُ شعوراً طبيعياً دائماً بأنك مُرتبط بهم مائة في المائة. أما وقد أتينا على ذكر تلك الحقيقة، فلا تنسُ أنك أنت، أيها الباحث، الذي بدأتَ هذه العملية وضممت إليها الآخرين (الذين هم مبحوثوك). فتفكّر جيداً في هذه الحقيقة وأنت تتأمل في التزاماتك الخلقية نحو من تقوم بدراساتهم، ولكن عليك وأنت تفكر في هذه القضايا، أن تفكر كذلك في "إنسانيّتك" الخاصة بك - أي كُن واقعيًا وعادلاً مع كل أطراف العملية البحثية.

هل الموافقة عن علم هي الحل للانتهاكات الأخلاقية في ممارسة البحث؟
من المبادئ الأساسية التي تركزُ عليها كثير من السياسات الأخلاقية التي تصدت - تاريخياً - لقضية "كيفية معاملة المبحوثين" ذلك الأسلوب المتبع في الحصول على "الموافقة عن علم"، وأعني به حق المبحوثين في أن يقرروا - وبدون الإفصاح عن هوياتهم - ما إذا كانوا يرغبون في الاشتراك في مشروع بحثي ما، أم لا. (Faden & Beauchamp, 1986) ويتشكك بعض المهتمين بأخلاقيات البحث ما إذا كان الحصول على الموافقة عن علم قد كفل دائماً للمبحوثين الحفاظ على سرية هويتهم. (Cassileth, Zupkis, Sutton Smith & March, 1980) -، إذ تدلنا كثير من البحوث على أن المبحوثين لا يدركون دائماً -مثلاً- الجوانب الطبية للمشروع الإكلينيكي الذي يشاركون فيه، بل إن بعضهم قد لا يعلم أصلاً أنهم مشاركون في إحدى التجارب البحثية (Lynoe, Sandlund, Dahlqvist & Jacobsson, 1991. See also Applebaum, Roth, Lidz, Benson & Winslade, 1987)

وكما رأينا في موضع سابق من هذا الفصل، فإن هناك كثيراً من الحالات التي يحدث فيها تقصير عن الكشف التام للمبحوثين عن المدى الكامل للمخاطر والفوائد المترتبة على المشاركة في إحدى الدراسات. وقد أدت مثل هذه الأوضاع إلى عواقب كارثية لبعض البحوث أصابت بعضاً ممن شاركوا في التجارب الإكلينيكية والبحوث الحيوية. فنحن إذن أمام ممارسة لتوفير

الموافقة عن علم وواقع مختلف عن ذلك فعلاً. فثمة اختلاف كبير في مدى سلامة الأسلوب الذي يتبعه الباحثون في تنفيذ سياسة الحصول على الموافقة عن علم في مشروعاتهم البحثية الجارية. وكشاهد على ذلك، نقدم نمطين من الخطابات الخاصة بالحصول على الموافقة عن علم والتي يمكن أن يكتبها الباحث للوالدين بخصوص اشتراك طفلهما في مشروع بحثي عن صورة الجسد. ونلاحظ أن "الخطاب أ" يحتوي على بيان أكثر تفصيلاً لموضوع البحث، بما في ذلك ذكر بعض أهداف البحث وشرح للطريقة التي سيُنفَّذ بها.

الخطاب (أ)

أعزائي الوالدين

اسمى _____ وأنا متخصص في علم الاجتماع وأعمل مدرسا بكلية _____. وقد سبق لي القيام بدراسات عديدة عن تقدير الذات عند الفتيات الصغيرات. وأقوم في الوقت الحالي بدراسة عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات الأمريكيات السود والبيض في مرحلة ما قبل المراهقة وفي سنوات المراهقة. وإني أو من إيماناً راسخاً بأنه من الضروري أن تضمّ دراستي عينة من الفتيات الأمريكيات السود. وأعرف من واقع خبرتي أن اتجاهات ومعتقدات هذه المجموعة المهمة قد أهملت إهمالاً شديداً في أغلب الأحيان. لذلك فهن في حاجة إلى إسماع أصواتهن، وهذا هو السبب الذي جعلني أكتب إليكم اليوم، لأطلب منكم مساعدتكم وموافقتكم على إجراء مقابلة مع ابنتكم. كما أود أن أحظى بلحظة من وقتكم لأذكر لكم طرفاً من المعلومات الإضافية عن هذه الدراسة.

وإني أعترز مقابلة هؤلاء الفتيات في المركز الصحي لنتناول شيئاً من البيئزا والمياه الغازية بعد ساعات الدراسة في مجموعات تتكون كل واحدة منها من ثلاث أو أربع فتيات للردشة في موضوع تقدير الذات وصورة الجسد. فإذا اختارت ابنتكم المشاركة، وذلك بعد إذنكم لها، فإن المقابلة لن تستغرق أكثر من ٤٥ دقيقة، كما أن مشاركتها ستكون طوعية تماماً.

وسوف يقوم هذا المشروع البحثي بدراسة اتجاهات الفتيات في مرحلة ما قبل المراهقة والفتيات المراهقات إزاء صورة الجسد وتقدير الذات. ومن الأسئلة التي سوف تستطلع هذا الأمر ما يلي:

(١) ممَّنْ ومنَ أينَ تتعلَّمُ الفتيات اللاتي دون سن المراهقة الأفكار والتصورات المتعلقة بصورة الجسد وتقدير الذات؟ مثال ذلك، ما هو دور الأقران (جماعات الرفاق) ووسائل الاتصال الجماهيرية في التأثير على اتجاهات الفتيات الصغيرات والفتيات المراهقات نحو وزن الجسم وصُور الجسد عندهنَّ؟

(٢) ما هي العوامل (إن وُجدت) التي يبدو أنها "تَحْمِي" الفتيات الصغيرات والمراهقات من الإحساس بهبوط مستوى تقديرهن لذواتهنَّ، وما هي العوامل (إن وُجدت) التي تساهم في إحداث نوع من الإحساس المتنني بتقديرهن لأجسادهنَّ؟

وإني أتصور أن هذه الدراسة تمثل فرصة فريدة. فنحن - كما قلت سابقاً - في حاجة إلى إعطاء الفتيات السود والمجتمع الأسود صوتاً أقوى للتعبير عن أنفسهم. وإني لأؤمن أن مشروعني كفيل بتحقيق ذلك. بل إن الأهم من ذلك، أنني أؤمن أن توفير فرصة للفتيات للالتقاء معاً للدردشة مع الأصدقاء والأقران حول قضايا الهوية السوداء وتقدير الذات سوف يكون بمثابة آلية لتمكين المرأة السوداء عموماً.

وسوف تجدان رفق هذا الخطاب استمارة خاصة بالموافقة، والتي يتعيَّن، بناءً على قبولكما، أن تُوَقَّعَها ابنتكم وأن تُوَقَّعَها كذلك، لكي تُقدَّم إلى المركز الصحي في يوم إجراء المقابلة.

إذا كان لديكم أي أسئلة أو أي أمور تشغل بالكم، فلا تترددوا في الاتصال بي في المنزل الساعة _____ أو في المكتب الساعة _____.

شكراً لكما على ما أخذتُه من وقتكما، وإني لأتطلع إلى تلقي ردكما قريباً.

المخلص

الأستاذ الدكتور

رئيس قسم علم الاجتماع

استمارة الموافقة

أقر أنا _____ بالمشاركة في المشروع البحثي الذي يقوم به
الدكتور _____ عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات
الأمريكيات البيض والسود في مرحلة ما قبل المراهقة وفي مرحلة المراهقة.
كما أقر بأن مشاركتي طوعية تماماً وأنتي يمكن -عند الضرورة- أن
أقطع المقابلة في أي وقت ولا أكملها.
وبعد أخذ ما سبق في الاعتبار، أوافق أنا _____ ، على أن
تجري معي يا دكتور _____ مقابلة، وأنا على ثقة بأن كل هذه
المعلومات سوف تبقى في سرية تامة.

* * *

إذا كانت صاحبة هذه الموافقة دون سن ١٨ سنة، فإنه يتعين على
والدها أو الولي عليها أن يوقع عليها كذلك.

أقر أنا، _____ أن ابنتي _____ قد أعطت في
السطور السابقة موافقتها على المشاركة في المشروع البحثي الذي يقوم به
الدكتور _____ عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات
الأمريكيات البيض والسود اللاتي دون سن المراهقة والمراهقات.
كما أقر أن مشاركتها عمل طوعي تماماً، وأنه إذا أحسست ابنتي أو
أحسست أنا أنه ينبغي عليها أن تقطع المقابلة ولا تكملها، فإن لها أن تفعل ذلك
في أي وقت. وبأخذ ما سبق في الاعتبار فإنني أنا _____ أعطيك
يا دكتور _____، الإذن بإجراء مقابلة مع ابنتي، وكلتي ثقة بأن كل
هذه المعلومات سوف تبقى في سرية تامة.

* * *

أما "الخطاب ب" فنجدته أقصر كثيراً من "الخطاب أ" كما أنه يحوي كمأ
أقل من التفاصيل عن أهداف البحث، بجانب أن من العسير التيقن من كثير من
الأمور المتصلة بحقيقة أهداف هذا المشروع البحثي.

الخطاب (ب)

أعزائي الوالدين

اسمي _____ وأنا متخصص في علم الاجتماع وأعمل مدرسا بكلية _____. وأقوم حالياً بدراسة عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات الأمريكيات السود البيض اللاتي دون سن المراهقة والمراهقات.

وإني أعتزم مقابلة هؤلاء الفتيات في المركز الصحي لنتناول شيئاً من البيترزا والمياه الغازية بعد ساعات الدراسة في مجموعات تتكون الواحدة منها من ثلاث أو أربع فتيات للردشة في موضوع تقدير الذات وصورة الجسد. فإذا اختارت ابنتكم المشاركة، وذلك بعد إذنكم لها، فإن المقابلة لن تستغرق أكثر من ٤٥ دقيقة، كما أن مشاركتها ستكون طوعية تماماً.

وتجدان رفقاً هذا الخطاب استمارة خاصة بالموافقة، والتي يتعينُ، بناءً على قبولكما، أن توقعها ابنتكم وأن توقعها كذلك، لكي يتم تقديمها إلى المركز الصحي في يوم إجراء المقابلة.

وإني لأقدرُ عالياً فرصة إجراء المقابلة مع ابنتكم. فإن كان لديكم أي أسئلة أو أمور تشغل بالكم، فلا تترددوا في الاتصال بي في المنزل الساعة _____ أو في المكتب الساعة _____.

أشركما على ما أخذته من وقتكما وأطلع لتلقى ردكما قريباً.

المخلص

.....

* * *

استمارة الموافقة

أقر أنا _____ بالمشاركة في المشروع البحثي الذي يقوم به الدكتور _____ عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات الأمريكيات البيض والسود دون سن المراهقة والمراهقات.

كما أقر بأن مشاركتي طوعية تماماً وأنني يمكن - عند الضرورة - أن أقطع المقابلة في أي وقت ولا أكملها.

وبعد أخذ ما سَبَقَ في الاعتبار، أوافق أنا _____ ، على أن
تجرى معي يا دكتور _____ مقابلة، وأنا على ثقة بأن كل هذه المعلومات
سوف تبقى في سرية تامة.

* * *

إذا كانت صاحبة هذه الموافقة دون سن ١٨ سنة، فإنه يتعين على
والدها أو الولي عليها أن يوقع عليها كذلك.

أقر أنا _____ ، أن ابنتي _____ قد أعطت في
السطور السابقة موافقتها على المشاركة في المشروع البحثي الذي يقوم به
الدكتور _____ عن صورة الجسد وتقدير الذات عند الفتيات
الأمريكيات البيض والسود اللاتي ذُون سنّ المراهقة والمراهقات.
كما أقر أن مشاركتها عمل طوعي تماماً، وأنه إذا شعرت ابنتي، أو
شعرت أنا، أنه ينبغي عليها أن تقطع المقابلة ولا تكملها، فإن لها أن تفعل ذلك
في أي وقت.

وبأخذ ما سبق الاعتبار، فإنني أنا _____ أعطيك يا دكتور
_____ الإذن بإجراء مقابلة مع ابنتي، وكلي ثقة بأن كل هذه
المعلومات سوف تبقى في سرية تامة.

يحتوي "الخطاب بـ" على الحد الأدنى من المعلومات التي يمكن
تقديمها للمبحوثين. ويكفل كلا الخطابين ضمان السرية للمبحوثين، بمعنى أنه
لا يمكن استعمال أسمائهم في أي مادة مكتوبة تتعلق بالبحث أو بالمناقشات
التي تعالج المشروع البحثي، وأن المواد التي تحتوي على المقابلات (كأشرطة
التسجيل الصوتية) ستحفظ هي الأخرى في مكان آمن لا يتعرض للكشف عنه
لأحد. وهذا يعني أن الباحث وغيره من العاملين في المشروع لن يعرفوا
شخصية المبحوث، مثال ذلك، أن من حق المبحوث أن يُسلمَ الاستبيان
المستخدَم في المسح الاجتماعي من غير أن يسجل اسمه عليه.

ومع ذلك، فإن هذين الخطابين يشيران إلى بعض الأبعاد السياسية
المتضمنة في وضع الخطاب الخاص بالحصول على الموافقة الصريحة.

• لماذا يختلف الباحثون في مقدار ما يكشفونه من أهداف المشروع البحثي؟

قد لا يكون من مصلحة الباحث دائماً أن يكون مستعداً للصراحة الكاملة. بل قد يصل الأمر ببعض الباحثين إلى أن يبتعدوا عن طريقهم فيشرحوا مشروع البحث باعتباره "قصة ذات طبيعة عامة"، وقد يكون هذا الموقف جزءاً أساسياً من تكوين الخطة الأصلية للمشروع البحثي.

إن اختيار، أو اختراع، التفاصيل اللازمة لتكوين قصة ذات طبيعة عامة وإقناع المبحوثين المستهدفين، يعدُّ أحد عناصر خطة أي مشروع بحثي. ويتطلب ذلك العمل مهارات في الإقناع. إذ يكتسب الباحثون بالترجيح نوعاً من إدراك أي التفاصيل التي تهدئ المخاوف وألها التي تثير الشكوك. وكما يحدث في الأنماط الأخرى من المفاوضات، كالمساومة على تحديد الأجور مثلاً، فإن الطرف الذي يمسك بزمام المبادرة قد يعتمد إلى استخدام نوع من المناورة حيث يُبدي موقفاً قد يتنازل عنه فيما بعد، ويستلزم ضمناً وجود نوع من التعارض بين مصالح طرفي التفاوض. وقد يقوم الباحث بالكشف عن المزيد من المعلومات إذا تطلب الأمر ذلك، إلا أنه يحدث في حالات كثيرة ألا يتم التنبيه على المبحوثين أن يشرحوا أسئلة وثيقة الصلة بموضوع البحث، كما يحدث كثيراً أن ينتقل المشروع البحثي بسرعة من مرحلة التفاوض إلى مرحلة إجراء المقابلة (Homan, 1992, p. 324).

وإن حدث أن رفض المبحوثون المشاركة -أساساً- في مشروع بحثي ما، ولم يوافقوا على حق المبحوثين في العمل بصورة مستقلة، فإن هذا الوضع يعد في الغالب إخفاقاً من جانب الباحث، كما أنه يتولّد لدى الباحث حينئذ ميل لتخطيط "خطوط دفاع المبحوثين" من خلال جملة من الطرق، بدءاً بالضغوط الجماعية وانتهاءً باستغلال الصداقات. وفي هذه القضية يقول هومان:

تقوم المشاريع البحثية - بطرق مختلفة - باستغلال وجود علاقة تربطها بالهيئات صاحبة القوة أو الجهات ذات السلطة والنفوذ. شاهد ذلك أن سثرلاند Sutherland استطاعت أن تدرس أحوال مجتمع الغجر السري

والمُسْتَبْعَد - والمعهود عنه عَدَاوَهُ لِمُمَثِّلِي الْعَالَمِ الْمَوْجُودِ خَارِجَهُ - وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ اسْتِغْلَالِهَا لِذَوْرِهَا كَمُعَلِّمَةٍ لِأَطْفَالِ هَذَا الْمَجْتَمَعِ. (٣٢٥).

بل إنه يحدثُ أحياناً ألا يكون اتباع التوجيهات الأخلاقية متفقاً دائماً مع مصالح المبحوثين الذين تجرّي عليهم دراستك. وهنا يشير بايز Baez إلى المشكلة الخلقية المحيرة التي عايشها عندما أراد الاحتفاظ بسرية مبحوثيه. فقد أجرى بايز مقابلات لـ ١٦ من أفراد الأقليات ممن يعملون بالتدريس بالجامعات، وكانت هذه المقابلات تتناول خبراتهم الشخصية المتعلقة بتثيبتهم في الوظائف التعليمية بعد اجتياز مدة اختبار، وبعملية ترقيتهم في إحدى الجامعات الخاصة. ويشير إلى أن الاحتفاظ بالسرية قد يكون سلاحاً ذا حدين. فالحفاظ على سرية المقابلات - وخاصة ما تمّ منها مع أعضاء هيئة التدريس غير الدائمين - أتاحت له الحصول على معلومات وبيانات صريحة عن النزعة العرقية وعن الانحياز الجنسي للرجل داخل هذه الجامعة. وفي مقابل ذلك، منعتُ السرية من كتابة تقارير عن "التناقضات الحادة داخل منظمة تعليمية تزعم أنها تؤيد التنوع العرقي والثقافي، وذلك من واقع ما تصدره من وثائق وما يصدر عن كبار إدارييها من بيانات عامة تدّاع على الجماهير... إنني لا أستطيع أن أتصرف بهذه الطريقة بدون الشعور بأنني أميل إلى البوح بهوية المبحوثين الذين شملتهم دراستي لغيرهم داخل هذه المؤسسة التعليمية" (٢٠٠٢، ص ٣٩). ولا تنس أنك لا تعرف في كثير من الأحيان ماذا سيُعلمك بحثك، كما قد يكون من الصعوبة البالغة ألا تحاول أن تحدث تغييراً اجتماعياً في بعض الأوضاع.

ويشير باتون Patton إلى أن المبحوثين يحافظون في أيامنا هذه على حقهم في "أن يتحدثوا عن أحوالهم من وجهة نظرهم هم" (ص ٤١١) بدون إخفاء شخصياتهم، خاصة عندما يرون أن هذا المشروع البحثي بمثابة فرصة للحصول على التمكين من خلال التحدث عن أحوالهم وربّما من خلال تحويل هذا المشروع إلى حافز على التغيير الاجتماعي. ويشير باتون إلى وجود عدد من المآزق الأخلاقية الخطيرة التي تنبُع من وجهة النظر الجديدة هذه في شأن السرية:

- هل ينبغي للباحث أن يفرض السرية ويلتزم بها على خلاف رغبات المشاركين في البحث؟
- هل يجوز أن تتخذ اللجان المشرفة على المبحوثين "دور الحامي لهم وأن تحول بينهم وبين التمكين"، إذا رفضت أولئك المبحوثين الذين يرغبون في الإفصاح عن شخصياتهم؟
- هل يختار المبحوث ما يختاره مستقلاً عن الآخرين الموجودين معه في نفس الوسط الاجتماعي. وماذا عن خصوصية الآخرين المهمين لهم الذين يشاركونهم حياتهم، كالأطفال، والزوج/ أو الزوجة، وأعضاء الأسرة الممتدة؟ (ص ٤١١).

وفوق كل تلك الاعتبارات يكون بعضُ الباحثين على دراية تامة بالأخلاقيات الواجبة في الممارسة، ويحاولون استخدام الموافقة الصريحة عن علم، ومع ذلك فإنهم يواجهون بعض الصعاب. شاهد ذلك سارة ماديسون المتخصصة في علم اجتماع النسوية بجامعة نيوساوث ويلز بأستراليا، حيث تركزُ في بحوثها على دراسة النوع الاجتماعي والسياسة الاجتماعية. وقد واجهت ماديسون مشكلات مختلفة عندما حاولتها استعمال الموافقة الصريحة (عن علم) في عملها الإثنوجرافي (الميداني) مع مجموعة من الطالبات النسويات. فيها بنا ننضم إلى ماديسون خلف الكواليس:

خلف الكواليس مع سارة ماديسون

مُنذُ سَنَتَيْنِ مضتاً كُنْتُ مُشْرَكَةً فِي مَشْرُوعٍ يَدْرُسُ مَجْمُوعَةً مِنْ الطالبات النسويات تم اختيارهن من أماكن جامعية مُختلفة بِمَدِينَةِ نِيُوسَاوْثْ وَيلز. وكانت "الشبكة العامة لنساء الجامعة" (*) (CCWN) تُمَثِّلُ تحالفاً حُرّاً للنساء اللاتي كن يَجْتَمِعْنَ مرة كل أسبوعين. وفي كل اجتماع كان يوجد ما بين خمس إلى عشر نساء، وباستثناء المرأة التي تدعو للاجتماع، كان من الممكن في كثير من الأحيان أن تتغير شخصيات أولئك النساء الحاضرات في

(*) The Cross Campus Women's Network.

كل اجتماع. وكان هذا التغير في قائمة المناداة على أسماء الحاضرات في كل اجتماع هو السبب الذي خلق عقبة كبرى أمام تنفيذ هذا البحث بما يتفق مع القواعد الأخلاقية: فعلى الرغم من أنني شرحتُ بعناية هدف بحثي قبل ذلك وسعيتُ للحصول على إذن للحضور والمشاركة في المرة الأولى التي عملت فيها معهن، فإنه كان يوجد في اللقاءات التالية عدد من النساء اللاتي يحضرن للمرة الأولى، ومن ثم لم يستطعن متابعة حديثي حتى داخلهن شك قوي في سبب حضوري وفي نواياي ومقاصدي.

لذلك قمن بطردي من الاجتماع! وأرسلتُ إليَّ المسئولة عن الدعوة للاجتماع رسالة بريد إلكترونية طلبت مني فيها ألا أحضر أي اجتماعات أخرى إلى أن يقمن بحل هذه القضية فيما بينهن (من الواضح أنه كان يوجد لدى هذه المجموعة وجهات نظر مختلفة عن المزايا الموجودة في بحثي). وقد سُمح لي بأن أرسل رسالة بريد إلكترونية إلى أفراد هذه المجموعة أشرح لهم فيها موقعي مرة أخرى، ولم يكن أمامي سوى أن أجلس وأنتظر. وكان الوقت يمرُّ عليَّ وأنا أقلبُ النظر في موضوع القوة (التي يتم تقاسمها) والوضوح (والغموض أو الالتباس) والموافقة (التي تُعطى ثم تُسحب مرة ثانية).

لابدُ أن أقول أنني شعرت أنني في غاية الغباء ولكن الواقع الفعلي هو أن خوفي من أن أبدو غيبة هو الذي وضعني في هذا الموقف الذي بدأت به هذا البحث. فقد كنتُ - بصفتي باحثة راغبة في أن أبدأ دور "المُشارك" في عملية الملاحظة المشاركة - كنتُ عازفةً عن مداومة لفت الانتباه إلى وضعي كباحثة من خلال عرضي للخطوط الرئيسية لمشروعي في كل مرة أرى فيها وجهاً جديداً. ذلك أنني كنت في الواقع أريد الاندماج داخل هذه المجموعة والاشتراك في الاجتماعات كأنني "واحدة منهن" ولست غريبة عنهن. وأما ما كنتُ أريده أكثر من أي شيء آخر، فهو أن ينسين ما كنتُ أفعله من قبل حتى أستطيع - بشكل ما - أن ألاحظ وأشارك وأهضم ما يحدثُ "فعلاً" في اجتماعاتهن. لذلك فقد اندفعت في هذه الاجتماعات وأنا أفترض ذلك الافتراض المتعجرف بأن مزايا بحثي وما له من أهمية إنما هي أمور واضحة للجميع، وذلك بجانب تقتي بأنه "لن" ترفض أي واحدة منهن أن تشارك في البحث".

مُنْتَهَى الغباء - ومنتهى الخطأ. فَقَدْ كُنَّ عَلَى حَقٍّ فِى طَرْدِي مِنَ
الاجتماع، لأنني كنت أتصرف بصورة سيئة جداً، وعلى نحوٍ غير أخلاقي
تماماً. فقد نسيت للحظة أَنَّ حضور الباحث يؤدي دائماً وحتماً إلى تغيير
ديناميات الجماعة وممارساتها، وأنَّ مُجَرَّد حُضُوري جَعَلَ هذه المجموعة
مختلفة عن المجموعة التي كانت موجودة قبل أن أدخل عليهن في تَبَخُّرِ
واختيال. والأهم من ذلك، أنني خَدَعْتُ نفسي فأوْهَمْتُهَا أنني - بوصفي
مُلاحِظَةً مشاركة - أستطيع، بشكل ما، أن أخلَع قُبْعَةَ الباحِثَةِ عن رأسي وأكون
"واحدةً منهن". وقد كنت بطبيعة الحال، على علم بهذه الأمور قبل أن أبدأ، إلا
أنني في غمرة تَحَمُّسِي للبدء في المشروع كنت قد تَرَكْتُ أعرافي الأخلاقية
بالباب وأنا أَقْحِمُ نفسي عليهن جِهَاراً.

وقد أدَّتْ أوْهامي المتعلقة بإخفاء هويتي كباحِثَةٍ، إلى أن أنسى القاعدة
الأولى والذهبية لأي نوع من البحث، ألا وهي الموافقة. إذ كيف كان من
الممكن لبِحثي أن يتصف بالأمانة والنزاهة لو أن واحدة فقط من عُضُوات هذه
المجموعة لم تكن مُدْرِكة أنني باحِثَةٌ؟ كم كنتُ غيرَ أُمِينَةٍ! وَكَمْ كنتُ مُخَادَعَةً!
لا يَسْغُنِي في الواقع إلا أن أكون مُمْتَنَّةً، لأن هؤلاء الشائبات كان لديهنَّ من
الحِمْيَةِ والجرأة ما يكفي لطردِي من اجتماعاتهن عندما كُنَّ يَبْحِثُن موضوع
اشْتِرَاكِهنَّ في هذا المشروع. بجانب ذلك يمكن أن توجد جماعات أخرى كثيرة
من المبحوثين المحتملين الذين قد لا تكون لديهم الجرأة ليطالبوا من الباحث أن
يفارق جماعتهم. وقد أدَّى بي هذا الوعي إلى أن أعيد التفكير من جديد في
موضوع أهمية القوة في العلاقات البحثية، وفي موضوع الدور الذي لا بد أن
تؤدِّيه الموافقة في إيضاح علاقات القوة هذه.

وبعد أسابيع قليلة أبلغتُ أنهنَّ قررن السماح لي بالعودة، وقد عدتُ وأنا
شاكِرة لهن ومستكينة تماماً. لقد تعلَّمتُ الدرس. فَحَتَّى على الرغم من أنني
كنتُ أتصور أنني واضحةٌ وصريحةٌ تماماً فيما يتصل بالتعريف بمشروعي،
فقد كنتُ مُقَصِّرَةً في العناية بمسألة التأكيد من أن كل عُضْوَة من أعضاء هذه
المجموعة تدرك إدراكاً جيداً من أكون، ولماذا أوجد في هذا المكان، وما الذي
يمكن لهذا البحث أن يُحقِّقه - وهو الأمر الذي يُمَثِّلُ خطوة جوهرية للبحث

الملتزم بالقواعد الأخلاقية، والذي تكون فيه الموافقة الصريحة عن علم أمراً حاسماً لتحقيق مشروعية هذا المشروع بأكمله. إنه درس لي لن أنساه سريعاً، كما أنني شاكرة لهؤلاء الشابات صبرهن في مساعدتي، لأنّ أتعلم هذا الدرس مجدداً.

إن في هذا المثال قدراً كبيراً مما يمكننا أن نتعلمه. خاصة وأن ماديسون تبين لنا كيف أن الممارسة الأخلاقية اعتباراً قائم مستمر. يُضاف إلى ذلك أن القضايا الخلقية والموافقة عن علم تُزود الباحثين بفرصة للتعرف على أنفسهم وللتطور كباحثين - إن الأخلاقيات مدخل للتأمل النقدي العميق.

ممارسة الأخلاقيات في البحث الاجتماعي

تُوجد الأخلاقيات داخل سياق اجتماعي معين. وتلفت المآزق الأخلاقية التي ناقشناها في هذا الفصل نظرنا إلى أهمية تضمين المنظور الأخلاقي في صلب الأساس الذي يقوم عليه مشروعنا البحثي. ولا يمكن تطبيق القواعد الأخلاقية على كل الأحداث التي قد تقع في مشروع معين. وفي هذا الصدد يشير روبن Rubin وروبين Rubin (١٩٩٥) إلى أن التوجيهات الأخلاقية لا يمكنها أن تغطي سائر المشاكل الأخلاقية التي قد تواجهها في ممارستك للبحث الاجتماعي:

ليس بوسعك أن تُنجزَ البحث الملتزم بالأخلاقيات بمجرد اتباعك لمجموعة من الإجراءات المُقررة من قبل، والتي تظل صحيحة على الدوام. ومع ذلك، فإن التصرف على أساس أخلاقي في ممارسة المقابلات الكيفية هو أمر مهم في هذا المجال بنفس أهميته في الأنماط الأخرى من البحث الذي يُجرى على البشر، وربما كانت أهم. لذلك يتوجب عليك أن تجعل من إجراءاتك الأخلاقية الثابتة (أو نظامك الأخلاقي) جزءاً من بناء عملك. وينبغي عليك العناية بدراسة المواثيق الأخلاقية ودراسة الحالات التي يتمثل فيها السلوك اللا أخلاقي حتى ترفع من مستوى حساسيتك (أي: انتباهك) للمواقف التي تبدو فيها الالتزامات الأخلاقية بارزة بكل وضوح. فحافظ، على امتداد

بحثك كله، على التفكير المستمر في التزاماتك الأخلاقية وعلى الاحتكام إليها.
(Rubin & Rubin, 1995, p.69, as quoted in Patton, 2002, p.411)

وفي هذا الصدد ينبغي علينا ألا نغفل عن التمييز المفيد بين ما يسميه هومان (١٩٩٢) المبادئ الأخلاقية، والقيم الأخلاقية. فالموافقة على الامتثال للمبادئ الأخلاقية التي تتمثل في طلب الحصول على الموافقة عن علم من المبحوث لا تعفي الباحث من الالتزام بالقيم الأخلاقية الأساسية التي تتضمنها هذه المبادئ، وذلك على الرغم من أن هذه المبادئ "تدعو في كثير جداً من الأحوال إلى رعاية النص الحرفي أكثر من رعاية المبدأ" (ص ٣٢٥). فهومان (١٩٩٢) يذكرنا بأن الخطر يتمثل في أن كثيراً من الباحثين يظنون أن التزامهم الأخلاقي يبدأ وينتهي بتوقيع المبحوث على خطاب الموافقة. وفي بعض الحالات يُنظر إلى الخطاب الذي يحمل الموافقة الصريحة على أنه خطاب يحمي الباحث أكثر من حمايته للمبحوثين. وفي هذا الصدد يشير أحد الأنثروبولوجيين قائلاً:

أخشى أن تصبح الموافقة عن علم، عند تطبيقها بطريقة ميكانيكية باستعمال استمارة ما أو استعمال صيغة/ أو عبارة شفوية معينة؛ أخشى أن تصبح هذه الموافقة بمثابة حماية للباحث أكثر منها حماية للمبحوثين. ذلك أن هذه الموافقة عن علم التي تم الحصول عليها بهذه الطريقة تعدّ أحادية الجانب وليست ثنائية الجانب، كما أنها تحمي الباحث من التهم التي يوجهها إليه المبحوثون بأنهم لم يدرکوا بصورة كاملة غرض هذا البحث ولا نتيجته (Fluehr-Lobban, 1998, p.199)

إن الأخلاق لا توجد في فراغ. وما يشير كنج King، وهندرسون Henderson، وستاين Stein (١٩٩٩) قائلين:

... قد تكون الأخلاق الواجب اتباعها في البحوث التي تجرى على البشر ذات طابع عام، إلا أنها تكون في الوقت ذاته في غاية التفرد والخصوصية، حتى إن المعنى المراد من ألفاظ مثل: الاستقلال، أو الموافقة عن علم، أو السرية، أو حتى النفع أو الضرر، إنما يعتمد على الظروف والملايسات المحيطة باستعمال كل لفظ منها. وهذه الملايسات لا تحدّد فقط ما

إذا كان أيُّ هذه المفاهيم الأخلاقية "الغريبة" ينطبق على هذا البحث، وإنما هي تحدد كذلك "كيف" يتم هذا التطبيق". (ص ٢١٣).

قضايا ملحة في مجال البحث الملتمزم بالأخلاقيات:

هل نحن في طريقنا إلى نموذج نظري جديد "لأخلاقيات"؟

تُشير الملاحظات التي أبدتها كنج وهندرسون وستاين (١٩٩٩) بخصوص السلوك الأخلاقي في البحوث إلى حدوث نقلة في اتجاه التفكير المتعلق بكيفية دمج الأخلاقيات في العملية البحثية. وهم يصفونها بأنها تغيير في النموذج النظري للتفكير في الأخلاقيات بوصفه تفكيراً قائماً على قضايا مبدئية (وهو النموذج النظري المبدئي) مستقلة بصورة عامة عن الملبسات الخاصة، إلى تفكير قائم على نظرة للأخلاق بوصفها تُشكّل جزءاً من العلاقات الاجتماعية (وهو نموذج العلاقات الاجتماعية). وقد يكون الباحث الآخذ بوجهة النظر المبدئية مهتماً بوجهة النظر "النسبية" التي تُشكّل جزءاً أصيلاً من نظرة نموذج العلاقات، في الوقت الذي يُوجّه فيه الباحث الآخذ بنموذج العلاقات إلى زميله الذي يتبنى المنظور المبدئي "تهمة الإمبريالية الأخلاقية" (*)، وتهمة ممارسة كل من النزعة الأبوية و"النزعة الاستبدادية".

إن الأخلاقيات من منظور كلٍّ من هذين النموذجين تطرح أنواعاً مختلفة من الأسئلة، كما تقدر بطرق مختلفة الأولويات التي ينبغي التأكيد عليها في أي مناقشة لأخلاقيات البحوث التي تُجرى على مبحوثين من البشر. وقد ظل النموذج المبدئي هو الذي يقود -حتى يومنا هذا- عملية وضع التوجيهات الأخلاقية لمجالس الفحص والمراجعة IRBs وللاتحادات والجمعيات المهنية. والمطلوب الآن تحريك النقاش في موضوع الأخلاقيات ودفعه قدماً إلى حوار أكثر تناغماً بين هذين المنظورين الفكريين. وربما كان الأجدر - في رأي البعض - جمعهما معاً في تركيبة واحدة تُولف بينهما. ويُطرح كنج

(*) لفظ الإمبريالية هنا مستخدم بمعنى رمزي، والمقصود الاستئثار الكامل بالحق في فهم الأخلاق وتفسيرها. (المراجع).

وهندرسون وستاين (١٩٩٩) بعض الأسئلة العامة التي قد يكون من المفيد تناولها في مثل هذا الحوار:

إلى من نتوجه بمناقشاتنا في مجال القضايا الأخلاقية؟ وكيف سَنَمُنَح السلطة للجماعة، أو الجماعات، التي تمكنها من الحكم على هذا: الأمور جميعاً؟ إن أسلوب هذا السؤال أسلوب له دلالاته. فهو يَعْنِي: مَعَ مَنْ نحن في علاقة خُلقية من النوع الموجود بين الأنداد المتساوين؟ ولا يعني: من هو الذي سيحكم على هذا الأمر لنا؟ أو من هو الذي سيحدد لنا القواعد؟ بل يعني: مع من يمكننا أن نتحدث؟ مع من يمكننا أن نعمل للتوصل إلى إجابةٍ ما؟ (King, Henderson & Stein, 1999, p. 224).

خاتمة

إن دمج الأخلاقيات في عملية البحث، بدءاً من اختيار مشكلة البحث، ومروراً بتنفيذ أهداف البحث، وانتهاء بعملية تفسير نتائج البحث وكتابة تقرير عنها؛ هذا الدمج أمر حاسم لضمان التزام عملية البحث بالمبادئ الأخلاقية، فضلاً عن توافر الموافقة الصريحة عن علم. ويُشكّل هذا الفصل حفزاً لنا كباحثين لنكون على وعي بمدى المآزق الأخلاقية التي يواجهها الباحثون خلال تنفيذ المهام اليومية لأي مشروع بحثي. وتتمثل إحدى الخطوات المهمة، بجانب خطوة الحصول على الموافقة عن علم، في اهتمام الباحث بالتأمل النقدي الذاتي، وذلك بأن يسأل نفسه قائلاً:

• ما هي "نظرتي الأخلاقية" لهذه العملية البحثية؟

ولعلك تجد أن قائمة الأسئلة المرجعية التالية نافعة لك عند رغبتك في استكشاف رؤيتك الأخلاقية لعملية البحث هذه:

• ما هي المبادئ الأخلاقية التي توجّه عملك وحياتك عدا الميثاق الأخلاقي المهني الذي تلتزم به في إطار انتمائك لتخصص علمي معين أو تنظيم مهني ما؟

• أين تبدأ التزاماتك الأخلاقية تجاه المبحوثين وأين تنتهي؟

إن إدراكك لرؤيتك الأخلاقية أو موقفك الأخلاقي كباحث يُعدُّ مُرشداً داخلياً مهماً يذكُّ على السير قدماً في بحثك. ويقدم مايكل باتون M.Patton (٢٠٠٢) "قائمة أخلاقية مرجعية" (ص ٤٠٩) لتأخذها في اعتبارك وأنت تتابع العمل في مشروعك البحثي. وقد قمنا بتكييف قائمة باتون هذه حتى تحتوي على طائفة من الموضوعات المتعلقة بعملية البحث.

قائمة باتون بالأسئلة المرجعية المتعلقة بإجراء مشروع بحثي ملتزم بالأخلاقيات

- كيف ستشرح هدفَ بحثك والطرق المستخدمة فيه بأساليب تكون دقيقة ومفهومة لمن تقوم بدراستهم؟
- لماذا يتعين إشراك المبحوثين في مشروعك؟
- ما هي السُّبل - إن وُجدت - التي عن طريقها سوف يؤدي إجراء هذا البحث إلى إلحاق ضرر (نفسي، وقانوني، وسياسي، وكذلك الضرر المتمثل في تحويل المبحوث إلى شخص منبوذ من الآخرين).
- ما هي التعهدات المعقولة للحفاظ على سرية المبحوثين والتي تستطيع الوفاء بها تماماً؟
- ما هو نوع الموافقة عن علم - إن وُجدت - والتي تكون ضرورية لتحقيق الحماية المتبادلة؟
- من هم الذين لهم حق الاطلاع على البيانات؟ ولأي الأهداف؟
- إلى أي مدى ستكون أنت ومبحوثك (أو مبحوثوك) معرضين - بدرجة راجحة - للتأثر بإجراء هذا البحث؟
- من هو الشخص الذي سيكون أمين سر الباحث ومستشاره في مسائل الأخلاقيات أثناء الدراسة؟
- ما هو مدى مثابرتك في شق طريقك للحصول على البيانات؟
- ما هو الإطار الأخلاقي وما هي الفلسفة التي تمنح عملك جَوْهراً وتكفل الحفاظ على احترام من تدرسهم وعلى حساسيتهم، وذلك بجانب

كل ما يقتضيه القانون من إجراءات؟ (نقلاً عن باتون بتصرف ، ٢٠٠٢، ص ٤٠٨).

وتمدنا دراسة أجراها هيوبر Huber وكلاندينين Clandinin بمثال جيد للتأمل والتفكير داخل العملية البحثية. فقد قاما بإجراء مقابلات مع تلاميذ مدرسة ابتدائية من منطقة قلب المدينة، والتزاماً بالقيمة الأخلاقية "لأخذ والعطاء" في محاولتهما البحثية فهم حياة هؤلاء الصغار من سكان قلب المدينة. وهما يُنَوِّهان بأهمية استحداث "قيمة خلقية للبحث السردى القائم على العلاقات الإنسانية"، وهي القيمة التي تتجاوز نطاق الشروط الخاصة بتوقيع المبحوث بالموافقة عن علم:

انطلاقاً من منظور أخلاقيات البحث المبدئية (التي لا تنظر إلى العلاقات) قمنا بالوفاء بكل تلك المتطلبات الأخلاقية، إلا أن هذا لم يكن كافياً... ذلك أنه عندما أحسنا بعدم الرضا عن موقفنا كباحثين تربطهما علاقة إنسانية بالتلميذ عظيم Azim (وهو اسم أحد المبحوثين في تلك الدراسة) ولذلك تنبّهنا إلى أننا في حاجة إلى أسلوب مختلف لفهم معنى تنفيذ البحث الملتزم أخلاقياً على الصغار بوصفهم "باحثين مشاركين" (*) إنما يتحقق في بحث سردي قائم على العلاقات الإنسانية. (ص ٧٩٤).

وقد وجدا أن البحث القائم على "نموذج العلاقات" يتطلب قدراً كبيراً من التأمل النقدي (الانعكاسية) من جانب الباحث (وخاصةً عندما يدرس جماعة من الأفراد ذوي البنية الهشة). ذلك أن إفادتها من خبرتهما التأملية (الانعكاسية) خلال البحث تمكنهما من الدخول في حوار مع موقفهما الأخلاقي الشخصي الخاص، كما تمكنهما من المواجهة الفعلية لانحيازاتهما الشخصية الخاصة بوصفهما باحثين، وبوصفهما مُعلِّمين لتلاميذ المرحلة الابتدائية كذلك. وفي نهاية الأمر، أصبحا أكثر انتباهاً لأوجه التعقّد والتشابك التي تتطوى عليها عملية المشاركة في خلق المعنى، ولضرورة معاشتهم تلك التوترات التي عايشاها بوصفهما باحثين مشاركين (*):

(*) أي لهم شركاء آخرون في عملية البحث والفهم والتحليل، هم هنا التلاميذ الصغار (المراجع).

لما كنا قد دَخَلنا في علاقات مشاركة في البحث مع التلاميذ الصغار، بدأنا نكون في غاية الاهتمام بالمعالم والملاح التي كانت تشكل هويتنا كباحثين من المعلمين، وكمُعَلِّمين من الباحثين، وكباحثين. وأصبح الاهتمام بالاحتفاظ بالعلاقات الإنسانية مع الصغار، في الحاضر والمستقبل، أصبح الشاغل الأول لنا ... إننا في حاجة إلى أن نعيد تحديد موقع الاهتمامات الأخلاقية داخل إطار الاهتمامات المتعلقة بمسؤوليتنا تجاه المحافظة على العلاقات الإنسانية مع الصغار. لقد تحققنا من أن عنايتنا بالعلاقة الاجتماعية قد تتعارض مع الحكايات السائدة عن السلوك المعهود من المعلمين "الجديدين" والباحثين "الجديدين". أما الخطوط الإرشادية للباحثين الجديدين فإنها لا تعني في كثير من الأحيان بنتيجة هذا التعارض وأثره على حياة الأطفال بوصف هذه النتيجة شاغلها الأول. أما نحن فنبوصفنا باحثين سرديين نُقدِّر شأن العلاقات الإنسانية ومُرتبطين بالأطفال كباحثين، فقد تحقَّقنا من أن أمر هذا التعارض المذكور على حياة الأطفال هو ما نحتاج إلى الاهتمام به. (ص ٨٠٠)

يحدونا الأمل أن يُزودك هذا الفصل بنوع من الوعي بأهمية البُعد الأخلاقي في العملية البحثية. كما طرحنا بعض الأدوات التي سنحتاج إليها لرفع مستوى وعيك بموقفك الأخلاقي الشخصي وبتطبيقه في جهودك البحثية على الدوام. وسوف يتواصل ظهور المكونات المختلفة للممارسة الأخلاقية عبرَ الفصول التالية من كتابنا هذا، والتي تتضمن مناقشة للمسائل الأخلاقية التي ظهرت حديثاً والمرتبطة بالبحث الذي يتم من خلال الحاسب (الكومبيوتر). (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب).

* * *

تعريف بالمصطلحات

• السرية Confidentiality

يعنى هذا المصطلح حماية المبحوثين من اطلاع أحد على هوياتهم. بمعنى أن أسماءهم لا يجوز استعمالها في أى مادة مكتوبة تتعلق بهذا البحث أو في المناقشات التي نتناول هذا المشروع البحثي. ويتعين كذلك تخزين مواد المقابلة في مكان آمن.

• القصة الغطاء • Cover Story

قد يصل الأمرُ بالباحثين الذين يستعملون الخداع إلى أن يحددوا عن الطريق بحيث يعرفون الآخرين بمشروعهم البحثي بوصفه قصةً مُستعملةً كغطاء (وقد تكون هذه القصة جزءاً أساسياً وُضِعَ عن قصدٍ في تصميم المشروع البحثي).

• الخداع • Deception

قد لا يكن الباحثون صادقين في تعريف الآخرين بهويتهم أو بما يقومون به، وبهذا الشكل يستخدمون الخداع من أجل إنجاز بحثهم.

• الإفصاح • Disclosure

قد يَحْدُثُ أن يقوم الباحث بالكشف أو الإفصاح عن شخصيته وعن الغرض من بحثه، وقد لا يفعل ذلك. ولكننا ندعو -انطلاقاً من الاعتبارات الأخلاقية - إلى الإفصاح التام كلما كان ذلك ممكناً.

• المبادئ الأخلاقية • Ethical Codes

هي مبادئ للسلوك موضوعة لحماية المبحوثين وحماية مجتمعهم فلا يجوز أن يتسبب البحث في الإضرار بهم أو بمجتمعهم. وبموافقة الباحث على الامتثال للمبادئ الأخلاقية، على النحو المذكور في طلب الحصول على الموافقة عن علم من المبحوثين، فإنه يلتزم بالتمسك بالقيم الأخلاقية الأساسية التي تتضمنها هذه المبادئ، حتى وإن كانت تدعو في كثير من الأحيان إلى مراعاة النص الحرفي أكثر من مراعاة المبدأ (Homan, 1992, p. 325).

• القيم الأخلاقية • Ethical Values

انظر: المبادئ الأخلاقية

• الموافقة عن علم • Informed Consent

تعدُّ الموافقة عن علم عنصراً في غاية الأهمية في البحث الملتمزم بالأخلاق والذي يُجرى على مشاركين من البشر. وتعني الموافقة عن علم أن المشاركين يدركون تمام الإدراك موضوع الدراسة، وكيف ستُستخدم نتائجها،

وَيُدرِكون أن مشاركتهم طوعية ومن الممكن قطعها في أي وقت، وأن هويتهم سوف تظل محجوبة عن الآخرين.

- **Institutional Review Boards (IRBs)** مجالس الفحص والمراجعة

تقوم مجالس الفحص والمراجعة بالتأكد من أن الدراسات التي تُجرى على مبحوثين من الأحياء ملتزمة بالأخلاقيات وأنها لا تلحق ضرراً بأحد.

- **Moral Integrity** النزاهة (الاستقامة الأخلاقية)

تمثل النزاهة أو الاستقامة الأخلاقية للباحث جانباً عظيماً الأهمية لضمان أن تكون عملية البحث والنتائج التي توصل إليها الباحث "جديرة بالثقة" وصادقة.

- **Nuremberg Code** ميثاق نورمبرج

هو ميثاق أخلاقي يبدأ بالنص على أنه لا بد أن تكون المشاركة في البحث في جميع مراحله مشاركة طوعية.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- ما هي "البنية التحتية الأخلاقية" لعملية البحث، ولماذا يتوجب الاهتمام بالأخلاقيات بصورة كلية؟

٢- على الرغم من أن الموافقة عن علم تمثل جانباً هاماً لضمان البعد الأخلاقي لمشروعك البحثي، فإنه توجد حالات حدث فيها تقصير في الإفصاح الكامل للمبحوثين عن المدى الكامل للمخاطر والمزايا المتوقعة من المشاركة في الدراسة. بناءً على ذلك، من هو في اعتقادك المسؤول عن أي عواقب غير مقصودة؟

٣- تتضمن الأسئلة المطروحة في هذا الفصل: أين تبدأ التزاماتك تجاه المبحوثين وأين تنتهي؟ ما هي مسؤولية الباحث تجاه المبحوث بعد أن تكون عملية البحث "قد انتهت"؟ وهل سيظل الباحث مسؤولاً عن أي

مُشكلات نفسية قد تنشأ - جزئياً - بسبب هذا المشروع البحثي؟ ما هو رأيك في هذه القضايا؟

٤- أنشئت مجالس الفحص والمراجعة لمراقبة العملية البحثية ولضمان "الالتزام" لأي مجموعة من الأفراد معاملة جائرة أو أن تُحرَم من النتائج الإيجابية المحتملة لدراسة معينة". غير أنه اتضح - كما سلفت الإشارة - أن مجالس الفحص والمراجعة تفقد فاعليتها في حالات معينة، عندما يكون لبعض أعضاء هذه المجالس مصلحة خاصة في نفس هذه الدراسات التي يراقبونها. بناءً على ذلك: هل تعتقد أن مجالس الفحص والمراجعة مصدّر فعال لضمان قيام العملية البحثية على مِخَور أخلاقي؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما هي مقترحاتك لزيادة التأكد من توافر البُعد الأخلاقي لعملية البحث؟ وفي تصورك، ما هي أكثر الوسائل فعالية لضمان "السلامة الأخلاقية/أو الاعتبار الأخلاقي في المشاريع البحثية التي تقوم بها الجامعات؟

٥- تبين من هذا الفصل أن الموافقة عن علم لا تُعفي الباحث من مسؤوليته عن كل الاعتبارات الأخلاقية. فما معنى ذلك؟ واستعرض بعض الاعتبارات الأخلاقية التي يتعين على المرء الانتباه لها عندما يقوم "بالبحث المتخفي" أو "الملاحظة بالمشاركة"؟ وما هي بعض الأساليب الأخرى للتأكد من أن البُعد الأخلاقي حظي بوضعه اللائق في مشروعك البحثي؟

٦- هل تعتقد أن من مسؤولية الباحث أن يكشف عن المعلومات الخاصة بالفرد المشارك في البحث (أي المبحوث) عندما يشعر أن هذا الكشف يَنفَع هذا المبحوث؟ لماذا نعم، أو لماذا لا؟

٧- إذا فرض الباحث السرية على عملية البحث، فهل ترى ذلك طريقة لعدم تمكين المبحوثين الذين يريدون الكشف عن هوياتهم من فعل ذلك؟ وهل تعتقد أن الباحث مسئول وحده عن تقرير ما إذا كان ينبغي الحفاظ على سرية المعلومات أم لا؟ وهل ينبغي أن تكون قضية السرية مسعىً مشتركاً بين الباحث والمبحوث؟ وما هي حدود تلك المشاركة؟

٨- إذا كان أحد علماء الاجتماع مُهْتَمّاً بدراسة سلوكيات القُصّر من المراهقين في شُرْب الخمر وفي قيادة السيارات- فما هي بعضُ الاعتبارات الأخلاقية التي يتعين عليه أن يتنبّه إليها؟ ناقش بعض المآزق أو المشكلات الأخلاقية التي من الممكن أن تواجهها؟ وكيف تود أن تصمم مشروعك البحثي (مع الأخذ في الاعتبار الأهمية المحورية للأخلاقيات في بناء مشروعك البحثي).

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- المؤسسة القومية للعلوم National Science Foundation

<http://www.nsf.gov/bfa/dias/policy/docs/45cfr690.pdf>

يتصل هذا الرابط بالقانون الساري حالياً بشأن الموافقة عن علم / ومجالس الفحص الرسمية IRBs/ والمبحوثين البشر: "القاعدة العامة لحماية المبحوثين من البشر في البحوث السلوكية وبحوث العلوم الاجتماعية".

<http://www.nsf.gov/bfa/dias/policy/hsfaqs.htm>

هذه قائمة "بالأسئلة الأكثر طرحاً" فيما يتعلق بالتشريع المشار إليه سابقاً.

<http://www.hhs.gov/ohrp/humansubjects/guidance/belmont.htm>

هذا رابط خاص "بـتقرير بلمونت عن: المبادئ والإرشادات الأخلاقية لحماية المبحوثين من البشر في البحوث".

<http://www.nsf.gov/bfa/dias/policy/guidance.htm>

يضم هذا الموقع قسماً بعنوان "المبحوثين البشر" ويحوي معلومات عن المبادئ الأساسية لحماية المبحوثين من البشر، كما يحوي معلومات عن مجالس الفحص الرسمية IRBs.

- مواقع عن الأخلاقيات Online Ethics

<http://onlineethics.org/>

هذا رابط بموقع "مركز الأخلاقيات الإلكتروني للهندسة والعلوم". ويدعي أصحاب هذا الموقع أن رسالتهم هي "تزويد المهندسين، والعلماء، وطلاب

العلوم والهندسة بالمواد اللازمة لفهم المشكلات المهمة التي تواجههم في عملهم والمتصلة بالناحية الأخلاقية والتعامل معها، وكذلك خدمة أولئك الذين يساندون تعلم وإشاعة فهم ماهية البحث المسؤول والممارسة المسؤولة للعمل في مجالي العلوم والهندسة".

إذا استخدمت هذا الموقع اطلب أولاً: "محتويات مركز الأخلاقيات الإلكترونية" OEC، ثم اطلب "أخلاقيات البحث":

<http://online.ethics.org/reseth/index.html>

يعرض هذا الموقع حالات، ومناقشات، وإرشادات، وقواعد تنظيمية التي تحدد مسؤولية الباحث وكيف يكون عليه أن ينفذ بحثه (بما في ذلك معلومات عن قضايا نزاهة البحث ومعاملة المبحوثين من البشر). كما يحوي الموقع أكثر من رابط مفيد لمراجع ومصادر عن أخلاقيات البحث (مع قائمة بالمواقع الإلكترونية والمواقع الحكومية المتخصصة تماماً في هذا الموضوع).

- **المعاهد القومية للصحة National Institutes of Health**

<http://ohsr.od.nih.gov/>

هذا رابط "لمكتب شئون المبحوثين من البشر"، يقدم معلومات عن التشريعات المعمول بها حالياً بخصوص استخدام مبحوثين من البشر وبخصوص البحوث عموماً (وكذلك عن المآزق الأخلاقية التي ينطوي عليها ذلك). كما يحوي أكثر من رابط للمواقع الحكومية الأخرى التي تتناول هذه الأمور.

<http://www.nih.gov/sigs/bioethics/IRB.html>

يحمل هذا الرابط عنوان "البحوث التي تستخدم مبحوثين من البشر ومجالس الفحص الرسمية". ويحوي أكثر من رابط عن السياسات والقواعد التنظيمية، وإرشادات للباحثين، وموارد مجالس الفحص الرسمية، ومقررات علمية مختصرة عن القضايا الأخلاقية البيولوجية في الدراسات الإنسانية، وموارد البحوث، والجهات التي تقدم "دروساً خصوصية" عن البحوث التي تستخدم مبحوثين من البشر.

http://www.nlm.nih.gov/pubs/cbm/hum_exp.html

هذا رابط يحوي قائمة واسعة الشمول بمراجع تتعلق جميعها بالقضايا الأخلاقية المرتبطة بالمبجوثين من البشر. وتقسم قائمة المحتويات (عليك أن تنزلق قليلا إلى أسفل الصفحة لتجدها) الموقع إلى فئات مختلفة، مما يتيح لك فرصة العثور على موضوعك المحدد بمزيد من اليسر. وتحوي القائمة الببليوجرافية معلومات عن مواد مرجعية ومصادر، تشمل مجالات علمية، وكتب، ووثائق حكومية...إلخ.

- **وزارة التعليم الأمريكية** U.S.Department of Education

<http://www.ed.gov/about/offices/list/ocfo/humansub.html>

هذا رابط لموقع: "حماية المبجوثين البشر في البحوث". ويحوي الموقع أكثر من رابط لمعلومات عامة عن المبجوثين البشر في البحوث، والجوانب التنظيمية والقانونية المتعلقة باستخدام المبجوثين في البحوث. كما يحوي معلومات عن "الإرشاد والمواد التعليمية" (مع رابط لموقع "تقرير بلمونت" ورابط لموقع "دليل مجلس المراجعة الرسمي").

- **الاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع** American Sociological Association

<http://www.asanet.org/memberfs/ecostand2.html>

هذا رابط لموقع الميثاق الأخلاقي للاتحاد الأمريكي لعلم الاجتماع. ويجد القارئ نص هذا الميثاق الأخلاقي منشورا على الموقع، يمكن تحميل نسخة PDF منه.

- **الاتحاد الأمريكي لعلم النفس** American Psychological Association

<http://www.apa.org/ethics/homepage.html>

يناقش هذا الموقع الميثاق الأخلاقي للاتحاد الأمريكي لعلم النفس. وهناك ثلاث طبعا للميثاق يمكن تحميلها من على الموقع، ورابط للجوانب الأخلاقية في الأخبار، ورابط لمراجع ومصادر عن الأخلاقيات.

- **الاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم** • **American Association for the Advancement of Science**

<http://www.aaas.org/spp/sfrl/projects/intres/main.htm>.

هذا رابط لموضوع: "الجوانب الأخلاقية والقانونية للبحوث التي تجري على البشر في الفضاء الإلكتروني"، ويحوي رابطاً عن التقرير الذي أعده فريق العمل التابع للاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم (وهو التقرير الذي أعد كتمة لورشة عمل عقدت بالتعاون مع المعاهد القومية للصحة NIH حول موضوع بحوث الإنترنت التي تستخدم مبحثين من البشر).

- **مركز بوينتر بجامعة إنديانا** • **Indiana University's Poynter Center for the Study of Ethics and American Institutions**

<http://poynter.indiana.edu/links.shtml>

يحتوي هذا الموقع أكثر من رابط لمراكز دراسة الأخلاقيات ومطبوعاتها، وأخلاقيات البحوث، والسياسة البحثية، ومعلومات عامة عن الأخلاق. ويحدد الموقع رسالة المركز بأنها "مكرسة لدراسة مدى واسع من القضايا الأخلاقية المثارة في الحياة العامة الأمريكية. ونظراً لطابع المركز القائم على تضافر التخصصات فإنه يعمل على استخدام كافة موارد وإمكانات جامعة إنديانا لتشجيع البحوث والتدريس عبر الحدود الأكاديمية التقليدية". يحتوي الموقع مواد عظيمة الفائدة لتعليم أخلاقيات البحوث. ومن الأمور ذات الأهمية الخاصة في هذا الشأن برنامج التعليم الإلكتروني التفاعلي بعنوان: "أدنى إخوتي قدراً" The Least of my Brothers الذي يتناول القضايا الأخلاقية المتعلقة ببحث تصكجي عن تجربة الزهري. وثمة دليل مفصل للمعلم مصاحب لهذا البرنامج التعليمي. انظر الرابط الفرعي الخاص بهم:

<http://poynter.indiana.edu/sas/1b/>.

- **الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع** • **International Sociological Association**

http://www.ucm.es/info/isalabout/isa_code_of_ethics.html

يحتوي هذا الموقع على الميثاق الأخلاقي للاتحاد الدولي لعلم الاجتماع. ويتكون هذا الميثاق من مقدمة وأربع مجموعات من القواعد والمعايير الأخلاقية المحدودة.

* * *

المراجع References

- Adler, P. & Adler, P. (2002). Do university lawyers and the police define research values? In W.C. Van Den Hoonaard (Ed.), *Walking the tightrope: Ethical issues for qualitative researchers* (pp. 34-42). Toronto: University of Toronto Press.
- Alvino, L.A. (2003). Who's watching the watchdogs? Responding to the erosion of research ethics by enforcing promises. *Columbia law Review*, 103, 893-924.
- American Sociological Associations' Ethical Standards: <http://www.asanet.org/memberfs/ecostand2.html>. This list consists of topics such as informed consent, use of deception as a research practice, etc. *see also*: Guidelines for Conduct of Research Involving Human Subjects at the National Institutes of Health: <http://www.helix.nih.gov.8001/ohsr/guidelines.html>.
- Angell, M. (2000). Editorial, Is academic medicine for sale? *New England Journal of Medicine*, 342, 1516-1518.
- Appelbaum, P.S., Roth, L., Lidz, C.W., Benson, P., & Winslade, W. (1987). False hopes and best data: Consent to research and the therapeutic misconception. *Hastings center Report*, 17, 20-24.
- Baez, B. (2002). Confidentiality in qualitative research: Reflections on secrets, power and agency. *Qualitative Research*, 2(1), 35-58.
- Beecher, H. K. (1966). Ethics and clinical research. *New England Journal of Medicine*, 1354-1360.
- Bell, L., & Nutt, L. (2002). Divided loyalties, divided expectations: Research ethics, professional and occupational responsibilities. In M. Mauthner, M. Birch, J. Jessop, & T. Miller (Eds.), *Ethics in qualitative research* (pp. 70-90). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Beyrer, C., & Kass, N.E. (2002). Human rights, politics and reviews of research ethics. *Lancet*, 359 (9328), 246-251.
- Cassileth, B.R., Zupkis, R. V., Sutton-Smith, K., & March, V. (1980). Informed consent- Why are its goals imperfectly realized? *New England Journal of Medicine*, 302, 890-900.
- Department of Health and Human Services (DHHS). (1989). Code of Federal Regulations (45 CFR 46) Protection of Human Subjects. Washington, DC: National Institutes of Health. Office for the Protection from Research Risks.
- Duncombe, J., & Jessop, J. (2002). 'Doing rapport' and the ethics of 'faking friendship', In M. Mauthner, M. Birch, J. Jessop, & T. Miller (Eds.), *Ethics in qualitative research*. (pp. 106-122). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Faden, R. R., & Beauchamp, T. L. (1986). *A history and theory of informed consent*. New York: Oxford University Press.
- Fluehr-Lobban, C. (1998). Ethics. In H. R. Bernard (Ed.), *Handbook of methods in cultural anthropology*, (pp. 173-201). London: Alta Mira Press.
- Gamble, V.N. (1997). Under the shadow of Tuskegee: African Americans and health care. *Am J of Public Health*. 87 (11), 1773-1778.
- Gans, H. (1982). The participant observer as a human being: Observations on the personal aspects of fieldwork. In R. G. Burgess (Ed.) *Field research: A sourcebook and field manual* (pp. 53-61). London: Allen & Unwin.
- Gene therapy's risks hidden. (2000, February 3). *Chicago sun Times*, p. 23.
- Coffman, E. (1961). *Asylums. Essays on the social situation of mental patients and other inmates*. Garden City, NY: Doubleday Anchor.

- Haggerty, K.D. (2004, Winter). Ethics Creep: Governing social science research in the name of ethics. *Qualitative Sociology*, 27(4), 391-414.
- Heintzelman, C. (1996). Human subjects and informed consent: The legacy of the Tuskegee Syphilis Study. *Scholars: Research, Teaching and Public Service*, Fall, 23-29.
- Hertz, R., & Imber, J. (1995). *Studying elites using qualitative methods*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Homan, R. (1992). The ethics of open methods. *The British Journal of Sociology*, 43(3), 321-332.
- Huber, J., & Clandinin, D. (2002). Ethical dilemmas in relational narrative inquiry with children. *Qualitative Inquiry*, 8(6), 785-803.
- Hotz, R. L. (2003, January 22). Medical tests are skewed, study finds. *Los Angeles Times*, p.14.
- Johnson, J.M., & Altheide, D.L. (2002). Reflections on professional ethics. In W.C. Van Den Hoonaard (Ed.), *Walking the tightrope: Ethical issues for qualitative researchers* (pp. 59-69). Toronto: University of Toronto Press.
- Jones, J. H. (1993). *Bad blood: The Tuskegee syphilis experiment*. New York: Free Press.
- King, N. M. P., Henderson, G.E., & Stein, J. (1999). Regulations and relationships: Toward a new synthesis. In N. M. P King, G. E. Henderson, & J. Stein (Eds.), *Beyond regulations: Ethics in human subjects research* (pp. 213-224). Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press.
- Korn, J. H. (1997). *Illusions of reality: A history of deception in social psychology*. New York: SUNY.
- Lynoe, N., Sandlund, M., Dahlqvist, G., & Jacobsson L. (1991). Informed consent: Study of quality information given to participants in a clinical trial. *British Journal of Medicine*, 303, 610-613.
- Marx, G. T. (1988). *Undercover: Police surveillance in America*. Berkeley: University of California Press.
- Milgram, S. (1963). Behavioral study of obedience. *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 67, 371-378.
- Oakley, A. (1981). Interviewing women: A contradiction in terms. In H. Roberts (Ed.), *Doing Feminist research* (pp. 30-61). London: Routledge and Kegan Paul.
- Odendahl, T., & Shaw, A. (2002). Interviewing elites. In J. Gubrium and J. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context and methodology* (pp. 299-316). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Patton, M. (2002). *Qualitative research and evaluation methods* (3rd ed.) Thousand Oaks, CA: Sage.
- Rubin, H., & Rubin, I. (1995). *Qualitative interviewing: The art of hearing data*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Stacey, J. (1991). Can there be a feminist ethnography? In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 111-119). New York: Routledge.
- Williams, T. (1996). Exploring the cocaine culture. In C.D. Smith & W. Kornblum (Eds.), *In the field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 27-32). Westport, CT: Praeger.

القسم الثانى

طرق جمع البيانات

90-1000

100-1000

الفصل الرابع

المقابلة المتعمقة

المقابلة المتعمقة، والتي تُسمَّى كذلك المقابلة المُكثفة، هي إحدى طرق البحث الشائعة الاستعمال بين الباحثين الكيفيين في جمع البيانات. وتتخذ المقابلة المتعمقة الأفراد كمناطق للعملية البحثية، كما تفترض أن لدى الأفراد معرفةً متفردة ومهمة بالعالم الاجتماعي يمكن التحقق منها من خلال التواصل الشفاهي، أي التحوار مع المبحوثين. وتعدُّ المقابلات المتعمقة نوعاً خاصاً من الحوار بين الباحث والفرد الذي يُجري معه المقابلة يتطلب وجود التساؤل الفعال والإنصات الفعال. وتُعتبر هذه العملية بمثابة جهد لخلق المعنى يتم بذله بالمشاركة بين الباحث (القائم بإجراء المقابلة) والمبحوث (الطرف الذي تجرى معه المقابلة). وتكون درجة التقسيم والتدرج الهرمي بين هذين الشريكين المتعاونين منخفضة عادة، وذلك لأن الباحث والمبحوث موجودان على نفس المستوى، رغم وجود بعض الفروق والاختلافات بينهما.

وبالإمكان استخدام المقابلات الكيفية للحصول على البيانات الاستكشافية، والوصفية، والمفسرة التي قد تستخدم - أو لا تستخدم - في توليد النظرية. وبالمثل، فإنه بالإمكان استخدام هذه المقابلات بوصفها طريقة بحث مُنفردة، أو استعمالها بالاشتراك مع طائفة أخرى من طرق البحث كالمسوح الاجتماعية، أو جماعات المناقشة المركزة، أو البحث الإثنوجرافي. وقد جرت عادة الإثنوجرافيين - كما سنرى في الفصل السابع من هذا الكتاب - أن يقوموا بإجراء المقابلات أثناء وجودهم في الميدان. وتوجد رابطة طبيعية بين هذين الشكلين من أشكال البحث (وهما المقابلة والبحث الإثنوجرافي)، كما أنه يمكن الاستفادة من الاتجاهات التي تستعمل طرق بحث متعددة، فهي ذات قيمة باقية مُعترف بها. وتعدُّ المقابلات المتعمقة - بصورة عامة - أقل استهلاكاً للوقت من البحث الميداني، وتتصف بهذه الصفة كذلك عندما يكون الموضوع قيد الدراسة غير مُرتبط بجماعة أو مجتمع معين (Warren, 2002, p.85) ويكون بالإمكان التعرف عليه بصورة مؤكدة عن طريق الأفراد

الموجودين في موقع معد سلفاً (في مقابل الموقع الطبيعي للفرد)، فالمقابلات المتعمقة قد تكون طريقة جذابة ومناسبة.

وقد جرت العادة أن يسعى الباحثون الذين يُجرّون المقابلات المتعمقة للتعرف على الأنماط التي تظهر من واقع "الوصف المكثف" للحياة الاجتماعية والتي ترد على أسئلة المبحوثين. وبهذا المعنى تكون المقابلات الكيفية مُصمّمة للوصول إلى المعلومات أو المعرفة "الخبيئة في الصدور" (Johnson, 2002, p. 104). وفي هذا الصدد تُوفّر المقابلات المتعمقة كما كبيراً من البيانات في صورة سجلات المقابلة (المدونة)، والتي تُختزل فيما بعد من خلال العملية التحليلية والتأويلية. وعلى ذلك، فإن المقابلات الكيفية تختلف عن المقابلات الكمية، والتي تتكون من أسئلة مقننة وموحدة (والتي تكون ذات نهاية مغلقة غالباً، بمعنى أنها ذات اختيارات مُحَدَّدة للإجابات الممكنة) وذلك بهدف الحصول على بيانات قياسية موحدة.

ولكن متى يكون من المناسب استخدام المقابلات المتعمقة؟ إن المقابلات المتعمقة تدور دائماً حول قضية أو موضوع معين. معنى ذلك بعبارة أخرى أن هذه الطريقة تفيد حينما يكون لدى الباحث موضوع مُعين يريد أن يركّز عليه ويحصل على المعلومات المتصلة به من أولئك الأفراد. وكما سنرى في الفصل التالي من هذا الكتاب، فإنّ هذه الطريقة تختلف عن المقابلات التي تستخدم في دراسة التاريخ الشفاهي، والتي قد يتم فيها استيعاب القصة الكاملة لحياة المبحوث على امتداد الجلسات التي تجرى فيها هذه المقابلات. بينما من المعهود أن تجرى المقابلات المتعمقة في جلسة واحدة واحدة مع فرد بعينه تتم مقابلته (وإن كان من الممكن عقد أكثر من جلسة واحدة)، وأن تدور المقابلة حول موضوع مُحدد يهتم الباحث. مثال ذلك، قد يجدُّ الباحث المهم بموضوع كيف يوازن العائل الوحيد -سواء كان الأم أو الأب- بين العائلة والعمل، أو بموضوع كيف تشعرُ الفتيات الصغيرات بالمسائل الخاصة بصورة الجسد؛ قد يجدُّ هذا الباحث أن المقابلات المتعمقة في غاية الجاذبية. ذلك أن هدف المقابلات المتعمقة هو الحصول على بيانات كيفية وفيرة، وذلك انطلاقاً من وجهة نظر أفرادٍ مُختارين، وبالتركيز على موضوع معين.

مثال ذلك، أننا في بحثنا عن صورة الجسد لدى مجموعات مختلفة من الأفراد أصبحنا مهتمين بموضوع كيف يشعر الأفراد المثليون من الذكور، والسحاقيات من الإناث، ومزدوجو الجنس (الذين يضاجعون كلا الجنسين) بصورة الجسد. فمع أن استعراضنا للتراث العلمي المنشور كشف عن وجود بعض البيانات التي تشير إلى مجموعة مختلفة من قضايا صورة الجسد تتباين تبعا للميول الجنسية، إلا أن البيانات التي حوتها تلك المؤلفات كانت ضئيلة كما أنها قليلة القيمة فيما يتصل بتفسير هذه الفروق بأسلوب دقيق. وقد تضمنت بعض الأسئلة التي كنا في حاجة لتوجيهها: ما هو شعور النساء السحاقيات نحو أجسادهن؟ وما هي المقاييس التي يُحكمُ عليهنَّ بها في مجتمع المثليين من الذكور وفي مجتمع ممارسي الجنس السوي؟ كيف يشعر المبحوثون بهذه المقاييس، وكيف تجعلهم هذه المقاييس يشعرون بأنفسهم؟ وكيف يرون الجاذبية؟ وما هي المشكلات المتعلقة بتقدير الذات التي يشعرون بها، ولماذا؟ وما هي الفروق - إن وجدت - التي يرونها في نموذج الجسد بين المثليين وممارسي الجنس السوي؟ وكيف أثر دعم - أو نقص دعم - الجماعة الأولية لتوجههم الجنسي، على صورة الجسد عندهم؟ وهذه القضايا مجرد عينة من القضايا التي بالإمكان استكشافها باستخدام طريقة المقابلة المتعمقة. وبإمكان هذا النوع من الدراسة أن يزودنا بكل من البيانات الوصفية والبيانات المفسرة، كما أنه مناسب في البحث الاستكشافي عندما تكون المعلومات المتاحة عن ميدان معين قليلة. فهي بنا نلقي نظرة على أحد النصوص المستخلصة من سجل لمقابلة أُجريت مع مبحوثة سحاقية شابة عانت من النهم القهري (المرضي)، ونرى نوع المعلومات التي تُستخرج من خلال هذه الطريقة (ملاحظة: يرمز الحرفان لعبارة: Over-Eaters Anonymous OA، أي: النهمون مجهولو الاسم):

الباحثة (القائمة بالمقابلة): هل ترين، بصفة عامة، أن النساء اللاتي يمارسن الجنس السوي - بالمقارنة مع النساء السحاقيات - يعانين قدراً أكثر أو أقل من "المشكلات" المتصلة بأجسادهن؟

المبحوثة: في تصوري أن النساء اللاتي يمارسن الجنس السوي يعانين قدراً أكبر من هذه المشكلات، إلا أنه توجد حالات استثنائية بالتأكيد. فأنا لي صديقة تستحوذ عليها الهواجس الخاصة بهذا الموضوع. وقد كنتُ قابلتها في "اجتماع" للأفراد المصابين بالنهم المرضي مجهولي الأسماء وكانت ما تزال تتمتع بجسد رشيق منتصب القامة. وأعرف عدداً قليلاً من السحاقيات، وقد يكون في هذه العبارة شيء من المبالغة، إلا أنهنَّ كنَّ يشعرن بقدر كبير من المشكلات المتعلقة بصورة الجسد عندهن، والتي يفاقم منها بدانة الفرد.

الباحثة: وكيف كان هذا الانتقاد يظهرُ في الاجتماعات، وذلك بقدر ما...؟
المبحوثة: إنه لا يظهر في الاجتماعات، فالناس لا يرغبون في ذلك، ولكن بعضهم يتحدث عن الموضوع، والذي يطلقون عليه "وقار البدناء". فالأفراد الذي يعدونهم بدناء يصفونهم بأنهم ليسوا مصابين بالنهم (المرضي) في تناول الطعام، وهم يظنون أنهم يخفون من ضخامة أشكالهم، فيسمون حالتهم "وقار البدناء"، وأنا أكره هذا التعبير عندما يقولونه.

الباحثة: م م م م (تصدر أصواتاً كالغمغمة، لمجرد الاستجابة دون التدخل - المترجم).

المبحوثة: ومع ذلك، فإن الناس لا ينتقدون الآخرين في الاجتماعات، فهم لا يمكن أن يفعلوا ذلك أبداً. فمثل هذه الأمور يقولها الناس خارج الاجتماعات. ولكن بصورة عامة، أودُّ أن أعبر هنا عن وجهة نظر مجتمع السحاقيات، وهي عبارة تنطوي - في رأيي - على قدر هائل من التعميم أيضاً.
الباحثة: نعم.

المبحوثة: أنا أقلُّ تركيزاً على أن يكون جسدي مناسباً في شكله أو حجمه.

الباحثة: م م م م (همهمات)

المبحوثة: هذا ما أشعر به. فإنك إذا ذهبت إلى حفلة خاصة بالسحاقيات، فسوف ترين عدداً كبيراً من النساء اللاتي لهن أجساد ذات أحجام مختلفة، فممنهن ذوات الحجم الكبير، وذوات الحجم الصغير، والباقي يتراوح بين هذين الحجمين.

الباحثة: هذا صحيح.

المبحوثة: أظن أنك تودين - ولو أن هذا ليس صحيحاً - أن تزداد أجساد الناس ضخامة باضطراد عموماً. نعم، وأنا بالتأكيد أتصور أن هذا صحيح، إلا أن من المؤكد أن هناك حالات استثنائية.

الباحثة: نعم.

المبحوثة: حسناً، فأنا متأكدة من أنني شبيهة إلى حد بعيد في مشاعري بكل ما تشعرينه تجاه نفسك، وذلك قبل أن تكشف شخصيتك التي من المحتمل أنها لا تزال تؤثر في الناس.

الباحثة: نعم، ففي الأغنية التي عنوانها "هل أصبحت نحيفة بما فيه الكفاية؟" كانت الطالبات الجامعيات ممن يمارسن الجنس العادي مشغولات بهاجس استحوذ عليهن وهو أن يكنَّ نحيفات، بل نحيفات جداً، بل أنحف مما يستطعن الوصول إليه أساساً.

المبحوثة: أعرفُ عدداً قليلاً من السحاقيات بهذا الشكل. إلا أن معظم السحاقيات لسنَ كذلك. فهن لا يُبالين أبداً بهذا الموضوع برمته. وأنا أقصد بذلك ما يشعرن به في أعماق قلوبهن إزاء هذا الموضوع، ولكنني لا أدري على وجه اليقين، وإنما أقصد أن أعبر عن شعورهن من واقع ما يجري بيننا من حوار وتفاعلات فقط.

الباحثة: نعم

المبحوثة: وأنا أرى أن جزءاً من ذلك يرجع إلى أنكم لا تؤمنون بقدر كبير من هذه الأمور الثقافية.

الباحثة: م م م م (همهمة).

المبحوثة: كما أن كثيراً من النحيفات يتصورن أنهن لابد أن يحرصن على النحافة حتى يستطعن الظفر بأحد الشبان.

الباحثة: م م م م (همهمة).

المبحوثة: أعني أنني أرى أن كثيراً منهن يتصورن ذلك، فلكي يشعرن بالرضا عن أنفسهن لابد أن يكنَّ نحيفات، ولكنني أتصور أن كثيراً منهن يرين

أن الرسالة الموجهة من المجتمع إلى النساء هي: أن النحافة هي سبيل حصول
الواحدة منهن على فتى ترافقه.

الباحثة: نعم.

المبحوثة: وأعتقد أن الصورة ليست كذلك في مجتمع السحاقيات، إذ أن
الرسالة ليست بهذه القوة. فآلاف النساء البدينات لديهن رفيقات.

الباحثة: م م م (همهمة).

المبحوثة: وبهذا الشكل فإن هذا الأمر ليس بالمشكلة الضخمة، هذا ما
أتصوره.

الباحثة: م م م (همهمة) هل تُشبهن يا معشر السحاقيات مجتمع المثليين من
الذكور، وهل تشاركين أنت في تجمع كهذا أم أنك تشبهن بدرجة أكبر -
الأصدقاء المتناثرين، أم أنك تشكلن مجموعة من الصديقات؟

المبحوثة: لا، لم أعد بعد مشتركة في مجموعة من الصديقات. فأنا الآن لي
بعض الأصدقاء من المثليين، ومعظم أصدقائي الآن من المصابات
بالنهم (المرضي) مجهولي الأسماء، ومنهن سحاقيات، ومنهن من يمارسن
الجنس الطبيعي. ولي بعض الأصدقاء من المثليين، ولي صديقتان هما
جلاديس وأنيثا، وترجع صداقتنا إلى حوالي ٢٥ سنة.

الباحثة: م م م (همهمة).

المبحوثة: إنهما زوجان سعداء، حقاً إنهما غير متزوجتين زواجاً قانونياً،
ولكنهما زوجان سعداء. وأنا عندما كنت في العشرينيات من عمري كنت
أُسكع مع هذه المجموعة من السحاقيات، ولكن عندما توقفت عن شرب الخمر
تباعدت نوعاً ما عن تلك المجموعة. ولكني الآن أراهن نادراً.

الباحثة: نعم.

المبحوثة: وأنا أذهب أحياناً إلى حفلات أعياد الميلاد أو ما أشبه ذلك. ولكني
في الواقع ليس لي الآن جماعة من المثليين الذين أُسكعُ معهم في أغلب
الأحوال.

بالبحث في هذه القطعة من هذا السجل المدون للمقابلة يمكننا ملاحظة بعض النقاط:

أولاً: تُعدُّ المقابلات المتعمقة وسيلةً للحصول على المعلومات وعلى الفهم الصحيح لها من الأفراد، وذلك فيما يتصل بموضوع مُحدد. وفي حالتنا هذه، كُنَّا مهتمين بفهم مشاكل صورة الجسد عند امرأة من السحاقيات، ومهتمين كذلك بفهم نظرتها لمشاكل صورة الجسد عند كلٍّ من مجتمعات المثليين ومجتمعات ممارسي الجنس العادي.

ثانياً: تمثل المقابلات المتعمقة نوعية خاصة متميزة من التفاعل، ونوعية خاصة من الحوار. فالحوار "العادي" يتضمن قدراً أكبر من الأخذ والرد بين الطرفين المتحاورين، حيث يطرح كل منهما أفكاره على الآخر. أمّا المقابلة المتعمقة فهي نوع مختلف من الحوار. إذ يبدأ الباحث الذي يجري المقابلة بطرح سؤال ثم يقوم بعدها بدور المُنصت الفعّال. وكما تستطيع أن تری في المثال الذي أوردناه، فإن الباحثة قالت كلمات قليلة جداً في الواقع، إلا أنها أظهرت اندماجها في الحوار من خلال إيماءاتها وهمماتها وأسئلتها التي تسبّر أغوارَ المبحوثة. وقامت المبحوثة بالحديث معظم الوقت، وذلك على الرغم من أن الباحثة حاضرة حُضوراً بالغاً في هذا الحوار وفي السجل الذي تضمن هذا الكلام.

وأخيراً، فإن المبحوثة تتكلم على مُستويين: الأول انطلاقاً من خبرتها والثاني انطلاقاً من إحساساتها. فهي تتكلم عن خبرتها الشخصية فيما يتصل بمشكلات الصراع مع الوزن الزائد والمشكلات المتعلقة بصورة الجسد، كما أنها تتكلم عن إحساسها بالضغوط الاجتماعية على النساء المثليات والنساء اللاتي يمارسن الجنس العادي بناءً على خبرتها في هذه الثقافة.

كما أن المقابلات المتعمقة تعيننا إلى حد بعيد على الاقتراب من الأصوات المقهورة، ومن ثم الوصول إلى المعرفة المقهورة. فهؤلاء الذين تم تهميشهم في المجتمع، كالنساء، والملونين، والمثليين، والفقراء، قد يكون لديهم خبرات محجوبة ومعرفة جري قمعها واستبعادها عن إدراكنا للحقيقة الاجتماعية. والقيام بإجراء المقابلات هو أحد طرق الاقتراب من بعض هذه المعلومات. وتشرح شولاميت راينهارز Shulamit Rainharz (١٩٩٢) كيف

أن إجراء المقابلات كان من الطرق التي اتبعتها الباحثون النسويون للوصول إلى ما لدى النساء من معرفة جرى إخفاؤها أو قمعها:

... يُوفّر إجراء المقابلات للباحثين سبيل الوصول إلى أفكار الناس، ومشاعرهم، وذاكراتهم محكيةً بالفاظهم هم وليس بالفاظ الباحث.

وتعدّ هذه الميزة التي تتميز بها طريقة المقابلة ذات أهمية خاصة لدراسة النساء، لأنه بهذه الطريقة يكون التعلم من النساء بمثابة علاج لقرون من تجاهل أفكار النساء تجاهلاً تاماً، أو من حديث الرجال نيابة عن النساء. (ص ١٩).

وينطبق هذا الكلام نفسه على إجراء المقابلات مع الملونين، والمثليين، الذين طال زمانُ نبذهم بعيداً عن العملية البحثية. وقد كان الوصول إلى الخبرات التي تم حجبها لدى النساء السحاقيات والتعرف على علاقتهم بأجسادهن أحد دوافع الدراسة التي استخرجنا من سجلها النص المذكور قبل ذلك.

والآن، وأنت تبدأ إدراك ما هي المقابلة المتعمقة، ومتى تكون طريقة مناسبة لمعالجة موضوع بحثك وأسئلته، هيا بنا نبحث تصميم البحث.

تصميم دراسة مقابلة متعمقة

إن معظم ما ناقشناه في الفصل الثاني من أساليب تصميم البحث ينطبق على تصميم دراسة المقابلة المتعمقة، كما سيوضح فيما يلي:

١- يحتاج الباحث لأن يختار موضوعاً للبحث ويصوغ هدفاً لبحثه (ويبلور أساساً، في هذه المرحلة أو فيما بعد أثناء الجمع الأولي للبيانات سؤالاً لبحثه).

٢- وفي الخطوة التالية: يتوجب اختيار الأفراد الذين ستجري معهم المقابلات، والذين قد يُطلق عليهم أحياناً مصطلح "الإخباريين" أو "المبحوثين".

٣- اختيار العينات فمن الممكن أن يجري بأي من الطرق التي ناقشناها في الفصل الثاني من كتابنا هذا، كطريقة اختيار العينة الاحتمالية أو طريقة العينة النظرية أو طريقة عينة "كرة الثلج" (والتي تُعرف كذلك بعينة الملاممة).

- ٤- وينبغي أن يكون لدى الأفراد الذين يختارون لإجراء المقابلة معهم نوعُ المعرفة أو المعلومات التي يرغب الباحث في الوقوف على طبيعتها.
- ٥- وفي بعض الأحيان يَدْفَعُ الباحثون لمن تجري مقابلتهم مبلغاً صغيراً من المال أو يعطوهم هدية (كشهادة تقدير) تعبيراً عن شكرهم لهم على مشاركتهم، وإن كان هذا التصرف ليس ضرورياً في العادة.
- ٦- وتُجري أفضل المقابلات مع المبحوثين الذين يودون إطلاع الآخرين على ما لديهم من حكايات ومعارف، بحيث تصبح عملية المقابلة - من الناحية المثالية - خبرة مشبعة بذاتها لهؤلاء المشاركين وتفي بالغرض الذي يودونه.

وبمجرد أن يقع الاختيار على المبحوث ويتقرر أنه سيشارك في مقابلة، فإنه يتعين ترتيب زمان ومكان إجرائها. وغالباً ما تُجرى المقابلات المتعمقة في مكتب الباحث أو في بيت المبحوث، وإن كان يمكن اختيار أي مكان يتوفر فيه عنصر الخصوصية، إذ سيكون مناسباً طالما أشعر الطرفين بالراحة. وعادة ما تستغرق هذه المقابلات الشخصية المكثفة من ساعة إلى ساعتين، وإن كان من المحتمل أن يستغرق بعضها مدةً أقل. كما يمكن إجراء المقابلات عن طريق التليفون أو بالبريد الإلكتروني. والمقابلات التليفونية مختلفة، لأنها لا تتم وجهاً لوجه، ومن ثم فإن الإيماءات، وتلقي العيون، وغيرها من وسائل إيذاء الاهتمام وتحقيق الألفة بين الباحث والمبحوث تكون غائبة وغير ممكنة. يضاف إلى هذه المسائل، أن المقابلات التي تتم عن طريق البريد الإلكتروني تُعتبر نوعاً من الحوار مختلفاً تماماً، فهي نوع يتم فيه التواصل في بطنٍ بالمقارنة بالتدفق الذي يحدث في المقابلات الشخصية أو التليفونية. وبالمثل، فإن الناس يكتبون بمعدل أبطأ وبصورة مختلفة عن أسلوبهم في الكلام، لذلك تكون ردودهم (المكتوبة في البريد الإلكتروني) أميل لإعمال العقل والتروي فيها، ولأن تكون أقل تلقائية، وأكثر اقتضاباً. ونحن نوصي بالآلة تستعمل هذه الطرق إلا عندما يتعذر إجراء المقابلة الشخصية المباشرة بسبب نقص الوقت، أو المال، أو الاعتبارات العملية الأخرى. وسنحاول في هذا الفصل التركيز على طريقة إجراء المقابلة الشخصية

المباشرة (التي تتم من خلال المواجهة واللقاء المباشر) وإن كنا نريد أن نضع هذه الاختيارات الأخرى في نطاق اهتمامك أيضاً.

وينبغي شرح مسألة الموافقة عن علم قبل إجراء المقابلة، كما ينبغي تنفيذها رسمياً سواء أتم ذلك قبل المقابلة أم عند إجرائها. وعلى الرغم من أن مسألة الموافقة عن علم والمشاركة الطوعية قد نوقشت في موضع سابق من هذا الكتاب، فإن من المهم إعادة تكرار هذه المسألة قبل البدء بالمقابلة. إذ ينبغي إعطاء المبحوثين كل فرصة ليطرحوا ما يعين لهم من أسئلة. لأن من شأن هذا أن يصل بنا إلى الجوانب المتميزة للمقابلات المتعمقة. وبالنسبة للباحثين المبتدئين، يجب أن نتذكر أن هناك أنواعاً مختلفة من المقابلات المتعمقة التي تتفاوت من حيث البنية (أي من حيث شكل المقابلة وتصميمها).

وعلى أساس السؤال الذي يطرحه بحثك وعلى ما يتوافق معه من أهداف، تستطيع أن تضع خطة لدراسة قائمة على المقابلات المقننة أو المقابلات شبه المقننة أو المقابلات المفتوحة. وتعني المقابلة المقننة أنك ستوجه إلى كل مشارك على حدة نفس مجموعة الأسئلة. فإذا شرد المبحوث فبالغ في البعد عن الموضوع المطروح للنقاش، أو قال بعض الأمور المثيرة للاهتمام، ولكنها لا تتصل اتصالاً مباشراً بهذه الدراسة، فإن على الباحث -الذي يجري المقابلة - أن يقود الحوار فيعود به إلى الحديث عن أسئلة المقابلة. وقد يعتمد الباحثون الذين يعملون انطلاقاً من منظورات فكرية تنتمي لما بعد الوضعية، إلى استخدام هذا الأسلوب المقنن في إجراء مقابلاتهم. وعندما تستعمل المقابلات المتعمقة لتأكيد أو تعزيز البيانات التي جمعت بطرق أخرى - كالمسوح الاجتماعية مثلاً - فقد تكون المقابلات المقننة مناسبة أيضاً. ذلك أن المقابلة المقننة تسمح بالقيام بدرجة أكبر من المقارنة بين أنواع المقابلات، وذلك لأن ما توفره من بيانات يكون على درجة أعلى من التوحيد والمعارية. فالباحث الذي يجري المقابلة المقننة يتصرف - إلى حد ما - على نفس النحو أثناء سائر المقابلات ويطرح نفس الأسئلة. وبهذا يمكن عقد المقارنة بين المبحوثين. كما أنه من الأسهل القيام بالتعميم (وذلك إن كان

الباحث يطبق تَوَقَّعات علمية قياسية للعمومية) الذي يستخلص من البيانات التي تم الحصول عليها بطريقة موحدة إلى حد كبير.

وإلى جانب كل ما قلناه يرى أغلب الباحثين الكيفيين أن المقابلات المتعمقة تتيح الفرصة لكلمات المبحوث، ولخبرته ورؤيته، أن تستطع تماماً خلال المقابلة. معنى ذلك -بعبارة أخرى- أن الباحثين الكيفيين يكونون على وجه العموم أميل إلى فرض درجة أقل من التقنين على ما يُجرونه من مقابلات، ومن ثَمَّ فإنهم يُفضلون المقابلات شبه المقتنة على المقابلات المفتوحة (أو ذات المستوى البسيط من التقنين). يُضاف إلى ذلك (وكما رأينا في فقرة خلف الكواليس مع دافيد كارب في الفصل الثاني من هذا الكتاب) أن الباحثين الكيفيين لديهم طرُقاً مختلفة عادةً في فهم أو تصور معنى العمومية، مما يُتيح لهم أن يستعملوا المقابلات الأقل تقنيًا في نفس الوقت الذي يقومون فيه بقدر أكبر من الاستنتاجات ومن توليد النظرية الاجتماعية.

وتعتمد المقابلات شبه المقتنة على مجموعة من الأسئلة، مع محاولة توجيه الحوار ليظل دائراً حول هذه الأسئلة، ولكن بقدر كبير من المرونة والحرية. بجانب ذلك، تُتيح المقابلات شبه المقتنة للأفراد المبحوثين أيضاً قرأً من حرية التصرف وحرية الكلام عما يعتل في صدورهم أو يمثل أهمية لديهم. وبتعبير آخر نقول، إنه بينما يحاول الباحث فعلاً أن يسأل كل مبحوث على حدته مجموعة معينة من الأسئلة، فإنه يتيح الفرصة أيضاً، لأن ينساب الحوار بصورة أكثر طبيعية، بما يسمح للحوار أن يذهب في اتجاهات جديدة وغير متوقعة. وغالباً ما يكون لدى المبحوثين من المعلومات أو المعرفة ما لم يكن قد طرأ على بال الباحث من قبل. وعندما تظهر مثل هذه المعرفة غير المتوقعة، فإن من المرجح أن يسمح الباحث الذي يستخدم تصميمًا شبه مقنن في المقابلة أن يسمح للحوار أن يتطور، محققاً بذلك في آفاق موضوعات جديدة ذات صلة وثيقة بالمبحوث.

وفي المقابلات ذات المستوى البسيط من التقنين أو المقابلات المفتوحة تماماً، يُتَّبَع هذا الإجراء المتحرر بصورة أكبر. فمع أنه يكون لدى الباحث موضوع مُعين لهذه الدراسة، إلا أنه يُتيح للحوار أن يذهب إلى حيث

يَرْغَبُ المَبْحُوثُ، وبذلك تُصَبِّحُ كُلُّ مَقَابِلَةٍ عَلَى حِدَةٍ مُتَّسِمَةً بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ التَّفَرُّدِ. وَلَا تَخْضَعُ الْبَيِّنَاتُ الْمُسْتَقَاةُ مِنْ هَذَيْنِ النُّوعَيْنِ مِنَ الْمَقَابِلَاتِ لِلْقِيَاسِ (Reinharz, 1992, p. 18). ففِي الْمَقَابِلَاتِ ذَاتِ الْمُسْتَوَى الْبَسِيطِ مِنَ التَّقْنِينِ يَطْرَحُ الْبَاحِثُ عِدَّةً قَلِيلًا مِنَ الْأَسْئَلَةِ ذَاتِ الطَّابِعِ الْعَامِ، لِكَيْ يُنْتِجَ لِلْمَبْحُوثِ أَنْ يَنْتَقِلَ بِالنَّقَاشِ فِي الْإِتْجَاهَاتِ الَّتِي يَرْغَبُ فِيهَا. وَيَنْسَجِمُ هَذَا الْمَدْخَلُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ مَعَ مُسَلِّمَاتِ النَّمُودَجِ النَّظَرِيِّ الْكَيْفِيِّ.

يَقُومُ الْبَحْثُ الْآخِذُ بِطَرِيقَةِ الْمَقَابِلَةِ الْمَفْتُوحَةِ بِاسْتِكْشَافِ آرَاءِ النَّاسِ أَوْ وَاقِعِ حَيَاتِهِمْ، وَبِذَلِكَ يُنْتِجُ لِلْبَاحِثِ أَنْ يُولَدَ النَّظَرِيَّةُ. وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَتِمُّ مِثْلُ هَذَا الْبَحْثِ الْقَائِمُ عَلَى الْمَقَابِلَةِ الْكَمِّيَّةِ وَالْمَقَابِلَةِ ذَاتِ النِّهَايَةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَالَّذِي يَحَاوِلُ اخْتِبَارَ الْفُرُوضِ (Reinharz, 1992, p.18).

وَتُؤَثِّرُ دَرَجَةُ التَّقْنِينِ الْمَفْرُوضِ أَثْنَاءَ الْمَقَابِلَةِ عَلَى دَوْرِ الْبَاحِثِ فِي مَوْقِفِ الْمَقَابِلَةِ. فَكَلَّمَا زَادَتْ دَرَجَةُ التَّقْنِينِ الَّتِي يَسْعَى لَهَا الْبَاحِثُ، زَادَ تَحَكُّمُهُ فِي مَوْقِفِ الْمَقَابِلَةِ.

بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنْ بِإِمْكَانِ الْبَاحِثِينَ أَنْ يَنْتَهَيَا إِلَى الْمَقَابِلَةِ عَنْ طَرِيقِ وَضْعِهِمْ دَلِيلًا لِلْمَقَابِلَةِ. وَدَلِيلُ الْمَقَابِلَةِ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَجَالَاتِ وَالْأَسْئَلَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَوْضُوعَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، يَطْرَحُهَا الْبَاحِثُ فِي الْمَقَابِلَةِ. وَيَقْتَرِحُ وَايس (Weiss) (١٩٩٤) الْبَدَأَ "بِإِطَارِ مَوْضُوعِي أُسَاسِي" ثُمَّ اسْتَعْمَالَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي صِيَاقِ دَلِيلِ الْمَقَابِلَةِ. ذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَ التَّفَكُّيرِ فِي وَضْعِ دَلِيلٍ لِلْمَقَابِلَةِ يَكُونُ مِنَ الْمَفِيدِ التَّفَكُّيرُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ أَوْ لَا قَبْلَ وَضْعِ الْأَسْئَلَةِ الْخَاصَّةِ بِهَا. مَعْنَى ذَلِكَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنْ بِالإِمْكَانِ وَضْعُ أُدْلَةٍ لِلْمَقَابِلَةِ عَنْ طَرِيقِ الْبَدَأِ بِمَجَالَاتِ الْبَحْثِ ذَاتِ الطَّابِعِ الْعَامِ وَالْمَجْرَدِ، وَالَّتِي يَتِمُّ انْطِلَاقًا مِنْهَا تَطْوِيرُ الْأَسْئَلَةِ وَبَلُورَتِهَا. فَلِكَيْ تَبْدَأَ، دَوِّنْ قَائِمَةً "بِالْمَوْضُوعَاتِ الْمَطْلُوبِ مَعْرِفَتِهَا". (وايس، ١٩٩٤). وَيَعُدُّ كُلُّ مَوْضُوعٍ مَذْكُورٍ فِي هَذِهِ الْقَائِمَةِ "مَسَارًا لِلْبَحْثِ" - أَوْ قَلَّ مَجَالًا لِلْبَحْثِ - تَرِيدُ أَنْ تَتَعَقَّبَهُ أَثْنَاءَ جُلُوسَةِ الْمَقَابِلَةِ. وَهَكَذَا يَكُونُ بِالإِمْكَانِ وَضْعُ أُسْئَلَةِ الْمَقَابِلَةِ "لِلْوُصُولِ إِلَى" الْمَعْلُومَاتِ الْدَاخِلَةِ فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ. فَدَلِيلُ الْمَقَابِلَةِ يُعَدُّ -أَسَاسًا- بِمَثَابَةِ قَائِمَةٍ بِالْمَوْضُوعَاتِ تَتَّضَمَّنُ -أَوْ لَا تَتَّضَمَّنُ- أُسْئَلَةً خَاصَّةً مَكْتُوبَةً تَحْتَ كُلِّ مَوْضُوعٍ تَنْتَمِي إِلَى "مَجَالَاتِ الْبَحْثِ" الَّتِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهَا الْبَاحِثُ أَثْنَاءَ وَضْعِ الْمُسَوَّدَةِ الْأُولَى لِهَذَا

الدليل (Weiss, 1994, p.48). وتُعَدُّ عملية إعداد دليل للمقابلة، حتى لو لم يُستعمل، إجراءً تمهيدياً أو تحضيرياً مهماً للمقابلة (وايس ١٩٩٤)، لأنه يساعد الباحث على تحديد وبلورة القضايا الأساسية وعلى التفكير في أنواع الأمور أو الأحوال التي قد يرغب في أن يسأل عنها المبحوثين. وتُعَدُّ المقابلات الاستطلاعية بمثابة فرصة للباحثين ليختبروا، بصورة تفصيلية، فاعلية دليلهم البحثي (وايس، ١٩٩٤):

- هل الدليل واضح ومفهوم؟
 - هل يشمل الدليل كل مجالات الموضوعات التي تهتمُّ بها؟
 - هل ينقص الدليل أى من مجالات الموضوعات المطلوب بحثها أو الأسئلة العامة المتعلقة بها؟
- وبناءً على خبراتك السابقة في إعداد دليل للمقابلة، يُمكنك حينئذٍ تكيف هذا الدليل ليناسب احتياجاتك بصورة أفضل.
- يتحدث دافيد كارب عن إعداد أدلة المقابلة، بوصفها عملية تحليلية، في الفقرة التالية "من خلف الكواليس":

خلف الكواليس مع دافيد كارب

البحث عن الموضوعات الرئيسية، هو البحث عما أظنه "مجالات البحث". وطبيعي أن تلك الموضوعات أو الأفكار الأساسية لا تأتي من فراغ، على أساس أنه سبق لي أن قمتُ بقدر كبير من الإعداد قبل ذلك. وهذا الإعداد الكثيف يعد أمراً في غاية الأهمية فعلاً، وذلك لأنه كثيراً جداً ما يحدث عندما يقوم الناس بإجراء المقابلات المتعمقة أن يتصوروا أن إعداد دليل المقابلة على هذا النحو يعني: "حسناً، لقد فرغت من هذه المهمة وأزحتها بعيداً عن طريقي". أما أنا فأرى مهمة اكتشاف مجالات البحث هذه بوصفها خطوة تحليلية مهمة بشكل لا يُصدق في عملية تنفيذ هذا العمل. وإذا تكلمنا عن العملية في مجملها، فبوصولك إلى مرحلة الكتابة، (وهي في حالتي مرحلة كتابة الكتب أو المقالات) ستكون العملية بمثابة دائرة كاملة، لأن مقدار الوقت والطاقة الذي بذلته في تجميع فقرات هذا الدليل معاً يجعلني في الواقع مُقدماً العناصر المحورية التي سأكتب عنها في نهاية الأمر. ومع ذلك فإن هذا الشيء ليس في نهاية الأمر سوى مجرد دليل، وربما يحدث في أي مقابلة

أجربها أن يكون ٦٠% من الأسئلة التي أطرحها غير واردة في ذلك الدليل. فأنتَ تجلس، وتُجري حواراً مع شخص ما، وإنَّ البراعة في إجرائك المقابلة المتعمقة لتتمثل في معرفتك متى تتابع بمزيد من الأسئلة والنقاش ما يقوله هذا الشخص (المبحوث) في لحظة معينة. وعندما تقترب المقابلة من نهايتها، فإنني أكون بحاجة للتأكد من أن كل المجالات التي أحتاج لتغطيتها قد غطيت فعلاً. إلا أنك ستُخسِرُ الصفة كُلَّها إذا كانت الأسئلة التي طرحتها مقصورة على الأسئلة الموجودة في دليل المقابلة فقط.

من الأهمية ألا تكون أدلة المقابلة في غاية الطول أو في غاية التفصيل. إذ المقصود منها أن تكون أدوات مُساعدة للباحث، إلا أنه لا ينبغي للمقابلة النموذجية أن تعتمد بشكل بالغٍ عليها، ذلك أن التركيز المُفْرِط على دليل المقابلة في حد ذاته قد يصرف انتباه الباحث عن الاهتمام الكامل بالمبحوث. فالمقصود من دليل المقابلة إلقاء نظرة سريعة عليه عند الحاجة إلى ذلك، كما أنه ينبغي - من الناحية النموذجية - أن يظلَّ غير مُستعمل، أو يُستعمل كمحفز للباحث (وايس، ١٩٩٤، ص ٤٨). وبالإمكان كذلك أن يقوم هذا الدليل بدور "قائمة المراجعة" بالنسبة للباحث عند نهاية المقابلة، أي أن يكون طريقة للتأكد من أن كل الموضوعات قيدَ الدراسة والفحص قد تمَّ التطرق إليها، حتَّى وإنَّ لم يجرِ هذا التناول وفقاً للتسلسل الذي يتضمّنه دليل المُقابِلة. (وايس، ١٩٩٤، ص ٤٨).

إن دليل المقابلة شيء أساسي لإجراء مقابلة ناجحة، كما أن تحضير دليل المقابلة يُعتبر نافعاً بالذات للمبتدئين من الباحثين القائمين بإجراء المقابلات. فبمُجرد اختيار العينات ووضع القرارات الخاصة بتقنين المقابلة وإنشاء دليل لها، يُمكنُ البدء بجمع البيانات. وثمة عدد كبير من النصائح التي يمكن تقديمها لتحقيق المقابلات الناجحة؛ ومع ذلك، فإننا نَحْنُك على تعلم هذه الخبرات بنفسك عن طريق الممارسة. ذلك أن القيام بإجراء المقابلة المتعمقة يُعدُّ مَهارةً وبراعة، وهو - بهذه الصفة - يُتيح للمرء أن يتَحَسَّن أدأؤه مع التجربة.

المقابلة: إجراء المقابلات المتعمقة

تُعَدُّ المقابلات المتعمقة نوعاً من الشراكة في خلق المعنى بين الباحثين القائمين بإجراء المقابلة والمبحوثين الذين تجري معهم المقابلات. وتتيح هذه الجلسات فرصة للباحثين للتعرف على الحياة الاجتماعية من خلال رؤى، وخبرة، ولغة من يعيشونها. كما تُتاح للمبحوثين فرصةً ليشاركوا بتقديم حكاياتهم، ونقل معرفتهم، وطرح رؤاهم الشخصية حول طائفة من الموضوعات. لذلك تُعتبرُ المقابلات الكيفية نوعاً خاصاً من الحوار المُنتج للمعرفة والذي يجري بين طرفين. وتُعَدُّ العلاقة القائمة بين الباحث الذي يجري المقابلة والمبحوث الذي تجري مقابلته أمراً في غاية الأهمية لعملية خلق المعنى.

وكما سبقَت الإشارة في الفصل الأول من هذا الكتاب، فإنَّ الباحثين الكيفيين الذين يعملون انطلاقاً من آراء نظرية وإستيمولوجية تدرجُ تحت مظلة الفلسفة التأويلية يَهْتَمُّونَ بموضوع "المشاركة في خلق المعنى". "معنى ذلك بعبارة أخرى أن الغالب على الباحثين الكيفيين أنهم يُحاولون اختصار أيَّ تدرج في المكانة بين الباحث والمبحوث. فإثناء الموقف الذي تُجرى فيه المقابلة المتعمقة يكون لدى الباحثين القدرة على أن يضعوا أنفسهم في نفس مُستوى المبحوثين وأن يعملوا معاً متعاونين وهم يُنتجون المعرفة العلمية الاجتماعية. وفي هذا المسعى، يُمكن وصف هذه العلاقة القائمة بين الباحثين الذين يُجرون المقابلة والمبحوثين بأنها علاقة تبادلية. والأكثر من ذلك أن المبحوثين يعدون في هذا الموقف حُجَّةً فيما يتصلُ بما يروونه من حكاياتهم الشخصية، بما يعني أنه يُنظرُ إليهم باعتبارهم "خبراء". ولكي تتحقق هذه التبادلية في العلاقات وهذه المرجعية المُشتركة، يَتَعَيَّنُ على هذين الطرفين أن يشعرا بالارتياح مع بعضهما. لذلك يُساعد الباحثون المبحوثين على تقديم حكاياتهم عن طريق إيجاد "الألفة" معهم. ويجب أن يشعر المبحوثون بالأمان، وبالراحة، كما يجب أن يشعرا كما لو أن ما يقولونه يحظى بالتقدير. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، يجب على الباحثين أن يقوموا بدور المنصتِ الفعال عندما يكون المبحوث مُستغرقاً في الكلام. ويُعَدُّ إبداء الاهتمام الصادق بالمبحوث

أمراً جوهرياً لتوطيد الألفة. فالباحثون لا يُجرون المقابلات ليُحكموا
مبحوثيهم، وإنما ليساعدوهم على الإقضاء في الحكايات التي يرونها بما
يُعدونه جوانب شديدة الأهمية. فتلاقي العيون والإشارات المناسبة (كالإيماءة
بالرأس علامة على الموافقة) تُعدُّ أموراً مهمة لتأكيد الألفة وجعل المقابلات
أمراً مثيراً. ويُعتَبَرُ النقاطُ الإحياءات ومحاولة استيضاحها طريقة أخرى تُبينُ
بها للمبحث أنك مُهتَمٌّ بما يقوله. وبالمثل، فإنَّ "الإحياءات" تُعدُّ مصدراً قيماً
للمعلومات، كما تؤدي في كثير من الأحيان للوصول إلى ذلك النوع من
الوصف المكثف الذي يميز البيانات المُستمدَّة من المقابلة الكيفية.

وتعتبر الإحياءات قطعاً من المعلومات التي قد يُقدمها المبحث في
سياق حديثة عن شيء آخر. ويشرح وايس (١٩٩٤) معنى الإحياءات وكيف
يُمكن أن تظهر كما يلي:

... الإحياءات إشارات عابرة تصدر من المبحث تُشيرُ بها إلى حدث
مهم أو إلى حالة شعورية مهمَّة ... ونظراً لأن الإحياءات ترد في سياق الكلام
عن شيء آخر، فَلَعَلَّه يُتَوَجَّبُ عليك أن تحتفظ بها في ذاكرتك ثم تعود بعد ذلك
إليها عندما يتسنى لك ذلك، فتقول للمبحث: "منذُ لحظات قليلة ذكرت كذا...".
إلا أنه من الصواب أن تلتقط "الإحياءة" بمجرد أن يتيسرَ لك ذلك، إن كان من
المحتمل أن يكون للمعلومات التي تشير إليها هذه الإحياءة أيُّ صلة بدراستك.
أمَّا إذا تركت الإحياءة تمرُّ وتُنْقَضِي فإن ذلك سيُظهِرُ للمبحث أن هذا المجال
لا أهمية له عندك. كما أن بالإمكان أن يُظهِرَ هذا التصرفُ أنك مُهتَمٌّ فقط
بالحصول على أجوبة لأسئلتك، ولست مُهتَمّاً بالخبرة الحافلة للمبحث ... وقد
تصدَّرُ عن المبحثين أحياناً إحياءاتٌ عن طريق إشارتهم إلى أن أمراً مهماً قد
حدث ولم يتكلموا عنه. مثال ذلك أن يقولوا: "حسناً، لقد حدثت أمور كثيرة في
ذلك الوقت". حينئذ يكون من الصواب أن تجيب قائلاً: "أيمكنك أن تحكي لي
شيئاً عن ذلك؟ (ص ٧٧).

ولدراسة موضوع الإحياءات بصورة أدقَّ هيا بنا نتناول مثالنا الخاص
عن مقابلاتنا مع النساء السحاقيات فيما يتصل بالعلاقة بين هويتهن الجنسية
وصورة الجسد لديهن. فعندما تخبرك إحدى المبحثات برد فعل والديها على

"اعترافها"، ونقول في أثناء سردها لقصتها: "حسنا، فإن هذا يرجع، جزئياً، إلي ما صدر من أختي من كلام فارغ وسائر هذا الخبل والجنون..." ثم تواصل سردها لحكايتها، فإنك تكون في حاجة لأن تتذكر جيداً هذه الإيحاءات التي صدرت عنها (بل وحتى أن تكتبها). فقد لا يكون من الملائم أن تسأل المبحوثة وهي مشغلة بسرد حكاية مهمة وعويصة. ومع ذلك، فإنه ربما يتعين عليك العودة بعد أن تفرغ المبحوثة من رواية قصتها وتقول لها شيئاً كهذا: "لقد ذكرت قبل ذلك أن أختك كانت في ذلك الوقت تعاني من شيء ما أثر على ما كان يحدث لك، فهل يمكنك أن تحكي لي قليلاً عن ذلك الشيء؟". وباستعمال نفس هذا المثال، قد تتكلم هذه المبحوثة عن خبرتها في جماعة المجهولي الأسماء من المصابين بالنهم المرضي وتقول شيئاً من هذا القبيل: "لم تكن هذه الجماعة نافعة لي في الواقع، إلا أنني كنت في غاية الإحباط بسبب موضوع آخر، المهم على أية حال أن...". ثم تسترسل في كلامها عن اللقاءات التي يجتمع فيها هؤلاء المصابون بالنهم المرضي. فإذا انتهت من حكايتها فبإمكانك أن تعلق على كلامها بقولك: "لقد ذكرت أنك كنت محبطة في ذلك الوقت بسبب موضوع آخر، فهل تتوسعين في هذه النقطة من فضلك؟" فهذا التصرف يبين للمبحوثة أنك تصغي بعناية لكلامها، كما أن كلامها هذا قد فتح لك طريقاً للوصول إلى بعض المعلومات التي يُحتمل أن تكون مهمة، والتي لولاها ما كنت تدري كيف تسأل عنها.

بجانب الإيحاءات تُعتبر المجسّات Probes - كذلك - أمراً في غاية الأهمية للمقابلة الجيدة، كما أنه من المهم أن تميز بين الوقت الذي تكون فيه الإيحاءة قد أغفلت ذكر ما تريد أنت أن تلتقطه، والوقت الذي ينبغي عليك فيه أن تتوغل في إجابة المبحوث لتصل إلى المزيد من المعلومات. والمجسّات تكون ضرورية عادة وعلى الدوام أثناء إجراء المقابلة المتعمقة، خاصة إذا كانت المقابلة من النوع ذي البنية البسيطة (أي المفتوحة) والذي قد تطرّح فيه أسئلة أقل عدداً ولكنك تزداد تعمقاً في التقيب داخل ما يؤثر المبحوث أن يتكلم عنه. والمجسّ هو أسلوب الباحث لجعل المبحوثين يسترسلون في الأمر الذي يتكلمون عنه، وذلك بأن يجعلهم يتكلمون عن أمور أبعد مما تكلموا عنه أو بأن

يَقْدُمُوا مَزِيداً مِنَ الشَّرْحِ وَالتَّفْسِيرِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَقْدِيمِهِمْ لِمِثَالٍ يُوضِّحُ مَا يَقُولُونَهُ. وَقَدْ يَكُونُ الْمَجِسُّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مُجَرَّدَ عَلَامَةٍ عَلَى الْفَهْمِ وَالْإِهْتِمَامِ يُبْدِيهَا الْبَاحِثُ لِلشَّخْصِ الَّذِي يُجْرِي مَعَهُ الْمَقَابِلَةَ. وَالْآنَ هِيََا بِنَا نَعُودُ إِلَى نُتْفَةٍ مِنَ النَّصِّ الْمُسْتَخْلَصِ مِنْ سَجَلِ الْمَقَابِلَةِ - الَّذِي أوردناه فيما سبق - لنَتَعَرَفَ عَلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْمَجِسَّاتِ:

المَبْحُوثَةُ : كما أن كثيراً من النساء النحيفات يتصورن أنهنَّ لا بُدَّ أن يَكُنَّ نحيفات حتى يستطعن الظفر بأحد الشبان.

الباحثة: م م م (مهمات)

المَبْحُوثَةُ: أعني أنني أرى أن الباعث الأساسي الذي يذكرنه، أنه لكي يَشْعُرْنَ بالرُّضا عن أنفسهنَّ لا بُدَّ أن يَكُنَّ نحيفات، ولكني أرى أن السبب الأساسي هو الرسالة الموجهة من المجتمع إلى النساء، ومؤداها أنه لا بُدَّ أن تَكُنَّ نحيفات لكي تظفر الواحدة منكن بصديق.

الباحثة: صحيح.

المَبْحُوثَةُ: وهكذا، لا أدري، فأنا أرى أن مجتمع السحاقيات، ليس كذلك، فأنت تعرفين أنك لا تَتَلَقَّينَ هذه الرسالة بنفس هذه الدرجة من القوة. فكثير جداً من النساء البدينات لهنَّ صديقات.

الباحثة: م م م (مهمات)

المَبْحُوثَةُ: وهكذا، فإن هذه المسألة ليست بالمشكلة الضخمة، هذا ما أتصوره.

فليسَ عَلَى الْبَاحِثَةِ إِلَّا أَنْ تَقُولَ كَلِمَةً "صحيح"، وليسَ عَلَيْهَا أَحْيَاناً سِوَى أَنْ تَسْمَعَ الْمَبْحُوثَةَ صَوْتاً مَا كَالْهَمَمَةِ مِثْلاً (وربما تُشِيرُ لَهَا بِإِشَارَةٍ مِتْرَامَنَةٍ مَعَ كَلَامِهَا كَأَنْ تَوَمَّى لَهَا بِرَأْسِهَا) لَتُبْدِيَ لِلْمَبْحُوثَةِ أَنَّهَا تَنْصَبُ إِلَيْهَا، وَتَقْهَمُ مَا يَقُولُهُ، وَأَنَّهَا تُعْبِرُ عَنْ نَفْسِهَا تَعْبِيراً وَاضِحاً، وَأَنَّهَا تُرِيدُ مِنَ الْمَبْحُوثَةِ أَنْ تَسْتَرْسَلَ فِي كَلَامِهَا. وَنَتِيجَةً لَذَلِكَ، تَسْتَرْسَلُ الْمَبْحُوثَةُ فِعْلاً بِدُونِ الْحَاجَةِ إِلَى أَنْ تَوَاجِهَ إِلَيْهَا الْبَاحِثَةُ سِوَالاً آخَرَ. وَتُعْتَبَرُ هَذِهِ النِّقْطَةُ مِنَ الْأُمُورِ الشَّدِيدَةِ الْأَهْمِيَّةِ، لِأَنَّ الْبَاحِثِينَ الَّذِينَ يُجْزُونَ الْمَقَابِلَاتِ الْكَيْفِيَّةَ يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَتَوَلَّدَ

أكبر قدر ممكن من المعلومات الواردة في هذه المقابلات من الأفراد المبحوثين.

وعند هذه النقطة، هَلَمْ بنا لننضم إلى دافيد كارب خَلْفَ الكواليس لنلقي نظرة خاطفة على طريقته في إجراء المقابلة وفي معالجة القضايا التالية :

- كيف تجعل شخصا ما يبدأ الكلام؟
- هل يَشُقُّ عليك أن تكون منصتاً فعالاً عندما تقوم بدور الباحث الذي يُجري المقابلة؟
- هل يرغب المبحوثون في الإفشاء إليك بحكاياتهم؟
- ماذا يستفيد المبحوثون من هذه العملية؟

خلف الكواليس مع دافيد كارب

حَسَنًا، إنني أرى أنه ينبغي عليك تسهيل الأمور مع الناس. أي ينبغي أن تبدأ بطرح الأسئلة السهلة. مثال ذلك أن تقول: "ما هو الدين الذي رُبِّيت عليه، إلى آخر هذه الأمور..؟" وينبغي ألا تطرح أسئلة تحمل طابع التهديد، كما ينبغي أن تطلع الناس على ما تقوم به من عمل. وذلك لأن ما يحاول الناس فهمه في البداية - كما هو الحال في أي تفاعل - هو التعرف على: من عساه يكون هذا الشخص؟ وإلامَ يَسْعَى؟ وهل هو صادق؟ وهل نواياه سليمة؟ وهل يحسن الاستماع إلى الآخرين؟ وهل يبدو عليه أنه يهتم بما أقوله؟ ثم إنك عندما تقوم بإجراء إحدى المقابلات، فإنه ينبغي عليك أن تجعل هذا الشخص يشعر أنه الشخص الوحيد في العالم الذي تتكلم معه. وأنا لا أستطيع أبداً أن أجرى أكثر من مقابلة واحدة في اليوم، لا أستطيع أبداً! ذلك لأن مقدار الطاقة المطلوبة للإنصات الحقيقي، والانتباه الحقيقي، مقدار هائل. كما أن معرفتك للوقت الذي يكون من المناسب أن تطرح فيه عدداً كبيراً من الأسئلة تحتاج كذلك طاقة كبيرة.

إن جزءاً من إجراء هذه المقابلة يتمثل في الوصول إلى توازن بين.... ينبغي عليك أن تبدي احترامك للحكاية التي يريد الشخص الذي تجري معه المقابلة أن يرويها. انظر، فالناس تدخل إليك في مكتبك ولديهم حكايات

يريدون أن يرووها. وعندما يدلفون داخل المكتب قد يكونون - في بداية الأمر - راغبين في الكلام عن مدى التأثير الشديد الذي أحدثه تناولهم للسواء، أو عن شيء من هذا القبيل. فهذا هو ما يريدون فعلاً أن يتكلموا عنه. وإنه ليتعين عليّ أن أتماشى مع ذلك في بداية المقابلة. فأننا لا أنوى أن أصدهم أو أطردهم. ولست بعازم أن أقول مثلاً: "حسناً، أنا لا أريد أن أتكلّم عن هذا الموضوع لمدة ساعتين في هذه المقابلة". وإنني أرى أن هذا الاحترام لما يقوله المبحوثون والتماشي معهم يمثل التوازن بين إتاحة الفرصة لهم والاستماع لما يقولونه، بأن يتحدثوا عن الصفات المميزة للحكايات التي يريدون فعلاً أن يرووها - كما أن لكل حكاية معناها الفريد الخاص بها إلى حد ما - وبين ما سبق أن ذكرته بخصوص علمك بما تحتاج لاستيفائه من معلومات قبل انتهائك من مقابلة هذا الشخص.

وقد تبينت من إجرائي للمقابلات أنه إن بدأت بالسؤال الشديد في أول المقابلات وذلك بمجرد أن تصل إلى صلب المقابلة، فإنك لن تحتاج في الغالب إلى أن تطرح الكثير من الأسئلة. مثال ذلك أنه في حالة إجرائي لمقابلات مع أفراد يعانون من الاكتئاب، فإن السؤال الأول الذي أطرحه على الفرد عادة هو: "لعلك لست مضطراً لأن تسمي حالتك هذه "اكتئاباً"، ولكن احك لي عن أول لحظة خطر فيها على بالك أن في الأمر مشكلة ما. ما هو أول وقت أحسست فيه بوجود أي نوع من إدراك أن في الأمر خطأ ما؟". وفي بعض الأحيان لم أكن مضطراً إلى أن أقول كلاماً كثيراً عن أي شيء آخر على امتداد الساعات الثلاث التالية. ذلك لأن الناس لديهم طريقة ما في روايتهم لحكاياتهم، كما أنهم يستوعبون - بصورة تلقائية - سائر المجالات التي تريد استيعابها في بحثك. والأمر الآخر الذي أود أن أتكلّم عنه هو أن الناس يريدون فعلاً أن يحكوا حكاياتهم. وقد كان هؤلاء الناس - بصفة دائمة تقريباً - يشكرونني في نهاية كل مقابلة على أنني أعطيتهم فرصة ليرووا حكاياتهم، ولأن يطرح عليهم أحد علماء الاجتماع بعض الأسئلة... فقد كانوا في أغلب الأحيان يخرجون بعد إجراء المقابلة برؤية لحياتهم مختلفة عما كان يمكنهم أن يظفروا به من خلال سنوات من العلاج، وذلك لأنني كنت أطرح الأسئلة التي لا يتأتى لغير عالم الاجتماع أن يطرحها.

وهكذا ترى أن عملية إجراء مقابلة متعمقة هي في جوهرها عملية تواصل تحتوي على طُرُح الأسئلة، والإنصات، والحديث. وعن طريق بدء المقابلة بأسئلة استهلالية سديدة وإظهار الإصغاء المتحمس يستطيع الباحث الذي يُجري المقابلة أن يظفر بثروة من البيانات، وذلك إذا قام بعمل يزيد قليلاً عن مجرد تشجيع المبحوث على القيام بعملية الإفشاء بحكايته. ذلك لأن المقابلة المكثفة عملية تعاونية للوصول إلى المعرفة التي تتطلب علاقة متفردة بين الباحث والمبحوث، قوامها الاهتمام المتبادل، والاحترام، والتعاطف. وعندما تكون المقابلة في أعلى مستويات نجاحها، فإن معنى ذلك أنها كانت مجزية لكلا الطرفين، كما أنهما كليهما يُوسعان نطاق رؤيتهما بفضل الخبرة التي اكتسبها كل منهما.

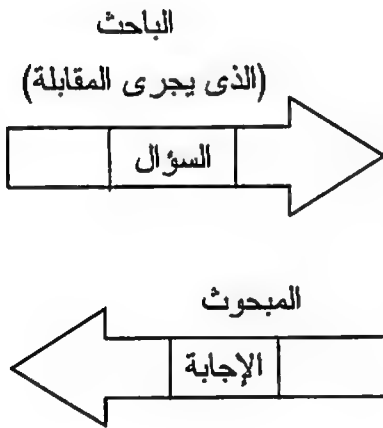
نقاط الاختلاف

ينظر الباحثون الكيفيون إلى الحقيقة الاجتماعية باعتبارها حقيقة معقدة ومتعددة الأبعاد، وهذا القصور هو الذي يُشكل طريقتهم في التفكير في عملية المقابلة. فكثيراً ما يأتي الباحث والمبحوث إلى موقف المقابلة ولكل منهما خلفيات مختلفة فيما يتصل بنوعهما الاجتماعي، والانتماء الإثنى، والتفضيل الجنسي، وكذلك فيما يتصل بالوضع الطبقي وبغير ذلك من الاختلافات الكثيرة. أما الباحثون الذين يعملون انطلاقاً من تراث وضعي فكثيراً ما يكون اهتمامهم بمدى قدرة هذه الاختلافات على التأثير على موقف المقابلة اهتماماً ضئيلاً. وذلك لأن البحث الوضعي التقليدي يعالج قضية الاختلاف من خلال تقليص آثار هذا الاختلاف إلى أبعد حد. ويمارس الباحثون الوضعيون هذا التقليص عن طريق تقنين مشاركتهم في موقف المقابلة بجعلها مشاركة "موضوعية"، بمعنى "تحتية" هذه الاختلافات الموجودة في موقفهم تجاه المبحوث الذي يقومون بمقابلته، قاصدين من ذلك ألا تؤثر هذه الاختلافات على عملية المقابلة في حد ذاتها. لذلك فنادر ما يطرح الباحثون الوضعيون أسئلة من النوع التالي:

- هل بإمكان رجل أعزب أبيض اللون من الطبقة الوسطى أن يُجرى مقابلة مع إحدى الأمهات السوداوات من الطبقة العمالية؟

- هل بإمكان امرأة بيضاء اللون من الطبقة الوسطى أن تُجرى مقابلة مع امرأة من العالم الثالث تعيش في ظروف الفقر؟
- هل بإمكان رجل أبيض اللون من الطبقة الوسطى ذى ميول جنسية عادية أن يُجرى مقابلة مع رجل مثلى من الطبقة العمالية؟

وفى مقابل ذلك، يذهب الباحثون الكيفيون إلى أنه لا يتسنى بمثل هذه السهولة "تتحية" الاتجاهات والقيم المنبثقة عن جملة الروابط المتصلة بالوضع الاجتماعى لفرد معين. فالواقع أن الإقرار بوجود الاختلاف - أى الاعتراف بمدى تشابهنا أو اختلافنا عن المبحوث الذى نُجرى معه المقابلة - هو الذى يسمح للباحث أن يُدخل فى اعتباره الاختلاف وتأثيره على موقف المقابلة. ذلك لأن نقاط الاختلاف تؤثر على كل مراحل عملية البحث - بدءاً من اختيار قضية معينة للبحث، وتحديد الفروض التى نستوفى اختبارها بالاعتماد على ما لدينا من بيانات، والقيام بالعملية الشاملة لجمع البيانات، وتحليلها، وتفسيرها، والكتابة النهائية لنتائج البحث الذى نقوم به.



تتدفق المعلومات فى كلا الاتجاهين بطرح الباحث لأسئلة محددة و رَدّ المبحوث على كل سؤال. فالتعامل لا يأخذ صورة حوار بين الباحث والمبحوث. ويتوجب على الباحث الذى يُجرى المقابلة أن يبقى بشخصه "على مسافة" منفصلاً عن موقف المقابلة من خلال التزامه بجدول أعماله واجتنابه الإفصاح عن أى من قيمه واتجاهاته الشخصية.

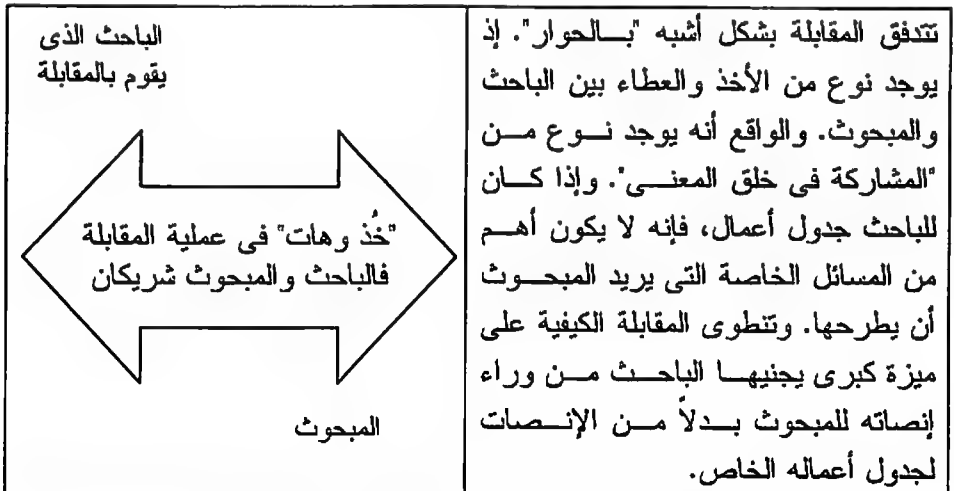
(شكل ١/٤) نموذج عملية المقابلة: النموذج الكمي

وكما سبقت الإشارة فى الفصل الأول من هذا الكتاب، فقد طرحت ساندر هاردنج (١٩٩٣) مفهوم "الموضوعية القوية" strong objectivity، قائلة إنه من خلال إدخال نقاط الاختلاف فى الحساب طوال كافة مراحل

المشروع البحثي، يقوم الباحث في الواقع "بتعظيم مقدار الموضوعية" عن طريق كفالة إظهار صوت مبحثنا، والإصغاء إليه، وفهمه. وتحت ساندرا هاردنج الباحثين على فحص الأسئلة التي يطرحونها في موقف المقابلة، وتشير إلى أن هذه الأسئلة ليست "متحررة من القيم"، بل إنها تعكس في أغلب الأحيان ما لدى الباحث من القيم، والاتجاهات، والأولويات. ويطرح الباحثون الذين يمارسون "الموضوعية القوية" أسئلة من النوع التالي:

- إلى أي مدى تتدخل قيمى واتجاهاتى فى عملية البحث؟ هل أطرح الأسئلة انطلاقاً من رؤيتى فقط؟
- إلى أي مدى تشكل أولوياتى الشخصية ما أطرحه من أسئلة وما أصل إليه من نتائج؟
- إلى أي مدى تؤثر ظروفى وأوضاعى فى طريقتى فى جمع البيانات، وتحليلها، وتفسيرها، أى: من هو الشخص الذى أعمل انطلاقاً من منظوره الفكرى؟

وهكذا يتضح أن السيناريو الوضعى لعملية المقابلة هو سيناريو "يطرح" فيه الباحث أسئلة يتولى المبحث الإجابة عليها. وبينما يكون التواصل متدفقاً في كلا الاتجاهين، يكون هدف المقابلة هو الحصول على "المعلومات" التي غالباً ما تكون في صورة أسئلة مقننة أو شبه مقننة. إذ يوجد جدول أعمال محدد في ذهن الباحث الذي يُجرى المقابلة.



(شكل ٢/٤) نموذج عملية المقابلة الكيفية

على الناحية الأخرى نجد أن النموذج الكيفي يسمح للمقابلة بأن تتدفق المعلومات في كلا الاتجاهين. فالباحثون الكيفيون لا يؤيدون وجهة النظر التي ترى أن الحقيقة الاجتماعية موجودة "خارجاً عنا" تنتظر أن يدركها الباحث الاجتماعي بشرط أن يكون موضوعياً فحسب. وكما سلفت الإشارة، فإن هذا التوجه ينظر إلى المقابلة بوصفها نوعاً من الاشتراك في خلق المعنى. فمهمة الباحث هي الإصغاء بشكل مركز على ما يقوله المبحوث، وأن يكون مستعداً لإغفال جدول أعماله استجابة منه لما يجري أثناء هذه المقابلة. وقد أرادت كاثرين أندرسون - وهي خبيرة في التواصل عن طريق الكلام - توثيق حيوات القرويات من العاملات بالمزارع واللاتى يعشن في شمال غرب ولاية واشنطن^(*)، وذلك لحساب "مشروع تراث المرأة في ولاية واشنطن" (١٩٩١). ومع ذلك، فقد حدث أثناء إجرائها بحثها أنها كثيراً ما كانت تقلل من تركيزها على اتجاهات ومشاعر عاملات المزارع القرويات بسبب حاجتها لتقديم توصيفات محددة للحياة في المزارع تصور ما تقوم به النساء من أنشطة زراعية، وذلك بغرض الحصول على المادة اللازمة لإقامة معرض كانت تنوى تنظيمه. وفي ذلك تلاحظ قائلة:

في استعائتي للأحداث الماضية، أستطيع الآن أن أدرك كيف كنت أصغى للمبحوثة في نفس الوقت الذي كنت أركز فيه - بدرجة ما - على تقديم المادة اللازمة لتنظيم هذا المعرض، والمتمثلة في التصوير الحي للخبرات التي من شأنها أن ترافق صور الأنشطة التي يزاولنها هؤلاء النساء. وعندما عدت أبحث في سجلات المقابلات بعد مدة طويلة من انتهاء المعرض ووضعت لوحاته في المخازن، أدركت الآن وكلّى ألم حجم الفرص التي ضاعت على هؤلاء النساء في إمعان التفكير فيما وصفته من الأنشطة والأحداث وفي شرح مصطلحاتهن على وجه أكمل بنفس الكلمات التي كن يستخدمنها. (Anderson & Jack, 1991, p. 13)

(*) إحدى الولايات المتحدة الأمريكية وتقع شمال غربي أمريكا على ساحل المحيط الهادى وليست هى العاصمة واشنطن. (المراجع)

هيا بنا نصغى بعمق إلى مقابلة أجرتها كاثرين أندرسون. وقد قامت بمقابلة إحدى عاملات المزارع، واسمها فرنا Verna. وفي أثناء هذه المقابلة تحدثت فرنا عن مدى صعوبة الحياة التي تعيشها كأم. وتبدأ فرنا بالكلام بحرية تامة مع أندرسون على نحو ما هو وارد في النص التالي. ولكن لاحظ ما أبدته أندرسون من رد فعل على التعليقات الانفعالية التي صدرت من فرنا:

فرنا: مرت بى أوقات لم أتمن فيها إلا أن أهرب من هذه المعيشة بأسرها. كما مرت بى أوقات اشتدت فيها رغبتى فى أن آخذ الأطفال وأتركهم فى مكان ما لمدة أسبوع - أتركهم كلهم دفعة واحدة - حتى لا أضطر للقلق عليهم. لست أدري ما إذا كان ثمة إنسان يراوده مثل هذا الإحساس أم لا، إلا أنه مرت بى أوقات لم أشعر فيها إلا بأننى محتاجة للهروب من كل إنسان - حتى من زوجى - ولو لفترة قصيرة. فهذه هى الأوقات التى شعرت فيها بحاجتى للهروب. وربما تمنيت أن أقوم بنزهة فأعود إلى الغابة وأطلع للزهور، وقد أتوغل فى ذلك المكان فأعثر على بقرة عجوز - تكون بقرة حقيقية ورقيقة - فأسير إليها وأربى عليها للحظة وذلك كنوع من الهروب من هذه المعيشة. لقد شعرت بذلك تماماً، ويبدو أننى أحس بهذا الشعور أحياناً...

أندرسون: هل كنت عضوة نشطة فى بعض النوادى؟ (أندرسون، وجاك، ١٩٩١، ص ١٦).

نلاحظ من هذا النص المستخلص من تلك المقابلة كيف أن أندرسون كانت أحادية التفكير فى تتبعها لجدول أعمالها، وأنها لم تكن تصغى فعلاً على الإطلاق لما كانت "فرنا" تبوح به إليها. إذ أن لها، بدلاً من ذلك، جدول أعمال تلتزم به، والسؤال التالى فى جدول مقابلتها هذه يتناول مسألة العضوية فى النوادى. إن هذا السؤال الذى طرحته أندرسون يُقصر فى الاعتراف بحق "فرنا" فى الإفضاء بمكنون مشاعرها المتعلقة بالأمومة.

أما المقابلة الكيفية فهى أقرب إلى المحاوره بين طرفين متعاونين، كما أن المعلومات تتدفق جيئة وذهاباً أثناء سير المقابلة. ذلك أن الدور الأساسى للباحث هو الإصغاء المقصود للمبحوث. ومع أن الباحث قد يريد تتبع بعض الأسئلة المحددة والتي لها أهميتها عنده، فإن مهمته الأساسية التى يركز عليها

هى أن يستوحى ما ينبغى عليه فعله مما يصدر عن المبحوث من إشارات. ذلك أن جوهر المقابلة الكيفية يقتضى وجود قدر كبير من الانعكاسية (التأمل النقدي)، أى التنبه الفائق للديناميات المهمة لموقف المقابلة بين الباحث والمبحوث، والتي من الممكن أن تؤثر على خلق المعرفة. وتقدم لنا أندرسون وجاك (١٩٩١، ص ٢٤) دليلاً لشذ مهاراتنا فى "الإصغاء" أثناء عملية المقابلة، وخاصة الإصغاء عند نقاط الاختلاف بيننا. وهما يقدمان الأسئلة/ أو القضايا التالية التى ينبغى عليك الاهتمام بها فيما يتصل بنمط جدول المقابلة الذى يساعد على الإصغاء:

- ليكن لك أسلوب فى إجراء المقابلة يتسم بالنهايات المفتوحة، حتى نتيج للأفراد الذين تجرى معهم المقابلة فرصة التعبير عن اتجاهاتهم وأحاسيسهم.
 - تعمق فى البحث عن المشاعر، ولا تكتف ببحث الحقائق فقط. مثال ذلك: كيف يفهم المبحوث ما يجرى من أمور؟ وما هو المعنى الذى يضيفه المبحوث على مجرى الأحداث فى حياته.
 - ما هى الأشياء التى أحجم عن ذكرها المبحوث.
- كما يطرح أندرسون وجاك (١٩٩١) قائمة المراجعة التالية التى ينبغى عليك الرجوع إليها قبل أن تقوم بإجراء مقابلاتك:
- كن متنبهاً لجدول أعمالك الشخصى.
 - استرسل مع ما تشعر به من إرهاصات شخصية (أى: إحساساتك الباطنية القوية)، ومشاعر، وردود أفعال قد تتولد فى نفسك أثناء إصغائك للآخرين. (ص ٢٤)
 - إذا اختلط عليك الأمر فى مسألة ما، فلا تجش متابعة البحث فى أى قضية أو أى شأن من مشاغل الناس.
- وماذا عن قلقك الشخصى، وإلى أى مدى يمكن أن يؤثر على موقف المقابلة؟ وهل بإمكان هذا القلق الشخصى - كذلك - أن يزودك بمفتاح تتوصل به إلى تحديد أين يتعين عليك "إمعان النظر فيما يقوله المبحوث" وإلى معرفة ما الذى يشعر به المبحوث فى تلك الآونة؟

القريب أم الغريب؟

اعتاد بعض الباحثين تبني إحدى الاستراتيجيات من أجل التغلب على تأثير الاختلاف في عملية المقابلة تقوم على تحقيق نوع من "المضاهاة" بين بعض ما لهم من سمات مهمة تتعلق بوضعهم أو مكانتهم (كالعرق/ أو العمر/ أو النوع/ أو الميول الجنسية) وسمات مبحثيهم بحيث يمكنهم أن يفيدوا من مكانة القريب (أى ليسوا أغريباً أو مختلفين عن المبحوثين) فى إجراء مقابلة ناجحة واكتساب التعاون والألفة فى هذا الموقف فيسهلون بذلك على أنفسهم فهم مبحثيهم. والباحث، فى آخر الأمر، هو واحد من الأقارب an insider وينبغي أن يكون حسن الاطلاع على وضع الجماعة التى ينتمى إليها المبحوث. ومن المهم كذلك إدراك أن مثل هذا التوازن فى بعض السمات المتعلقة بالوضع أو المكانة يقلل - أيضاً - من إمكانية حدوث حالات اختلال التوازن بين القوة والسلطة فى موقف المقابلة (أوكلى Oakley، ١٩٨١). ويعلمنا التفكير القياسى فى أمر الاختلاف الموجود فى موقف المقابلة أنه إذا كان القائم بإجراء المقابلة غريباً فربما أدى ذلك إلى خلق مزيد من الصعوبة فى الاقتراب من "هذا الآخر" ومن فهمه على وجه صحيح. هل يكفل الوضع الذى يكون الباحث فيه "قريباً" رفع درجة صدق المقابلة وثباتها؟ وكيف يؤثر الاختلاف فى عملية البحث؟

الاختلاف: مثال لإدخال الاختلاف فى

الحسبان عند القيام بعملية البحث

المشكلة: ما هو الأثر الاقتصادى والاجتماعى

للعولمة على نساء العالم الثالث؟

بإدخال الاختلاف فى الحسبان، يكون من

المهم طرح هذا السؤال: عن أى نساء نتكلم؟

علينا أن نأخذ فى الاعتبار ذلك التنوع والاختلاف الموجود فى خبرات النساء على الصعيد العولمى. ومن الأبعاد المميزة المهمة للمرأة العاملة والتى ينبغي إدخال بعضها فى الحسبان ما يلى: (١) الإقليم الجغرافى

الذى تقيم فيه المرأة العاملة (هل هو إقليم ريفي/ أم حضري/ أم من الضواحي). وكذلك: هل هي مهاجرة حديثة العهد بهذه المنطقة؟ (٢) فى أى مرحلة هي من مراحل دورة الحياة؟ مثلاً: هل هي شابة غير متزوجة، أم تعيش مع شريك وليس عندهما أطفال، وذلك فى مقابل المتزوجة مع شريك وهي فى منتصف العمر، إلى آخره، (٣) مستوى التعليم؛ (٤) الانتماء الإثنى؛ (٥) هل هي متزوجة أم تعيش مع شريك تربطها به علاقة قوية، وهل هذا الشخص ملتحق بوظيفة لكل الوقت أم لبعض الوقت؟ فهذه العوامل وغيرها لها أهميتها، لأنها ستساعد الباحث على الفهم الصحيح لحقيقة أن بإمكان العولمة أن تؤثر على النساء العاملات بصور مختلفة، وهو الأمر الذى يتوقف على وضعية المرأة العاملة تجاه هذه الأبعاد الاجتماعية الاقتصادية الدقيقة. شاهد ذلك، أن هيلين سافا Helen Safa (١٩٨١)، وفى مقالتها الممتازة بعنوان: "أسواق العمل المنفلتة: البحث عن العمل الرخيص"، تشير إلى أن تأثير عمل المرأة فى مناطق تجهيز السلع للتصدير على تقسيم العمل فى المنزل "يختلف تبعاً لدرجة بطالة الرجل وقوة التراث الأبوى". مثال ذلك، ما تذكره سافا عما حدث فى المكسيك من تمزيق النمط الموروث للأسرة - الذى تحول إلى مشكلة عسيرة الحل - إنما كان نتيجة لاشتراك النساء فى مشروع ماكويلادوروس Maquiladores (أى: برنامج تصنيع المناطق الحدودية). وهى تذهب إلى أن النساء أصبحن "المُعيلات الأساسيات" للأسرة لأن الرجال كانوا فى بطالة وكانوا مستائين من وضعهم هذا ولم يقدموا أى مساعدة فى المنزل. فى مقابل هذا وجدت فى مناطق أخرى - مثل جامايكا - أن عمل المرأة لم يؤثر على تقسيم العمل فى المنزل. كما لاحظت سافا أن عمر المرأة وقت دخول البرنامج المذكور فى المكسيك كان أمراً مهماً كذلك. فالنساء المتزوجات ذوات الأطفال من كبريات السن كن يُصنن خطأً أفضل من النساء غير المتزوجات الأصغر منهن سناً واللاتى كن يُعائنين قدراً أكبر من الاستغلال (الواقع عليهن من عائلتهن من ناحية، ومن الشركة التى يعملن بها من ناحية أخرى).

ونتبين بوضوح من هذا المثال عن الاختلاف أنه منذ بداية مشروعنا البحثى، فإن ما نختار دراسته (من موضوعات) ومن نختار دراستهم (من

أفراد) إنما يتأسس على تقديرنا لأهمية الاختلاف. فالقضايا التى ندرسها والأشخاص الذين ندرسهم إنما تتأثر أعماق التأثير بطريقتنا فى النظر إلى قضايا الاختلاف وبمدى وعينا بها. ومن شأن تقديرنا لأهمية الاختلاف أن يسمح لنا بطرح السؤال التالى: أى نساء نقصد؟ هل كل النساء فى جميع أنحاء العالم متشابهات؟ وإلى أى مدى هن مختلفات، وما هى نقاط الاختلاف التى لها أهمية فى موضوع بحثى؟

ويُعد الاختلاف - كذلك - أمراً ذا أهمية حاسمة بالنسبة لموقف المقابلة. فهل بإمكان باحث ينتمى إلى أحد بلاد العالم الأول - مثلاً - أن يفهم فهماً صحيحاً ما تعانيه المرأة العاملة فى أسواق العمل المعولمة فى العالم الثالث؟ لنفترض أن هذا الباحث الذى يجرى هذا البحث كان رجلاً أبيض اللون ينتمى إلى الطبقة الوسطى. فكيف سيؤثر نوعه الاجتماعى، وعرقه، وامتلاؤه الإثنى، وطبقته الاجتماعية على عملية المقابلة؟ وهل سيكون بوسع هذا الباحث أن "يتجاوز" نقاط الاختلاف التى بينه وبين هؤلاء الذين يقوم بدراستهم؟

من اليسير استنتاج أنه إذا كان الباحث (الذى يجرى المقابلة) والمبحوث ينتميان إلى نفس النوع الاجتماعى، والطبقة، والخلفية الإثنية، فإن ذلك من شأنه أن يقطع شوطاً طويلاً نحو تأسيس حوار صريح بينهما، ويقدم فرصة مثلى لصوت هذا المبحوث أن يُسمع وأن يكون واضحاً مفهوماً. ولا جدال فى أن هذا الافتراض معقول إلى حد ما. شاهد ذلك أن بيوكيو - بتس Beoku-Betts فى بحثها الميدانى بين نساء الجولاه Gullah (وهن نساء أمريكيات سود يعشن فى بعض الجزر البحرية فى نطاق كل من ولايتى ساوث كارولينا وجورجيا) الذى نشرت عنه عام ١٩٩٤ قد وجدت أن قيامها بإبلاغ المبحوثات بالمعلومات الكاملة عن وضعيتها هى الاجتماعية وخلفيتها؛ وهى أنها - كذلك - تلقت تنشيتها فى مجتمع قروى يتسم بنفس الأعراف والممارسات الثقافية - وجدت أن ذلك مكنتها من أن تقيم صلات وتحصل على بيانات لم يكن يتيسر لها الوصول إليها لولا تلك المصارحة. أما كاث وستون Kath Weston (٢٠٠٤) فكانت فى غاية الانشغال الذهنى بهويتها كسحاوية

وبمدى تأثير ذلك على بحثها. وهى تذكر، فيما كتبته، أنه على الرغم من توقعها إلى دراسة عائلات المثليين من الرجال، فإن مثل هذا المشروع سيكون مختلفاً أشد الاختلاف لو أنها لم تكن سحاقيّة. كما تعترف وستون أن وضعها داخل مجتمع المثليين (من النساء والرجال) كان السبب فى تقليل المتاعب التى لقيتها فى العثور على مبحوثات من السحاقيات. هذا فى الوقت الذى ما زالت فيه السحاقيات محجوبات فعلاً عن أنظار الرجال الذين يقومون بإجراء بحوث عن النشاط الجنسى، وفى ذلك تقول:

فى حالتى هذه، فإن كونى امرأة قد أثر على طريقة قضائى الوقت فى الميدان: فقد كنت أمضى فى نوادى السحاقيات وفى جماعات النساء ساعات أطول مما كنت أمضيها فى البارات التى يلتقى فيها المثليون (الرجال) وفى النوادى الرياضية للرجال. (Weston, 2004, p. 202).

على أنه فى بعض الأحيان تكون مشاركتنا لمبحوثنا بعضاً من السمات التى تجعلنا "قرباء" غير كافية لضمان أن يستطيع الباحث الوقوف على الخبرات التى يُعَيشها هؤلاء الذين يقوم بدراساتهم. شاهد ذلك أن البحث الذى أجرته كاثرين كوهلر ريسمان عن الحكايات التى تفسر، وتبرر حدوثه (سرديات الطلاق) (Catherine Kohler Riessman, 1987) يُشير إلى أنها فى مقابلاتها التى أجرتها مع المطلقات، لم يكف مجرد كونها امرأة ليجعلها تفهم على وجه صحيح خبرة الطلاق عند النساء اللاتى تختلف طبقتهن وخلفيتهن الإثنية عن طبقتها وخلفيتها هى. فقد أدت وضعيتها كإنسانة ذات أصول أوروبية ومستوى عالٍ من التعليم وتنتمى إلى الطبقة الوسطى؛ أدت للحيلولة بينها وبين الاستيعاب التام للطرق الخاصة التى اتبعتها هؤلاء النساء فى صياغة ما يحكىه من قصص طلاقهن (وذلك بأن يسردن هذه القصص فى صورة أحداث عارضة ووقائع منفصلة وليس وفقاً للتسلسل الزمنى لوقوعها). لذلك أصبح من التحديات التى يواجهها الباحثون فى موقف المقابلة ضرورة ابتعاد الباحث عن تكوين توقعات ثقافية تتصل بما ينبغى - عنده - أن يكون عليه شكل القصة التى تسرد أحوال الأفراد المنتسبين لخلفيات إثنية وطبقية مختلفة عن خلفياته هو.

وبالمثل واجهت بيوكيو - بتس (١٩٩٤) أحد السيناريوهات المماثلة في بحثها الميداني عن نساء الجولاه. فبيوكيو - بتس باحثة سوداء اللون من غرب إفريقيا، كما أنها كانت من حيث انتمائها العرقي تعد - بلا ريب - واحدة من "الأقارب" بين أفراد مجتمع السود الذي كانت تقوم بدراسته. وتحكي بيوكيو - بتس كيف أن واحدة من مبحوثاتها أخبرتها قائلة: "إنها (أي المبحوثة) تفضل عالمة سوداء مثلى لإجراء البحث في مجتمعها لأن "العالمات السوداوات لديهن إحساس رוחي متعاطف مع قومنا لأنهن عشن تجربة الحياة بين أولئك القوم" (Beoku-Betts, 1994, p. 416). ومع ذلك، فقد وجدت بيوكيو - بتس أن وضعها كواحدة "من الأقارب" كان متداخلاً أشد التداخل مع عوامل أخرى كالاختلاف في الخلفية الطبقية والخلفية الثقافية. لذلك فإنها وجدت نفسها مضطرة لأن تواجه قدرأ من المقاومة الموجودة داخل هذا المجتمع والموجهة لما تقوم به من أنشطة بحثها الميداني. وفي ذلك تقول:

أثبتت مشاركتي العرقية لهؤلاء الناس جدواها في تمكينى من الوصول إلى المشاركات في بحثى وفي اختزال المسافة الاجتماعية في إحدى المراحل الحرجة لعملية البحث. ومع ذلك، فإن هويتي كواحدة من "الأغراب" عنهم كانت قد تحدت من قبل جماعات فرعية أخرى تحديداً يحصرها داخل نطاق "الغرباء". مثال ذلك أن نوعى الاجتماعى، ووضعى الزواجى (وهو أننى غير متزوجة)، ومكانتى المهنية كباحثة جامعية كانت كلها عوامل تقوم بدورها المؤثر بصفة مستقلة وبصفة مترابطة مع هويتي العرقية في تسهيل أو تعقيد عملية البحث. (ص ٢٤٠)

وهي تلاحظ ما حدث لها في أحد المجتمعات التي درستها، حيث أدى وضعها كامرأة غير متزوجة إلى خلق بعض التوترات في مسار عملية البحث. وهي تنقل إلينا حادثتين وقعتا في الميدان تتصلان بكونها غير متزوجة فتقول:

في أحد المجتمعات قام رجل من الأهالى بزيارة الأسرة التى كنت أقيم معها. وعندما قامت هذه الأسرة بتقديم كل منا للآخر، تذكر الرجل أنه كان قد سمع عنى، وأخذ يُردش معى فى مسألة الإشاعة التى تردت فى هذا المجتمع

والتي تزعم أنني جئت لهذا المكان بحثاً عن زوج... وقد وقعت حادثة أخرى داخل الكنيسة في يوم أحد مع راعي الكنيسة - وهو أمريكي أسود - حيث أثار موضوع الدعوى القضائية الخاصة بأنيتا هيل Anita Hill وكلارنس توماس Clarence Thomas بعد أن طُلب مني تقديم نفسي لجماعة المصلين. وقد كان هذا الراعي في أول الأمر في غاية التأييد والمساندة لي، كما أنه رحب بي ترحيباً حاراً في هذا المجتمع بصفتي إفريقية تأتي لدراسة مظاهر تراث تاريخي مشترك. ومع ذلك، فسرعان ما تحول إلى موضوع الدعوى القضائية الخاصة بهيل وتوماس، وبدأ يُشير إلي أن أنيتا هيل كانت هي الأخرى امرأة متعلمة استغاثت هذه الميزة في توجيه الاتهام إلى كلارنس توماس وتوريطها في مناعب مالية (وهما المرأتان اللتان كانتا تقيمان في مدينة غير بعيدة عن هذا المجتمع) (Beoku-Betts, 1994, p. 428).

وتبنت بيوكيو-بتس فيما بعد أنها لا بد أن تُجرى حوارات مع مبحوثاتها في شأن وجوه الاختلاف بينها وبينهن إذا كانت تريد أن تظفر بإجراء مقابلات معهن تعكس ما يشعرن به فعلاً تجاهها. ولم تتمكن هذه الباحثة من الوصول إلى جزء من موضوعات البحث ولا من البدء في عملية المشاركة في خلق المعنى، والفهم الصحيح لهذا المجتمع إلا بعد أن استكملت هذه الحوارات المذكورة.

وإذا كنا قد قلنا كل هذا الكلام عن الباحث عندما يكون "من الأقارب" فإن كون الباحث شخصاً من "الغرباء" يمكن أن يُشكل ميزة في الواقع، وذلك يتوقف على طبيعة المشكلة التي يدرسها البحث وعلى مجتمع البحث الذي تقوم بدراسته. فبسبب عدم انتمائك لمجموعة معينة، قد يُنظر إليك من قبل مبحوثك بأنك أكثر حياداً. وبالمثل، قد يزداد احتمال طرحك لأسئلة عن أمور كنت - لولا غربتك عن هذه المجموعة - ستنتظر إليها باعتبارها أمراً مفروغاً منه بوصفها "معرفة مشتركة"، كما ستبتين - على الأرجح - أن الأشخاص الذين تدرسهم لديهم أساليبيهم الخاصة في النظر إلى قضية معينة.

ويعلق عالم الاجتماع روبرت وايس R. Weiss على قضايا الاختلاف بين الباحث الذي يُجرى المقابلة والمبحوث على النحو التالي، قائلاً:

من الطرق التي يمكن أن نعبر بها عن هذه القضية أن نتساءل: إلى أي مدى يكون من الضروري للقائم بالمقابلة أن يكون شخصاً من داخل العالم الذي يعيش فيه المبحوث، حتى يكون باحثاً ناجحاً... إذ إن من الصعوبة أن نتوقع ما هي صفات الباحث التي سيثبت أنها مهمة في نظر المبحوث، وكيف سيكون رد فعل ذلك المبحوث تجاهها.. وثمة عدد كبير للغاية من الصفات المختلفة للباحث الذي يجري المقابلة يمكن أن يكون للمبحوث رد فعل تجاهها، بحيث إنه يحسن للباحث - بالتأكيد - أن يكون شخصاً "من الأقارب" في بعض الأمور وشخصاً "من الأعراب" أحياناً أخرى... ولقد وجدت أن من الأفضل - بصورة عامة - أن يكون الباحث شخصاً "من الأقارب" في نظر المجتمع الذي يعيش فيه المبحوث، وذلك لأن من الأسهل على في هذه الحالة أن أضع أساساً وطيداً لشراكة بحثية مع هذا المبحوث. إلا أن بعضاً من المقابلات التي أجريتها وأفادتنى بأعظم قدر من المعلومات لم تصل إلى هذا المستوى من الجودة إلا لأنني كنت شخصاً "من الأعراب" في حاجة للحصول على المعلومات الموجودة في هذا المجتمع الذي يعيش فيه المبحوث (Robert Weiss, 1994, p. 137).

فالأمر الذي يهمننا ملاحظته هو أن وضع الباحث الذي يُجرى المقابلة كشخص قريب/ أو غريب وضع يتسم بالسيولة (المرونة)، كما أنه بالإمكان أن يتغير حتى في أثناء مسار المقابلة الواحدة. ففي بعض المسائل التي تناقش في المقابلة، قد تُشارك مبحوثك في دور أو وضع اجتماعي معين، وفي أحيان أخرى، قد تجد اختلافاً صارخاً بينكما، وذلك تبعاً لدقائق القضية التي يتناولها البحث أو لطبيعة الموضوع الذي يدور حوله الحوار. ومن الأمثلة الجيدة على هذا الموقف ما نتعلمه من البحث الذي أجرته روزاليند إدواردز Rosalind Edwards.

وإدواردز امرأة بيضاء متعلمة تنتمي إلى الطبقة الوسطى، وهي مهتمة بإجراء مقابلات غير مقننة مع الأمهات الكاريبيات السود الراشدات اللاتي ما زلن طالبات (١٩٩٠) وهي تريد أن تفهم - على وجه صحيح - ما يُعاشه هؤلاء النساء من خبرات تتصل بقضايا التعليم، والعمل، والحياة العائلية. وهي

تصف الصعوبة التي لاقتها للظفر بالوصول إلى هذه المجموعة من السكان وفى إضفاء الثقة على العلاقة الموجودة فى المقابلة بين الباحث والمبحوث. ولم يحدث أن بدأت مبحوثاتها فى الكلام بمزيد من الصراحة معها إلا بعد أن اعترفت هى صراحة بهذه الاختلافات بينها وبينهن. وتقل إلينا إدواردز ما يحدث أثناء مسار المقابلة من جزر ومد (أى هبوط وصعود) فى شعورها بالجمع بين كونها من الأقارب ومن الأغراب تبعاً لطبيعة المسائل التي كانت تناقشها مع مبحوثاتها. وهى تلاحظ أنه عندما كانت المناقشة تتجه إلى موضوع الأمومة كانت تشعر شعوراً متزايداً بأنها "من الأقارب" وتقول فى ذلك: "إن هؤلاء النساء السود كن يبدن - فعلاً - شيئاً من التصورات المشتركة والمواقف الفكرية المشتركة بيننا. (ص ٤٨٨): ولكن عندما كانت المناقشة تعود لتناول مجال ذى طبيعة أكثر عمومية"، كمجال خبراتهن التعليمية مثلاً، وذلك على الرغم من أن المؤلفة (أى الباحثة) كانت - هى الأخرى - تشاركهن فى وضعية أنها تجمع بين كونها أما راشدة وطالبة علم فى نفس الوقت؛ فإن الحوار كان يتحول إلى حوار "تصل فيه هؤلاء النساء السود إلى أدنى حد من الكلام معى فى الأمور المشتركة التى تجمعنا أكثر من غيرها" (ص ٤٨٨).

الانعكاسية والاختلاف

بإمكان الباحثين أن ينتفعوا بعملية الانعكاسية (التأمل الذاتى) كأداة لمساعدتهم على إنجاز الدراسة رغم وجود الاختلاف. والانعكاسية هى العملية التى من خلالها يتبين الباحث، ويختبر، ويفهم كيف يمكن لخلفيته ومسلماته الاجتماعية أن تتدخل فى عملية البحث. فالباحث إنما هو ابن مجتمعه وهو نتاج ما فيه من أبنية ومؤسسات، شأنه فى ذلك شأن المبحوث تماماً. كما أن معتقداتنا، وخلفياتنا، ومشاعرنا تُشكل جزءاً من عملية إنشاء المعرفة. لذلك يتعين على الباحث أن يكون متنبهاً لوضعيته وتركيبته الخاصة - أى متنبهاً لمجموعة الصفات التى يجلبها معه إلى المشروع البحثى - من قبيل: نوعه

الاجتماعى، وعرقه، أو إثنيته، وطبقته، وأى عوامل أخرى قد تكون لها أهميتها بالنسبة لعملية البحث.

والملاحظ أن المشاريع البحثية التي ذكرناها قبل ذلك كانت تتطلب من كل باحث، وفي مرحلة ما أثناء إجراء مشروعه البحثي، أن يصبح مُتنبهاً لمدى تشابهه مع أو اختلافه عن مبحوثيه. والواقع أن ممارسة الانعكاسية (التأمل الذاتى) فى هذه المشروعات البحثية قد دعمت كلاً من الباحث والمبحوث فى موقف المقابلة. شاهد ذلك أن تأمل موضوع الاختلاف أتاح لبيوكيو - بتس (١٩٩٤)، وإدواردز (١٩٩٠)، وريسمان (١٩٨٨)، و وستون (٢٠٠٤)، و وايس (١٩٩٤)؛ أتاح لهم أن يجروا حوارات مع مبحوثيهم تتناول أوجه الاختلاف وأوجه التشابه، وذلك من أجل الفوز بتحقيق التواصل والحصول على البيانات التي لم تكن لتتاح لهم - حتماً - لولا هذه الحوارات، كما أتاح لهم هذا التأمل الذاتى اكتساب رؤى جديدة لهذه البيانات. فقد أتاح تأمل وستون (٢٠٠٤) فى هويته السحاقية وفى مدى تأثيرها على بحثها؛ أتاح لها سهولة الدخول إلى مجتمع السحاقيات. كما أن اعتراف إدواردز (١٩٩٠) بمدى تشابهها مع مبحوثاتها من الكاريبيات السود واختلافها عنهن قد أمدّها بإدراك أكثر تعمقاً للطريقة التي تكلمت بها مبحوثاتها عن القضايا العامة والقضايا الخاصة. أضف إلى ذلك أن وايس (١٩٩٤) وإدواردز (١٩٩٠) تنتبهان إلى أن مفهوم "القريب" ومفهوم "الغريب" مفهومان يتسمان بالسهولة وليس بالثبات، وذلك تبعاً لموضوع البحث المطروح ولما يحدث أثناء المقابلة نفسها من جزر ومد على المستوى الشخصى (أى هبوط وصعود فى مشاعر الباحث والمبحوث).

وتذكرنا الانعكاسية كذلك بأننا بحاجة لأن نكون متيقظين لأهمية الاختلاف بالنسبة لمشروعنا البحثي فى مجموعه. فالاختلاف يؤثر فى نوعية المشروعات التي نختارها، وفى الأسئلة التي نطرحها، وفى الطريقة التي يتم بها جمع البيانات، وتحليلها، وكتابتها، وتفسيرها. لذلك فإن الاختلاف يفرض علينا أن نعمل على اكتشافه، لا على إنكاره.

تحليل وتفسير بيانات المقابلة

فى الفصل العاشر من هذا الكتاب نتناول بالتفصيل موضوع تحليل البيانات وتفسيرها. ومع ذلك، فسوف نرودك هنا ببعض الأفكار العامة المتعلقة بتوليد التحليل الذى يمكن أن نقوم به من واقع البيانات التى تحصلنا عليها من المقابلة. ويزودنا عالم الاجتماع دافيد كارب (والمختص فى مجال الاتصال الشخصى) بمدخل تدريجى (انظر النص المذكور فى الإطار أدناه) للطريقة التى بها يمكنك البدء بتحليل البيانات التى حصلت عليها من مقابلتك. وهو يؤكد أهمية بدئك للتحليل فور بدئك فى جمع البيانات. ويعتبر تحليل البيانات الكيفية عملية تكرارية لجمع البيانات تستمر جنباً إلى جنب تحليل البيانات. فهاتان العمليتان تسيران بصورة تكاد تكون مترامنة. ويؤكد كارب أهمية كتابة الحواشى الجانبية أى أهمية أفكارك المتعلقة بمشروعك، وذلك عن طريق تدوين ما يعن لك من مشاعر وتصوراتك عن مدى ما فى بياناتك من توافق أو عدم توافق. فإذا وصلت فعلاً إلى ما تعتبره اختراقاً مهماً (أى إنجازاً عظيماً)، فتفكر فيه ملياً. كما أن لكتابة الحواشى الجانبية دوراً فى مساعدة الباحث أن يكون أكثر تأملاً لأوضاعه الشخصية وفى مدى تأثيرها على ما يقوم بدراسته. يُضاف إلى ذلك أن كارب يشير إلى أهمية الخروج أحياناً عن مسارك، حتى تبحث عن "الحالات السلبية"، وهى الحالات التى لا يبدو أنها تتوافق مع بعضها أو التى تكون عصية على الفهم، وذلك عن طريق سؤالك لنفسك: "ما هو الأمر الذى لا يعزز تفسيرى؟".

أفكار مفيدة عن تحليل بيانات المقابلة يقدمها دافيد كارب

- ١- "تذكر أن العمل التحليلى الذى تقوم به على امتداد هذا الطريق له - تماماً - نفس أهمية جمع البيانات. وإياك أن تقلل من شأن مهمة جمع البيانات وتفضل عليها التفكير فى البيانات وتحليلها. ذلك أن القوة الكبيرة التى تتصف بها بعض الطرق، كطريقة إجراء المقابلة المتعمقة، تتمثل فى أنك تستطيع أن تقوم - فى نفس الوقت - بعملية جمع البيانات مع عملية تحليل البيانات، إذ أن هاتين العمليتين ينبغى أن تقيد وترشد بعضهما بعضاً".

٢- "ابدأ كتابة التعليقات مع المقابلة الأولى نفسها. دع بياناتك الأولية تدلّك على تحديد أى أفكارك هى التى تبدو معقولة وأيها ينبغى أن يُعاد تقييمها. ويحدث - خاصة فى بداية عملك - أن تسمع الناس يتحدثون عن أشياء لم ترد على فكرك من قبل أبداً. فابحث عن الاتجاهات الرئيسية التى لم يخطر على بالك أبداً أن تسلكها. وينبغى أن يكون معدل سرعتك فى كتابة التعليقات كبيراً عند بداية عملك على وجه الخصوص. ونحن نؤيد كتابة التعليقات "ذات الأفكار" أو "ذات التصورات والمفاهيم" التى تطرح فكرة جديدة. وعادة ما تستغرق هذه التعليقات صفحتين أو ثلاث صفحات".

٣- "أعد تقييم دليل مقابلتك بعد أن تنتهى من إجراء حوالى عشر مقابلات. ذلك أنه ينبغى لعشر مقابلات أن تمدك بما يكفى من المعلومات لتقوم بإجراء تقدير رئيسى لأهمية ما استطعت أن تتعلمه ولما أخفقت فى تعلمه. ولعله من الملائم فى هذه المرحلة أن تُلقى نظرة فاحصة على القضايا التى يتناولها بحثك وعلى الموضوعات الأساسية التى تتبلور أمام ناظريك".

٤- "إذا رأيت أنك قادر على الإمساك بإحدى الأفكار المحورية، فهذا هو الوقت المناسب لكتابة "تعليق حافل بالبيانات" data memo. وأقصد بهذه الكلمة التعليق الذى يدمج هذه الفكرة المحورية مع البيانات ومع ما هو متاح من الكتابات السابقة التى تتوافق معه. وأعنى بالتعليق الحافل بالبيانات شيئاً يبدو قريب الشبه بورقة البحث. واستعمل فى هذا التعليق - دائماً - قدراً من البيانات أكبر مما تستعمله عادة فى ورقة البحث. وإذا صغت فكرة عامة وشعرت أن لديك عشرة شواهد من البيانات الجيدة التى تدعم تلك الفكرة، فاخضعها كلها للفحص والتدقيق وانتفع بها فيما بعد. تأكد - كذلك - من أنك عرضت أقوال الناس التى لا تدعم هذا النمط".

٥- "بمجرد أن تبدأ الأفكار المحورية فى الظهور، حاول أن تخرج عن مسارك لتكتشف الحالات التى لا تتناسب معها. إذ يجب عليك أن تحاول - بأقصى ما تستطيع - أن تدحض أفكارك. لا تخش ما فى الأفكار المحورية من تعقد وغموض. فالعالم معقد ولا بد لما تكتبه أن يعكس هذا التعقد. ويوجد

لدى العلماء الاجتماعيين ميل لوصف النماذج كما لو كانت موحدة الشكل أو متناغمة تناغماً كلياً. ومثل هذا الميل إنما يستخف بشأن تعقد الحقائق الاجتماعية المعاشة. فلا تقع فى هوى النظريات القديمة التى تبدو وجيهة فى الظاهر".

٦- "وبعد نحو من ١٥-٢٠ مقابلة قد يكون من المستحسن أن تضع عناوين أو مفاهيم لتصنيف البيانات. وتكون مهمتك حينئذ أن تبدأ بإنشاء ما تستطيع إنشاءه من العناوين أو الفئات التى تبدو معقولة. وكتابة التعليقات طريقة أخرى "للاقتراب الوثيق من البيانات" ولإطلاعك على ما أصبحت تعلمه. ويمكنك فى نهاية الأمر أن تنتفع بعناوين التصنيف هذه عندما تقوم بمراجعة هذه البيانات لى تكتب ورقة بحثية أو لتكتب تعليقاً".

٧- "أكتب تعليقاً مستوفى تماماً فى كل مرة يتخذ عملك اتجاهاً جديداً (كان يحدث مثلاً تغير مهم فى إجراءات اختيار العينات). وقدم شرحاً وافياً لأثر مثل هذه التغيرات فى النواحي التحليلية. فإن ما تكتبه من تعليقات يمكن أن يشكل "دليلاً للمراجعة" يصلح لمن يريدون أن يسيروا على نهجك فيما بعد. وينبغي أن يكون القائمون بالبحث الكيفى مسئولين مسئولية تامة عن إجراءاتهم، شأنهم فى ذلك شأن من يستخدمون إجراءات منهجية أكثر قياسية وتقنياً".

٨- "إذا رأيت أن لديك فكرة محورية لها من الأهمية ما يكفى لأن تكتب ورقة بحثية عنها للنشر، فلا تتردد فى فعل ذلك. فإن نشر الأوراق البحثية عمل من شأنه أن يؤكد هذه الأفكار ويدعمها كما يصل بأفكارك إلى مستوى عالٍ من الصقل والتنقيح. ولست بملزم لأن تنتظر حتى تستوفى جميع سائر بياناتك قبل أن تكتب أوراقاً بحثية. فسوف تجد أن بعض أوراقك البحثية ستكون بمثابة "عينات فرعية" موجودة داخل العينة الكبيرة".

٩- "قم، وعلى نحوٍ دورى منتظم الفترات، بكتابة مخططات تمهيدية لما يمكن أن تكون عليه صورة الكتاب، أو الأطروحة (أى الرسالة العلمية المقدمة لنيل شهادة جامعية)، أو الورقة البحثية المستمدة من البيانات التى حصلت عليها. قم بصياغة تصور مبدئى لخطة العمل الذى تنوى تأليفه.

تظاهر أنك تهم بالجلوس لتكتب كتاباً. فهذا تمرين جيد يجعلك تقوم برسم الصورة الكلية".

١٠- "لا تكن مهووساً بمسألة الحصول على نفس البيانات ذاتها من كل مبحوث. فسوف تجد أن القصة التي يحكيها كل مبحوث تعد قصة متفردة إلى حد ما. وستحتاج في أثناء كتابتك إلى أن تشير، هنا وهناك، إلى مثل هذه القصة المتفردة. ولعل من الأفكار الحسنة أن تكتب نبذة مختصرة - في نحو صفحة واحدة - تصف فيها الأفكار المحورية الرئيسية التي ترد في كل مقابلة".

١١- "اختبر فروضك بعرضها على مبحوثيك. وحاول أن تدمج فروضك في أسئلتك، كان تقول مثلاً لمبحوثك: (لعلك تعلم أن بعض من تكلمت معهم يقولون لي كذا... فهل هذا الكلام مقبول عندك؟). إذ لا يوجد مبرر لإخفاء أو كتمان الفروض، والأفكار، والمفاهيم عن المبحوثين".

١٢- انتبه للحالات المتطرفة، فكثيراً ما تكون مثل هذه الحالات هي الأثرى بالمعلومات. وكن حذراً من أن تقوم بتحليلها أو معالجتها بوصفها "حالة منحرفة".

خاتمة

تعتبر المقابلة المتعمقة طريقة رائعة للوقوف على ما يعايشه الناس من خبرات وما لديهم من رؤى وأفكار. وتتطلب المقابلات الكيفية بناء الألفة والتفاعل بين الباحث والمبحوث في موقف المقابلة. وثمة كثير من العوامل التي تؤثر على الطريقة التي تسير بها المقابلة، وكما سبق أن رأينا، فإنه لا يجوز أن نتجاهل الاختلاف، بل ينبغي دمج داخل خطة البحث وفي عملية جمع البيانات من البداية وحتى النهاية. أما القضايا الأخرى، كقضية المشاركة في السلطة والاشتراك في خلق السرد، والتي عرضنا لها في هذا الفصل، فسوف نتناقش بمزيد من التفصيل في الفصل التالي عن مقابلات التاريخ الشفاهي.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **Co-creation of Meaning** الاشتراك في خلق المعنى
يحدث هذا عندما يتشارك الباحث والمبحوث في خلق المعنى أو توليد المعرفة بشكل تعاوني. وتعد المقابلة - عادة - هي المناسبة لهذه المشاركة في خلق المعنى. ويتمثل واجب الباحث في أن ينصت بكل تركيز إلى ما يقوله المبحوث، وأن يكون على استعداد لأن يتخلى عن جدول أعماله استجابة لما يطرأ خلال المقابلة.
- **Focused Topic** نقطة التركيز الأساسية
الموضوع المحدد الذي يركز الباحث على دراسته.
- **In-Depth Interview** المقابلة المتعمقة
مقابلة من النوع الكيفي يسعى فيها الباحث إلى التماس المعرفة من وجهة نظر المبحوث.
- **Insider Status** مكانة القريب (الباحث من داخل الجماعة)
حيث يشترك الباحث مع مبحوثيه في سمة أو خاصية أو خبرة معينة. فقد كانت إحدى الاستراتيجيات التي لجأ إليها الباحثون للتغلب على تأثير الاختلاف في عملية المقابلة أن يضمنوا وجود قدر من "التوافق" بين سمات مبحوثيهم وبعض سماتهم الأساسية (كالعرق، أو العمر، أو النوع، أو الميول الجنسية) بحيث يفيدون من مكانة القريب (كما لو كانوا من داخل جماعة المبحوثين) في تنفيذ المقابلة والنجاح في الحصول على تعاون المبحوث وخلق جو من الألفة في المقابلة، الأمر الذي من شأنه أن ييسر لهم فهم مبحوثيهم.
- **Interview Guide** دليل المقابلة
الدليل عبارة عن قائمة بالموضوعات أو الأسئلة التي تعد قبل ترتيب المقابلة لكي تستخدم - أثناءها - حسب تقدير الباحث.

- **Knowledge-Producing Conversation** • **الحوار المنتج للمعرفة**

تمثل المقابلة الكيفية نوعاً خاصاً من الحوار المنتج للمعرفة الذي يتم بين طرفين اثنين. من هنا فإن العلاقة بين الباحث والمبحوث تكون ذات أهمية حاسمة لعملية خلق المعنى.

- **Line of Inquiry** • **مجال البحث (أو خط البحث)**

يعرف أيضاً باسم مجال البحث domain of Inquiry، وهو كل موضوع يكون مدرجاً ضمن دليل المقابلة وتكون أنت حريصاً على تقصى جوانبه أثناء جلسة المقابلة.

- **Low-Structure Interview** • **المقابلة المفتوحة (الأقل تقنياً)**
- انظر: المقابلة المفتوحة.

- **Markers** • **الإيحاءات**

الإيحاءات هي نتف مهمة من المعلومات قد يدلى بها المبحوث وهو بصدد الحديث عن موضوع آخر. ومن المهم أن يلتفت إليها الباحث ويتذكرها، ويعود إلى الحديث عنها مع المبحوث عندما تواتيه الفرصة لذلك.

- **Meaning- Making Partnership** • **المشاركة في صنع المعنى**

تعد المقابلات المتعمقة نوعاً من المشاركة بين الباحث و مبحوثيه في صنع المعنى. فجلسات المقابلة تتيح للباحثين التعرف على الحياة الاجتماعية من وجهة نظر من يعيشونها، ومن خلال تجاربهم، وبلغتهم هم.

- **Open-Ended Interview** • **المقابلة المفتوحة**

في هذا النوع من المقابلات يكون لدى الباحث موضوعاً معيناً يود دراسته، ويترك الحوار مع المبحوث يأخذه إلى حيث يشاء، ومن ثم يكون لكل مقابلة مفتوحة طابعاً فردياً يميزها. ويعرف هذا النوع من المقابلة أيضاً باسم "المقابلة الأقل تقنياً".

• مكانة الغريب (الباحث من خارج الجماعة) Outsider Status

يعنى هذا وجود فروق واختلافات أساسية بين الباحث والمبحوثين، كالاختلاف فى العرق، أو النوع، أو الطبقة الاجتماعية، أو الميول الجنسية، أو مستوى التعليم... إلخ. والتفكير المعتاد فى مسألة وجود مثل هذه الفروق والاختلافات فى موقف المقابلة يرى أن شغل الباحث "مكانة الغريب" قد يجعل من الصعب عليه أن ينفذ إلى عقل وقلب "الآخر" (المبحوث المختلف عنه) ويتفهم موقفه.

• Probe المجس

هو طريقة الباحث فى حمل المبحوث على متابعة حديثه فى الموضوع الذى يتكلم عنه، وأن يستفيض فى الحكى أو فى الشرح؛ ويكون ذلك من خلال تقديم ذلك الباحث لمثال أو شاهد توضيحى. وفى بعض الأحيان لا يزيد المجس عن كونه إبداء إيماءة - تدل على الفهم والاهتمام - يبدئها الباحث للمبحوث المستغرق فى الكلام.

• Rapport ألفة

يستطيع الباحث أن يساعد المبحوث على الإفضاء إليه بحكاياته بخلق علاقة ألفة بينهما. إذ لابد أن يشعر المبحوث بالأمان، والراحة، وكما لو كانت الأشياء التى يقولها ذات قيمة كبرى للباحث. ولتحقيق ذلك يتعين على الباحث أن يقوم بدور المنصت باهتمام إلى ما يقوله المبحوث. والمهم أن إبداء الاهتمام الحقيقى هو من الأمور الحاسمة فى خلق علاقة الألفة والمودة.

• Reflexivity الانعكاسية (التأمل النقدى)

الانعكاسية هى عملية التأمل النقدى التى بفضلها: يتبين الباحث، ويختبر، ويفهم كيف يمكن أن تتدخل خلفيته ومسلّماته الاجتماعية بالتأثير على عملية البحث. فالانعكاسية نوع من الحساسية المرهفة لديناميات العلاقة بين الباحث والمبحوث، التى يمكن أن تؤثر على خلق المعرفة. ويستطيع الباحثون أن يستخدموا عملية التأمل النقدى هذه (أو الانعكاسية) كوسيلة تعينهم على الدراسة رغم وجود الفروق والاختلافات بينهم وبين المبحوثين.

• المقابلة شبه المقتنة Semistructured Interview •

تعتمد المقابلة شبه المقتنة على مجموعة معينة من الأسئلة تحاول استخدامها في توجيه الحوار مع المبحوث، بحيث يظل - وإن بشكل مرن - على تركيزه على تلك الأسئلة.

• المقابلة المقتنة Structured Interview •

تعنى أن الباحث يوجه إلى كل واحد من المبحوثين الذين يقابلهم نفس مجموعة الأسئلة. وإذا حدث وحاد المبحوث بعيداً عن الموضوع الذى يدور حوله الحديث، أو تطرق إلى الكلام عن بعض الأمور المهمة أو الطريفة التى ليست مرتبطة مباشرة بالدراسة، فإن الباحث يحرص على توجيه الحوار بحيث يعود إلى أسئلة المقابلة مرة أخرى.

* * *

أسئلة للمناقشة

- ١- متى يكون من المناسب استخدام طريقة المقابلة المتعمقة؟ وما هى نوع الأسئلة التى تكون هذه الطريقة هى الأكثر ملاءمة للإجابة عليها، ومتى يتحتم استخدامها هى بدلاً من الطريقة الإثنوجرافية؟
- ٢- ما هو نوع الحوار الذى يتم فى موقف المقابلة المتعمقة؟
- ٣- اشرح مستويات تقنين المقابلة التى يستطيع الباحث أن يلجأ إليها، ومتى يكون من الأنسب استخدام أسلوب مقنن إلى حد ما فى إجراء المقابلة. وكيف تختلف المقابلات الكيفية عن المقابلات الكمية؟
- ٤- ما هو دليل المقابلة؟ وكيف يتم وضع دليل للمقابلة، وما هو الأسلوب الأمثل لاستخدام دليل المقابلة؟
- ٥- اشرح أهمية خلق جو من الألفة فى المقابلة. ومن هذه الزاوية: ماذا يعنى القول بأن المقابلات الكيفية تعتمد كل الاعتماد على المشاركة فى خلق المعنى؟
- ٦- ناقش قضايا الاختلاف فى المقابلات المكثفة. ما هى مزايا كون الباحث "قريباً" (يشبه المبحوث أو جماعته). وما هى مزايا وعيوب كون الباحث "غريباً" (مختلفاً فى السمات الأساسية عن المبحوث أو

جماعته)؟ اشرح كيف تتعايش هذه المكانات على متصل مرن أثناء ممارسة البحث فعلياً؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- التعليم إلكترونياً: "جمع البيانات عن طريق المقابلات المتعمقة"
- Education Online "Collecting data by in-depth interviewing"

<http://www.leeds.ac.uk/educol/documents/00000/172.htm>

هذا عرض لورقة بحثية عن أساسيات عملية إجراء المقابلة المتعمقة. وفيها يشرح المؤلف كيف يجمع الباحث البيانات خلال مراحل دراسته. وهناك قسم من الورقة يفصل القول في أنواع الأسئلة التي يمكن توجيهها. وتنتهي الورقة البحثية بقائمة ببليوجرافية مسهبة.

- حوار الجمهور
- Audience Dialogue

<http://www.audiencedialogue.org/kya.10.html>

أنشيء هذا الموقع بمعرفة "حوار الجمهور" لكي يزود المتواصلين معه من جميع الأنحاء بالمعلومات المفيدة. ويجزئ الموقع العملية البحثية إلى عمليات فرعية، واصفاً ما يتعين على الباحث إنجازه: قبل - وأثناء - وبعد هذا الشكل من أشكال جمع البيانات.

* * *

المراجع References

- Anderson, K., & Jack, D. C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In S. B. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 7-11). New York: Routledge.
- Beoku-Betts, J. (1994): When black is not enough: Doing field research among Gullah women. *NWSA Journal*, 6(3), 413-433.
- Eswards, R. (1990). Connecting methods and epistemology: A white woman interviewing black women. *Women's Studies International Forum*, 13(5), 477-490.
- Harding, S. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In L. Alcoff & E. Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49-82). New York: Routledge.
- Johnson, J. M. (2002). "In-depth interviewing." In J. F. Gubrium and J. A. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context & method* (pp. 103-119). Thousand Oaks, CA: Sage.

- Kohler-Riessman, C. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and Society*, 1, 172-207.
- Oakley, A. (1981). Interviewing women: A contradiction in terms. In H. Roberts (Ed.), *Doing feminist research* (pp. 30-61). London: Routledge and Kegan Paul.
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.
- Riessman, C. K. (1988). Worlds of difference: Contrasting experience in marriage and narrative styles. In A. D. Todd & S. Fisher (Eds.), *Gender and discourse: The power of talk* (pp. 151-173). Norwood, NJ: Ablex.
- Safa, H. I. 1981. Runaway shops and female employment: The search for cheap labor. *Signs*, 7(2), 418-433.
- Warren, C. A. B. (2002). Qualitative interviewing. In J. F. Gubrium and J. A. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context & method* (pp. 83-101). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Weiss, R. S. (1994). *Learning from strangers: The art and methods of qualitative interview studies*. New York: The Free Press.
- Weston, K. (2004). Fieldwork in lesbian and gay communities. In Sharlene Hesse-Biber & Michelle Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 198-205). New York: Oxford University Press.

1. The first part of the report is a general introduction to the subject of the study.

2. The second part of the report is a detailed description of the methods used in the study.

3. The third part of the report is a detailed description of the results of the study.

4. The fourth part of the report is a detailed description of the conclusions of the study.

5. The fifth part of the report is a detailed description of the recommendations of the study.

6. The sixth part of the report is a detailed description of the limitations of the study.

7. The seventh part of the report is a detailed description of the future research.

8. The eighth part of the report is a detailed description of the references.

9. The ninth part of the report is a detailed description of the appendices.

10. The tenth part of the report is a detailed description of the index.

الفصل الخامس

التاريخ الشفاهي

طريقة مساعدة للمقابلة القائمة على السيرة (الذاتية)

"الكلام يحمى المتكلم"

من النسيان

الساندرو بورنلي

القص Storytelling (أو الحكى، أو سرد الحكايات) مكون طبيعي من مكونات الخبرة البشرية، فالبشر يتناقلون المعانى من خلال الكلام. وقد استخدم المؤرخون الشفاهيون تراث نقل المعرفة هذا وابتكروا أسلوب بحث مهم يقر بصحة التعبير القائم على الصوت البشرى. ومع أن القص له تاريخ قديم، فإن تطويع هذه العملية البشرية لتكون طريقة بحث معترفاً بها ومعتمدة يعد أمراً حديثاً نسبياً.

اعتمد التاريخ الشفاهي فى سنة ١٩٤٨ كإسلوب حديث للتوثيق التاريخى عندما بدأ المؤرخ آلان نفينز Alan Nevins الأستاذ بجامعة كولومبيا القيام بالتسجيل الصوتى للسيرة الذاتية لبعض الأشخاص نوى الأهمية فى الحياة الأمريكية (جمعية التاريخ الشفاهي لأمريكا الشمالية، نقلاً عن طومسون Thomson، ١٩٩٨، ص ٥٨١).

ويرى بعض الباحثين أن من المفيد التمييز بين "التراث الشفاهي" Oral tradition و"التاريخ الشفاهي" Oral history، وذلك باعتبار أن التراث الشفاهي هو المظلة الشاملة التى تتدرج تحتها طريقة التاريخ الشفاهي. ويشير مصطلح "التراث الشفاهي" بين كثير من السكان الأصليين لأمريكا إلى القصص التى تم تداولها على امتداد أجيال متعددة، والتى قد تتضمن - كذلك - شخصاً أو كائنات غير بشرية (Willson, 1996, p. 8). من هنا يختلف هذا المصطلح عن الاستعمال الأكاديمي الأحدث لمصطلح "التاريخ الشفاهي"، والذي تجمع فيه القصص الشخصية من أحد الأفراد.

وكما سيُتضح لك في هذا الفصل، فإن طريقة التاريخ الشفاهي تُعد نوعاً متميزاً جداً من المقابلة، لأن عملية القص التي تتبنى عليها إنما هي عملية من نوع خاص. ذلك أنه توجد أثناء عملية السرد لحظات من التنبه والوعي، كما تتحقق في الحالات المثلى من القص الشفاهي لحظات من التعليم والتمكين أيضاً. شاهد ذلك أنه عند قيامي باستطلاع التاريخ الشفاهي لحياة طالبة جامعية تخوض معركة قاسية ضد مرض "فقدان الشهية العصبي" أن تنبهت الفتاة عند لحظة معينة خلال عملية التسجيل التي استغرقت جلسيتين طويلتين - حدث أن تنبهت لتلك اللحظة في حياتها، والتي بلغت ذروتها بالتحول إلى الإصابة بمرض فقدان الشهية العصبي. لقد كانت لحظة مهمة من لحظات روايتها لقصة حياتها لم يكن من الممكن أن تخطر ببالها إلا في ثانياً سردها لقصة حياتها. ولم يقتصر أمر هذه اللحظة على أنها مثلت نقطة تحول مهمة في وعي هذه المبحوثة بنفسها، بل يُضاف إلى ذلك أنها ساعدتها على أن تفهم بوضوح واستفاضة معرفتها الجوهرية الراهنة عن قابليتها للتعرض لاضطرابات الأكل وعن بداية معاناتها من تلك الاضطرابات. ولم يكن من الممكن لهذا الوضوح الذي بدا على إدراك (المبحوثة الشابة) "كلير" Claire لتلك اللحظة التي بدأت تصاب فيها بوساوس خاصة بشكل جسدها، وللطريقة التي حدثت بها هذه الإصابة المرضية في بداية الأمر؛ لم يكن من الممكن لهذا الوضوح أن يتحقق إلا من خلال سردها لقصة حياتها منذ مرحلة الطفولة. وفي ذلك تقول المبحوثة:

كنت أركز - إلى حد ما - على ما مررت به من ظروف وملابسات، وعلى قلة الفرص التي كانت تُتاح لي. ومن قبيل ذلك، كل تلك الأمور التي مرت بي، وقد كنت أعد العدة للانتظار - كما تعلم - وقد انتظرت لمدة، لمدة طويلة جداً، وكان كل واحد يقول "في يوم ما، في يوم ما". ثم جاء هذا اليوم، ولم يحدث شيء. هل تفهم ما أعنيه؟ ولهذا كان ذلك الأمر شاقاً عليّ. ولكنني، وقد حدث ذلك فعلاً في ذلك الوقت، والذي فيه علمت أنني كنت موجودة في الكلية، حدث أن تذكرت أنني كنت ساعتها أفكر في شئوني. حسناً، من الواضح أنني أستطيع التعامل مع أساتذتي بالجامعة. أما عن الأصدقاء، فقد لا أكون صداقاتي الوثيقة مع زملاء من داخل الكلية، إلا أنه مازال لدى صداقات

مع زملاء من المدرسة الثانوية. هل تدري ما الذى كنت أنوى عمله فى ذلك الوقت؟ فقد كنت جالسة هنا وأنا انظر إلى فترة ثلاث سنوات وهى تمضى، فما الذى أنوى أن أفعله بثلاث سنوات من حياتى؟ هل تعرف؟ أعتقد أن الأمر الآخر الذى أصابنى بالإحباط، هو أن المحاضرات الأخرى بالكلية كانت شبيهة بالمحاضرات التى كنت ألتقاها بالمدرسة الثانوية، باستثناء مستوياتها وتوجهاتها. فقد كانت الدراسة بها شديدة التقنين والنمطية، ومشابهة لبعضها أشد التشابه، وقائمة على الاستظهار بدون فهم، فكانت على النقيض من الدراسة القائمة على: ما هى أفكارك فى هذا الموضوع؟ وهل ترى أن هذه الفكرة صائبة؟ وما هو إحساسك الذى تشعر به إزاء هذا الموضوع؟ وهكذا كنت تقريباً أشبه بمن يتساعل عما أنوى عمله بهذه السنوات الثلاث؟ كما أننى أستطيع الآن أن أتذكر ذلك اليوم، عندما كنت أفكر فى نفسى، حسناً، فعلى أقل تقدير أستطيع أن أروى حكاية الصورة التى كنت أريد أن أبو بها. وهى أقرب إلى رغبتى فى أن أكون ناجحة فى نظر نفسى، وكان الأمر يبدو كما لو كانت فى ذهنى صورة معينة، وهذه الصورة لم تكن تشبه امرأة لها وجه ممثلى كوجه الطفل البدين. هل تفهمنى؟ لقد كانت صورة فتاة رشيقة جداً؛ لقد كانت صورة عجيبة لأننى لم أرد أبداً أن أكون نحيفة. بل كنت أريد أن أكون قوية. فأنا دائماً، أعنى، خاصة وأننى نشأت بين أولاد، أريد أن أكون قادرة على تحديهم فى لعبة كرة السلة. كم كنت أريد أن أكون قادرة على تحديهم فى لعبة كرة السلة. كما أننى كنت أريد أن أكون قادرة على ممارسة رياضة التزلج على الجليد، هل تفهمنى؟ فكل ما كنت أريده هو أن يكون لدى قوام حسن فعلاً. كما أن كل ما كنت أحبه - فعلاً - كان على أقل تقدير، أن أتمكن من تنظيم أمورى الصحية. هل تفهمنى؟ وذلك على الرغم من أنه ليس لدى الكثير لأعمله فيما يتصل بهذا القرار، والآن إذا استعدت هذه الأمور أستطيع أن أدرك أنه كان لدى صوت فعلاً (أى قدرة على التعبير عن النفس). لقد كان بمقدورى أن أقول لنفسى: انس هذا الأمر، فأنا على وشك مغادرة الكلية فعلاً. ولكننى عندما قمت بتقدير كل من المزايا والعيوب، خاصة لأننى كنت دائماً ممن يحرصون على النوم فى حياتى، وجدت أن قيامى بالإخلال بالتوازن، أو

تسببى فى إحداث اضطراب أو إزعاج بلا مبرر ليس من الأمور التى أرغب فى فعلها. ولذلك فإننى أتذكر جيداً قولى لنفسى: "حسناً، سوف أبدا ممارسة التمرينات الرياضية وأراقب طعامى جيداً، وأنا أقصد بذلك - فى الحقيقة - أن هذا الوقت كان هو المرة الأولى التى لم أكن مشتركة فيها فى لعبات رياضية منظمة، لذلك، فإننى لم أكن أرتقى وأتحسن من موسم لموسم آخر. هكذا كانت أحوالى آنذاك - فعلاً - وهذا هو ما قررت أن أفعله. إلفى Leavy، ١٩٩٨، المقابلة الثانية مع كلير (اسم مستعار) وعلامات التأكيد مضافة من قبل المؤلف].

ما أعظمها من لحظة فى عملية البحث هذه - وهى لحظة الكشف عن توقيت وسبب بداية ما يمكن أن يتحول إلى وسواس تجاه الجسد يهدد الحياة، متى ولماذا بدأ منذ سنتين مضتا.

وهكذا تستطيع الآن أن ترى أن التاريخ الشفاهى نوعٌ خاص من المقابلة المكثفة القائمة على سرد السيرة الذاتية. ففي أثناء مشروع بحثى يستخدم التاريخ الشفاهى يمضى الباحث قدراً كبيراً من الوقت مع محوٍ واحد كى يتمكن من أن يحيط علماً بحياته أو بجانب معين من حياته. وقد اقتبسنا ذلك النص السابق من مشروع كان يستخدم التاريخ الشفاهى كوسيلة لفهم كيفية تحول بعض الطالبات الجامعيات اللاتى كن ناجحات إلى مصابات باضطرابات الطعام شديداً التركيز على أجسادهن، بحيث تتكشف لنا الخبرات الحياتية التى تشابكت مع بعضها بطريقة تسببت فى تعريض "كلير" وغيرها للإصابة بالوسواس (المرضية) المتعلقة بصورة الجسد عندهن. إلا أنه لا يكفى القول هنا إننا نعلم كل شيء عن حيوات محوّناتنا بنفس الطريقة المستعملة فى الطرق الكيفية الأخرى كالمقابلة والملاحظة، فالتاريخ الشفاهى يتيح للباحثين أن يعرفوا حيوات المبحوّنين من وجهة نظر أولئك المبحوّنين الشخصية، بمعنى: ما هى الأمور التى لها معنى عندهم، وما الذى يعدونه مهماً، وما هى مشاعرهم واتجاهاتهم (الصريحة منها والمضمرة)، وما هى العلاقات بين الخبرات الحياتية المختلفة أو بين المراحل المختلفة من حياتهم. فالمبحوّنون يعرضون ما لديهم من وجهات نظر وآراء فى خبراتهم الحياتية

الشخصية. فدراسات التاريخ الشفاهي تتيح فرص المشاركة بين الباحث والمبحوث في توليد المعرفة. وتقدم عملية التبادل هذه فرصاً متميزة، وتقيماً أخلاقياً مستمراً (وهو الأمر الذي يزداد بروزاً وأهمية في العصر الإلكتروني)، كما تقدم طائفة من التحديات في مجال التأويل. ونظراً لكون التاريخ الشفاهي طريقة نسوية في الغالب، فإنه يتيح لنا الإحاطة بالمعرفة القيمة والخبرة الحياتية الغنية الخاصة بالأفراد المهمشين والجماعات المهمشة، التي لولا ذلك لظلت في وضع لا يسمع لها فيه صوت، كما أنه يوفر لنا، بصفة خاصة، طريقة للوصول إلى الأصوات المقهورة. وبجانب كون التاريخ الشفاهي يساهم في إثراء المعرفة العلمية الاجتماعية بصورة جوهرية، فإن بإمكان عملية التاريخ الشفاهي أن تكون خبرة مجزية وداعمة لكل من المبحوث والباحث على السواء، كما حدث في حالة "كلير"، والتي تحدثت بعد ذلك عما شعرت به من القوة التي اكتسبتها من خلال ظفرها برؤية صائبة لبعض اللحظات الفاصلة في حياتها.

اختلاف التاريخ الشفاهي عن المقابلة المتعمقة

ما هو التاريخ الشفاهي؟ يُعد التاريخ الشفاهي - كما أشرنا من قبل - نوعاً خاصاً من أنواع المقابلة بمقتضاه يمضي الباحث و المبحوثون وقتاً ممتداً مع بعضهم البعض وهم منهمكون في عملية القص والإصغاء. وتعبير آخر، يعد التاريخ الشفاهي عملية مشتركة لبناء السرد. ومع ذلك، فإن هذا وحده لا يميز التاريخ الشفاهي عن الأشكال الأخرى للمقابلة الكيفية. لذلك يكون السؤال الحقيقي هو: ما الذي يجعل التاريخ الشفاهي ذا طبيعة خاصة متميزة؟ ما هو الأمر المتفرد في هذه الطريقة، وكيف يستعمل الباحثون الكيفيون هذه الطريقة، وما الذي تضيفه إلى معرفتنا بالعالم الاجتماعي؟ ومن أجل تقديم شرح تفصيلي للصفات الخاصة للتاريخ الشفاهي، يتعين علينا أن نميزه عن المقابلة المتعمقة، والتي تُعد أكثر البدائل قرباً منه.

كما رأينا في الفصل السابق، تُعد المقابلات المتعمقة أسلوباً ممتازاً لجمع البيانات الكيفية الغزيرة محكية من وجهة نظر الناس الذين ندرسهم. ويصدق نفس هذا الكلام على التاريخ الشفاهي. ووجه الخلاف أنه عند استخدام

المقابلات المتعمقة يكون لدى الباحث الذى يجرى المقابلة - فى العادة - موضوع يركز عليه طوال المقابلة، كما أنه يلتزم بدليل للمقابلة قد يكون - كما رأينا - مقتناً أو غير مقتن إلى حد ما. وقد تطرح على المبحوثين، أو لا تُطرح عليهم، أسئلة مماثلة، وهو الأمر الذى يتوقف على تصميم المشروع وأهدافه. وتختلف مقابلات التاريخ الشفاهى عن المقابلة المتعمقة فى أنه بينما يكون الباحث مشتغلاً بدراسة موضوع محدد، فإن تنظيم هذا الموضوع قد يكون أقل تركيزاً إلى حد بعيد.

مثال ذلك، أنك إن كنت مهتماً بدراسة القضايا الخاصة بصورة الجسد التى تخبرها الفتيات أثناء دراستهن بالجامعة، فقد تكون المقابلات المتعمقة هى الطريقة الملائمة للتركيز على تلك القضايا، فى نفس الوقت الذى يتيح فيه للمبحوثات متسعاً كافياً ليوضحن - على نحو كفى - ما يعتبرنه مهماً فى هذا الشأن من وجهة نظرهن. والآن لنفترض أنك تريد دراسة قضايا صورة الجسد بين الطالبات الجامعيات بوصفها جزءاً من مسيرة حياتهن. ومعنى هذا أنه إن كنت مهتماً بحياة المبحوثة منذ طفولتها، والتى منها مثلاً تلك الخبرات الحياتية المختلفة التى تكون قد تضافرت لتسبب فى إحداث نقاط ضعف معينة تتصل بصورة الجسد عندما أصبحت طالبة بالجامعة؛ هنا قد يكون التاريخ الشفاهى الطريقة الملائمة للدراسة. وهذا هو ما حدث فى الدراسة التى شاركت فيها الفتاة الجامعية "كلير".

فالتاريخ الشفاهى يُتيح لك أن تدرس فترة طويلة من حياة الشخص المبحوث أو حتى تدرس حياته كلها. وبإمكانك أن تضيق نطاق هذا الموضوع، كأن تقصره مثلاً على صورة الجسد، أو على خبرات العمل، أو على خبرات المبحوث مع والديه... إلخ، إلا أنك - فى نهاية الأمر - سوف تتحصل على قصة متعمقة إلى حد بعيد من كل مبحوث على حدة. وقد يُضحى هذا التعمق بشيء من التوسع فى التفاصيل، نظراً لأن هذا التعمق يبدأ بالإسهاب فى شرح بعض الخبرات المعينة على حساب استبعاد خبرات أخرى، غير أننا سوف نناقش هذه النقطة لاحقاً خلال هذا الفصل.

لا يكفي أن تقول إنك تدرس لفترة طويلة من الوقت باستعمال طريقة التاريخ الشفاهي، ففي الواقع، قد لا يصدق هذا الكلام على بعض الحالات. فالأمر الحاسم الذي تركز عليه قوة هذه الطريقة حقيقة هو أن تستطيع أن تدرس العملية (أو المسيرة: المتكونة من خطوات ومراحل متعددة). فإن كنت تدرس حياة فتاة ابتداءً من طفولتها حتى مرحلة دراستها الجامعية لكي تفهم أفكارها الخاصة بصورة الجسد عندها في الوقت الحاضر، فإن الذي سوف تعلمه لن يقتصر على ما تعيشه هذه الفتاة حالياً من خبرات ونظرتها إلى هذه الأمور، بل سيشمل كذلك العملية التي أدت بها إلى الحال الذي آلت إليه. وبالمثل، فإن ما تحكيه الفتاة من العمليات والملابس المتصلة بتاريخ حياتها سوف يبرز حكايتها بطرق تساعدنا على فهم التأثير الفردي داخل سياق البيئات الاجتماعية والطبيعية المحيطة بها. وهكذا، فإنه بينما يركز التاريخ الشفاهي على هذه الشخصية وعلى قصتها، فإن بالإمكان الانتفاع به كذلك في ربط الظواهر الجزئية (على المستوى الميكرو) والظواهر الكلية (على المستوى الكبير) والخبرات الحياتية الشخصية بالملابس التاريخية الأوسع نطاقاً منها.

ووفقاً لذلك، فإن التاريخ الشفاهي طريقة أساسية لفهم الخبرات الحياتية بأسلوب أكثر كلية وشمولاً بالمقارنة مع الطرق الأخرى للمقابلة. وتتوافق هذه الطريقة مع مبادئ البحث الكيفي، كما أن بإمكانها أن توفر لنا بيانات وصفية غزيرة بجانب ما توفره من الإحاطة بالعمليات الاجتماعية. وبينما تكون بعض الموضوعات أكثر تلاؤماً مع طريقة بحث واحدة فقط، تكون الموضوعات ذات الأبعاد التاريخية ملائمة بدرجة عالية لطريقة التاريخ الشفاهي. مثال ذلك، أنك إن كنت مهتماً بدراسة أحد الأحداث التاريخية أو إحدى الفترات الزمنية وكيف عاش عدد معين من السكان هذا الحدث أو كيف عاشوا في هذه الفترة، فقد يكون التاريخ الشفاهي هو الطريقة المثلى لمثل هذه الدراسة.

استعملت بوتنج Botting (٢٠٠٠) التاريخ الشفاهي كطريقة لفهم خبرات مجموعة معينة من النساء العاملات خلال سنوات العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. وقد كانت مهتمة - بصفة خاصة - بخادمت

المنازل اللاتي قدمن مهاجرات من بعض المجتمعات الساحلية إلى إحدى المدن الصناعية بولاية نيوفونلاند لغرض التوظيف. وقد استعملت طريقة التاريخ الشفاهي كأسلوب لفهم كل من الخبرة المتعلقة بالهجرة والخبرة المتعلقة بالخدمة في المنازل لدى هذه المجموعة من العاملات، واللاتي كن يمثلن - في ذلك الوقت - نسبة كبيرة من النساء العاملات في تلك المنطقة. ويعد هذا النوع من البحث ذا أهمية جوهرية في ملء الثغرات الموجودة في قاعدتنا المعرفية الحالية عن معنى أن تكون إنسانة ما امرأة من طبقة اجتماعية معينة في زمن معين، ومكان معين، ومهنة معينة، وذلك من وجهة النظر الشخصية لتلك المرأة. وتوجد أمثلة عديدة على الطريقة التي يمكن أن نبدأ بها فهم الخبرات التي لم تُدرس من قبل، وذلك انطلاقاً من وجهة النظر المتميزة لأولئك الذين عاشوا هذه الخبرات، وذلك من خلال استعمال طريقة التاريخ الشفاهي بالأسلوب الذي اتبعته بوتنج. فباستعمال هذه الطريقة يمكن للجماعات التي تم استبعادها قبل ذلك أن نشاطرنا معرفتها القيمة. وبالإضافة إلى هذه الأنواع من الخبرات الواسعة التي يوفرها التاريخ الشفاهي، فإنه يُعد طريقة لا تقدر بثمن للوصول إلى فهم كيف عايش الناس الأحداث التاريخية المهمة وكيف فهموها.

بدأ كروثرز Crothers (٢٠٠٢) مشروعاً رائعاً في جامعة إنديانا سوٲ ايسٲ، قام فيه الطلاب الجامعيون بإجراء مقابلات ذات طابع شامل مع المقيمين في هذا المجتمع المحلي تناولت بعض الأحداث التاريخية. وقد أجريت المقابلات، على وجه الخصوص، مع قدامى المحاربين الذين اشتركوا في الحرب العالمية الثانية، وفي حرب كوريا باعتبار أنهم أناس عاشوا أثناء فترة الكساد العظيم^(٥). وقد كان لهذه الدراسة أثر إيجابي هائل على كل من الطلبة الذين قاموا بإجراء المقابلات والأفراد الذين أجريت معهم هذه المقابلات. ويمكن النظر إلى أحد أبعاد هذه النتيجة بوصفه دعماً لبناء المجتمع المحلي، وذلك لأن هذا المجتمع ازداد معرفة بأحوال أعضائه الذين يُشكلون عناصره التي يتكون منها. وفيما يتصل بالفوائد التعليمية المباشرة التي جناها

(٥) في الولايات المتحدة والعالم في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين (المترجم).

الطلاب الجامعيون، فإنهم ازدادوا علماً بالعلاقة بين الخبرة الفردية والظروف الاجتماعية التاريخية، وهو الأمر الذي يبرز أهمية المنظور التاريخي أثناء معايشة الخبرة الخاصة بإجراء البحث الكيفي.

بعد أن قام الطلاب الجامعيون بإجراء المقابلات مع قدامى المحاربين الذين اشتركوا في الحرب العالمية الثانية وفي الحرب الكورية، لم يعد أولئك الطلاب ينظرون إلى بيرل هاربور ونورماندى، وإيووجيما، وهيروشيما وإنشون كمواقع بعيدة موجودة على الخريطة، بل كأماكن قاتل فيها شباب أمريكيون أمثالهم وماتوا في ظروف بائسة وبدون أن يعلم بهم أحدٌ غالباً. ويتعلم الطلاب أنه على الرغم من أن هؤلاء المحاربين القدماء جميعاً لم ينسوا أبداً خدمتهم العسكرية وما زالوا يفتخرون بها، فإن أغلبهم لم تراوده أى رغبة فى تكرار هذه التجربة. وقد ترك المحاربون القدماء يعانون عجزاً دائماً بدنياً ونفسياً، أما من كان منهم من بين أسرى الحرب السابقين، فإنهم يؤكّدون الدرس الذى يقول إن الحرب، حتى وإن كانت "حرباً مشروعة"، فلا ينبغي دخولها إلا فى حالة الذعر. وموجز القول، إن المقابلات تركت انطباعات عميقة فى نفوس الطلاب. (كروثرز، ٢٠٠٢، ص ٣).

يضاف إلى ذلك أنه أتيحت للمبحوثين فرصة التعبير عن أنفسهم وسرد حكاياتهم لأفراد ينصتون إليهم باهتمام. وهذا الاعتبار يُعد - كذلك - جزءاً مؤثراً ومهماً من أجزاء خبرة التاريخ الشفاهى.

كما أن الطلاب تفاعلوا مباشرة مع بعض أعضاء المجتمع الذين لا يلقون إلا أقل درجات التقدير، وهم الذين يُسمون "بالموظفين المسنين"، والذين شاطرونا ما لديهم من ثراء فى حياتهم وخبراتهم. وكما أشار إلى ذلك أحد الطلاب قائلاً: "أرى أننا جعلنا كبار السن [الذين شملهم المشروع] يشعرون بأهميتهم. فقد كان لديهم حكاية يريدون روايتها، كما أننى أتصور أن الطلبة الجامعيين الذين يمضون الوقت فى تقصى خبراتهم والوقوف عليها جعلوهم يشعرون بأن من الناس من يهتمون بما قدموه من تضحية. (كروثرز، ٢٠٠٢، ص ٣، علامة التأكيد إضافة من المؤلف).

عندما تستعمل طريقة التاريخ الشفاهى بهذا الأسلوب، فإن بإمكانها أن تحقق أهداف التعليم والتمكين، كما تسهم فى بناء المعرفة الأساسية. وتوجد

كذلك أمثلة على استعمال التاريخ الشفاهى كأسلوب لفهم الأحداث الجارية ذات الأهمية، من وجهة نظر أولئك الذين عايشوها، طالما كانت تلك الأحداث حية (فى أذهانهم).

فبعد أيام قليلة فحسب من الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر أنشئ المشروع الذى سُمى "مشروع الذكريات والقصص التاريخية الشفاهية ليوم الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١" بجامعة كولومبيا. وقد اشترك كل من بيرمان Bearman ومارشال كلارك Marshall Clark فى تأسيس هذا المشروع البحثى التاريخى الذى تدعمه جامعة كولومبيا. وفى بحر سبعة أسابيع بعد هذا الحدث كان هذان الباحثان قد جمعا المقابلات القائمة على التاريخ الشفاهى، والتى أجريت مع حوالى مائتى فرد، وبعد ستة أشهر كانا قد جمعا مائتى مقابلة أخرى قائمة على التاريخ الشفاهى، بما فيها المقابلات مع المتطوعين، وعمال الإنقاذ، ومع الناجين من الحادث، وغيرهم ممن كانوا يعيشون أو يعملون فى المنطقة الملاصقة للبرجين المدمرين. وقد أبدى الباحثون اهتماماً خاصاً بفهم تركيبة الذاكرة الفردية والاجتماعية وكيفية تكوينها. وكانوا يريدون، بصفة خاصة، أن يفهموا دور وسائل الاتصال الجماهيرية والإدارة الحكومية فى العملية التفسيرية لدى الأفراد فيما يتصل بفهم هذه الأحداث التى وقعت.

وزيادة على ذلك، ونظراً لأن المبحوثين كانوا ينتمون إلى إثنيات مختلفة، فقد أراد الباحثون أن يفهموا كيف فسرت مجموعة غير متجانسة من الناس الذين كانوا موجودين فى مركز هذا الحدث؛ كيف فسروه وكيف قاموا بفرز وتنقية المعلومات والصور الذهنية التى كانوا يتلقونها من الثقافة الأكبر. وكيف أثرت مشاعر الوطنية والاعتراب على تركيبة الذاكرة الفردية أثناء الفترة التى أعقبت هذه الكارثة مباشرة؟ وهل بدا لأولئك الذين كانوا موجودين فى ذلك المكان أن يوم الحادى عشر من سبتمبر يمثل "نقطة تحول" فى التاريخ الأمريكى، وهى الصورة التى صور به المحللون الإعلاميون والقادة السياسيون وكرروا ذلك كثيراً؟ فهذه الأمور كانت ضمن الأسئلة التى كانت لدى الباحثين عندما كانوا يُصغون إلى حكايات ٩/١١ من أفواه من عايشوا هذا الحدث وكانوا وقتها يحاولون فهم دلالاته. وهكذا أصبح التاريخ الشفاهى طريقة مهمة لفهم تركيبة الذاكرة أثناء تشكيلها فعلاً.

وقد وجد الباحثون أن الصورة الذهنية السياسية كانت عنصراً مهماً من عناصر تكوين الذاكرة في مرحلتها المبكرة. وقد انتهى الباحثون إلى تقرير أن الناس قد راودت أذهانهم تفسيرات مختلفة لما عايشوه من أحداث، وأنهم كانوا يلجأون إلى هذه التفسيرات ليفهموا تلك الأحداث. وإن بالإمكان أيضاً تشبيه هذه التفسيرات بالأطر أو القوالب التي من خلالها وصل هؤلاء الناس إلى تفسير مُعاناتهم لهذه المأساة. وقد تضمنت هذه الأطر الذهنية/ أو القوالب: النزعة الوطنية، والهرب واللجوء، والعزاء، والسلوان (ص ٧). وكان إطار التفسير الذي اهتم به الباحثون - أكثر من غيره - هو الفكرة التي تعتبر يوم الحادى عشر من سبتمبر نوعاً من "الكشف" (أو الرؤية النبؤية).

لعل الأمر الأهم بالنسبة لتصورنا النهائى لدلالة يوم الحادى عشر من سبتمبر بوصفه محوراً للفهم القومى كما هو محور للفهم الدولى، هو أن الناس نظروا إلى هذه الهجمات - بطرق مباشرة وبطرق غير مباشرة - على أنها كشف (أو رؤية نبؤية). وبهذا المعنى، فهم هذا الحدث بوصفه لحظة تقع خارج الزمن وحدثاً ينتهى عنده التاريخ كما كنا نتصوره فيما مضى. شاهد ذلك أن كثيراً ما كانت المقابلات التي أجريناها مع الناجين ومع شهود العيان، كثيراً ما تخللتها تشبيهات واستعارات دينية وصور مستمدة من الأفلام والروايات السينمائية تتسم بالتنبؤ بالغيب، وهو الأمر الذى يكشف عن الطريقة التي كان يتبعها الكثيرون فى مجاهدتهم لفهم قضية الخير والشر، وقضية الحياة والموت خارج إطار التاريخ على النحو الذى كانوا يتصورونه فيما مضى. (مارشال كلارك، ٢٠٠٢، ص ٧).

تتجلى قدرة التاريخ الشفاهى على الإحاطة بالتشابك القائم بين الخبرة الشخصية، والظرف التاريخى، والإطار الثقافى؛ تتجلى بوضوح فى هذه الدراسة التى تناولت أحداث الحادى عشر من سبتمبر بطريقة التاريخ الشفاهى. وبابتعادنا عن هذه الأمثلة المحددة، نستطيع أن نقدم بعض التعقيبات حول العلاقة بين السيرة الذاتية، والتاريخ، والثقافة كما يكشف عنها التاريخ الشفاهى.

يمكن القول - بصورة عامة - أن التاريخ الشفاهي يقدم لنا طريقة لدعوة الناس لسرد حكاياتهم - وهى الحكايات المتصلة بماضيهم، وماضى زمانهم، وما مر بهم من الأحداث الماضية، وما إلى ذلك. فإن كل قصة فردية مما يحكيه الناس تكون - على الدوام - مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظروف التاريخية المحيطة بها، مما يجعل القصة تمتد إلى ما وراء نطاق خبرتهم الشخصية. ويسمح التاريخ الشفاهي بالمزج بين السيرة الذاتية الفردية والعمليات التاريخية. فالفرد إنما يحكى قصته من خلال ذاكرته. وهذا معناه أن استعادة الأفراد لذكريات خبراتهم التى مروا بها، وطريقتهم فى إضفاء المعانى على تلك الخبرات، هو أمر يتعلق بما هو أكثر من "الدقة". وهو كذلك عملية "تذكر"، أى أن الأفراد يقومون - أثناء تذكرهم لخبراتهم - بفرزها وتنقيتها وتفسيرها. إذا اتفقنا على ذلك، أمكننا القول إنه يوجد توتر بين التاريخ والذاكرة الفردية، أى بين التاريخ الجمعى المدون وإحساس الفرد بهذا التاريخ الجمعى، وهو التوتر الذى يمكن البوح به، وإظهاره، وتفسيره من خلال التاريخ الشفاهي. وفى هذا الاتجاه يقول ريتشارد كانديدا سميث Richard Candida Smith (٢٠٠١): "إن الذاكرة والتاريخ يتواجهان عبر شريط التسجيل (الذى تُسجل عليه المقابلة)". (ص ٧٢٨) وكما سوف نتوسع فى هذا الموضوع فى ختام هذا الفصل، تستطيع أن ترى أن أهمية التاريخ الشفاهي تتنامى بقوة فى مجال البحث القائم على تضافر التخصصات والمعنى بدراسة الذاكرة الجمعية.

وكما هو الحال مع دراسة الأحداث التاريخية أو الراهنة، يمكن أن يفيد التاريخ الشفاهي أعظم نفع فى دراسة الإحساس الفردى بالتغير الاجتماعى وما يرتبط به من مختلف المشكلات الاجتماعية والشخصية. وقد استعملت سلاتر Slater (٢٠٠٠) طريقة التاريخ الشفاهي لكى تفهم كيف عايشت أربع من النساء السود من جنوب إفريقيا خبرة التحضر (أى المعيشة فى المدن) فى ظل نظام التفرقة العنصرية. وكان لهؤلاء النساء - وكما هو متوقع - خبرات مشتركة وخبرات شخصية ظهرت أثناء مراحل تاريخ حياتهن. وتدل هذه البيانات على الطريقة التى بها شكلت القيود الاجتماعية واقع الحياة الاقتصادية

لهؤلاء النساء بوسائل شديدة التأثير (ص ٣٨). ومع ذلك، فقد أظهر هؤلاء النساء، كذلك، أن فعاليتهن الشخصية قد أثرت على حياتهن، بنفس مقدار تأثير الواقع الاجتماعي الذي يعشن في كنفه.

... تُمكنُ تواريخ الحياة الباحثين الذين يدرسون تطور الشخصية من أن يفهموا على وجه صحيح كيف يختلف تأثير التغير الاجتماعي أو الاقتصادي على الأفراد باختلاف ما يتحلى به الرجال والنساء - بصفاتهم الفردية - من صفات متميزة. ويرجع ذلك إلى أن هذه التواريخ الشفاهية للحياة تتيح للباحثين أن يستكشفوا العلاقة بين قدرة الإنسان الفرد على التصرف الفعّال (أي قدرته على التأثير) - من جهة - والأبنية الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية التي تحيط بأولئك الأفراد من جهة أخرى. (ص ٣٨).

إن سلاتر بما قدمته في هذا البحث تبرهن على أن بالإمكان أن يكون التاريخ الشفاهي طريقة متممة - لغيرها من الطرق - في مجال بحث تطور الشخصية.

ونظراً لأن العولمة في تزايد، ودراستنا لها في توسع مضطرد، فإن بالإمكان أن يواصل التاريخ الشفاهي لعب دور في دراسة التغيرات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية. ففي هذا الوقت من التغير الذي يطال العالم كله، يستطيع التاريخ الشفاهي أن يساعدنا على أن نفهم على وجه صحيح كلاً من الآثار العامة والشخصية لذلك التحول الاجتماعي الهائل على الأفراد الذين يتعرضون لهذه التأثيرات. مثال ذلك، أن بإمكان التاريخ الشفاهي أن يكون طريقة رائعة لفهم كيف يشعر الأفراد داخل العراق بالاحتلال الأمريكي، وبتغير النظام السياسي للحكم، وبإعادة بناء بلدهم. كيف يتكيف الأفراد مع هذه التغيرات الاجتماعية الكبرى؟ وما هي الاستراتيجيات الفردية لمواجهة تلك التحديات؟ كيف يتباين الأفراد في تشخيصهم وفهمهم لتلك التغيرات، وفي استجاباتهم لها؟ كيف أثر التغير الاجتماعي على العلاقات الشخصية بين الأفراد، من قبيل علاقات الخطوبة والزواج، والعلاقات الوالدية ونحو ذلك؟

وكثيراً ما يُستعمل التاريخ الشفاهي - كذلك - في دراسة خبرة القهر - وهي خبرة الشخص لكونه عضواً في جماعة مقهورة. وقد قامت سباركس Sparkes (١٩٩٤) بمشروع مقابلات باستخدام طريقة التاريخ الشفاهي مع مُدرّسة تربية رياضية من السحاقيات لكن تدرس كيف عمل التعصب

وممارسو الجنس الطبيعى على تشكيل الخبرات التى مرت بها فى مكان عملها. وهكذا يتضح أن إبراز الجوانب الشخصية للخبرة المشتركة للقهر يعد إحدى نقاط القوة فى التاريخ الشفاهى.

وقد يقوم الباحثون عند استعمالهم للتاريخ الشفاهى بمقابلة عدد قليل من مجموع الأفراد، إلا أنهم يُمضون وقتاً أكثر مع كل مبحوث على حدة، وهو الأمر الذى قد يجرى على امتداد جلسات متعددة للمقابلات المخططة من قبل. ومن المرجح أن يجد الباحثون ذوو النزعة الكيفية الذين يعملون مع مبحوثين من البشر، وخاصة فى مجالات كعلم الاجتماع؛ من المرجح أن يجدوا أنفسهم منجذبين إلى استخدام كل من المقابلات المتعمقة ومقابلات التاريخ الشفاهى. وينبغى أن يكون الاختيار بينهما قائماً على أساس الملاءمة بين أهداف البحث وطريقة البحث. وعند إجراء المقارنة بين المقابلات المتعمقة ومقابلات التاريخ الشفاهى، ترتبط ملاءمة طريقة البحث بطبيعة الموضوع الذى تجرى دراسته وعدد المبحوثين ودرجة عمق البيانات التى نسعى إلى الحصول عليها. وليس المهم أن تفضل طريقة على الأخرى، وإنما المهم أن تركز النظر على نقاط القوة فى كل طريقة. كما أن بالإمكان أيضاً الجمع بين هاتين الطريقتين فى تصميمات بحثية تستخدم أكثر من طريقة بحث، وإن كان مثل هذا الجمع ليس بالأمر الشائع - إلى حد ما - بسبب أوجه التشابه بينهما وبسبب أن كلتا الطريقتين تستهلك قدراً كبيراً جداً من الوقت.

والآن وقد أصبحت على دراية أفضل بمدى تميز التواريخ الشفاهية عن المقابلات المتعمقة التقليدية، فإن من المهم أن نتعرف بشكل أعمق وأوثق على جوانب الخصوصية التى تميز تطبيقات التاريخ الشفاهى، وأن نتعرف السبب الذى جعل النسويين - بصفة خاصة - يسعون جاهدين لإعادة إحياء استعمالها ودراستها وتوسيع نطاقها، وإضفاء الشرعية عليها.

التاريخ الشفاهى: الألفة، والإصغاء،

والقص بوصفها تقنيات بحثية

بناء الألفة ومعالجة الاختلاف

فى أثناء جمع البيانات، يعتمد التاريخ الشفاهى على تسجيل التواصل اللفظى بين الباحث والفرد المبحوث. ويمكننا تفصيل هذا الكلام بدرجة أكبر

فنقول إن التاريخ الشفاهي يعتمد على وسيلتين تُعززان تدفق البيانات وهما: وسيلة الكلام ووسيلة الإصغاء. وقبل أن نروى الحكاية يستطيع القائم بالمقابلة والمبحوث أن يبدأ فهم طريقة الإصغاء وطريقة الكلام في سياق إنتاج قصة من قصص الحياة. ومن المهم أن يخلق الباحث والمبحوث نوعاً من الألفة بينهما في بادئ الأمر قبل الجلسة الأولى للمقابلة المُسجلة (في حالة أمكن التسجيل) وهى الألفة التى يتوجب عليهما العناية بها على امتداد عملية المقابلة. ومع أن الألفة تكون جدلية (أى تتم بين طرفين) دائماً، فإن المسؤولية الأساسية فى ذلك تقع على عاتق الباحث صاحب المبادرة فى عملية البحث. وقد يعنى هذا القيام بشيء من المناقشات التمهيدية حتى يشعر كلا هذين الطرفين بالارتياح لبعضهما ويبدأ فى فهم كل منهما "لأسلوب الآخر فى الكلام".

قبل اللقاء الأول، يُمكن للباحثين الذين يجرون المقابلة أن ينحوا جانباً الإطار الزمنى المخصص للبحث من أجل توفير الوقت الذى يربو المبحوثون الذين يحكون حكاياتهم أن يُتاح لهم. ذلك أن أخذ الوقت الكافى للتعرف على شخص آخر يعنى ما هو أكثر من التمهيد للمقابلة، إذ يترتب عليه اللقاء الذى يستغرق جلسة ممتدة أو أكثر من جلسة. ونظراً لأن الباحثين يكونون متوائمين مع الممارسة الجيدة للتاريخ الشفاهي، فإنهم ينتهزون الفرصة للحصول على التعقيبات والانطباعات التى يبيدها المبحوثون الرواة تجاه هذا المشروع، بما فيها من نكر لأسماء رواة محتملين، ولأشخاص آخرين يُشكلون مصدراً للبيانات، ولمراجع تحتوى على صور ضوئية، وإبداعات فنية، ومواد مكتوبة. ومع ذلك، فإن الهدف من هذا اللقاء الأول ليس مجرد إجراء مقابلة تمهيدية للحصول على البيانات، إذ أن هذا اللقاء بمثابة فرصة لتعزيز الزمالة بين الباحث والمبحوث وللإشراك فى نوع من المكاشفة المتبادلة بينهما. (Minister, 1991, p. 36)

وهكذا تُعد عملية تحقيق الألفة وبناء الزمالة أمراً حيوياً لا غنى عنه لإجراء مقابلة ناجحة. كما يُعد التمرس للغوى جزءاً من هذا النجاح. وكما سنرى لاحقاً فى القسم الخاص بالقصص، فإنه توجد أبنية مختلفة يستعملها الناس فى سرد حكاياتهم، كما أن من الضروري أن يكون كلا الطرفين مرتاحاً لأسلوب الآخر فى الحكى.

ورغم أننا ناقشنا موضوع الألفة والتبادلية بوصفهما أمراً جوهرياً ذا أهمية حاسمة في استعمال كافة طرق البحث الكيفية التفاعلية، فقد تزداد هاتان المسألتان وضوحاً في موقف التاريخ الشفاهي، خاصة بالنسبة للباحثين الذين ينظرون إلى هذه العملية نظرة كلية. وسبب ذلك أنك - كباحث - لا تقتصر على سؤال المشاركين لك في بحثك (المبحوثين) أن يسمحوا لك بملاحظة ما يصدر عنهم بصورة طبيعية من سلوك بعيداً عن عملية البحث (كما يحدث في البحث الميداني). وبالمثل، فإنك لا تطرح مجموعة من الأسئلة عن موضوع محدد بوضوح (كما يحدث في حالة المقابلة المتعمقة والمقابلة مع جماعة المناقشة المركزة). وعندما تطلب من امرئ ما أن يشارك في مشروع تاريخ شفاهي فإنك تطلب من هذا الشخص أن يحكي قصة حياته وتشاركه - من خلال الكلمات - مشاركة على مستوى عميق. واعتماداً على طبيعة هذا المشروع قد تقوم بسؤاله، أن يعود إلى الأوقات العصيبة في حياته، بدون أي ضمان أنه بمجرد أن تنبه ذاكرته فإنه سيكون قادراً على إيقاف تدفق تلك الذاكرة عندما تريد ذلك. وبالمثل، فقد لا يكون لديك فكرة عن الاتجاهات التي سوف تسير فيها القصة التي يرويها هذا الشخص بمجرد أن يبدأ السرد. وهكذا، فإنه ليس بمقدورك أن تحدد مسبقاً سائر المواضيع التي ستمت تغطيتها - فإنك ببساطة لا تكون على علم بها حتى هذا الوقت. لذلك تكون الألفة أمراً جوهرياً في عملية التاريخ الشفاهي لأن المبحوث الذي تجرى معه المقابلة يضع في الباحث قدراً كبيراً من الثقة ويجعل نفسه عرضة لطائفة من الانفعالات، والمشاعر، والأفكار التي قد تمتد لتشمل ما يكون منها إيجابياً وساراً جداً إلى ما هو عسيب وأليم. وعندما يتم توطيد قاعدة الثقة يمكن للعملية التعاونية للتاريخ الشفاهي أن تمضي قدماً، كما أن الشخص المبحوث سوف يعرف أن الباحث موجود معه في هذا المكان في الواقع للقيام بهذه المهمة. وكما ستري لاحقاً، فإن التاريخ الشفاهي يعتبر عملية حميمة لشخصين يعملان معاً من أجل تقديم حكاية ذات معنى لسيرة ذاتية.

وبإدخال الطبيعة التعاونية لعملية التاريخ الشفاهي في الحساب، نتساءل: من هو الباحث الذي يستطيع أن يقوم بذلك؟ من الذي يستطيع القيام

بإجراء المقابلة؟ وكما هو الحال مع كافة أشكال البحث التفاعلي، تمثل قضايا الاختلاف جزءاً لا يتجزأ من عملية البحث. وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أى مدى يمكن للباحث والراوى أن يختلف الواحد منهما عن الآخر؟ من ذلك مثلاً أن بعض الباحثين يرى أنه نظراً لأنه لدى الجماعات المختلفة داخل النظام الاجتماعى خبرات معينة وطرق معينة للتعبير عن هذه الخبرات، فإن "التشابه" يكون متمماً للمقابلة الناجحة للتاريخ الشفاهى. ويبين مينستر (Minister, 1991) أن النساء يتحاورن بشكل مختلف عن الرجال، وأن بعض النساء إذا لم يتلقين - فى مقابل حديثهن - حواراً مشجعاً على الاستمرار فقد يُلْذَنَ بالصمت. وعلى هذا فإنه يتعين أن تجرى النساء (من الباحثات) المقابلات مع النساء المبحوثات، لأنهن يشاركن معاً فى نوع ما من الثقافة الفرعية والفهم الخاصين بالتواصل الاجتماعى فى مجال الحديث مع غيرهن من النساء. ويقوم باحثون آخرون - وبشكل فعال - بدمج موضوع الاختلاف فى بحوثهم، إلا أنهم يمارسون عملية التأمل النقدي (الانعكاسية) طوال المشروع من أجل أن يتفادوا الادعاء بأن لهم حق التسلط على الآخر. مثال ذلك، أن سباركس (1994) قام بتنفيذ مشروع تاريخ شفاهى مع امرأة سحاوية على الرغم من أنه يختلف عنها من حيث النوع الاجتماعى ومن حيث التوجه الجنسى. وعلى ذلك، فهو لم يكن يشترك مع مبحوثته فى الإحساس بالقهر (وبأشكال القهر المتعددة) التى شكلت حياتها. وكجزء من ممارسته للتأمل النقدي كتب سباركس عن إحساسه بإجراء المقابلة مع إنسانة لا تشاركه فيما يتمتع به من امتيازات اجتماعية لم يسع إلى اكتسابها. ومن خلال إدخاله لهذا الاختلاف فى الاعتبار داخل العمل البحثى كله، ثم فيما بعد عند كتابته تقرير البحث، يوضح سباركس أن الامتياز الاجتماعى الذى قد يتمتع به الباحث يمكن الانتفاع به فى المساعدة على إعطاء فرصة التعبير عن النفس لهؤلاء الأشخاص الذين جرت العادة على كتم أصواتهم داخل هذه الثقافة (Sparkes, 1994).

ويدور فى الوسط الأكاديمى جدل كبير حول من هو الذى يمكنه أن يكون عارفاً، ومن يستطيع أن يفهم كلمات الآخر، وما إلى ذلك من القضايا. والأمر الأساسى فى هذه النقطة، أن هذه خيارات شخصية يتوجب على الباحث

أن بيت هو فيها. وعندما تُمنع التفكير في بعض هذه القضايا وأنت تختار موضوع مقابلتك وتصمم مشروع بحثك، سيتوجب عليك أن تدخل في اعتبارك ما تؤمن به من اعتقادات إستمولوجية تتصل بالعلاقة بين الباحث والمبحوث. وعندما تقوم بصياغة تقرير بحثك في النهاية، سوف تحتاج إلى إعمال فكرك في مدى قدرتك على سيطرتك (أو ممارسة تأثير قوى) على قصة حياة الآخر، خاصة إذا كنت لا تشاركه في وضع اجتماعي مهم (كالإحساس بالقهر الناجم عن اعتبارات الانتماء العرقي، أو الانتماء الإثني، أو الطبقة الاجتماعية، أو النوع الاجتماعي، أو التوجه الجنسي).

الإصغاء

يقوم الباحث أثناء عملية المقابلة بأداء دور المستمع الذي يصغي (إلى المتكلم) إصغاءً فعلياً. وليس هذا الدور هو مجرد الدور الذي نقوم به جميعاً عندما نصغي للأصدقاء، وأفراد الأسرة، والزملاء. وباعتبار أن الباحث هو الشخص الذي يُجرى المقابلة في حالة التاريخ الشفاهي، فإنه يتوجب عليه أن يتعلم أن يصغي إصغاءً كاملاً وبعناية واهتمام دقيقين جداً وفي تناغم مع الفروق الدقيقة (في كلمات المبحوث) على نحو يزيد عما يستعمله أغلبنا في الحياة اليومية. وعلى ذلك، يتوجب علينا أن ندرب عقولنا وأذاننا على أن تستمع إلى القصة التي يحكيها الآخرون، وألا يقتصر ذلك على الاستماع للكلمات فقط، بل يتسع ليشمل - أيضاً - الاستماع إلى المعاني، والانفعالات، والصمت. إن واجبنا أن نصغي إلى الراوي وإلى أنفسنا أيضاً. وقد تتضمن هذه العملية قيامنا بالتشكيك في - وربما كذلك التخلي عن - المفاهيم والمقولات التي نؤمن بها من قبل، والتي تصوغ فهمنا للحقيقة الاجتماعية، مما يجعل من المحتمل أن تحدث هذه العملية تغييراً في الباحث كذلك. وتبين عالمة النسوية المتخصصة في التاريخ الشفاهي دانا جاك Dana Jack أن "التعقد" الذي يتسم به "الإصغاء" والذي يشعر به الباحث في مقابلات التاريخ الشفاهي هو ذاته وتحديداً الذي يصفى على هذه الطريقة تفرداها. فهي بنا ننضم إليها خلف الكواليس:

خلف الكواليس مع دانا جاك

فى تصوورى أن هذه الجوانب المتفردة لطريقة التاريخ الشفاهى تتمثل فى أن ما تفعله هو أنها تتيح للباحث أن يضع نفسه فى منتصف المسافة بين الثقافة والفرد. وما أعنيه من قولى هذا هو أننا عندما نصغى إلى شخص ما، فإن ما نسمعه عبارة عن قصة حياة فرد بكل ما فيها من خصوصية وبكل ما فيها من تفاصيل ومن كل أنواع الوقائع المفردة فى حياة هذا الشخص. إلا أنك بوصفك باحثاً، فإنك تُصغى كذلك إلى هذه الثقافة، وهكذا فأنت تعلم تحديداً أن الكلمات التى يستعملها هذا الشخص لتفسير حياته وتفسير مواقفه تنبثق هى الأخرى من هذه الثقافة، وعلى ذلك فإنه يفسر حياته من خلال الحكايات المعروفة فى هذه الثقافة. ومع ذلك، فعندما تُصغى بعناية واهتمام، يكون بإمكانك أن تستمع إلى مدى ما يُساهم به هذا الفرد فى جميع هذه القصص ذات الطابع الثقافى بجانب ما يأتى به من خبرات مختلفة، وعلى ذلك فإن ما تكون مصغياً إليه يكون متعلقاً بالتساؤل عن كيفية حدوث ذلك. أما من جهتى فأنا أصغى لأمر كثيرة للغاية. أولها هو إلى أى مدى يربط هذا الشخص، هذا الفرد، تلك القصة ذات الطابع الفردانى بهذه القصة ذات الطابع الثقافى الأوسع، وإلى أى مدى تكون هذه السرديات متاحة، وإلى أى مدى تستطيع هذه القصص ذات الطابع الثقافى - أحياناً - أن تطمس المعنى الذى يقصده الشخص، أى تطمس إحساسه ومشاعره، مما يترتب عليه أن ينحى هذا الشخص ما يتصوره من آراء وما يشعر به من أحاسيس فيما يتصل بهذه القصة ذات الطابع الثقافى الواسع. وعلى ذلك فأنى أظن أن ما أحبه فى طريقة التاريخ الشفاهى هو أنها تتيح لى أن أهتم بالإصغاء الحقيقى للفرد فى نفس الوقت الذى أكون فيه مستمرة فى تفهم حقيقة القصة ذات الطابع الثقافى الأوسع وكيف يُساهم هذا الشخص فيها. كما أنه توجد، بلا ريب، قصص كثيرة أخرى ذات طابع ثقافى أوسع.

وعلى ذلك فإن طريقة التاريخ الشفاهى تتيح، لا أعرف كيف أقول ذلك، حسناً، إننى لا أعرف فعلاً (أصوات ضحكات). إن هذه الطريقة تتيح لنا

- على وجه الدقة - أن نصغى إلى صوتين كبيرين على الأقل، أولهما صوت القصة الفردية والآخر هو صوت القصة الثقافية، حيث يتناوبان التوارى والظهور تبعاً. والآن أسأل: أين توجد المشكلة؟ وأين توجد الأسئلة؟ وأين هو الشخص الذى يشعر بالخلط والتشويش فيما يخص مدى ارتباط خبرته بهذه السرديات ذات النطاق الأوسع؟ وكيف ولماذا يريد مثل هذا الشخص أن يُميز خبرته، أو قل: هل تحاول السردية ذات النطاق الثقافى الواسع أن تبدو وكأنها تطمس هذه الخبرة الفردية، وما الذى يحدث عندئذ؟ وكيف يشعر الفرد بذلك؟ لهذا فأنا - على الدوام - لا أصغى لصوت واحد فقط، أى أننى لا أصغى لصوت هذا المبحوث فحسب، ولكنى أصغى كذلك للكيفية التى يتناغم بها هذا الصوت مع السرديات الأخرى، وكيف يميز نفسه عنها وكيف يتعارض معها، أى مع تلك السرديات الأخرى ذات النطاق الثقافى الأوسع.

وبوصفنا باحثين كفيين مشتغلين بالبحث الذى يتناول مبحوثين من البشر، فإننا نقوم بالبحث عن المعنى انطلاقاً من منظور أولئك الذين ندرسهم. ومن أجل الوصول إلى هذا النوع من المعنى لابد أن نكف عن إصدار الأحكام، وأن نحسن الإنصات إليهم بعقول متفتحة. فالباحث بحاجة إلى أن يكون موجوداً وجوداً فعلياً مع الشخص الذى يحكى قصته. وبهذه الطريقة فإننا نحتاج إلى أن "تنغمس كلياً فى المقابلة" (Anderson & Jack, 1999, p. 18)، وذلك من أجل أن نسمع المعنى انطلاقاً من منظور هذا الشخص الذى يتحدث إلينا. ولكن كيف يتأتى لنا أن نعرف ما إذا كان ما نسمعه هو المنظور / أو الرأى الذى يؤمن به فعلاً هذا الشخص؟ وكيف لنا أن نعرف ما إذا كانت خبراتنا الحياتية والمفاهيم الحاكمة على تصوراتنا لا تقوم بترشيح (أى غربلة وفرز) المعنى الذى نفهمه من هذه الخبرة؟ ومع أنه، طبيعة الأمر، وبوصفنا - نحن الباحثين - بشر مطبوعين بطباع البشر، فإنه ليس بمقدورنا أن نتكرر ببساطة لتصوراتنا الشخصية عن الحقيقة الاجتماعية. فإن لدينا من الأساليب ما يمكننا تطبيقه على مقابلة التاريخ الشفاهى لكى نحسن من فهمنا للمعنى انطلاقاً من منظور الشخص نجرى معه البحث.

ويطرح جاك (Anderson & Jack, 1991) ثلاثة أساليب بقصد مساعدتنا على الإصغاء بصورة أكثر فعالية. فهناك أمور يمكننا أن نصغي إليها وهي: مواقع يمكن أن يكمن فيها المعنى انطلاقاً من وجهة نظر الراوى. أولاً: يستطيع الباحثون أن يُصغوا إلى "اللغة الأخلاقية" للشخص (ص ١٩). فهذه الأنواع من التعليقات ذات طابع أميل إلى التقييم الذاتى (أى: تقييم الإنسان لنفسه). ذلك أن الطريقة التى يقيم بها المرء نفسه، يمكنها أن تكشف عن الكثير مما يتصل بالأمور التى يركز عليها المرء فى حياته، وكيف يستخدم التصورات الثقافية للنجاح، والفشل، والجاذبية الشخصية، والعلاقات المتحررة... إلخ، وذلك بوصفها مقاييس يستخدمها المرء فى حياته وفى تشكيل هويته. كما أن هذه التعليقات تزودنا برؤى وأفكار نتبين بها المحور الذى تدور حوله انفعالات هذا الشخص، ومواطن ثقته بنفسه، والأمور التى يتأمل بها ذاته.

على الرغم من أن هذه الأحكام الخلقية القائمة على التقييم الذاتى للراوى تختلف اختلافاً كبيراً جداً فى فحواها وطابعها، فإنها تتيح لنا أن نفحص العلاقة بين مفهوم الشخص عن نفسه والمعايير الثقافية من ناحية، والعلاقة بين ما نقره وما يقدره الآخرون من ناحية ثانية، وأخيراً بين الطريقة التى طلب منا أن نتصرف وفقاً لها والطريقة التى نحس - وفقاً لها - بأنفسنا عندما نتصرف - أو عندما لا نتصرف - وفقاً لما طلب منا (Anderson & Jack, 1991, p. 20).

مثال ذلك، أنه إن كنت تُجرى مقابلة تاريخ شفاهى مع امرأة وكانت تتحدث عن إحدى الأحداث السارة فى حياتها، كحفلة عيد ميلاد متميزة أو غيرها من الاحتفالات العائلية، وفى أثناء حديثها قالت: "لقد كانت التورتة" جميلة فعلاً بزخارفها المنمقة كما أنها كانت لذیذة الطعم للغاية، ولكنى - بطبيعة الأمر - شعرت بالذنب لالتهاى مقداراً كبيراً للغاية منها ساعتها". فهذه الجملة من شأنها أن تزودك بمعلومات موثوقة عن أمور متعددة. فهى مثال على استعمال اللغة ذات الطابع الأخلاقى - وهى هنا لغة الشعور بالذنب - فى نقل المعنى. وقد تقوم هذه الجملة بدور العلامة التى تدل الباحث الذى

يُجرى المقابلة على وجود بعض القلق أو المشاغل المتعلقة بصورة الجسد لدى هذه المبحوثة، أو تدله على وجود هواجس تراود هذه السيدة بخصوص وزنها وكيف تبدو صورتها لدى الآخرين. بجانب ذلك، فإن هذه الجملة لم تأت من فراغ، بل تأتى فى سياق ثقافى يُعطى أولوية للنحافة ولضبط النفس، خاصة بالنسبة للنساء. وهكذا فإنك تستطيع حينئذ أن تبدأ فى عقد الروابط بين صورة المبحوثة عن نفسها والبيئة الثقافية الأوسع التى تعيش فيها. ذلك أن كلاً من الجملة التى قالتها، والطريقة التى قالتها بها، أمران مهمان لهما دلالة. يضاف إلى ذلك أن أمثال تلك الجمل قد تزود الباحث بمجسات probes عليه أن يتابعها فيما بعد أو حتى فى جلسة أخرى مع المبحوثة (حتى لا يقطع تدفق ما تريد هذه الراوية أن نقوله).

والأمر الثانى الذى ينبغى الإصغاء إليه إصغاءً فعالاً هو ما يطلق عليه "جاك" مصطلح "ما وراء الجمل" (أو الجمل المفسرة meta-statements) (أندرسون وجاك، ١٩٩١، ص ٢١). وهى المواضيع التى توجد أثناء إجراء المقابلة حيث يتوقف المبحوث ويكرر العودة لما سبق أن قاله تلك اللحظة ليعيد التفكير فيه على نحو نقدى. لقد نطلق بجملة، ولكنه الآن فى سبيله للرجوع إلى تلك الجملة لى يعلق عليها. وقد تكشف هذه اللحظة عن تغير فى عملية تفكيره، وهى لحظة من لحظات التتبع للنفس أو لحظة انزعاج من الطريقة التى قد نفهم بها الجملة التى نطق بها، ومن ثم نتولد عن هذا الانزعاج رغبة داخلية فى نفسه لتعزيز ما نطق به من كلمات وربما إعادة تفسيره.

نتبهننا الجمل المفسرة إلى وعى الفرد بالتناقض الذى يستشعره داخل نفسه، أو بين ما هو متوقع منه وما يقوله فعلاً. وهى تدل الباحث على المفاهيم والمقولات التى يستخدمها الفرد لى يراقب أفكاره، ونتيح لذلك الباحث أن يلاحظ كيف يسبغ الشخص على أفكاره ومشاعره طابعاً اجتماعياً وفقاً لبعض المعايير التى يراعيها. (ص ٢٢)

مثال ذلك، أنه قد يرجع أحد المبحوثين، بعد أن يقول تعليقاً يتصل بموضوع العرق؛ قد يرجع بعد ذلك مباشرة ليوضح جملته الأصلية هذه أو يفسرها أو يعززها. وقد يكون هذا النوع من الرجوع انعكاساً لمعايير مجتمعية

ذات ظروف تاريخية معينة، كالظهور مثلاً فى صورة الشخص غير المتعصب للعرق، ولوعى الشخص المبحوث بأنه ربما يكون قد انتهك تلك المعايير فى نظر الباحث الذى يجرى معه المقابلة. وحينئذ تكون أمثال تلك الجمل مجالاً محتملاً لفهم مدى شعور الأفراد بالمعايير والقيم والتوقعات المجتمعية ومدى تكيفهم معها.

وأخيراً، يتوجب علينا أن نتعلم الإصغاء "لمنطق السرد"، باذلين اهتماماً خاصاً لما فيه من مظاهر الاتساق ومظاهر التناقض والأفكار المحورية "التي يتكرر ورودها" (ص ٢٢). ومن الأمور ذات الدلالة ملاحظة الطريقة التي ترد بها الأفكار المحورية داخل القصة التي يحكيها الشخص وصلتها بالأفكار المحورية الأخرى، لأنها تُعتبر بيانات مهمة. ويُمكن أن يمدنا تأكيد المبحوث على أهمية أمور معينة، والذي يتم من خلال الأفكار المحورية المتكررة ومن خلال مظاهر الاتساق ومظاهر التناقض؛ يُمكن أن يمدنا برؤية ثابتة للمنطق الذي يستعمله الشخص فى رواية حكايته. مثال ذلك: ما هى المسلمات التي يؤمن بها المبحوثون والتي تشكل أسلوبهم فى تفسير خبراتهم الحياتية الشخصية؟ وما هى الأفكار، والاعتقادات، والقيم والأحكام الخلقية التي تركز عليها عملياتهم التفسيرية والسردية؟

وبجانب ما يدعو إليه أندرسون وجاك (١٩٩١) من استعمال أساليب الإصغاء المذكورة، فإنهما يحثان الباحثين كذلك على أن يتعلموا الإصغاء إلى أنفسهم. ويمثل هذا الإصغاء، فى ضوء خبرتنا الخاصة، جزءاً ذا أهمية حاسمة من عملية الإصغاء فى مقابلات التاريخ الشفاهي. ففي أثناء إصغائك إلى الراوى لابد أن تُصغى إلى الرقيب فى داخلك أنت، أى إلى مشاعرك، والأمور التي تحيرك، وإلى تساؤلاتك. فهذه مجالات قد تحتاج إلى الإيضاح، والتعمق فى البحث، والاستكشاف. وعليك ألا تعتمد إلى مقاطعة الراوى لتحصل منه على إجابات على تلك الأسئلة؛ وتذكر أن عملك الأساسى هو الإصغاء. ومع ذلك، ففي اللحظات التي يتوقف فيها الراوى عن السرد، وفى اللحظات التي ينتقل فيها من موضوع لآخر، قد تكون بحاجة إلى الرجوع للوراء والبحث بناءً على ما تشعر به من أفكار وأحاسيس أثناء إصغائك إليه.

وإنه لمسار رائع سوف تتعلم كيف تجتازه من خلال الممارسة. فمن جانب، لا يكفى لكى تكون مصغياً ناجحاً فى هذه العملية السردية التعاونية؛ لا يكفى أن تكون "مشغولاً بأفكارك" منهمكاً فى حوار داخلى مع نفسك، فأنت، بجانب ذلك، تحتاج إلى الإصغاء إلى ردود أفعالك الباطنية الشخصية أثناء إصغائك إلى هذا المبحوث.

عندما نختار ممارسة التاريخ الشفاهى فإننا نقوم بالالتزام بفهم المعنى من خلال وجهة نظر أولئك الذين نجرى معهم المقابلة. فنحن بحاجة لأن نعرف فيم يفكرون، وكيف يشعرون، وكيف يقومون بفلترة (أى بترشيح وغربلة) وتفسير خبراتهم بالطرق التى يتبعونها فى هذا الشأن. ولكى نقوم بذلك، فإننا نتحول إلى مصغين على درجة عالية من الالتزام. ونحن، حتى الآن، لا نزال نتكلم عن الإصغاء إلى مضمون ما يقوله المبحوث، أى إلى الأنواع الرئيسية للعبارات التى تتردد أثناء رواية الأفراد لحكاياتهم. فإن الشكل الذى من خلاله يروى الأفراد حكاياتهم له نفس أهمية المضمون الحقيقى للحكايات التى تروى فى مقابلات التاريخ الشفاهى. وشكل السرد هذا هو ما يمكن أن نسميه أيضاً أسلوب السرد. وفى هذا المساق، تعد الفروق الدقيقة فى الأسلوب الذى يتبعه أحد المبحوثين فى رواية حكايته من المصادر المهمة للبيانات كذلك. لذلك فإننا نوصيك باتباع أسلوب متسق فى تدوين البيانات يتيح ملاحظة ما يرد فى كلام المبحوث من الوقفات، والضحك، وارتفاع الصوت أو انخفاضه، والتغيرات فى نبرة الصوت، ومد النطق بالكلمات، وما أشبه ذلك من الأمور. فكل ذلك بإمكانه أن يُنبهك إلى النقاط التى يُضفى عليها الشخص معنى بعينه، وإلى مشاعره فى لحظة معينة أثناء المقابلة. وإن من الطرق السهلة للاحتفاظ بأمثال تلك البيانات القيمة فى نسختك الأولية (من سجل المقابلة) أن تدونها بحروف مائلة، أو بحروف بارزة، أو تضعها بين قوسين، إلى آخر هذه الطرق. وسوف نتناول هذه المسألة فى موضع لاحق عندما نتكلم عن التدوين والتحليل.

وفيما يتصل بالإصغاء، فإن الجزء المفقود من الحكايات التى تروى، ولحظات صمتهم، واللحظات التى تشرذ فيها أذهانهم، والمشاعر التى لم يجدوا كلمات للتعبير عنها؛ كل هذه الأمور تشكل كذلك عناصر للمعرفة تظهر من

خلال شكل مقابلة التاريخ الشفاهى. وسوف نتكلم عن أسلوب السرد بمزيد من التفصيل عندما نناقش موضوع الحكى و"الحديث" كطريقة لبناء البيانات، ولكننا سنتوسع - فيما يلى - فيما نقصده من الإصغاء إلى "حالات الصمت / أو السكوت"، حيث لا ننسى أبدا أننا باحثون عن المعنى.

إن ما أغفله الراوى من قصته فلم يحك عنه، يمكن أن يُمدنا برؤية ثابتة للمجالات التى يعانى فيها من الصراعات والمنازعات، كمجال الاختلاف بين اتجاهاته المعلنة واتجاهاته المضمرة، ويمدنا كذلك برؤية للتأثير الذى تحدثه الثقافة الأوسع على السيرة الذاتية لهذا الشخص وعليه هو نفسه عندما يُعيد رواية هذه السيرة. وقد تشير حالات الحذف الواضحة، مثلاً، إلى وجود انفصال بين أفكار هذا الشخص وما يشعر أنه من الملائم قوله. وقد يكون هذا الوضع نتيجة لتصوره للمعايير والقيم الاجتماعية، أو لشعوره بأنه ينتهك الطرق المعيارية (المعتادة) فى التفكير، والشعور، والسلوك. والمشروع البحثى، فى نظر كثير من الباحثين الذين يمارسون التاريخ الشفاهى، كالباحثين النسويين والباحثين فى مجال المقارنة بين الثقافات، إنما ينبثق فى جوهره من الرغبة فى الوصول إلى الأصوات المقهورة، أى محاولة الوقوف على وجهات النظر وعلى هوية الأفراد الذين تم إقصاؤهم جبراً إلى هوامش نظام اجتماعى معين. وفى هذه الظروف، فإن الإصغاء إلى لحظات الصمت قد يدل أيضاً على أن المقولات والمفاهيم التى نستعملها فى تفسير وشرح خبراتنا الحياتية لا تعكس - فى الواقع - المجال الشامل لكافة الخبرات الموجودة. وعلى ذلك فإن هذا السكوت يطلنا على بعض جوانب الثقافة التى يعيش فى كنفها المبحوث، كما يدلنا على وجود فجوة بين الصياغة التى يتم بها التعبير عن الخبرة وبين خبرة هذا الفرد الخاصة. وبتعبير آخر نقول، إن الثقافة قد لا توفر لكل فرد الأدوات المناسبة التى بها يستطيع أن يُعبر تعبيراً وافياً وحرّاً عن معنى ودلالة شيء معين من وجهة نظره. ويرى الكثير من الباحثين أن هذا هو السبب الحقيقى لكون الإصغاء إلى أصوات الأفراد، خاصة من طال تعرضهم للاستبعاد من عمليات إنتاج الثقافة، أمر لا بد منه.

وفى صميم العملية التعاونية فى جمع البيانات يأتى التأكيد على أهمية الإصغاء والتأكيد على أهمية الكلام أو الحديث. والشكل الذى يتجلى فيه الكلام أو الحديث هو شكل الحكى storytelling والسرد narrative.

أساليب الحكى والسرد

يقوم المبحوث - أثناء مقابلة التاريخ الشفاهى - بدور الراوى ويحكى قصته. وهذه عملية تعاونية من عمليات الحكى تضم كلاً من الراوى والمباحث القائم بإجراء المقابلة. حقيقة أن الراوى هو الذى يحكى قصته، ولكن المباحث - الذى يُجرى المقابلة - هو الذى يشجع هذا الحكى ويرعاه من خلال إصغائه واستعماله لأساليب الملاحظة التى عرضنا لها بالتفصيل فى فصل سابق. وبالإضافة إلى الكلمة المنطوقة فى حد ذاتها، فإن الطريقة التى يتبعها المبحوث/ الراوى فى رواية قصته هى فى حد ذاتها محل اعتراف من قبل الباحثين القائمين بمقابلات التاريخ الشفاهى بأنها مصدر مهم من مصادر المعرفة.

ينشغل الباحثون الكيفيون، بصفة عامة، بالبحث عن المعنى الذى يضيفه الناس على حياتهم، أما الباحثون فى التاريخ الشفاهى فيهتمون بالتوصل إلى خبرات وأصوات أولئك الذين يدرسونهم بطريقة استيعابية شاملة، وهى طريقة متفردة فى مجال ممارسة منهجية البحث الخاصة بالتاريخ الشفاهى والتطور التاريخى لهذه المنهجية. ويميز ويليامز Williams (٢٠٠١) بين كلمة الصوت العادية voice (بحرف صغير) وكلمة الصوت Voice (المبدوءة بحرف كبير) داخل عملية البحث، حيث يستعمل كلمة الصوت (المبدوءة بحرف كبير "V") للإشارة إلى المفهوم الكلى لمصطلح "الصوت". ويشتمل الصوت بهذا المعنى على الإيماءات غير اللفظية، وتغير نغمات الصوت، والتعبيرات، والحركات الجسدية، وأنماط الكلام، وحالات السكوت (أو لحظات الصمت) (ص ٤٣). فهذه المكونات الداخلة فى تركيب المقابلة تمثل جزءاً من التعبير الشامل الذى يعبر به الشخص المبحوث عن نفسه. ومن هنا يمكن القول بتعبير آخز إنه يتوجب علينا أن نحاول الحفاظ على الجوانب الأدائية للحكى وأن نتعلم منها وألا نسمح بفقدانها أثناء قيامنا بتدوين المقابلة وتحليلها (ص ٤٦). ويحث ويليامز الباحثين على الانتباه لما يبدو فى صوت المبحوث (بالمعنى الكلى للصوت)، بحيث يكون أشد من الانتباه لمجرد الكلمة المكتوبة التى يوفرها سجل المقابلة المنقح أو "النظيف" (أى المهنّب الخالى من

البذأة). وحينئذ يستطيع الباحث أن يستعمل مهاراته، فى الإصغاء والملاحظة (ص ٤٥) لكتابة "المذكرات الميدانية" أو "التعليقات الجانبية" أثناء المقابلة أو أثناء عملية التدوين، على التوالى. وبالعودة إلى زيادة التركيز على دور المبحوث كراو أو حتى كمؤد، هيّا بنا نتأمل أساليب الحكى وأنماط الحديث، وهى المكونات المحورية لبناء البيانات فى التاريخ الشفاهى.

للناس أساليب مختلفة فى رواية حكاياتهم. وتؤدى أساليب التواصل المختلفة هذه إلى ظهور أنواع مختلفة من عمليات السرد. وفى هذا الاتجاه، يحتاج الباحث إلى التركيز على "علم الرواية" "narratology" أو على بنية السرد (ويليامز، ٢٠٠١). ووفقاً لما سبق أن بينه بعض العلماء النسويين وغيرهم من العلماء النقديين منذ زمن بعيد، فإن شكل السرد والاختيار اللغوى (الذى يفضله الراوى) يزودنا كذلك ببيانات مهمة عن هذا الراوى. وبهذه الطريقة، فإن ما يستعمله الراوى من لغة وأسلوب فى الحديث لا يقتصر أمرهما على أنهما يوفران إطاراً للمحتوى الفعلى للمقابلة، بل إنهما يشكلان كذلك جزءاً متمماً لها. ويؤكد أحد الاتجاهات الكلية فى التاريخ الشفاهى على أهمية كافة جوانب هذه العملية. ويهتم الباحثون المعنيون بالتاريخ الشفاهى، والذين يغلب عليهم العمل من منظورات فكرية نسوية، ومنظورات ثقافية مقارنة، ومنظورات تهتم بالعالم الثالث؛ كل هؤلاء يهتمون بفهم خبرات المهمشين داخل المجتمع: من حيث كيفية تأثير وضعهم هذا داخل الثقافة على خبراتهم الحياتية عندما يفسرونها، وكيف أثرت هذه الخبرات - بدورها - فى أسلوبهم فى رواية حكاياتهم؟ ويعبر إتر-لويس Etter-Lewis عن هذه القضايا قائلاً:

اللغة هى القوة الخفية التى تشكل النصوص الشفاهية وتضفى المعنى على الأحداث التاريخية. إنها الأداة الأساسية التى بها تُسترجع الخبرات الماضية ويجرى تفسيرها. وإن التنبه للغة، وتنويعاتها ومفاهيمها وقولها من شأنه أن يُثرى تحليل النص السردى بما يُجاوز نطاق الاهتمامات اللغوية الصارمة. وتعد اللغة - فى لبها وجوهرها - القوة المنظمة التى تصوغ قالب السرد الشفاهى وفقاً للأسلوب المتميز للراوى. والحقيقة أن الأساليب الفردية

تتفاوت بتفاوت الأفراد، فإن الأنماط المتكررة الحدوث تُشير إلى ما هو أكثر مما تشير إليه عمليات التلاعب بالألفاظ التي قد يلجأ إليها الراوى. ذلك أن أنماط الكلام - التي هي جزء لا يتجزأ من السرد الشفاهى - بمقدورها أن تكشف حقيقة ما للراوى من مكانة اجتماعية، وعلاقات شخصية مع الآخرين، وتصورات عن اللغة، وعن النفس، وعن العالم. ففي حالة النساء السود مثلاً، يتعين علينا أن نتساءل عما تكشفه أنماطهن السردية عن حيواتهن. وكيف تؤثر خبراتهن المتفردة على الطريقة التي يحكين بها قصص حياتهن الشخصية؟ (Etter-Lewis, 1991, pp. 44-45).

إن النجاح في فن التاريخ الشفاهى يعنى - عند الباحث النقدي - الفهم، والتقبل، والاستيعاب لأساليب السرد المختلفة، بجانب الاعتراف بأهميتها وليس إنكار المعانى التي يتضمنها مثل هذا الاختلاف. فإن بلوغ هذا النجاح تكتنفه ولاشك بعض الصعوبات. أولاً، فقد ظهر التاريخ الشفاهى كمبحث علمى وتطور داخل سياق أبوى ذكورى (أى فى مجتمع قائم على النظام الأبوى). ثانياً، ربما يكون هؤلاء الذين نرغب فى الاستماع إليهم، قد اعتادوا هم أنفسهم على هذا الصمت. فهنا بنا نفحص هاتين القضيتين المتداخلتين فى بعضهما.

فى عالم يسوده الرجل، تكون أشكال التواصل الذكورية هى الأشكال المعيارية، كما يفترض فى التعبيرات المستخدمة فى التواصل والحوار - التي تختلف عن هذا النموذج - أن تكون أقل حظاً فى القبول والاعتراف. والمقابلة الكيفية - ومن بين أنواعها مقابلة التاريخ الشفاهى - ليست محصنة من تأثير الثقافة التي تُمارس فيها. لذلك نجد أن الوسط الأكاديمى ما يزال غارقاً فى الأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع بناء المعرفة. بل إن طرق البحث اللابوضعية نفسها مازالت متأثرة بالأساليب الذكورية فى التفكير فى موضوع اللغة، واللغة تتضمن إجراء المقابلة الكيفية.

إن ما يحتاج إلى تغيير فى مقابلات التاريخ الشفاهى مع النساء هو إطار التواصل والحوار، وليس المرأة. فقد ظهرت طريقة إجراء مقابلة التاريخ الشفاهى، والمتأثرة بارتباطاتها بالتاريخ الأكاديمى وبممارسة أسلوب المقابلة بصفة عامة؛ ظهرت وتطورت داخل سياق نظام التواصل الاجتماعى

الذكورية. ونظراً لأن الكلام الذكوري يكون هو المعيار المتبع في هذا العالم الذكوري، فإن أي نوع آخر من الكلام يُعد في رتبة دون هذا المعيار (Minister, 1991, p. 31).

ونظراً لأننا منغمسون كل الانغماس في ثقافتنا، فإننا معتادون على الأشكال الذكورية في الحوار والتواصل (ولا ريب أن هذا المعنى يمكن التوسع في فهمه ليستوعب ذلك التفضيل الذي تحظى به كافة المثل الاستعلائية التي تتكلم من موقع الهيمنة، ومنها أساليب الحوار والتواصل السائدة في الطبقتين الوسطى والعليا البيضاء اللون). لذلك، فإنه لكي نؤدي دورنا في تمكين الآخرين من رواية حكاياتهم، يتوجب علينا أن نكون لُمّاحين للتنوع الموجود في أساليب الحوار والتواصل وفي أشكال السرد أيضاً، بما يتضمنه موقفنا هذا من إمعان النظر في مدى ما لثقافتنا من تأثير على ما عندنا من مسلمات تتصل "بمواصفات الطريقة السليمة التي يروى بها المرء حكايته".

ويوضح لنا كثير من العلماء أنه عندما نكون منهمكين في هذه العملية فإننا سوف نواجه بالفروق أو الاختلافات الموجودة في أساليب التواصل والقائمة على أساس النوع الاجتماعي. فالنساء بصفة خاصة، وباعتبار أنهن فاعلات يستوعبن نظام اجتماعي عام، فإنهن يتحاورن أو يتواصلن فيما بينهن على نحو مختلف عن الرجال. زدّ على ذلك أن أساليب التواصل النسائية لم تحظ بعد بالاعتراف من الأوساط الأكاديمية ولا من المجتمع بصفة عامة. وعلى هذا يتوجب على الباحث، عند قيامه بإجراء مقابلات مع النساء، أن يفهم عملية الحكى التي تتبعها المرأة المبحوثة في المقابلة وأن يعترف بها.

على الرغم من أن بعض النساء الراويات قد تكيفن بشكل جيد مع هذا النظام الذكوري في إجراء المقابلات، والذي يتوجب على الباحثات اللاتي يقمن بإجراء مقابلات التاريخ الشفاهي أن يسعين لتحصيله، فإننا لن نسمع ما تعدّه النساء أمراً جوهرياً لحيوتهن ما لم نعترف بوجود سياق أنثوى للتواصل الاجتماعي خاص بموقف مقابلة التاريخ الشفاهي.. ولن نكون قادرين على أن نسمع أو نفهم ما تُقدّره النساء من الأمور إذا لم نكن نعلم كيف نتابع النساء وكيف نصغي إليهن وكيف نتكلم معهن كما تفعل النساء. ونحن في حاجة أولاً

لأن نعرف معرفة متعددة مقصودة كيف تحاور المرأة نفسها فعلاً، وكيف تتواصل النساء مع بعضهن. (Minister, 1991, p. 31).

عند العمل انطلاقاً من المُسلّمات التي تقوم عليها إبستمولوجيا الرؤية أو وجهة النظر في الحكم على الأشياء والأمور (وهي إحدى نظريات المعرفة التي تقر بوجود مصادر مختلفة للمعرفة- المراجع) فإن هذه الفكرة المتعلقة بالثقافات الفرعية للتواصل يتم تقويتها وإيضاحها. ذلك أن إبستمولوجيا الرؤية أو وجهة النظر تعترف بوجود المنظورات المختلفة التي تترتب على اختلاف الأوضاع أو المواقع داخل النظام الاجتماعي الهرمي (الترجي). فخبيرات المرء، وتصوراتها، وصوته، وفقاً لهذه الإبستمولوجيا، تكتسب من خلال إحساسه بوجوده في موقع معين داخل هذا النظام الاجتماعي. وقد تختلف استراتيجيات التواصل بناءً على ما يحدث من تقاطع (أي تداخل وتشابك) اعتبارات العرق، والإثنية، والطبقة، والنوع الاجتماعي، والحياة الجنسية، والدين، والقومية. وفي سياق أي مشروع كبير للتاريخ الشفاهي يتضمن إجراء مقابلات تاريخ شفاهي مع عدد كبير من المبحوثين، يكون من الأهمية ألا يغفل الباحثون عن أنه قد توجد نقاط اختلاف عبر النوعين الاجتماعيين (أي الرجال والنساء) وداخل كل نوع منهما. فأدخل هذا الاعتبار في حساباتك وأنت تحضر لمقابلة كل مبحث على حدة. ذلك أنك لا تستطيع التسليم بأن مبحثاً معيناً، وبناءً على سمة واحدة عرفتة عنه (تتصل بالعرق، أو الإثنية، أو اللون... إلى آخره)؛ سيبدى من ممارسات القص صورة مطابقة لما أبداه شخص آخر سبق لك أن أجريت معه مقابلة مماثلة. هذا من ناحية، ونلاحظ من ناحية أخرى أنه على الرغم من وجود هذه الاختلافات، فإنه ثمة أنماط يميل الناس إلى اتباعها في روايتهم لتواريخ حياتهم الشخصية. ونحن نشير إلى هذه الأنماط بوصفها أبنية سردية.

تحدد إتر- لويس (1991) ثلاثة أساليب كبرى للسرد يمكن أن يقابلها الباحث أثناء إجرائه لعملية المقابلة التي يروى فيها المبحث تاريخ حياته وهي:

(١) أسلوب السرد الموحد.

(٢) أسلوب السرد المفكك أو المجزأ.

(٣) أسلوب السرد الحوارى.

ونحن نميل إلى أن نضيف إلى هذا التقسيم فئة رابعة، وهى الفئة التى يسميها كوهلر - رايسمان السرد العَرَضى (أى رواية الحكاية من خلال وقائع معينة).

وكما هو الحال مع جميع أشكال السرد، فإن الطريقة التى يتبعها مبحوثك فى رواية حكايته، قد تتأثر - إلى حد بعيد - بعوامل شتى منها، مثلاً: عامل العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعى. وترتبط بهذه الخصائص اعتبارات التعليم، والعمل، والموقع الجغرافى الذى يقيم فيه المبحوث.

وكثيراً ما قد يكون لدى الباحثين توقع بأن المبحوث سوف يسمع من الباحث عنواناً لموضوع أو سؤالاً عاماً، فيستجيب له بأن يقدم شرحاً ذا تسلسل زمنى لخبرته المتصلة بهذا الموضوع، حيث يطرح أمثلة عميقة الدلالة لتوضيح خبرته، وذلك فى نفس الوقت الذى يظل مركزاً فيه على هذا الموضوع أو هذا السؤال. وهذا هو أسلوب السرد "الموحد".

يلاحظ أن الأجزاء المتجاورة من هذه القصة التى تُحكى تتناغم معاً فى كل واحد، وعادة ما يكون ذلك فى شكل إجابة على سؤال محدد. حيث تكون الكلمات والعبارات جميعاً مرتبطة بفكرة محورية... أى أن القاص يقوم بقدراً ما يستطيع بتدعيم إجابته عن طريق تقديمه لشواهد مختلفة ذات صلة بهذه الإجابة. وتكون نتيجة ذلك حوار ممتد، يؤدى تركيزه على موضوع محدد إلى جعله حديثاً موحداً (Etter - Lewis, 1991, p. 45).

كما أن الشخص الذى يستعمل مثل هذا الأسلوب فى كلامه قد يخبرنا بشيء يتعلق بالطريقة التى يرى بها نفسه، وبالطريقة التى يفسر بها خبرات حياته. شاهد ذلك أن الأسلوب الموحد فى السرد قد يدل على أن المبحوث يرى الموضوع بوضوح وأن لديه إجابة واضحة بشأنه. وبجانب ما يدل عليه الأسلوب الموحد فى السرد من إشارات تتصل بالموضوع المطروح للحوار، فإنه قد يدل على أن هذا الراوى يشعر، وعلى مستوى أكثر عمومية، بأن

حياته حياة متماسكة وواضحة المعالم. وهذا الأسلوب السردى يختلف اختلافات لها دلالاتها عن شكل السرد المفكك أو المجزأ.

وهو الشكل الذى تتسم فيه الأجزاء المتجاورة من القصة بوجود مجموعة متعددة الأشكال من الجمل أو العبارات التى تبدو فى ظاهرها غير مترابطة. (Etter-Lewis, 1991, p. 16).

وقد يكون هذا الشكل من القص مضاداً لما هو بديهى فى نظر بعض الباحثين الذين لم يعتادوا على هذا الشكل من الكلام. وعلى هذا تصبح اللقاءات الأولى بين الباحث والمبحوث - حيث تمارس مهارات الإصغاء والحديث، فتعمل على بناء الألفة بينهما - تصبح هذه اللقاءات فى غاية الأهمية بالنسبة للباحث، إذ تجعله مرتاحاً إلى الكلام الذى يصدر عن هذا الراوى (والعكس بالعكس).

كما أن الأسلوب المفكك أو المجزأ فى السرد الشفاهى يستطيع الكشف عن المعنى من منظور الشخص الذى يطلعنا على حكايته. شاهد ذلك، أن هذا الراوى قد يشعر بأنه متَشَطَّ fragmented أو مجزأ، أو يشعر أن مختلف مكونات ذاته أو خبراته مفككة وغير مترابطة. وقد يصدق هذا الحكم على الأفراد الذين يعانون من أشكال متعددة للقهر الناجم عن اعتبارات العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعى، والحياة الجنسية، وهى الأشكال التى تشكل إطاراً لخبراتهم الحياتية. وفى هذه الحالة، قد تودى مناقشة لمظاهر الاضطراب فى صورة الجسد عند المرأة إلى أن تتحدث راوية أو قاصّة سوداء اللون عن الطريقة التى علمتها بها معلوماتها الخصوصية/ أو صديقاتها المخلصات استراتيجيات التغلب على المشكلات والمصاعب لتطبيقها فى معالجة مشكلة التعصب العنصرى، والتى ساعدت بالفعل فى إعطائها ذلك الشعور بالتقدير العالى للنفس الذى تحتاج إليه كذلك لتقاوم به ثقافة شديدة الولوع بالجنس تختصر النساء فى أجسادهن الحسية فقط. وتغريها مكابذتها للضغوط الثقافية الاجتماعية المسطرة على جسد الأنثى؛ تغريها بالدخول فى مناقشة مسألة العرق، وذلك لأن هذه الضغوط تعتبر - بمقتضى خبرتها - ضغوطاً ذات روابط متداخلة. وقد يتغير اتجاه قصتها فينتقل هنا وهناك، فإن هذا التغير يتم

بطرق مرتبطة ارتباطاً معقداً بخبرتها الخاصة بالموضوع الجارى مناقشته. وثمة أسباب أخرى من شأنها أن تجعل السرد مفككاً أو مجزأً. فإن كانت هذه الرواية لم تحظ أبداً بفرصة التأمل فى الخبرات الكثيرة التى تُشكل حياتها، فإن العملية التى تقوم بها وهى تشارك بحكايتها قد تكون هى الأخرى عملية جوهريّة لاكتشاف النفس. وهكذا قد يكشف أسلوبها السردى عن "شكل من أشكال تجميع هذه الأجزاء معاً" فى نظرها وفى نظر الباحث فى نفس الوقت. وبذلك فإن ما يبدو - فى أول الأمر - بعيداً عن الموضوع قد يكون فى الواقع مرتبطاً تمام الارتباط بالقضية الجارى مناقشتها. وهذا الأمر مرتبط أساساً بقناعتنا السابقة بأن كثيراً من أولئك الذين نطلب منهم أن يتكلموا جرت العادة على كتم أصواتهم نظراً لتهميشهم داخل المجتمع. فهؤلاء الذين حرّموا من الوصول إلى الأدوات الاجتماعية التى بها يحكون قصص حياتهم لسبب يرجع إلى عرقهم، أو إثنيّتهم، أو طبقتهم الاجتماعية، أو نوعهم الاجتماعى، أو توجههم الجنسى قد لا يكون لديهم أى خبرة سابقة بسرد حكايتهم. وفى هذا الاتجاه تقول الباحثة النسوية المعنية بمقابلات التاريخ الشفاهى أرميتاج Armitage: "سوف نعلم ما نريد معرفته من خلال إصغائنا للأفراد المعتادين على الكلام وليس من غيرهم". (نقلاً عن مينستر، ١٩٩١، ص ٣٢). وبإمكاننا أن نرى هذا الوضع فى أشكال الثقافة الشعبية كذلك، كما هو الحال فى المسرحية التى كتبها إيف إنسler Eve Ensler بعنوان "مونولوجات جنسية"، والتى ذكرت فيها بعض النساء أنهن يعانين صعوبة شديدة فى التحدث عن خبراتهن الجنسية لسبب وحيد وهو أنه لم يسبق لأى منهن أن طُلب منها قبل ذلك أن تتحدث فى ذلك الشأن. فقد كن لا يعرفن ما يقلنه، كما كن يندهشن إذا اهتم امرؤ بهذا الشأن. وقد يكون الأسلوب المفكك أو المجزأ فى سرد الحكايات فى هذه الحالات نتيجة لما يقوم به الباحث من إخراج للأفكار والمشاعر المدفونة التى لم يسبق لها أن أخرجت من قبل. وقد تشتمل العملية الخاصة بالإفصاح عن مكنون النفس - عن طريق الحوار الشفاهى - وإطلاع الآخرين عليه؛ قد تشتمل هذه العملية على شكل من التفاوض (الأخذ والرد) الذى يتم التعبير عنه من خلال الكلمات.

كما أن الرواة قد يسردون في حكاياتهم حوارات جرت في الماضي كوسيلة لتقديم إجابة على الأسئلة. وقد تثمر هذه الطريقة حصول الباحث على إجابة غير مباشرة على سؤال طرحه، فإنها تكون إجابة على جانب عظيم من الأهمية والقدرة على التصوير الدقيق.

ومثل هذه الإجابة جزء لا يتجزأ من القصة التي تتميز بإعادة بناء الحوارات على الصورة التي يُحتمل أن تكون حدثت بها في الماضي. وتُستعمل العناصر التي تحتوى عليها هذه الحوارات لإلقاء الضوء على فكرة أو حادثة. ويقوم الراوى بتعديل أسلوبه، ونغمته، وطبقة صوته ليصور مختلف المتحدثين ومختلف الانفعالات (كان يستعمل طبقة الصوت العالية، مثلاً، للتعبير عن الغضب أو الدهشة). (إتر - لويس، ١٩٩١، ص ٤٧).

وتؤكد إتر - لويس (١٩٩١، ص ٤٧) أن الراوى قد يفضل أن يروى حواراً جرى في الماضي بدلاً من الإجابة مباشرة على أحد الأسئلة، وذلك كوسيلة لنقل المشاعر المؤلمة أو غيرها من مشاعر البؤس التي تطفو على السطح عندما تُسترجع إحدى خبرات الماضي. وعلى ذلك يعد هذا السرد للحوارات التي جرت في الماضي آلية دفاعية للتخفيف عما تشعر به النفس من الانفعالات المؤلمة أو الانفعالات الحادة بالذات. وإن من الأهمية القصوى أن نمكن الراوى من تحقيق هذا النوع من وقاية النفس، وذلك نظراً لأنه - وكما سبق أن أوضحنا - ليس بوسع الباحث ولا الفرد المشارك في البحث (المبحوث) أن يعرف المدى الذي تبلغه عملية مقابلة التاريخ الشفاهي من كشف الغطاء عن بعض الانفعالات. فالرواة (المبحوثون) يحتاجون للحرية في معالجة الانفعالات غير المتوقعة بطريقة تعمل لصالحهم. وبالنسبة للباحث الإثنوجرافي الذي يُجرى المقابلة، فإن ما يقوم به المبحوث من تكرار للحوارات الماضية قد يزود هذا الباحث بالتفاصيل والتوصيفات التي يكون الباحث مهتماً بها أشد الاهتمام. وتبين إتر - لويس أن هذه العمليات المتكررة لاستعادة الذكريات قد تقوم - في الواقع - بدور "العدسة المكبرة" التي من خلالها يمكن إبراز التفاصيل بكل وضوح". (ص ٤٧).

وقد يستعمل بعض الناس، حال استنباطهم لوجوه الشبه بين أسلوب الجكي المفكك وأسلوب الحكى الحوارى؛ قد يستعملون إطاراً عَرَضِيّاً (أى: قائماً على أساس ذكر حادث عرضى أو أحداث عرضية متسلسلة) يشاركون من خلاله بحكاياتهم. وقد عقد كوهلر - رايسمان (١٩٨٧) مقارنة بين الأساليب العرضية والأساليب المتسلسلة (الخطية linear أى المتتابعة زمنياً) التى تتبعها النساء عندما يحكىن قصص زواجهن. ذلك أن السرد العَرَضِيّ يختلف عن الأسلوب الموحد الذى يستعمل فيه الراوى نموذجاً خطياً (أى ذا نظام زمنى متتابع) فى سرد حكايته. وفى السرد العرضى يتحدث المبحوث فيروى قصته بوصفها أحداثاً عارضة داخل حياته. ويعتمد أسلوبه فى الكلام على رواية الخبرات كأحداث عارضة لا تخضع لنظام زمنى متسلسل، بل تكون أقرب إلى الخضوع للأفكار الأساسية (أى التيمات).

وقد يستعمل المبحوثون أكثر من واحد من هذه الأساليب السردية وهم يشاركونك المعرفة. وقد تكون التغيرات الحادثة فى أطر السرد مؤشرات مهمة تدل على مشاعر الراوى أو على النقاط التى يهتم بها. وبالتزام الباحث بالأهداف المتعلقة بفهم المعنى الاجتماعى انطلاقاً من منظور أولئك الذين يشاركون فى صنعه، فإن قيام الباحث بالتطوير الحقيقى لمهارته كباحث يجرى مقابلات للتاريخ الشفاهى يقتضى فهم الأطر المختلفة التى من خلالها يتناقل الناس أفكارهم، كما يقتضى الانتباه للفروق الدقيقة فى التعبير، كحدوث نوع من التغير فى شكل السرد مثلاً. وفى هذا الشأن، فإن عملية إجراء المقابلة تُثمر ما هو أكثر من الكلمات المسطحة المكتوبة على صفحة سجل المقابلة، إذ تُثمر فهماً مركباً ومتكاملاً لقصة هذا الشخص كما رُويت لك.

التعاون والسلطة: قضايا الصوت، والتفسير،

والتمثيل فى التاريخ الشفاهى

فى سنة ١٩٩٠ صك مايكل فريش Michael Frish مصطلح السلطة المشتركة، والذى أراد به تسمية إحدى القضايا ذات البروز الخاص فى عملية التاريخ الشفاهى وهى: مدى كون مقابلة التاريخ الشفاهى ذات طابع تعاونى أو

تشاركي. وقد استعمل فريش مصطلح السلطة المشتركة للإشارة إلى تعاون الباحث والراوى أثناء عملية التفسير والتصور (Thompson, 2003, p. 23). ومع أن الفصل الأخير من كتابنا هذا يتناول بالتفصيل القضايا الرئيسية للتفسير، والتحليل، والعرض، والتي تعتبر قضايا محورية فى البحث الكيفى، وذلك بالنظر إلى ما لطريقة التاريخ الشفاهى من سمات خاصة مميزة؛ فإن ذلك الفصل يقدم مناقشته الخاصة به لقضية التفسير.

عند استعمال طريقة التاريخ الشفاهى، فإن الجزء المخصص من عملية البحث لجمع البيانات يكون ذا طابع تعاونى. إذ يقوم الباحث والمبحوث بخلق المعرفة معاً من خلال خلقهما لقصة حياة. فالباحث يستهل هذه العملية وييسر على الراوى أن يحكى قصته. وكما هو معهود، يقوم الباحث بعدها بتدوين المقابلة (أو المقابلات)، وقد يضيف إلى هذا السجل ملاحظاته وتعليقاته ليفسر بها ما ورد فى هذا السرد من جوانب تتصل بأداء الراوى، و/أو يضيف ذكر مشاعره وأفكاره وتساؤلاته، وما إلى ذلك. وهكذا، فإنه فى نهاية الأمر، وبكل وضوح، يعمل الباحث والراوى معاً لتقديم المادة الخام: ألا وهى سجل التاريخ الشفاهى (وأى مادة أخرى). ولكن ما الذى يحدث بمجرد جمع بيانات هذه المقابلة؟

هل تظل تلك العملية التعاونية التى تصوغ شكل جمع البيانات مستمرة أثناء مرحلة التحليل والعرض؟ ومن الذى يبدأ بوضع سمته الخاصة على القصة التى تتجمع وتتبلور من خلال هذه العملية؟ ومن الذى له سلطة على هذه القصة أو هذا السرد؟ وهل هذه السلطة ممكنة دائماً، أو هل هى أمر مرغوب فيه؟ وما هى الاعتبارات الأخلاقية التى يتم الالتزام بها عند تقرير المدى الذى سيبخله المشروع البحثى من هذا الجهد التعاونى؟ وما هو الأثر الذى يحدثه التعاون على الباحث، وعلى الراوى، وعلى البحث نفسه؟ وبصفة عامة، كيف نفكر فى مسألة تفسير بيانات التاريخ الشفاهى؟ تلك فقط بعض الأسئلة التى يتعين على المشتغل بالتاريخ الشفاهى أن يضعها فى اعتباره. ذلك أن التفكير الكلى فى المشروع البحثى الكيفى يقتضى من الباحث أن يفكر فى القضايا المتعلقة بالتفسير وهو يصمم خطة البحث، وأن يواظب على الرجوع

إلى هذه القضايا على امتداد المشروع البحثي، وذلك لأن الغالب على البحث الكيفي أنه يتضمن التعرض للتغيير.

وفي صميم الأسئلة المتعلقة بالتعاون فيما بعد مرحلة جمع البيانات، توجد، في الواقع، الأسئلة المتعلقة بالسلطة، والتي نشير إليها بوصفها "مصفوفة التاريخ الشفاهي": أي ذلك التداخل والتشابك بين طريقة البحث، والأخلاق، والسياسة. فمن هو الذي له سلطة على البيانات؟ وهل يتم تقاسم هذه السلطة بين الباحث والراوى (أو الرواة)؟ إن هذا السؤال المعقد عن السلطة إنما يوجد حيث تكون مصفوفة التاريخ الشفاهي، بما فيها من التقاطع بين طريقة البحث، والأخلاق، والسياسة، ظاهرة بأقصى درجات الوضوح. ونظراً لما للتاريخ الشفاهي من التطور التاريخي والاستعمالات الراهنة داخل العلوم الاجتماعية والإنسانيات، فإنه يمزجُ بين أحد أدوات البحث وبين مجموعة مُحَدَّدة من الاعتبارات الأخلاقية والقضايا السياسية الخاصة بالعدالة الاجتماعية. وعند كتابتها عن عبارة السلطة المشتركة تقول شوبز Shopes:

تعتبر هذه العبارة الطنانة بدقة عن المعنى الموجود في صميم كل من طريقة البحث والأخلاق المتعلقة بمشروع التاريخ الشفاهي - أو ربما ينبغي على المرء أن يقول: القضايا السياسية لهذا المشروع، وأعنى بهذا: ذلك الحوار الذي يُحدد عملية المقابلة نفسها وإمكانية أن يمتد هذا الحوار إلى الخارج - أي في المنتديات العامة والبرامج الإذاعية، والأعمال الدرامية (في السينما والمسرح)، والمطبوعات، وغيرها من الأشكال - في اتجاه ممارسة ثقافية ديموقراطية أوسع نطاقاً. (Shopes, 2003, p.103).

ويثير هذا الكلام أسئلة مهمة تتعلق بمدى كون المعرفة المُستقاة من عملية سرد حكايات التاريخ الشفاهي ذات طابع تعاوني من حيث تطورها، ومدى إتاحتها فيما بعد، ومن حيث الانتفاع بها. ذلك أن ما يحمله التاريخ الشفاهي من إمكانية للتعاون ليست مجرد اختيار يتعلق بمنهجية البحث ولكنها تحمل معها - فضلاً عن ذلك - مجموعة من المعتقدات السياسية وجملة من الاعتبارات الأخلاقية. وفي صميم هذه القضايا يقع السؤال الذي يطرحه فريش حين يقول: "من هو مؤلف التاريخ الشفاهي؟" (٢٠٠٣، ص ١١٣). وفي

الواقع، يستطرد فريش ليسترعي انتباهنا لتلك الرابطة القائمة بين كلمة "مؤلف" "author" وكلمة "سلطة" "authority" كاشفاً عن مدى تشبع التصور بالقوة (السياسية) (٢٠٠٣، ١١٣). فالشخص الذي يُفسّر القصة، ويصوغ شكلها، ويُقدمها هو الذي تكون له سلطة مُعينة على البيانات، فهو بذلك الشخص الذي يتحكم في بناء المعرفة. إذن فماذا يعنيه عند الباحث أن "يؤلف" قصة شخص آخر؟ وكيف يمكن إشراك الراوي في هذه العملية؟ وما هي الخيارات المتاحة للباحثين الكيفيين؟

وكما هو الحال في كافة المشاريع البحثية، فإننا نوصي بأن تكون الأهداف الخاصة للمشروع البحثي هي التي تُحدد مدى كون مرحلة التفسير مرحلة ذات طابع تعاوني. فبعض المشروعات ستكون ملائمة بدرجة أكبر لاقتسام السلطة أثناء المراحل كلها، بينما تجعل بعضها الآخر هذا الاقتسام مُحالاً أو غير مرغوب فيه. وسوف تُساعد معتقداتك الإستمولوجية الخاصة بالعلاقة بين الباحث والمبحوث في بلورة هذه القرارات، كما ستساعدك على ذلك دوافعك الخلقية والسياسية، إلا أنه لأبدٌ لعملية البحث -أساساً- أن تكون متشابكة مع أهدافك ووسائلك. وتحتوي جميع المقابلات الخاصة بالتاريخ الشفاهي على أبعاد ذات طابع تعاوني، وإن كانت استراتيجيات التفسير يمكنها استخدام تشكيلة مُنوعة من الرؤى التصورات. وقد يكون من المفيد أن نفكر في التاريخ الشفاهي باعتباره قائماً على مُتصل تعاوني - إذ أن بالإمكان أن تتنوع المشروعات البحثية ابتداءً من كونها تعاونية في مرحلة جمع البيانات فقط وانتهاءً بكونها تعاونية بصورة شاملة منذُ مرحلة التصميم الأولى للبحث وحتى الانتهاء من مرحلة كتابة النتائج.

وفي هذا الصدد يُشير فريش إلى قضية مهمة فيقول:
يمثل تقاسم السلطة منحى في القيام بالتاريخ الشفاهي، بينما تُمثل السلطة المشتركة أمراً نحتاج للاعتراف به في ممارستنا لهذا العمل. (٢٠٠٣، ص ١١٣).

هيا بنا نتأمل بعض الحُجج المؤيدة والحُجج المعارضة لاستعمال منحى السلطة المشتركة في التاريخ الشفاهي، وذلك عن طريق النظر في مشروعات

بحثية متنوعة للتاريخ الشفاهي، وفي الطريقة التي اتبعها الباحثون في تنظيم ومعالجة قضية التعاون والسلطة بأساليب مختلفة.

لا مركزية السلطة والممارسة الديمقراطية

كثيراً ما يكون موضوع التعاون الكلي الشامل، وهو التعاون الذي يربط الباحث والراوي أثناء جميع مراحل إنتاج المعرفة؛ كثيراً ما يكون من الموضوعات الجذابة التي تستهوي أولئك الذين يعملون انطلاقاً من رؤى نظرية نقدية، بما فيها من الأطر الفكرية النسوية والتعددية الثقافية. وبالمثل، فإن هذا المنحى قد يكون مناسباً للمشروعات البحثية الهادفة لإحداث التغيير الاجتماعي أو لدعم حركات الناشطين الاجتماعيين. وترتبط على ذلك، ولأن الرؤى النقدية والبحث المهتم بالحركات الاجتماعية آخذان في الزيادة والظهور، فإننا نرى زيادة في البحث ذي الطابع التعاوني. ويشير ذلك الأمرُ هذا السؤال: لماذا يجذب أولئك الأفراد من الباحثين والناشطين لموضوع اقتسام السلطة؟.

إن التاريخ الشفاهي منحى متميز لأن لديه القدرة على منع تركز السلطة، بل واقتسام تلك السلطة فعلاً (فريش، ١٩٨٩، وشوبز، ٢٠٠٣).

وكما ورد في المناقشة التي تناولها الفصل الأول، فإن الباحث كان يحظى على امتداد التاريخ بدرجة من الأفضلية باعتباره الطرف العارف، كما كان يحتكر السيطرة على عملية البحث وعلى المعرفة الناتجة عنه. وقد كانت سلطة الباحث على البيانات تشتمل كذلك على سلطته على تحليل المعرفة الناتجة عن البحث، وعرضها/ أو كتابتها، ونشرها. مثال ذلك: هل سيتم نشر هذه النتائج أم لا؟ وأين ستُنشر؟ وكيف سيتم الانتفاع بها؟ ويُسلم التاريخ الشفاهي بأن المشارك في البحث (أي المبحوث) له من الخبرات الحياتية، والأفكار، والمشاعر ما يمكنه أن يساعدنا على أن نفهم الحقيقة الاجتماعية أو نفهم جانباً ما منها على وجه أفضل. معنى ذلك أن لدى هذا المبحوث معرفة متميزة ذات قيمة غالية. وهذا الراوي هو وحده الذي يعرف قصته الشخصية ومن ثم فإنه يؤدي دور الراوي. وبهذا الشكل تتيح طريقة البحث هذه للمبحوث أن يحتفظ بسلطته على معرفته أثناء جمع البيانات.

ومن هنا تتعارض طريقة التاريخ الشفاهي - تعارضاً نابعاً من طبيعتها- مع التصورات الوضعية و المابعد الوضعية المتعلقة بالعلاقة بين الباحث/ والمبحوث، ويضاف إلى ذلك أنها لا بد أن تنقل -على الأقل- قدراً ما من السلطة إلى المبحوث. ويلتزم العلماء الذين يعملون انطلاقاً من الاتجاهات النظرية النقدية بزعة دعائم العلاقات القائمة على القهر، وبجعل أولئك الموجودين - بامتداد التاريخ - على هوامش النظام الاجتماعي؛ بجعلهم محور عملية بناء المعرفة. كما أن العلماء ذوي النزعة النسوية والعلماء الآخذين بمفهوم التعدد الثقافي مهتمون بإبطال مركزية السلطة، هادفين من ذلك إلى إعطاء النساء والملونين وضعاً اجتماعياً محورياً مسؤولاً داخل عملية بناء المعرفة. ويسعى المفكرون النسويون - فضلاً عن ذلك- إلى إسماع الناس صوت النساء. ومن خلال قيام التاريخ الشفاهي بتغيير مركز المعرفة وجمعه بين الباحثين والرواة في الإحساس بالالتزام، فإنه يتيح الفرصة لقيام التعاون ويفتح الباب للإمكانيات المتضادة الموجودة كجزء لا يتجزأ من العملية التعاونية في بناء المعرفة. ذلك أن البُعد المقاوم لاقتسام السلطة مرتبط على نحو لا انفكاك له بالأفكار الخاصة بالإنتاج الديمقراطي للمعرفة، والتي قد تكون -بالذات- مواتية لأفكار العلماء المعنيين بالحركات الاجتماعية.

إن استعمال الاتجاهات التعاونية في مجال التاريخ الشفاهي ليحمل آثاراً من ذلك التغير القديم في النموذج النظري للمفكرين الاجتماعيين والذي تسبب في ظهور البحث الكيفي وظهور تغيرات واسعة النطاق في تصوراتنا عن طبيعة المعرفة وعن عملية بناء المعرفة. ويدعو بعض المؤرخين الشفاهيين من العاملين في مجال الحركات الاجتماعية، والسياسة العامة، وحركات الناشطين الاجتماعيين؛ يدعون إلى أقسام السلطة أثناء مراحل المشروع البحثي كلها من أجل الإنتاج الديمقراطي للمعرفة، والذي يُمكنه أن ينفع إلى أبعد حد تلك الجماعات التي غالباً ما تجري بحثاً من أجلها. ويرجع ذلك إلى أن التعاون بين الباحث والمبحوث يُتيح لنا أن نتكلم مع مبحوثينا وليس نيابة عنهم. ومن شأن هذا الاتجاه الديمقراطي في بناء المعرفة أن يحل بعضاً من قضايا القوة الاجتماعية التي تتخلل البحث التقليدي، إذ يُتيح لأولئك الذين نرغب في تمكينهم من أن يُعلمونا كيف نحقق أهدافنا. ويذهب كير Kerr (٢٠٠٣) إلى أن اقتسام السلطة "يمكنه أن يقوم بدور مهم في بناء

الحركات الاجتماعية والسياسية" (ص ٣١). ويكتب مُشيراً إلى مؤلف فريش فيقول:

يذهب فريش إلى المطالبة "بنوع من المشاركة الأعمق في اقتسام المعارف، أي إلى نوع من الحوار الضمني أحياناً، الصريح أحياناً أخرى، الذي يجري انطلاقاً من تفضيلات مختلفة، ويدور حول شكل التاريخ، ومعناه، ومضامينه. وهو يذهب إلى أن هذا الحوار سوف يعزز "نوعاً من الوعي التاريخي الذي يتشكل ديموقراطياً وتتقاسمه فئات عريضة من الناس، وهو الأمر الذي يترتب عليه تشجيع المشاركة الواسعة في المناقشات التي تدور حول التاريخ، وهي المناقشات التي سوف تثرىها طائفة من الخبرات، والرؤى، والقيم الأكثر تمثيلاً للواقع". وأودُّ أن أضيف أن هذا الحوار المبني على هذا الأساس لا بد أن يستمر ليتجاوز نطاق الطريقة التي اعتدنا أن نرى بها التاريخ، بجانب أنه لا بد أن يؤثر على الطريقة التي نضع بها خطط السياسة العامة، ويؤثر بدرجة أهم على طريقتنا في إعادة إنتاج التنظيم الاجتماعي للمجتمع الذي نعيش فيه. (Kerr, 2003, p.31).

وفي هذا الاتجاه، فإن النهج التعاوني في تحليل التاريخ الشفاهي وعرضه، يمتدُّ نطاقه ليتجاوز مُجرّد قيامنا بدمج الأصوات والرؤى المتعددة في كتابتنا عن التاريخ، كما أنه يستطيع المساعدة في تشكيل تنظيم مجتمعنا وصياغة السياسة العامة. وبهذه الطريقة يستطيع التاريخ الشفاهي أن يُعزّز التغير المتعدد التوجّهات. لذلك لا يدهشنا أن نرى العلماء المعنيين بالحركات الاجتماعية يتبنون هذا الاتجاه.

وقد وضع "كير" (٢٠٠٣) خطة مشروع بحثي قائم على التاريخ الشفاهي مستعملاً التحليل التعاوني الذي يشترك فيه الباحث والمبحوث من أجل دراسة ظاهرة التشرّد. وكجزء من إعداده لرسالته لنيل الدكتوراه أمضى "كير" سنوات وهو يعمل في "مشروع كليفلاند للتاريخ الشفوي للمشردين". ويُعتبر هذا المشروع، والذي يتضمن إجراء مقابلات بوسائط اتصال متعددة؛ يُعتبر مثلاً ممتازاً لتطبيق أسلوب اقتسام السلطة بشكل كلي وتام، لأن هذا الأسلوب يمكننا على نحو فعال من تحقيق الأهداف البحثية لأي دراسة دقيقة.

وقد أراد كير أن يقوم بالبحث الذي يتيح له إجراء حوار هادف بين المشردين في كليفلاند، والذي يستطيع الإسهام في وضع وتنفيذ قدر من التغيير في السياسة العامة التي تهدف إلى تخفيض أعداد المشردين في مدن الولايات المتحدة. ويذهب "كير" إلى أن البحوث التي كانت تجرى عادة على المشردين قد أخفقت في خلق حوارات على مستوى الشارع (أي على أرض الواقع وبين أصحاب المشكلة)، مما جعل البيانات التي انتهت إليها تلك البحوث تأتي خالية من أي إسهام حقيقي من البيانات التي يقدمها المشردون أنفسهم، ومن ثم أفقد تلك البحوث القدرة على حشد الدعم المطلوب لعمليات رسم وتنفيذ سياسة اجتماعية فعالة.

لقد سعى قادة الرأي وكذلك الأساتذة الجامعيون - الذين كانوا يدرسون أحوال المشردين في الولايات المتحدة - للوصول أساساً إلى طائفة من رجال الدولة والقادة المحليين، وذوي الاتجاهات التقدمية من المنتمين للطبقة المتوسطة والطبقة العليا، والذين كان قادة الرأي وأساتذة الجامعات يعتقدون أن لديهم القوة (السياسية) على إحداث التغيير المنشود. وقد تشكلت هذه الرؤية في جانب منها بتأثير رجال الدولة أنفسهم ممن شجعوا هذا الاتجاه، حيث كانوا يلتمسون المشورة في حل مشكلات المشردين، والتي كانوا يطلبونها - بصورة حصرية غالباً - من مقدمي الخدمات الاجتماعية والخبراء من أساتذة الجامعات. كما أنه لم يتوافر لدى أساتذة الجامعة من الدوافع ما يكفي لحملهم على العمل بصورة تعاونية مع المشردين. وقد توصل بعض هؤلاء الأساتذة الجامعيين - الذين كان لهم صوتاً مسموعاً على مستوى السياسة العامة - إلى ابتكار حلول تخلو من إسهام المشردين وإشرافهم، كما أنهم لم يحققوا نجاحاً يذكر في محاولاتهم للترويج لما توصلوا إليه من حلول بين المشردين. (ص ٢٨).

ويرجع الإخفاق القديم في إنتاج ذلك النوع من المعرفة التي استعملت حديثاً - بنجاح - في تخفيف حدة مشكلة التشرّد؛ يرجع بصورة عامة إلى عاملين:

(١) فالباحثون لا يستطيعون أن يدرسوا اليأس انطلاقاً من وجهة نظر محايدة ومنفصلة عن السلطة،

(٢) والتشرد له بُعد بنائي يُدعمه أصحاب المصالح الأقوياء المستفيدون من بقاء هذا النظام واستمراره (كير، ٢٠٠٣، ص ٣٠).

وبناءً على ذلك اضطر "كير" للتخلي عن وضع الامتياز التقليدي الذي يُنظر فيه إلى "الباحث بوصفه عارفاً" والعمل مع المشردين بأسلوب تعاوني من أجل الوقوف على اتجاهات الناس، وتوليد النظرية، والدعوة إلى إحداث تغييرات سياسية محسوسة، وتنفيذها بصورة فعالة.

إن توسيع الباحث لنطاق الجماعة العلمية من خلال عملية اقتسامه للسلطة مع المشردين، لا يؤدي به إلى التخلي عن الموضوعية، بل هو بذلك يقدم بحثاً أكثر موضوعية وفعالية. فالنظريات والحلول التي تحشد وراءها الدعم والتأييد هي التي يتم تنفيذها بصورة فعالة، كما أنها تتجح في معالجة القضايا الشائعة التي تكون - من الناحية الموضوعية - في وضع أفضل من القضايا التي لا تحشد لنفسها مثل هذا الدعم (كير، ٢٠٠٣، ص ٣٢).

وفي ظل هذا الطرف، كان من الواضح أن اقتسام السلطة هو الأسلوب المنطقي الذي يتعين اتباعه في عملية التاريخ الشفاهي، كما أنه عزز التكامل بين اختيارات الباحث الأنطولوجية، والإبستمولوجية، والنظرية، والمنهجية، مما أدى إلى إيجاد مجموعة من المعارف القابلة للتطبيق التي تتسم بالتنوع والصلابة. فهذه المعارف لا يمكن فصلها عن العملية الديمقراطية في إنتاجها، ونم ثم فإنها تعبر بكل السبل عما تثيره ضمناً من قضايا تتصل "بمن يتعين عليه المشاركة في بناء مجتمعاتنا".

بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكر "كير" أن المبحوثين قد تم تمكينهم بالفعل من خلال مشاركتهم هذه. فقد ساعدت هذه العملية المشردين على أن يصبحوا عناصر فعالة في إحداث التغيير الاجتماعي في مجال يرتبط ارتباطاً مباشراً بحياتهم اليومية بدلاً من أن يظلوا ضحايا لنظام اجتماعي تحول فيه كل شيء أو شأن إنساني إلى شيء مادي.

التمكين، والأخلاق، والنزاع خلال عملية التعامل

ليس من العسير أن نفهم كيف يكون لاقتسام السلطة ذلك الأثر المعنوي على تمكين الراوي (أي إعطائه قدراً من السلطة - المترجم). فمن المؤكد أن الناس يكونون أقرب للشعور بأنهم مُمكنون عندما يتم دمجهم بصورة كاملة، وتقديرهم تقديراً وافياً، وعندما يقومون بأدوارهم في ساحة اجتماعية مفتوحة وممهدة أمامهم. وتكتب ريكارد (٢٠٠٣) فتذكر أن المبحوثات اللاتي درسن في بحثها الكيفي (القائم على تعاون المبحوثين) عن بعض البغايا البريطانيات كنّ كذلك يشعرن بالتمكين بفضل استخدام طريقة التاريخ الشفاهي في البحث. ويُعد عمل ريكارد عملاً مهماً، لأنه يثير قضايا أخلاقية تدور حول التمكين، وحركة الدفاع الاجتماعي، واقتسام السلطة.

هل يُعدُّ أخلاقياً -على طول الخط- أن نمكن لشركائنا في البحث (المبحوثين)؟ وماذا يكون الأمر إن كانوا متورطين في نشاط غير مشروع أو في نشاط نراه من وجهة نظرنا الأخلاقية أو السياسية نشاطاً مسيئاً للمشاكل؟ وبوصفنا باحثين ملتزمين نتساءل: أين يوجد الخط الفاصل بين التمكين والدفاع الاجتماعي؟ فإن شعرنا بنوع من الالتزام بمصلحة شركائنا في البحث (مبحوثينا) عن طريق تمكينهم (إن كان بوسعنا ذلك)، فهل من الضروري أن نوافق على سلوكهم؟ فهذه قضايا اضطرت ريكارد لمواجهتها عندما اقتسمت السلطة مع البغايا البريطانيات، بما يتضمنه هذا الاقتسام من تكليف واحدة منهن لإجراء المقابلات مع المبحوثات. وقد تبنت ريكارد "منظوراً إيجابياً للجنس" تبنيها صريحاً، وهو الأمر الذي عرّض جهدها العلمي للفحص والتدقيق. وقد ربط البعض خطة بحثها التعاوني بتأييد البغاء والدعوة إليه.

لهذا السبب، ونظراً لالتزامي بتطبيق طريقة التاريخ الشفاهي في هذا المجال، فقد كان لزاماً عليّ أن أنحاز إلى جماعة الضغط السياسي المؤيدة للعمل في مجال الجنس، وأن أنخرط في أعمال جماعات الناشطين القومية والدولية التي تدعم حقوق العاملين في مجال الجنس. وقد ترتب هذا الانخراط مع الناشطين كذلك على اهتمامي الشديد باقتسام السلطة مع المبحوثين. ولكي أضمن تسجيل حكايات هؤلاء النساء وجمعها كان لزاماً عليّ أن أكون مستعدة

لاستغلال وضعي الأكاديمي الذي يمنحني شيئاً من الأفضلية لتقديم الدعم السياسي والعملية للمبحوثات، ولتسهيل الاتصال من خلال الشبكات الدولية، ولاستغلال المادة المسجلة في مقابلات التاريخ الشفاهي في خدمة الأهداف السياسية والتربوية. وبالنسبة لي، فقد أفضى بي ذلك إلى عدد من المشروعات الفرعية، كتنظيم مؤتمر للعاملات في مجال الجنس في المملكة المتحدة، وإطلاق مشروع التربية الصحية باستعمال نصوص مستمدة من شرائط تسجيل تعرض بواسطة جهاز العرض العلوي OHP بوصفها المصدر الأساسي لهذا المشروع. وقد قادني هذا الوضع - أيضاً - إلى الانشغال بلقاءات محلية ودولية مع الناشطين، وباستغلال المادة المسجلة في مقابلات التاريخ الشفاهي كمصدر تعليمي للعاملين في مجال الصحة. وبمرور الوقت، تحققت - بصورة بطيئة - من أن استخدام التاريخ الشفاهي في مجال الجنس كان ينفذ دائماً انطلاقاً من "منظور إيجابي للجنس" مشابه للمنظور الذي تبنيته وكان يستخدم بصفة شبه دائمة داخل سياق دَعَوِي على المستوى الشخصي وعلى المستوى السياسي. (ص ٥٤).

وهكذا نرى ريكارد متنبهة للتفكير في انحيازها السياسي الشخصي لراوياتها (المبحوثات)، كما أنها تكشف لنا عن مدى تأثير هذا الانحياز على تحليل البيانات وعلى دراستها عموماً. ومع أننا لا نرى من الضروري أن نعلق على الاختيارات البحثية لريكارد في حد ذاتها، فإننا نرى أن موقفها يقدم لنا مثلاً قيماً نستطيع أن نستفيد منه في التأمل العميق لما نجريه من بحوث. وعن طريق انهماك قراء مؤلف ريكارد في المناقشة - التي شملت كلاً من سياق الاكتشاف وسياق التبرير - يتزودون بالمعلومات الكافية عن عملية البحث وعن علاقة الباحثة بهذا العمل بحيث يستطيعون تفسير عملها نظراً لأنهم يعتبرونه عملاً سليماً لا غبار عليه. وبهذه الطريقة تكون قد أدت واجبها بجانب أنها تكون قد زودتنا بدراسة حالة قوية تتيح لنا أن نتأمل الطريقة التي نتبعها جميعاً في الاشتراك في مصفوفة التاريخ الشفاهي المكونة من: طريقة البحث، والأخلاق، والسياسة. وهذا الأمر يجتذبنا إلى دراسة حشد من القضايا الأخرى التي تدور حول المشاركة بين الباحث والمبحوث في عملية تفسير البيانات.

وعلى حين تستلزم بعض مشاريع البحث تعاوناً قوياً، فإن محاولات اقتسام السلطة قد تتسبب في تعويق مشروعات أخرى. كما أن التفسير التعاوني قد يغير طبيعة هذه الدراسة أو مسارها على نحو لا يرتاح إليه الباحث. ونظراً لأن التفسير مكون أساسي من مكونات صناعة المعنى أو بناء المعنى، فإن الاشتراك فيه يؤثر تأثيراً عميقاً على بناء المعرفة، كما أنه ليس أمراً مرغوباً فيه بالضرورة.

يُعدُّ التشارك مثلاً أعلى لبعض أعمال التاريخ الشفاهي، حيث يتصف بأنه مثلٌ مسؤول وقادر على أن يحفز كلا من الباحث والمبحوث، كما يتسم بالنزعة الإنسانية، إلا أنه قد يبدو هدفاً غير مناسب في بعض أنواع المشروعات، بصرف النظر عن الرعاية المبتئية لكرامة سائر الأشخاص المشتركين في البحث.. ذلك أن أخذ كافة الآراء المخالفة لرأيك أمر، ولكن العجز عن إخضاعها للفحص والتدقيق النقدي أمرٌ آخر. فهل يُعتبرُ عرض/أو تمثيل وجهات النظر المختلفة في صورة الرأي/والرأي المضاد؛ هل يُعتبر هذا العرض -في حد ذاته- شكلاً من أشكال البحث النقدي؟ وهل يعد ذلك كافياً؟ إننا بحاجة إلى مزيد من التفكير في أوجه القصور وفي إمكانيات النجاح التي يتصف بها العمل في التاريخ الشفاهي مع أولئك الذين لا نتعاطف مع مواقفهم بالأساس. (شوبز، ٢٠٠٣، ص ١٠٩).

تثير شوبز مسائل مهمة في نفس الوقت الذي تعيد فيه التأكيد على أن الاستخدام الكلي لاقتسام السلطة لا يعدو أن يكون أحد أساليب التاريخ الشفاهي. ذلك أنه من المعقول تماماً ومن المناسب غالباً أن يحتفظ الباحث بالحق في أن يكون له سلطة على عملية التفسير. ونحن كباحثين نستطيع أن ندافع عن وجهات النظر النسوية وغيرها من وجهات النظر الخاصة بحقوق الإنسان بدون أن نضع الآراء التفسيرية التي يراها مبحوثونا من الرواة في نفس المستوى الذي نضع فيه تحليلنا الخاص بنا. فنحن لسنا بحاجة لأن ندعو الراوي لشاركنا في عملية البحث خارج نطاق جلسات المقابلة إذا لم يكن مشروعنا يجيز هذه المشاركة. ذلك أن عملنا العلمي و/أو راحتنا النفسية

تَقْتَضِيَانِ أَنْ نَحْتَفِظَ فَعْلًا بِسُلْطَةِ فِكْرِيَّةٍ صَارِمَةٍ عَلَى عَمَلِيَّةِ الْعَرْضِ النِّهَائِيِّ
لنَتَائِجِ الْبَحْثِ.

مِثَالُ ذَلِكَ، أَنَّ مَشْرُوعَ التَّارِيخِ الشِّفَاهِيِّ الْخَاصَّ بِصُورَةِ الْجَسَدِ، وَالَّذِي
بَدَأْنَا بِهِ هَذَا الْفَصْلَ، كَانَ يُلْزَمُ بِالْفَصْلِ بَيْنَ الْبَاحِثِ وَالرَّوَايِ أَتِّئَاءَ تَحْلِيلِ
الْبَيِّنَاتِ. فَقَدْ كَانَتْ "كَلِير" لَا تَزَالُ حَبِيبَةً مَرْضِيَّةً لِنَفْسِهَا: تَعَانِي مِنْ فَقْدِ
الشَّهِيَّةِ الْعَصَبِيِّ لِلطَّعَامِ، كَمَا كَانَتْ صِحَّتُهَا تَتَدَهَوَّرُ بِسُرْعَةٍ أَتِّئَاءَ فَتْرَةٍ تَنْفِيْذِ
الْمَشْرُوعِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَعْرَكَتِهَا الْمُسْتَمِرَّةِ الْوَاضِحَةِ، فَقَدْ كَانَتْ "كَلِير"
تُؤَكِّدُ بِصِفَةِ مُتَكَرِّرَةٍ عَلَى أَنَّهَا أَصْبَحَتْ - فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ - فِي صِحَّةٍ وَعَاقِيَةٍ
وَأَنَّهُ بَاتَ لَدِيهَا "رُؤْيَا وَاضِحَةً" لِمَتَاعِهَا "السَّابِقَةِ". وَفِي حَالَةِ الْإِصَابَةِ بِمَرَضِ
الْفَقْدِ الْعَصَبِيِّ لَشَهِيَّةِ الطَّعَامِ، فَإِنَّ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْحَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ
الْثَّابِتَةِ يَكُونُ شَائِعًا بَيْنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي يُعَانِينَ مِنْ أَحَدِ أَعْرَاضِ اضْطِرَابَاتِ
تَنَاوُلِ الطَّعَامِ. وَكَانَتْ قُدْرَتُهَا عَلَى الْحُكْمِ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ بِطَرِيقَةٍ مُجَدِّدَةٍ
تَتَعَرَّضُ لِتَشْوِيشٍ حَادٍ بِسَبَبِ مَرَضِهَا هَذَا. وَبِجَانِبِ إِنْكَارِهَا الشَّدِيدِ لظُرُوفِهَا
النَّفْسِيَّةِ السَّيِّئَةِ فَقَدْ كَانَتْ فِي حَالَةٍ صَحِيَّةٍ آخِذَةٍ فِي الضَّعْفِ (وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي
كَانَ لَهُ - هُوَ الْآخِرُ - أَثَرٌ ظَاهِرٌ عَلَى مَلَكَاتِهَا الْعَقْلِيَّةِ). وَقَدْ جَعَلَتْ كُلَّ هَذِهِ
الْإِعْتِبَارَاتِ التَّحْلِيلِ التَّعَاوُنِيَّ مُسْتَحِيلًا وَغَيْرَ مُرْغُوبٍ فِيهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ.

وَفِي مِثْلِ هَذَا الْوَضْعِ يَنْبَغِي عَلَى الْبَاحِثِ أَنْ يَحْتَفِظَ بِسُلْطَتِهِ (أَيِ
بَسِيطَرَتِهِ) الْعَقْلِيَّةِ عَلَى الْبَيِّنَاتِ لِكَيْ يَصِلَ إِلَى تَوَلِيدِ الْمَعْنَى الَّذِي يَصْدُقُ عَلَى
الْقِصَّةِ الَّتِي يَحْكِيهَا الرَّوَايِ. وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ يَشُقُّ عَلَيْكَ إِذَا كَانَتْ لَكَ
رَابِطَةٌ قَوِيَّةٌ تَرْتَبِطُكَ بِالرَّوَايِ الَّذِي تُجْرِي مَعَهُ الْمَقَابِلَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ،
بِوَصْفِكَ بَاحِثًا، بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ تَتَفَكَّرَ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ الشَّامِلَةِ وَفِي الْمَعْرِفَةِ
النِّهَائِيَّةِ الْمُسْتَخْلَصَةِ مِنْهَا، مِمَّا قَدْ يَعْنِي اتِّخَاذَكَ لِقَرَارٍ يَشُقُّ عَلَيْكَ اتِّخَاذُهُ. وَفِي
مِثَالِنَا هُنَا، يَتِمُّ اتِّخَاذُ هَذَا الْقَرَارِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ "كَلِير" عَاجِزَةً عَنِ
تَقْدِيمِ الْمُسَاعَدَةِ الْفَعَالَةِ لَكَ فِي تَفْسِيرِ شَبْكَةِ الضُّغُوطِ الَّتِي بَلَغَتْ ذُرُوتَهَا فِيمَا
أَصَابَهَا مِنْ اضْطِرَابٍ فِي صُورَةِ جَسَدِهَا لَدِيهَا. بَلْ إِنَّهُ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ
فِيهَا الرَّوَايِ "قَادِرًا" عَلَى الْمَشَارَكَةِ فِي الْعَمَلِيَّةِ التَّفْسِيرِيَّةِ، فَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ
الْمَشَارَكَةُ، بِبَسَاطَةٍ، أَمْرًا لَا يَهْتَمُّ بِهِ الْبَاحِثُ. وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ دَقِيقَةٌ هِيَ الْآخَرَى.

من الناحية الأساسية، فإنني أرى فعلاً أن ديناميات المقابلة ذات طابع تعاوني أو تشاركي. بيد أنني أرى كذلك أننا نحن الباحثين بحاجة إلى أن نفكر بعناية في مسألة: أين نرغب في اقتسام السيطرة العقلية على عملنا وأين لا نرغب في ذلك. فنحن نحتاج فعلاً لأن نكون واضحين فيما يتصل بأين نريد أن نختلف عن مبحثينا من الرواة، وإلى أي مدى يكون هذا الاختلاف، فقد يكون الاختلاف موجوداً في أثناء المقابلة نفسها، والأرجح أن يوجد فيما نكتبه بناءً على المقابلات. كما نحتاج إلى الوضوح عندما نرغب في انتقاد مبحثينا من الرواة، أي عندما لا يوجد مُتسع لرؤية مشتركة نقاسمها معهم (شوبز، في استشهادها بما كتبه في كتابها المنشور سنة ٢٠٠٢، وكتابها المنشور سنة ٢٠٠٣، ص ١٠٩).

مثال ذلك، ماذا يكون الأمر إذا كان الراوي الذي تجرى معه المقابلة متعصباً عنصرياً، أو منحازاً جنسياً للرجال ضد المرأة أو مصاباً بالخوف المرضى من الجنسية المثلية؟ إن كنا ملتزمين بروح العدالة الاجتماعية فسنأتي علينا أوقات لا تكون فيه السلطة المُقسمة اختياراً وارداً بأي شكل. فبصرف النظر عما إذا كنا - أو لم نكن - نقاسم نوعاً من "المشاركة الوجدانية الأساسية" (شوبز، ٢٠٠٣، ص ١٠٩) مع أولئك الذين نجرى معهم المقابلات، فنحن بحاجة إلى التفكير بجدية في الموقع الذي يحتله "صوتنا العقلي" (أي موقفنا الفكري) المستقل داخل عملنا. ويتطلب منا هذا الموقف أن نرسم حدود التشارك/أو التعاون داخل أي مشروع بحثي، وأن نتشكك فيها، ونتفاوض في شأنها، وأن نعيد التفاوض فيها، وذلك في كل مرة نعد فيها إلى التفكير في الملاءمة بين اختياراتنا وأهدافنا البحثية. كما نرى أن من المهم للباحثين الكيفيين أن يكتبوا بصراحة عن هذه العملية ليساعدوا غيرهم في التفكير فيما يتسم به البحث التعاوني من تعقد، وليبثوا الروح والحيوية في قراراتهم المتصلة بتحديد المكان الذي يقع فيه أي مشروع معين على امتداد هذا الخط المتصل من التعاون إلى اللاتعاون. فهنا بنا نبحت مثلاً يوضح أهمية استمرار الباحث مُخلصاً لصوته (لرؤيته)، كما يوضح المخاطر المحتملة للتعاون الذي يفتقر إلى التحديد الدقيق.

كتبت سيتزيا Sitzia (٢٠٠٣) دراسة حالة عن علاقتها بالراوي الذي كانت تجرى معه مقابلات التاريخ الشفاهي عندما كانا يحاولان اقتسام السلطة (أو: اقتسام السيطرة) أثناء تقديمهما لسيرته الشخصية عن فترة مدتها ست سنوات. وتلقي خبرتها الضوء على ما في التعاون من مزايا وما ينطوي عليه من مخاطر لا تتفك عنه بحال.

وكانت سيتزيا تشارك راويتها -"آرثر"- في صفات مهمة تجعلهما "من الأقارب"، وخاصة في انتمائهما إلى الطبقة العاملة، وأن لهما اهتمامات مشتركة، وهما الأمران اللذان يسرا تحقيق ألفة رائعة بينهما في مرحلة جمع البيانات.

قام هذا الحوار المتواصل بيني وبين "آرثر" بإثراء عملية التأثير على قصة حياة امرئ آخر: فقد انتقلت بسرعة من دور الباحثة التي تجرى المقابلة إلى دور الباحثة التي تساعد "آرثر" على الكشف عن ماضيه. ولم يكن من الممكن تحقيق التطور في هذا الحوار داخل نطاق هذه العملية إلا من خلال علاقتنا هذه (Sitzia, 2003, p.94).

يؤدي نوع الالتزام بالمشروع البحثي، بجانب الملكية المشتركة له، إلى إنتاج بيانات قد تظل طي الكتمان لولا وجود هذين الأمرين. ومع ذلك، فإن للالتزام الذي يقتضيه التعاون ثمناً عاطفياً، كما أن بإمكانه في بعض الأوقات أن يكون ذا تأثير طاغ على الباحث. وبالمثل، فإنه في نفس الوقت الذي يشعر فيه بعض الدارسين بأن التفسير المشترك يثري عملهم، قد يشعر علماء آخرون بخسارة غير مرغوب فيها عندما يفتقدون السلطة العقلية (السيطرة الفكرية) على بحثهم، وذلك على نحو ما توضح سيتزيا في النص التالي:

عندما بدأ عملنا ... كنت أشعر بالرضا البالغ عن الطريقة التي كان يسير بها هذا المشروع ... وعندما ... اقتربنا من نشر الكتاب، بدأ آرثر يتصرف بطريقة عدائية، مسلطاً على ضغطاً هائلاً لتسريع في عملي، ومهدداً بإكمال العمل مع كاتب آخر. والأهم من ذلك أنه كان يثير القضايا المتعلقة بالملكية (الفكرية): فأصبح "كتابنا" هو "كتاب آرثر" وحده. وقد زاد هذا الوضع سوءاً أن "آرثر" كان يعاني أزمة عاطفية وعقلية حادة، وهو الأمر الذي يعني

أنه أصبح شديد الاعتماد عليّ، بحيث كان يطلبني على الهاتف وهو في حالة اضطراب في جميع ساعات النهار والليل. وكُنْتُ أشعر - ولا أزال أشعرُ فعلاً - بمسئولية هائلة عن "آرثر"، كما كُنْتُ أشعرُ بأنه ينبغي عليّ أن أساعده للخروج من أزمتة، إلا أنني لم أكنُ أشعرُ بأنّ لديّ ما يُمكنني من هذه المساعدة. وبالتفكير في هذا الوضع، تبين لي أن هذه التعقيدات نجمت جزئياً من الطبيعة التجريبية للمشروع: فلا أنا ولا آرثر سبق لنا أن عملنا بمثل هذه الطريقة التعاونية من قبل. وقد كان مدخلي لهذا المشروع نوعاً من الخبرة التعليمية غير الرسمية ... وأنا الآن أؤمن بأنه من الأهمية الشديدة القيام بتحديد واضح للحدود الفاصلة بين الباحث والراوي وللخطوط الإرشادية العامة عند مباشرة العمل في مشروع يتسم بهذه الطبيعة. ففي بداية هذا التعاون كُنْتُ أتولى توجيه العمل إلى حد بعيد، كما كان لي "صوت" مستقل بالتأكيد؛ ومن نتائج هذا النقص في وضوح الرؤية بخصوص التعاون وحدوده أنه كلما كان المشروع يمضي قدماً، كُنْتُ أشعرُ أنني أفقدُ سُلطتي وسيطرتي بالتدريج، وأن آرثر أصبح أكثر فأكثر تحكماً - وفي الواقع أصبح أكثر استئساداً - وأن صوتي بدأ مفقوداً (ص ٩٧).

يُوضحُ هذا النموذج التوترات التي قد يواجهها الباحثون عندما يحاولون تحديد أين يقع مشروع ما على متصل اقتسام السلطة. وقد توصلت سينتريا، في نهاية الأمر، إلى إدراك أنه كان بإمكانها هي و"آرثر" - وفي حالة مشروعها هذا - أن "يملكا" هذا المشروع عن طريق تقبّلهما للنتائج المتعددة التي تنجم عن تلك الدراسة. إذ تكون هي وراويتها (آرثر) في هذه الحالة أحراراً في معالجة هذا العمل بطرق مختلفة، كما أنهما يستطيعان، كلاً على حدة، أن يضعا - من خلال تلك المسارات غير المتوقعة - بصمتهما الشخصيتين على المعرفة التي استحدثاها وكونتاها معاً. فتنفع سينتريا بجوانب المشروع فيما تكتبه بينما يكون "آرثر" قادراً على الانتفاع بهذا المشروع في مجال عمله. وقد اقتضى منهما ذلك الوضع أن يتحررا من الفكرة التي ترى أن من شأن "كتاب واحد" أن يكون ثمرة هذه العملية، وأن يُدخلا في حسابهما وجود نتائج متعددة لها. ونحن نرى أن من الأهمية أن نبقي متفهمين ومتقبلين

لفكرة أن البيانات يمكن أن تُستعمل بطرق متعددة، وهو ما استقرَّ عليه قرار الباحثة في هذا المشروع. ومع ذلك، فإننا نُحذِرُ من أن هذه الفكرة ليست مناسبة على الدوام، كما أنه يتوجَّب على الباحث أن يُدقِّق النظر فيها. فحدِّد اختياراتك وتوصِّل إلى القرارات التي تكون منطقية في ظرف مُعين.

على الرغم من الصعوبات التي قد تظهر، فإن بالإمكان أن يكون التعاون ممارسةً جديرةً بالاهتمام أو ضرورية. لذلك، فإنَّ من المفيد أن تكون مُتَحَسِّباً للمستقبل، وأن تُحسن تصميم دراستك، وأن تظلَّ مُتَقَبِلاً لإجراء التعديلات التي تُملِها الممارسة. فإنَّ قررت أن تتشارك السلطة على البحث مع روائك، فإننا نقترح عليك الاستراتيجيات التالية للتعامل مع التحديات التي قد تواجهها.

- ضع حُدوداً واضحةً فيما يتصل بالعلاقة بين الباحث والراوي. وبتعبير آخر، كرِّس وقتاً كبيراً لتحديد علاقتك هذه. وتحدثا عن هذه العلاقة مع بعضكما حديثاً مستقيضاً حتى تتحقق لكما الرؤية الواضحة المتبادلة. واستمر في إجراء هذه الحوارات على امتداد كافة المراحل المختلفة لهذه العملية حتى تستطيع أن ترسخ -على الدوام- ما وضعته من حدود واضحة وما تنتظره من توقعات (في نفس الوقت الذي تكونُ مُشغَلاً فيه بتعديل هذه الحدود والتوقعات لتناسب مع النمو الذي يحدث في هذه العلاقة). ولا بد أن يكون موقفك من هذه العلاقة موقفاً كلياً شاملاً.

- ضع توقعات دقيقة فيما يتصل بدور (أو أدوار) كل شخص في هذه العملية التعاونية على حدة. وتتضمن الأمور التي يتعين مناقشتها والوصول إلى اتفاق حولها ما يلي:

- عملية تدوين التسجيل.
- الملاحظات الميدانية وكتابة التعليقات النظرية.
- إجراءات التحليل.
- التفسير وبناء النظرية.
- الكتابة و/أو العرض.

- استعمال النتائج (بما تتضمنه هذه النقطة من تقدير عدد النتائج التي يمكن توقعها).
- صنع أفكاراً عملية لكيفية التعامل مع ما يُحتمل ظهوره من خلافات في التفسير:

ما هي درجة الاختلاف التي يتوقع كل طرفٍ منكما أن يُدرجها في الكتابة النهائية؟ -

فإذا قمت بالتفكير جيداً في هذه الأمور كلها، أمكنك تفادي كثيرٍ من المخاطر التي قد تطرأ، وبذلك تكون قد أحسنت استعمال هذا الوقت. وبهذا تستطيع أن تكون متقبلاً للاتجاهات المتحررة الأقل تمسكاً بالتقاليد في مجال التاريخ الشفاهي، والتي قد تتيح الفرصة لطرح أسئلة علمية اجتماعية جديدة وللإجابة عليها. ولا تخش ابتكار منهجيات بحثٍ جديدة طالما أنك تعي أن التجريب يستلزم الانفتاح العقلي والدقة البالغة.

أرشفة مواد التاريخ الشفاهي

كما رأيت للتو، فإن البحث الكيفي بصفة عامة، والتاريخ الشفاهي بصفة خاصة، يتطلبان درجة عالية من الأخلاق في الممارسة. وتعتبر أرشفة مَدُونَات التاريخ الشفاهي و/أو مشروعاته جزءاً هاماً من عملية التاريخ الشفاهي. تقول الجمعية التاريخية الأمريكية إن اتخاذ الترتيبات اللازمة لوضع مقابلات التاريخ الشفاهي في الأرشفة يعدُّ جزءاً من البحث الملزم بالأخلاق. وقد تؤثر أرشفة مواد التاريخ الشفاهي - وهي العملية التي تجعل هذه المواد متاحة لأي عدد من الباحثين في المستقبل - قد تؤثر على عملية البحث بطرقٍ عديدة. ذلك أنه لو تمَّ إحاطة مُشارك (مبحوث) ما في البحث - وعلى نحو جيد - بالمعلومات المتعلقة بهذا البحث وبناتجيه، (على نحو ما يتم خلال حصول الباحث على الموافقة الصريحة عن علم من المبحوث) لو تم ذلك فإن معرفته - حينئذٍ - بأن مادة هذه المقابلة سوف تتم أرشفتها قد يؤثر على سرده لحكايته. وتبرزُ هذه الحقيقة خصوصاً عندما يتم في المستقبل أرشفة السجلات التي لم تراجع قبل ذلك، وذلك لأن الرواة يفترضون ضمناً أن الصياغة الأولى لروايتهم لقصص حياتهم سوف يتم توثيقها وإتاحتها للاطلاع بشكل دائم.

إن التفكير المتأني فيما يُمكن أن يقال وما ينبغي أن يقال، وكيف يجب أن يقال، ليظهر جلياً عندما تكون سجلات المقابلات مُعدة خصوصاً لأغراض الأرشفة، وذلك لأن الرواة سوف يسعون لإعداد حكاياتهم لتقديمها لجمهور عام غير معروفة هويته تحديداً. ولهذا الوضع نتيجة ذات حدين. فمن جانب، قد يُثمر ذكريات أكثر دقة وأوصافاً أكثر استيفاءً للتفاصيل إذا أخذ الرواة الوقت الكافي لإنعاش ذاكرتهم عن طريق مراجعتهم للوثائق القديمة، و/أو مراجعتهم لغيرهم من الأفراد الذين عايشوا نفس الأحداث. ومن جانب آخر، كذلك، قد يُثمر هذا الوضع المزيد من "الكلام المُعَلَّب" أو يُثمر بياناً مصاغاً بمزيد من العناية يكون مفعماً بمعانٍ ضمنية واسعة لما يُقال. (Wilmsen, 2001, p. 72).

فالمقابلات التي تتم مراجعتها وتفتيحها، وتصبح معدة للحفظ في الأرشيف، تطرح بدورها مجموعة من التحديات.

إن قيامك بتحليل بياناتك، وتفسيرها، وكتابتها في صورتها النهائية هو جزء من عملية بناء المعنى. وإن تقديمك لنسخة مُعدّلة/ أو مُنقّحة للتقرير النهائي للبحث يُمكن أن يكون مساوياً لإنتاج المعنى نفسه – أي مساوياً لخلق المعرفة. وعلى ذلك يكون التحرير (أي تنقيح التقرير وتعديل بعض عباراته وصياغاته) مُرتبطاً ارتباطاً تاماً ببناء المعنى (ويلمسن، ٢٠٠١). وأنت بوصفك الباحث، كيف ستقوم بتحرير سجل المقابلة؟ هل "ستظفه تماماً" من كل ما يتصل بالوقفات (أي اللحظات التي تَوَقَّف فيها الراوي عن الكلام)، والهمهمات، والتعبيرات المتكررة: كقول الراوي "مثل كذا" (*)، وغير ذلك من

(*) من الطبيعي أن اللوازم الكلامية، والزوائد، والألفاظ التي تتردد أثناء الكلام تختلف في لغتنا العربية، خاصة لغة الحياة اليومية (أو العامة)، عن تلك المألوفة في المجتمع الأمريكي أو الإنجليزي. فتتردد في لغتنا اليومية لوازم وزوائد من هذا النوع مثل: لا مؤاخذه، واخذ بالك، خت لي بالك، معايا، فاهمني، أصل...، أوم إيه (ثم، عندئذ)... إلخ. ومن ذلك إنهاء العبارة أو الجملة بتساؤل، لا ينتظر المتحدث سماع الإجابة عليه، ويسارع هو نفسه بالجواب: "دخلت لقيت مين؟ .. لقيت أخوك ومراته".

وهناك لوازم وزوائد تتردد في مناسبات كلامية بصفة شبه دائمة، بمعنى أنها ذات درجة انتشار أوسع. من ذلك:

• عند ذكر المرض: بعيد عن السامعين.

الأساليب غير الرسمية (أو غير الفصيحة) التي يتكلم بها الناس؟ وهل ستقوم بتصويب الكلام حسب قواعد اللغة؟ وهل ستغير من خصوصيات تعبيرات الرواة اللغوية، وإن فعلت ذلك، فما هي الدلالات الضمنية التي يحملها هذا التصرف فيما يتصل ببناء المعنى؟ وهل ستلغي أو ستضيف علامات التأكيد حتى توصل المعنى؟ فإن فعلت ذلك، فهل يكون هذا المعنى مستمداً من منظورك، أم من منظور الراوي، أم من واقع تفسيرك أنت للمعنى الذي يقصده الراوي؟ وكيف يتأثر كل ذلك باعتبارات الطبقة الاجتماعية، والعرق، والنوع الاجتماعي، وغير ذلك من السمات المميزة؟ وبتعبير آخر، ما هي دلالات وأبعاد أي تغيير في قواعد اللغة التي تكلم بها أحد الرواة من خلفية اجتماعية اقتصادية دنيا؟ وما هي الدلالات الضمنية في تغيير، أو إضافة تفسيراتك الشخصية للكلمات العامة، والتي قد تكونُ مُحصلة الخلفية الإثنية وغيرها من السمات الاجتماعية الأخرى؟ فهذه كلها اعتبارات يتعين على الباحث مراعاتها عندما يتصدى لتحرير سجل المقابلة (أي : لمدى إحداث تعديلات وتغييرات في شكل سجل المقابلة). ويُحذَرُ ويلمسن (٢٠٠١) من أن هذه الاختيارات تتدخل مع القوة الاجتماعية - أي مع القوة القادرة على بناء المعرفة ونشرها.

يتمثل أحد الملامح المهمة للعلاقات الاجتماعية الموجودة في مقابلات التاريخ الشفاهي؛ يتمثل في علاقات القوة القائمة بين الباحث الذي يجري المقابلة والراوي (المبحوث). ذلك أن اعتبارات النوع الاجتماعي، والطبقة، واعتبارات العرق وغيرها من الاعتبارات الاجتماعية تتدخل بالتأثير في كل موقف من المواقف التي تتضمنها المقابلة بدرجة كبيرة أو صغيرة. فهي تؤثر على عملية التحرير من خلال إدراك الراوي (المبحوث) وإدراك الباحث/المحرر لما بينهما من أوجه التشابه وأوجه الاختلاف في المكانة الاجتماعية،

• عند ذكر شيء وضيع (كالخذاء) لامواخذة، أو اسم الله على مقامك.

• عند ذكر شخص بالخير: ما يتخيرش عن سيادتك.

• عند ذكر شيء فظيع كالموت أو الجن: اللهم احفظنا، أو الاستعاذة بالله، أو البسملة... إلخ.

للمزيد انظر: محمد الجوهري وزملاؤه، معجم لغة الحياة اليومية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠٠٧ (المراجع).

وهي التي تشكل بدورها تصورات كل منهما لدوره. وتتمثل أهمية ذلك بالنسبة لعملية التحرير في الطريقة التي يتم بها نسج (أو تضفير) علاقات القوة بالخبرة المختلفة بالكلمة المكتوبة. وإن الرواة ذوي خبرات مختلفة بالكلمة المكتوبة، وبالعالم النشر، وبأرشيفات البحوث، وبالمكتبات... إلخ؛ كل ذلك يؤثر على طبيعة القرارات التحريرية التي تتخذ، وعلى تحديد الشخص الذي يتخذها، وتحديد سبب اتخاذها. (ص ٧٥).

وكما هو الحال في سائر الاختيارات التي يتبناها الباحث عند تفكيره في مراحل التفسير وكتابة التقرير بنتائج البحث، فإن التحرير مجال مهم يجري فيه إنتاج المعنى. لذا يتوجب على الباحثين المهتمين بالفكر النقدي وتأمل الذات (الانعكاسية) أن يدخلوا في حُسابهم القضايا المتصلة بالاختلافات بينهم وبين المبحوثين، وعلاقات القوة المؤثرة في البحث كجزء من الممارسة الأخلاقية.

إن مدى اتصاف عملية البحث بالطابع التعاوني سوف يؤثر هو الآخر على عملية التحرير. فإن كان الراوي مشتركاً في عملية التفسير فمن المرجح أنه سيكون له تأثير على الباحث أثناء تقليب النظر والتفكير. وبتعبير آخر نقول: عند مراجعة سجل المقابلة بما فيها من بيانات خام، فإن من المرجح جداً أن الراوي سوف يتذكر أموراً كان قد نسيها في وقت إجراء المقابلة وقد يريد إضافتها عند المراجعة. كذلك قد يريد الراوي أن يطور أجزاء من سجلات المقابلات أو ينقحها. ونحن نحتك، كجزء من السلوك الأخلاقي، على أن تطلع رُؤاتك على سجلاتك للحصول على موافقتهم وعلى إضافاتهم. ومع ذلك، فإننا نحذر من أن هذا الإجراء قد يثير - بطبيعة الأمر - ردود أفعال محتملة كثيرة. ولكن لب الموضوع هو أن درجة تأثير الراوي على عملية التحرير إنما ترتبط بقضايا السلطة التي سبق مناقشتها.

البحث الإثنوجرافي الذاتي

يستخدم الباحثون أنفسهم أحياناً كموضوع لبحوثهم. وبهذه الطريقة، يستطيع الواحد منهم أن يقوم بإجراء مشروع تاريخ شفاهي باستخدامه لنفسه كراوٍ/ أو قاص. مثال ذلك، أنك إن كنت مهتماً بخبرائك الشخصية الخاصة بك

وكيف تتخذ وضعها داخل سياق ثقافي معين، فقد يساعدك هذا الاتجاه (أي كتابتك عن نفسك) في تحقيق أهدافك. وكثيراً ما ينتفع الباحثون الكيفيون من البيانات الواردة في السير الذاتية التي يكتبها الفرد عن نفسه بطريقة ضمنية أو بطريقة صريحة علنية. ومن أمثلة ذلك أن الباحثين الميدانيين كثيراً ما يحتفظون بدفتر يوميات، أو بمفكرة يومية أخلاقية، أو مفكرة يومية يُسجلون فيها خواطرهم، ومشاعرهم، وانفعالاتهم وما إلى ذلك. (Tenni, Smyth, & Boucher, 2003, p.2). وبهذه الطريقة تكون البيانات المستمدة من السير الذاتية التي كتبها أصحابها جزءاً من عملية البحث. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تؤثر بعض وجهات النظر الفكرية والإستمولوجية على الباحث ليضمّن بحثه البيانات المستقاة من السيرة الذاتية بطريقة صريحة. وعندما يستعمل الباحث إستمولوجيا نقطة الاستشراف (وهي إحدى نظريات المعرفة التي تذهب إلى تعدد الحقائق- المترجم) وبالصورة التي صاغتها بها ساندرا هاردنج، ومما يعنى تبني "الموضوعية الصارمة"، فلا بُدَّ أن يكشف الباحث عن معلوماته الخاصة بسيرته الشخصية وعن مدى إسهامها في عملية بناء المعرفة. وتوجد أمثلة كثيرة للباحثين الذين يدمجون خبرتهم الشخصية في مشاريعهم، بما يتضمنه هذا التصرف من فرضهم لمفاهيمهم المستمدة من خبرتهم الحياتية الشخصية على بياناتهم، ويُعد البحث الإثنوجرافي الذاتي أسلوباً خاصاً من أساليب التاريخ الشفاهي يقوم فيه الباحث -صراحة- ببناء المعلومات عن طريق استخراجها من تاريخ حياته الشخصي. كما نلاحظ -فضلاً عن هذا- أن كثيراً من الباحثين يمزجون كتابة سيرتهم الذاتية بالخيال القصصي أثناء كتابتهم النهائية لأبحاثهم الإثنوجرافية الذاتية. وهكذا نتيج هذه الطريقة للباحثين أن يُقرغوا جوانب عملهم في قالب روائي وأن يخلقوا شخصياتٍ روائية من عندهم.

يَبْدُ أنه لا يكفي القول بأن البحث الإثنوجرافي الذاتي هو مجرد مقابلة تاريخ شفاهي تجريها مع نفسك. إذ ثمة فارق رئيسي بين التاريخ الشفاهي والبحث الإثنوجرافي الذاتي. ويتمثل هذا الفارق في أن المقابلة التقليدية للتاريخ الشفاهي مبنية على الكلام (وهو السرد اللفظي الذي يتم تسجيله) بينما يكون

البحث الإثنوجرافي الذاتي مبنيًا على الكتابة (Maines, 2001, p. 109). ففي حالة استخدام المرء لنفسه بوصفه مصدر البيانات، تحل الكتابة محل الكلام (مينز، ٢٠٠١، ص ١٠٩). والكلام والكتابة نموذجان مختلفان تمامًا من نماذج الاتصال، ومن ثم فإنهما يؤثران تأثيراً عميقاً على البيانات المنتجة. فالناس يتكلمون بأسرع من قدرتهم على الكتابة، ويقدمون مزيداً من التفاصيل، كما يقل احتمال أن يمارسوا الرقابة على أنفسهم وهم يتكلمون (مينز، ٢٠٠١، ص ١٠٩). بالإضافة إلى ذلك، فإن أنماط الحديث، والإيماءات، ونبرة الصوت، وسائر الفروق الدقيقة الأخرى في عملية السرد التي سبق أن ناقشناها من قبل، يصبح لا وجود لها في عملية الكتابة التي يحتفظ فيها المؤلف بالسيطرة التامة وقد يضع فيها علامات التأكيد بطريقة تختلف عما إذا كان يتكلم. والآن بعد ما تأملنا الفارق الرئيس بين التاريخ الشفاهي القائم على دراسة سيرة الحياة التي يكتبها شخص آخر غير صاحبها والتاريخ الشفاهي القائم على السيرة الذاتية التي يكتبها الشخص عن نفسه، هيا بنا نتأمل بمزيد من التدقيق نوع عملية الكتابة التي تشكل البحث الإثنوجرافي الذاتي.

إن مصطلح البحث الإثنوجرافي الذاتي autoethnography يمكنه أن يعنى أموراً مختلفة اعتماداً على كيفية تطبيقه وعلى تحديد ما هي النظرية التي تُطبق عليه. ومع ذلك، فإننا في هذا البحث نركز على البحث الإثنوجرافي الذاتي كشكل عام جداً من أشكال التاريخ الشفاهي القائم على دراسة السيرة الذاتية.

يُشير مصطلح البحث الإثنوجرافي الذاتي إلى الكتابة عن الشأن الشخصي للكاتب وعلاقته بالثقافة. وهو جنس من أجناس الكتابة والبحث له طابع السيرة الذاتية، والذي يكشف للقارئ عن طبقات متعددة من الوعي (Ellis, 2004, p. 37 quoting Dumont, 1978).

تتوسع "إليس" استعمال هذا التعريف لكي توضح ثراء هذه الطريقة، وتوضح القابلية للتغير والاختلاف في أشكال العرض والتصوير التي يمكن لهذه الطريقة أن تنتفع بها، وهي الأشكال التي تتضمن الكتب،

والمقالات، والقصائد، والمسرحيات، والقصص الطويلة، وشتى أنواع العروض (كالبانثومايم والرقص الإيقاعي مثلاً).

لعلك تتساءل: ما هو البحث الإثنوجرافي الذاتي، وإجابتي المختصرة هي أنه: عبارة عن عناصر من البحث، والكتابة، والقصة، والطريقة التي تربط كل ما هو متعلق بكتابة السيرة الذاتية وكل ما هو شخصي بما هو ثقافي، وما هو اجتماعي، وما هو سياسي. وتقوم أشكال البحث الإثنوجرافي الذاتي بإبراز ما هو محسوس وواقعي من الأعمال، والعواطف، والتجسيدات، والوعي بالذات، والاستبطان (أي فحص المرء لأفكاره ودوافعه ومشاعره)، وهي الأمور التي يتم تصويرها في الحوار، والمشاهد، وخلق الشخصيات الروائية وحبكة القصة. وبهذا الشكل، يتطلب البحث الإثنوجرافي الذاتي استعمال ما هو مُتَّبَع في الكتابة الأدبية من أعراف ومصطلحات. (ص ١٩، من المقدمة).

وتتيح لنا هذه الطريقة استعمال خبراتنا، وأفكارنا، ومشاعرنا، وعواطفنا الشخصية كبيانات لمساعدتنا في فهم العالم الاجتماعي. ومن خلال هذا المنحى نكون قادرين على ربط قصص حياتنا الشخصية بالمجتمع الأكبر، والذي هو بمثابة ستارة المسرح الخلفية المنصوبة وراءنا والتي نعاش كل شيء ونحن أمامها. كما أن بإمكاننا أن نفرغ جوانب مشروعنا في قالب روائي من أجل بناء القصة التي نرويها. ويستطيع هذا النوع من البحث أن يكون مصدر قوة للباحث - المبحوث (أي: للباحث الذي يبحث حالته ويروي قصته الشخصية)، كما أنه يوقظ وعينا الذاتي بأنفسنا ويستنهض ملكة التفكير النقدي بداخلنا. إذا اتفقنا على ذلك، فإن المزايا الكامنة في هذه الطريقة تحمل بداخلها عيوبها ومثالبها الخاصة بها.

كما سبق أن أوضحنا، فإن عملية التاريخ الشفاهي تُعد عملية مرهقة عقلياً وانفعالياً. فعند إجراء مقابلة تاريخ شفاهي لا نستطيع أبداً أن نكون مستعدين استعداداً تاماً لما قد يفاجئنا به الراوي. كما أننا لا نستطيع أن نعد رواتنا الإعداد الواجب لكافة الانفعالات الممكنة التي قد تتدفق من جراء روايتهم لقصة حياتهم. ويصدق هذا الكلام علينا عندما نستخدم أنفسنا كموضوعات لبحثنا.

إن الانشغال مع ما يجري لنا لا بُدَّ أن يكون انشغالا بدنيا انفعاليا وعقليا. فمن خلال البدني والانفعالي خصوصا، نتحصل غالبا على المفتاح الأول الذي يدلنا على أن أمراً ما يحدث وأنه قد يكون جديراً بأن نسعى للكشف عنه. لذلك فإن ما نشعر به من ضيق، أو انزعاج، أو ضجر، أو حزن، أو إثارة، أو انتصار، أو رغبة متوترة، أو عيون ملتفة من الحائ والهرش أو إحساس بالهدوء والصفاء، نقول: إن أيّاً من هذه الأمور يُعد هو الآخر بيانات تنبهنا إلى أمرٍ ما. وقد تتسبب هذه العملية في إحداث درجة ما من الكرب مما يجعل من وجود مظاهر المساندة النفسية في المكان (كوجود أحد المشرفين، أو أحد الزملاء، أو إحدى جماعات المساندة) أمراً مهماً. (Tenni et al., 2003, p.3).

من الممكن أن تكون الانفعالات الحادة التي تظهر أثناء عملية البحث بمثابة علامات تدل على بيانات مهمة نحتاج إلى بلورتها وتجسيدها، ومحاولة فهمها. كما أن هذه اللحظات تمثل الأوقات التي قد نحتاج فيها لمساندة نفسية إضافية لأن الضغوط الموجودة في عملية البحث قد تكون أكثر مما نقدر على مواجهته بشكلٍ مريح وحدنا. وهكذا يقوم تتبع المرء لانفعالاته أثناء عملية البحث بكل من دور توفير البيانات ودور الإشارات التي يتلقاها الباحث والتي تدله على الطريقة التي يتبعها في معالجة عملية كتابة البحث الإثنوجرافي الذاتي. كما أن عملية تحليل البيانات قد تتطلب هي الأخرى مساعدة خارجية. ونظراً لأن المشرفين المشاركين في تقديم المساعدة للباحث في كتابة البحث الإثنوجرافي الذاتي يختلفون في أدوارهم عن الأدوار التقليدية في الإشراف والمبنية على التجرد والحياد المزعوم، فلا بُدَّ من الانتفاع بهم ومن إشراكهم في البحث (نتي وآخرون، ٢٠٠٣، ص ٣). فالفرد أو الأفراد الذين يُدعون لمساعدة الباحث في قياس هذه العملية وتفسير هذه البيانات لا بد من الانتفاع بهم في هذه العملية، وذلك لأن العملية تتصل - في نهاية الأمر - بحياة هذا الباحث، والذي قد يكون صديقهم أو زميلهم. ويستطيع الحوار الذي يجريه مع الباحث أطراف من الخارج (كالمشرفين أو الزملاء) (نتي وآخرون، ٢٠٠٣، ص ٣) يستطيع مساعدته في البقاء في حالة استقرار كما يساعده على تهدئة شيء من الهواجس التي تنتابه بخصوص صدق البحث والتي كثيراً ما تُثار

عندما يستعمل الباحثون بيانات شخصية. يضاف إلى ذلك أن بإمكان الطرف الخارجي -وبشرط أن يكون ملتزماً بهذا المشروع- أن يضيف قدراً من التركيب والتدقيق إلى عملية تحليل البيانات، فقد يتمكن من مساعدة الباحث على "الرؤية" بصورة أكثر اتساعاً، لأنه يزيد من قيمة هذه البيانات (بحسن الانتفاع بها)، كما يزيد من قيمة ما يظفرُ به الباحث من هذا المشروع فيما يتصل بوعيه بنفسه.

وبالإمكان كذلك أن يمثل البحث الإثنوجرافي الذاتي تحدياً لك، حيث إنك تعرض خبراتك الشخصية أمام "عموم الناس"، وقد تتعرض بسبب ذلك أيضاً للفحص و للتمحيص. معنى ذلك - بعبارة أخرى - أن هذه الطريقة تتطلب مستوى ما من القدرة على التعرض للنقد والطعن. وتبين لنا المؤلفة كارولين إليس كيف اضطرت إلى معالجة هذه القضية عندما قامت بكتابة بحث إثنوجرافي ذاتي. فهيا بنا ننضم إلى "إليس" حيث نلقى نظرة من خلف الكواليس على الظروف الواقعية لمواجهة هذه العملية.

خلف الكواليس مع كارولين إليس

بعد مرور أكثر من عقد على كتابة ونشر قصة بحث إثنوجرافي ذاتي مع زوجي آرت بوشنر Art Bochner عن حالة إجهاضٍ حدثت في وقت مبكر من علاقتنا الزوجية، تلقيت هذه الرسالة الإلكترونية من أحد أساتذة الجامعات، الذي جعل من قصتنا واجباً دراسياً لأحد الصفوف الدراسية الجامعية. حيث قال في رسالته الإلكترونية: "لقد أتحتُ للطلبة الفرصة للكتابة عن هذا البحث. فهل تحبين أن تغرفي ماذا كتبوا؟ فقلتُ نعم، وذلك رغم أنني شعرتُ ببعض القلق عندما وصلتني الردود في اليوم التالي.

يبدأ الأستاذ المساعد رسالته الإلكترونية بالآتي:

سُئِلَ الطالبة أن يكتبوا عما يشعرون به أثناء قراءتهم لتقرير هذا البحث. وكان هذا الطلب اختيارياً، فإن كثيراً من الطلبة أشاروا إلى أن التقرير كان شديد التحريك للمشاعر، وقد كنت راعباً في توفير متسعٍ لهم يستطيعون

أن يُعبروا فيه عما يشعرون به فعلاً. لذلك قرر عدد منهم أن يرسلوا إلى رسالة إلكترونية بينما تحدث معي آخرون خارج قاعة الدراسة.

وأثناء تصفحي لباقي الرسالة، لاحظت أن التعقيبات استغرقت ست صفحات. أخذ نفساً عميقاً وأقرأ. أما المستجيبة الأولى فتوجّه رسالتها لآرت ولي، وتصف هذه القصة بأنها مؤثرة جداً في تحريك المشاعر. وهي تحب هذه الصراحة في التعبير عن الانفعالات وفي طرح الأفكار الداخلية. ومع اعترافها بأنها بكت عدة مرات أثناء قراءتها لهذه القصة؛ فإنها تشكرني على تصوير هذا الاضطراب الشديد والواقع الحي والانفعالات المختلطة المرتبطة بالحمل والإجهاض. وتمضي قائلة:

مع أنني لم أعيش فعلاً ما عايشته، إلا أنني لا أظن أنه بوسعي أن أفهم أو أشعر بالواقع الحي للإجهاض بصورة أكثر وضوحاً مما قرأته في البحث. وبينما كان ينتابني الضيق وأنا أقرأ بعض أجزاء القصة، فإنني أرى أن الطريقة التي تم بها تصوير هذا الموضوع المحظور كانت حافلة بالمعلومات ومفيدة. فقد كان من الضروري أن تجعلني القراء يشعرون بالقلق لتوصيل هذه الانفعالات التي تشعرين بها إليهم.

وهي تطرح بعض الأسئلة:

ما الذي جعلك تختارين هذه الخبرة الشخصية الحميمة لتتقاسمها بصراحة مع هؤلاء الناس الكثيرين جداً؟ وبعيداً عن تخصصك العلمي الجامعي، ماذا كان غرضك من الكتابة عن موضوع الإجهاض؟ ذلك أن قليلاً من الناس من يهتمون بالاعتراف بخبرتهم، ناهيك عن الكتابة عنها. وقد تساءلت كذلك عن مدى تأثير هذا الإجهاض على علاقتك بوالد الطفل؟ لقد أخبرنا أستاذنا بأنكم لا تزالان مرتبطتين معاً، ولكن هل قوى هذا الإجهاض حُبَّ كل واحد منكما للآخر، أم تسبب في إحداث بعض العقبات التي يتعين عليكما التغلب عليها؟ وما هي وجهات نظركما الحالية عن الإجهاض، هل ترون الآن تلك الظروف - التي مرت بكما - بنفس الطريقة بعد مرور هذه السنوات؟

أشعر الآن براحة نفسية وبسرور. فهذه الطالبة تُبدي فهماً لما كنا نحاول القيام به في هذه القصة، وتُبدي تعاطفاً معنا بسبب صعوبة الاختيارات التي أثرناها. وفي أثناء تفكيري العميق في الإجابة على أسئلتها، وقعت عيناى على كلمة الوالد، وتقلصت معدتي لا إراديا. وانتقلت إلى أسئلتها. إن جزءاً من نفسي يريد أن يتحاشى الكشف عن أي شيء يتصل بعلاقتي الحالية بوالد الطفل، وجزء آخر يرى أن الطالبة تستحق تجاوباً مهذباً وعميقاً. أكتب لها على عنوان بريدها الإلكتروني، وأشكرها على تجاوبها الذكي والمتعاطف، أرد عليها بالكلمات التالية:

لقد كتبنا هذا البحث أساساً لنعمل على دعم واستمرار علاقتنا الشخصية ونتجاوز الألم الذي تسبب فيه قيامي بالإجهاض. وإنني لسعيدة إذ أقول إننا ما زلنا نحظى بعلاقة رائعة، الآن وبعد انقضاء عشر سنوات، وأقول لك إن الكتابة عن هذه الخبرة قد قربتنا من بعضنا بشكل أوثق.

إننا قد نتخذ الآن - لو أتاحت لنا الفرصة - قرارات مختلفة أشد الاختلاف عما فعلناه آنذاك. ولكني الآن أحاول ألا أسمح لنفسي أن أفكر في رأي مختلف عن ذلك الذي اتخذناه سنة ١٩٩٠. فقد بدا ذلك القرار هو الأفضل ساعتها. إنني أشعر شعوراً مختلفاً جداً إزاء إقدامي على الإجهاض الآن، ولو فرض أنني كررته اليوم لعانيت من صعوبات شديدة، هذا على الرغم من أنني لا أزال أرى أنه ينبغي أن يكون للنساء الحرية في الاختيار، كما أنني أرى أنه ينبغي علينا محاولة تعليم كل إنسان أن يكون مسئولاً عن تصرفاته فيما يتصل بالحمل. فقد كنت أنا وزوجي نتمنى أن نرزق بطفل، إلا أننا لم نلاحظ بفرصة أخرى لتحقيق تلك الأمنية. ومع ذلك فإننا سعداء كل السعادة بأسرتنا المكونة من أربعة كلاب.

ثم أتابع القراءة حتى أصل للتعقيب الثاني. فهذه الطالبة ترى أن هذه المقالة ترسم صورة غنية بالانفعالات العميقة، كما أنها تُقدر تقديراً عالياً سماع ما يقوله هذا الرجل المشارك في هذه الخبرة، فإنها تشعر بوصفها قارئة أنها لا تستطيع أن تقوم بمدخلة في هذه القصة إلا بصفة جزئية، نظراً لأن قصة كل شخص تختلف كل الاختلاف عن قصة الآخر. وهي تعترض على إشارتي

للحمل بوصفه مشكلة، وتفسر موقعي ذاك بما معناه أنني لم أكن مُهيأة لأن أكون أماً.

وأواصل القراءة. إن التعقيبات تزداد سلبية، وإنني لأتساءل عما إذا كان الأستاذ المشرف على هذا الصف الدراسي قد نظم هذه الإجابات بهذا الأسلوب التدريجي ليخفف من شدة الضربة. فإن يكن الأمر كذلك، فإن تصرفه هذا لا يبدو أنه نجح في إحداث أثره المطلوب. وبدون التوقيع بالاسم، يُقرر الطالب الثالث (أو الطالبة الثالثة) أنها من أنصار الحياة (أي ممن يرفضون الإجهاض) وأنها وجدت أن قراءة هذه المقالة صعبة جداً. وتُقدر هذه الطالبة تقديراً عالياً سماعها لوجهة نظر الأب وتتعاطف مع آلام المرأة، فإنها تجد أن من المزعج أن تقرأ عما عاناه هذا الوليد (الجهيـض)، مع إشارتها إلى أنها تحب الأطفال الصغار حباً شديداً جداً.

يُعرّف الطالب الرابع نفسه بالاسم ويقول إنه استطاع أن يشعر بكل انفعال وبكل نوع من الألم البدني طوال قراءته المقال. وهو يتساءل: ماذا كان يحدث لو أن والديّ هما اللذان اتخذوا قراراً مثل ذلك القرار؟ وماذا كان يحدث لو أنني كنتُ عبثاً عليهما؟ ويتساءل كيف استطاع "تيد" Ted و "أليس" Alice (وهما الاسمان اللذان سمّينا بهما أنفسنا) كيف استطاعا أن يقدرا على النظر إلى نفسيهما في المرأة بعد ما اقترفاه من أفعال. وهو يقول إنهما، ومعهما الطبيب (الذي أجرى عملية الإجهاض)، كانوا يخادعون الله. ويعترف في نفس الوقت بأنه يفهم إلى أي مدى كان هذا القرار قاسياً عليهما، وإلى أي مدى اقتلع هذا القرار القلوب من أماكنها، وإلى أي مدى استنزف مشاعرهما.

الآن يراودني شعور بالتردد. فإنّ من الصعوبة البالغة أن أقرأ هذه الأفكار عن "آرت" وعني، وهي الأفكار التي لا يقولها الناس لك في وجهك عادة. ومن المؤكد أنني لا أرى نفسي على هذا الذي يروني به. أخذ نفساً عميقاً وأواصل القراءة. ثم أتبين أن آخر تعقيب هو أشد التعليقات انتقاداً. وعلى الرغم من أن الطالب الذي كتبه لم يقل أنه فتى، فإنني أظن أنها إجابة صادرة من رجل. وحيث إنه شخص كاثوليكي مناهض للإجهاض، ومتدين، فقد هاله تلك الاستهانة بالحياة الإنسانية وكذلك عجز أي إنسان عن رؤية هذا

الوضع انطلاقاً من وجهة نظر الطفل الجهيض. ويواصل كلامه قائلاً: لقد اتخذ قرار الإجهاض التماساً للراحة. إذ يبدو أن كليهما (الزوج والزوجة) بلغ بهما الاستغراق الشديد في ممارستهما لعلهما حداً منعهما من مواجهة الظروف التي خلقاها لأنفسهما. وتستمر المناقشات على امتداد فقرات عديدة، وتنتهي بقوله: "إن سلب هذه الحياة هو جريمة قتل".

إنني أرتجف إذ أصل إلى نهاية التعليقات. أريد أن أصرف النظر عن هذه التعليقات، ولكني، وبطريقة مشابهة لما فعلته في تجربتي الفعلية للإجهاض، أدفع نفسي وأحثها على مواجهة هذه التعليقات. أنا أعلم أن الناس تصدر منهم ردود الأفعال بهذه الطرق، ولكن علمي بهذه الحقيقة لا يخفف من ألمي لرؤية هذه الإدانة منشورة بهذا الشكل الواضح، وهو ألم يشكل جزءاً من ثمن كتابة بحث إثنوجرافي ذاتي كتابة عميقة المعاني أمينة العرض.

بعد أيام قليلة، يصلني تعليق آخر من طالب آخر في هذا الصف الدراسي. أشعر بارتياح نفسي عندما يروي قصة - لا أن يُدين - وتحدث هذه القصة عن تجربة مرّ بها الطالب كاتب هذا التعليق، وهو فتى في السادسة عشر، والذي ظن أن صديقته حامل. ولما كان قد أقنعها بإجراء عملية إجهاض، فإنه يتعاطف بصفة خاصة مع "أليس". وأنا لا أستريح لتعاطفه هذا.

أكتب رداً على هذا المعلم وأشكره على إرسال هذه التعليقات. أعترف أن هذه التعليقات كانت مؤلمة، إلا أنني أضيف أنني رحبت بالألم كجزء من الخبرة المعاشة، وهو رد فعل حقيقي إلا أنه بلا شك - رد فعل ناجم كذلك عن انشغالي بالألا يتسبب إرسال هذا المعلم لهذه الرسائل الإلكترونية لي في شعوره بتأنيب الضمير. وإني لأتساءل: كيف هو رد فعله على هذه القصة، وهو رجل متدين وحفيد لأحد القساوسة، وكيف تؤثر معتقداته الدينية على الطريقة التي تم بها إيصال هذه القصة للطلبة وتلقّيهم لها. وهل يتسبب كونه من المثليين بجعله أكثر تقبلاً لهذا النوع من التعقّد، أم لا؟ إنه لا يتكلم، وأنا لا أسأل. إنني أطلب منه فعلاً أن يشكر طلبته على تجاوبهم، وأن يُخبرهم أنني تعلمت مما قالوه. وعندما أضغط على مفتاح الكمبيوتر الأمر: "أرسل"، أتساءل عما يكون هذا الذي تعلمته فعلاً. وإني لأعلم من قبل أن الناس في العادة يكون لهم رد فعل واحد من ثلاثة ردود أفعال إزاء هذه القصة: حق

الحياة، أو حق الاختيار، أو رد فعل انفعالي مُركَّب يدمج الخبرة المعاشة لهذين الموقفين.

اكتب رسالة بريد إلكترونية إلى "آرت" أسأله عما إذا كان يريد أن يقرأ تعليقات الطلاب أم لا. لقد وجدت أن من المؤلم قراءتها، فأنا أحذره من ذلك. ورغم أنني لا أقول ذلك صراحةً، إلا أنني أخشى أن تكون هذه أشد إيلاماً له. يكتب رداً على رسالتي قائلاً أنه يود أن يرى هذه التعليقات. وبجانب اعترافنا بأنه كان من الصعب قراءتها، فإننا لا نناقشها، مُستعدين -بصورة موجزة- ذكرياتنا عن ذلك الصمت الذي عايناه بعد الإجهاض مباشرة، والذي كان أحد أسباب كتابة هذه القصة أساساً.

عندما يقرأ "آرت" الفقرة التي كتبناها قبل، يكتب على الهامش: أشعر بأنه لم يكن يوجد شيء أكثر من ذلك يمكن أن يقال عن هذه التعليقات. لقد شعرت بنوع من التوقف في ذاك الوقت، كما أعلم أن ذكرياتي ومشاعري متأثرة بدرجة كبيرة بحبي الهائل لك، وبما صرنا إليه معاً، وبذلك الشعور العارض بالفقدان بسبب افتقادي لوجود طفل لي. ولو وُجدَ الصمت، فإنه لم يكن من نفس نوع الصمت المُخدِّر الذي عايشته بعد الإجهاض، على الأقل ليس بالنسبة لي.

ولا هو كذلك بالنسبة لي، هذا ما يدور في خاطري وأنا أستبطن أفكارِي الآن.

وبعد وقت ليس بالطويل من وصول هذه التعليقات التي أرسلها الطالبة إلي، وصلنتي رسالة إلكترونية من كريستين كيسنجر، وهي طالبة سابقة، سبق لها - هي الأخرى - أن استفادت بقصة الإجهاض هذه في جزء من دراساتها عن العلاقات الإنسانية والتي تتلقاها في الصف الدراسي الجامعي الخاص بمادة "مدخل للاتصال". وتتساءل قائلة: أتحبين أن تعرفي ماذا قال زملاؤها؟ وأجيبها بأنني أود معرفة ذلك. تكتب قائلة أن قراءتهم لقصة الإجهاض حدثت قبل ذلك في سياق قراءتهم لأبحاث إثنوجرافية ذاتية أخرى، بما فيها البحث الذي كتبته عن رعايتي لأمي، والذي أسميته روابط الأمومة. وقد بحث الطالبة الطريقة التي اتبعناها أنا و"آرثر" في التغلب على أزمة علاقتنا، مُركزين على

كيفية إحساس الشريكين كليهما بمسألة الاختيار كقيد عليهما معاً، وعلى الحداثة النسبية لهذه العلاقة (التي لها عشرة أسابيع) وإلى أي مدى أثرت على هذا القرار. وبالإضافة إلى ذلك ناقشوا ما أحسَّت به كلتا هاتين الشخصيتين من مشاعر متضاربة في كثير من الأحيان - وهم يعلمون أنك ستتتبعين، حال كونك تدلّكين بطنك، إلى العلم بأن شيئاً ما حياً يوجد بالداخل -- وتمثل هذه المشاعر المتضاربة في ذلك الشد القائم بين تخيل ولادة طفل وتربيته، وبين ما يصاحب هذا التخيّل من حاجة إلى/ أو ضرورة اتخاذ قرار بالقضاء على حياته. وقالت إن الطلبة لم يكونوا مقتنعين بأن "تيد" Ted كان يرغب في إنهاء ذلك الحمل، وأنهم كانوا متعاطفين معه وجدانياً رغم ذلك، فضلاً عن إعجابهم بموقفه المساند لآليس.

عندما كتبتُ بحث "روابط الأمومة" بعد خمس سنوات من قصة الإجهاض، تكلمت عن الرغبة في أن يكون لي طفل. وقد شعر طالبة "كريستين"، فيما بعد، أنني ندمت على اتخاذي لقرار الإجهاض. وقد أدى ذلك، كما نقول "كريستين"، إلى قضاء وقت ممتع جداً في مناقشة هذا الموضوع ضمن الصف الدراسي. ووفقاً لتفسير "كريستين"، فإن طالبة واحدة فقط هي التي كانت متحمسة لتأييد قرار إنهاء حياة الجنين، وهي طالبة "سارة"، والتي عرفت نفسها بأنها ذات نزعة نسوية، والتي تتضمن فلسفتها ميلاً لتأييد موقف حرية الاختيار. وكانت هذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها بالتمزق، وهذا ما نقوله "كريستين"، وذلك لأن سارة كانت تفكر فيك كأحدى الشخصيات الواردة في البحث المعنون روابط الأمومة والتي رغبت فيما بعد في ولادة طفل... وقد أزعجها أن تتصور أنك قد تكونين عانيت من شعور دام مدة طويلة من الندم أو الألم الناجم عن اختيارك إنهاء حياة الجنين.

وفي أثناء هذا الفصل الدراسي، كتبت كريستين إليّ بعد ذلك، وكان من شأن ذلك أن ظهر اسمانا كثيراً نظراً لأن الطلبة كانوا يكافحون لتأييد بعض القضايا العسيرة التي تدور حول العلاقة الحميمة: ماذا تظنين أن "آرت" وكارولين كانا يريدان أن يفعلاه في هذا الظرف؟ وهذا هو السؤال الذي بدأ به هؤلاء الطلبة. ونقول "كريستين" إن الموقف بدا كما لو أن الطلبة قد اندمجوا فعلاً مع "تيد" و "آليس" بوصفهما زوجين مرتبطين برابطة في غاية الوعي

والإدراك، وذات قدرة بالغة على التواصل. أي أنهما زوجان قد يكون لديهما من الرؤى والأفكار التي من شأنها مساعدة الآخرين في التقدم وتطوير علاقاتهم الشخصية. وبينما كنت لا أرغب - إلا قليلاً - في أداء دور النموذج الذي يقتدي به الآخرون، فإن رسالتها ذكرتني بفائدة هذا البحث كوسيلة تعليمية وكموضوع للمقارنة يُستخدم في مناقشة موضوع أوسع، هو: كيف نعيش الحياة.

ملاحظات: انظر، "الإثنوجرافي"، العدد الأول: قصة روائية بحثية عن البحث الإثنوجرافي الذاتي (C. Ellis, 2004, Walnut Creek: Altamira Press) وهو المصدر الذي استخرجنا منه هذه القصة بالذات، لمن يريد الحصول على مناقشة أوفى لهذا الموضوع. وبالنسبة للقصة الأصلية، انظر: (Ellis C. and Bochner, A.P., 1992)، حيث يحكيان ويناقشان بعض القصص الحقيقية عن: القيود المفروضة على اختيار الإجهاض. وانظر الكتاب المعنون: "الدراسة المتعمقة للذاتية". بحث عن بعض الخبرات المعاشة، حرَّره كل من سي. إليس و إم. فلاهرتي، المحرران (صفحات من ٧٩-١٠١) (*).

ومذكور في هذا الكتاب كذلك: البحث الذي كتبه إليس، سي. (١٩٩٦) بعنوان "روابط الأمومة". كما ورد في الكتاب المعنون "تأليف البحث الإثنوجرافي: الأشكال البديلة للكتابة الكيفية" (**). تحرير سي. إليس وإيه. بوشنر (صفحات من ٢٤٠-٢٤٣).

خاتمة

هكذا تبين لك أن التاريخ الشفاهي طريقة بحث مرهقة، ولكنها مثمرة وقابلة للتغيير. وهي مفيدة - على وجه الخصوص - في جمع البيانات المستمدة من وجهة نظر أولئك الذين ظلوا مهمشين في العادة داخل هذه الثقافة، وأولئك الذين تم استبعادهم عن فرصة عرض أحوالهم وتقديمها. وبهذه

(*) Investigating Subjectivity: Research on lived experience, C. Ellis and M. Flaherty (Eds.), Newbury Park, CA: Sage.

(**) Composing ethnography: Alternative forms of qualitative writing.

الطريقة، يتيح التاريخ الشفاهي للرواة أن يرفعوا أصواتهم مطالبين بحقهم في سياق يُمكنهم من هذا الحق ويعترف بخبراتهم الحياتية القيمة كمصدر مهم من مصادر المعرفة. كما يُعد التاريخ الشفاهي أداة ممتازة في تعيين موقع الخبرة الحياتية داخل سياق ثقافي معين. ويعني ذلك بعبارة أخرى، إن بالإمكان ربط القصص الشخصية بالذاكرة الجمعية، والثقافة السياسية، والقوة الاجتماعية، وما إلى ذلك، مما يُظهر التفاعل بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه.

إن التاريخ الشفاهي عملية ذات طابع تعاوني مبني على المشاركة يتوجب التفكير فيها بصورة كلية. فيجب بذل انتباه خاص للعلاقة القائمة بين الباحث والراوي، كما ينبغي اتباع الإرشادات الواضحة أثناء الحوار الذي يستهدف بناء الألفة، والتي يتعين مراجعتها طوال مراحل المشروع. ويحتاج الباحث - كما سبق أن أوضحنا - إلى أن يُدخل في حسبانهِ مصفوفة التاريخ الشفاهي: والمكونة من التفاعل بين طريقة البحث أو أداته، والاعتبارات الأخلاقية، والجوانب السياسية.

* * *

تعريف بالمصطلحات

• البحث الإثنوجرافي الذاتي Autoethnography

هو البحث، والكتابة، والقصة، وطريقة البحث، وهي العناصر التي تربط ما يتصل بعناصر السيرة الذاتية وما هو شخصي بالثقافي، والاجتماعي، والسياسي. وتقوم الأشكال التي يتجلى فيها البحث الإثنوجرافي الذاتي بإظهار عناصر الفعل المحسوس، والانفعال، والتجسيد، والوعي بالذات، والاستبطان، وهي الأمور التي تتجلى في صورة الحوار، والمشاهد، وخلق الشخصيات الروائية، وحبكة القصة. وقد تجمع البحوث الإثنوجرافية الذاتية بين الخيال والواقع.

• أبنية السرد Narrative Structures

هناك ثلاثة أساليب كبرى للسرد يواجهها الباحث في عملية مقابلة التاريخ الشفاهي: (١) الأسلوب المؤحد. (٢) والأسلوب المُفكَّك/ أو المجزأ، (٣) والأسلوب الحواري. ونودُّ أن نضيف إلى هذا التقسيم فئة رابعة، وهي

الفئة التي يسميها كوهلر - رايسمان بالسرد العَرَضِي. وكما هو الحال مع سائر أشكال السرد، فإن الطريقة التي يتبعها المبحوث في رواية قصته قد تكون متأثرة بدرجة كبيرة بعوامل شتى كالعرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي. وترتبط بهذه السمات المميزة اعتبارات التعليم، والعمل، ومحل الإقامة الجغرافي..

• Oral History

• التاريخ الشفاهي

هو طريقة بحث تقوم على إجراء مقابلات مفتوحة النهاية، والتي تجري على جلسات متعددة عادة. وفيها يهدف الباحث إلى إجراء مقابلة مع شخص للوقوف على قصة حياته، أو على جانب مهم من جوانب هذه الحياة. وهو طريقة بحث للمقابلات تتسم بدرجة عالية من التعاون والمشاركة، تكون ثمرتها قصة يشترك في خلقها الباحث والراوي.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- ناقش بعض الفروق وأوجه الاختلاف بين التاريخ الشفاهي والمقابلات المتعمقة.

٢- ما هي الطرق التي بها يكون التاريخ الشفاهي مفيداً للباحث وللمشارك في البحث (المبحوث أو الراوي)؟

٣- ما هي الدلالة/ أو الأهمية التي تنطوي عليها عملية بناء الألفة مع شريكك في البحث؟ وكيف يساهم توطيد علاقة طيبة بين الباحث والمبحوث في نجاح مقابلة التاريخ الشفاهي؟

٤- ما هي "السلطة المشتركة"؟ وكيف تبدو بصورة متميزة في التاريخ الشفاهي؟ وقد عرضنا عدداً قليلاً من الحالات التي لم تكن فيها المشاركة في السلطة مفيدة لعملية البحث. هل تتخيل حالات أخرى؟ وما هي بعض المشكلات التي يمكن أن تتجم عن ذلك؟

٥- استعرض بعض الأمور التي ينبغي على الباحث أن يُدخلها في حُسابه عند تقريره لما إذا كان سيستعمل استراتيجية تعاونية من عدمه؟ وما هي بعض الاعتبارات الأخلاقية التي لا بد أن يتنبه لها الباحث عند تقريره

- للمدى الذي سيصل إليه مشروع التاريخ الشفاهي كمشروع تعاوني؟ وما هي نوعية الإرشادات التي يمكن أن تساعد البحث التعاوني بشكل فعال؟
- ٦- كيف يساعدنا التاريخ الشفاهي في إحداث التغيير الاجتماعي، وكيف يمكن أن يدعم الحركات الاجتماعية النشطة على المستوى العام؟
- ٧- ما هو البحث الإثنوجرافي الذاتي؟ وما هي فائدة هذه الطريقة؟ وكيف يمكن تمثيل هذه البيانات بطريقة إبداعية؟ وإلى أي مدى تكون المساعدة/أو المساندة الخارجية مفيدة للباحث ولمشروع البحث في كتابة بحث إثنوجرافي ذاتي؟
- ٨- هل تعتقد أن العملية التعاونية التي تشكل جمع البيانات ينبغي أن تستمر أثناء مرحلتَي التحليل وكتابة التقرير التي يشملها مشروع البحث؟
- ٩- ما هي الأساليب التي بها يمكن للمجتمع أن يؤثر على الطرق التي يتبعها الفرد في رواية قصته، ولماذا يكون من الأمور المهمة أن يشارك الباحث في هذا الأمر؟
- ١٠- يمكن للتاريخ الشفاهي أن يكون مصدر قوة وتمكين لكل من الباحث والشخص المبحوث. بأي الطرق يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً؟
- ١١- إن كنت مهتماً، مثلاً، بالطريقة التي تتبعها المراهقات في استيعاب وتبني ما يسود المجتمع الأمريكي من صور الجمال الأنثوي في أنفسهن، فكيف يمكن لطريقة التاريخ الشفاهي أن تكون مفيدة بالمقارنة بطريقة المقابلة المتعمقة؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

• اللجنة العامة للأرشيفات والتاريخ

• The General Commission on Archives and History

<http://www.gcab.org/oral.html>.

هذا الموقع دليل واضح سهل الفهم لميدان مقابلات التاريخ الشفاهي. ويعرفك على خطوات عملية المقابلة، كما يزودك بنصائح مفيدة وقائمة مراجع بعدد من الكتب والمقالات العلمية.

- **How to Collect Oral Histories**

- كيف تجمع التواريخ الشفاهية

http://www.usu.edu/oralhist/ob_howto.html

يشرح هذا الموقع عملية تسجيل مقابلات التاريخ الشفاهي. كما أن له رابط بعدد من المواقع المفيدة التي تعالج عملية جمع التاريخ الشفاهي.

- **Oral History Interviewing** • مقابلات التاريخ الشفاهي

http://www.cps.unt.edu/natla/web/oral_history_interviewing.htm.

يقدم هذا الموقع دليلاً سهلاً يشرح خطوات العمل خطوة خطوة لفهم عمليات التاريخ الشفاهي وممارستها. وللموقع رابط يقدم عينة لصيغة الإذن، ونماذج لأسئلة المقابلة.

- **Center for the study of History and Memory**

- مركز دراسة التاريخ والذاكرة

http://www.indiana.edu/~cshm/oral_history.html.

لهذا الموقع روابط للتعريف بأساليب إجراء مقابلات التاريخ الشفاهي، وموارد تمويل بحوثه، والنشرات الدورية عنه، وعينات من نماذج الاستثمارات. وأكثر روابط هذا الموقع فائدة هو موقع تقنيات العمل، الذي يقدم وصفاً مطولاً لتقنيات التاريخ الشفاهي.

- **Center for Oral History**

- مركز التاريخ الشفاهي

<http://www.lih./su.edu/special/williams/index.html>

يقدم هذا الموقع قائمة مطبوعات، من بينها بعض المنشورات الإلكترونية. كما أن للموقع روابط مع بعض المشروعات، ونماذج الاستثمارات، ومع مواقع أخرى، وكذلك نشرته الدورية. والرسالة التي يسطع بها مركز ويليامز هي جمع وحفظ معلومات مهمة عن تاريخ ولاية لويزيانا المحفوظ فقط في ذاكرة الناس والمعرض للضياع إن لم يجمع. وتتم عمليات الجمع باستخدام تقنية تسجيل المقابلات على شرائط تسجيل.

http://www.asanet.org/public/IRBs_history.html

يحتوي هذا الرابط معلومات عن مقابلات التاريخ الشفاهي وشروط
حمايتها.

* * *

المراجع References

- Anderson, K., & Jack, D. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11-26). New York: Routledge.
- Botting, I. (2000). Understanding domestic service through oral history and the census: The case of Gran Falls, Newfoundland. *Feminist Qualitative Research*, 28 (1,2), 99-120.
- Candida Smith, R. (2001). Analytic strategies for oral history interviews. In J. Gubrium & J. Holstein (Eds.), *Handbook of interviews research: Context & method* (pp.711-733). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Crothers, A. G. (March, 2002). Bringing history to life: Oral history, Community research, and multiple levels of learning. *The Journal of American History*, 88.(4). Retrieved May 27, 2003, from, <http://www.historycooperative.org>.
- Dumont, J. (1978). *The beadman and I: Ambiguity and ambivalence in the field working experience*. Austin: University of Texas Press.
- Ellis, C. (2004). *The ethnographic I: The methodological novel about autoethnography*. New York: AltaMira Press.
- Etter-Lewis, G. (1991). Black women's life stories: Reclaiming self in narrative texts. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history*. New York: Routledge.
- Frisch, M. (2003). Commentary: Sharing authority: Oral history and the collaborative process. *The Oral History Review*, 30(1), 111-113.
- Frisch, M. (1989). *A shared authority: Essays on the craft and meaning of oral and public history*. New York: State University of New York.
- Kerr, D. (2003). We know what the problem is: using oral history to develop a collaborative analysis of homelessness from the bottom up. *The Oral History Review*. 30(1), 27- 45.
- Kohler-Riessman, C. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and society*, 1, 172-207.
- Leavy, P. (1998). Claire oral history session two transcript.
- Maines, D. (2001). Writing the self versus writing the other: Comparing autobiographical and life history data. *Symbolic Interaction*, 24(1), 105-111.
- Marshal Clark, M. (2002). The September 11,2001, oral history narrative and memory project: A first report. *The Journal of American History*, 89(2), 1-9.

- Minister, K. (1991). A feminist frame for the oral history interview. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history*. New York: Routledge.
- Portelli, A. (1991). *The death of Luigi Trastulli and other stories: Form and meaning in oral history*. Albany: State University of New York Press.
- Rickard, W. (2003). Collaborating with sex workers in oral history. *The Oral History Review*, 30(1), 47-59.
- Shopes, L. (2003). Sharing authority. *The Oral History Review*, 30(1), 103-110.
- Shopes, L. (1994). When women interview women-and then publish it: Reflections On oral history, women's history, and publi history. *Journal of Women's History*, 6(1), 98-108.
- Sitzia, L. (2003). A shared authority: An impossible goal? *The Oral History Review*, 30(1), 87-101.
- Slater, R. (2000). Using life histories to explore change: Women's urban struggles in Cape Town, South Africa. *Gender and Development*, 8(2), 38-46.
- Sparkes, A. (1994). Self, silence, and invisibility as a beginning teacher: A life history of lesbian experience. *British Journal of Sociology of Education*, 15(1), 93-119.
- Tenni, C., Smyth, A., & Boucher, C. (2003). The researcher as autobiographer: Analyzing data written about oneself. *The Qualitative Report*, 8(1), 1-12.
- Thomson, A. (2003). Introduction: Sharing authority: Oral history and the collaborative process. *The Oral History Review*, 30(1), 23-26.
- Thomson, A. (1998). Fifty years on: An international perspective on oral history. *The Journal of American History*, 85(2), 581-595.
- Williams, R. (2001). "I'm a keeper of information": History-telling and voice. *Oral History Review*, 28(1), 41-63.
- Wilmsen, C. (2001). For the record: Editing and the production of meaning in oral history. *Oral History Review*, 28, (1), 65-85.
- Wilson, A. (1996). Grandmother to granddaughter: Generations of oral history in a Dakota family. *American Indian Quarterly*, 20(1), 7-14.

الفصل السادس

مقابلات جماعات المناقشة المركزة

كما رأينا من الأمثلة البحثية المستمدة من عالمنا الواقعي مما أوردناه في الفصل السابق، فإنه يوجد قدر كبير من البحوث المتاحة عن الإنثا وصورة الجسد، وخاصة عند البيض من إنثا الطبقة الوسطى.

فدعنا نقلُ إننا بحاجة إلى بحث صورة الجسد عند الرجال. فما هي المشاكل الخاصة التي يشعر بها الرجال فيما يتصل بصورة الجسد؟ وهل يعاني الرجال من الاضطراب في صورة الجسد عندهم؟ فإن كان الأمر كذلك، فأَيُّ الرجال هم، وما هي الطرق التي يعانون بها هذا الاضطراب، ولماذا؟ وما هي الاهتمامات أو الشواغل التي تدور في خواطر المثليين، ولماذا يحدث ذلك؟ وهل المثليون أكثر وعياً بمظهرهم من الرجال الطبيعيين أم أنهم مختلفون عنهم من حيث الاهتمامات فقط؟ هل يرتبط تقدير النفس والهوية الجنسية بصورة الجسد في مجتمعات الرجال؟ وما المعايير التي يلتزم بها الرجال في تقييم أجسادهم؟ قد تكون هذه هي بعض الأسئلة التي توجه ما نقوم به من عملية بحث، وكما سوف نتشارك فيه بعد ذلك، فإن هذه الأسئلة هي من بين أسئلة البحث الذي نقوم باستكشافه في بحثنا الراهن. وكما هو الحال مع أي مشروع بحثي جديد، نود أن نبدأ بالقيام بمراجعة التراث المنشور في الموضوع لنرى ما هي البحوث المتاحة فعلاً في هذا المجال. وتدل مراجعتنا الأولية للتراث المنشور على أن ما أجرى من بحوث عن الرجال وصورة الجسد عدد قليل للغاية، وأقل منه عدداً ما أجرى من بحوث عن المثليين وصورة الجسد. والأمر هكذا، فقد تكون مقابلات جماعات المناقشة المركزة طريقة بحث مهمة للحصول على البيانات الكيفية الاستكشافية التي تستطيع أن تستقل بنفسها، أو أن تستخدم حينئذٍ في تشكيل البحوث في المستقبل، كالمقابلات الكيفية المتعمقة أو المسوح الاجتماعية الكمية.

وفي طريقة جماعة المناقشة المركزة، تتم مقابلة عدد من المبحوثين معاً، مما يجعل جماعة المناقشة المركزة متميزة عن طرق المقابلة التي تتم

بين باحث واحد ومبحث واحد، والتي كنا ولا نزال نناقشها حتى الآن. ذلك أن لجماعات المناقشة المركزة امتيازاً تتفوق به على غيرها من طرق البحث المتوفرة عندما يكون الباحث غير عالم بسائر القضايا التي تحيط بموضوع بحثه إذ تستطيع جماعات المناقشة المركزة أن تساعد الباحث على أن يقوم، وبطريقة استقرائية، ببلورة القضايا والأفكار والاهتمامات الرئيسية التي يستخرجها من مجموعة من المبحوثين في وقت واحد. وسوف تكون هذه البيانات ذات طابع كفي ومن ثم سوف تكون بيانات وصفية (حية وتفصيلية) وموجهة لفهم العملية الاجتماعية، مما يعطي الباحث عمقاً واتساعاً أفق في موضوع لا يُعرف عنه إلا القليل. وبتعبير آخر نقول: إن بالإمكان استعمال جماعات المناقشة المركزة للحصول على البيانات الاستكشافية المطلوبة. وهذا مثال واحد عن السبب الذي يجعل بالإمكان أن يستعمل الباحث طريقة جماعة المناقشة المركزة. بجانب ذلك، فإن جماعة المناقشة المركزة تُستخدم فيما هو أكثر من مجرد البحث الاستكشافي، وذلك بسبب ما يتوافر فيها من الصفات المتميزة الكثيرة التي تجلبها لعملية البحث. ولا يقتصر إجراء المقابلات الكيفية مع جماعات المناقشة المركزة على أنه مجرد مقابلة أفراد متعددين في وقت واحد، بل إنه يشكل اتجاهاً بحثياً ذا طابع خاص تماماً.

نبذة إيضاحية عن جماعات المناقشة المركزة

أخذت جماعة المناقشة المركزة في التبلور والظهور في أربعينيات القرن العشرين. (بتس Betts، وبارانوسكي Baranowski وهور Hoerr، ١٩٩٦)، وتُستعمل - حالياً - لتحقيق أغراض متنوعة في مجالات كثيرة مختلفة. وعلى الرغم من أن عالم الاجتماع الشهير روبرت ميرتون R.K. Merton استخدم طريقة جماعات المناقشة المركزة في خمسينيات القرن العشرين، فإن باحثي التسويق قد استخدموا جماعات المناقشة المركزة بأعلى المعدلات تاريخياً. ويرجع ذلك إلى أن طريقة جماعات المناقشة المركزة تُعد وسيلة اقتصادية (رخيصة) لجمع كمية ضخمة نسبياً من البيانات الكيفية

المستمدة من مبحثين متعددين^(١). فمن أجل أن تزيد الشركات من بيع منتجاتها، كثيراً ما تستخدم باحثي السوق ليجروا مقابلات جماعات مناقشة مركزة مع جماعات المستهلكين المستهدفة. وتُستعمل هذه الاستراتيجيات في تقييم مدى قبول الناس لمنتج معين، وذلك لمساعدة منتجات السوق الجديدة، وكذلك للمساعدة في الإعلان عن المنتجات الجديدة، والمنتجات القديمة، والمنتجات "المحسنة". وقد يواجه الباحثون الذين يُجرون هذه الأنواع من مقابلات جماعات المناقشة المركزة ضغوطاً غير معهودة "ليقوموا بدورهم" كزبائن يراقبون هذه الجماعات غالباً من وراء المرايا ذات الاتجاه الواحد^(٢). وكما سوف نعرف لاحقاً، قد تؤثر هذه الضغوط تأثيراً كبيراً على بناء هذه الجماعة وعلى مستوى مشاركة الباحث. وفي أبحاث السوق، كثيراً ما يتم تسجيل مقابلات جماعات المناقشة المركزة بالفيديو. (Puchta & Potter, 1999, p. 318). وتعتبر جماعات المناقشة المركزة طريقة فعالة في جمع البيانات في مجال أبحاث السوق لأنها تصلح لاستكشاف مشاعر الناس، وأفكارهم، وسلوكياتهم (Costigan Lederman 1990).

وبتحديد أكثر بيلور بريستول وفرن (Bristol and Fern 1996) ثلاثة أهداف مختلفة من أجلها تُستخدم جماعات المناقشة المركزة في أبحاث السوق وهي : (١) الهدف الإكلينيكي، و (٢) الهدف الاستكشافي، و (٣) الهدف الظاهراتي أو الفينومينولوجي. وتستخدم لتحقيق "الأهداف الإكلينيكية" من أجل "الكشف عما لدى المستهلكين من مشاعر، واتجاهات ومعتقدات، وآراء

(١) هامش للمؤلف: لا يعنى حديثنا هنا أن ترتيب عقد مقابلة جماعة مناقشة مركزة أسهل من ترتيب عقد مقابلة متعمقة. وربما كان العكس هو الصحيح - في الحقيقة - إذ قد يكون من الأمور بالغة الصعوبة تدبير موعد يمكن أن يكون مناسباً لجميع أفراد جماعة المناقشة. هذا فضلاً عن أن اختيار عينة الأفراد - أعضاء جماعة المناقشة - والاتفاق معهم من الأمور التي تمثل تحدياً قوياً لبحوث جماعة المناقشة المركزة.

(*) التي تسمح لمن خلفها بأن يرى من هم أمامها، بينما لا يستطيع من هم أمامها رؤية من خلفها، كما هو الحال في بعض مقار الشرطة ومكاتب التحقيق الجنائي والعيادات النفسية. (المراجع)

أساسية، وعن الأسباب اللا شعورية للسلوك" (بريستول وفرن، ١٩٩٦، ص ١٨٦). وعندما تُستعمل لتحقيق الأهداف الاستكشافية، وهي الأهداف التي يُبين فرن وبريستول أن مقابلات جماعات المناقشة المركزة ملائمة لها بصورة جيدة، فإنها تساعد على "إيجاد، وبلورة، وفرز الأفكار أو المفاهيم" (ص ١٨٦). وفيما يتصل "بالأهداف الظاهرية" فهذا الاستخدام يتم عندما يكون الباحث مهتماً "باكتشاف خبرات الحياة اليومية المشتركة للمستهلكين، كأفكارهم، ومشاعرهم، وسلوكهم" (ص ١٨٦).

كما تعد جماعات المناقشة المركزة طريقة شائعة في جمع البيانات ضمن بحوث التقويم (الأكاديمي) التي تجريها الجامعات وغيرها من المنظمات. فهي تستعمل عندما يكون برنامج من نوع ما في حاجة للتقويم للمساعدة في قياس درجة نجاحه، وجوانب قوته، وجوانب ضعفه، وللمساعدة كذلك في شرح طبيعة ما هو من البرامج واف بالغرض وما هو غير واف شرحاً كيفياً. مثال ذلك، أن البرامج التعليمية يتم تقويمها بصفة متكررة من خلال البحث القائم على جماعات المناقشة المركزة من أجل فهم فوائدها والعمل على تعزيزها. وتعتبر جماعات المناقشة المركزة مفيدة كذلك في تطوير محتوى البرامج الجديدة. وبالمثل تعد جماعات المناقشة المركزة طريقة فعالة في تقييم طائفة من برامج التدخل المبكر في عدد كبير من منظمات وهيئات الرعاية الاجتماعية (Brotherson 1994).

وتعتبر البيانات الكيفية المتحصلة عن هذه الطريقة بيانات مهمة، لأن بإمكانها مساعدتنا على بلورة فهم صحيح للمشاكل التي نتعامل معها هذه العائلات، والأفراد، والهيئات (برذرسون ١٩٩٤). كما تُستعمل جماعات المناقشة المركزة في تقويم القضايا والبرامج داخل النظام القضائي الجنائي (Matoesian & Coldren 2002). شاهد ذلك، أن ماتوسيان و كولدري (٢٠٠٢) يناقشان كيف استُعملت جماعات المناقشة المركزة للوصول إلى رؤية ثابتة لأحد برامج العمل العام في المجتمع المحلي. وفي تلك الحالة، استُعملت جماعة مناقشة صغيرة العدد تتألف من ثلاثة أعضاء من هذا المجتمع المحلي ومنسق كان عضواً في برنامج العمل العام المذكور.

وعلى امتداد العقود الثلاثة الأخيرة أخذ يتزايد استعمال جماعات المناقشة المركزة عبر فروع الدراسات والأبحاث الجامعية كعلم الاجتماع، وعلم النفس، ودراسات وسائل الاتصال، والتربية، والرعاية الصحية. ويُبين كيتزنجر (Kitzinger 1994) أن جماعات المناقشة المركزة تكون مفيدة -بشكل خاص- في الحصول على البيانات من جماعات السكان التي اعتاد الناس على الإشارة إليها بأنها جماعات "صعبة" (ص ١١٢). وقد يشعر هؤلاء الناس بأنهم غير آمنين على أنفسهم، أولم يُمنحوا حقوق المواطنة أو قد يكونون عازفين، على نحو آخر، عن المشاركة في البحث. والأمثلة على هذه الجماعات تتضمن آباء وأمهات المرضى بالإيدز، و متلقى المعونات من الجمعيات والهيئات الخيرية، ومتعاطي المخدرات، وغيرهم. وقد تصبح جماعات المناقشة المركزة أكثر قيمة في علم الاجتماع الطبي كوسيلة للوصول إلى جماعات السكان الموصومة فيما يتصل بطائفة من الموضوعات، مثل الخصوبة، والكوارث، والاكْتئاب، والسرطان (ص ١١٢). وبالمثل، فإن جماعات المناقشة المركزة أداة مهمة للوقوف على الخبرات والاتجاهات الموجودة لدى الجماعات المُهمشة وجماعات الأقليات، بما فيها الأقليات العرقية/أو الإثنية، والأقليات الجنسية، والنساء، والأطفال، والأفراد غير المُعترف بأهليتهم العقلية والجسمية، وما إلى ذلك من الجماعات المشابهة. وقد تكون القدرة على الوصول إلى "الأصوات المقهورة" جزءاً من الموجة الحديثة لما يقوم به الأساتذة الجامعيون من البحث والاستكشاف القائم على طريقة جماعات المناقشة المركزة، وهي الموجة التي تماثل الاهتمام المتزايد بوجهات النظر النسوية، والتعددية الثقافية، و المابعد الحداثية، والنقدية. وبصفة عامة، فإن الاستخدام الواسع النطاق لمقابلات جماعات المناقشة المركزة يدل على أن بإمكانها أن تكون جزءاً من الخطة البحثية لقطاع عريض من القضايا وجدول الأعمال البحثية.

تُمثل جماعات المناقشة المركزة خبرة عميقة لكل من الباحث والمشاركين في البحث (المبحوثين)، إذ يتولد عنها شكل فريد من البيانات. فهي تطلع الباحث الكيفي على أمور عن الحياة الاجتماعية كان من شأنها أن تظل مجهولة لولا تلك المقابلات. وفي هذا الفصل سوف نناقش طريقة جماعات المناقشة المركزة الكيفية بوصفها طريقة بحث وبوصفها مصدراً

البيانات. وسوف نناقش الأساليب المتعددة التي تستعمل بها عبر التخصصات العلمية المختلفة في خطط بحثية محدودة بطريقة واحدة، أو خطط متعددة الطرق البحثية. كما نناقش سبب شعورنا بأنها تمثل خبرة عميقة ومتميزة. ونناقش إسهامها في إثراء معرفتنا الشاملة. زد على ذلك، أنه بينما تعد جماعات المناقشة المركزة إحدى طرق المقابلة التي تشبه تماماً المقابلات المتعمقة ومقابلات التاريخ الشفاهي التي تعمقنا في تناولها في الفصلين السابقين، إلا أن جماعات المناقشة المركزة تعد ذات خصائص فريدة ومختلفة عن المقابلات المتعمقة. وكما سوف نرى، فإن مقابلات جماعات المناقشة المركزة تزودنا ببيانات لا يمكن مقارنتها بالمجموع الكلي للمقابلات الفردية المتعمقة أو مقابلات التاريخ الشفاهي. والآن سوف ننقل إلى مناقشة عملية جمع البيانات بوصفها مجهوداً فريداً. ونتبع ذلك بمناقشة تصميم البحث والاتجاهات متعددة الطرق، ونناقش أخيراً تحليل البيانات وعرضها.

الفارق بين مقابلة جماعات المناقشة المركزة والمقابلة المتعمقة

أثناء جمع البيانات: جماعات المناقشة المركزة كخبرة فريدة

ومصدر متميز للبيانات

عند التفكير في سبب رغبة الباحث في استعمال مقابلات جماعات المناقشة المركزة كجزء من خطة البحث في مقابل المقابلات المتعمقة التي تدور بين فردين (الباحث والمبحوث)، لابد من بحث الفروق بين هاتين الطريقتين من المقابلات الكيفية. ومع أن من الفروق الواضحة كون جماعات المناقشة المركزة هي الطريقة الوحيدة من طرق المقابلة الكيفية التي يتم فيها إجراء المقابلة مع عدد من المبحوثين في وقت واحد، فما هي أهمية هذا الفارق الفعلية فيما يتصل بأنواع الأسئلة البحثية التي تساعدنا جماعات المناقشة المركزة في الإجابة عليها وبالشكل الخاص للبيانات التي يتم توليدها من خلال جماعات المناقشة المركزة؟

تعتبر مقابلات جماعات المناقشة المركزة مختلفة اختلافاً جوهرياً عن المقابلات المتعمقة، لأن البيانات يتم توليدها في جماعة مكونة من الباحث والمبحوثين. فهي عملية دينامية قائمة على التفاعل بين أفراد متعددين. ويمكن

النظر إلى هذه الدينامية بوصفها مُنتجة "لحدثٍ معين" لا يمكن تكراره. وبتعبير آخر نقول: إن هذا التفاعل وهذا الحوار اللذين يجريان داخل أي جماعة معينة لن يُعاد إنتاجهما داخل جماعة أخرى حتى لو كان الباحث الذي يُجرى المقابلة هو نفسه. ويرجع ذلك إلى أن المبحوثين - حتى لو كان لديهم آراء واتجاهات وخبرات حياتية متشابهة - ليسوا مجرد أفراد يردون على القضايا التي يطرحها الباحث، بل يردون كذلك على بعضهم البعض ويتجاوبون مع القوة المحركة للجماعة ككل. وإن بإمكان نفس الباحث أن يُجري مقابلتين من مقابلات جماعات المناقشة المركزة تتناولان نفس الموضوع، ومع مبحوثين يتقاسمون خصائص مشتركة، ومع ذلك فإن هذه البيانات ستختلف لأنها أنتجت داخل حوار مختلف. وبالمثل، فإن الحوار يشجع أنواعاً من التواصل التي لا يُحتمل أن تجري في مقابلة متعمقة (والتي تظل بعيدة بصورة تكاد تكون تامة عن تناول البحث المسحي). وتُعد أشكال التواصل المذكورة مصدراً مهماً للبيانات كما يمكن أن تكون جزءاً مهماً من عملية بناء المعرفة، خاصة في البحث الكيفي.

إن أشكال التواصل التي تجري في الحياة اليومية، من قبيل: النواير، والدعابات والاستعمال الفضفاض للكلمات (التي تحتمل معاني كثيرة) قد تخبرنا بالكثير، إن لم يكن بما هو أكثر، عما "يعرفه" الناس. وبهذا المعنى "تصل جماعات المناقشة المركزة إلى ذلك الجزء الذي لا تستطيع الطرق الأخرى أن تصل إليه" - كاشفةً عن أبعاد من الفهم تظل في كثير من الأحيان عصيةً على أن تتوصل إليها طريقة المقابلة ذات الطابع التقليدي والقائمة على الحوار بين شخصين أو عن طريق الاستبيان (Kitzinger, 1994, p.109).

وقد يُنظر لجماعات المناقشة المركزة كحدث يجري فيه حوار ثري، ولكن رغم أن هذا الحوار دينامي لا يمكن التنبؤ بمساره، فإنه لا يجري بصورة تلقائية أبداً، بل يتم ترتيبه دائماً من أجل تحقيق أهداف البحث. وإن من الأهمية ألا نخلط بين البناء الحوارى لجماعات المناقشة المركزة والكلام الذي يجري بصورة تلقائية، وذلك لأن مقابلات جماعات المناقشة المركزة يتم بناؤها بمعرفة الباحث. وتتمثل السمة الجوهرية لجماعات المناقشة المركزة

أثناء جمع البيانات في أن دينامية الجماعة هي التي تبدأ في خلق القصة. وتبدأ القصة التي تقدمها هذه الجماعة بالسيطرة على إنتاج البيانات وتوجيه هذا الإنتاج. وتبعاً لذلك، فإن مقابلات الجماعات تُعتبر عزيمة الفائدة في تعيين وتمييز اللغة، والتعريفات، والمفاهيم التي يجد شركاء البحث (المبحوثون) أنها ذات معنى وهم يشقون طريقهم خلال ما يعايشونه من خبرات حياتهم اليومية.

يضمن العمل الجماعي أن تكون الأسبقية لما لدى المبحوثين من تدرّج هرمي لأهمية الموضوعات، ولما يخصهم من اللغة التي يتكلمون بها والمفاهيم التي يفكرون وفقاً لها، ولما يخصهم من أطر عقلية لفهم العالم. (Kitzinger, 1994, p.108).

وسيتضح من مناقشتنا لاحقاً أن إنتاج هذا النوع من البيانات، يجعل جماعات المناقشة المركزة أداة شائعة يزداد اللجوء إليها في تطوير أسئلة المسوح الاجتماعية. ورغم ذلك، فإن هذا الجانب من العمل مع الجماعات قد يكون شديد الجاذبية للباحثين الذين يعملون انطلاقاً من المنظورات الفكرية ذات المضامين السياسية كالنزعة النسوية ونزعة ما بعد الحداثة. وفي هذا الاتجاه، يُبين فراي Frey وفونتانا Fontana (١٩٩١) أن المقابلات التي تجري مع الجماعات تخفف من بعض الهواجس التي تتأب الباحثين الآخذين بما بعد الحداثة فيما يتصل بالوضع التدرجي القائم بين الباحث والمبحوث حتى في المقابلة المتعمقة. فالباحث -كما هو معهود- يحظى بامتياز أساساً بوصفه الطرف "صاحب السلطة". ولكن جماعات المناقشة المركزة تخلق البيانات المستمدة من الأصوات المتعددة، والتي تشترك معاً في خلق قصة ما. (ص١٧٨).

في الوقت الذي نشير فيه إلى سياق جماعة المناقشة المركزة كحدث، فإن الدينامية التي تتولد داخل هذه الجماعة يُطلق عليها مصطلح مفعول الجماعة. (Carey, 1994; Morgan 1996 & Krueger, 1993) ويُمثل مفعول الجماعة مصدراً مهماً وفريداً للبيانات، كما أنه يُعتبر السبب في كون البيانات المستمدة من جماعات المناقشة المركزة ليست مساوية للمجموع الكلي للبيانات المتحصلة من المقابلات الفردية.

إن ما يجعل النقاش الدائر في مقابلات جماعات المناقشة المركزة يفوق المجموع الكلي للمقابلات الفردية هو أن الأفراد المشاركين فيها يسألون بعضهم بعضاً كما أن كل واحد منهم يشرح موقفه للآخرين... ويُقدم مثل هذا التفاعل بيانات قيمة عن حجم الإجماع وعن مدى الاختلاف بين الأفراد المشاركين. (مورجان، ١٩٩٧، ص ١٣٩).

عندما يقول أحد المبحوثين تعليقاً يبدو أنه يدل على عدم موافقته على تعليقٍ قاله مبحوث آخر، فقد يدون الباحث ملحوظة بهذه الواقعة، مستخدماً إياها كعلامة يرجع إليها لاحقاً (Meyers, 1998, p.96)، وذلك من أجل توضيحها، وتدقيقها، والاستزادة من بحثها. ومع أن الاتفاق والاختلاف يُعتبران جانبين مثيرين للانتباه من جوانب بيانات جماعات المناقشة المركزة، وذلك بجانب أنهما يقومان بدور المثيرات الكامنة داخل هذه الجماعة والمؤدية إلى إنتاج البيانات؛ مع ذلك فإن هذه البيانات ليست الأنواع الوحيدة من البيانات التي يحققها لنا مفعول الجماعة تحديداً. ذلك أن المبحوثين قد يقومون أيضاً بتغيير آرائهم، أو بالاعتراض على ما سبق لهم أن كانوا يتبنونه من الاتجاهات والمعتقدات، أو يُعيدون التفكير في تصرفاتهم حينما يرون صورتها في مرآة الجماعة الأكبر.

وتأخذ البيانات الفريدة في التشكُّل والتبلور عندما يختلف الأفراد المشاركون مع بعضهم، وعندما يشرحون مواقفهم، وعندما يسأل بعضهم بعضاً، وكثيراً ما يفعلون ذلك وهم يناقشون مثلهم العليا الأصلية في ضوء أفكار جديدة ناجمة عن هذا الحوار. وكثيراً ما يُساعدنا هذا الشكل من البيانات على إيضاح - وكذلك مجادلة - ما لدينا من الافتراضات المُسلم بها والتي من الصعب علينا تمييزها، كما يصعب على السمك أن يميز الماء الذي يعيش فيه. ذلك أن من الأهداف الشائعة بوضوح لدى علماء الاجتماع خاصة هدف القيام بنزع الصفة البادئة (الطبيعية) عن المُسلمات البادئة عن البيئة الاجتماعية وذلك ببلورتها ومساءلتها. فحيث أن الثقافة تتحول إلى جلدٍ ثانٍ للكائنات الاجتماعية، فإن هذه العملية الخاصة بفهم الأفكار المعيارية والعادات الاجتماعية المعيارية تكون عملية على جانب كبير من التعقيد بالنسبة للباحث

ولشركاء البحث (المبحوثين). من هنا فإن هذا التحدي العام الذي يواجه العلوم الاجتماعية يمثل سبباً آخر لجعل جماعات المناقشة المركزة طريقة مفيدة في جمع البيانات، خاصةً عندما يكون الباحث مُشغلاً -بصورة واضحة- بدراسة القضايا التي يُسلم بها شركاء البحث.

وقد وجدت فرانسرز مونتيل Frances Montell (١٩٩٩) أن جماعات المناقشة المركزة طريقة شديدة الفعالية في تفسير المُسلمات الشائعة عن الجنس والسلوك الجنسي في دراستها عن النوع الاجتماعي، والسلوك الجنسي، ووسائل الاتصال الجماهيرية. إذ تنسب مونتيل إلى دينامية الجماعة التي تنشأ داخل جماعات المناقشة المركزة أنها تقوم بتعزيز النقاش الحافل بالمعلومات والذي يكشف عن المعتقدات التي تؤمن بها بعض النساء إيماناً شديداً ويطرحها للجدل.

من الممكن لأي فكرة يعبر عنها فرد واحد في أي جماعة أن تثير رد فعل من جانب الآخرين، كما أن المعلومات التي يتم إنتاجها يكون من الأرجح أن تصاغ داخل إطار من المقولات العقلية والمفاهيم التي في أذهان الأفراد المشتركين في المقابلة وليست المقولات و الفهوم التي في ذهن الباحث الذي يُجرى المقابلة. ويستطيع شركاء البحث (المبحوثون) أن يُساعدوا بعضهم في اكتشاف ما تعنيه هذه القضايا بالنسبة لهم، كما يستطيع الباحث أن يدرس بعناية طريقة أولئك المبحوثين في تلقي القضايا التي قد تكون مُبهمة أو غامضة. وهذا أمر مهم في دراسة الجنس والنوع الاجتماعي، لأن هذه القضايا يتم إضفاء الصفة البادئة (الطبيعية) عليها إلى درجة أن يصنع على المرء جداً أن يتعرف على أفكاره الشخصية التي سَبَقَ له أن آمن بها، ويصعب عليه أن يكون أكثر تسامحاً مع ما يُسلم به الآخرون من افتراضات. ويُتيح اتساع مساحة الأدوار المتاحة للنساء في مقابلات جماعات المناقشة المركزة، وذلك بصرف النظر عن الفصل الصارم بين القائم بالمقابلة والظرف الذي تجرى معه المقابلة؛ يُتيح اتساع الأدوار هذا للنساء أشكالاً من التفاعل يترجح أن تكشف عن الافتراضات التي يأخذنها مأخذ التسليم، وأن يضعنها موضع المسألة. (Montell, 1999, p. 49).

بالإضافة إلى ما قامت به مونتل من تشجيعها لشركات البحث (المبحوثات) على شرح ما يدور في أذهانهم من مسلمات، مع أخذها في الحسبان ما يتسم به موضوع البحث (وهو السلوك الجنسي) من طبيعة شخصية عموماً؛ استخدمت مونتل جماعات المناقشة المركزة كوسيلة لجعل هؤلاء المبحوثات أكثر تقبلاً لمناقشة ذلك الجانب الذي يتصف بدرجة عالية من الطبيعة الشخصية والحظر المفروض عليه اجتماعياً. ومع أنه قد يبدو للوهلة الأولى أن المناخ السائد في الجماعة يحول بين الأفراد وبين مناقشة القضايا الشديدة الخصوصية؛ إلا أنه بمجرد توفير البيئة الخالية من التوتر قد يشعر أفراد جماعة المناقشة المركزة بدرجة من الراحة النفسية أكثر مما يشعرون به في المقابلة الثنائية بين باحث ومبحوث، وذلك لأن العيون لا تكون مُسلطة عليهم دائماً. وبمجرد أن يتحقق مستوى ما من الراحة النفسية لأفراد جماعة المناقشة، فقد يشعرون فعلاً بدرجة أقل من الضغط داخل هذه الجماعة. كذلك استخدمت مونتل دينامية الجماعة للوقوف على الأفكار والمُسلّمات التي تركز عليها الميول والاتجاهات التي كانت المبحوثات تدرك أنهن يؤمنّ بها.

لم أكن أريد منهن إلا أن يذكرن بصراحة تلك الأفكار التي تبدو لهن بديهية "يتم تبنيها دون تفكير" عادةً، وأن يُفصحن عن المعتقدات والمقولات العقلية التي تركز عليها اتجاهاتهن الواعية. وإنه لأمرٌ بالغ الصعوبة أن يتحدث الناس عن هذه الأنواع من الاتجاهات والمُسلّمات في مقابلة فردية. ومن ناحية أخرى، وفي مقابلات الجماعات، تستطيع طرق استجابة المبحوثين لبعضهم وأساليبهم في التفاعل فيما بينهم؛ تستطيع توفير بيانات أكثر ثراءً وأشدّ تعقيداً... (ص ٤٧).

بالإضافة إلى أن دينامية الجماعة تقوم باستكشاف الاتجاهات، فإنها -وبنفس المقدار- تستطيع أن تفيد في تشجيع أعضاء الجماعة على أن يقدموا تفسيرات مفصلة للسلوكيات المعيارية تبدو في نظرهم عادية. شاهد ذلك أنه بملاحظتنا لما ورد في الدراسة التي أجريت على موضوع صورة الجسد عند الأمريكيات السود - والتي عرضنا لها للمرة الأولى في الفصل الأول من هذا الكتاب - نقف على نموذج ممتاز لمقابلة الجماعة كطريقة للتوصل إلى

"وصف مكثف" للسلوكيات الروتينية المعتادة. فقد أتاح تفاعل أعضاء هذه الجماعة للفتيات الفرصة، لأن يقمن معاً بصياغة وصف تفصيلي للسلوكيات المعيارية التي تُعدّ في نظرهن عادية، كمسألة العناية بالشعر، وإن كانت سلوكيات هامة في نظرنا من الناحية التحليلية.

الباحثة (التي تجري المقابلة) هل تناسب تسريحة الشعر هذه بعض الفتيات دون الأخريات؟

"ساشا": الحقيقة أن بعض الناس لا يبدون جميلات المظهر في أي من هاتين التسريحتين، رغم ذلك.

"دب": Deb إن تسريحة الشعر "سيزر" تشبه تسريحة شعر الرجل. الباحثة: فهمت.

"دب": إن كانت رأسك تبدو مثل كرة القدم، فلن تعطيك هذه التسريحة شكلاً جميلاً.

الباحثة: هل تقضين وقتاً طويلاً في تسريح شعرك؟
"ميتشل بي": نعم.

"ساشا": أنا أدرك أنني أقضي وقتاً طويلاً في تسريح شعري.

"جين": فقط حينما يكون الشعر طويلاً ومسترسلاً، بحيث يمكن عمل شيء فيه...

"دب": ... حقاً...

"جين": في هذا الصباح ألقيت في شعري بعض بكرات الشعر (التي تُستعمل للف الشعر)، ودخلت إلى الحمام، ثم خرجت منه، واعتبرت يومي يوماً سعيداً.

الباحثة: ماذا يحدث عندما تقفين تحت دش الحمام؟

"ساشا": أضع غطاء الشعر البلاستيكي الخاص بالحمام؟

الباحثة: ولماذا يتوجب عليك أن تضعي الغطاء البلاستيكي؟

"جين": لأنه ليس لنا شعر مثل شعر كُن جميعا وليس هذا بذنب، ولكن الأمر لا يعدو أننا لا نستطيع أن نهَيّ شعرنا في صورة مقبولة.. وعندما ندخل إلى الحمام، فإن الأمر يتوقف على...

الباحثة: (مُوجهة السؤال إلى "جين"): أخبريني بما يحدث عندما تقفين تحت الدش في الحمام.

"جين": عندما تحصلين من مصفف الشعر على تسريحة تجعل شعرك متموجاً لمدة طويلة^(*)، وتدخلين إلى الحمام فإن شعرك يظل مسترسلاً في تموجه، ولكن إذا غسلت شعرك باستمرار، بحيث يكون مبتلاً كل يوم...

"ساشا": فسوف تصبحين صلعاء..

"جين": وعندما تحصلين يوم الاثنين من مصفف الشعر على تسريحة تجعل شعرك متموجاً لمدة طويلة^(*)، فسوف يكون شعراً أجعد، أي يكون شعراً ذا تسريحة أفريقية، لذلك لا نستطيع الغطس في حوض الاستحمام.

الباحثة: ولماذا لا تريدين أن يكون شعرك ذا تسريحة إفريقية؟ لماذا لا ترغبين أن يكون شعرك أجعد؟

"جين": إن المسألة لا تتعلق بالرغبة في أن تكون تسريحتي إفريقية، فإنني لو كنتُ ولدتُ بشعر أجعد، أو إن أراد صاحب المقام الرفيع (مصفف الشعر) أن يكون شعري بهذه التسريحة، فحينها سوف أفعل.

"ديب": ... إنه يريد أن يُسَرَّح شعري بهذه التسريحة، ويبقيه مُتهَدلاً مسترسلاً...

"جين": إن صاحب المقام الرفيع (الحلاق) يريد أن تكون تسريحة شعري قصيرة لأنني ظلتُ أسَرَّحُ بهذا الشكل لفترة طويلة، ذلك هو الوضع الذي تسير عليه الأمور بالضبط.

"ديب": إن تسريحات الشعر ذات الشكل الإفريقي لا تناسب الفتيات.

(*) التسريحة المعروفة "بالموجة الثابتة" (المترجم).

"ساشا": إن تسريحة شعر "راشينا" تسريحة إفريقية، ولكنها حالة استثنائية.

"دب": راشينا؟

"ساشا": نعم.

الباحثة: إذن فانتن تقصدن أنكن لا تستطعن غسل شعوركن كل يوم.

"جين": لأنه لا يوجد مبرر لذلك.

"ساشا": إن الشعر يتقصّف إذا تمّ غسله يومياً.

"جين": لا يوجد مبرر لذلك أبداً. فلا يوجد مبرر على الإطلاق لغسل شعري

كل يوم. وأنا أذهب إلى مُصفف الشعر كل أسبوعين.

الباحثة: هل تذهبين إلى مُصفف الشعر؟

"جين": إنني أصف شعري بتسريحة الموجة الدائمة كل ستة أسابيع.

"ساشا": إنني أذهب إلى بيتي وأستحم، وأغسل شعري مرة كل أسبوعين.

وأصف شعري بتسريحة الموجة الدائمة كل ثمانية أسابيع، ولكنني

في الوقت الحالي أدعُ شعري ينمو حتى شهر أغسطس، لأنني

بسبيلي إلى قص شعري. وسوف أقوم بقص شعري عند مُصفف

الشعر.

الباحثة: إنك قلت أنك تصففين شعرك بتسريحة الموجة الدائمة، فما معنى

ذلك؟

"ساشا": توضع عليه مادة مُلينة ليظل منساباً.

"دب": ... إنك تستعملين مادة مُلينة لجعل شعرك منساباً.

"جين": ... نعم، فالمادة الملينة تجعل شعرك منساباً.

الباحثة: إنها تجعل شعرك منساباً فعلاً.

"ساشا": إنها مادة مُلينة ذات تركيب كيميائي.

الباحثة: عندما نتكلم عن تسريحة الموجة الدائمة فإننا نقول إنها تُجعد شعرك،

ولكن تسريحتك الدائمة تجعل شعرك منساباً، هل هذا ما تقصدينه؟

"جين": أجل. فإنك إن سرحت شعرك تسريحة الموجة الدائمة فسيبقى مُتجعداً.

"ساشا": ... أو مُتموجاً.

"جين": إذا مرَّحنا شعرنا بتسريحة الموجة الدائمة فسوف يبقى مُنسباً.

الباحثة: فهمت. ولكن ما أهمية أن تجعل شعرك منسباً؟

"دب": لأنه شعر أجعد. فلا تستطيعين أن تقعلي شيئاً حياً ذلك.

"جين": إنه ليس بالضرورة أمر مهم، فالمسألة هي صورتك فحسب. ولكن لا

يتحتم عليك أن يكون شعرك منسباً. وأنا لا أميل إلى أن أتجول هنا

وهناك وشعري منساب...

يمثل النص السابق المستخلص من سجل المقابلة قصاصة موجزة

للبيانات المستخرجة في هذا الموضوع وحده. وكما نستطيع أن نرى، فإن جو

الجماعة يشجع على ذكر الأوصاف المفصلة للخبرات اليومية العادية.

ويلاحظ أن الدينامية التي تتولد داخل جماعة ما تختلف كل الاختلاف

عن الخبرة المتولدة عن المقابلة القائمة على الاتصال بين فردين. فالتفاعل

يؤثر على جميع أعضاء الجماعة (أي على الباحث كما على المبحوثين، وهو

الأمر الذي سوف نتكلم عنه باستفاضة عندما نناقش دور الوسيط الذي يدير

الحوار في مقابلة جماعات المناقشة المركزة). وكثيراً ما يُغير شركاء البحث

في جماعة المناقشة المركزة آراءهم بناءً على تأثيرهم بما يسود هذه الجماعة

من اتجاهات وقيم - فهذا جزء أساسي من هذه الدينامية، كما أنه جزء مهم من

عملية جمع البيانات. وكما رأينا في فصل المقابلات المتعمقة، فإن ما يقوله

شخص ما في سياق مقابلة تقوم على الاتصال بين فردين، إنما يتأثر فقط

بشخصية الباحث وبعلاقة الألفة التي تتولد بين هذا الباحث وذلك المبحوث

بالذات.

وهكذا تفقدنا المقارنات مع طرق البحث الأخرى إلى نتيجة مؤداها أن

القوة الحقيقية لجماعات المناقشة المركزة لا تكمن فقط في استكشاف ما لا بُدَّ

للأفراد أن يقولوه، وإنما تكمن في أنها تزودنا برؤى ثاقبة للمصادر التي تتبع

منها السلوكيات والدوافع المعقدة. (مورجان وكروجر، ١٩٩٣، نقلًا عن

مورجان، ١٩٩٦، ص ١٣٩).

وفي حالة المقابلات التي تُجرى مع جماعات المناقشة المركزة، فإن ما يقوله أي مبحوث إنما يتحقق من خلال الجماعة، ومن ثمّ ينعكس في عيون الآخرين في الجماعة وهم يواصلون الحوار. مثال ذلك، أنه في دراسة استكشافية عن المثليين من الرجال وصورة الجسد، قد يشرح الشاب جيسي Jesse سبب شعوره بالضغط التي يتعين عليه أن يتعامل معها لكي يحظى بقيمة في مجتمع المثليين، إلا أن تعليقه هذا تتردد أصدائه في الحوار الجاري على السنة غيره من أعضاء الجماعة الذين يتجاوبون مع جملته هذه و/أو يكونون متأثرين بها عندما يتحدثون عن خبراتهم الشخصية. ولهذه الأسباب كلها، فإن البيانات التي يتم إنتاجها داخل إحدى جماعات المناقشة المركزة تختلف عن بيانات المقابلة المتعمقة.

تتأثر دينامية الجماعة بالاختيارات الكثيرة لتصميم البحث، كما تؤثر على جمع البيانات وتحليلها. ويُعتبر دور الباحث في خلق دينامية الجماعة - من خلال مستوى الوساطة الذي يوفره في إدارة الحوار، وكذلك من خلال مستوى البنية الذي يفرضه - يُعتبر دوره هنا دوراً مهماً، وسوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد. كذلك يتم استحضار هذه الدينامية للانتفاع بها في أثناء مرحلة التحليل حين يُقرر الباحث تحديد المستوى الذي يتم التحليل وفقاً له، وحين يقوم الباحث بتفسير البيانات وبالكشف عن الأنماط التي تتبثق من داخل البيانات. وسوف يتم إبراز هذه المظاهر التي تتصف بها الجماعة في موضع لاحق من هذا الفصل. وسوف نناقش، أولاً، مرحلة تصميم البحث، وهي المرحلة التي يتم فيها تحديد الاختيارات المتصلة بإدارة الحوار وبنية المقابلة، والمتصلة أيضاً بغير ذلك من الاعتبارات الكثيرة. ومن خلال الفحص الدقيق للطريقة المتبعة في تصميم دراسة لجماعة المناقشة المركزة سوف يتضح قدر أكبر من الجوانب الفريدة لهذه الطريقة.

تصميم دراسة لجماعة المناقشة المركزة: سؤال البحث

كما رأينا في الفصل الثاني، فإن عملية تصميم البحث، بما فيها من القرارات المتعلقة بطرق البحث، ينبغي أن تسترشد على الدوام بسؤال البحث. ذلك أن عملية تصميم البحث إنما تدور حول صياغة إجراءات البحث

(كروجر، ١٩٩٣، ص ٤٣) المرتبطة بهدفك من البحث. وتتجلى أهمية التلاؤم بين سؤال البحث وتصميم طرق البحث بأكبر قدر من الوضوح في مشروع بحثي يستعمل طريقة جماعات المناقشة المركزة بسبب ما تتسم به اختيارات التصميم الخاصة بجمع البيانات من تعددية فائقة. ويرى مورجان (١٩٩٦) أن من المفيد أن نميز بين مسائل التصميم التي "على مستوى البحث" ومسائل التصميم التي على "مستوى الجماعة". ونحن نلفت نظرك إلى أنك وأنت تتمثل البحث الكيفي في ذهنك كعملية كلية وفقاً للطرق التي سبق أن شرحناها، فإن بعض الفروق الموجودة بين "مستوى المشروع" و "مستوى الجماعة" تصبح فروقاً مصطنعة عند التطبيق الفعلي. وقد تكون هذه الصفة الاصطناعية التي تظهر عند التطبيق مرتبطة كذلك بالإطار النظري للدراسة. شاهد ذلك، أن دراسة تستخدم اتجاهاً فكرياً قائماً على "النظرية الموثقة" قد تمزج بعض هذه الاختيارات التصميمية ببعضها البعض عند التطبيق. فإذا اتفقنا على أن هذه الفئات النظرية لا تكون واضحة كل الوضوح عند التطبيق دائماً، فإن النموذج الذي يقدمه مورجان يمكن أن يفيدك أعظم فائدة عندما تفكر في تصميم مشروعك القائم على طريقة جماعة المناقشة المركزة.

تتضمن الاعتبارات التي يتعين رعايتها على مستوى المشروع:

- (١) الأطر متعددة الطرق البحثية،
- (٢) انتقاء المجموعات (أي: اختيار العينات)،
- (٣) تقنين إجراءات جمع البيانات.

ويعتبر اختيار العينات وتقنين الجمع قرارين مترابطين، لذلك فإننا سنناقشهما معاً فيما بعد. وعلى مستوى الجماعة، فإن أهم اعتبارات التصميم يجب أن ينصب على دور الباحث. وبالأدات: ما هي درجة الوساطة (أي إدارة الحوار) التي سيوفرها الباحث فيما يتصل بالتحكم في دينامية الجماعة وتنظيم عملية تدفق الموضوعات. ويلاحظ أن قضايا إدارة الحوار تتعلق أساساً - كما سوف نرى - بقضايا ضبط التوازن التام بين "التحكم والتدفق" بهدف استخراج أفضل النتائج من هذه الجماعة، وهي النتائج التي تحقق أهداف البحث. ويُعد دور الباحث كوسيط يدير الحوار هو السمة المميزة لطريقة جماعات المناقشة

المركزة بالمقارنة مع غيرها من طرق المقابلة. وينبغي الانتفاع الكامل بكل هذه الأفكار الخاصة بتصميم البحث، سواء على مستوى المشروع أو على مستوى الجماعة، وذلك فيما يتصل بقضية البحث وبأهداف البحث.

التصميمات المتعددة الطرق:

الجمع بين البيانات الكيفية والكمية

من الممكن استعمال جماعات المناقشة المركزة كطريقة بحث مستقلة بنفسها أو كجزء من تصميم متعدد الطرق (للاطلاع على مناقشة كاملة للخطط أو التصميمات متعددة الطرق انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب). وفي أغلب الأحيان، تستعمل جماعات المناقشة المركزة في الدراسات التي تعتمد على عدة طرق بحث (مورجان، ١٩٩٦، ص ١٣٣). أما مسألة ما إذا كانت دراستك تستعمل جماعات المناقشة المركزة بمفردها أو مجتمعة مع طريقة أخرى من طرق البحث، سواء أكانت طريقة كمية أو كفية؛ فإن هذا الأمر يتوقف على سؤال بحثك. وإنَّ الأسلوب الذي يصاغ به سؤال البحث ليرتبط بنوع من الانسجام بين هذا السؤال وطريقة البحث. شاهد ذلك أنه توجد أسئلة بحث كثيرة يمكننا أن نطرحها فيما يتصل بصورة الجسد عند الرجال. وسوف يساعدنا الأسلوب الذي نصوغ به قضية بحثنا على تحديد منهجية البحث الملائمة بما يتضمنه ذلك الأمر من احتمال أن تستعمل جماعات المناقشة المركزة للمساعدة في الوصول إلى بيانات استكشافية، أو وصفية، أو تفسيرية. وترفع البيانات الاستكشافية مستوى وعي الباحث بالمسائل الأساسية في مجال أحد الموضوعات الجديدة. وتوفر البيانات الوصفية - والتي هي سمة مميزة للبيانات الكيفية - صوراً غنية بالتفاصيل للأفكار والسلوكيات. وأخيراً، تساعد البيانات التفسيرية على شرح العمليات الاجتماعية، إذ تعطي الباحثين مفاتيح للوصول إلى معرفة سبب وكيفية معايشة الناس للوقائع والأحداث، وإلى كيفية الربط بين الخبرات المختلفة. فهُلُمُوا بنا نراجع بعضاً من أكثر خطط جماعات المناقشة المتعددة الطرق شيوعاً، مستعملين أمثلتنا البحثية الخاصة بصورة الجسد عند المثليين من الذكور، وبصورة الجسد عن النساء السود، كوسيلة

لإظهار مدى تناسب كل اختيار أو ملاءمته مع الأنواع المختلفة من قضايا البحث وأهدافه.

إن وضع مشروعات بحثية تستعمل كلاً من طريقة جماعات المناقشة المركزة وطريقة البحث المسحي إنما يعد من أشيع طرق البحث المستخدمة في ربط الأساليب والتقنيات الكيفية بالكمية في الخطط المتعددة الطرق (مورجان، ١٩٩٦، ص ١٣٤). وإن من الأهمية أن ننتبه إلى أن المنحي الكلي في بناء المعرفة يستلزم ألا يكون هدف استعمال هذه الطرق البحثية مقصوراً على الوصول إلى توليد قدر أكبر من البيانات، ولكنها تستعمل لتبعث الروح في بعضها البعض، كما تستعمل بأسلوب نقدي (انعكاسي) من شأنه أن يخلق فهماً أكثر تعقيداً وتشابكاً للحقيقة الاجتماعية. وبالإمكان استخدام جماعات المناقشة المركزة والمُسوح الاجتماعية مع طريقة أخرى من طرق البحث في الدراسات التي تستخدم ثلاثاً من طرق البحث؛ ومع ذلك، فسوف نركز على الخطط القائمة على استخدام طريقتين من طرق البحث. وينبغي كذلك ملاحظة أن مقابلات جماعة المناقشة يمكنها أيضاً أن تقوم بدور بوصفها اختباراً قلياً يهدف إلى التأكد من أن اللغة المستعملة في مسح اجتماعي ما ملائمة لمجتمع البحث. (فراي وفونتانا، ١٩٩١، ص ١٧٧).

ويوجز مورجان (١٩٩٦) الخطوط الرئيسية للأساليب الأربعة الأساسية لاستعمال طريقة جماعات المناقشة المركزة بالاشتراك مع البحث المسحي. وسوف نسلط الضوء على الطريقة التي يمكن بها ربط هذه الطريقة بأساليب تشجع التفاعل بين المكونات الكيفية والمكونات الكمية في المشروع البحثي، وهو الأمر الذي يعده البعض جزءاً مهماً من مستقبل البحث الاجتماعي بصفة عامة.

ويمكن الانتفاع بالبحث المسحي في توليد البيانات التي ستوجه طريقة جماعات المناقشة المركزة فيما بعد، ابتداءً من مرحلة اختيار العينات إلى مرحلة تحديد الموضوعات والأسئلة. وتعتبر المسوح الاجتماعية طريقة فعالة في توليد مقادير كبيرة من البيانات "المسطحة" flat data التي تستخرج من عدد كبير من المبحوثين. ومن الممكن تقسيم المبحوثين على أساس أي عدد

من الخصائص المميزة، من قبيل: العرق، والجنس، والطبقة الاجتماعية، والسن، والسلوك الجنسي، وذلك من خلال الأسئلة الديموجرافية (السكانية) التي توجد في بداية أى مسح اجتماعي. وبالإمكان أن يكون هذا النوع من المعلومات مفيداً للباحث الذي لم يقرر بعد ما إذا كان سيستعمل جماعات مناقشة متجانسة أم جماعات مناقشة غير متجانسة (وكما سوف نوضح هذا الموضوع لاحقاً، فإن هذه الجماعات هي - على التوالي - الجماعات ذات الأفراد المتشابهين أو ذات الأفراد المختلفين). وحين تستخدم المسوح الاجتماعية بهذه الصفة التمهيدية فإنها تُستعمل حينئذ بصورة أساسية لاستكشاف الموضوع الذي سوف يُجسّد بعد ذلك من خلال طريقة جماعات المناقشة الكيفية. ويُعتبر هذا النوع من البيانات الاستكشافية ذات أهمية حاسمة لابد من توافرها حين لا يكون الباحث متأكداً من طبيعة القضايا الأساسية لمشروعه البحثي.

مثال ذلك، أنه إذا تقرر أن ندرس صورة الجسد عند المثليين من الذكور، وقررنا أن تكون طريقة جماعات المناقشة المركزة هي طريقتنا الأساسية، نظراً لفائدة هذه الجماعات في الحصول على البيانات الاستكشافية والبيانات الوصفية، ولفائدتها أيضاً في جعل المشاركين في البحث يشعرون بالراحة النفسية وهم يناقشون الموضوعات المحظورة؛ فقد نحتاج لاستعمال المسوح الاجتماعية كأسلوب تمهيدي لاكتشاف بعض الموضوعات الأساسية والأنماط التي يمكن أن نستخدمها لنشكل بها موضوعاتنا وأسئلتنا.

ورغم أن هذا الأسلوب صحيح تماماً لربط هذه الطرق، فإنه ينبغي ملاحظة أنه يعاني نقطة ضعف رئيسية واضحة. ذلك أنه إن كنا في الواقع لا نعرف إلا القليل جداً عن صورة الجسد عند المثليين من الذكور، وهو السبب الذي يلجئنا إلى استخدام طريقة جماعات المناقشة المركزة، إذن فكيف سننصرف لخلق أسئلة البحث المفيدة؟ ومن واقع مراجعتنا للتراث العلمي المنشور فإننا سنقوم بصياغة طائفة من الأسئلة المغلقة التي لا تترك للمحورين سوى اختيارات محدودة للإجابة. ومع أنه من المؤكد إمكانية استعمال هذه البيانات في توجيه عملية هيكلة جماعات المناقشة المركزة، فإن من المهم أن

نتنبه إلى أن البيانات المسحية إنما تعكس مفاهيمنا النظرية الشخصية - أي تعكس ما نتصور أنه قد يكون جزءاً من المسائل الأساسية. وحيث إن مجمل الدراسة الواردة في مثالنا ذات طبيعة استكشافية، فقد تكون البيانات التي نستمدّها من مسوحنا الاجتماعية، والتي تُوجّه ما نجرّيه حينئذ من مقابلات جماعية؛ قد تكون هذه البيانات قد شكّلت مسائل البحث بأساليب تختلف عن الطريقة التي يميل إليها مبحوثونا أنفسهم في مناقشتها، وقد تكون هذه البيانات قد حرّفت مدى الأهمية التي تتصف بها بعض المسائل فأبرزتها على حساب مسائل أخرى، وقد تغفل هذه البيانات عدداً كبيراً مما لدينا من المسائل المهمة. وترتكز قيمة المسح الاجتماعي وحسبُ على الاستفادة القصوى من الأسئلة المطروحة، والتي يصعب قياسها خصوصاً في البحث الاستكشافي.

يتمثّل واحدٌ من أشكال التحريف المختلفة والشائعة، والتي يتعرض لها هذا الجمع بين طرق متعددة؛ يتمثّل في استعمال طريقة جماعات المناقشة المركزة بوصفها الطريقة التمهيدية أو الاستطلاعية، واستعمال المسوح الاجتماعية بوصفها الطريقة الأساسية والرئيسية. وفي هذه الحالة يستعمل الباحث البيانات المستمدة من جماعات المناقشة المركزة للمساعدة في صياغة أسئلة المسح الكمية. وكثيراً ما يستخدم باحثو السوق - الذين يريدون الاتساع في بياناتهم- هذا الإطار الموفر للتكاليف. كما أن هذا الإطار يكون مفيداً في البحث الاستكشافي حين لا يكون الباحث على علم بكل المسائل والمصطلحات الأساسية، وذلك لأن بإمكان شركاء البحث (المبحوثين) أن يبتكروا المقولات الذهنية، وأن يختاروا ما يريدون التركيز عليه، وأن يشرحوا تصوراتهم أو ملاحظاتهم وخبراتهم. وتكون البيانات المستمدة من جماعات المناقشة المركزة عظيمة الفائدة عند صياغة أسئلة البحث، الذي ترتكز قيمته على قابلية هذه الأسئلة للتطبيق على حيوات المبحوثين. ويناقش نصار - مكميلان Nassar-McMillan و بوردرز Borders (٢٠٠٢) الاستعمال "الشديد الفعالية" لجماعات المناقشة المركزة الكيفية المقننة لتوليد وتنقيح الأسئلة المطلوبة "لاستبيان سلوك العمل التطوعي". وفي هذه الحالة، كان المستجيبون لهذا المسح مختلفين من حيث المستوى التعليمي، لكنهم كانوا يشتركون في كونهم

"متطوعين للخدمة المباشرة". وكانت جماعات المناقشة المركزة تستخدم للمساعدة في تحديد اللغة والمصطلحات المناسبة لمجتمع البحث. وقد أدت مقابلات جماعات المناقشة المركزة إلى إحداث تغييرات مهمة في أداة المسح، والتي أطلق عليها الباحثون اسم "مقياس ضبط الجودة" الإضافي.

في مقابلاتنا الاستطلاعية التي أجريناها مع المثليين من الذكور، أتاحت للمبجوثين الفرصة ليساعدوا في توجيه الحوار، وفي طرح أفكارهم، وشرح مقاصدهم، وإزالة صور سوء الفهم الشائعة عنهم، وبذلك يساعدون في تعليم الباحث نفسه. فقد ساعد المبجوثون الباحث - في هذا المثال - على أن يفهم أن الثقافة الفرعية للمثليين ليست مقصورة على كونها مصدر ضغط على صورة الجسد عندهم، بل هي تعمل إلى جانب ذلك كمصدر مهم للشعور بالرضا والتقدير الإيجابي للنفس. ومن شأن البيانات التي جمعناها من هذه المقابلات أن تفيد أعظم الفائدة في توليد الأسئلة المسحية وثيقة الصلة بهذا الموضوع في المستقبل.

كليف: أنا مدين لثقافة المثليين الفرعية، في توعيتي بأمور لم أكن في الواقع واعياً بها قبل ذلك، وأحد هذه الأمور هو الوزن الثقيل. وأمر آخر هو هذا السؤال العام عن الأعضاء التناسلية، وهو السؤال الذي يبالغ الناس في التأكيد عليه بصورة مفرطة. إذ أن من أهم الأمور المتعلقة بجسدي في نظري هو: قلبي وكيف يعمل، وذلك لأن الانفعالات ذات طابع جسدي، وقد عايشنا هذا الشعور كما أنني لا أعرف، إن تلك الأماكن التي أقف فيها ليلة كاملة ليست ... (يقصد ليست مخصصة للقاء رفيق - المترجم)، أو أنها لا تميل إلى ذلك. إنه لأمر شاق على النفس. لذلك فإنها مهمة - فعلاً - أي العلاقة الجسدية. (سكوت).

توني: لقد تغيرت تغيراً كبيراً فيما يتصل بطريقتي في ارتداء الملابس وفي تفكيري في نفسي قبل ذلك.... فقد كنت معتاداً أن ارتدي الملابس التي لا تبدو جذابة عليّ على الإطلاق، بل كانت تبدو في صورة كريهة، فهي ألوان سوداء وقاتمة، أو ألوان براقية. ولكنني منذ أعلنت عن كوني مثلياً، ومنذ أن أصبحت أكثر ارتياحاً لنفسي لمست تغيراً في أنواع وألوان

الملابس التي أصبحت أشتريها الآن، والتي لا تُعد ذات ألوان صارخة و تقول للناس: انظروا إليّ فإنني أرتدى ثياباً أنيقة جداً. وأنا لا أزال مُهندماً هنداماً جيداً (ضحك جماعي) إلا أنني لاحظت - بالقطع - تغيراً محسوساً، كما بتُ أشعر بالمزيد من الرضا عن نفسي. (سكوت)

جسي: أتصور أن قدراً كبيراً من هذا الموضوع له صلة بالثقة بالنفس، والتي هي نتيجة لإعلان المرء منا عن أنه من المثليين (توقّف). لقد كنت أكره ساقي، لأنهما تبدوان غير متناسبتين في الحجم مع بقية جسدي، والذي يُعدُّ نحيفاً جداً، بينما لي ساقان تشبهان جذع الشجرة. وقد كنت معتاداً القيام بالترييض باستعمال الدراجة الهوائية - وكُنْتُ أمارس هذه الرياضة مبتدئاً بأي ساقٍ أضعها على بدال الدراجة أولاً (ضحك جماعي). إنني مُفرط في الإحساس بزيادة وزني. ولكن هذا الموضوع أصبح قليل الأهمية الآن، ولا أدري سبب ذلك. ولكن الشيء الوحيد الذي تغير هو أنني أعلنت للناس عن أنني من المثليين، كما أنني الآن أكثر ثقة بنفسِي وبما هو غير ذلك.

كما تتضح أهمية جمع البيانات الكيفية لجماعات المناقشة المركزة قبل صياغة أسئلة المسح الاجتماعي؛ تتضح فيما قمنا به من دراسة لجماعة مناقشة مركزة عن الفتيات السود وصورة الجسد عندهن. فقد كانت أكثر المسائل التي كان الباحث الرئيسي يعتبرها مهمة؛ كانت تبدو مسائل ثانوية في نظر هؤلاء الفتيات. فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الدراسة كانت عن صورة الجسد وعن اضطرابات الجسد، وهما الموضوعان اللذان سبق للباحث المذكور أن تناولهما بتعمق مع جماعات المبحوثين من الفتيات البيض، فقد تبين للباحث افتراض بدا معقولا مؤداه أن هؤلاء الفتيات السود يعتريهن خوف من أن يصبحن بدينات، وقد يرغبن في تجسيد المثل الأعلى للنحافة الذي تقدمه وسائل الاتصال، وذلك مثلما تبين من عينات الفتيات البيض عادة. ومع ذلك، فإن الوزن "الثقل" لم يكن مصدراً أساسياً لقلق هؤلاء الفتيات السود بشأن أجسادهن.

الباحثة: بماذا تشعرين يا "كيبب"؟ لقد زاد وزني الآن عشرة أرطال، فما هو شعورك الآن؟

"كبييت": أشعر بالسعادة. أشعر أنني فوق قمة العالم.

الباحثة: صارحيني بالحقيقة ولا تحاولي إنكار الواقع.

"كبييت": أبدأ، أنا لا أكذب في الواقع. فليس لهذا الأمر أهمية عندي، ربما أضطر إلى شراء بعض الملابس والأشياء الجديدة، ولكن الأمر فيما عدا ذلك لا يعني لي شيئاً.

الباحثة (توجه السؤال للفتيات): إذا حدث - رغما عنكن - أن زاد وزنكن عشرة أرطال غدا، فماذا سيكون شعوركن؟
"جوي": سأكون سعيدة.

"تاشا": سوف أستمّر في الشعور بهذه الزيادة فحسب، ولكني أقصد، أنه من المحتمل أن أغير طريقتي في التفكير، ولكن إذا شعرت أنني مرتاحة نفسياً لهذه الزيادة فسوف أقتصر على التكيف معها، فلا يوجد ما يمكنني عمله إلا هذا.

لقد اهتزت مصداقية المُسلّمات التي كانت تؤمن بها الباحثة بصورة مباشرة، على نحو ما يتضح من هذا النص المُستخلص، فقد ألقت سؤالاً بهدف الوصول إلى الإيضاح والتأكيد باستعمالها لعبارة: "صارحيني بالحقيقة"، وذلك كي تتأكد من أنها فهمت مشاعر أولئك المبحوثات التي تتعارض بوضوح مع أفكارها الشخصية.

إن الشاغل الرئيسي الذي يشغل بال الباحثين الكيفيين فيما يتصل بهذا الأسلوب في الجمع بين الطريقة الكيفية لجماعات المناقشة المركزة والبحث المسحي ذي الطابع الكمي هو أن استخدام المسوح الاجتماعية - بوصفها الطريقة الرئيسية لجمع البيانات - يضع البيانات الكمية في موقع الصدارة والاهتمام. ذلك أن البيانات الكمية - المتحصلة من أسلوب الجمع المذكور - تكون قد شكّلت أساساً بناءً على البيانات الكيفية في حالة ما إذا كانت الأسئلة مصوغة على النحو الذي لولاه لكانت هذه البيانات قد استبعدت أو تمّ التعبير عنها بشكل مختلف. ومع ذلك، فإن من المحتمل أنه عندما يتمّ تسجيل/أو عرض نتائج البحث، فسوف يتمّ التأكيد على البيانات الكمية للمسح، التي تعرض عادة في صورة إحصائيات. ويُخفق هذا الأسلوب في الجمع بين

الطريقتين المذكورتين في أن يُدخل في حُسابه التفاعل بين هاتين الطريقتين والطبيعة الكلية لخطة البحث. ومن المحتمل أن ترد الإشارة إلى استخدام طريقة جماعات المناقشة المركزة بعد ذلك (في المقدمة أو في أحد ملاحق البحث) وألا يتوسع الباحث في معالجتها أبداً، الأمر الذي يعني إخفاء أهمية هذه البيانات الكيفية. وبالمثل، فإن البيانات التمهيدية التي تم الحصول عليها من جماعات المناقشة المركزة قد لا تتم مناقشتها على الإطلاق. ويبين مورجان (٢٠٠٢) أن طريقة جماعات المناقشة قد انتشر استخدامها في العلوم الاجتماعية عندما توظف إلى جانب طرق البحث الكمية في بحوث التقويم (ص ١٤٥). وقد منح هذا الاتجاه مزيداً من المشروعية للباحثين، كما مكنهم من الوصول إلى تمويل بعض الأبحاث التي كان تمويلها مقصوراً قبل ذلك على المشروعات الكمية. ومع ذلك، فإن هذه الأساليب في الجمع بين طريقتين من طرق البحث كانت قائمة على أساس تفضيل البيانات الكمية، مما جعل الباحثين يظلون محصورين -أساساً- داخل نطاق تقاليد الاتجاهات الكمية (ص ١٤٥).

يضاف إلى ذلك أن هذا النوع الأشهر من الجمع بين طريقتي بحث يستعمل المُسوح الاجتماعية بوصفها طريقة البحث الأساسية، إلا أنه يستخدم طريقة جماعات المناقشة المركزة أثناء المرحلة الأخيرة لجمع البيانات بوصفها نوعاً من "المتابعة" (مورجان ١٩٩٦، ص ١٣٥). ويتم اختيار هذه الخطة حتى يستطيع الباحثون استخدام البيانات الكيفية المستمدة من جماعات المناقشة المركزة في المساعدة على تفسير وتحليل نتائج مسحهم. وعندما تُطبق هذه الخطة على البحث بشكل ملائم، فإن بإمكانها أن تكون طريقة فعالة جداً للجمع بين البيانات الكمية والبيانات الكيفية على نحوٍ كليٍّ متكامل -أي على نحوٍ يُعبر عن الأبعاد المختلفة لهذا البحث. مثال ذلك، أنه قد يقوم باحث بإجراء بحثٍ مسحي على مجموعتين من الطالبات الجامعيات من البيض والسود من أجل التعمق في دراسة الفروق في إدراكتهن لصورة الجسد عندهن وفي الاضطرابات النفسية والجسدية المتعلقة بهذه الصورة. فمن شأن هذه البيانات أن تشير إلى أن الفتيات السود لهن صوراً عن الجسد أكثر إيجابية كما أنهن

أقل تعرضاً للإصابة باضطرابات جسمية، ومع ذلك، فإن هذا المسح لن يساعدنا على فهم لماذا يكون الأمر كذلك. ولكن بالقيام بمتابعة المبحوثات عن طريق إجراء مقابلات جماعات مناقشة كيفية، يكون بالإمكان شرح وإيضاح ما ورد في إجاباتهم المتعلقة من أنماط مضطربة ومظاهر للشذوذ والخروج عن القياس، مما يضيف إلى تلك البيانات الإحصائية بيانات وصفية حيّة وتفسيرية لها. معنى هذا أن هذين الشكلين من البيانات "يتحدثان إلى بعضهما" (أي يتحاوران ويتعاونان) عند عرضهما معاً، وهو الأمر الحاسم الذي لا بد منه في الممارسة البحثية ذات الطابع الكلي.

والأسلوب الأخير في الجمع بين طريقة جماعات المناقشة المركزة وطريقة البحث المسحي أن تستخدم جماعات المناقشة بوصفها طريقة البحث الرئيسية، وتُستعمل المسوح بنفس نهج المتابعة الذي يبنّاه فيما سبق. وإن الأمر الذي يروق لنا في هذه الخطة الأقل شيوعاً هو أن البيانات الكيفية تعد هي الشكل الرئيسي للبيانات - وهو أمر نادر الوقوع - ولكنه عندما يحدث فإنه يمثل تغييراً مهماً في التفكير في العلاقة بين البيانات الكيفية والبيانات الكمية. وقد يختار أحد الباحثين هذا النوع من الخطط عندما يريد أن يرى مدى انتشار اتجاهات معينة، أو سلوكيات، أو خبرات، أو موضوعات أساسية معينة. وقد يكون هذا النوع من الخطط جزءاً من المشروع البحثي سبق التخطيط له قبل الشروع فيه، أو ربما يقرر الباحث أن يعود ويحاول الحصول على البيانات المسحية من المبحوثين بعد إجراء مقابلات جماعات المناقشة المركزة لأنه يريد الشرح والإيضاح، أو لأن بعض المسائل الخلافية تظهر بصورة غير متوقعة من داخل البيانات الموجودة في سجلات المقابلات. وعندما يعرض أحد الباحثين نتائج بحثه المستمدة من هذا النوع من المشروعات البحثية فقد تستعمل البيانات الكمية - في الواقع - كوسيلة إرشادية تساعد على كشف الحقائق. وهذا معناه أن يتم عرض هذه البيانات الكمية كوسيلة لتبسيط الضوء على الموضوعات الأساسية المتضمنة في البيانات الكيفية. ومع ظهور البرامج الكومبيوترية لتحليل البيانات الكيفية (وهي البرامج التي نناقشها لاحقاً في الفصل الخاص بالتحليل والعرض) توفرت لنا

طرق أخرى لتحقيق نفس الهدف. وعلى ذلك فإن نُدرة استعمال منهجية البحث هذه قد لا تعكس القضايا الإستمولوجية فقط، بل قد تكون مرتبطة كذلك بوفرة الأساليب الأخرى لعرض البيانات الكيفية بجانب البيانات الكمية المماثلة الإضافية المعززة لها.

تصميمات البحوث الكيفية المتعددة الطرق

يمكن أن تُستخدم مقابلات جماعات المناقشة المركزة في تصميمات البحوث المتعددة الطرق إلى جانب طرق البحث الكيفية الأخرى. وتتعامل صور التوليفات الممكن تكوينها من الجمع بين طرق البحث مع كافة الطرق الكيفية المتاحة. وسوف نناقش هنا موضوع المزج بين جماعات المناقشة المركزة والمقابلات المتعمقة، لأن هذا المزج هو أشد أنواع الجمع نمطية ووضوحاً (ومع ذلك نحثك على إمعان النظر في التوليفات الخلاقة الأخرى التي تتناسب مع ما يقضي به مشروعك البحثي). وبالنسبة للباحثين الذين يطرحون أسئلة ذات التزام كفي يمكن توجيهها من خلال طرق البحث القائمة على المقابلة؛ بالنسبة لهؤلاء الباحثين تكون الفوائد المستمدة من الجمع بين جماعات المناقشة المركزة والمقابلات الفردية فوائد جمة وفيرة. وتوجد في مجال تصميم المشروعات البحثية إستراتيجيتان رئيسيتان هما:

(١) الأولى: وفيها تُستعمل جماعات المناقشة المركزة كشكل من أشكال متابعة المقابلات المتعمقة،

و(٢) الثانية: وفيها تُستعمل المقابلات الفردية كشكل من أشكال متابعة المقابلات التي تجرى مع الجماعات.

وفي كلتا الحالتين يكون من المهم أن ننظر إلى كل طريقة باعتبارها مرحلة داخل المشروع الكامل. وإذا فهمت هذه العملية بهذا الأسلوب الشامل يُمكن للبيانات الكيفية المُستمدة من إحدى هاتين الإستراتيجيتين أن تقيد كذلك عمليات جمع البيانات، وتحليلها، وتفسيرها.

وقد يصمم أحد الباحثين الكيفيين دراسة ما مستعملاً هاتين الطريقتين لأن سؤال البحث يتطلب كلاً من التوسع والتعمق (مورجان ١٩٩٦، ص ١٣٤). فالمقابلات المتعمقة توفر عمقاً أكبر مستمداً من إجابات المبحوثين

كل على حدة، بينما يكون بإمكان جماعات المناقشة المركزة أن تُعطي الباحثين مدى أوسع من الإجابات في فترة زمنية أقصر. ومع ذلك، فإننا نَحذرك من أن تأخذ هذه الأفكار كأحكام عامة، وذلك لأن بإمكان مقابلات جماعات المناقشة المركزة أن تكون هي الأخرى غزيرة النتائج إلى حد بعيد، وذلك كما رأينا في الأمثلة الواردة في هذا الفصل. وإن من الأمور المناسبة أن تتبّع المقابلات المتعمقة بمقابلات جماعات المناقشة المركزة لتحقيق من صحة بيانات المقابلات الفردية، ولتفحص مدى اختلاف الإجابات الفردية الموجودة داخل بيئة جماعة معينة، ولتعرّض الأفراد المبحوثين لدينامية الجماعة كوسيلة لتعليمهم أو لتمكينهم، ولتدرج في مشروعك مجموعات بحثية أكبر قد لا يكون متيسراً إجراء مقابلات متعمقة مع كل فرد من أفرادها.

وثمة استراتيجية أوسع انتشاراً في تصميم البحوث تستعمل جماعات المناقشة المركزة بوصفها طريقة البحث الأساسية ثم تستخدم المقابلات المكثفة كأداة لمتابعة بعض أو كل الإجابات التي وردت في مقابلات جماعات المناقشة. وتتيح منهجية البحث هذه للباحثين أن يتحصلوا على البيانات الجماعية الأولية التي توفر سردية جماعية شاملة، وأن يبحثوا بعد ذلك عن المزيد من البيانات المتعلقة بعناصر مُحدّدة من عناصر تلك السردية. ويتيح هذا التصميم للمبحوثين أن يتقاسموا خبراتهم في هذا الوسط الجماعي ثم يتّاح الوقت لكل فرد منهم لكي يتوسع في شرح خبراته الشخصية، واتجاهاته ومعتقداته، بما في ذلك من ذكرٍ لأي تأثير وقع عليه من جماعة المناقشة المركزة. يُضاف إلى ذلك أنه رغم أن مقابلة جماعات المناقشة تكون بحكم التعريف - "مركزة" على موضوع بعينه، فإن من المحتمل أن ترد في أثناء هذا الحوار مسائل خلافية أخرى كثيرة. وبقيام الباحث باتّباع هذه المقابلات بمقابلات مكثفة، فإنه يكون قادراً على الرجوع والحصول على المزيد من البيانات، إذ يحتاجها لكي يجيب بشكل أفضل على سؤال البحث. وهذه هي الاستراتيجية التي استعملناها في دراستنا عن الفتيات السود وصورة الجسد. وقد قامت الباحثة الرئيسية بإجراء مقابلات جماعات المناقشة المركزة، وهي المقابلات التي وفرت اتساعاً وعمقاً للبيانات. ثم قامت بعد ذلك بإجراء

مقابلات متعمقة مع من رغب من المبحوثات في جماعات المناقشة المركزة في مواصلة الاشتراك في هذا البحث. وقد أتاح لها هذا الإجراء أن تستكشف منظورات معينة وموضوعات أساسية معينة بدرجة أشد عمقاً. ومع ذلك، فإن هذه المقابلات المتعمقة قد تأثرت بقوة- بالبيانات التي سبق تجميعها أثناء المقابلات الأساسية لجماعات المناقشة. وهكذا تفاعلت هاتان الطريقتان من أجل إنتاج بيانات أكثر ثراءً.

ويتوقف استعمال مشروعك لجماعات المناقشة المركزة كجزء من تصميم بحثي متعدد الطرق، أو استخدامها لجماعات المناقشة المركزة كشكل مستقل بذاته؛ يتوقف ذلك بالكلية على أهداف بحثك وعلى القيود المادية الحاكمة عليه. وقد زودناك ببعض الأمثلة القياسية للطريقة التي قد تتخيل بها خطة بحث متعددة الطرق، ومع ذلك، فإن هذه الأمثلة إنما هي مجرد نماذج. ذلك أنه توجد تشكيلة من أساليب استخدام جماعات المناقشة المركزة، وهو الأمر الذي يُعد من مظاهر الجاذبية في هذه الطريقة. وبجانب تحديد طرق البحث التي ستطبق، يوجد عدد كبير من الاختيارات التي يتوجب المفاضلة بينها عند استخدام جماعات المناقشة المركزة.

المعاينة (اختيار العينات) والتقنين

يصف مورجان عمليتي المعاينة (اختيار العينات) والتقنين بوصفهما عنصرين من العناصر المهمة لتصميم جماعات المناقشة المركزة (١٩٩٦، ص ١٤٢). وتطرحُ عملية المعاينة (اختيار العينات) السؤال التالي:

• من هم الأفراد الذين يكونون جماعة نقاشك المركزة؟

يرتبط هذا السؤال ارتباطاً وثيقاً بهدف بحثك -أي مَنْ هم أفراد مجتمع البحث الذين تهتم بأن تكون على علم بهم. ومع ذلك، فقد تؤثر وقائع أخرى -لا سيطرة لك عليها- في اختيار مبحوثيك. مثال ذلك، أن تحديد أي الجماعات التي يمكنك أن تصل إليها، وموقعك الجغرافي، وحدود الوقت المتاح لك؛ كل هذه الأمور يؤثر على عملية ضم الأعضاء إلى جماعات المناقشة وعلى اختيار العينات. وتُعد عملية ضم الأعضاء عملية مهمة لضمان استيفاء متطلبات خطة بحثك. يقول مورجان (١٩٩٥) تتعلق عملية ضم

الأعضاء بالحصول على أفراد مشاركين (مبحوثين)، و تتعلق عملية اختيار العينات بالوصول إلى المبحوثين "المناسبين" (ص ٥١٩). وهو يذكر بالتحديد أن التهاون بشأن عملية ضم المبحوثين يعد المصدر الأهم للإخفاق في تطبيق طريقة جماعة المناقشة المركزة (ص ٥١٧). وبينما يؤكد اتجاهنا الكلي في عملية البحث على الصلات المتبادلة بين جميع مراحل المشروع البحثي، فإن من الواضح كذلك أن إجراءات ضم الأعضاء وتكوين الجماعات تكون ذات أهمية حاسمة في تحقيق النجاح. ويطرح مورجان (١٩٩٥) استراتيجيات عديدة للتفادي المسبق للوقوع في المآزق المحتملة لعملية ضم الأعضاء، وتتمثل هذه الاستراتيجيات في: قيام الباحث بضم أعضاء كثيرين، وإرسال خطابات لهؤلاء الأعضاء لتذكيرهم بمواعيد المقابلات، وتوفير الحوافز لهم (كإعطائهم شيئاً من المال مثلاً). فإذا تحركت خارج نطاق هذه الحقائق البنائية والتقنيات الخاصة بضم المبحوثين، فإنه ينبغي عليك أن تحاول تكوين عينات تتألف من الأفراد الذين يمكنهم أن يقوموا - على أفضل الوجوه - بإلقاء الضوء على موضوع بحثك من خلال أفكارهم الشخصية وخبراتهم الحياتية.

من القرارات الرئيسية التي يواجهها الباحثون قرار تحديد ما إذا كانت جماعات النقاش ستكون متباينة في تكوينها أم متجانسة. وتتكون الجماعات المتباينة التكوين من مبحوثين غير متشابهين. ومع أن هذه الأنواع من الجماعات ليست شائعة نسبياً في البحوث الجامعية، إلا أن هذه الجماعات تكون مناسبة عندما يحتاج الباحث إلى تشكيلة من الإجابات المتنوعة وعندما يكون راعياً في التضحية بشيء من زيادة الفهم المتعمق للكيفية التي يتبعها قطاع معين من هذه الجماعات في معاشة الموضوع محل الدراسة. مثال ذلك، لنفترض أننا مهتمون بالكيفية التي يفكر بها أنواع مختلفة كثيرة من الناس في الصورة المثالية لجسد الأنثى التي تعرضها وسائل الاتصال الجماهيرية. فمن شأن جماعات المناقشة المتباينة التكوين أن تتحدث بصراحة في هذا النوع من الموضوعات البحثية. وتكون مثل هذه الجماعات متنوعة من حيث النوع الاجتماعي، والعرق، والتوجه الجنسي، والطبقة الاجتماعية، وربما من حيث العمر أيضاً. لذلك فإن البيانات الناتجة لن تمدنا بفهم عميق لهذا

النمط المثالي للجسد الأنثوي الذي تعرضه وسائل الاتصال الجماهيرية، ومع ذلك، فإن من شأن هذه البيانات أن تُمدنا برؤية ثاقبة لمختلف أنواع التصورات والاتجاهات السائدة في ذلك المجتمع بوجه عام. وسوف تكون أمثال تلك البيانات، والتي قد تكون مجرد مرحلة تمهيدية لجمع البيانات، سوف تكون ذات قيمة كبيرة في التفكير الشامل في البحث المستقبلي، المزمع إجراؤه، كما قد تُوحى بتطوير الأسئلة الخاصة بجماعات المناقشة المركزة التي قد تُشكل فيما بعد، أو غيرها من أشكال جمع البيانات، والتي تتراوح بين المقابلات المتعمقة والمسوح الاجتماعية الكمية.

يُفضّل الباحثون الكيفيون - بوجه عام - اختيار جماعات المناقشة المركزة المتجانسة. وهي جماعات يتشابه أعضاؤها مع بعضهم البعض. وبناءً على سؤال البحث، قد يكون من المهم أن ينتمى جميع أعضاء الجماعة إلى نفس الجنس، أو العرق، أو التوجه الجنسي، أو الطبقة الاجتماعية، أو السن، أو الوظيفة، أو المستوى التعليمي، أو الحالة الصحية، أو في خبرة حياتية معينة، أو في توليفة ما من الاعتبارات المذكورة. وتكون الجماعات المتجانسة ملائمة عندما يحتاج الباحث للتوصل إلى فهم عميقٍ للكيفية التي يشعُر بها أعضاء جماعة معينة بقضية معينة أو كيفية تفكيرهم فيها. مثال ذلك، أنه عندما كنا بصدد دراسة الأساليب الفريدة لشعور المثليين الذكور بصورة الجسد، كان من المهم أن نستعمل الجماعات المتجانسة المكونة من أعضاء من المثليين الذكور - وهذا بلا ريب أمر جليّ تمامًا. وفي هذه الحالة لم نكن نشعر في مرحلة البحث الاستطلاعي بأن العرق الذي ينتمي إليه المبحوثون أمر ذو أهمية محورية، ولذلك كان المشاركون في بحثنا (الاستطلاعي) غير متشابهين عرقيًا مع بعضهم البعض. وتتمتع الجماعات المتجانسة بميزة مهمة ذاتية وأصلية فيها تتمثل في أن هذه الجماعات تساعد بصورة نموذجية في توفير مستوى من الراحة النفسية داخل الجماعة يُعزز انسياب الحوار بين الباحث وأعضاء الجماعة وبين هؤلاء الأعضاء وبعضهم البعض. ذلك أن الأفراد يميلون للشعور بمزيدٍ من الراحة النفسية عند الكلام داخل جماعة ما عندما تجمعهم أمور مشتركة مع بقية الأعضاء من أول لحظة يبدأون فيها الكلام.

ويزداد هذا الأمر وضوحاً وأهمية في حالة مناقشة الموضوعات الحساسة كالحياة الجنسية مثلاً، أو الاضطراب الجسدي، أو العنف، أو الاكتئاب، أو الإدمان، أو التعصب العنصري، وما إلى ذلك. وحيث إن دينامية الجماعة تُعد مُتممة لتطور عملية السرد، فإن ميزة تجانس الجماعة تكتسي أهمية لها دلالتها.

يُضاف إلى ذلك أن تركيبة الجماعة قد تؤثر في تحديد مَنْ هم الذين سيكونون أكثر أو أقل احتمالاً لأن يعبروا عن أنفسهم تعبيراً كاملاً. ويحدث هذا الأمر بطرق قابلة للتنبؤ بها إلى حد معقول. فأصوات الأقليات تميل لأن "تُكتم" داخل جماعات تسيطر عليها الأكثرية (كيتزنجر، ١٩٩٤، ص ١١٠). وتنتج هذه العملية معرفة تحظى بأفضلية ناجمة عن موقع السيطرة. ويمكن القول - بعبارة أخرى - إن علاقات القوة المجتمعية المتفاوتة بسبب العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي، والتوجه الجنسي قد يتم تكرارها في جماعات المناقشة التي تضم أعضاء ذوي مكانات اجتماعية مختلفة. وهذا سبب آخر يفسر ميل بعض الباحثين إلى اختيار تجانس أفراد جماعة المناقشة المركزة، خاصةً منهم الباحثين النسويين وغيرهم من الباحثين الملزمين بالوصول إلى أصوات الجماعات المهمشة التي من المعهود كتمانها داخل ثقافتنا.

إن من صور تصميم المشروعات البحثية الصورة شائعة الاستعمال التي تُعظم مقدار المنافع المستفادة من تجانس أعضاء الجماعة في نفس الوقت الذي تُتيح فيه الفرصة للمقارنة بين الجماعات، والتي تسمى التقسيم (إلى مجموعات فرعية Segmentation). ويحدث ذلك عندما تتكون كل جماعة من أعضاء متشابهين، إلا أن المجموعات المختلفة داخل الدراسة ككل تكون مختلفة عن بعضها البعض. معنى ذلك - بعبارة أخرى - أن التقسيم أسلوب لتصنيف أفراد مجتمع البحث بناءً على بعض السمات المعينة التي تريد (أيها الباحث) أن تستكشف الفروق الموجودة بينها في تلك السمات. وبالرجوع إلى الدراسة المفترضة عن تصورات الناس لما تنقله وسائل الاتصال من صورة مثالية لجسد الأنثى، لنفترض أننا كنا نريد أن نتحقق من المقارنة بين طريقة الرجال وطريقة النساء في التفكير في هذه القضية. هنا يكون بإمكاننا أن نكون

مجموعتين من النساء فقط ومجموعتين من الرجال فقط. ومن الممكن أن تكون هذه الدراسة أكثر تعقيداً لو كنا مهتمين بمسألة النوع الاجتماعي ومسألة الاختلافات العرقية. فقد تدلنا مراجعتنا للتراث المنشور حول الموضوع إلى أن اعتبار العرق - مثلاً - يؤثر على تبني المجموعات النسائية (المشاركة في البحث) لهذه الصورة المثالية التي تنقلها وسائل الاتصال. وقد نقوم بعد ذلك بتكوين مجموعتين من كل من التركيبات التالية: الرجال البيض، والرجال السود، والنساء البيض، والنساء السود. وبناءً على ما إذا كنا نتصور أن الطبقة الاجتماعية والسّن اعتباران وثيقا الصلة بموضوع البحث من عدمه، فإن بإمكاننا أن نفحص عن تأثير هذين العاملين عن طريق تكوين مجموعات يتشابه أعضاؤها مع بعضهم في هذين البعدين.

وإن عُنصراً كبيراً من عناصر الجاذبية في طريقة التقسيم (إلى مجموعات فرعية) ليتمثل في أنها توجد نوعاً من البُعد المقارن في هذا البحث (مورجان ١٩٩٦، ص ١٤٣). ومن شأن دراستنا لصورة الجسد عند المثليين من الذكور أن تقدم مستوى آخر من المعرفة لو أننا أجرينا مقابلات جماعات مناقشة مركزة مع غيرهم من الذكور الطبيعيين. ذلك أن البُعد الذي يتصف به هذا البحث سوف يُزودنا بفهم أشمل للصلة القائمة بين صورة الجسد والهوية الجنسية (أو الميول الجنسية)، وأن يتيح لنا عقد مقارنات قوية. وبقدر ما تتصف به طريقة التقسيم (إلى مجموعات فرعية) في تصميم مشروعات البحث من إثارة، فإنها تتسبب كذلك في بذل جهد إضافي (حيث من المعهود في هذه الحالة أن يزداد عدد المجموعات ويزداد حجم تحليل البيانات ذات الطبيعة المركبة). ومن ثم يُصبح عامل الوقت وغيره من القيود المادية الأخرى حاسماً في التأثير على جدوى هذا القرار. ذلك أن القرارات الخاصة باختيار العينات تؤثر على كل من العدد الكلي للجماعات وعلى حجم كل جماعة منها. ومن الناحية المثالية ينبغي أن تتخذ القرارات الخاصة باختيار العينات في ضوء الهدف الذي يتوخاه البحث.

إن درجة استعمال أسلوب تقنين معين تُعد هي الأخرى قضية في غاية الأهمية عند تطوير بحث قائم على طريقة جماعة المناقشة المركزة. ذلك

أن التقنين يشير إلى "مدى استعمال نفس الأسئلة والإجراءات في كل جماعة" (مورجان، ١٩٩٦، ص ١٤٢). وينبغي أن تقوم درجة المعايرة على نوع من التناسب المنطقي مع سؤال البحث. ويقوم باحثو السوق عادة بتعظيم الاستفادة من عملية التقنين نظراً لنوع المعلومات التي يبحثون عنها - فهم يريدون أن تظل كل جماعة على نفس المستوى الموحد، وأن تجيب على الأسئلة التي سبق صياغتها. وتتمثل الميزة الرئيسية للتقنين - والتي تُعد كذلك ميزة جذابة في نظر الباحثين الأكاديميين - في أنها تتيح للباحثين أن يعقدوا مقارنات "صحيحة" يُعتمد بها بين كافة الجماعات التي تتناولها الدراسة. وتبدو هذه الميزة أوضح ما تكون عند التعامل مع العينات المقسمة التي تتسم بمبدأ القابلية للمقارنة كجزء من هدف البحث.

وبالعودة للتفكير في المثال الخاص بدراستنا عن صورة الجسد عند المثليين من الذكور، رأينا كيف أن تطبيق طريقة التقسيم (إلى مجموعات فرعية) على إجراءاتنا الخاصة باختيار العينات من شأنه أن يضيف أبعاداً أخرى إلى بياناتنا. إذ يتيح لنا مثل هذا التصميم -خاصة- أن نلقي ضوءاً على العلاقة بين الهوية الجنسية وصورة الجسد داخل جماعات المبحوثين من الذكور. ومن شأن ظهور أي اختلافات نمطية بين مجموعات المثليين من جهة ومجموعات الذكور الطبيعيين من جهة أخرى، أن تشكل إسهامات مهمة جداً في معرفتنا عن الهوية الجنسية وصورة الجسد عند الذكور. ومع ذلك، فإن وضوح الرؤية فيما يتصل بما بين مجموعتي هاتين من الفروق، والقائمة على التوجه الجنسي وحده، يتطلب درجة عالية من القابلية للمقارنة بين مجموعة الطبيعيين ومجموعة المثليين. وبتعبير آخر نقول، إنه لكي نربط الفروق الموجودة بين هاتين المجموعتين بالتوجه الجنسي لأعضاء الجماعة - وهو أمر في غاية الأهمية بالنسبة للطريقة التي اتبعناها في صياغة هدف بحثنا - يتوجب أن تكون هاتان المجموعتان متماثلتين في كافة الاعتبارات الأخرى كما يتوجب أن تكون هاتان المجموعتان قد أُجريت معهما مقابلات لها درجة عالية من القابلية للمقارنة. وقد يُشير الباحث ذو النزعة الكمية إلى هذا الأسلوب بوصفه نوعاً من الضبط الهادف للجمع بين المتغيرات، وهو ما يمكن

- كذلك- تصوّره باعتباره أسلوباً يختزل الظروف المحيطة ويخفف من تأثيرها إلى أدنى حد. ورغم وجود المزايا الممكنة الناجمة عن التقنيين الصارم، وبالذات حين تكون المقارنة بين الجماعات جزءاً من هدف البحث، فإنه يوجد كذلك قدر كبير من المزايا عند تطبيق الأساليب البحثية المفتوحة والأساليب القائمة على أساس النظرية الموثقة على مقابلة الجماعات، وهو الأمر الذي يترتب عليه إثارة التخفف من بعض الصرامة الموجودة في عملية التقنيين.

فعلى حين يقوم التقنيين بتعزيز القابلية للمقارنة، تتيح تصميمات البحث ذات الأسلوب المفتوح للمبحوثين مزيداً من الحرية في التحدث عن خبراتهم الخاصة ولاستعمال لغتهم الخاصة بأساليب لها مدلولها عندهم. وبالمثل، تتيح تصميمات الأسلوب المفتوح لدينامية الجماعة أن تتدفق، مُنتجة بذلك سرديّة فريدة لا تكمن قوتها في المفاهيم التقليدية للقابلية للتعميم. ذلك أن الأساليب الأقل تقنياً تتيح للبيانات أن تتبثق من داخل التفاعل بين أعضاء الجماعة. زد على ذلك، أن الاتجاه القائم على تطبيق المزيد من قاعدة تَعَلَّمَ وأنتَ ماضٍ في بحثك "learn as-you-go" يَتيح للباحث أن يطبق ما تَعَلَّمه في مجموعة ما على المجموعة التالية. ومن ثَم، فإن أي خطأ أو إغفال (بند من البنود) يقع في دليل المقابلة لن يؤثر على أي مجموعة تتناولها الدراسة. ويُعد ما تتمتع به الأساليب البحثية المفتوحة من جاذبية واسعة الانتشار؛ يُعد متطابقاً من عدة وجوه مع الجاذبية التي يحظى بها البحث الكيفي على نطاق أوسع.

يهتم الباحثون الكيفيون بفهم الحياة الاجتماعية فهماً ينطلق من وجهة نظر هؤلاء الذين يعيشون تلك الحياة. وتتيح مقابلات جماعات المناقشة المركزة - التي تتم داخل إطار تصميم مفتوح- للأفراد المشاركين أن يساعدوا في تشكيل الموضوع بأساليب لها مدلولها ومعناها عندهم. ذلك أن شركاء البحث هؤلاء (المبحوثون) يتحولون إلى "مؤلفين مشاركين" للقصة المتولدة من هذا البحث. ويكون لدى الباحثين الفرصة للسماح للمفاهيم والموضوعات الأساسية المهمة أن تتبثق انبثاقاً مباشراً من موقف المقابلة. ويكون بوسعهم أن يستعملوا ما تعلموه من إحدى المجموعات في دراسة المجموعات اللاحقة لها.

ذلك أن أيا من النظريات التي يصوغها الباحث فيما يتعلق بما تعدّه هذه الجماعة مهماً في نظرها، إنما تتطور بصورة استقرائية من خلال جمع البيانات، ولا يقتصر أمر صياغتها على الباحث وحده، كما نجدّها منعكسة بصورة واضحة من خلال دليل بحث مُحكم يمكن الانتفاع به بعد ذلك في إنتاج بيانات يترجّح أن تُعزز ما سبق تبنيه من نظريات.

وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب في التفكير في العملية البحثية مغرباً على وجه الخصوص - للعلماء النسويين والعلماء الآخذين بمفهوم التعددية الثقافية وغيرهم من العلماء ذوي الدوافع السياسية الملّزمين بالوصول إلى الأصوات المقهورة، وذلك على نحو ما يبدو في دراستنا لصورة الجسد عند الفتيات السود. فقد أُجريت تلك المقابلات في إطار تصميم مفتوح من شأنه أن يتيح للمبحوثين فرصة المساعدة في تشكيل النقاش باستعمال أساليب يُعدّونها مهمة وذات مغزى في نظرهم. زد على ذلك، أن تطبيق أسلوب بحثي قائم على النظرية الموثقة على كل من عملية جمع البيانات وعملية تحليل البيانات أتاح للموضوعات الأساسية أن تتبّنى بصورة مباشرة من كلام هؤلاء الفتيات، إذ كنَّ يَعتمدن اعتماداً مباشراً على أفكارهنّ، ولُغتهنّ وأساليبهن الشخصية في فهم سلوكياتهن واتجاهاتهن الخاصة. وقد كنا نعمل - كذلك - في الدراسة المذكورة انطلاقاً من وجهة نظر نسوية، كما كنا ملّزمين - وفقاً لوجهة النظر هذه - بخلق المعرفة بالتعاون مع شريكات البحث (المبحوثات) ومن أجلهنّ.

وتوجد كذلك أساليب لوضع تصميم بحثك اعتماداً على اتجاهات بحثية تتفاوت في درجة تقنيّتها. ويُبين مورجان (١٩٩٣، ١٩٩٦) نوعين من التصميمات البحثية المختلطة. يتمثّل أحد هذين الاختيارين في تطبيق "نموذج القمع" (١٩٩٦، ص ١٤٣). وفي هذه الحالة تبدأ كل مقابلة لجماعة مناقشة مركزة بمستوى عالٍ من التقنين (فتبدأ كل الجماعات بمجموعة محدّدة من الأسئلة). ثم يتم بعد ذلك تخفيف درجة الضبط المتبع مع هذه الجماعة بحيث يُتاح للموضوعات التالية فرصة أن تتولد بصورة طبيعية من واقع ما يتحدّث به الأفراد تلقائياً (١٩٩٦، ص ١٤٣). ويتمثّل الاتجاه الثاني في الانتفاع بهذه الجماعات الأولى ضمن الدراسة بوصفها مجموعات استطلاعية أي للاسترشاد

بما تولد من أفكار أثناء العمل معها، وذلك بتطبيق مستوى منخفض من التقنين في هذه الحالة (١٩٩٦، ص ١٤٣). وتُسعمل البيانات التي تم جمعها حينئذ في دليل بحث ذي مستوى عالٍ من التقنين لاستعماله مع الجماعات اللاحقة. ويُعتبر هذا النوع من التصميمات البحثية مشابهاً جداً لاستعمال جماعات المناقشة المركزة كوسيلة لتطوير البحث المسحي تناسب في لغتها وأفكارها مع مجتمع البحث المستهدف.

دور الباحث في جماعات المناقشة المركزة: وسيط الحوار

للباحث في مقابلات جماعات المناقشة المركزة دور فائق الخصوصية وشديد الأهمية يختلف عن دور الباحث/ أو المُنصّب الذي يضطلع به الباحث في موقف المقابلة المتعمقة. ففي سياق جماعة المناقشة المركزة يقوم الباحث بدور وسيط الحوار. ويؤثر هذا الوسيط تأثيراً عظيماً في تدفق الحوار، ومن ثمَّ يؤثر في دينامية الجماعة وفي نهج السردية الجماعية. وقد تختلف أساليب الوساطة اختلافاً عظيماً جداً، وهو الأمر الذي يُعدّ واحداً من مظاهر الجاذبية العامة التي تتصف بها طريقة جماعات المناقشة المركزة. وإنَّ بالإمكان تخطيط هذه الأساليب بطرقٍ كثيرة من أجل الوفاء بالمتطلبات التي يقتضيها هدفٌ بحثي مُعين، ونلاحظ في الواقع -وعلى النقيض من التصورات الشائعة- أن جزءاً من الدور المهم للوساطة يُنفذ فعلاً قبل أن تتلاقى جماعات المناقشة المركزة (مورجان، ٢٠٠٢).

ويلاحظ أن عملية اختيار الأفراد المشاركين (المبحوثين) لا يرتبط فقط باختيار العينات، بل يرتبط كذلك بعملية إدارة الحوار. ويرجع ذلك إلى أن تبني أسلوب حر في المقابلة، يُتاح فيه للمبحوثين أن يتكلموا على سجيّتهم، لن يتمنى أن يكون اختياراً متاحاً لتصميم البحث إلا إذا كان الأفراد المشاركون سيحدثون باستفاضة. وبتعبير آخر نقول، إن المستويات المنخفضة من التدخل في إدارة الحوار والتحكم الذي يمارسه الباحث لا يمكن أن توجد إلا في الجماعات التي يتبادل أعضاؤها الحديث مع بعضهم البعض بحرية. لذلك، فإن كُنْتَ تتوقع استعمالك لاتجاه أقل تحكماً وضبطاً في إدارة الحوار (وهو الموضوع الذي سوف نناقشه بالتفصيل قريباً)، إذن فإن من الأمور الحيوية

اختيار الأفراد المشاركين (المبحوثين) الذين يكونون مهتمين اهتماماً شديداً بموضوع البحث (مورجان، ٢٠٠٢، ص ١٤٩). ومن الأمور المعهودة - وهو ما يتعين علينا جميعاً أن نواجهه - أننا كباحثين نكون بصفة عامة أكثر اهتماماً بمشروعنا البحثي من أي شخص آخر يمكن أن يهتم به. وإذا اتفقا على ذلك، فإن بمقدورنا أن نقطع شوطاً بعيداً في مجال خلق تشكيلة متنوعة من الاختيارات الممكنة لتصميم البحث عن طريق اختيار الأفراد الذين يكونون هم الآخرون مهتمين اهتماماً شخصياً بالموضوع الذي ندرسه.

ويُعد دليل المقابلة عنصراً حاسماً آخر لنجاح جماعة المناقشة المركزة. ويستطيع دليل المقابلة - تبعاً لأهداف البحث العامة ولتصميم البحث - أن يحوي صياغة تفصيلية جداً في صورة قائمة تضم الموضوعات الرئيسية والفئات الفرعية للأسئلة المحددة. في حين نصادف دليلاً آخر للمقابلة أقل صرامة، وذلك إذا كان يضم فئة من الموضوعات العامة و/أو بعض الأسئلة المفتوحة. وتعد الأسئلة المناسبة - وأعني بها الأسئلة المصممة لاستخراج نوع البيانات التي يسعى وراءها الباحث، تُعد أمراً جوهرياً لنجاح جماعة المناقشة المركزة. وتبعاً لذلك يقترح مورجان إجراء اختبار قبلي للأسئلة (١٩٩٥، ص ٥٢٠). وبإمكانك أن تجري اختباراً قبلياً للأسئلة باستعمالك للمقابلات الفردية أو الجماعية وفقاً لما هو متاح لك من الوقت والموارد التي تستطيع تدبيرها لتحري صدق دليل المقابلة.

ربما يكون السؤال الافتتاحي أهم جزء في دليل المقابلة، لأنه يساعد على تحديد الطابع العام للمقابلة بأكملها. فالسؤال الافتتاحي الجيد والمناسب يُحفز الأفراد المشاركين (المبحوثين) على الكلام، كما أنه يقودهم - في الظروف المثالية للمقابلة - إلى الدخول في اتجاهات أخرى تهتمك وسبق لك أن فكرت فيها. وبتعبير آخر نقول، إن السؤال المكتوب بطريقة جيدة (وبالذات السؤال الافتتاحي، مع أن هذا الحكم يصدق كذلك على سائر الأسئلة التي ترد في خطة بحث ذات نهاية مفتوحة) لن يقتصر على قذح زناد المناقشة، بل سيوحي كذلك بالاتجاهات التي يتواصل فيها الحوار الجماعي. وعندما يحدث ذلك فقد يحصل الباحث على إجابات لكثير من أسئلة المقابلة بدون أن يحتاج

إلى طرحها أصلاً. وسوف نتحدث عن هذا الموضوع بقدر أكبر عندما نناقش مسألة مستوى اشتراك الوسيط الذي يدير الحوار، ولكن بالنسبة للوقت الراهن يهنا الإشارة إلى أهمية السؤال الافتتاحي. ومع ذلك، قد تبدأ مقابلة جماعة المناقشة المركزة، ويبدأ بذلك دليل هذه المقابلة، بشيء آخر غير توجيه سؤال. وهذه إمكانية أخرى يتعين على الباحث أن يدخلها في اعتباره قبل التقائه بهذه الجماعة.

وتقترح كيتزنجر (١٩٩٤) بدء لقاء الجماعات بنوع من التمارين كلعبة أوراق ملونة أو صورة أو بطاقات العبارات الموجزة^(*). إذ أن مثل هذا النشاط يقوم بدورين معاً: فيكون بمثابة "نقطة مرجعية خارجية مشتركة" كما يكون بمثابة "لعبة جماعية" تعمل على تسخين الأفراد المشاركين و "تشجيع دفن في الجو"، كما تساعد على جعلهم يشعرون بالراحة النفسية لوجودهم في هذه الجماعة (ص ١٠٧). وقد استعملت كيتزنجر أنواعاً مختلفة من ألعاب الورق التي جرت العادة على أن تضم أفراداً مشاركين يجمعون الأوراق سابقة الإعداد في أكوام. وكانت هذه البطاقات تحمل صوراً، أو إعلانات، أو مكتوباً فيها آراء، أو حكايات عن أحداث أو أفراد، إلى آخر ذلك. ثم يقوم الأفراد المشاركون بوضع البطاقات في مجموعات على أساس مدى توافقها أو عدم توافقها مع الموضوع الذي يتحدث عنه الباحث (ص ١٠٧). مثال ذلك أنه قد تقدم للمشاركين إعلانات ويطلب منهم أن يضعوها في أكوام بناءً على اعتبارات ما، كمدى كون الإعلان "مؤثراً" أو "تابياً" في نظرهم (ص ١٠٧). ويمكن لهذا النوع من الألعاب خاصة أن يكون مجدياً عندما تكون جماعة المناقشة المركزة مهتمة بموضوع عسير أو شائك. وقد وجدت كيتزنجر أن لعبة البطاقات المذكورة عظيمة النفع في بحثها عن الأثر الذي أحدثته الصور التي نشرتها وسائل الاتصال عن مرض الإيدز.

وقد وجدنا أن أسلوباً "بديلاً" لافتتاح "مقابلة" جماعة المناقشة المذكورة فعال جداً في عملنا عن صورة الجسد عند المتألمين من الذكور. وفي تلك

(*) Vignette.

الحالة، كانت الباحثة الرئيسية (هس-بيير) ترى أن استخدام شخص آخر ليقوم بإدارة الحوار في مقابلة جماعة المناقشة المركزة من شأنه أن يكون أكثر فائدة للبحث. ولما كانت هذه الجماعة استكشافية في طبيعتها، وكانت هذه البيانات تُستعمل في تلك الفترة للمساعدة في تشكيل بحث آخر كنا نقوم بالمثل فيه، فقد كان من المهم لهذه الجماعة أن تشعر بالارتياح النفسي بقدر الإمكان. ويصدق هذا الكلام بصفة خاصة وعلى الدوام عند التعامل مع الجماعات المُهمَّسة التي كثيراً ما تكون ضحية لمكانتها الاجتماعية داخل جماعة مُعينة، والتي هي في هذه الحالة جماعة من جماعات الأقليات الجنسية. ولما كان الوسيط البديل موجوداً، وهو نفسه مثليّ يعيش في نفس المنطقة الجغرافية مثل المشاركين في بحثنا ومن نفس فئتهم العمرية، فقد استخدم ليقوم بدور الوسيط مع هذه الجماعة، كما أعطى دليلاً للمقابلة مكوناً من ١٢ سؤالاً مفتوحاً. ومع ذلك فقد كان افتتاح الدليل -في واقع الأمر- نصاً مُقتبساً عن صورة الجسد عند المثليين من الذكور أخذ من كتاب نُشر سنة ١٩٨٠. وقد بدأ هذا الوسيط مقابلة جماعة المناقشة بقراءة هذا النص المُقتبس المكون من فقرة كاملة. ثم قدّم نفسه بعد ذلك وتَجول في الحجرة داعياً كل فرد إلى أن يقدم نفسه. ثم أخذ بعد ذلك، -حسب دليل المقابلة - يسأل عن ردود أفعال الأفراد على هذا النص المُقتبس. لقد كان هذا الاستهلال فعالاً للغاية في بدء حوار متعمق لدرجة أن هذا الوسيط كاد ألا يحتاج إلى طرح أي سؤال من الأسئلة المتبقية في الدليل، فقد أمده هذا الحوار بالإجابات المطلوبة جميعاً. بعد هذا نبدأ في التحرك بالخروج من الحديث عن التحضير لدور الوسيط والانتقال إلى المسائل الخلافية لعملية الوساطة (إدارة الحوار) أثناء المقابلات الفعلية لجماعات المناقشة المركزة.

إن الأسلوب الذي يختاره الباحث لإدارة الحوار أثناء مرحلة جمع البيانات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرارات الخاصة بدرجة التقنين في إجراءات المقابلة. ففي مشروع بحثي ذي درجة عالية من التقنين يترجح أن يحتفظ الباحث بمستوى عالٍ من التحكم في عملية إدارة الحوار، بينما يحدث في الخطط البحثية الأكثر تلقائية أن يؤثر الباحث التخفيف من هذا التحكم، ويختار أسلوباً في إدارة الحوار أكثر حرية. ويميز مورجان (١٩٩٢، ١٩٩٦) مجالين

رئيسيين يمارس فيهما الباحث مستوى ما من السيطرة على إدارة الحوار قد يتراوح بين التحكم الشديد والتدخل الطفيف جداً. فالوسيط هو الذي يُقرر المدى الذي سيبلغه في التحكم في المسائل التي تُناقش. فهل سيتيح الوسيط للجماعة أن تتحرف بعيداً عن مسار البحث لتمضي في اتجاهها الخاص بها كلما تواصل الحوار، أم أنه سوف يكون حريصاً على التحكم في تدفق الموضوع ليتأكد من أن الأفراد المشاركين لا يزالون سائرين على الطريق المرسوم لهم وهم يجيبون على مجموعة الأسئلة التي سبق تحديدها، أو وهم يركزون نقاشهم على الموضوعات المحددة من قبل؟ كما يقوم مدير الحوار بتوجيه دينامية الجماعة. ووفقاً لذلك، يستطيع هذا الوسيط أن يخلق حواراً أكثر إحكاماً وضبطاً يَحْظَى فيه جميع الأفراد المشاركين بفرصة الكلام فترات متساوية، أو يمكن له أن يسمح للمشاركين ولدينامية جماعتهم أن يقودوا الحوار. وتعني هذه الحالة الأخيرة أن بعض الأفراد (المبحوثين) قد يُهيمنون على الحوار بينما لا يتحدث الآخرون إلا قليلاً جداً. وكما تستطيع أن ترى، فإننا عندما نتكلم عن دور الوسيط فإننا في الواقع نتكلم عن البناء والتحكم. كما تتمثل مسائل إدارة الحوار في علاقة الشد - وال جذب التي لابد أن يسيطر عليها الباحثون الكيفيون الذين يستعملون طريقة جماعات المناقشة المركزة لتظل واقعة بين طرفي التقنيين والضبط من ناحية والتدفق الحر من ناحية أخرى.

ومن المعهود في مجال أبحاث السوق أن يمارس من يدير الحوار مستوى عالياً من التدخل من حيث طرح الأسئلة، والتحكم في الموضوعات، وفي توجيه دينامية الجماعة. فكثيراً ما يقوم الوسيط في هذا النوع من الأبحاث بالتحقق من أن كل فرد مشارك يجيب على نفس مجموعة الأسئلة، ومن أن الحوار لا يَشْرُد بعيداً عن الموضوع. ويعكس هذا المستوى العالي من تدخل مدير الحوار أهداف بحث السوق (مورجان، ١٩٩٦، ص ١٤٥). كما أن القيام بإدارة الحوار لحساب العملاء الذين يدفعون نفقات البحث، قد يتسبب كما ناقشنا هذا الموضوع من قبل - في جعل مدير الحوار يتفاعل تفاعلاً قوياً، ومن ثم يمارس درجة عالية من التحكم. ووفقاً لما يذهب إليه بوتشتا Putchta وبوتر Potter (١٩٩٩)، فإنه نظراً لأن باحثي السوق يسعون عادة للحصول

على البيانات ذات المستوى العالي من التقنين، فإن الوسطاء الذين يقومون بإجراء مقابلات جماعات المناقشة المركزة يُؤدّون مهمة "إدارة التلقائية" (أي توجيهها والتحكّم فيها). ولمعالجة هذه المهمة الخاصة بَزَغَت في أبحاث السوق ظاهرة جديدة وهي: أن مقابلات جماعات المناقشة المركزة أصبحت تعتمد في الغالب على "الأسئلة المحددة" (ص ٣١٩). إذ يقوم الوسطاء، عن طريق تعقيد الأسئلة من خلال استعمالهم لعناصر مكونة من أسئلة إضافية؛ يقومون بالمساعدة في توجيه الإجابات التي يتلقونها. وهكذا يغلب أن يظل المشاركون مُركّزين على الموضوع المطروح وأن يُجيبوا على الأسئلة بالأسلوب الذي يتوقعه الباحث، وذلك في حالة ما إذا كانت الأسئلة مُعقّدة، ومُحدّدة، ولها إجابات ممكنة، أو ربما يجيبون على الاقتراحات المطروحة داخل السؤال نفسه. وبعد أن أوضحنا ذلك، يهمنّا في الواقع أن ما يعنينا بدرجة أشدّ هو الكيفية التي يتبعها الباحثون الأكاديميون في معالجة مسائل إدارة الحوار.

من الممكن أن تختلف اتجاهات العلم الاجتماعي في مجال الوساطة (إدارة الحوار) في جماعات المناقشة المركزة اختلافاً كبيراً، إلا أنها تميل جميعها إلى التخفيف من درجة التحكّم في الحوار (مورجان، ١٩٩٦، ص ١٤٥). ويُنظر أحياناً إلى اتجاهات الوساطة ذات المستوى العالي من المرونة على أنها أكثر ملاءمة للمبادئ الرئيسية للبحث الكيفي، لأنها تمنح الأفراد المشاركين (المبحوثين) مساحة أكبر من التعبير يساهمون به في تشكيل الموضوع والحوار. ذلك أن المستويات المنخفضة من الوساطة تتيح للمبحوثين أن يسهموا بالقسط الأكبر من الكلام، طارحين بذلك توصيفات ثرية للحياة الاجتماعية وتفسيرات متعمقة للعمليات الاجتماعية. وعندما لا يتمسك الباحث بدليل صارم للمقابلة ويتيح -بدلاً من ذلك- للجماعة أن تتحكم في السرد، فقد تتحرك المقابلة في اتجاهات ربما لم يكن يتوقعها الباحث. وعندما يحدث ذلك فإن من الراجح أن يتوافر للباحث علمٌ بأمور لها أهميتها في نظر الجماعة المدروسة، ولم يكن يعرفها من قبل حتى يسأل عنها. وبذلك تصل هذه الجماعة وبصورة عاجلة إلى التأكيد على أهمية المجالات التي تعدّها مهمة في نظرها، كما يُتاح للباحث الفرصة لأن يتابع نقاش الجماعة الذي يجري في

اتجاهات جديدة ومثيرة. وتكونُ البيانات الناتجة مرتكزة ارتكازاً مباشراً على خبرة هؤلاء المبحوثين، وبالصورة التي يَرَوْنَ بها هذه الخبرات. ويُضاف إلى ذلك أنه إذا كانت دينامية الجماعة نفسها جزءاً مما تتم دراسته، فلا بد أن يُسمَحَ لها بالسير في طريقها بحرية. وإنَّ من شأنِ هذا الكلام أن يَصْنُقَ، مثلاً، على دراسة تتناول كيف يقوم أعضاء الجماعات الاجتماعية المهيمنة وأعضاء الجماعات الاجتماعية من الأقليات بالتفاعل معاً في بيئة جماعية معينة: أي مَنْ الذي يتكلم بحرية؟، ومن الذي يسيطر؟، ومن الذي يُكْتَمُ صوته ولا ينطق؟

ومن الفوائد الأخرى لاستعمال المستويات المنخفضة من التدخل في الحوار أن يرتفع احتمال قيام المبحوثين بتطوير وتشكيل المقولات والمفاهيم المستعملة في فهم خبراتهم. معنى ذلك بعبارة أخرى أنه إذا لم يفرض الباحث لغته على المبحوثين (وهو الأمر الذي يهدف إلى توجيه الإجابات)، فسوف يعتمد أولئك المبحوثون إلى تعريف الباحث وغيره من أعضاء الجماعة باللغة والمفاهيم التي تعدّ ملائمة لجماعتهم. مثال ذلك، أنه في دراستنا لصورة الجسد عند الفتيات السود أن استعملت مديرة الحوار خطة مفتوحة ذات مستوى منخفض من التحكم. وقد أتاح هذا الوضع للفتيات فرصة التركيز على المسائل التي لها أهمية في نظرهن، على خلاف المسائل التي كانت الباحثة تتصورها من قبل. ولا يقتصر أمرُ هذا الاتجاه على أنه يتيح للفتيات أن يتحكمن في تدفق الموضوعات فحسب، بل إنه يتيح لهن كذلك أن يستعملن اللغة التي لها معناها في نظرهن. معنى ذلك أن بيت القصيد ليس فقط ما يقال من الكلام، ولكن المهم بنفس القدر هو الطريقة التي يُقال بها هذا الكلام. وهذان الأمران يتأثران كلاهما بمقدار التحكم الذي يبذله الوسيط الذي يدير الحوار. مثال ذلك، أنه كانت تمر بالباحثة لحظات لا تفهمُ فيها مُصطلحاً كانت تستعمله هؤلاء الفتيات. فكان كل ما تقوله الباحثة هو: "أنا لا أعرف معنى ذلك المُصطلح". فتبادر الفتيات بتقديم شرح تفصيلي ثري لهذا المصطلح ولما يحمله من معنى. فقد كن يقمن - بلغتهن - بتفصيل هذا المصطلح تفصيلاً دقيقاً. وكثيراً ما تستعمل الخطط المفتوحة في البحوث الاستكشافية؛ ومع ذلك، فإن كثيراً من الباحثين الكيفيين يرون أن الخطط الأقل تقنيا والتي تشجع المبحوثين على

المشاركة بأفكارهم، ومشاعرهم، وخبراتهم، ولغتهم تتوافق بشكل أوضح مع مشاريعهم البحثية الكيفية.

إن من شأن الجماعة المثالية أن تبدأ بسؤال افتتاحي سبق تصميمه ليستحوذ على اهتمام المبحوثين، وذلك بقصد أن يقوموا هم أنفسهم باستكشاف سائر القضايا التي قد تصورها الوسيط تقريباً... وبطبيعة الأمر سيقوم واحد من المبحوثين في هذه الجماعة المثالية، وبصورة تلقائية، بتوجيه اهتمام الآخرين إلى الموضوع الخاص بالسؤال الثاني.. ويعيش أي شخص مارس عملية إدارة الحوار تلك اللحظة السحرية، عندما تتجه الجماعة مباشرة صوب ما تريده منها أن تتجه إليه، وبدون أي مساعدة منك... وبمقدور الوسيط (مدير الحوار) أن يتحرك في اتجاه نهاية المقابلة، وذلك باستعماله لطلب مغلف معروف، كأن يقول: "لقد كانت هذه المقابلة رائعة حقاً، وأود أن أختتمها بأن يلخص كل واحد منكم..." وليس على الوسيط في هذه الصورة المثالية للجماعة التي لا تتعرض إلا لمستوى منخفض من التحكم؛ ليس عليه إلا أن يطرح السؤال الأول والسؤال الأخير. وفيما عدا ذلك، تتولى هذه الجماعة نفسها في مناقشاتها تغطية كل موضوع ورد في الدليل. (مورجان، ٢٠٠٢، ص ١٤٨).

عندما يتاح للباحث أن يحظى بمبحوثين مهتمين بموضوع البحث اهتماماً شديداً وكونوا توليفة لجماعة مؤثرة، فإن هذا الاتجاه البحثي يصبح واعداً ومبشراً بالنجاح. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا يفسر سبب الأهمية البالغة لعملية اختيار المبحوثين والسؤال الافتتاحي (أو التمرين الافتتاحي). زد على ذلك أن التوجيهات التي تُعطى للجماعة تُعدُّ أمراً حيويًا في الاتجاهات البحثية المفتوحة (مورجان، ٢٠٠٢، ص ١٥٥). ذلك أن معظم المبحوثين لم يسبق لهم أبداً أن كانوا موضوعات للبحث الاجتماعي. ونظراً لأن هذا الباحث - الذي قد ينظرُ إليه المبحوثون على أنه هو وحده "الخبير" - هو الذي اختارهم للمشاركة، فإن عليه أن يتحمل مسؤولية تقديم الشرح الواضح لهم بأنه قد جُمعَ شمل هذه الجماعة معاً لأنهم هم الخبراء في هذا الموضوع، وأنه موجود معهم ليتعلم منهم. وأفضل طريقة لتحقيق هذا هو أن يتكلم المبحوثون بحرية وأن يغوص حديثهم إلى العمق بقدر الإمكان. وعلى ذلك يقتصر دور

الباحث على الاستماع الإيجابي. ويعتبر هذا النوع من التوجيه أساسياً عند استعمال خطة بحث مفتوحة. ومهما كان حظ الباحث من التوفيق والنجاح، فإنه بجانب قيامه بطرح السؤال الأول والسؤال الأخير، لن يتوجب عليه شيء إلا أن يقول للمبحوثين مثلاً: "هل يمكنكم أن تشرحوا لي هذا الأمر؟" أو يقول: "ماذا تقصدون بذلك؟" من وقت لآخر.

وتعد دينامية الجماعة واحدة من أهم الملامح الفريدة لطريقة جماعات المناقشة المركزة. وبإدخال أهمية دينامية الجماعة في الحسبان، فإن دور الباحث كوسيط يؤثر على عملية البحث تأثيراً عميقاً. وعليه يتعين بذل عناية كبيرة عند التفكير في طريقة إدارة الحوار، والذي يشمل التفكير في بعض القضايا التي منها، مثلاً، تحديد مستوى التحكم في المناقشة، وما هو مقدار التوجيه الذي سيستخدم، وإلى أي مدى سيطلب من المبحوثين أن يصوغوا قصتهم. وتعدّ عملية إدارة الحوار في حد ذاتها مهارة تتطلب الوقت والصبر من جانب الباحث. وأفضل أسلوب لتعلم كيف تكون وسيطاً بشكل فعال هو أن تمارس إدارة الحوار، فأنت بالممارسة ستزداد مهارة بمرور الوقت.

استعملت جوليا جونسون روتنبرج Julia Johnson Rothenberg وبيتر مكدرموت Peter McDormott، وهما من أساتذة التربية في كليات سيدج Sage؛ استعمالاً لطريقة جماعات المناقشة المركزة في بحث موضوع التربية والمشاركة الوالدية في المدارس الحضرية (٢٠٠٢). وإليك ما قالتها جوليا جونسون روتنبرج عن خطة البحث وعن عملية الوساطة (إدارة الحوار)، وذلك من حيث التطبيق والممارسة:

خلف الكواليس مع جوليا جونسون روتنبرج

قام بيتر مكدرموت، كما قمتُ أنا، بقراءة مقالات ومراجعات متعددة منشورة بالمجلات العلمية وتتعلق بجماعات المناقشة المركزة بعد أن تشككنا في عملنا الذي قمنا به مع مبحوثين شاركونا بحثنا عن المُدرسين الأكفاء الذين يعملون في مدارس تقع في أحياء شديدة الفقر. وقد كنا نعلم أن لدينا مشاعر جياشة تجاه مبحوثينا وتجاه عملهم. وقد بدأ لنا أن استعمال طريقة جماعة

المناقشة المركزة في البحث سيسمح لنا أن نصف - بصورة أوفى وأتم - تحيزاتنا الشخصية ومواقفنا الفكرية الموجودة في قصة بحثنا هذا.

وقد اتضح جانب آخر من هذا الاتجاه من خلال عملنا مع الوالدين. فقد كان هؤلاء المبحوثون أكثر صراحة معنا عندما كنا لا نكثر من وصفهم "كمبحوثين" أو "كموضوعات بحث" مزودين باستبيانات وأسئلة معدة سلفاً. ولذلك حينما كان ينظر إليهم بوصفهم خلفاءنا وأصدقائنا، فإنهم كانوا يتقاسمون معنا خبراتهم بصورة أكثر صراحة وانفتاحاً.

ومن الواضح أن عيوب هذه الخطة كامنة فيها: حيث لم تكن تتوفر لنا تلك الاستبيانات المصممة تصميمًا موضوعيًا، فقد كانت المقاييس من نوع مقياس ليكرت^(*) والأسئلة المعدة سلفاً والتي تستفسر عن كل الموضوعات.

لقد كان أمراً ساراً للنفس إلى حد بعيد أن يكون المرء مُدافعاً عن الوالدين الذين لهم أبناء في المدارس الحضرية. وقد كنا نؤمن إيماناً قوياً بالمساواة والعدل وتوفيرهما للأطفال في المدارس، كما كنا مغتبطين لمشاركة الوالدين في هذا الإيمان. كما كان يبدو عليهم الرضا بسبب ما نجريه من مناقشات معهم. وكنا نرى أن هؤلاء الآباء أماء في مناقشاتهم، أيضاً، وذلك لأنهم كانوا صرحاء في اختلافهم مع بعضهم وفي تأييدهم للبيانات التي يقدمها

(*) مقياس ليكرت Likert Scale: أسلوب واسع الاستخدام لقياس الاتجاهات. حيث يعرض على المستجيبين عدد من البنود المصاغ بعضها صياغة إيجابية والبعض الآخر صياغة سلبية، والتي وجد أنها تميز - بأكبر قدر من الوضوح - بين وجهات النظر المتطرفة حول موضوع الدراسة. فعلى سبيل المثال، قد يتم مواجهة المستجيبين في دراسة حول الإدراك الشائع للعدالة الاجتماعية بعدد من العبارات مثل عبارة: توزيع الدخل في الولايات المتحدة يتسم بعدم العدالة؛ وعبارة: "لكل فرد في مجتمعنا فرصة متساوية للحصول على تعليم جيد". ويطلب من كل واحد منهم أن يقرر كل عبارة في ضوء موافقته أو عدم موافقته عليها. ومن المؤلف أن يتم تسجيل الاستجابات على مقياس ثنائي القطبية مكون من خمس درجات فئوية (أوافق بشدة، أوافق، لا رأي لي، لا أوافق، لا أوافق بشدة). ويتم ترميزها ٢، ١، صفر، -١، -٢. ثم تجمع هذه الدرجات لكي تكون تقديرات مجمعة أو درجات اختبار أو قد يتم ربطها بمتغيرات أخرى أو تحليلها باستخدام التحليل العاملي، لكي تمثل مقياساً رقمياً أحادي البعد. للمزيد انظر، جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، مجلد ٣، ص ١٣٨٤ (المراجع)

بعضهم لبعض. ومن شواهد تلك الصراحة كلامهم عن كيف أن المدرسين لم يزوروا الحي الذي يسكنون فيه في المدينة أبداً، وكيف أن أولئك المدرسين لم يشاركوا أبداً في أحداث المجتمع المحلي الذي يعيش فيه الآباء وأطفالهم. وعندما سألناهم عما إذا كان يُوجد أي استثناء لذلك الحكم العام، ذكر جميع أعضاء الجماعة اسم مدرسة بإحدى رياض الأطفال حضرت بعض معارضهم المحلية وزارت بعض العائلات في بيوتهم.

ومع ذلك فقد كان يُساورنا هاجس يتصل بهذه المناقشات ومدى صدقها، إذ كنا على وعي بأن الناس يميلون - إلى حد ما - لحث بعضهم بعضاً على الشكوى بصفة خاصة. وحينما كنا نرغب في التدخل وفي طرح مزيد من الأسئلة المحددة، كانوا يُصرّون على شكواهم من المدارس والمدرسين. وربما كانت كل هذه الشكاوي صحيحة، إلا أنه بدا أن تأثيرات الجماعة على أعضائها كانت تفعل فعلها كذلك. لذلك أرى أننا كنا في حاجة إلى مزيد من الوقت نقضيه معهم، بحيث يتيسر لنا بعد فترة أن نرسخ أنماط التواصل وديناميات الجماعة التي يتكرر حدوثها بمرور الوقت. وإنني لأرى أن هذا هو الدور الأساسي للباحث مع جماعات المناقشة المركزة، وهو أن يقوم بتقييم هذه الديناميات وتحديد المواقع التي تحتاج إلى التحري والتحقق من مدى صحتها.

تحليل البيانات وعرضها

بمجرد أن يتم تجميع بيانات جماعات المناقشة المركزة وتدوينها، يكون الوقت قد حان لتحليلها وعرضها. ويتمثل أغرب جوانب هذه العملية - والخاص بمقابلات جماعات المناقشة المركزة - يتمثل في تعيين "وحدة التحليل" أي على أي مستوى يجري التحليل: هل على المستوى الفردي أم على المستوى الجماعي؟ والإجابة المختصرة هي التحليل على كلا المستويين. ذلك لأن تحليل جماعة المناقشة المركزة، هو موضوع فريد ومثير، شأنه تماماً شأن "لقاء الجماعة" نفسها، وعملية إدارة الحوار.

وبالإمكان تحليل سجلات مقابلات جماعات المناقشة المركزة -جزئياً- باعتبارها خليطاً من الإجابات الفردية. معنى ذلك بعبارة أخرى أن بالإمكان إجراء التحليل، بصورة جزئية، على المستوى الفردي. ويشير هذا التحليل إلى ما قاله كل عضو من أعضاء الجماعة على حدة، كما أنه يُشبه الطريقة التي يتبعها المرء في تحليل أي سجل من سجلات تدوين المقابلات. والأمر الذي يجعل تحليل جماعات المناقشة المركزة عملاً فريداً هو أن هذا النص المدون يُمكن تحليله - كذلك - على مستوى الجماعة. ومع أن القصص الفردية تمثل بنية هذا السجل، إلا أنه توجد كذلك "قصة جماعية" تظهر في النص المدون، وهي القصة التي تكون أكبر من مجموع أجزائها. ويعني هذا - بعبارة أخرى- أن دينامية الجماعة وتفاعل الجماعة يؤثران على البيانات ويُصبحان جزءاً من البيانات.

وعند التفكير في كيفية عرض بيانات جماعة المناقشة المركزة يتعين على المرء أن يأخذ في اعتباره الأمور التالية:

- ما هو سؤال البحث؟ ما هي المعلومات التي أحاول الوصول إليها؟
- على أي مستوى يجري التحليل (على مستوى الفرد، أم على مستوى الجماعة، أم كليهما معاً) وكيف يمكن عرض ذلك على أفضل صورة من صور الدقة؟

وبناءً على سؤال البحث ونوع التحليل المستخدم (أي هل هو تحليل أجري باليد، أم بالاستعانة بالكمبيوتر) يتم اختيار نوع العرض الملائم. وبالنسبة للمناقشة المتعمقة للتحليل والتفسير يُرجى مراجعة الفصل العاشر من هذا الكتاب، مع ملاحظة أن تحليل جماعة المناقشة المركزة يختلف نتيجة لوجود البيانات على مستوى الجماعة.

خاتمة

تعدُّ جماعات المناقشة المركزة طريقة بحث قيمة وموفرة للوقت لجمع البيانات الكيفية للمقابلة، والمستمدة من مجموعة من المبحوثين في وقت واحد. ويفيد إجراء مقابلات جماعة المناقشة المركزة - بشكل خاص- عند إجراء

البحوث الاستطلاعية حين لا يتوافر إلا القليل من المعلومات عن موضوع الدراسة، أو عندما يكون هذا الإجراء جزءاً من خطة بحث متعددة الطرق. هنا يُتيح إجراء مقابلات جماعة المناقشة المركزة للباحث الكيفي أن يكتشف السرديات (أو القصص) الفردية و السرديات (أو القصص) الجماعية التي تُعدّ الواحدة منها أكبر من مجموع أجزائها. وفي سياق مقابلات جماعة المناقشة المركزة يقوم الباحث بدور الوسيط (مدير الحوار) ويقرر درجة التوجيه والتحكم التي ستكون عليها المقابلة. وفي الوقت الذي تشكل هذه الجزئية نقطة قوة لهذه الطريقة، فإنها تتسبب - كذلك - في كثير من التحديات عندما يحاول الباحثون أن يتحكموا في دينامية الجماعة ثم يفهموها بعد ذلك. ومن تلك المشكلات مدى تأثير أعضاء الجماعة على بعضهم البعض، وتأثير ذلك على البيانات التي سيتم الحصول عليها في النهاية. وكما هو الحال دائماً، فإنه ينبغي استعمال هذه الطريقة عندما تخدم الأسئلة التوجيهية التي وضعها الباحث والتي تخدم أهداف بحثه.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **البعد المقارن** **Comparative Dimension**
من الأمور التي تجعل التقسيم (إلى مجموعات فرعية) شديد الإغراء أنه يتيح وجود مستوى آخر من المعرفة عن طريق عقد المقارنات بين تلك المجموعات الفرعية التي تتشابه من جميع النواحي فيما عدا مجالات الاختلاف التي بني عليها التقسيم.
- **نزع الصفة البادئة (الطبيعية)** **Denaturalization**
عملية فهم الأفكار والعادات المعيارية عن طريق تحدي الفروض التي تؤخذ مأخذ المسلمات - كضرورة الماء للسماك - والتي يصعب على المرء قلبها في ذهنه عادة.
- **البيانات الاستطلاعية** **Exploratory Data**
وهي البيانات الأولية التي تستخدم خلال مرحلة تصميم البحث. وهي في حالة جماعات المناقشة المركزة تكون تلك البيانات المستمدة من المسوح، ويتم الاسترشاد بها في وضع أسئلة المقابلات الجماعية.

- **أسلوب النظرية الموثقة** **Grounded Theory Approach**

يقصد به الأسلوب الذي يتيح للموضوعات الأساسية أن تبرز مباشرة من بين البيانات - وهم في حالة جماعات المناقشة المركزة: المبحوثون - وذلك باستخلاصها مباشرة من أفكارهم، ولغتهم، وأساليبهم في فهم أنماط سلوكهم واتجاهاتهم.

- **"مفعول الجماعة"** **"The Group Effect"**

هي الدينامية التي تتولد داخل الجماعة وتمارس تأثيراً على الأفراد وعلى استجاباتهم.

- **التحليل على مستوى الجماعة** **Group Level of Analysis**

يركز هذا النوع من التحليل على "السردية الجماعية" التي تتولد من المقابلة، والتي تكون أكبر من مجموع أجزائها (أي السرديات الفردية). معنى ذلك - بعبارة أخرى - أن دينامية الجماعة والتفاعل الذي يتم داخل تلك الجماعة من شأنه أن يؤثر على البيانات ويصبح جزءاً من البيانات التي سيجري تحليلها.

- **متباين (غير متجانس)** **Heterogeneous**

هي صفة للجماعة التي تتكون من مبحوثين غير متشابهين. ويكون هذا النمط من الجماعات ملائماً عندما يريد الباحث الحصول على مدى واسع متنوع من الاستجابات، ويكون مستعداً - في الوقت نفسه - بالتضحية بالفهم المتعمق لكيفية إحساس شريحة معينة من مجتمع البحث بالموضوع محل الدراسة.

- **متجانس** **Homogenous**

هي الجماعة التي تتكون من مبحوثين متشابهين. ويكون هذا النمط من الجماعات ملائماً عندما يريد الباحث التوصل إلى فهم متعمق لكيفية إحساس أفراد الجماعة أو كيفية تفكيرهم في أمر معين.

- **التحليل على مستوى الفرد** **Individual Level of Analysis**

تركيز التحليل على كل ما قاله كل فرد من أفراد جماعة المناقشة المركزة.

• وسيط (الحوار) (في جماعة المناقشة) Moderator •

يتعين على الباحث أن يقوم بدور الوسيط (الذي يدير الحوار) في جماعة المناقشة المركزة. ومن شأن أدائه لهذا الدور أن يؤثر تأثيراً كبيراً على تدفق الحوار، ومن ثم على دينامية الجماعة وعلى طبيعة السردية الجماعية. والأمور التي تشغل بال وسيط الحوار - أساساً - هي تنظيم المقابلة ودرجة التحكم فيها. وتعد أساليب الوساطة ذات المرونة العالية في نظر البعض أكثر اتساقاً والأسس الرئيسية للبحث الكيفي. وذلك لأن هذه الأساليب تفسح للمبحوثين (شركاء جماعة المناقشة) مجالاً أكبر في تشكيل وتوجيه الموضوع والحوار. وتتيح الدرجات المنخفضة من التدخل في إدارة الحوار؛ تتيح للمبحوثين أن يتولوا النصيب الأكبر من الحديث، فيزودوا الباحث بوصف ثرى للحياة الاجتماعية والتفسيرات المتعمقة للعمليات الاجتماعية.

• الأسلوب المفتوح Open-ended Approach •

في إطار هذا الأسلوب لا يفرض الباحث سوى مستوى منخفض من التنظيم على موقف المقابلة. ويختلف الأسلوب المفتوح عن الأسلوب المقنن في أن المفتوح يتيح للمبحوثين حرية أكبر للحديث عن خبراتهم الخاصة، وأن يستخدموا في التعبير عن ذلك لغتهم الخاصة على النحو الذي يكون ذا مغزى لهم.

• التقسيم (إلى مجموعات فرعية) Segmentation •

أسلوب في تصميم البحث من شأنه أن يعظم من مزايا التجانس بين أفراد الجماعة في نفس الوقت الذي يتيح فيه إمكانية المقارنة بين فئات مجتمع البحث. ويتم هذا التقسيم عندما تكون الجماعة مكونة من أعضاء متشابهين، ولكن مختلف جماعات الدراسة - ككل - تكون مختلفة عن بعضها البعض من بعض النواحي. فيكون التقسيم هو الأسلوب المتبع لترتيب الجماعات وفقاً لبعض السمات المعنية، عندما يريد الباحث اكتشاف أثر الفروق والاختلافات في سمات كالعرق أو النوع.

• التقيين Standardization •

يعني أن يجيب كل مبحوث عن نفس مجموعة الأسئلة، بحيث لا يشرّد الحوار بعيداً عن موضوع البحث.

• الأسلوب المقتن Standardized Approach

يشير مصطلح التقنين إلى "مدى استخدام نفس الأسئلة ونفس الإجراءات في كل جماعة من جماعات البحث"، بما يتيح للباحث أن يعقد مقارنات "صحيحة" بين كافة الجماعات الداخلة في الدراسة.

• Triangulation استخدام ثلاث طرق بحث

أي استخدام ثلاث طرق بحث في إجراء الدراسة.

* * *

أسئلة للمناقشة

١- كيف تختلف البيانات المتحصلة من داخل جماعات المناقشة المركزة عن

البيانات التي نحصل عليها من المقابلات المتعمقة؟

٢- من أي النواحي تختلف جماعات المناقشة المركزة التي تجري في بحوث

السوق عن مقابلات جماعات المناقشة التي تجري في بحوث علم الاجتماع؟

٣- كيف يؤثر أفراد جماعة المناقشة على بعضهم البعض داخل مقابلات

جماعات المناقشة المركزة؟ وكيف يؤثر هذا التفاعل على البيانات

المتحصلة من جماعات المناقشة المركزة؟ وما هي "دينامية" الجماعة؟

٤- كيف يمكن أن تعمل بعض جماعات المناقشة على إضعاف بعض أفراد

الجماعة؟ وكيف يمكن - من ناحية أخرى - استخدام جماعات المناقشة

لتمكين أعضائها؟ وما هي الصلة بين تمكين المشاركين والتراث النظري

الذي يوجه البحوث؟

٥- ما هو دور الباحث في جماعات المناقشة المركزة؟ وما هي مسائل

ومشكلات التحكم التي قد تواجه الباحث، وكيف تتأثر تلك المسائل

والمشكلات بالمعتقدات الإستمولوجية وبأهداف البحث؟

٦- كيف يمكن الانتفاع بالدراسة المسحية في توجيه عملية تنظيم عمل

جماعات المناقشة المركزة؟ وكيف يمكن المزج أو الربط بين جماعات

المناقشة والدراسة المسحية؟

٧- استعرض جوانب القوة والضعف في تنفيذ جماعة المناقشة المركزة الأقل تقنيا؟

٨- كيف يمكن اختيار عينة واحدة لتكوين جماعة مناقشة؟ استعرض مزايا جماعات المناقشة المتجانسة بالمقارنة بجماعات المناقشة غير المتجانسة؟ و اشرح عملية التقسيم (إلى مجموعات فرعية).

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- أساسيات تنفيذ جماعات المناقشة المركزة
- Basics of Conducting Focus Groups

<http://www.mapnp.org/library/evaluation/focusgrop.htm>.

يقدم هذا الموقع عرضا عاما شاملا لكيفية تكوين جماعة مناقشة مركزة، وللأسئلة التي يمكن توجيهها، وكيفية إدارة جلسة جماعة المناقشة، وما يتعين عمله بعد انتهاء الجلسة. كما يتضمن هذا الموقع رابطا بعدد من المواقع الأخرى المفيدة على الإنترنت والخاصة بجماعة المناقشة المركزة.

- جديد البحوث الاجتماعية في جامعة ساري
- The University of Surrey Social Research Update

<http://www.soc.surrey.ac.uk/sru/SRU.19.html>

يحتوي هذا الموقع مقالا عن جماعات المناقشة المركزة من تأليف أنيتا جيبس، الذي نشر في مجلة جديد البحوث الاجتماعية، العدد ١٩. ويقدم المقال تعليقات حول تعريف جماعات المناقشة المركزة، وكيفية إدارة جلسة جماعة المناقشة، ومزايا جماعات المناقشة ونواحي ضعفها، وأخيرا المسائل الأخلاقية التي تطفو على السطح أثناء استخدام هذه الطريقة.

- **Qualitative Research: Telephone Focus-Groups, Face-to-Face Focus Groups** البحث الكيفي: جماعات المناقشة المركزة بالتليفون، وجماعات المناقشة المركزة المباشرة وجها لوجه.

http://www.mnav.com/qualitative_Research.html

يحوى هذا الموقع عدة روابط بمواقع أخرى تختص بالتعريف بكيفية إجراء الأنواع المختلفة من جماعات المناقشة المركزة، وكذلك بعض النصائح والاستراتيجيات التي يمكن الاستفادة منها عند التعامل مع جماعات المناقشة، سواء تم ذلك في المواجهة مباشرة أو عن طريق التليفون. كما يعرفك هذا الموقع على بعض جماعات المناقشة المركزة عبر شبكة المعلومات (الإنترنت). وتركز المقالات أساسا على استراتيجيات التسويق، وإن كان يمكن أن تتطرق إلى مجالات أخرى كذلك.

- **Focus Groups** جماعات المناقشة المركزة

<http://imwww.hhi.de/USINACTS/Tutorial /focus.html>.

يقدم هذا الموقع دروسا عن التعريف بجماعات المناقشة المركزة، وكيف يتم استخدامها ولأية أغراض، ومختلف مجالات الانتفاع بها، وأخيرا مزاياها وعيوبها.

- **Using Focus Groups for Evaluation** استخدام جماعات المناقشة المركزة في التقويم

<http://ag.arizona.edu/fcr/fs/cyfar/focus.htm>.

يتبع هذا الموقع جامعة أريزونا (الأمريكية)، ويحوي مقالا من تأليف ماري مارشاك Mary Masrczak و ميج سويل Meg Sewell. ويجب المقال عن التساؤلات عن ماهية جماعة المناقشة المركزة في الحقيقة، وما هي الأمور التي تستطيع جماعة المناقشة الكشف عنها وتلك التي لا تستطيع، وأخيرا عن كيفية تكوين جماعة مناقشة مركزة. كما يتناول المقال كذلك مزايا هذه الطريقة وعيوبها.

* * *

المراجع References

- Betts, N., Baranowski, T., & Hoerr, S. (1996). Recommendations for planning and reporting focus groups research. *Society for Nutrition, Education*, 8(5), 279-281.
- Bristol, T., & Fern, E. (1996). Exploring the atmosphere created by focus group interviews: Comparing consumers' feelings across qualitative techniques. *Journal of the Market Research Society*, 38(2), 185-195.
- Brotherson, M. (1994). Interactive focus group interviewing: A qualitative research method in early intervention. *Topics in Early Childhood special Education*, 14(1), 101-118.
- Carey, M. (1994). Forms of interviewing. *Qualitative Health Research*, 5 (4), 413-416.
- Costigan Lederman, L. (1990). Assessing educational effectiveness: The focus group interview as a technique for data collection. *Communication Education*, 38, 117-127.
- Frey, J. Fontana, A. (1991). The group interview in social research. *Social Science Journal*, 28(2), 175-188.
- Kitzinger, J. (1994). The methodology of focus groups: The importance of interaction between research participants. *Sociology of Health & Illness*. 16(1). 103-121.
- Krueger, R. (1994). *Focus groups: A practical guide for applied research* (2nd ed.) Thousand Oaks, CA: Sage.
- Matoesian, G., & Coldren, J. (2002). Language and bodily conduct in focus group evaluations of legal policy. *Discourse & Society*, 13(4). 469-493.
- McDermott, D., & Rothenberg, J. (2000). Why urban parents resist involvement in their children's elementary education. *The Qualitative Report*. 5 (3.4).
- Merton, R. K., & Kendall, P. L. (1946). The focused interview. *American Journal of Sociology*, 51, 541-557.
- Montell, F. (1999). Focus group interviews: A new feminist mehtod. *NWSA Journal*, 11(1), 44-70.
- Morgan, D. (2002). Focus group interviewing. In J. Gubrium & J. Holstein (Eds.), *Handbook of interview research: Context & method* (pp. 141-161). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Morgan, D. (1996). Focus groups. *Annual Review of Sociology*. 22. 129-152.
- Morgan, D. (1995). Why things (sometimes) go wrong in focus groups. *Qualitative Health Research*, 5(4), 516-523.
- Morgan, D. (1993). Future directions for focus groups. In D. Morgan (Ed.), *Successful focus groups: Advancing the state of the art*. Newbury Park, CA: Sage.
- Morgan, D., & Krueger, R. (1993). When to use focus groups and why. In D. Morgan (Ed.), *Successful focus groups: Advancing the state of the art* (pp. 3-19). Newbury Park, CA: Sage.
- Myers, G. (1998). Displaying opinions: Topics and disagreement in focus groups. *Language in Society*, 27, 85-111.
- Nasssar-McMillan, S., & Borders, D. (2002). Use of focus groups in survey item development. *The Qualitative Report*, 7(1). 1-11.
- Puchta, C., & Potter, J. (1999). Asking elaborate questions: Focus groups and the management of spontaneity. *Journal of Sociolinguistics*. 3(3), 314-335.

الفصل السابع

البحث الإثنوجرافى

تأملات فى العمل الميدانى الذى أجرى فى جزر تروبرياند Trobriand Islands (غرب المحيط الهادى) فى أوائل القرن التاسع عشر:

بعد وقت قصير من استقرارى فى جزر أمركانا تروبرياند، بدأت أقوم - بطريقة ما - بدور فى حياة القرية، وأتطلع لرؤية الأحداث المهمة أو التى تشكل أعياداً ومهرجانات هنا، وأن أهتم اهتماماً شخصياً بالشائعات وتطورات الأحداث فى هذه القرية، وأن أستيقظ كل صباح على يوم جديد، يبدو لى بنفس الطريقة التى يبدو بها - تقريباً - لأبناء الجزيرة. وكنت أخرج من تحت الناموسية لأجد من حولى حياة القرية وهى تبدأ فى الحركة، أو لأجد الناس يتقدمون بصورة جيدة فى يوم عملهم تبعاً لما تقتضيه هذه الساعة أو تبعاً لما يقتضيه الموسم أيضاً، وذلك لأنهم ينهضون من فرشهم و يبدأون أعمالهم فى وقت مبكر أو متأخر، حسب ما يمليه عليهم العمل. وبينما كنت أقوم بجولتى الصباحية فى دروب القرية، كان باستطاعتى أن أرى التفاصيل الدقيقة للحياة العائلية، كطرق التزين، والطبخ، وتناول الوجبات. وكان باستطاعتى أن أرى الاستعدادات والترتيبات الخاصة بعمل اليوم، فالناس يبدؤون فى الذهاب لقضاء مصالحهم، وجماعات من الرجال أو النساء مشغولة ببعض الأعمال الصناعية اليدوية. وكنت أرى المشاجرات، والدعابات، والمشاهد العائلية، والأحداث التى تكون فى العادة أحداثاً تافهة، وتكون أحياناً أحداثاً خطيرة ولكنها ذات دلالة فى سائر الأحيان، وذلك انطلاقاً من الجو العام لحياتى اليومية، وانطلاقاً من الجو العام لحياتهم اليومية كذلك. ولابد من ذكر أن الأهالى كانوا يروننى باستمرار كل يوم، وأنهم كفوا عن الاهتمام بوجودى أو الفرع منى أو تنبيه بعضهم لبعض بوجودى، كما أننى توقفت عن أن أكون عنصر إزعاج فى هذه الحياة القبلية التى جئت لدراستها، والتى كنت أغيرها بطريقتى التى تخصنى وحدى... والواقع أنه نظراً لأنهم كانوا يعلمون أننى أرغب فى دس أنفى فى كل شيء... فإنهم انتهوا إلى اعتبارى جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، أى شر أو

مصدر إزعاج لا بد منه، لا يخفف من وطأته إلا ما أعطيه لهم من السجائر.
(مالينوفسكى Malinowski: ١٩٢٢، صفحات ٧-٨).

كان برونيسلاو مالينوفسكى أحد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانيين من أصل بولندى، وقد قام بزيارات ميدانية عديدة عاش فيها بين سكان جزيرة تروبرياند من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٦، ثم كرر هذه الزيارات من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩١٨. وكان مالينوفسكى يريد أن يعيش بين الناس الذين يقوم بدراساتهم. وكان يشعر أن العمل الميدانى لابد أن يبدأ "بأن يقطع المرء نفسه عن صُحبة غيره من البيض، وأن يبقى على اتصال وثيق بالأهالى قدر ما يستطيع، وهو الأمر الذى لا يمكن تحقيقه إلا بأن يُعسكر داخل قُراهم تماماً". (ص ٦)

يهدف البحث الإثنوجرافى إلى الوصول لفهم متعمق للطريقة التى يتبعها الأفراد المنتمون إلى الثقافات المختلفة والثقافات الفرعية فى إدراك معنى واقع حياتهم التى يعيشونها. فالمعنى الحرفى لكلمة الإثنوجرافيا هو "الكتابة عن الثقافة". ويقوم الإثنوجرافيون "بالمُضى" داخل "العوالم الاجتماعية للسكان الموجودين فى مجتمع بحثهم، بينما يوجد أولئك الإثنوجرافيون "خارج هذا المجتمع" حيث يقومون بملاحظة وتسجيل الحياة الاجتماعية المتواصلة لأفراد هذا المجتمع، وذلك عن طريق تقديمهم "وصفاً مكتفياً" (جيرتز Geertz، ١٩٧٣) لهذه البيئة الاجتماعية والحياة اليومية للأفراد الذين يعيشون فى هذه الأماكن. فالإثنوجرافيون يقدمون صوراً تفصيلية لما فى ثقافة ما أو ثقافة فرعية ما، أو جماعة ما، من ممارسات وعادات الحياة اليومية. وكثيراً ما يقومون - أثناء ذلك - بجمع المنتجات والمصنوعات اليدوية وغيرها من المواد الثقافية. وهم يُسجلون ويحللون تلك التشكيلة المتنوعة من الأبنية الاجتماعية داخل مجتمعها باذلين اهتماماً بالحياة الدينية، والعائلية، والسياسية والاقتصادية. وتعد هذه الطريقة "صريحة وشخصية"، كما أنها تتم عادة فى "مجتمعاتها الطبيعية"، أى فى تلك الأماكن التى يباشر فيها الأفراد حياتهم اليومية، وليس فى مكان سابق الإعداد يقوم الباحث بترتيبه أو إعداده فى موقع محدد. وتتطلب الملاحظة بالمشاركة، والتى هى أداة بحث أساسية لعلم الإثنوجرافيا ولتطبيقه؛ تتطلب من الباحث أن يعيش فى المجتمع الذى يقوم

بدراسته، أو يقوم بزيارات مكثفة وشاملة له، حيث يقوم بملاحظة الأنشطة التي يباشرها هؤلاء الأفراد الذين يدرس أحوالهم، كما يقوم بالمشاركة فيها. وكثيراً ما يتم الربط بين الطريقة الإثنوجرافية وحقل علم الأنثروبولوجيا، وهو العلم الذي يُجرى فيه البحث على الثقافات الأجنبية من أجل الحصول على فهم لسكانه "المحليين" - أى فهم العادات الاجتماعية، والقيم، والمنتجات المختلفة المرتبطة بجماعة معينة وثقافتها العامة الشاملة. ويعود تاريخ ممارسة علماء الاجتماع للإثنوجرافيا إلى أواخر القرن التاسع عشر، وتمتد جذوره داخل حركات الإصلاح الاجتماعي التي سعت للوقوف على أحوال الفقراء الحضرين من الطبقة الدنيا ولتقديم المساعدة لهم. (إمرسون Emerson، ٢٠٠١). وقد اشتملت الأبحاث الإثنوجرافية المبكرة - التي أجراها علماء الاجتماع - على تشكيلة من طرق البحث المختلطة، ابتداءً من البحث المسحي وانتهاءً بالملاحظات الميدانية وإجراء المقابلات المكثفة. وقد تأثرت البحوث الإثنوجرافية المبكرة بإحدى "حركات المسح الاجتماعي". ويظهر مثال لهذا النوع من البحوث الإثنوجرافية في المؤلف الذي ضم دراسة تشارلز بوث Charles Booth عن الطبقة الدنيا في لندن، وهو العمل الممتاز والمعنون: حياة وعمل الناس في لندن (١٩٠٢). ويكتب الإثنوجرافي روبرت إمرسون الملاحظة التالية حول كتاب بوث:

قام بوث في دراساته بالجمع بين البيانات الإحصائية، وطريقة المقابلة الشائعة الاستعمال، والملاحظة الميدانية المباشرة ليكس قدرًا هائلاً من الوصف التفصيلي و المُنهج لحياة الفقراء في لندن. وباستعمال بوث وزملائه لطريقة الملاحظة المباشرة، دخلوا أحياناً دخولاً مباشراً في عالم أولئك الفقراء (إمرسون، ٢٠٠١، ص ٩).

ويروى عالم الاجتماع إليا أندرسون Elijah Anderson (١٩٧٦) - بعد مرور أكثر من نصف قرن على عمل بوث - خبراته عن قيامه بالعمل الميداني في أحد أحياء السود الفقراء في حي ساوث سايد South Side بمدينة شيكاغو يسميها "منطقة جيليز" "Jelly's place". وقد كانت منطقة جيليز حانة ومخزناً للمشروبات الكحولية يرتاده الرجال السود من العمال والمتعطلين. كما يستعمل أندرسون تقنية الملاحظة بالمشاركة، ولكنه في هذه

الحالة لا يذهب إلى جزيرة منعزلة في غرب المحيط الهادى، ولكنه، شأنه شأن تشارلز بوث، ينجذب لمجتمع حضرى، هو مدينة أمريكية، وإلى جزء من الثقافة الفرعية الأمريكية لا تزال حياته وأنشطته محجوبة عن المشهد الثقافى العام - وهو جزيرة لثقافة فرعية داخل الثقافة المسيطرة لمدينة شيكاغو. وكان هدف أندرسون أن يكشف الغطاء عن الحياة الاجتماعية لمنطقة جيليز - أى أن يفهم التفاعلات التى تدور بين هؤلاء الذين قدموا إلى جيليز. وهو يصف أسلوبه فى الملاحظة بالمشاركة كما يلى:

قضيت أسابيعي القليلة الأولى فى منطقة جيليز فى الجانب الذى توجد فيه الحانة، قضيتها بين الزوار وغيرهم. وهذا الجانب... كان أسهل الأماكن التى يصل إليها الأفراد الجدد، حيث يستطيع الأغراب أن يتجمعوا فيه. كما كان مكاناً أمكننى أن أبدو فيه غير متطفل إلى حد ما، بل كنت فيه محل ترحيب بصورة ما. لقد كان هو المكان الذى بدأت فيه عملية التعرف على منطقة جيليز، والذى ظفرت فيه بترحيب مضطرب بتواجدي والتحدث مع الناس بصراحة. وهذا يعنى أساساً تمكنى من معرفة هؤلاء الناس، وأننى أصبحت مشاركاً - بصورة ما - فى علاقاتهم ببعضهم البعض، كما أننى أصبحت على دراية بالمفاهيم والتصورات الشائعة والمتداولة فى حياتهم اليومية، والتى يتبناها الناس ويأخذونها مأخذ التسليم، وبالقواعد الاجتماعية والتوقعات التى تدور فى أذهانهم بالنسبة لبعضهم (١٩٧٦، ١٩٩٦، ص ١٣).

إن العمل الذى قام به أندرسون فى قلب مدينة شيكاغو له جذوره الموجودة فى التراث الفكرى للعمل الميدانى المعروف بمدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع^(*)، والتى أسسها روبرت بارك Robert Park وإرنست بيرجس

(*) مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع: مدرسة ذات تقاليد بحثية اقترنت اسمها بجامعة شيكاغو خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، استطاعت أن تهيمن على علم الاجتماع فى أمريكا الشمالية طوال تلك الفترة. وقد أسست أول قسم لعلم الاجتماع (فى عام ١٨٩٢ بواسطة البيون). وبتأسيسه بدأ نشر أول دورية علمية رئيسية فى علم الاجتماع (المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع منذ عام ١٨٩٥)؛ وإنشاء الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع (عام ١٩٠٥)؛ وألف أول كتاب جامعى مهم فى علم الاجتماع، كتبه روبرت بارك وإرنست بيرجس ونشره بعنوان: مقدمة فى علم الاجتماع (عام ١٩٢١)، كذلك أسست أول قسم للدراسات العليا، ونشرت سلسلة مهمة من الدراسات البحثية.

Ernest W. Burgess. فقد تأثر كلا العالمين الاجتماعيين بالعمل الذى قدمه المصلحون الاجتماعيون فى أواخر القرن التاسع عشر، مثل جين آدامز Jane

وقد تأثرت تقاليد هذه المدرسة بشدة بالنزعة الفلسفية البراجماتية، والملاحظة المكتسبة بالخبرة المباشرة، وتحليل العمليات الاجتماعية الحضرية. ويرتبط اسم مدرسة شيكاغو عادة بتلك القضايا الثلاث.

القضية الأولى: وهى أكثرها شيوعاً، اقترن اسم مدرسة شيكاغو بإجراء الدراسات الميدانية الإمبريقية، فى مقابل بعض الاتجاهات الأخرى الأكثر ميلاً إلى التجريد والتظهير التى كانت تسم أنشطة غالبية علماء الاجتماع الأوائل فى أمريكا الشمالية وبخاصة الدراوينية الاجتماعية. وقد أثمرت تلك التوجيهات عدداً كبيراً من الدراسات التى أصبحت تعد الآن من كلاسيكات الدراسات الإمبريقية فى علم الاجتماع. وتعد هذه المجموعة مجرد أمثلة مشهورة مميزة لمدرسة شيكاغو، كما أثمرت تلك التوجيهات أيضاً ممارسة قدر كبير من التجريب على أدوات البحث. ومما يلفت النظر هنا تطوير أدوات مثل الملاحظة المشاركة ومنهج دراسة الحالة.

ومع ذلك فمن الخطأ أن نرى فى مدرسة شيكاغو مجرد معقل للمناهج الكمية، باعتبار أنها قادت الطريق فى استخدام المسوح الاجتماعية والبحوث الإحصائية للمجتمعات المحلية، ورسم الخرائط الكمية للمناطق الاجتماعية وإبداع سجلات الوقائع الخاصة بالمجتمعات المحلية. باختصار، استطاعت مدرسة شيكاغو أن تطور تقليداً راسخاً فى استخدام المناهج الكيفية أيضاً، وقد ارتبط ذلك باسم وليم أوجبرن على وجه الخصوص. فضلاً عن ذلك، فإن علم الاجتماع فى مدرسة شيكاغو لم يكن عدواً للتظهير. فقد لعب إيفرت هيويز، وهو أحد مؤسسى مدرسة شيكاغو ورائد علم اجتماع المهن فى الأربعينيات دوراً بارزاً فى تطوير نظرية صريحة وتطعيم مدرسة شيكاغو المتأخرة فى علم الاجتماع بها.

أما القضية المحورية الثانية فى بحوث مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع فتتعلق بدراسة المدينة. هنا، وفى واحدة من أسرع المدن نمواً فى أمريكا الشمالية فى بداية القرن العشرين، بكل ما صاحب ذلك من مشكلات الهجرة والجناح، والجريمة، والمشكلات الاجتماعية، أصبحت الدراسة السوسولوجية للمدينة فرعاً مستقلاً من فروع علم الاجتماع. وتعود العديد من جذور علم الاجتماع الحضرى إلى تقاليد هذه المدرسة، سواء من الناحية الوصفية، حيث تم رسم خرائط لمناطق المدينة (رُتبت فى سلسلة من المناطق الدائرية المتحدة المركز)، تبدأ من قلب المدينة، وتنتهى بالحزام الخارجى للمتقاعين يومياً، أو من الناحية النظرية فى ضوء محاولات تفسير ديناميات نمو المدينة وتغيرها.

وأما القضية الثالثة التى نبعت من مدرسة شيكاغو فتتمثل فى صيغة مميزة لعلم النفس الاجتماعى، مشتقة جزئياً من قسم الفلسفة الحليف، وبخاصة من كتابات جورج هيربرت ميد. وقد ركز هذا التقليد على خلق وتنظيم الذات، وهو ما عرف فيما بعد عبر كتابات هيربرت بلومر باسم التفاعلية الرمزية. راجع المزيد فى جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ص ١٣١٥-١٣١٨. (المراجع)

Addams التى أسست "دار هل" "Hull House"، وهى مؤسسة اجتماعية للإيواء، كما قاما بتعليم طلاب الإثنوجرافيا وبالإشراف على دراساتهم العليا ابتداء من سنة ١٩١٧ تقريباً وحتى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين (انظر آدامز، ١٩١٠؛ وديجان Deagan، ٢٠٠١) وكانا يحثان طلبتهما الذين يحضرون لنيل درجة الدكتوراه على الحصول على الروايات التى يحكيها مبحوثوهم باللغة التى يتحدثونها فى الحياة اليومية فى سياق معيشتهم فى "المناطق الطبيعية" (*) للمدينة. وكانت "المناطق الطبيعية" تعد من "المناطق المتحدة المراكز" (**). التى تنفرع من قلب المدينة، وتضم كل منطقة منها أفراداً ذوى خلفيات عرقية، وإثنية وطبقية مختلفة. وأخذ تلاميذ بارك وبيرجس يواصلون تقديم تشكيلة واسعة من البحوث الإثنوجرافية المهمة التى تعالج، وفى أحيان كثيرة جداً، "العالم الأدنى" لهذه المدينة، وما فيه من سكان لا يدرى بهم أحد، وما فيه من قضايا كقضية التشرّد (أندرسون، ١٩٢٣)، والعصابات (تراشر Thrasher، ١٩٢٧)، وصلات المراقبة بمقابل (***) (كرسى Gressey، ١٩٣٢) والعلاقات العرقية (فرازير، ١٩٣٢)، وهذه نماذج قليلة من مثل هذه الدراسات. وقد زود بارك تلاميذه بالنصيحة التالية:

لقد كلفتم بالبحث والتنقيب فى المكتبة، لتجمعوا بذلك قدراً هائلاً من الملاحظات مع غطاء ليبرالى مع الوسخ (دليلاً على الإرهاق الشديد - المترجم) فقد كلفتم بأن تتقبوا عن المشكلات فى كل مكان تستطيعون أن تجدوا فيه أكداً بالية من السجلات الروتينية القائمة على البيانات التافهة التى أعدها

(*) المنطقة الطبيعية Natural Area: مصطلح يستخدم فى الإيكولوجيا الحضرية للإشارة إلى منطقة مأهولة بسكان يشتركون فى تراث اجتماعى مشترك، أو فى المهن، أو المصالح أو أى سمات ثقافية مميزة أخرى (انظر مؤلف هولى بعنوان: الإيكولوجيا البشرية، الصادر عام ١٩٧٠) فهى باختصار: مجتمع محلى متميز. للمزيد انظر جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٤٠٢-١٤٠٣ (المراجع).

(**) انظر تعريفاً بهذه النظرية فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، مجلد ٣، ص ١٥١٦-١٥١٧.

(***) Taxi-dance Halls: والفئة التى تعمل فيها تسمى taxi-dancer، وهى نواد ليلية أو كباريهات، تقوم فيها هؤلاء الفتيات بمراقبة الرجال (الرقص الإفرنجى) بمقابل مادية. (المراجع)

موظفون مُتعبون وملأ خاناتها مقدمو الالتماسات الكارهون من طالبي المعونات، وفاعلوا الخير المحبون للتملق، أو الموظفون الذين لا يكثرثون بشيء. ويُسمى هذا التكليف: "وَسَخْ يديك بالبحث الواقعي" (*). إن هؤلاء الذين نصحوكم حكماء ومحترمون، والأسباب التي يبررون بها طلباتهم تلك عظمة القيمة. إلا أن الأمر يستدعي ما هو أكثر من ذلك: ألا وهو الملاحظة المباشرة. فاذهبوا واجلسوا في صالونات الفنادق الفاخرة، وعلى درجات سلالم مداخل الفنادق الرخيصة، اجلسوا في شوارع حي جولدكوست الفاخرة، واجلسوا أيضاً في الأحياء الفقيرة المتداعية، اجلسوا في قاعات الأوبرا وفي حفلات البرامج الكوميديّة الساخرة. باختصار، أيها السادة، اذهبوا ووسخوا موضع الجلوس من بنطلوناتكم بالتراب وأنتم تقومون بالبحث الواقعي. (مكنى McKinney، ١٩٦٦، ص ٧١).

يُعد مالنوفسكى، وبوث، وأندرسون جزءاً من هذا التراث الإثنوجرافى. وهم مشغولون بعالم الأنشطة و"الطقوس" "اليومية"، يفتشون فى أثناء ذلك عن أى شيء غير معتاد. فهم لا يوجدون فى هذه الأماكن كباحثين يجرون المقابلات، وإنما كملاحظين منهمكين فى القيام بالملاحظة وإجراء الحوار مع أولئك الموجودين فى هذا المجتمع. وهم يسجلون ملاحظاتهم وتفاعلاتهم فى مذكرات ميدانية، والتي هى عبارة عن أوصاف مدونة لخبراتهم اليومية فى الميدان، وأحياناً ما يكتبون ملاحظات سريعة على وجه السرعة، إلا أنهم - فى العادة - يكتبون مذكراتهم الميدانية فى صورتها الكاملة بعد فترة قصيرة من مغادرتهم الميدان. ويقوم الإثنوجرافيون كذلك بإجراء المقابلات مع الأفراد الموجودين فى مجتمع البحث، كما يبدون اهتماماً بأى وثائق قد تزودهم برؤية دقيقة وثاقبة لحياة أعضاء مجتمع البحث.

ويختلف مفهوم الميدان تبعاً لنمط المشروع البحثى الذى تقوم بتنفيذه. فبالنسبة لعالم أنثروبولوجى يدرس ثقافة أجنبية - كما كان الحال مع مالنوفسكى - يكون الميدان موقعاً ثقافياً. وبالنسبة لأندرسون، وهو يدرس أحد الأحياء المحلية أو إحدى الحانات المحلية، تكون الحانة أو الحي فى هذه

(*) "Getting your hands dirty in real research".

الحالة هو "الميدان". وغالباً ما يعرف هذا النمط من البحث بوصفه "إثنوجرافيا حضرية". ومن الأمثلة الكلاسيكية الأخرى للإثنوجرافيا الحضرية تلك الدراسة التي قام بها ويليام فوت وايت William Foote Whyte (١٩٤٣) عن الحي المعروف باسم كورنرفيل Cornerville. وكورنرفيل منطقة يسكنها الأمريكيون ذوى الأصول الإيطالية وتقع فى قلب مدينة بوسطن. وكان عالم الاجتماع ويليام فوت وايت يرغب فى فهم التفاعلات الاجتماعية التى تقع داخل هذا المجتمع المحلى. وقد كانت الصورة الشائعة عن الأماكن التى تشبه كورنرفيل توحى بالفوضى والارتياح لأبناء الثقافة المسيطرة. وفى أثناء الحرب العالمية الثانية خصوصاً، وكان ثمة شعور عام بأن ساكنى الأحياء الإيطالية الفقيرة قد يكونون أشد ولاء وإخلاصاً للفاشية وإيطاليا منهم للديمقراطية وللولايات المتحدة (Gubrium & Holstien, 1997, p. 20). ومن خلال معاشته للسكان المحليين، استطاع وايت أن ينفذ إلى فهم طبيعة الحياة فى هذا الحي الإيطالى انطلاقاً من وجهة نظر سكانه. فهيا بنا نمضى إلى خلف الكواليس مع وايت وهو يتأمل "مجتمع النواصى" (١٩٤٣) بعد انقضاء ١٢ سنة على نشر الطبعة الأولى من ذلك الكتاب. يتحدث وايت عن ظروف بداية اهتمامه بإجراء دراسة كورنرفيل، وعن بعض التحديات المحددة التى أثارها هذا المشروع البحثى.

خلف الكواليس مع ويليام فوت وايت وهو يتأمل دراسته عن "مجتمع النواصى"

بدأتُ العمل وعندى فكرة غامضة عن رغبتى فى دراسة حى متخلف. وكانت مدينة إيسترن سيتى توفر لى بعض الاختيارات التى يمكن أن أنتقى من بينها. وخلال الأسابيع الأولى من عملى بجامعة هارفارد كنت أمضى جانباً من وقتى أتجول فى شوارع الأحياء المتخلفة فى إيسترن سيتى وأتحدث مع العاملين فى المؤسسات الاجتماعية هناك عن هذه الأحياء...

وقد أقمت اختياري للحى الذى سأدرسه على أسس غير علمية: وهى أن كورنرفيل تتناسب بصورة ممتازة مع الصورة التى فى ذهنى عن الحى المتخلف. فقد سبق لى أن كونت - بشكل ما - صورة لمبان مكونة من ثلاثة طوابق إلى خمسة طوابق متداعية تتجاور معاً فى تراحم شديد. ولم تكن المباني الخربة ذات النوافذ الخشبية الإطار والموجودة فى الأجزاء الأخرى من المدينة، لم تكن تبدو لى مبان حقيقية...

فى ذلك الوقت كنت متحيراً تماماً فى حل مشكلة عثورى على مدخل أنفذ منه إلى عمق هذا الحى. فقد كان حى كورنرفيل أمامى مباشرة، ومع هذا فقد كان فى غاية البعد عني. كنت أستطيع أن أتجول بحرية فى شوارعه، بل إننى أوجدت لنفسى طريقاً إلى داخل بعض الشقق، ومع ذلك كنت لا أزال فرداً غريباً فى عالم مجهول تماماً بالنسبة لى... قُمت بالبحث والاستقصاء عن المنازل التى أقامتها المؤسسة الاجتماعية المحلية. وقد كانت هذه المنازل مفتوحة للجمهور... وعندما أعود إليها اليوم بذاكرتى يبدو لى أن منازل هذه المؤسسة لم تكن واحدة على الإطلاق لكى أبدأ منها دراستى تلك... ومع ذلك فإن البيوت التى شيدتها المؤسسة قد أثبتت أنها المكان المناسب لى فى ذلك الحين، وذلك لأننى فيها قابلت الطبيب. وقد تحدثت مع عدد من الأخصائيين الاجتماعيين عن خططى وآمالى فى التعرف على هؤلاء الناس، وفى دراسة هذا الحى. وقد أنصتوا لى بدرجات مختلفة من الاهتمام... وبدأت دراستى، بشكل ما، فى مساء يوم ٤ فبراير سنة ١٩٣٧، وذلك عندما دعتنى الأخصائية الاجتماعية لمقابلة الطبيب. وقد أدخلتنا مكتبها ثم انصرفت حتى نستطيع أن نتحدث معاً. وقد انتظرني الطبيب فى هدوء حتى أبدأ الكلام، وكان ينصت إلى وهو غارق فى أحد الكراسى. ووجدته رجلاً متوسط الطول ونحيف البنية إلى حد ما. وكان شعره ذا لون بنى فاتح، وهو لون مناقض تماماً للون شعر أغلب الإيطاليين من السواد المعروف عنه. وكان الشعر الموجود على صدغيه متفرقاً وكانت وجنتاه غائرتين. وعيناه ذات لون أزرق فاتح وبدا عليهما أنهما تمتلكان نظرة نفاذه... بدأت بسؤاله عما إذا كانت الأخصائية الاجتماعية قد أخبرته عما أحاول القيام به. فرد: "لا، فهى لم تخبرنى إلا بأنك تريد مقابلتى

وبأنه ينبغي على أن أقابلك". وهنا أخذت في الاستفاضة والشرح... وظل الطبيب يستمع إلى حتى النهاية بدون ظهور أى تغير على تعبيرات وجهه، فلم يعد لدى وسيلة للتنبؤ برد فعله. وعندما انتهيت من كلامي سألتني قائلاً: "هل تريد أن ترى الحياة الراقية أم حياة الفئات الدنيا؟" فقلت له: "أريد أن أرى كل ما أستطيع رؤيته. أريد أن أحصل على صورة كاملة لهذا المجتمع الصغير بقدر الإمكان".

"حسناً، فى أى ليلة تريد أن ترى أى شيء، سوف أصحبك للتجول معاً. يمكننى أن أصحبك إلى الملاهى الحيرة - أى ملاهى القمار - ويمكننى أن أصحبك للمرور على نواصى الشوارع. كل ما عليك هو أن تتذكر أنك صديقى. فهذا هو كل ما يحتاجون إلى معرفته. إننى أعرف هذه الأماكن، وإذا أخبرتهم بأنك صديقى، فلن يضايقك أحد منهم. ما عليك إلا أن تخبرنى بما تريد أن تراه، وسوف أرتب أنا كل الأمور" (وايت، ١٩٥٥، وكما ورد فى وايت، ١٩٩٦، ص ص ١١-٢١).

ممارسة البحث الإثنوجرافى

- متى تكون الإثنوجرافيا مناسبة للاستخدام كطريقة للبحث الاجتماعى؟
- كما سبق أن ناقشناه فى الفصول السابقة، فإن سؤال البحث هو الذى يملئ نوع طرق البحث التى يتبعها المرء. فإن كان سؤال بحثك يتطلب فهماً متعمقاً للسياق الاجتماعى، وبالذات للثقافة التى يمارس داخلها الأفراد مجموعة معينة من السلوكيات، فالإثنوجرافيا تكون - حينئذ - طريقة مهمة لبلوغ هذا الفهم من خلال القيام بالملاحظة المباشرة للسلوكيات ومن خلال التفاعل مع الآخرين فى موقع بحثك. ذلك أن طرق البحث الإثنوجرافية تتيح لك أن تفهم الواقع الاجتماعى انطلاقاً من وجهة نظر شركاء البحث (المبحوثين)، وهو الأمر الذى يفسر لماذا تظل الإثنوجرافيا ممارسة أساسية من ممارسات البحث الكيفى. إذ تظفر بالفرصة لاستكشاف تشكيلة الأنشطة التى ربما تظل غائبة عن وعى هؤلاء الذين يشاركون فى ممارستها فى هذا المجتمع. وي طرح الإثنوجرافيون أسئلة من النوع التالى:

• كيف يرى الأفراد عالمهم؟

• ما هي حكايتهم (رؤيتهم في تطورها - المترجم)؟

• كيف يفهم أعضاء ثقافة معينة إحدى العادات الاجتماعية؟

أراد جوفمان Goffman أن يدرس العالم الاجتماعي لنزلاء إحدى المصحات العقلية. وهو، في كتابه بعنوان "مستشفيات الأمراض العقلية" يؤكد لنا أهمية الوصول إلى فهم العوالم التي يعيش فيها مبحوثوه عن طريق انغماسه في عالمهم.

كان هدفى المباشر من قيامى بالعمل الميدانى فى مستشفى سانت إليزابث أن أحاول الإحاطة بالعالم الاجتماعى لنزلى هذه المستشفى، وبالصورة التى يعايش بها هذا النزلى ذلك العالم... وقد تكون لدى اعتقاد فى هذا الوقت، ولا أزال أؤمن به، بأن أى جماعة من الأشخاص - كالسجناء، أو البدائيين، أو البحارة، أو المرضى - يطورون حياة تخصهم وحدهم بحيث تبدو فى نظرك حياة ذات معنى، ومعقولة وسوية بمجرد أن تتوثق صلتك بها، كما أننى اعتقدت ولا أزال أعتقد أن من الطرق الجيدة للتعرف على أى من هذه العوالم أن يسلم المرء نفسه - فى صحبة هؤلاء الأعضاء - للسلسلة اليومية الرتيبة للأحداث التافهة التى يتعرضون لها. (١٩٦١، ص ٩ - ١٠ من المقدمة).

وكما لاحظنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، فإن اختيار مشكلة معينة للبحث أمر يرتبط بعدد من العوامل المختلفة. فقد تكون سيرة حياتك هى السبب الحاسم لرغبتك فى اكتشاف المزيد من المعلومات عن جماعة معينة أو عن مجتمع محلى معين. وربما تزودك نشأتك فى مدينة صغيرة أو فى حى من أحياء وسط المدينة، أو فى أسلوب حياة خاص بسكان الضواحي؛ قد تزودك هذه الأمور بمجموعة من الأفكار أو الاهتمامات الخاصة أو ببعض الغرائب المتعلقة بجوانب الحياة الاجتماعية. وقد يحدث أن يكون السبب الذى أثار فى ذهنك سؤال بحث معين هو خبرة شخصية، أو مهنية، أو أكاديمية، أو حتى حادثة لا تتسى، سواء أكانت ذات طابع مأساوى أو ترفع الروح المعنوية. وقد حدث أن يبجى سوليفان Peggy Sullivan وكيرك إلفسون Kirk Elifson كانا يحضران قداساً فى إحدى الكنائس تقوم به جماعة

رهبانية تسمى "أصحاب القداسة الأحرار" Free Holliness. وكانت هذه الجماعة تنتمي إلى الكنيسة المسيحية الإحيائية^(*) الموجودة في مجتمع ولاية جورجيا والتي تستخدم الإمساك بالثعابين كجزء من احتفالها الديني. وقد عثر هذان الباحثان على السؤال الخاص ببحثهما بطريق الصدفة تقريباً:

إن ما بدأ كزيارة دافعها حب الاستطلاع آل أمره إلى أن صار مشروعاً بحثياً استغرق سنتين. فقد ذهب "كيرك" في أول الأمر إلى هذه الكنيسة ومعه طلبة صف دراسي بالجامعة وعاد فيما بعد ومعه خريجون اشتركوا في حلقة دراسية عن علم اجتماع الدين. وكانت "بيجي" واحدة من هؤلاء الخريجين. وصلنا وجلسنا في آخر مقاعد الكنيسة قريباً من الباب الخلفي. كان ما نشعر به من حب الاستطلاع ممزوجاً بالقلق عندما كنا ننتظر أن يبدأ القداس... وفي البداية تصورنا أن وجوب قيامنا بمشروع بحثي مبنى على الملاحظة بالمشاركة وموجه إلى هذه الكنيسة أمر فيه شيء من المزاح وشيء من التحدي. وبعد عدة أيام من زيارة الطلاب المشاركين في الحلقة الدراسية قررنا أن نتحرى، عما إذا كانت دراسة هذه الكنيسة ستكون ممكناً أم لا. فنحن، من الناحية العملية، لا نعلم شيئاً عن تلك العقيدة الدينية الإحيائية المنتشرة بالريف، كما أن معرفتنا بالأفراد الذين يسكنون الثعابين بأيديهم كانت أقل من لا شيء. ولم يكن لدينا أدنى فكرة عما إذا كنا سنلقى من هذه الكنيسة ترحيباً يكفي لقيامنا بدراستها أم لا. (سوليفان، وإيفسون، ١٩٩٦، ص ٣٤).

ثمة مجموعة من القيود الاقتصادية والقيود العملية التي تتحكم فيما إذا كنت ستقرر - أو لا تقرر - أن تقوم ببحث إثنوجرافي. ذلك أن البحث الإثنوجرافي يتطلب جهداً كبيراً كما يتطلب قدراً كبيراً من الوقت، والطاقة والموارد.

ويعتمد المنظور الإثنوجرافي على مجموعة من المسلمات الفلسفية أو الإبيستمولوجية المتعلقة بطبيعة العالم الاجتماعي. ويعتمد العمل الإثنوجرافي، في القدر الأعظم منه، على منظور تأويلي في مقابل المنظور الوضعي لطبيعة

(*) Pentecostal Christian Church من الشيع البروتستانتية المتشددة في أمور العبادة (المراجع).

الحقيقة الاجتماعية. وهدف هذا النوع من البحث هو استكشاف الظواهر الاجتماعية ووصفها. ومع هذا، فإن ذلك لا يعنى أن بعض الإثنوجرافيين ينسلخون عن وضعيتهم كذلك عندما يستعملون الطرق الكمية للتوصل إلى فهم للمجتمع الذى يدرسونه. وقد يقوم بعض الإثنوجرافيين إلى جانب ذلك "بالاختبار الشامل" للفروض التى سبق لهم تبنيها فى هذا الميدان كذلك. ومع هذا، فإن سؤال البحث الإثنوجرافى يكون - فى العادة - سؤالاً توجيهياً لا يعبر عنه بلغة الفروض أو باستعمال مجموعة من القضايا. فكما ذكرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب، فإن النظرة الوضعية لمجتمع بحث معين إنما تبحث عن "الحقيقة" التى تنتظر أن يدركها الباحث طالما ظل ملتزماً بالتوجه الوضعى، بحيث لا يسمح لاتجاهاته وقيمه الشخصية أن تتدخل فى عمله فى هذا المجتمع. فجمع المعلومات طريق ذو اتجاه واحد أساساً - حيث يطرح الباحث الأسئلة ويقوم هؤلاء المبحوثون بالإجابة. فلا يوجد إلا قدر يسير من الأخذ والرد بين الباحث والمبحوث. وينظر الاتجاه التأويلى إلى العالم الاجتماعى على أنه مؤلف من تلك المعانى/والقصص/والروايات التى يقدمها الأفراد فيما يتصل بفهمهم لعالمهم الاجتماعى. إذ يوجد فى هذه الحالة تفاعل دينامى بين الباحث والمبحوث. وقد توجد حقائق متعددة داخل نفس المجتمع، وذلك بناءً على الرؤى التى تؤمن بها تلك التشكيلة المتنوعة من المقيمين فى هذا المجتمع المعين. كما نجد إلى جانب ذلك طائفة من الإثنوجرافيين الذين يتجاوزون - فى عملهم - نطاق الوصف والفهم. ذلك أن بعض العمل الميدانى الإثنوجرافى يتبنى موقفاً نشطاً سياسياً، ويضع لنفسه هدفاً يرمى إلى التغيير الاجتماعى، كما يرمى إلى تمكين أبناء ذلك المجتمع الذى يدرسه. ويقدم ذلك الموقف الإثنوجرافى المغالى فى الإيمان بالالتزام السياسى الاجتماعى منظوراً تأويلياً كما يتبنى فى الوقت نفسه منظوراً نقدياً. وتهدف الإثنوجرافيا النقدية إلى فهم الحياة الاجتماعية من أجل تغيير الطريقة التى يتبعها حائزو القوة فى تهميش أولئك المستضعفين الذين ليس لديهم إلا القليل من القوة (بيلي Bailey، ١٩٩٦، ص ٢٥). وقد درست كريستين سليتر Christine Sleeter (١٩٩٢) التعليم متعدد الثقافات سعياً وراء تغيير النظم المدرسية. "... لقد سعت لفهم

السبب الذى يجعل المدارس تخدم - على الدوام - أطفال الفئات المسيطرة فى المجتمع خدمة أفضل مما تقدمه لأطفال العائلات الفقيرة وعائلات الملونين، وأفضل مما تقدمه للأطفال الذين أنجبتهم فتيات صغيرات" (ص ٥٥). وقد قامت ببحث إثنوجرافى نقدى لنظام مدرسى موجود بحى من أحياء وسط المدينة بهدف الوصول إلى فهم الخفايا الداخلية للتعليم متعدد الثقافات، قاصدة من ذلك الإسهام فى تطوير السياسة الاجتماعية المتعلقة بالتعليم متعدد الثقافات:

يشير هذا الكتاب... إلى السبب فى أن وجود تلك الخليط من العاملين بالمدارس يجب أن يعكس التنوع الكبير للخبرات الحياتية الذى من شأنه أن يزود المدرسين بزاو وفير من المفاهيم عن معنى التنوع الثقافى. ومن ثم يصبح تنويع هيئة التدريس قضية سياسة تعليمية، وهذا الكتاب يعالج هذه القضية... (ص ٥٦)

هناك تشكيلة متنوعة من الاتجاهات النسوية فى الإثنوجرافيا، تبعاً لمنظور المجال الذى يتخصصون فيه، ووفقاً للموقف النظرى والأهداف السياسية لأى إثنوجرافى نسوى معين. والأمر الذى يجمع هذه الاتجاهات هو نوع من الالتزام العميق بفهم القضايا والاهتمامات التى تشغل بال النساء انطلاقاً من وجهة نظرهن، وبالاهتمام - بصفة خاصة - بأنشطة النساء "وتصرفاتهن" فى مجتمع البحث. وقد اضطلع البحث الإثنوجرافى النسوى المبكر بإنجاز الكثير للكشف عن الجوانب "الخفية" لأدوار النساء فى مجتمعات البحث الإثنوجرافى. وقد ينظر إثنوجرافى نسوى معاصر إلى دراسة "وايت" لحي كورنرفيل، ثم يتساءل: أين هن النساء اللاتى يعشن فى هذا المجتمع؟ وما هى حكايتهن؟ وفى الوقت الذى قام فيه "وايت" بإنجاز الكثير لإلقاء الضوء على الحياة فى ذلك المجتمع المحلى للإيطاليين انطلاقاً من وجهة نظر سكانه من الرجال، فإننا لا نعلم إلا القليل عن حياة النساء اللاتى يسكن هذا الجيب الإيطالى - الأمريكى.

أما العمل الذى قدمته باتى لاثر Patti Lather وكريس سميثز Chris Smithies (١٩٩٧) فهو مثال مهم للبحث الإثنوجرافى النسوى الذى يفسح

المجال للصوت المعبر عن مشاغل النساء وقضاياهن. فقد قامت لاثرو سميثز بإجراء المقابلات، وبالمشاركة في الحياة اليومية للنساء اللاتي التقتا بهن من خلال جماعات المتطوعين لدعم مرضى الإيدز في ثلاث مدن بالولايات المتحدة. وقد درستنا هذا الوباء عن طريق التركيز على الجماعات السكانية من النساء المصابات بالإيدز واللاتي ظل صوتهن مكتوماً، كما قدمتا أوصافاً متعمقة لخبرات النساء اللاتي يعشن وهن مصابات بالإيدز.

إن انتقاء موضوعات البحث التي لها أهمية شخصية وسياسية لدى الباحث تعنى أيضاً أن يفتح المرء انفتاحاً كاملاً على طائفة متنوعة من العواطف والأحاسيس. وقد وجدت كارول بيلي Carol Bailey، والتي درست الإثنوجرافيا دراسة متخصصة، أن هذا الكلام ينطبق عليها عندما كانت تقوم بمشروع تقييمي.

خلف الكواليس مع كارول بيلي

العميل طفل عمره ست سنوات، وهو ذكر أبيض اللون شُخصت حالته المرضية بأنه مصاب بمرض إيه. دي. إتش. دي. (*) ADHD، وهو نوع من اضطراب المزاج المؤقت، كما شُخص بأنه متخلف في نموه. ونظراً لكونه في السنة الثانية برياض الأطفال، فإنه يحتاج لمعاون يوفره له برنامج علاج مدرسي بسبب ما تتصف به سلوكياته من ميل لتحطيم الأشياء وللعنف في بعض الأحيان. وكان هذا العميل قد أودع مرتين في مستشفى للعلاج النفسي. وهو يرفض الامتثال لأي قواعد في المنزل، وتُصيبه يومياً نوبات غضب يبكي فيها؛ ويصرخ، ويضرب أخاه ويدمر الممتلكات. وكان قد تعرض لانتهاك جنسي وقع عليه من أحد جيرانه في السنة الماضية. والدته تتعاطى المخدرات وتسمح لأصدقائها من الفتيان بالمعيشة معهم من وقت لآخر. وهو معرض لاحتمال الوشيك للإيداع في إحدى دور الرعاية والعلاج. ويمثل

(*) واسمه بالكامل Attention Deficit Hyperactivity Disorder أى مرض قصور الانتباه والنشاط المفرط. (المترجم)

اشترাকে فى "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى" (*) الأمل الوحيد له للبقاء فى بيته.

وقد تم تحويل الوصف المذكور أعلاه لحماية هوية العميل، فإنه لا يوجد أى مبالغة فى أى تفصيل من التفاصيل الواردة فيه. كما أن هذا العميل لا يختلف عن الفتيان الآخرين الذين يتلقون خدمات "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى"، وهو برنامج مكثف للتدخل العلاجى يتم تنفيذه بالبيت وموجه للصغار المصابين بأمراض عقلية حادة خدمة لهم ولعائلاتهم. وهذا البرنامج مصمم لتقليل حدة سلوكيات العميل غير اللائقة والوصول بها إلى المستويات المقبولة، ولتحقيق الاستقرار فى بيت العميل. وهدف هذا البرنامج هو حماية الصغار من إيداعهم فى إحدى دور الرعاية الداخلية أو فى مستشفى الطب العقلى، وذلك نظراً لنقص البدائل الأخرى الملائمة.

وأنا أقوم حالياً بتنفيذ برنامج لتقييم "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى" بناءً على طلب أصحاب البرنامج. ويعد هذا التقييم نوعاً من تقييم التنفيذ أو قل: نوعاً من تقييم العوامل المؤثرة فى تكوين البرنامج المذكور، كما أنه يعد نوعاً من التقييم التجميعى أو التحصيلى (أى الذى يتناول جميع ما حققه البرنامج من ثمار ونتائج). ولبرنامج العلاج السريرى الافتراضى هيئة من الموظفين المدربين تدريباً جيداً، كما أن له دليل عمل يحوى القواعد والإجراءات التى تنظم تدخله فى علاج الحالات. وتتمثل مهمتى أثناء قيامى بتقييم التنفيذ فى التحقق مما إذا كان هذا الدليل متبعاً أم لا، وما إذا كان "البرنامج الافتراضى للعلاج السريرى" يحقق أهدافه أم لا. وأنا أستعمل البيانات الكيفية أساساً لتقييم التنفيذ. وحيث إن تقييم التنفيذ يمضى قدماً، كما أن نتائج الدراسة تُقدّم للمسؤولين عن إدارة البرنامج، فإنهم يجرون بعض التغييرات التى أقرحها فى تقريرى. ويستمر تقييم التنفيذ إلى أن تصبح إدارة البرنامج راضية عن مستوى دقة برنامجى وعن مستوى جودة برنامجها.

(*) Virtual Residential Program برنامج رعاية وعلاج مكثف بنفس النظام المتبع فى المستشفيات، ولكنه ينفذ فى البيت بنفس دقة وتنظيم المؤسسة الطبية. (المراجع)

ومن شأن تقييم النتائج أن يلقي الضوء على وضع العملاء من حيث قيامهم بالواجبات أو المهام التي يكلفون بها، أى: هل ظلوا متواجدين داخل البيت أم لا، وهل وضع الأداء والإنجاز هذا متماثل عند مجموعة متنوعة من العملاء أم لا. وتُستعمل البيانات الكمية - غالباً - فى قياس النتائج. وتُعتبر النتائج التي تحققت حتى الآن نتائج ممتازة. حيث لا يزال سبعة وسبعين فى المائة من الـ ٩٨ عميلاً الذين يرعاهم "برنامج العلاج السريرى" يؤدون ما عليهم داخل هذا المجتمع الصغير. كما لم يعثر على اختلافات لها دلالة إحصائية بين معدلات الأداء والإنجاز عند الجماعات المختلفة من حيث النوع الاجتماعى ومن حيث العرق أو الإثنية.

ويرجع السبب فى تعقيد هذا النوع من التقييم إلى أن "برنامج العلاج السريرى الافتراضى" موجود فى ولايات أمريكية متعددة، كما أن هذا التقييم يتطلب تحليلاً لسجلات العملاء. ومع ذلك، فإن عمليات التقييم المعقدة تعد أمراً روتينياً عند الباحثين المعنيين بالتقييم والذين يركز عملهم على أساس من أحد النماذج النظرية التأويلية. أما ما يجعل هذا التقييم - بالذات - تقييماً مُشكلاً فهو أنه من العسير على أن أقرأ سجلات العملاء هذه بدون أن تغلبنى الانفعالات الجياشة.

وعندما أقرأ التعليقات التى كتبها الأطباء المعالجون يفترض أن أستخرج منها بيانات للتحليل الكيفى. وينبغى على أن أراقب ما فى السجلات من أنماط سلوكية متكررة وأن أدون ملاحظات سريعة موجزة كلما طرأت على ذهنى فكرة. ومع ذلك، فإننى لا أفعل هذا، إذ أشعر باليأس، والعجز، والغضب.

إن الحياة التى يعيشها أعضاء أسر هؤلاء الصغار والأوصياء عليهم هى حياة مشوشة فى أغلب الأحيان. ويرادنى الشعور بالغضب لأننى أريد أن ألوم هؤلاء الكبار وأن أجعلهم يتحملون مسئوليتهم عن الألم الذى يُصيب أطفالهم. فقد كانت إحدى الأمهات تزيد من جرعتها المعتادة من المخدرات كلما أصبح سلوك ابنتها أكثر تهديباً وملاءمة. فكيف لا أقول لها إنها هى المسؤولة عن توقف طفلتها عن التقدم؟

ونظراً لأن البحث الكيفي يستلزم - عادة - بيانات يتم جمعها من أكثر من مصدر، فقد أجريت مقابلات غير رسمية مع موظفي "برنامج العلاج السريري الافتراضى". وقد زودتني هذه المقابلات بتفسير آخر لهذه البيانات. فالكبار أيضاً يعانون ويحتاجون للمساعدة. إذ أن بعض الوالدين أنفسهم مصابون بأمراض عقلية كما أنهم ضحايا لسوء المعاملة في بيوتهم وضحايا للفقر. ولكن الأطباء يستخدمون منظوراً علاجياً يأخذ في اعتباره الأوضاع العائلية ويقدم أنواعاً متعددة من العلاج في نفس الوقت. معنى هذا أن الأطباء المعالجين ينظرون إلى الكبار والصغار باعتبارهم وحدة واحدة، وليسوا كجماعة يتم تحريضها ضد الجماعة الأخرى. وقد ساعدتني هذه الرؤية التي ينظر بها الأطباء العاملون في "برنامج العلاج السريري الافتراضى" على توسيع نطاق نظرتي عندما عدت مرة ثانية إلى بيانات هذا العميل.

وعندما كنت أقرأ، وأصنف، وأحلل هذه البيانات مراراً وتكراراً، وأنا أبحث عن الروابط بين الإطار النظري، والقيم الأساسية، والإجراءات المتبعة في "برنامج العلاج السريري الافتراضى" تنبّهت إلى أن ألفتى لهذه البيانات قد خففت من رد فعلى العاطفى الصارخ. وكنت وقتها لا أزال أشعر بشيء من اليأس، إلا أنني كنت أشعر بالأمل كذلك، نظراً للتقدم المدهش الذى تحقق أثناء التدخل العلاجى بالنسبة لأغلب هؤلاء العملاء.

إن بعض من يمارسون البحث الكمى وحده يهتمون الباحث الكيفى بأنه يقوم بعمل لا هو بالموضوعى ولا هو بالمحايد من ناحية القيم. ومع أننى أستطيع أن أجرى مناقشة عقلانية عن الموضوعية وعن الذاتية، وعن تآلف الذوات فإننى أجد نفسى أقل صبراً على هؤلاء الذين يقولون إن الباحثين الكيفيين ليسوا محايدين تجاه القيم. فلا ريب أنني لست محايدة تجاه القيم. وكيف لى أن أكون كذلك؟

إننى أريد "برنامج العلاج السريري الافتراضى" أن يعمل بنجاح. وأريد لهؤلاء الصغار أن تكون لهم حياة تشبه الحياة التى يعيشها الأطفال والمراهقون الذين لا يعانون من مثل هذه المشاكل الحادة. وفى كل مرة أتلقى فيها بيانات جديدة، أسارع بالذهاب إلى القسم الإدارى ليعرفنى إن كانت الحالة

قد تحسنت وأن هناك "نهاية سعيدة" لمشكلة هذا العميل. وأنا كذلك أتمنى حدوث "نهاية سعيدة" لفرق العلاج، وللمُشرفين، ولـمدير "برنامج العلاج السريري الافتراضى". إننى منبهرة بمدى الجهد الذى يبذلونه فى عملهم، وبمدى إخلاصهم فى أداء مهنتهم، وبمدى ما يتصفون به من عطف ورعاية. وإننى - والحق يُقال - لسعيدة بوجود أخبار طيبة أكثر من الأخبار السيئة التى ترد فى البيانات الموجزة الخاصة بنتائج العلاج.

إن اهتمامى بالعاملين فى "برنامج العلاج السريري الافتراضى"، وبالعملاء، وبالأفراد الذين يبذلون الرعاية لهم لا يمنعنى من إجراء تقييم دقيق صارم. وأنا لا أثنى على أمانتى، إنما أقول "الحقيقة" وحسب، وهى - والحق يقال - تتسم حتماً بأنها حقيقة متحيزة ومُركبة، وتم غريبتها من خلال نظرتى التحليلية. ذلك أن البحث التقويمى لا يكون صحيحاً، ولا ملتزماً بالأصول الأخلاقية إذا تم التلاعب فى البيانات، والتحليل، والتفسيرات، والتقارير بحيث تعكس الجوانب والاعتبارات التى يؤثرها الباحث. وأنا لا أزال أطرح أسئلة البحث التى قد تتطابق أجوبتها مع ما هو مطلوب من "برنامج العلاج السريري الافتراضى" أن يقوم بتحسينه وتطويره. وأنا بمسلكى هذا أشارك فى هذه الجهود التى تبذلها مجموعة من المهنيين الذين كرسوا أنفسهم لهذه المهمة، ويحتاج إلى خدماتها العملاء وعائلاتهم.

اختيار مجتمع البحث

كما رأينا فى الدراسة التى قامت بها كل من بيجى سوليفان وكيرك إليفسون والقائمة على الملاحظة بالمشاركة، والتى أجرتها على إحدى الكنائس الإحيائية، فإن حُسن اطلاع المرء على ظروف مجتمع معين قد يدفعه - فى الواقع - إلى حُب استطلاع هذا المجتمع الذى يدفعه إلى أن يرغب فى بحثه. وفى أحوال أخرى قد يكون اختيار الباحث لسؤال بحث معين هو الذى يُحدد أى مواقع البحث تكون مقبولة وصالحة وأيها يكون غير مقبول، فإن من الأمور الأساسية أنك تختار موقع البحث الذى سيزودك بالمعلومات التى تحتاج

إليها لتعالج سؤال بحثك/أو أسئلة بحثك. وفي بعض الأحيان قد يكون من الضروري أن تختار أكثر من موقع واحد للبحث.

وهناك ثمة عوامل متعددة قد تمثل قيوداً على فرصة اختيار موقع بحث معين أو يتيح مثل هذه الفرصة.

- هل بمقدورك أن تجرى البحث في هذا المجتمع؟
- إلى أى مدى يمكن اعتبار سهولة الدخول إلى ذلك المجتمع عاملاً مؤثراً؟

هناك بعض المواقع التي قد يظن المرء أن من العسير الدخول إليها، على حين قد تكون في الواقع مفتوحة على مصراعيها أمام الباحث كنتيجة لشبكة العلاقات الخاصة التي تربط هذا الباحث بذلك المجتمع. وقد تظل مواقع أخرى يظن المرء أن من السهل دخولها؛ قد تظل مغلفة أمام الغرباء عنها. ويتحدد كون الفرد "غريباً" في نظر تلك الجماعة على طبيعة ذلك المجتمع نفسه. مثال ذلك أن بعض المواقع قد تحظر دخول أنماط معينة من الأفراد بناءً على أعمارهم، أو جنسهم، أو خلفيتهم العرقية/أو الإثنية أو طبقاتهم الاجتماعية. إن تيري ويليامز Terry Williams عالم اجتماع أمريكي أسود يهتم بدراسة ثقافة تعاطي الكوكايين. وقد يظن معظم الباحثين بأن هذه الثقافة تستعصى تماماً على الوصول إليها. إلا أن عوامل معينة لعبت دوراً أساسياً في مساعدة ويليامز على الظفر بالدخول إلى مجتمع "النوادي الليلية الساخرة" (*) بوصفها موقعاً لدراسته. وهو يقول في هذا الصدد:

في سنة ١٩٧٤، وبعد أن أمضيت عدة سنوات من الدراسة الجامعية في علم الاجتماع في جامعة سيتي City University في نيويورك، التحقت بوظيفة مدرس في كلية جون جاي John Jay للقضاء الجنائي. وقد أقتضت مهمتي الأولى أن أسافر يومياً بالقطار من الحرم الرئيسي للجامعة إلى مدينة ريكز آيلاند Rikers Island للتدريس بالبرنامج التعليمي الذي تنظمه الكلية

(*) Afterhours clubs هي تلك النوادي الليلية التي تفتح أبوابها بعد انتهاء ساعات العمل في المحلات التجارية (المترجم).

هناك لبعض المحتجزين. وبعد سنة من العمل فى هذا البرنامج الخاص كونت علاقة مودة مع العديد من هؤلاء النزلاء، والذين كان كثير منهم يقضون مدة العقوبة تنفيذاً لأحكام خفيفة نسبياً بالسجن. وعند الإفراج عن بعضهم دعانى ثلاثة منهم وعرضوا علىّ أن يصحبونى معهم إلى المدينة. وكشفوا لى عن حياة الليل فى مدينة نيويورك كما ألم أرها من قبل أبداً. وفى النوادى الخاصة الصغيرة المعروفة باسم "النوادرى الليلية الساهرة" تم تقديمى لتشكيلة عجيبة من الناس من الموسيقيين، ومتعاطى المخدرات، وجماعات الروكرس^(*) البانك، والمتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال فى الملابس والسلوك، وموظفى السكرتارية، والأطباء، والراقصين والراقصات، والمقامرين، والممثلين، ورجال الشرطة، والبلغايا - حيث يتردد كل هؤلاء على هذا المكان ليتقاسموا أسلوب حياة قائماً على التمتع بتعاطى الكوكايين وعلى اللذة والإثارة الناجمتين عن قوة تفاعلهم مع بعضهم البعض. (ويليامز، ١٩٩٦، ص ٢٨)

فى بعض الأحيان يتوقف اختيار مجتمع معين للبحث على اعتبار يتعلق "بالمسائل العملية" كمسألة الاقتصاد مثلاً (ما مدى التكلفة المطلوبة لتجرى البحث فى هذا المجتمع؟) ومسألة القيود الزمنية (كم من الوقت يتعين عليك أن تقضيه فى هذا المجتمع؟ وهل يتعارض بحثك مع الواجبات والالتزامات الأخرى؟) والمخاطر التى يحتتمل أن تصيبك بوصفك الباحث (فهل من الممكن مثلاً أن تتعرض لخطر الإصابة بضرر بدنى بسبب دخولك موقعاً تقع فيه أنشطة غير مشروعة؟). وتقدم روث كوين سميث Ruth Queen Smith مثلاً للكيفية التى أثرت بها واحدة من تلك المسائل العملية تأثيراً معاكساً على قدرتها على اختيار مجتمع كانت مهتمة به. فقد كانت تقوم بإعداد رسالتها للدكتوراه فى التربية، كما أنها فى الوقت الذى كانت راغبة فيه فى إجراء البحث فى مجتمع معين كان جدولها الدراسى يتعارض مع قدرتها

(*) Rockers هم فئة "مجازيب" موسيقى وأغاني الروك. ويرتبط هذا الهوى بارتداء الملابس المصنوعة من الجلد وركوب الموتوسيكلات. (المراجع)

على إجراء الملاحظات الجوهرية التي كان يتعين عليها القيام بها فى ذلك المجتمع:

فى بادئ الأمر، فكرتُ فى ثلاثة مجتمعات ذات ثقافات مختلفة لإجراء هذه الدراسة الإثنوجرافية فى واحدة منها. وكان مجتمعان من هذه المجتمعات الثلاثة يضمنان أناساً فقراء يعيشون فى بيئات متجانسة عرقياً. وكان هذان المجتمعان المحتملان لإجراء الدراسة تستلزمان منى أن أقوم بإجراء الملاحظات وإقامة بعض العلاقات داخل كل ثقافة منهما بين الساعة التاسعة صباحاً والساعة الثالثة بعد الظهر، لأن هذه الفترة هى التى كانت تتم فيها معظم التفاعلات الاجتماعية الثقافية فى هذين المجتمعين: وقد أيقظنى الواقع من غفلتى بسرعة. فقد كان كلا هذين المجتمعين المحتملين يتيحان فرصة مؤكدة يمكن أن تستوعب وجود نشاط باحث إثنوجرافى. ومع ذلك، وفى ظل ظروفى التى يحكمنى فيها جدول الدراسة لبرنامج الدكتوراه، والذى يفرض على واجبات كثيرة أدركت أنه ليس من مصلحتى المثل أن أقوم بأى من هاتين الدراستين فى هذا الوقت. لذلك سلمت أمرى للواقع العملى. وقد أتاح لى هذا الاستسلام مساحة من التأمل استطعت أن اكتشف فيه مختلف جوانب عملية تحديد اختياراتى البحثية، والانتقاء من بينها، وترتيبى لها من حيث صلاحيتها للبحث. (Ruth Queen Smith, 1998, p. 91).

بمجرد أن يتم اختيار سؤال البحث والمجتمع الذى سيجرى فيه، تكون الخطوة التالية هى السعى إلى الدخول فى هذا المجتمع ووضع الأساس الوطيد للدور الذى سوف تقوم به كباحث إثنوجرافى فى هذا المجتمع.

الحصول على مدخل لمجتمع البحث وتقرير دورك فيه

تعتبر الطريقة التى بها تظهر بالدخول فى مجتمع محلى ما أو فى موقع جماعة ما أمراً حاسماً فى تحديد نمط البيانات - هذا إن وجدت هذه البيانات - التى ستكون قادراً على جمعها، وفى تقرير مدى صعوبة أو سهولة التقدم فى عملك البحثى. وهناك عدد هائل من أساليب الظفر بالدخول فى موقعك، إلا أن الأسلوب الشائع للبدء هو إقامة صلة شخصية بشخص ما سواء

أكان يعرف أحد أعضاء هذا المجتمع الذى ترغب فى دراسته أم كان يستطيع أن يقوم بدور الاتصال ببعض الأعضاء الرئيسيين فى مجتمعك هذا. وقد تبدأ بالتفكير فى أفضل طريقة للقيام بهذا الاتصال. هل تكتب خطاباً للحصول على إذن بالدخول و/ أو تقوم بإجراء مكالمة تلفونية؟ وما هو نوع هذا الخطاب؟ وما هو مقدار ما تكشفه من معلومات عن دراستك؟ كما أن من الضروري أن تفكر فى كيفية حصولك مستقبلاً على تصريح من "لجنة دراسة مبحوثين من البشر" (إن كان فى المجتمع الذى ستدرسه لجنة من هذا النوع)، وكذلك التصريح الذى تمنحه اللجنة الرسمية للفحص والمراجعة (IRB) إن كنت تعمل داخل مجتمع منظم تنظيماً رسمياً دقيقاً. وغالباً ما تضم المجتمعات مسئولين معينين (حراس البوابة)^(*) تُعتبر موافقتهم أمراً لا بد منه من أجل الظفر بالدخول والحصول على القبول. وقد لا يكون هؤلاء المسئولون (الحراس) بالضرورة هم الأفراد الذين منحوك التصريح بدخول مجتمع البحث. فبينما يُعد التصريح الرسمى أمراً مهماً، فإن بعض الناس فى المجتمع قد ينظرون إلى صلتك بأحد كبار المسئولين على أنها تمثل تهديداً لهم. أما ما قد يكون أهم من ذلك فى الظفر بالدخول فهو الدعم الراجع إلى موافقة "حراس البوابة" غير الرسميين الذين يشغلون مواقع أو مناصب أساسية فى المجتمع، والذين يقرر تأثيرهم على الآخرين فى المجتمع مستوى دخولك (أى مستوى

(*) أى: Gatekeepers إشارة إلى مفهوم حراسة البوابة Gatekeeping الذى طوره علماء اجتماع التنظيم. ويضع البناء التكرجى للتنظيمات الرسمية بعض الأفراد أو الجماعات فى مواقع حساسة تمكنهم من أن يراقبوا الوصول إلى السلع أو الخدمات أو المعلومات. وهم بذلك يملكون قوة أكبر من سلطة موقعهم الرسمى. ودرس علماء الاجتماع هذه الظاهرة فى إطار ظروف عديدة. من ذلك ما أوضحه تيار دراسات الإدارة الحضرية من أن المديرين الحضريين - مثل العاملين فى التخطيط الحضري وموظفى الإدارة المحلية - يلعبون دوراً حيوياً كحراس لمراقبة الحصول على الموارد الحضرية (الإسكان، والأرض، وتصاريح البناء... إلخ). وقد قدمنا دراسة تاريخية مفصلة لمفهوم حارس البوابة الذى صاغه كورت ليفين K. Levin فى عام ١٩٤٧، ثم دخل هذا المصطلح إلى بحوث الاتصال الجماهيرى على يد دافيد وايت D. White، وأخيراً بعض الدراسات الحديثة التى أفادت من هذا المفهوم وطورته. انظر محمد الجوهري وزملاءه، علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ٥٣ وما بعدها. (المراجع)

تمكنك من إجراء بحثك). ذلك أن لدى "حراس البوابة" غير الرسميين القدرة على أن يضيفوا على حضورك نوعاً من "الاهتمام" أو نوعاً من "الإهمال". وثمة عوامل متعددة تؤثر على قدرتك على الظفر بالدخول إلى مجتمع معين. وأول هذه العوامل هو درجة كون هذا الموقع موقعاً "عاماً" أو "خاصاً".

والمواقع العامة كالمقاهي أو الحانات أو محلات غسيل الملابس بالخدمة الذاتية لا تتسبب في تعويق كبير لعملية الدخول. ولكن هناك كثير من المواقع الخاصة التي لدى أعضائها حرص قوى على حماية الحدود المحيطة بموقعهم للحفاظ على خصوصيتهم. فإلى أى مدى يكون لأعضاء الموقع مصلحة خاصة في كتمان أمورهم عن الغرباء؟ مثال ذلك تلك المواقع التي قد تمثل الأنشطة غير المشروعة جزءاً مما يجرى فيها. حينئذ يصبح الظفر بالدخول شبه مستحيل بالنسبة للباحث، كما أن الدخول إلى مثل هذه المواقع قد يسبب الأذى للباحث. وقد يكون الموقع - فعلاً - موقعاً عاماً تماماً، كأن يكون دورة مياه عامة فإنه يكون لدى الموجودين فيه دافع قوى للتكتم على أنشطتهم فيه.

في مقابل ذلك يمكن أن تتاح للباحث اختيارات عديدة للظفر بالدخول لبعض المواقع الشديدة "الخصوصية". ويتمثل الاختيار الأول - بطبيعة الحال - في أن تدخل في هذا الموقع "متخفياً" (أى منتحلاً هوية أخرى) لكى تفوز بالدخول. وقد قام لود همفريز Laud Humphries (١٩٧٦) بدراسة أنشطة المثليين الذكور الذين كانوا يمارسون أنشطة جنسية "غير مشروعة" فى دورات المياه العمومية. وكان همفريز قادراً على الظفر بالدخول إلى هذا الموقع متخفياً عن طريق التظاهر بأنه أحد الذكور المثليين، ثم يقوم بوظيفة البصاص أو "الناصورجى" (*) الذى يحذر "الموجودين بالداخل" (المشاركين فى نشاط جنسى غير مشروع) من التهديد الذى يُمثله حضور بعض الغرباء،

(*) المصطلح المستخدم فى الأصل هو Watch queen أى "الأنثى الحارسة"، وهو فرد وضعه الجنسى غير طبيعى ويخالط عادة الجماعات ذات الممارسات الجنسية غير الطبيعية. والفرد الذى يتولى مهمة الحراسة والإنذار هو الذى يطلق عليه هذا الاسم الملغز. (المراجع)

كالشرطة مثلاً أو الأفراد الذين لا يرون هذا الموقع إلا كدورة مياه عمومية فقط. ويعلق همفريز قائلاً:

استطعت من خلال قيامي بدور البصاص أو الناضورجى، أن أتجول بحرية فى دورة المياه العمومية كما يحلو لى، مُتَقَلّاً من نافذة إلى نافذة، كما استطعت ملاحظة كل ما كان يجرى بدون إزعاج من أراقبهم، وبدون أن يؤثر ذلك على العمل الذى يقومون به. وقد مكنتنى قيامى بدور الخنثى الحارسة من جمع البيانات عن سلوك المشاركين فى أفعال المثليين... (Laud Humphries, 1976, p. 104)

ومن الاستراتيجيات المهمة الأخرى للتمكن من الدخول إلى موقع ما، استراتيجية تقوم على توطيد العلاقات مع الشخصيات البارزة ذات التأثير، الذين يُصبحون إخباريين. وقد يكون بعض الإخباريين، فى الواقع، هم حراس البوابة فى هذا الموقع. ويلاحظ وايت (١٩٩٦) أهمية الطبيب الذى كان شخصية محورية فى مجتمع كورنرفيل، والذى أقام معه علاقة صداقة بعد أن عرفته به الأخصائية الاجتماعية التى كانت تعمل فى ذلك الحى:

سبق أن تحدثت مع عدد من الأخصائيين الاجتماعيين عن خططى وآمالى فى التعرف على هؤلاء الناس وفى دراسة هذا الحى... وقد أدركت المشرفة على عمل الفتيات فى دار الرعاية الواقعة فى "نورتونز ستريت" ما أنا بحاجة إليه. فبدأت حينئذ تحدثنى عن الطبيب. فقالت إنه شخص ذكى جداً وموهوب كان له دور فعال إلى حد بعيد فى هذه الدار فى وقت سابق، فإنه توقف عن الاشتراك العملى فيه... فإذا رغبت، فسوف تحدد ميعاداً لى لأراه فى هذه الدار مساء أحد الأيام... لقد انتهزت هذه الفرصة... وبشكل ما، بدأت دراستى... عندما استدعيتى الأخصائية الاجتماعية إلى مكتبها للقاء الطبيب. (Whyte, 1996, p. 20).

من خلال اتصاله الأول بالطبيب وصداقته معه، استطاع "وايت" أن يكتشف طريقه إلى دخول عالم الحياة اليومية الجارية فى هذا المجتمع الصغير المُحكم النسيج. وقد قام الطبيب - فى واقع الأمر - بدور الإخبارى:

قدمنى الطبيب إلى تشيشى Chichi - التى تتولى إدارة هذا المكان - قائلاً: "صديقى بيل Bill"، ثم قدمنى بعد ذلك إلى أصدقاء تشيشى وزبائنهما. وقد لبثت مع الطبيب فترة من الوقت فى المطبخ، حيث يجلس رجال عديون فى جماعات ويتكلمون مع بعضهم البعض، ثم أمضيت فترة أخرى من الوقت فى الغرفة الأخرى أراقب لعبة القمار^(*)... وعندما ذهبت للمرحاض، انفجر الجميع فى حوار ثائر باللغة الإيطالية، فاضطر الطبيب إلى أن يؤكد لهم أننى لست من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية. وقال لى إنه أخبرهم بصراحة أننى صديق له، وأنهم وافقوا على أن تسير الأمور على هذا النحو (Whyte, 1996, p. 26).

وقد قام الطبيب - فى الواقع - بتزويد وايت بتفسيرات عميقة الدلالة للحياة الاجتماعية فى كورنرفيل:

... كان الطبيب - بدون أن يتلقى أى تدريب - ملاحظاً لماحاً سريع الفهم، بحيث لم يحتج الأمر إلا إلى قدر قليل من التنبيه لمساعدته على الكشف عن ديناميات التنظيم الاجتماعى فى كورنرفيل. وإن بعض التفسيرات التى قدمتها فى بحثى إنما تعود إليه أكثر مما تعود لى، إلى حد أنه أصبح من المحال الآن تمييز تفسيراته عن تفسيراتى. (وايت، ١٩٩٦، ص ٢٨).

وفى حين أن "وايت" اعتمد على الطبيب فى التوصل إلى فهم عميق للحياة فى كورنرفيل، إلا أن الاعتماد المفرط على أى إخبارى وحيد أو الارتباط المفرط بإخبارى محدد فى مجتمع الدراسة قد يكون له - فى الوقت نفسه - عيوبه ومساوئه. ذلك أن رؤية الأحداث من خلال عيني إخبارى بعينه فقط قد تؤدي إلى جعل ملاحظات المرء متحيزة. فالطبيب له رؤية معينة لهذا المجمع، ومع أن ملاحظاته وتفسيراته قدمت لوايت مساعدة كبيرة فى فهم كورنرفيل، إلا أن أسلوباً معيناً للرؤية هو أسلوب آخر لعدم الرؤية أيضاً^(**). فلو فرض أنه كان للطبيب - مثلاً - أعداء فى هذا المجتمع، فإن من شأن ارتباط وايت الوثيق بالطبيب أن يؤدي إلى إبعاد بعض القطاعات المهمة فى

(*) Crap game إحدى لعبات القمار يستخدم فيها نردان (المترجم).

(**) One way of seeing is also another way of not seeing.

هذا المجتمع المحلي عن البحث الذى يقوم به وايت، أو كان يمكن أن يؤدى إلى منع وايت من البحث عن إخباريين آخرين لهم رؤى مختلفة عن رؤى الطبيب أو يختلف ارتباطهم بهذا المجتمع المحلي اختلافاً شديداً عن ارتباط الطبيب به. وقد كان وايت على وعى بهذه الأمور كما قام بالبحث فعلاً عن حلفاء آخرين فى هذا المجتمع المحلي:

بينما كُنْتُ أعمل فى ظل صلتى الوثيقة بالطبيب أكثر من أى فرد آخر، فإننى كُنْتُ أبحث دائماً عن القائد فى أى جماعة كُنْتُ أدرسها. ذلك أننى لم أكن فى حاجة لرعايته وحده، بل كُنْتُ - كذلك - فى حاجة إلى التحالف والتعاون الأكثر فعالية مع هذه الدراسة. وحيث إن هؤلاء القادة كانوا يتمتعون بهذا النوع من الوضع فى المجتمع المحلي الذى يمكنهم من ملاحظة ما يقع من الأمور على نحو أفضل كثيراً مما يستطيعه أتباعهم، وحيث كان أولئك القادة - بصفة عامة - أشد مهارة فى الملاحظة من هؤلاء الأتباع، فقد وجدت أن أمامى الكثير الذى يتعين على أن أتعلمه من خلال تحالفى معهم تحالفاً أشد فاعلية. (وايت ١٩٩٦، ص ٢٨).

فى بعض الأحيان يعتمد النجاح فى الدخول إلى مجتمع البحث على الصفات التى يتصف بها الباحث الميدانى نفسه: عمره، ونوعه الاجتماعى، وطبقته الاجتماعية، وخلفيته العرقية/ الإثنية. فقد تجعل بعض هذه الصفات الاجتماعية أفراد المجتمع ينظرون إليه كواحد من الأقارب، أو ينظرون إليه كواحد من الأغراب. ومن الأمور المثيرة للاهتمام أنه فى أى موقع معين قد تتم الأدوار التى يقوم بها الباحث بكل سلاسة، من خلال قيامه بكل من دور القريب ودور الغريب فى الآن معاً. ويتوقف تحديد الأهمية التى تتسم بها بعض الصفات الاجتماعية على مدى توافق هذه الصفات مع تلك الصفات الموجودة فى مجتمع البحث. فمن المحتمل أن قدرة أندرسون على النجاح فى الدخول إلى حانة جليز Jelly's قد تعززت بسبب وضعه كرجل أمريكى أسود اللون. فهو يشارك هؤلاء الموجودين فى حانة جليز بعض الصفات الأساسية التى يتصفون هم بها (وهى أنه من نفس عرقهم ومن نفس نوعهم). وعلى الرغم من أنه كان بالإمكان النظر إلى أندرسون باعتباره غريباً، خاصة فيما

يتصل بتعليمه (فقد كان يحضر للدكتوراه في جامعة شيكاغو)؛ فإنه استطاع أن يتخطى بعض العوائق الاجتماعية الخطيرة ليظفر بالنفاذ إلى جوف العالم الخفى لرواد حانة جليز.

وقد نجح أندرسون في مصادقة هيرمان، الذى كان من المترددين بانتظام على حانة جليز ومن أفراد الجماعة المهيمن. ويسأل هرمان أندرسون أن يصبح "ابن عمه". وقد نجح أندرسون فى أن يقوم بدور "القريب المصطنع" مع هيرمان مما أتاح له أن يكتسب وضع القريب مع أصدقاء هيرمان وكذلك مع العاملين معه. ويشعر هيرمان بالارتياح النفسى للرابطة التى تربطه بأندرسون بوصفه "ابن عمه" التى أتاح له تفسير سبب وجوده فى هذا الموقع للآخرين. وتمكن أندرسون - من خلال توجيهات هيرمان - من اقتحام "الحرم المقدس" لحانة جليز وأن يظفر بمعلومات قيّمة عن العالم الاجتماعى للسود من الطبقة العاملة فى منطقة ساوث سايد بمدينة شيكاغو.

ويشعر بعض الباحثين بأن نوعهم الاجتماعى يمكن أن يكون عقبة خطيرة تحول دون النجاح فى الدخول إلى مجتمع البحث، خاصة عندما يكون هذا الموقع - بالنسبة للباحثات النساء - خاضعاً لسيطرة الرجال. فقد أرادت أرلين كابلين دانيلز Arlene Kaplin Daniels أن تدرس مجتمع العسكريين إلا أنها تعرضت لمتابعب جمة عندما اكتشفت أنهم يريدون منها أن تلتزم بالدور الأنثوى التقليدى، متوقعين منها أن تبدي طائفة من التصرفات الدالة على الطاعة والخضوع. وعندما كانت تجرى مقابلة مع بعض منهم كانوا يمتنعون عن إجراء المقابلة ما لم تضع نفسها فى مكانة دنيا، كأن تعد نفسها بمثابة "دمية جميلة" (*) تجلب الحظ السعيد لمن معها (Daniels, 1967, pp. 285-286). وهى تقول فى ذلك:

قامت بتطوير استراتيجيات للتقارب معهم ولاسترضائهم... فتعلمت أنه لا بد أن أغير من أسلوبى معهم. وبمجرد وجودى فى الميدان، تخلّيت عن صورتى عند نفسى بصفتى مديرة لمشروع بحثى ورجعت إلى دور الطالبة

(*) فى الأصل mascot أى تعويذة أو شيء جالب للحظ (المراجع).

والملاحظة المتواضعة... وكان الأمر الذى بدأت أتعلمه هو أنه لا بد لى أن أدفع ثمن نجاح مشروعى البحثى فى صورة إظهارى لأنواع معينة من الخضوع والإذعان لفكرة المكانة العليا للرجل. فقد كان يُنظر إلى بعض التصرفات باعتبارها تصرفات غير لائقة، بل كانت تعتبر تصرفات مهينة إذا صدرت من النساء: كقبضة اليد الشديدة عند المصافحة، أو المواجهة المباشرة بالنظر فى عين المُخاطب، أو الظهور بمظهر رجال الأعمال من حيث النشاط المفرط، أو الأسلوب الجريء فى الدعابة والمزاح بين الأقران، فقد كانت هذه التصرفات جميعاً تصرفات تثير الخصومة الشقاق. (دانيلز، ١٩٦٧، ص ٢٧٣).

وقد تبينت الباحثات اللاتي يعملن فى مجتمعات ذات خبرات "تقليدية" عن النساء، أنه لى يحققن التوازن فى هذه الأدوار وينجحن فى الدخول فلابد من جعل الآخرين ينظرون إليهن باعتبارهن لا يمثلن تهديداً للرجال فى هذا المجتمع. وقد يؤدى إظهار الباحثات لمزيد من "الصفات الأنثوية" - كالصفات التى ذكرتها أرلين كابلان دانيلز - أو اتخاذهن أدواراً خاصة فى مجتمع البحث كدور "الإبنة" مثلاً؛ قد يؤدى ذلك فى الواقع إلى زيادة احتمال نجاح أولئك الباحثات فى الدخول إلى المجتمع الذى يتسم بالتقليدية ويسيطر عليه الرجال، ومن ثم يحصلن على ما يردن من معلومات (Myerhoff , 1978).

ما هو الدور الذى ستقوم به فى مجتمع البحث؟ قضايا للتأمل
ثمة درجات مختلفة لاشتراك الباحث فى حياة مجتمع البحث. وكثيراً ما يوجد نوع من التوتر بين الحاجة للاقتراب من هؤلاء الموجودين فى المجتمع مع الاحتفاظ بدور الباحث فى نفس الوقت، وهو الدور الذى يقتضى درجة من الانفصال. وقد يقتضى بحث ما توافر المزيد من الارتباط بين الباحث والمبجوتين، بينما قد يتطلب بحث آخر قدراً أقل من الارتباط أو لا يتطلب أى ارتباط إطلاقاً. ويُعد إيجاد نوع من التوازن بين هذين الموقفين - الارتباط والانفصال - أمراً حاسماً فى أغلب مجتمعات البحث الميدانى. ونتيجة لذلك تتوزع درجات المشاركة التى تجرى فى موقع ما على امتداد

متصل تبدأ بدور الملاحظ الخالص، ثم الملاحظ بصفته مشاركاً، يليه المشارك بوصفه ملاحظاً وينتهي "بالمشارك مشاركة كاملة" (Gold, 1958). ولا يوجد خط دقيق يفصل بين هذه الأدوار، فقد يقوم الباحث، في واقع الأمر، بالتقدم في بحثه من خلال كل دور من هذه الأدوار مع تقدم بحثه الميداني، وذلك عن طريق تحركه صعوداً وهبوطاً على ذلك الخط المتصل بين الملاحظة الكاملة والمشاركة الكاملة، وهو الأمر الذي يتوقف على الظروف التي يواجهها عملياً في مجتمع بحثه.

الملاحظ الخالص

يقتضى دور الملاحظ الخالص أن تظل هوية الباحث مستترة؛ فالباحث لا يتفاعل مع هؤلاء الأفراد الموجودين في مجتمع البحث، بل يقوم بإجراء الملاحظات عن مجتمع بحثه باستعمال بعض الوسائل التي منها استعمال كاميرا فيديو مخبأة أو بالاختفاء وراء مرآة ذات اتجاه واحد (والتي تسمح له برؤية الموجودين خلفها بدون أن يستطيعوا رؤيته) أو وراء ستارة حتى يتجنب أن يكتشفه أحد. ويُنْتِج دور الملاحظ الخالص للباحث أن يدرس موقعاً ما بدون التدخل في عملياته اليومية، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تقليل التحيز (أو التفاعلية) الناجم عن وجود الباحث المتفاعل مع العلاقات الاجتماعية القائمة في هذا الموقع، والذي قد يصل إلى حد تغيير طبيعة هذه العلاقات نفسها. ذلك أن من الممكن أن يُغَيَّر الموجودون في موقع البحث تصرفهم إذا علموا بوجود الباحث معهم.

إن للقيام بدور الملاحظ الخالص عيوبه ومثالبه. فهو لا يتيح للباحث أن يوضح المعاني ويجيب على الأسئلة المتعلقة بالأمور التي لا تكون واضحة له بذاتها للوهلة الأولى.

- كيف نعلم أن فهمنا للملاحظة يشاركنا فيه هؤلاء الأفراد الذين نقوم ببحث أحوالهم؟

من الممكن أن يعمل المكان المادى نفسه - الذي نجرى فيه ملاحظتنا - على الحد من مدى رؤيتنا لما يدور فيه. فعندما نستعمل كاميرا فيديو

لملاحظة موقع ميدانى مُعين، فإن مكان وضع هذه الكاميرا يؤدي في حد ذاته إلى خلق زاوية رؤية معينة للنظر إلى موقع البحث، وقد يُحد من قدرتنا على ملاحظة الموقع بأكمله. كما أننا نضيف تحيزنا الشخصي الخاص بنا عندما نلاحظ موقعاً ما، وذلك لأن ملاحظتنا تتم "فلترتها" (أى: غربلتها وتصفيتها) من خلال وضعيتنا البحثية الخاصة بنا، أى عرقنا، وطبقتنا، ونوعنا الاجتماعي، وما يتصل بذلك. فكل واحد من هذه العوامل يمكنه أن يؤثر على ما نلاحظه وعلى تفسيراتنا لهذه الملاحظات. ويصدق هذا الكلام بصفة خاصة على حالة الباحث الذي لا يكون له أى معرفة مطلقاً بالعوادات الاجتماعية والأمور الروتينية الخاصة بالحياة في موقع معين.

فإذا وضعنا نصب أعيننا هذه الإيضاحات والتحفيزات، ستكون الدراسات القائمة على الملاحظة مفيدة بصفة خاصة في فهم المعاني التي تحملها تصرفات الناس في الحياة اليومية. وقد كان إرفينج جوفمان Erving Goffman (١٩٦٧) ملاحظاً ذكياً لما يقع خلال تفاعلات الحياة اليومية التي تجرى بين الناس، وخاصة في الأماكن العامة. وقد كان جوفمان مهتماً بالأدوار التي نقوم بأدائها مع بعضنا البعض لدعم واستمرار ما يجري في حياتنا اليومية من تفاعلات محدودة. وهو يقدم منظوراً مسرحياً لتحليل وفهم تفاعلات الحياة اليومية. فنحن في حقيقة الأمر "نتظاهر بأداء دور ما" مع بعضنا البعض كي ندعم وجود واستمرار هذه الأنماط من التفاعلات. وقد كان جوفمان مهتماً بصفة خاصة بالطبقات الاجتماعية التي تؤديها لكي ننفذ تشكيلة متنوعة من التصرفات ذات الطابع العام، كالانتظار في الطابور، أو ركوب مصعد مزدحم، أو حين نلتقي بأحد معارفنا صدفة. فإنك قد تلاحظ، مثلاً، أنه حينما نكون في مصعد مزدحم فإن معظم الأفراد ينظرون إلى الأمام ويتفادون تلاقى الأعين عندما يكونون مقتربين اقتراباً شديداً من الآخرين، خاصة الغرباء منهم. فهذه هي إحدى الطرق التي يتمكن بها الأفراد من التواجد على مقربة شديدة بدنياً، ومع ذلك يتفادون الألفة مع الآخرين.

ويعد العمل الذي قدمه روبرت "سمر" Robert Sommer مثلاً آخر على دراسة التفاعلات اليومية. فقد كان "سمر" (١٩٦٩) مهتماً بالكيفية التي

يتبعها الأفراد في فهم وتصور "الفضاء الشخصي" لكل منهم. والفضاء الشخصي هو تلك المنطقة المحيطة ببدنك والتي ترسم لها حداً لا يُفترض للآخرين (والذين أسماهم "سمر" "الغزاة" أو "المعتدون") الموجودين حولك أن يعبروه. لدينا جميعاً حدودنا الشخصية فيما يتعلق بحدود الفضاء الشخصي لكل منا عندما نتعامل مع بعضنا البعض. وتتحدد طريقة رسمنا لتلك الحدود بنمط العلاقة التي تربطنا بهؤلاء الذين يدخلون فضاءنا الشخصي. والحق أنه يوجد علم يدرس الفضاء الشخصي يُطلق عليه مصطلح proxemics، أى دراسة كيف يستعمل الأفراد الفضاء. ويسهب "سمر" في وصف سلسلة من الدراسات القائمة على إجراء الملاحظات، والتي تتناول غزو الفضاء الشخصي للطلبة الذين يجلسون للعمل على منضدة الدراسة في إحدى المكتبات الجامعية. وقد لاحظ أنهم يجعلون علامات لتحديد "إقليمهم" أو "منطقتهم الخاصة" عن طريق وضعهم لعلامات - كالملابس أو الكتب - لتحديد نطاق الفضاء "الخاص بهم". وقد أراد أن يكتشف أى الاستراتيجيات يستعملها الطلبة للدفاع عن فضاءهم، وما الذى يفعلونه عندما يدركون أن شخصاً ما (وهو فى هذه الحالة شخص منتسب للمشروع البحثى لسمر) ينتهك فضاءهم عن طرق جلوسه فى مكان شديد القرب منه. عندما يدرك الطلبة أن فضاءهم يُنتهك، فإنهم يُبدون ردود أفعال سريعة لذلك عن طريق إظهارهم لإشارات دفاعية متعددة، أو زحزحتهم لأجسامهم، أو حتى بالانتقال بعيداً وترك المكان. ويُعلق "سمر" على ذلك قائلاً: "إذا أخفقت هذه التصرفات أو تجاهلها هذا المتعدى، أو غيّر مكانه هو الآخر، فإن الضحية يلوذ بالفرار فى نهاية الأمر" (ص ٣٥).

وقد توجد ردود أفعال مختلفة على "التعدى" على الفضاء الشخصي. وتهتم كايا Kaya و فيزان Feyzan (١٩٩٩) بملاحظة كيفية الحفاظ على الفضاء الشخصي ومنع التعدى عليه فى ظروف الزحام. فقد قامتا بملاحظة الأفراد الذين ينتظرون فى طابور أمام آلات صرف النقود ATM فى مدينة أنقرة، فى تركيا. وتلاحظان أنه فى ظروف الكثافة العالية (أى الزحام)، يقوم الأفراد بالتعدى على الفضاء الشخصي للآخرين على نحو أكثر تواتراً مما يفعلون فى ظروف الكثافة المنخفضة. كما لاحظتا وجود اختلافات بين

النوعين الاجتماعيين في أسلوب التعدى على الفضاء الشخصى، حيث يكون الذكور أكثر ميلاً للتعدى على حدود الفضاءات الشخصية للنساء.

على أن أغلب البحوث الميدانية تتطلب ما هو أكثر من الملاحظة. فقد لا يتيسر للباحث الموجود في الميدان أن يحتفظ بموقف "الملاحظ الخالص". إذ يوجد في الميدان من يقومون - من غير قصد منهم - بشد الباحث إلى مستوى من المشاركة أشد قوة وكثافة مما قد يشعر الباحث بالارتياح إليه، وذلك كما تعلق إيمرسون و بولنر قائلتين:

خلفاً للباحثين المعمليين الذين تسمح لهم المرايا ذات الاتجاه الواحد بالبعد عن المبحوثين والقيام بملاحظتهم دون حاجة إلى أى ارتباط بهم؛ على خلاف ذلك يعجز الباحثون الميدانيون - بحكم الضرورة - عن الجلوس في الخلف ومراقبة التفاعلات الاجتماعية بدون اشتراك مطلقاً مع أطراف ذلك التفاعل. كما لا يستطيع الباحث الميداني أن يعلن بطريقة صريحة أن له وضعاً منفصلاً وأن يلزمهم بذلك: فقد يقوم الأعضاء المضيفون له بمقاومة تعريفه لمستوى (عدم) اشتراكه/أو (عدم) ارتباطه، بل قد يصل بهم الأمر إلى تجاهل تعريفه لدوره كباحث، أو محلل، أو ملاحظ (Emerson & Pollner, 2001, p. 241).

• كيف يستطيع الباحث أن يحافظ على المسافة بينه وبين المبحوثين في موقع البحث حتى لا يتعرض دور الملاحظ للشبهة أو الالتباس؟
وكما تكلمنا عن أهمية "النجاح" في الدخول إلى مجتمع البحث، نلاحظ أنه توجد أيضاً استراتيجيات قد يحتاج الباحث لاستعمالها كي يحافظ على دور في الموقع يتيح له أكبر قدر من الملاحظة. وكما تذكر إيمرسون و بولنر (٢٠٠١)، فإن الباحثين الميدانيين قد يحتاجون إلى أن يكونوا على علم بكيفية "إبقاء المسافة" بينهم وبين الآخرين في الميدان حتى يحافظوا على هويتهم البحثية (ص ٢٤١). وتتم إحدى المخاطر التي تتهدد دور الملاحظ من جانب بعض أفراد مجتمع البحث الذين يجذبون الباحث جذباً للانخراط في المزيد من لعب دور المشارك، أو من جانب أولئك الذين ينشغلون بالتفاعل مع الباحث بصفات غير صفته كباحث ميداني (كصديق أو غريب مثلاً). (ص ٢٤٢).

وقد يكون الحرص على "البقاء على حدود الهامش" طريقة لمواجهة مثل هذا التهديد. ومع ذلك فإن هذه الإستراتيجية قد تأتى بنتيجة عكسية، فتؤدى إلى تغيير أفراد مجتمع البحث، خاصة إذا كانوا قد أبدوا رغبتهم فى الاندماج مع الباحث على النحو الذى يتصورونه، وأن هذه الرغبة قد رُفِست مراراً. وتسمى إحدى الإستراتيجيات الأخرى، والتي تتسم بأنها غير مباشرة بدرجة أكبر؛ تسمى إستراتيجية البراعة والدهاء *finessing*. وفيها يستعمل الباحث "اللباقة الدبلوماسية" و"الإجابات المراوغة". وتقدم إيرسون و بولنر مثلاً مثيراً للاهتمام عن "الدبلوماسية" التي أبداهما أحد الباحثين الميدانيين كان قد طُلب منه أن يفاضل بين جماعتين فى موقع البحث. فعندما سئل أى الجماعتين على حق، وجد هذا الباحث الميدانى أن "رد السؤال بأن يليقه هو على الفريقين المختلفين، أو الإشارة إلى مزايا كل جماعة أو تحويل هذا الخلاف بأكمله إلى دعابة"؛ وجد هذا الباحث الميدانى أن هذه التصرفات هى الطريقة المثلى لمعالجة مثل هذه المواقف الصعبة. (ص ٢٥١).

وقد تدعو الحاجة إلى رفض أكثر صراحة فى بعض الأحيان من أجل الحفاظ على هوية الباحث وحمايته من التورط فى أنشطة لا يشعر بالارتياح لها. وقد تكون بعض هذه الأنشطة غير مشروعة، وقد تتخذ غيرها من الأنشطة شكل المفاتحات أو العروض الجنسية المرفوضة. وفى هذا الصدد قامت بنج تشونج هسيونج Ping Chung Hsiung (١٩٩٦) بإجراء بحث فى بعض المصانع التابعة (الصغيرة) فى تايوان. وهذه المصانع عبارة عن وحدات تشغيل تنتج منتجات على نطاق صغير والقوة العاملة فيها هى الأسرة أساساً. وقد أرادت أن تفهم كيف يُعامل العمال - خاصة النساء منهم - من قبل رؤسائهم من الرجال. وبصفتها "ملاحظة حيادية" تمارس العمل فى أحد هذه المصانع، وجدت أنها تواجه مشكلات عديدة. وهى تشير إلى أنه رغم أن دورها كملاحظة موجودة على هامش التفاعل الذى يجرى فى موقع البحث، يمكن أن يتيح لها فرصة الاستماع للأفراد العاملين فى صالة المصنع، فإن وضعها كامرأة شابة متزوجة قد سبب لها بعض المشاكل أيضاً:

.. أرى أن تجاوبى مع دور الملاحظة المحايدة قد قام بوظيفتين. فعن طريق ما فى هذا الدور من إعطاء الأولوية لأصوات وتفاعلات الأفراد الموجودين فى مجتمع البحث، أتيح للوقائع أن تتجلى للعيان تدريجياً، وأتيح للأحداث أن تتخذ مجراها الطبيعى بصورة كاملة. كما أن هذا الموقف المحايد منعى من أن أفرض إيديولوجيتى النسوية على الآخرين. ومع ذلك، فإن جهودى لكى أكون محايدة قد اصطدمت ببعض الصعوبات. فقد كنت فى بحثى الميدانى هذا محاطة بأشكال مختلفة مما هو موجود فى الحياة اليومية من الانحياز الجنسى للرجل ومعرضة لها أيضاً، وهى المعايير والممارسات اليومية التى توجه للنساء صراحة وبصورة تسبب لهن الضيق، أو تتستر فى صور الانحياز للنوع (الرجل)، الذى لم يتوقف أبدا... ففى زيارتى للمصانع، كان العمال الذكور فى صالة المصنع يحيوننى بالصفير وبيع بعض العبارات من قبيل: "يا لها من امرأة جميلة". وكان نوعى الاجتماعى (كامرأة) يتقدم على وضعى ومؤهلاتى الأكاديمية. من ذلك مثلاً أنه عندما كان من المفترض أن يساعدنى أحد الرجال فى دخول أحد المصانع، وجدته يحول جولتى فى هذا المصنع إلى عملية تحرش جنسى. وقد بدأ بسؤالى عما يقوله الرجل الأمريكى ليفاتح امرأة فى مسألة تحديد ميعاد للخروج معها ومرافقتها. لم يُفلح رد فعلى بعدم الاكتراث بسؤاله فى إيقافه عند حده... وعندما رفضت دعوته للخروج والمرافقة، وجه إلى عبارات مهينة قائلاً: "فما هى التسلية الأخرى التى تتسلين بها فى مساء يوم السبت عندما يكون زوجك غير موجود بالقرب منك" (ص ١٣٠-١٣١).

ومع ذلك، ومع مراعاة ما يوجد بموقع البحث من ديناميات اجتماعية وإدخالها فى الحساب، فإن الباحثين سواء تلقوا تشجيعاً من الغير ليقوموا بالمزيد من دور المشارك و/أو تحمسوا - من ناحيتهم - فاعتمدوا الفرص المتاحة ليقوموا بنوع أوفى وأتم من المشاركة؛ أياً كان الأمر فإن الباحثين فى كلا الحالين يحاولون غالباً أن يقيموا نوعاً من التوازن بين الألفة والمودة الشديدة من ناحية، والتحفظ وإبقاء أنفسهم على مسافة من المبحوثين من ناحية أخرى.

الملاحظ كمشارك

على امتداد متصل الملاحظة والمشاركة، وبالتحرك فى اتجاه المزيد من خلق جو من الحميمية فى موقع البحث، يوجد ذلك الدور الذى يقوم فيه الملاحظ بدور المشارك. ويتطلب هذا الدور من الباحث أن يكشف عن شخصيته فى موقع البحث، إلا أن المدى الذى يبلغه الباحث فى المشاركة الفعالة مع أعضاء مجتمع بحثه يُعد مدًى محدوداً. ويزودنا البحث الذى قامت به بامبلا فيشمان Pamela Fishman عن التفاعل الاجتماعى بين الأزواج بمثال عن هذا النمط من كشف هوية الباحث أمام مبحوثيه. فقد كانت فيشمان (١٩٩٠) مهتمة بتحليل علاقات القوة فى المحاورات التى تجرى بين الأزواج فى خلوتهم داخل بيوتهم.

- كيف يتفاعل الزوجان مع بعضهما فى حياتهما اليومية؟
- كيف يتم إظهار القوة والسلطة وكيف يتم الاحتفاظ بهما فى ظل تلك العلاقة الحميمة؟

وقد قامت بدراسة مكثفة لمحاورات ثلاثة من الأزواج وافقوا على أن تسجل فيشمان محاوراتهم فى بيوتهم على أشرطة تسجيل. وهى تكتب التعليق التالى فيما يتصل بدورها هذا قائلة:

بقيت أجهزة التسجيل الصوتية موجودة فى الشقق لمدة تتراوح بين أربعة أيام وأربعة عشر يوماً. وإنى لراضية لأن المادة المسجلة تمثل المحاورات الفعلية، ولأنه لم يوجد فيها تنبه زائد عن الحد لوجود هذه المسجلات، فقد بدت المادة المسجلة على الأشرطة طبيعية فى نظرى، فهى تشبه المحاورات التى تجرى بين زوجى وبينى. وقد وافق على رأى هذا آخرون ممن قرعوا النصوص المكتوبة للمحاورات المسجلة. كما ذكر الأفراد الستة (أى الثلاثة أزواج والثلاث زوجات) أنهم سرعان ما بدعوا فى تجاهل وجود أجهزة التسجيل. يُضاف إلى ذلك أنهم كانوا ميالين إلى الاعتذار عن المادة المسجلة، زاعمين أنها مادة تافهة ولا تثير الاهتمام، فهى لا تعدو أن تكون نفس الأمور العادية التى تقع فى الحياة اليومية. وأخيراً، قال لى زوجان أنهما نسيا جهاز التسجيل تماماً لبيدأ ممارسة الحب فى غرفة المعيشة بينما

كان جهاز التسجيل شغالاً. وقد كان هذا الجزء، ومعه جزءان آخران، هما الأجزاء الوحيدة التي مسحها شركاء البحث قبل أن يسلموني أشرطة التسجيل. (Pamela Fishman, 1990, p. 227).

ومع أن فيشمان كانت تقوم - فعلاً - بالاتصال بالأزواج المشاركين في دراستها، فإن حضورها في موقع البحث لم يكن منظوراً، فإنه كان معلوماً. ومع أن الأزواج كانوا واعين بحضورها البحثي من خلال إدخال أجهزة التسجيل في حياتهم اليومية، وذلك في الغالب الأعم، فإن دور فيشمان يظل في غاية الهامشية بالنسبة لمجتمع البحث المذكور.

المشارك كملاحظ

يساهم المشارك كملاحظ مساهمة كاملة في الأنشطة الجارية في موقع البحث، كما تكون شخصية الباحث معروفة لأعضاء المجتمع. وتوجد درجات للمشاركة في مجتمع البحث، ودرجات لمدى نظرة أعضاء الجماعة إلى الباحث باعتباره واحداً من الأقارب (سماته قريبة من سمات أفرادها).

فوايت Whyte يجتهد في بلورة الدور الذي يتخذه في مجتمع كورنرفيل. وفي بعض الأحيان يجد نفسه غير واضح فيما يتصل بدرجة مشاركته في حياة مجتمع البحث. فعلى حين يعلم السكان المقيمون في كورنرفيل أنه باحث يريد أن يتعرف على المزيد مما له صلة بالحياة في كورنرفيل، إلا أن هذا الأمر تطلب من "وايت" ومن السكان المقيمين في كورنرفيل بعض الوقت كي يتوصلوا إلى نوع من الموازنة بين هذين الدورين:

في بادئ الأمر ركزت على تحقيق التكيف مع أبناء مجتمع كورنرفيل، إلا أنني اضطررت بعد مدة قليلة إلى مواجهة تساؤلات عن مدى ما ينبغي على عمله في مسألة الانغماس في حياة هذا الحي. فقد التقيت مصادفة بتلك المشكلة أثناء إحدى الأمسيات وأنا أسير في الشارع مع بعض أفراد عائلة الدكتور نورتون. فعندما كنت أحاول الوصول إلى فحوى الكلام البسيط المتداول بينهم انفلت لسانی بمجموعة متتابعة من البذاءات وألفاظ السباب.

فتوقف سيرنا للحظات، لأنهم توقفوا جميعاً وأخذوا ينظرون إلى فى دهشة. وهز الطبيب رأسه معترضاً وقال: "يا بيل، ليس من المفترض أن تتكلم بهذا الشكل. فهذا لا يتناسب مع صورتك". فحاولت أن أبين لهم أنني إنما كنت أستعمل الألفاظ الشائعة فى نواصى الشوارع. ومع ذلك فقد أصر الطبيب على أنني مختلف عن سكان الحى، وعلى أنهم يريدون منى أن أكون على هذه الصورة... لقد تعلمت أن هؤلاء الناس لم يكونوا يتوقعون منى أن أكون مشابهاً لهم تمام المشابهة؛ فقد كانوا، فى الواقع، مهتمين بأن يجدونى مختلفاً عنهم وكانوا سعداء بذلك، وهذا طالما كنت أهتم بهم عن حب لهم ومودة. (Whyte, p. 30)

المشارك الخالص

ينخرط المشارك الخالص بصورة فعالة مع أعضاء مجتمع البحث، ومع ذلك لا تكون شخصية هذا الباحث معلومة لشركاء البحث الموجودين فى هذا الموقع. فالباحث يشارك بطريقة مستترة، وذلك من خلال إخفائه لشخصيته بحيث يجد لديهم قبولاً بوصفه عضواً أصلياً (حقيقياً) فى ذلك المجتمع. شاهد ذلك أن جوديث رولينز Judith Rollins أثرت أن تتخفى من أجل دراسة معاناة خادمت المنازل. وهى تعلق على ذلك قائلة:

بدأت عملية البحث الميدانى بالعمل لمدة شهر واحد كخادمة منزلية... وقد أثرت أن أنغمس فى هذا الموقف حتى من قبل أن أصمم خطة البحث، وذلك حتى أستشعر بنفسى الخبرة ذاتها التى تشعر بها من تقوم بالخدمة فى المنازل وأتعرف على طبيعة العلاقة التى تربطنى بصاحبة عمل ما من النساء... وقد حصلت على عروض بالعمل عن طريق نشر إعلانات فى بعض الصحف التى توزع فى نطاق المدينة وصحف توزع فى نطاق الضواحي (Rollins, 1985, p. 9).

يؤثر بحث رولينز قضايا مهمة خاصة بمنهجية البحث ينبغى عليك أن تدخلها فى حساباتك عندما تستخدم طريقة الملاحظة المشاركة المستترة. ويذهب هؤلاء الذين يؤيدون التخفى إلى اعتباره أمراً ضرورياً، لأنه قد يستحيل فى أحوال كثيرة إنجاز البحث الميدانى إذا كشفت هوية الباحث. بل

يصل الأمر بدوجلاس Douglas إلى أنه يرى أن للباحثين المستترين الأخفية في القيام بهذا النوع من البحوث "من أجل تحقيق الهدف الأسمى للحقيقة العلمية" (Douglas, 1979, p. 17). ويذهب آخرون إلى أن العمل خفية يتيح للباحث فرصة دراسة السلوك الفردي أو الجمعي الذي قد يظل - لولا ذلك - التخفى - غير معلوم. وغالباً ما يكون ذلك في حالات دراسة بعض الفئات العليا أو الخاصة في المجتمع، وهو الأمر الذي ينطبق على البحث الذي أجرى على جماعات الصفوة كالأطباء الجراحين مثلاً (Famrdat, 1998) أو على دراسة الجماعات التي يغلب على أنشطتها طابع السرية، كالتنظيمات الدينية مثلاً (Galanter, 1989). وترى رولينز أن الفصيل الدقيق لقرارها باستعمال الخداع في ملاحظتها المشاركة في بحث "خادمت المنازل ولمستخدماتهن من النساء" قد تحدد على أساس ما إذا كانت "المكاسب" تفوق "الخسائر" أم لا:

أصبح السؤال المباشر هو: هل ما يمكن أن أجنيه من وراء استخدام التخفى يستأهل هذه الخسارة؟ وقد انتهيت إلى أن الأمر كذلك بالفعل. إذ قررت أنه نظراً لأن هذه المهنة لها هذه الأهمية عند النساء ذوات الدخل المنخفض، ونظراً لأنه لم يجر عليها إلا قدر قليل جداً من البحوث رغم وجودها في كافة أنحاء العالم، فإن الفهم الذي يمكنني أن أظفر به عن طريق وضعي لنفسي موضع خادمة منزلية، حتى لو تم ذلك بتلك الطريقة، يستحق هذا الثمن (١٩٨٧، ص ١٥).

وبجانب القضايا الأخلاقية المهمة المتعلقة بالخداع أو التستر في البحث، والتي سبقتنا مناقشتها في الفصل الثالث من هذا الكتاب، فإن الخداع في عملية البحث يمكنه - أحياناً - أن يتعارض بالذات مع الفهم المتعمق الذي يرجو الباحث أن يظفر به. (Wax, 1971, p. 52, Baily, 1996, p. 15). فقد يحدث للباحث المتخفي أن يبدأ بالاعتقاد بأنه في الواقع "واحد من الأهالي" (أي من أبناء مجتمع البحث). وهذا الاعتقاد في حد ذاته قد يضع غشاوة على قدرة الباحث على فهم ذلك المجتمع الذي يوجد فيه. شاهد ذلك أن رولينز، أثناء قيامها ببحثها، لم تتظاهر بأنها خادمة منزلية إلا لمدة قصيرة جداً من الوقت فحسب: "يمكن القول إجمالاً، أنني اشتغلت خادمة عند عشرة من

المستخدمات: وبالنسبة لسبع منهن اشغلت مدة أربعة أسابيع، بمعدل يوم واحد... فى كل أسبوع، وقد طردت واحدة من المستخدمات بعد اليوم الأول... وبالنسبة للثنتين الباقيتين، اشغلت ستة أشهر، بمعدل يوم واحد فى الأسبوع". (ص ١٠)

وقد لا يكون هذا المدى الزمنى كافياً ولأن تظفر رولينز بفهم متعمق لظروف العمل اليومية لخدمات المنازل.

• إلى أى درجة تُعتبر تجربة رولينز كخادمة منزلية معادلة أو مماثلة للوقائع اليومية لحياة خادمت المنازل؟

• إلى أى مدى يكون تبنى دور "القريب" (أو ابن الجماعة المحلية) مانعاً/ أو متعارضاً مع الفهم الصحيح لمجتمع البحث؟

فقد أدى تظاهر رولينز بدور "القريبة" (بنت مجتمع البحث) إلى الحيلولة بينها وبين أن تطرح أسئلة قد تكشف حقيقتها. وتقول ببلى فى ملاحظاتها: يتقبل معظم الناس من الباحثين أن يطرحوا أسئلة معينة، من قبيل ما يعدونه أسئلة حمقاء أو غبية، ولكنهم لا يسمحون بها لأبناء الجماعة المحلية (الأقارب)... كما أن دور الباحث يتيح للمرء أن يدخل أماكن قد تُعد - لولا كونه باحثاً - أماكن محرمة". (١٩٩٦، ص ١٥). يُضاف إلى ذلك تناقص قدرة الباحث على أن يدون بسهولة ملاحظاته الموجزة فى نفس لحظة وقوع الحدث"، بحيث لا تقلت منه الأفكار والملاحظات المتعلقة بما يحدث فى الموقع. وقد يؤدى الانتظار - إلى أن يحين الوقت الملائم لكتابة هذه الملاحظات - إلى خسارة بعض المعلومات، ومن ثم إلى تقديم وصف غير دقيق للحوادث المهمة (ص ١٥). ويضاف إلى ذلك أنه بسبب انغماس رولينز انغماساً كاملاً فى هذا الموقع، وبسبب اضطلاعها الفعلى بالدور الخاص بالخادمة المنزلية، تكون رؤيتها لمخدومتها (ربة البيت) رؤية محدودة. فإلى أى مدى يمكن لرولينز أن تتخلص من دور الخادمة المنزلية فى الموقع "وتخلعه" لكي تمعن التفكير فى التفاعل الاجتماعى بين الخادمت ومخدوماتهن، وذلك انطلاقاً من وجهة نظر المخدومة؟ فهذا السياق الذى يتم فيه فهم هذا

التفاعل الاجتماعي يفقد تماماً - أو يكاد - الإحاطة برؤية السيدة المخدومة للأمر برمته.

تقع معظم البحوث الميدانية الإثنوجرافية على مسافات متفاوتة من متصل ذى قطبين هما: الملاحظ - والمشارك. وإن بإمكاننا أن ننظر إلى كل من هذين القطبين كطرفين تتشكل منهما أرجوحة ما. فعندما يصل أحد الطرفين إلى أعلى نقطة نكون بصدد ممارسة دور "الملاحظ"، بينما نقوم بدور "المشارك" عند وصول الطرف الآخر إلى أدنى نقطة. وعندما تكون هذه الأرجوحة غير متوازنة، فقد يكون معنى هذا أننا قد انتقلنا بدرجة مفرطة إلى هذا الجانب أو ذلك. وقد يفقد موقف الباحث نفسه بعض توازنه هو فيجد نفسه مرة مرتفعاً في الهواء (وهو يؤدي دور المشارك) بينما يجد نفسه مرة أخرى على الأرض (وهو يقوم بدور الملاحظ). ومن الممكن أن يصاب كل جانب من هذين الدورين ما يبرره. ومع ذلك، فقد تكمن هذه المتعة ويكمن هذا الفهم أحياناً في التفاعل المستمر بين كل من هذين الدورين. فهذان الدوران لا يتسمان بالثبات في موقع البحث، كما أن من المحتمل أن يتأرجح الباحث صعوداً وهبوطاً على امتداد هذا المتصل، تبعاً للموقف الاجتماعي الذي يمر به والمتطلبات التي تقتضيها مشكلة البحث.

وأياً ما كان الدور/ أو الأدوار التي تقوم بها في الميدان، فإنه ينبغي عليك أن تتوقع كل ما هو غير متوقع. كما ينبغي عليك أن تتعرف أكثر على نفسك مثلما تتعرف على أحوال الآخرين، وهذا أحد الأمور التي تجعل البحث الإثنوجرافى خبرة غنية ومتفردة. وقد كانت ساره ماديسون Sarah Maddison تعرف كل ذلك في مبدأ الأمر عندما تصدت لإجراء بحث ميداني مع مجموعة من النسويات الشابات في أستراليا. فهيا بنا ننضم إلى ماديسون خلف الكواليس.

خلف الكواليس مع ساره ماديسون

لقد أحببت السنة التي قضيتها في بحث عن النسويات الشابات الناشطات في الحركة النسائية الأسترالية. ففي أثناء سنة ٢٠٠١ أسعدني الحظ بقضاء اثني عشر شهراً كاملاً قمت فيها بالملاحظة المشاركة مع مجموعتين مختلفتين جداً من الشابات في مدينة سيدني. وكانت المجموعتان كلتاهما تمثلان لي قدراً عظيماً من البهجة والسرور، إذ كنت أنتظر لقاءهن بكل أمل لنخرج معاً إلى الميدان. وكانت البيانات التي جمعتها أثناء هذا الوقت بيانات مثيرة للاهتمام ومدعاة للتأمل العميق. إلا أن الخبرة التي عايشتها مع هؤلاء الشابات المدهشات منحتني كذلك فرصة للتفكير والتأمل في بعض قضايا القوة والمودة الشديدة التي يمكن أن تظهر في مثل هذا النوع من البحوث.

وكانت إحدى هاتين المجموعتين التي قمت بدراستها عبارة عن شبكة من الشابات اللاتي كن "والدات" (وهو المصطلح المفضل لديهن) يعملن في أحد المراكز الصحية لخدمة المرأة في ضاحية فقيرة من ضواحي سيدني البعيدة نسبياً. وقد كنت أقضي يوماً في الأسبوع مع "شبكة الشابات الوالدات" (*)، وكنا خلال هذا الوقت نقوم بتخطيط الحملات الصحية، وتصنيع المشغولات الفنية، والتحدث عن ممارسة الوالدية (أي ممارسة الأمومة)، وهي كلها أنشطة في غاية الإمتاع. وقد ساهمت كذلك في البرنامج التدريبي الذي كانت هؤلاء الشابات يقمن بإدارته؛ والذي يُعرف باسم برنامج: "الفرص والاختيارات" من خلال مشاركتي في المساعدة على تنظيم دورة دراسية عن قضايا النوع الاجتماعي.

وكان أحد التمارين التي دُعيت هؤلاء الشابات للمشاركة فيها تمرين "ترسم صورة لامرأة نسوية" بالحجم الطبيعي على ورقة لبيع اللحوم. كانت النتيجة رائعة. وكما توقعت، قامت مجموعة برسم صورة لامرأة تتطابق مع الصور النمطية السلبية المعروفة التي تنشرها وسائل الاتصال عن النسوية.

(*) Young Women Who Are Parents Network (YWWAPN).

وقد اعترفت المجموعة الثانية - والتي عكس رسمها بعض هذه الصور النمطية، ولكنه كان أكثر تألقاً من نواح أخرى - اعترفن بأنهن رسمننى أنا. وهى صورة لامرأة عارية، باستثناء ارتدائى لحذاء كبير طويل الرقبة، وظهورى بشعر منكوش ذى منظر مخيف^(٩)، وعلى جسمى أشكال من الوشم. وهى صورة تتنافى تماماً مع ما اعتدت أن أقدم نفسى به فى هذا المركز! وعندما سألتهم عن سبب رسمهن لى بهذا الشكل أجابت عضوات المجموعة بأنهن يرون أن نزعتى النسوية منحنتى الحرية، لأن أقول أى شيء أريد قوله ولأن أكون أى شيء أريد أن أكونه لأننى لا أخاف أحداً فى هذا العالم.

كان هذا الرسم رسماً صادماً لى، ولكنه كان يمتدحنى بطريقة غريبة. ومن المهم، أنه جعلنى أفكر فى موقعى من حيوات هؤلاء الشابات وفيما نجم عنه من نقاط الضعف التى يمكن أن تعترى هذه العلاقة البحثية. وقد كونت لنفسى وعياً شديداً يقطعة بنقاط الارتباط والتشابه بينى كباحثة وبين شريكات البحث، وذلك فى محاولتى صياغة العلاقة البحثية بيننا. لقد كانت توجد صور لها دلالتها من التطابق بين سيرة حياتى وسير حيوات الشابات اللاتى تتناولهن هذه الدراسة. وقد يتمثل الأمر الأشد وضوحاً فى كونى امرأة ذات نزعة نسوية ومعروفة بالنشاط الفعال فى الحركة النسائية. ولكن فى عملى مع "شبكة الشابات الوالدات" اكتسبت علاقاتى بهن - إلى جانب ذلك - طابعاً شخصياً من نوع ما. فقد كان مهماً عند هؤلاء الشابات أن يعلمن ما إذا كنت أما أم لا وما هى الظروف التى فى ظلها عايشت خبرة الأمومة. وقد أدت مشاركتى لهن فى كونى صرّت أنا الأخرى أما فى سن صغيرة إلى حد ما (٢٣ سنة) حينما ولدت طفلى الأول، وفى أننى أمضيت وقتاً وأنا أمٌ وحيدة؛ أدت هاتان السماتان المشتركتان معهن إلى زيادة إحساسهن بأننى إنسانة يمكنهن الثقة بها، حيث لم أكن غريبة تماماً عن حيواتهن وخبراتهم.

(٩) أى dreadlocks، وهى ضفائر أو جدائل أو خصل من الشعر منكوشة من فروة الرأس. وهى تشيع لدى بعض الطوائف الدينية من السكان السود فى جامايكا، وذات أصول إفريقية. (المراجع)

إلا أنني كنت كذلك على وعى بأن بعض هؤلاء الفتيات كن ينظرن إلى كأننى شخصية يأملن أن يكن مثلها، وذلك فى ضوء أننى أنجبت قبل أن أكمل المدرسة الثانوية، والتحقّت بالجامعة وعندى طفلان صغيران، وأننى كنت وقتها عندما تعرفت إليهن مشتركة فى البحث الأكاديمي. وكانت نظرتهم إلىّ تمثل مسئولية ضخمة، وهى مسئولية لا بد لى أن أتحمّلها بمنتهى الجدية. وبالنسبة لى كباحثة كانت أخلاقى تلزمنى بألا أخل بهذه الثقة التى وضعتها هؤلاء الشابات فىّ وألا أتلاعب بها، وأن أبقي واضحة صريحة فيما يتصل بالحدود القائمة فى علاقاتنا ببعضنا.

إن بالإمكان أن تمثل الملاحظة الإثنوجرافية القائمة على المشاركة قدراً هائلاً من البهجة والسرور. فإذا كنت محظوظاً مثلى ووجدت نفسك تدرس أحوال مجموعة من الناس تحبها وتحترمها وتتمتع بصحبتها، حينئذ يمكن "للعمل" الذى تقوم به أن يبدو أقرب شياً باللعب. إلا أن الخطر الذى يتعرض له الباحث إنما يكمن فى هذا الوضع. ذلك أن تتمتعك بالبهجة والسرور تتمتعاً مفرطاً قد يعنى نسيانك للسبب الذى جاء بك إلى هذا المكان ولعلاقات القوة الداخلة فيه. لذلك لا بد أن تعامل تلك العلاقات الحميمية العارضة التى هى جزء من طريقة البحث هذه بحرص واحترام. ذلك أن نسيان هذه القواعد يمكن أن يعنى إيذاء شركاء بحثك (مبحوثيك)، وبطرق لا يمكنك أن تتخيلها أبداً. ومثل هذا الأمر - إن حدث - لن يكون مصدر بهجة لأحد على الإطلاق.

مغادرة الميدان

إن بإمكان الدور الخاص الذى تقوم به فى مجتمع البحث - أى مدى تشابكك وتداخلك فى الحياة اليومية التفصيلية لموقع البحث - بإمكانه أن يحدد مدى سهولة مغادرتك للموقع أو صعوبتها. ذلك أن بالإمكان أن يجرى إنهاء أى مشروع بحثى ما لأسباب شتى مختلفة. فقد تضطر، مثلاً، لمغادرة الميدان فجأة نظراً للقيود الزمنية أو لأسباب اقتصادية أو شخصية، وهى قيود غير منظورة. وقد ترجع عوامل أخرى للمغادرة إلى بعض الأحداث غير السارة

التي تجرى في الموقع، والتي تجعل من العسير عليك أن تواصل عملك. ومع ذلك، فإن الذي يحدث في كثير من الأحيان هو أنك تصل إلى نقطة تشبع حيث لا تجد أي جديد في الموقع، إلى حد أنه قد يصل بك الحال إلى الشعور بأنك إن لبثت أي مدة أكثر من ذلك فقد تبدأ بفقدان منظورك البحثي. شاهد ذلك أن دورين كوندو Dorinne Kondo، وهي باحثة يابانية أمريكية تتحدث اللغتين كانت تقوم بإجراء بحث ميداني في أحد مصانع الحلويات في مدينة طوكيو. وهي مهتمة بالذات بالفكرة الخاصة بمعاملة صاحب العمل للعمال باعتبارهم "جزءاً من عائلته". فهل يشبه المصنع الياباني العائلة فعلاً؟ وهل يعتبر العمال أنفسهم جزءاً من "عائلة واحدة"؟ وقد أمضت الباحثة قرابة ثلاث سنوات في الميدان، وهي تصف مدى صعوبة مغادرتها النهائية للموقع فنقول: "ظللت أمدد من فترة بقائي في المصنع، حتى صار أمراً مضحكاً، فقد بدأت النساء الكبيرات السن باستفزازي بالحديث عن والدتي الذين "لا بد أن تكون عنقاهما طويلتين للغاية". وهي تلاحظ مع ذلك أن حادثة واحدة هي التي كانت مؤشراً حقيقياً على وجوب رحيلها النهائي من الموقع:

أثناء حصة لتعلم طقوس شرب الشاي، قمت بأداء الطقوس الأساسية لتحضير "الشاي الخفيف" بطريقة لا خطأ فيها، وبدون حاجة إلى تذكير ببعض الحركات أو إلى تصحيح لها. وقال لي معلمتي بلهجة تنم عن القبول والاستحسان: "أعرفين، إنك عندما بدأت التعلم لأول مرة، كنت في غاية القلق. فقد كانت طريقتك في الحركة، وطريقتك في المشي غير ملائمة تماماً. أما الآن، فإنك تشبهين شبيهاً تاماً أي "أوجوسان" "ojosan" (أي "فتاة رشيقة"). كان جزء من نفسي في سرور لا حد له لأن حركاتي الغربية البالغة الارتباك قد حلت محلها أخيراً تلك الرشاقة الماهرة المنضبطة التي تجعل حفلة شرب الشاي جديرة بالمشاهدة لما تبدو عليه من التلقائية والجمال الأخاذ. إلا أنني سمعت صوتاً آخر بداخلي يصرخ محذراً بشدة قائلاً: "دعيني أهرب قبل أن أغير تغيراً تاماً". ولم يمض بعد ذلك سوى أسابيع قليلة تركت الموقع بعدها (Dorinne Kondo, 2001, P. 199-200).

كذلك توجد درجات لمغادرة الميدان. فقد يرحل بعض الباحثين بطريقة فجائية، ممزقين بذلك كل الروابط التي تصلهم بمجتمع البحث. وقد يحدث هذا لأن الباحث و/أو المبحوثين قد داخلهم شعور بعدم الارتياح النفسى لتفاعلاتهم فى موقع البحث، أو لأن بعض الظروف الشخصية أو الاقتصادية اقتضت إنهاء المشروع البحثى مبكراً. شاهد ذلك أن روث هوروفيتز Ruth Horowitz أرادت أن تقوم ببحث عن إحدى عصابات الشيكانو Chicano. إلا أن المبادرات الجنسية الصادرة من أعضاء هذه الجماعة - والتي كانت ترفضها الباحثة - جعلت من المستحيل أن تستمر فى هذا الميدان. وهى تعلق على ذلك قائلة: "تظراً لتزايد الضغوط على للقيام باتخاذ دور عضو العصابة الذى لابد أن يخضع للاعتبارات الداخلية التى تحكم عملها، ولكننى رفضت قبول هوية جنسية (مستجيبة لهذه الدعوات) كان يمكنها أن تتيح لى الاستمرار كباحثة فى هذا الموقع". (Horowitz, 1986, p. 423).

وقد يحتفظ باحثون آخرون بروابط وثيقة مع مجتمع بحثهم، وذلك بزيارته والإبقاء على اتصالهم بالمبحوثين. وقد يصل الحال ببعض الباحثين إلى حد تكوين صداقات تستمر مدى الحياة. وتوجد بعض استراتيجيات المغادرة المهمة التى يمكن أن تستعملها فى رحيلك عن الميدان، كأن تتأكد من إعلام المبحوثين بأن إقامتك لا تعدو أن تكون مؤقتة، بل وتعطى الآخرين إحساساً بالجدول الزمنى لبحثك. ومن الأمور التى لا تتفك عن عملية البحث الميدانى تكوين الألفة المتبادلة بين الباحث والمبحوثين. فقد يصل الحال بهؤلاء الموجودين فى مجتمع البحث، مثلاً، إلى حد الاعتماد على الباحث فى الحصول على الدعم العاطفى والنصيحة. ومن هنا فإنه عندما يتم سحب ذلك كله ربما يتولد إحساس بالضياع والهجران لدى كل من الباحث والمبحوثين على السواء.

شاهد ذلك أن ماكسين باكازين (٢٠٠١) أجرت بحثاً ميدانياً عن الحياة العائلية عند الشيكانو Chicano. فأقامت اتصالات أولية مع بعض العائلات من خلال ملاحظاتها القائمة على المشاركة فى برنامج تعليمى على مستوى المجتمع المحلى، وذلك عن طريق حضورها لورش العمل ومساهمتها

فى الأنشطة المقدمة للآباء والأمهات الذين لهم أبناء مقيدون بتلك البرامج التعليمية. وهى تلاحظ كيف تكون العلاقة بين الباحث والمبحوثين - أحياناً - غير متوازنة، وكيف أن أفراد مجتمع البحث الذين قد يصل بهم الحال أحياناً إلى الاعتماد على الباحث فى الحصول على الدعم الاجتماعى، والتحفيز، والصدقة؛ كيف أنهم يشعرون فى كثير من الأحيان بأنهم قد خذلوا عندما ينتهى المشروع. وقد حكى "باكا زين" القصة التالية التى تروى رحيلها عن الميدان:

فى أثناء المراحل الأخيرة للبحث، وهى مرحلة إنهاء العلاقات والإعداد لمغادرة الميدان، بدا لى واضحاً مدى اضطراب العلاقة البحثية (بين الباحث والمبحوثين). وقد حاولت - قبل ذلك - أن أكون أمينة مع العائلات التى كانت بمثابة الإخباريين الأساسيين بالنسبة لى عندما بدأت تكوين علاقاتى البحثية. فقد كنت صريحة فيما يتصل بمقدار الوقت الذى سوف أقضيه فى الميدان مثلاً. وبجانب ذلك، فإنهم يعلمون أننى قبلت العمل فى إحدى وظائف التدريس بالجامعة وأننى سوف أغادر هذا المجتمع المحلى فى نهاية الأمر. وعلى الرغم من ذلك، فقد آل أمر أحد الإخباريين إلى الاعتماد على. أنا أعلم أن هذه هى المراحل النهائية للبحث، كما أننى شعرت بعدم الارتياح النفسى عندما سمعت هذا الإخبارى يقول فى أحد اجتماعات الآباء: "أتمنى ألا تتركنا. فلولا مساعدتها لما استطعت أن أترأس "مجلس الآباء". إننى لا أعرف كيف سأبهر أمورى عندما ترحل" (Maxine Baca Zinn , 2001, pp. 159-166).

كما كان من العسير على "باكا زين"، وهى عالمة شاكائية تدرس المجتمع المحلى للشيكانو، أن تترك هذا الموقع، خاصة عندما طلب منها بعض أفراد المقيمين أن تقوم بالتدريس فى كلية قريبة من أجل أنه - وكما يقول واحد من إخباريها: "عندما يذهب أبناؤنا إلى الكلية، تتاح لهم الفرصة أن يتلقوا دروسهم التعليمية على يد أحد من قومهم". (ص ١٦٦). وتدخل "باكا زين" فى صراع مع مشاعرها المتعلقة بمقدار "ما يعطيه" الباحث لمجتمع بحث معين ومقدار ما "يأخذه منه" (أو حتى مقدار "استغلاله له" كما قد يقول

البعض). وهى تعلق على ذلك بأنه رغم أن لديها رداً جاهزاً على هذا الإخبارى، فإنها لا تزال فى صراع داخلى بسبب هذه القضية "التي لها صلة بظروف عملى والتزاماتى نحو هذا العمل وبالرد الذى يمكن أن يقبله هذا الإخبارى. ومع ذلك، فإنه لم يكن عندى رد على نفسى عندما ووجهت بهذا السؤال المزعج، وهو: هل كنت، مع ذلك، واحدة من هؤلاء الباحثين الذين لا يرى الواحد منهم أبداً فى المجتمع المحلى بمجرد اكتمال الدراسة؟ لقد كان - وما زال حتى الآن - سؤالاً مؤلماً حقاً... (ص ١٦٦)

أياً ما كانت أسباب مغادرتك، فإن من المهم أن تستعين ببعض الاستراتيجيات لرحيلك عن الموقع. وقد يكون من المهم أن تراجع مسألة مغادرتك للموقع مع الغير لتتعرف على ما يشعرون به وربما لترتب مع نفر من المقيمين فيه بعض الوسائل لإظهار مغادرتك للموقع بأسلوب أكثر علانية، من قبيل إقامة حفلة، أو المشاركة فى احتفال طقسى معين.. إلى آخره، وكذلك لترتيب نمط متابعتك لخطتك - سواء أكانت هذه المتابعة عبارة عن خطاب ترسله أو زيارة تعود فيها إلى مجتمع بحثك مرة أخرى.

جمع البيانات فى موقع البحث

إن من الأمور الحاسمة بالنسبة لك أن تحدد نمط البيانات التى تريد أن تجمعها فى الموقع وأن تحدد الطريقة المثلى للقيام بهذه المهمة. وسوف يؤثر الدور الذى ستؤديه فى موقع البحث على تحديد نوعيات البيانات التى سوف تكون قادراً - أو غير قادر - على جمعها. هل ستحصل على البيانات من خلال الملاحظة و/أو المشاركة فحسب؟ وهل ستجمع البيانات باستخدام طرق أخرى، كإجراء المقابلات مع الموجودين بالموقع بطريقة رسمية وبطريقة غير رسمية معاً؟ وهل ستعتمد على ما هو متوفر من معلومات عن هذا الموقع مما جمعه غيرك (والتي منها مثلاً الدراسات البحثية، والوثائق)؟ فهذه - أيضاً - اختيارات متاحة أمامك فى مجال جمع البيانات. وينبغى أن تكون أغلب هذه القرارات مرتبطة بسؤالك الذى تطرحه فى بحثك ونابعة منه.

فإن كنت تجمع البيانات من خلال الملاحظة والمشاركة فى أنشطة موقع البحث، يصبح من الأمور الحاسمة أن تجمع البيانات "بصفة مستمرة". إذ ينبغي أن يمضى جمع البيانات وتحليل البيانات معاً فى وقت واحد. ويعنى هذا بالنسبة للإثنوجرافى الموجود فى الميدان أن تقوم بتدوين كامل لملاحظاتك وأفكارك (عملية جمع البيانات) وأن تقوم بمحاولة فهم حقيقة ما يجرى (عملية تحليل البيانات). ويتم تنفيذ ذلك كل يوم بمجرد أن تغادر الميدان، أو أثناء وجودك فى الميدان إن كان ذلك ممكناً. فإن لم تفعل ذلك، فمن السهل أن تنسى التفاصيل والأحداث المهمة. وقد يقودك تحليل ملاحظاتك الميدانية إلى طرح أسئلة جديدة، ومن ثم إجراء ملاحظات جديدة، وإلى القيام بتفاعلات جديدة فى موقع البحث.

• كيف تلاحظ؟

إن من المهم أن تتذكر أنك لا تستطيع أن تلاحظ كل ما يجرى من تفاعلات. لذلك من المهم أن تطرح على نفسك السؤال التالى:

- ما هو الجزء المعين أو الأجزاء المعينة التى تريد ملاحظتها فى موقع البحث؟

توجد مستويات متعددة للملاحظات التى يمكن إجراؤها داخل موقع ما، كما أنه ليس بالإمكان الالتزام بها كلها فى وقت واحد. وتتمثل بعض مستويات الملاحظة التى قد تحتاج إليها فى بحثك فيما يلى:

- ما الذى يفعله الناس فى مجتمع البحث؟
 - ما هى أنشطتهم؟
 - ما هى الملاحظات الحسية التى يمكن رصدها فى الموقع (كوجود أصوات معينة أو روائح معينة مثلاً)؟
 - ما الذى يُقال (تنبه جيداً للغة - دَوِّن بالتفصيل الشواهد الخاصة/ أو العبارات الخاصة التى تشعر أنها تحيط - على أفضل نحو - بما يجري حدوثه فى الموقع)؟
 - ما هى الأشياء المسكوت عنها؟ هل توجد أمورٌ أخرى تؤخذ مأخذ التسليم؟
- فأحياناً يكون ما هو غير حاضر فى نفس أهمية ما هو حاضر.

كيف تسجل ملاحظاتك؟

لا يتفق جميع الإثنوجرافيين على طريقة معينة تكون هي المثلى لإنجاز هذه المهمة. ويركز هذا القسم من الكتاب على الطريقة التي يمكن بها أن تسجل الملاحظات في صورة "مذكرات ميدانية"، إلا أنك قد تستعمل مسجلاً صوتياً أو حتى مسجلاً فيديو أو مسجلاً رقمياً. والمذكرات الميدانية هي البيانات التي تجمعها من أجل الوصول إلى فهم مجتمع بحثك، وهي التي ستعتمد عليها عند الشروع في كتابة نتائج بحثك^(*).

معالجة بيانات المذكرات الميدانية

أولاً وقبل كل شيء، فإنه لكي تيسر على نفسك عملية معالجة البيانات الموجودة في مذكراتك الميدانية، يكون من المهم أن تسجل تاريخ اليوم، وأى وقت من اليوم، والموقع، ورقم الصفحة لكل المذكرات الميدانية. ومن شأن هذا أن يساعد كذلك على تكوين أنماط مختلفة من المذكرات الميدانية أو تقسيم أو تصنيف مذكراتك في أقسام مختلفة. ومع ذلك، فسوف يحدث أحياناً أن تتداخل هذه الأقسام في بعضها في أى مذكرة ميدانية معينة. وقد اقترح باحثون كثيرون أنماطاً عديدة للمذكرات الميدانية التي يمكن أن تبكرها لنفسك (انظر بصفة خاصة بيلي Bailey، ١٩٩٦، ص ٨٠).

ويمكن أن تتكون المذكرات "الفورية" (أى التي تكتب في نفس لحظة وقوع الحدث) من بعض الكلمات أو العبارات الأساسية التي تساعدك على تذكر الأحداث أو الأفكار المهمة التي تجرى أثناء قيامك بإجراء ملاحظاتك. ومن الممكن كتابتها في مفكرة صغيرة مخصصة للكتابة السريعة. ويستعمل بعض الباحثين أية أنواع يجدونها من الورق، بما في ذلك ظهر علبة الكبريت أو مناديل المائدة لكي لا تتعطل ملاحظاتهم المتصلة في الميدان.

(*) سبق أن أنجز فريق العمل في هذا الكتاب ترجمة لكتاب يدور بأكمله عن موضوع المذكرات الميدانية، انظر: روبرت إيمرسون وزملاؤه، البحث الميداني الإثنوجرافي. كتابة المذكرات الميدانية، ترجمة هناء الجوهري، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠. (المراجع)

إن الوصف المكثف لمجتمع البحث هو كل ما يمكنك تذكره مما حدث بالضبط في الموقع. فتأكد - كلما كان ذلك ممكناً - من تسجيل نفس الكلمات أو العبارات "الحية" التي ترد على لسان المبحوثين فعلاً، أو بأقرب ما تستطيع الوصول إليه من كلماتهم. وتأكد من أنك لم تنس تسجيل الملاحظات الحسية في الموقع: ما الذي تشمه من الروائح؟ وماذا عن المرئيات المميزة؟ ومع أنك قد ترى أن بعض تفاصيل هذه الأنشطة والأحداث عادية جداً، فإن من الأهمية ألا تضيق نطاق توصيفاتك، بل كن منفتحاً على رؤية التشكيلة المتنوعة من الأحداث والتفاصيل التي في الموقع. ويمكن تصنيف هذه المذكرات وما يتصل بها من أحداث وشخصيات بعد أن تغادر الموقع. ذلك أن بعض ما تظنه قليل الأهمية قد يكون، في الواقع، أمراً حاسماً بمجرد أن تتركب بعض هذه القطع الوصفية معاً على نحو معين.

مذكرات تحليل البيانات: تستطيع - بدرجة ما - أن تعتبر أن هذا النوع من المذكرات يربط بين المذكرات الفورية والوصف المكثف الذي كتبتَه تصف فيه تفاصيل موقع البحث. فهذه المذكرات هي تلك التي تقول: "ماذا يعنى هذا؟" بالنسبة لك. وما هي الأمور التي تتوافق معاً؟ وما هي الأسئلة الجديدة التي تطرحها عليك هذه المذكرات؟ وما الذي تعلمته حتى تلك اللحظة، وما الذي يعنيه هذا في هذه المرحلة؟ كما أن بالإمكان أن تحتوى هذه المذكرات على أعمق الهواجس والأفكار التي تعتمل داخل نفسك. فأطلق عنان نفسك "التحليلية" هنا من خلال عملية "العصف الذهني". (انظر كذلك ببلي Bailey، ١٩٩٦، و لوفلاند و لوفلاند Lofland & Lofland، ١٩٨٤).

مذكرات الأمور الشخصية والتأملات: وهي تمثل لك مجالاً لاستكشاف وضعيتك الخاصة كباحث في هذه العملية البحثية. ماذا تشعر به تجاه هذا الموقع؟ ما هي الأمور التي تشغل بالك؟ وإلى أى مدى يمكنك أن تنتقد دورك في موقع البحث؟ هل كنت متقبلاً للأفكار الجديدة أم كنت غاضباً طرّفك عن هذا اليوم لأن الأفراد الذين قابلتهم كانوا ينتقدونك؟ اكتب مشاعرك بالتفصيل تجاه أولئك الأفراد الذين تقوم ببحثهم. مثال ذلك: هل تختصر ملاحظاتك عن الشخص "س" لأنك - في الحقيقة - لا تحبه فهو يذكرك بزميل الدراسة في الكلية، الذي انتزع منك حبيبتك السابقة. وما هو الأمر الذي تهتم به؟ وما هي

مخاوفك؟ وما هي الأشياء العملية أو الإجرائية التي تحتاج إلى تذكير نفسك بها؟ هل تحتاج إلى تجهيزات أو إمدادات بحثية كأوراق الكمبيوتر أو بطاقات الفهارس؟ فرغم أن هذه الأشياء "العملية" تبدو في الظاهر أشياء تافهة فإنها مهمة للاحتفاظ بمشروعك ماضياً في طريقه قدماً (انظر بيلى، ١٩٩٦، ولوفلاند و لوفلاند، ١٩٨٤).

• المذكرات الخاصة بمراجعة ما تجمعه كل يوم والمذكرات الخاصة بالمراجعة الأكمل عند وصولك إلى منتصف مذكرات مشروعك البحثي.

قد تحتاج أيضاً إلى التفكير في القيام بمراجعة مختصرة أو بوضع خلاصة للبيانات التي تجمعها على أساس يومي، وذلك عن طريق تقديمك لشئتين:

(١) خلاصة موجزة لما توصلت إليه و

(٢) تعليق قصير على ما تتصوره من معنى لهذا الذي وجدته حتى تلك اللحظة، وذلك عن طريق سؤالك لنفسك: "ما هي الدلالات الضمنية لما ورد في (١) و (٢) - من خلاصة وتعليق - بالنسبة للطريقة التي سوف أتبعها في سيرى في اليوم القادم عند إجراء ملاحظاتي؟ وما الذي ينبغي عليّ تناوله فيما بعد .. إلى آخره". وليس من المحتم أن تكون هذه المراجعة/ أو الوصف المختصر تعليقاً مسهباً، ذلك أن عدداً قليلاً من الفقرات سوف يكفي لتحقيق المطلوب. وفي منتصف اليوم تقريباً وأثناء قيامك بجمع المعلومات قد تكون قدمت وصفاً أكثر أهمية عن طريق مراجعتك لما يلي:

(١) لكل البيانات التي جمعت منذ البداية وحتى هذه اللحظة في منتصف اليوم.

(٢) وللتعليقات المهمة على معنى هذه البيانات في تصورك، طارحاً نفس الأسئلة المذكورة.

ومن المهم أن تتذكر أنه لا توجد صيغة "كاملة" لكتابة المذكرات الميدانية، فالمذكرات الميدانية التي يكتبها كل باحث لها حياتها الخاصة بها. فقد يحب بعض منا أن يرسموا خطوطاً بيانية بصرية على نحو أكثر من غيرهم. ويحب بعض منا أن "يشخبطوا" كوسيلة للوصول إلى بعض أفكارهم.

وقد يقوم بعض منا بقص ولصق جذاذات مختلفة داخل المذكرات الميدانية التي تحصلنا عليها في ذلك اليوم. وربما أعطاك أحدهم مقالاً منشوراً في صحيفة، أو كتيباً، أو حتى خطاباً أو بطاقة يريد أن تأخذها. فتذكر أن البحث الميداني يمكن أن يحتوى كذلك على الوثائق التي تجمعها في الميدان، وأن هذه الوثائق لابد من تحليلها أيضاً.

تحليل مذكراتك الميدانية وغيرها

من المواد: اللغز الإثنوجرافى

هيا بنا نمضى داخل العملية البحثية وننظر كيف تكتب إحدى الباحثات مذكراتها الميدانية كتابة تفصيلية. ولاحظ كيف يتوأكب الوصف مع التحليل في هذه المذكرات. وقد كتبت هذه المذكرات الميدانية مساعدة بحث بيضاء اللون من أبناء الطبقة الوسطى تقوم بإجراء الملاحظات في بيئة يغلب على أهلها اللون الأسود. وفيما يلى نص مستخلص من المذكرات الميدانية التى كتبت بعد فترة قصيرة من ملاحظتها للأنشطة التى جرت في مركز اجتماعى يقع فى حي وسط المدينة الذى تحيط به منطقة يغلب على أهلها اللون الأسود. وهى تقوم بدور المشاركة الملاحظة فى هذا الموقع. وقد كانت فى صحبة أستاذتها عند الذهاب إلى موقع البحث المذكور، والذى يُسمى سيتى فيل Cityville من أجل أن تحدد مكان المبحوثين السود المطلوبين لمشروع بحثى عن الهوية السوداء وصورة الجسد.

المذكرة الميدانية: رقم ١.

التاريخ: يوليو ١٩٩٥.

المكان: المركز الاجتماعى، سيتى فيل.

الحدث: يوم الأمهات - والبنات.

لقد كان أمراً مختلفاً جداً أن أقود السيارة فى حي سيتى فيل، وهو حي يمثل جزءاً من مدينة سيتى City لم أره من قبل تلك المرة أبداً. ذلك أن الفارق بين المكان الذى أعيش فيه وأذهب فيه للدراسة فارق مذهل. فالواقع أنهما يكادان يكونان عالمين منفصلين عن بعضهما.

كانت المدرسة الحكومية (الرسمية) مختفية وراء طريق جانبي بحيث أنك لا تستطيع أبداً أن تعرف أنها موجودة في هذا المكان. وكانت هذه المدرسة نفسها في غاية الاختلاف عن المدارس التي رأيتها في منطقتي. فقد كانت مدرسة ضخمة البناء إلا أنها قديمة جداً ولا يُعتنى بها كثيراً. وكنت أشعر بشيء من التوتر والقلق مما يمكننا أن نجده عندما دلفنا إلى المدرسة.

كان أول شيء أصابني بالدهشة هو مدى شعوري بأنني ببيضاء اللون. فقد كنت أنا وأستاذتي الفردين اللوحدين من البيض فيما أرى، كما شعرت كأن كل إنسان كان ينظر إليّ ويفكر في نفسه متسائلاً: "من هي هذه الفتاة البيضاء الغبية وماذا عساها تفعل هنا؟". وقد سبق لي أن قرأت مقالة ضمن مقررات الصف الدراسي لأستاذتي عنوانها "حقيبة الظهر الخفية" وكانت تتحدث فيها عن الوضع الممتاز الذي يتمتع به البيض وعن حقيقة أننا مهما ذهبنا نحن البيض إلى أي مكان، فإننا نراهن على أن أغلبية الناس حولنا سيكونون بيضاً كذلك. لذلك فقد كنت على وعي - دائماً - بالشعور الذي لابد أن يشعر به المرء عندما يكون أسود اللون ويسير في مكان ليس فيه إلا البيض. إلا أن هذا الوعي السابق لم يكن مثل الوعي الذي وصلت إليه عندما سرت في مكان ليس فيه إلا السود. كانت المقاعد الدراسية مقلوبة، كما أنه علىّ أن أعترف أنني أحب ذلك الوضع. لقد شعرت بقلق شديد وبأنني غير مرغوب فيها وشعرت كأنني محتاجة لأن أثبت أو أبرهن لهؤلاء الناس أنني مثلهم تماماً، وذلك حتى على الرغم من أنني أعلم في أعماق نفسي أنني لست صديقة في هذا الزعم.

كما كان الأمر الثاني الذي صدمني هو المقدار الهائل من الشغب الذي كان يسود المكان. فقد كان الصغار يجرون في كل مكان، وكان الكبار يلقون أوامرهم صائحين هنا وهناك. ثم سرنا داخل مكان به موائد منصوبة، وبه مجموعة من الأطفال يمارسون تمريناً روتينياً للرقص الإيقاعي مع مدربيهم الرياضي. وكان ثمة عدد كبير من الأفراد يرتدون أحسن الثياب. وعندما جلست في هذا المكان علمت أنه لا يمكن أن يكون هذا اليوم يوماً عادياً في هذا المركز الاجتماعي. فبعد وقت قليل، اكتشفت أستاذتي، وأنا كذلك، أنه سيقدم في هذا المكان عرض ما. لقد كان هذا الأمر مفاجأة لي فعلاً. أما

المفاجأة الأكبر فقد تمثلت فى أن أستاذتى ستحدث فى هذا الحفل إلى الأطفال والآباء. وهو أمر عظيم يستحق الملاحظة المبكرة التى تسبق الحدث.

عندما أصبحت أستاذتى مستعدة أخذت فى متابعة الأطفال وهم مستمرون فى أداء تمارين الرقص الإيقاعى. لقد كانوا أطفالاً ظرفاء فعلاً، تتراوح أعمارهم بين ٧ سنين و ١٤ سنة، وكانوا ١٢ فتاة وصبيّاً واحداً. وكان مدربهم مستغرقاً تماماً فى تدريبهم. وكان فى غاية الشدة مع الأطفال كما كان يطالبهم بالانتباه والدقة، فإنه كان شديداً بطريقة فى منتهى العطف والاهتمام. وكان الأطفال كذلك فى غاية الجدية فى رقصهم الإيقاعى كما كانوا يبذلون جهداً كبيراً فى أداء تمريناتهم.

وبعد لحظة بدأ الآباء والأمهات يتدفقون على المكان، كما غادر المكان الأطفال الذين كانوا يقومون بتمرينات الرقص الإيقاعى. حصلت أستاذتى وأنا على كتيب أعطانا إياه أحد الأفراد المكلفين بإرشاد الضيوف واكتشفنا أننا فى "أمسية الأمهات والبنات". وكان اسم أستاذتى مكتوباً فى هذا الكتيب كمتحدثة، وفى بحر دقائق قليلة كانت تتأهب للصعود إلى المنصة.

جلسنا إلى إحدى الموائد مع أم، وأب، وأخت لإحدى المتدربات على الرقص الإيقاعى. كانت تتواجد بالمكان أسرٌ أخرى من بينها أسرة من البناء. وكان من الموجودين أم وأب لإحدى المتدربات على الرقص الإيقاعى، والجدّة وابنتاها، بل وبعض الأصدقاء كذلك. وكان الباقيون أمهات أو أصدقاء وصديقات لباقي الفتيات. بل إنه كانت توجد إحدى الأمهات التى جاءت لتقف إلى جانب ابنتها الذى كان أحد مرشدى الضيوف. كان مرشدو الضيوف جميعاً يرتدون أحسن الثياب، واضعين عليها بطاقات تحمل أسماءهم، وبدا عليهم أنهم جادون فى أداء عملهم.

وأخيراً ظهر بعض الأفراد البيض، وقتها لم أعد أشعر أنى ملفتة للنظر كما كنت أشعر من قبل. وكان منهم أم وأخت لفتاة مغنية، وهى الفتاة البيضاء الوحيدة التى رأيتها فى هذه المجموعة من الأطفال. إنه لأمر فى غاية الروعة! وكان الشخصان الأبيضان الآخران اللذان حضرا، كانا من المتحدثين أيضاً.

حسناً، لقد بدأ الحفل. تكلمت أستاذتى أولاً، وكانت تتحلى بشجاعة فائقة لأنك لا تستطيع أن تدفع لى مالا لأقف فى مواجهة مثل هذه الجماعة. إلا أنها ألقت خطبة عظيمة، كما بدا على أغلب الأمهات أنهن كن مهتمات بالحديث تماماً. ثم تحدث المدير الجديد للمركز الاجتماعى عن مدى سعادته بتولى منصب المدير، وعن مدى ما أحدثه تنفيذ بعض البرامج الجديدة من نجاح أثار انتباهه. وبعد ذلك حضرت مجموعة من المغنين، كان منهم مغن رئيسى عمره ما بين ١٠ و ١٢ سنة، ومعه مجموعة من المربدين (الكورس) مكونة من ٨ فتيات وصبى أو صبيين. وقد غنوا أغنية "يجب أن تكون قويا".

كان يبدو على الآباء جميعاً سيماء الفخر. وبعد ذلك صعدت واحدة من السيدات البيض لتحدث عن سيارتها الكبيرة التى تسميها "عربة العائلة". وهى طبية تتجول بعربتها الكبيرة ومعها فريق من الأطباء المحترفين، وتقدم خدمات صحية مجانية لمن هم فى حاجة إليها. وقالت إنها ترغب فى تقديم سيارتها تلك للمركز، وتريد أن تتأكد من أن هذا المجتمع المحلى يحتاج إلى العربة فى سببى فىل، وتريد أن تسأل عما إذا كان لديهم أسئلة يريدون طرحها. طُرحت عليها بعض الأسئلة القليلة، ثم عبرت عن تأييدها لما قالتـه أستاذتى. ثم حضرت الراقصات الإيقاعيات، وقد كن يتمتعن بكفاءات جسمية متمثلة، كما أنهن أدين دورهن الروتينى بإيقان بالغ. وكان مدربهن ينظر إليهن بفخر عظيم، وكذلك كان شأن آبائهن وأمهاتهن معهن. قالت الأم التى تجلس إلى مائتى: "هذه هى صغيرتى" عندما ظهرت ابنتها ضمن العرض. وقد كانت هؤلاء الفتيات يبدن فخورات حقاً وسعديات أيضاً. وفى نهاية العرض رأيت مدربهن يعانقهن مثنياً على حسن أدائهن. كانت رسالتهم عن المعرفة والنجاح وبذل المرء لأقصى جهده رسالة مفعمة بالقوة حقاً.

أخبرت امرأتان أستاذتى أنهما تريدان أن تتحدثا إليها، لذلك فإنها ذهبت مع الجدة. شعرت بشيء من القلق عليها لأننى كنت أظن أن الجدة قد تسأل أستاذتى عن تلجأ إليه، ولكنها لم تفعل ذلك فى الواقع، فقد كانت تريد إجراء مقابلة معها بحضور بناتها الثلاث وحفيبتها. لقد بدا عليها الاهتمام

الشديد، كما أنها أخبرت أستاذتى أن الرجال السود والمجتمع الأسود أكثر تقبلاً للنساء البدنيات.

لقد لاحظت، أنا نفسى، مثل هذا الفارق بين جميع النساء الموجودات فى هذا المكان بالمقارنة مع مكان آخر مليء بالنساء البيض. كان يوجد عدد قليل جداً من النساء الفائقات البدانة، إلا أنهن كن جميعاً مرتديات ثياباً حسنة، كما أنهن كن يثقن بأنفسهن، فقد كن يبدن سعيدات جميعاً، كما كان يبدو عليهن الاطمئنان وراحة البال. والحق أننى لم أر أبداً ذلك فى المجتمع الأبيض. فالمعتاد أنه عندما يكون الأفراد ذوى أحجام كبيرة فى مجتمع البيض فإنهم يتعاملون مع أنفسهم بطريقة مختلفة، فلا يبدو عليهم الثقة بالنفس ولا الاطمئنان وراحة البال. أنا أعلم أن هذا نوع من التعميم، فإنه يمثل ما لاحظته. إن هؤلاء النساء السود، سواء أكن بدنيات أم نحيفات، يشعرن بنفس الإحساس.

وأياً كانت تصرفات الفتيات الصغيرات، فقد كان يبدو عليهن، إن كن نحيفات، وكأن من الطبيعى أن يكن بهذا الشكل. ولاحظت أن بعض الفتيات كن ذوات بنية جسمانية عادية ويبدو عليهن أنهن سعيدات ومطمئنات ومرتاحات البال. بل إن بعضهن ممن يمكن اعتبارهن بدنيات فى المجتمع الأبيض كن يبدن فى نفس الحالة من السعادة وراحة البال.

لقد كان فى هذا المكان قدر هائل من الفخر والمحبة والاستتارة والقوة. وقد كان شعوراً غلباً ومذهلاً أن تكون جزءاً من هذا الحدث، حتى لو كنت غريباً فى نظر الحاضرين. وإنى لأود أن يذهب كل من يبدون آراءهم فى السود ويطلقون عليهم أحكاماً عامة؛ أن يذهبوا إلى مركز اجتماعى كالمركز الموجود فى سيتى فيل ويمضوا فيه يوماً ليروا مقدار ما هم عليه من خطأ.

نهضت امرأة أخرى لتخطب، وكانت امرأة سوداء تصطحب معها أمها. وكان من الممتع أن تنصت إلى حديثها وهى تدعو الحاضرين إلى أن يؤمنوا على دعائها، وأن ترى كم كانت استجابة الجمهور لها أعظم بكثير من استجابتهم لأستاذتى وللمتحدثة البيضاء الأخرى.

بعد ذلك غادرنا المكان، وبينما كنا نسأل عن بعض الإرشادات الخاصة بطريق العودة، عرضت علينا سيدة كانت بسبيلها لمغادرة المكان أن نركب في عربتها لتوصلنا إلى محطة الترولى. لقد كانت فى غاية الكرم معنا، كما كانت ودودة حقاً. وهى تعيش فى سبتي فىل منذ أكثر من ٢٥ سنة وتدير عيادة لإسعاف مرضى الإدمان عن طريق الخط الساخن.

أثناء ركوبى الترولى عائدة لبيتى انقلب الوضع فعدت أنا الغالبة البيضاء مرة ثانية. ما أروعه من شعور غامر بالراحة النفسية أحسست به آنذاك.

تتم عملية تحليل البيانات الإثنوجرافية كنشاط متواصل مواكب لعملية جمع البيانات. فأنت تجمع البيانات، ثم تفكر فيها وتأملها، ثم تجمع المزيد من البيانات وتعاود التفكير فيها وتأملها. وتسير عمليتا جمع البيانات وتحليلها فى صورة حلزون صاعد يتحرك باتجاه خلق المعنى. وقد ينتفع الإثنوجرافيون أيضاً بالتقنيات الكمية والتحليلات الإحصائية للمساعدة فى تحقيق هذا الهدف، وذلك رغم أن هذا النمط من التحليل يظل - عادة - فى مرتبة ثانوية بالنسبة للتحليل الكيفي.

اللغز الإثنوجرافى (*)

يمكننا النظر إلى التحليل الإثنوجرافى بوصفه "عملية استقرائية"، أعنى بذلك، عملية اكتشاف ما تعنيه البيانات التى تجمعها. ويُعد الوصف هو

(*) المصطلح المستخدم puzzle ويقصد به تلك اللعبة المكونة من عدد كبير (قد يصل للمئات) من أجزاء صورة أكبر، يعرفها الصغار والكبار، ويفضلها الصغار خصوصاً. وتتمثل اللعبة فى تجميع أجزاء الصورة الصغيرة المتفاوتة الشكل والصور المرسومة عليها، ووضعها فى علاقاتها الصحيحة ببعضها البعض، بحيث تكون - فى نهاية اللعبة - شكل الصورة المنشودة. وبذلك ينحل اللغز وتكتمل المتعة.

والمؤلفة هنا تشبه عمل الباحث الإثنوجرافى فى تحليل مادته الميدانية بعملية تجميع أجزاء اللغز إلى جانب بعضها البعض، أى تجميع جزئيات المعلومات والبيانات الميدانية إلى جانب بعضها بوضعها فى علاقاتها الصحيحة ببعضها البعض، لتتكون فى النهاية الصورة المنشودة للمجتمع - أو الموضوع - المدروس، وينحل اللغز. (المراجع)

حجر الأساس للتحليل الإثنوجرافى، كما تُعدّ المذكرات الميدانية هى السجل الذى يحتوى على الملاحظات المتعمقة التى جمعتها من الميدان والتى تقدم لنا نافذة للإطلال منها على موقع البحث: البشر الذين يعيشون فيه، والملاصيح المادية للموقع، وما إلى ذلك. ويمكننا النظر إلى المذكرات الميدانية بوصفها أجزاء تتكون منها - فى النهاية - إحدى صور الألفاز المكونة من أجزاء صورة معينة. والهدف هو تجميع هذه الأجزاء معاً لتكوين صورة اللغز المكتملة (وهو ما يمثل التحليل) ثم إخبار القارئ بما تراه (وهو ما يمثل التفسير أو التأويل). فما هو مدى جودة تنظيمك (أى ترتيبك لأجزاء) هذه القصة التصويرية؟ يمكنك أن تبدأ فحسب بالقراءة التى تستعرض فيها ما جمعته وتطرح بعض الأسئلة التى تنبئ بالإحساس، كهذا السؤال على سبيل المثال:

• ما الذى يجرى فى هذا الموقع البحثى؟

يتمثل جزء من تحليلك فى ترتيب هذه القطع أو الأجزاء التصويرية لتشكّل منها قصة. وتحليلك هذا (أى طريقته فى ترتيب هذه الأجزاء فى صورة كاملة من صور الألفاز) هو الذى يقودك إلى التفسير (أى: ما الذى يعنيه هذا اللغز؟). وكما تعلم، فإنه يمكن أن توجد بدايات زائفة لحل أى لغز. فقد نحرك هذه الأجزاء جيئةً وذهاباً، وقد نرغم - أحياناً - أجزاء صورة اللغز على التجمع معاً! وقد تظهر مشكلات معينة أثناء رحلتك التحليلية. وهذه بعض الأسئلة المنبهة للإحساس التى يمكن أن تطرحها على نفسك وأنت ماضٍ فى طريقك:

• هل أنتقل من الوصف إلى التحليل بسرعة أكثر من اللازم؟ فإن كان الأمر كذلك، فقد تكون الصورة غائمة غير واضحة ويكون تفسيرك فى غاية الضعف.

• هل أمضى وقتاً أطور من اللازم مستغرقاً فى الوصف فقط؟ فإن كان الأمر كذلك، فاعلمك تصف جميع أجزاء اللغز بتفصيل دقيق، ولكنه لا يكون لديك دليل أو مفتاح لحل هذا اللغز أو فهم ما يعنيه.

يساعدنا التحليل على تركيب أجزاء صورة اللغز بشكل متناسب معاً. فالتحليل يتساءل: ما هي الأجزاء التي تتناسب معاً؟ وما هي الأجزاء التي لا تتناسب معاً؟ وعندما تتناسب أجزاء معينة من صورة اللغز معاً، نكون قد أمسكنا بفكرة محورية أو أساسية، وهو ما يزودنا بفكرة عن حقيقة هذا اللغز ويتيح لنا أن نمضي قدماً نحو هدفنا الخاص باستكمال الصورة. ولعلك تفكر في "كتابة التعليقات أو الحواشي الجانبية" التي تتناول الحال التي يسير بها تحليلك. وتُعد "التعليقات التحليلية" أفكاراً تدونها لتساعدك على التفكير الشامل في الطريقة التي تتبعها في إنجاز عملك، وما يعنيه هذا العمل. وكما هو الحال مع المذكرات الميدانية، توجد تشكيلة متنوعة من التعليقات التي ينبغي أن تكتبها لتساعدك في تحليلك، وسوف نقوم بتناول بعض هذه التقنيات في الفصل الخاص بالتحليل والتفسير (الفصل العاشر من هذا الكتاب).

ينبغي لك أن تستعمل تشكيلة متنوعة من طرق التحليل لتجميع أجزاء الصورة معاً. مثال ذلك أنك تستطيع أن تضع رمزاً أو إشارة شفرية لكل قطعة تبعاً لحجمها (فتخصص فئات الرموز الدالة على الحجم الكبير، والحجم المتوسط، والحجم الصغير لكل واحدة من هذه القطع) ثم تضع (أي تصنف) جميع هذه القطع في هذه الفئات الثلاث. فالرموز عبارة عن طرق تنظم بها بياناتك. ويمكن أن تكون الرموز نافعة كما يمكن أن تكون غير نافعة. ولتحقيق هذه المنفعة، فإنك تقوم في أغلب الأحيان بمقارنة هذه القطع ببعضها. وإن بإمكاننا أن ننظر إلى هذه التقنية بوصفها توظيفاً لطريقة التحليل الإثنوجرافية المسماة "طريقة المقارنة المستمرة"، التي تشكل جزءاً من النظرية الموثقة (انظر جلاسرو وشتراوس، ١٩٦٧). وسوف نتحدث عن هذه الطريقة بمزيد من التفصيل في الفصل العاشر من هذا الكتاب. والواقع أن هذه التقنية تتألف من النظر إلى مدى تماثل أو اختلاف القطع التي تتكون منها صورة اللغز. وتطرح هذه الطريقة أسئلة من النوع التالي:

- ما هذه القطعة؟
- ما الذي تعنيه؟
- هل توجد قطع أخرى تشبه هذه القطعة؟

• ما الذى يجعل القطعة "أ" مختلفة عن/ أو مشابهة للقطعة "ب"؟

يُقصَد من مقارنة التحليل بعملية تجميع أجزاء صورة اللغز معاً، التخلص من تلك اللغة الاصطلاحية الخاصة التى يستخدمها الباحثون عند شرح كيفية تحليل وتفسير البيانات، فإذا وافقت على هذه المماثلة (بين التحليل وتجميع أجزاء صورة اللغز معاً) وطبقته على مشروعك البحثي، فقد ينبغي عليك أن تبدأ بمجرد مراجعة سائر مذكراتك الميدانية وغيرها من الوثائق المكتوبة وسجلات المقابلات. وينبغي أن تحاول الوصول إلى مرحلة الرضا عن بياناتك أو الاطمئنان إليها، أى إلى تلك اللحظة التى عندها تشعر أنك على دراية تامة بالبيانات التى جمعتها من قبل. كما ينبغي عليك أن تبدأ بوضع علامات تميز بها سائر أجزاء النص أثناء استعراضك له، ولعلك قد تميل إلى كتابة المذكرات والتعليقات أو الحواشى الجانبية التى تتناول فيها ما يحدث وما تراه مهماً من النقاط التى تريد الرجوع إليها فيما بعد.

كما ينبغي عليك أن تفكر فى إدخال بياناتك فى أحد برمجيات الكمبيوتر، كبرنامج "هاير ريسيرش" Hyper Research أو برنامج "إثنوجراف" Ethnograph ليساعدك فى هذه المهمة (وسوف نستأنف دراسة القضايا المتصلة ببرمجيات الكمبيوتر وتحليل البيانات فى الفصل العاشر من هذا الكتاب).

وفى "الاستعراض الأول" للبيانات التى جمعتها قد تبدأ فى رؤية وتمييز بعض الفئات الكبرى أو الرئيسية التى قد تتطابق أحياناً مع الفئات التحليلية (والتي كثيراً ما تسمى أيضاً "الموضوعات الأساسية"). ولعلك تحتاج للنظر فى الأمور التى تتناسب مع بعضها والأمور التى يبدو أنها لا تتناسب مع بعضها أبداً (وهذا النظر هو المقارنة التحليلية). فكر فى هذه العملية واكتب عن مدى تشابه تلك الفئات التحليلية ومدى اختلافها وسبب ذلك. وبمجرد أن تقع يدك على ما تشعر أنه موضوع أساسى محتمل أو فئة محتملة، ابحث عن المصادر المستقلة الأخرى التى قد تعزز هذه الفكرة كالوثائق أو سجلات المقابلات، بالإضافة إلى ملاحظتك أنت. وتسمى هذه العملية استخدام أكثر من مصدر لتوثيق بياناتك. بل قد يصل بك الأمر إلى أن تجعل مبحثك

يطلعون على أفكارك فيقرعونها لترى ما إذا كانوا يستطيعون أن يعزروا آراءك أو وجهات نظرك أم لا. تأكد من أنك كتبت حواشى جانبية على موضوعاتك الأساسية المهمة. وإلى أى مدى يرتبط هذا الموضوع الأساسى بالموضوعات الأخرى التى سبق لك أن عزلتها كذلك جانباً؟ وسوف يساعدك قيامك بهذا العمل على رؤية الصلات القائمة بين فئات التصنيف المختلفة. وشيئاً فشيئاً سوف تتبلور ملامح قصتك (See Hammersley & Atkinson, 1995, p. 157).

التحليل العادى ومشكلات التفسير/ أو التأويل

بقيامك بتحليل ما، قد تجد نفسك وقد انصرف انتباهك إلى إستراتيجية معينة للتحليل. مثال ذلك أنك قد تركز فقط على تحصيل المزيد والمزيد من قطع صور الأغاز، إلا أنك لا تمضى وقتاً، أو لا تمضى وقتاً كافياً، تربط فيه هذه القطع معاً.

هنا قد تساعدك الحواشى الجانبية على أن تتوقف وتفكر فى الطريقة التى ينبغى أن تتبعها فى تصنيف هذه القطع وتحديد فئاتها كطريقة تتجه بها نحو رسم صورة لما يجرى فى موقع البحث تتسم بطابع عام وشامل. إنك سريع أكثر من اللازم فى تصنيف قطع الصورة التى لديك وفى الربط بينها، ونتيجة لذلك تكون الصورة التى تتحصل عليها مشوشة و/أو ناقصة.

هنا قد تحتاج للعودة إلى موقع البحث لتجمع مزيداً من البيانات التى تحتاجها تحديداً، أو قد تستعرض المذكرات الميدانية التى ربما تكون قد طرحتها جانباً. وقد تكون فئات التصنيف التى استخدمتها غير محددة تحديداً واضحاً. فراجع طريقتك فى ربط فئات تصنيفك أو موضوعاتك الأساسية من حيث اتساقها مع بعضها البعض. وغالباً ما تكون الحواشى المكتوبة عن هذه المشكلة المحيرة مفيدة فى حلها.

إنك قد تقفز للوصول إلى تفسير بارع لهذه الصورة (والذى يدل على معناها) دون أن تتبلور فى ذهنك فكرة عما إذا كانت صورة اللغز هذه

واضحة، أم غير واضحة، أو قد لا يكون عندك فكرة عما هي العناصر التى تتكون منها تلك الصورة.

إنك قد لا تقدم التحليل الكافى لدعم تفسيرك. فقد تكون فى حاجة للجوء إلى إثراء مادتك بالتماس مصادر أخرى للمعلومات، وكذلك عن طريق مشاركة تفسيرك هذا مع الأفراد الموجودين فى موقع البحث (المبحوثين). وقد تحتاج إلى جمع مزيد من البيانات لتدعيم نتائج بحثك.

كنصيحة أخيرة نقول: من المهم أيضاً أن نتذكر أن عملية التحليل والتفسير تتحرك جيئة وذهاباً. وقد تتناسب قطع صورة اللغز مع بعضها أو لا تتناسب؛ بل لعلها - فى الواقع - تنتمى إلى لغز آخر. فإذا تحيرت فتذكر أن ما يوجهك - فى أكثر الأحيان - فى تركيبك لصورة اللغز هو تلك المجموعة من أسئلة البحث الاستطلاعية أو الإرشادية التى بدأت بها فى أول الأمر. ومع ذلك، فربما تجيب هذه القطع فى الواقع على سؤال آخر. وقد يتعين عليك أن تراجع الموضوعات التى طرحت عنها أسئلة فعلاً، ولكنك لم تتوصل إلى الإحاطة بها.

قضية عرض النتائج: فن الحكى

من المهم تذكر قضية عرض النتائج، انطلاقاً من تحديد المنظور الذى سوف تحكى منه هذه الحكاية؟ يصور لنا جون فان مائن John Van Maanen الإحساس القديم لعلم الإثنوجرافيا فى موقفه من المبحوثين، والذى ينجم عنه غالباً وجهة النظر القائلة بأنه ينبغى على المرء دائماً أن "يدع الإثنوجرافى يتحدث عن البيانات بطريقته الخاصة" مع الحد الأدنى من التعرض للتفسيرات الصادرة من المبحوثين. ويلاحظ على ذلك ما يلى:

مضى زمن - قد يقول البعض عنه أنه زمن الأحلام - عندما كان البحث الإثنوجرافى يقرأ باعتباره وصفاً ثقافياً مباشراً قائماً على الخبرة المباشرة التى عايشها مؤلف ما مع مجموعة من الناس غريبة (عن المؤلف وعن القارئ كليهما). وقد يكون هؤلاء الكتاب الذين قدموا بحوثاً إثنوجرافية قد ساورهم شك فيما علمته إياهم المغامرة بالنزول إلى الميدان، وفى الطريقة

التي يؤدي بها مجرد "التواجد في المكان" إلى إنتاج بحث إثنوجرافي، إلا أن عدداً قليلاً فقط من الشكوك قد طفا على السطح فيما قدموه من كتابات. ويبدو الأمر كما لو أن البحث الإثنوجرافي ينبثق تلقائياً، بدرجة أو بأخرى، من مجرد الإقامة في الميدان. فما على الباحث إلا أن يحدد نطاق ساعة ما من الناس، وأن يعيش معهم فترة من الوقت، وأن يدون مذكرات عما يقولون وعما يفعلون، ثم يعود لبيته ليكتب كل ذلك في صورته النهائية. وعلى أي حال، فقد كان البحث الإثنوجرافي يبدو شبيهاً بشكل من أشكال كتابات الرحالة يتسم بأنه شكل بهيج، ومسال، وحافل بالمعلومات (Van Maanen, 1995, p. 1).

ويعلق فان مانن (١٩٩٥) بأنه رغم ما ذكره عن البحث الإثنوجرافي. فقد تعرضت تلك المقدمة الأساسية المهمة عن البحث الإثنوجرافي - والتي تتحدث عن حق الباحث في عرض نتائج موضوع البحث - تعرضت هي نفسها للمراجعة والفحص الدقيق. ويقول في تعليقه: "لقد ظهر نوع من الدرس الإثنوجرافي للإثنوجرافيا" كثمرة للدراسات التي تناولت بعض نصوص التقارير البحثية الإثنوجرافية، وانبثق فهم جديد للميدان عمل - تدريجياً - على تغيير الطريقة التي نفكر بها في عرض نتائج الدراسات الثقافية عن مجتمعات ماضية أو معاصرة (Van Maanen, 1995, p. 17). ويلاحظ فان مانن أننا بصدد طائفة من الأسئلة الجديدة التي صارت تُطرح حالياً، مثل:

- ما هو الدور الذي يقوم به الباحث في عملية تفسير البيانات التي جمعها؟
- هل يجوز للباحث الكيفي أن يسمح لمشاعره أن تتدخل في عملية التفسير؟
- أي وجهة نظر هي التي يعبر عنها الإثنوجرافي فعلاً مستعيناً بما لديه من بيانات؟ (Van Maanen, 1995, pp. 16-17)

تتطلب أغلب البحوث الكيفية القيام بالملاحظة، كما تستلزم وجود قدر من المشاركة بين الباحث والمبحوثين. وتظل قوة الباحث ماثلة على امتداد مراحل عملية البحث - ابتداء من تحديد سؤال البحث/ أو أسئلة البحث ونوع طريقة البحث المستخدمة في تحليل البيانات وفي تفسير نتائج البحث. ويهتم

بعض نُقاد التحليل التقليدي للبحوث الكيفية بأسلوب عرض قصص حياة الأفراد المبحوثين، ويهتمون بصفة خاصة بالخبرات التي يعايشها المقهورون بسبب عرقهم، ونوعهم الاجتماعي، وعمرهم، وما إلى ذلك (انظر ولف Wolf، ١٩٩٦). وتتبع إيمرسون تاريخ انهيار النموذج الكولونيالي (الاستعماري) للإثنوجرافيا - والقائم على الانفصال التام بين الباحث والمبحوثين - وتحوله إلى موقف نقدي (انعكاسي) كان من ثمرته تحطيم ذلك الفصل بين الباحث والمبحوثين. وفي ذلك تقول:

مع أقول النزعة الكولونيالية، أصبحت الأوضاع التي كانت تؤخذ مأخذ التسليم موضعاً للشك وفقدت ما كانت تتمتع به من يقين. إذ صار متعيناً على الباحثين أن يتحصلوا على موافقة صريحة ومباشرة من الأفراد المقرر دراستهم، وبدون اعتماد ضمنى أو صريح على القوة (السياسية) الكولونيالية... ونظراً لأن القدرة على إجراء العمل الميداني والممارسة اليومية لهذا العمل أصبحت أكثر إشكالية مما كانا عليه، وأكثر اعتماداً على إقامة علاقات عمل فعالة مع عدد معين من الأفراد؛ نظراً لذلك كان من المحتم أن يتنامى الوعي الشخصي بالنفس والوعي الشخصي بأهمية العلاقات مع الآخرين (Emerson, 2001, p. 23).

اتخذت الكتابات الإثنوجرافية موقفاً أكثر نقدياً لمظاهر الاختلال في علاقات القوة وأكثر تصوراً لقضايا السلطة وعرض المادة المتضمنة في تحليل وتفسير نتائج البحث. (See also Hesse – Biber & Leavy, 2004, pp. 409-425). وتميل الإثنوجرافيا المعاصرة نحو المزيد من "الإثنوجرافيا التأويلية"، وهي إثنوجرافيا تعترف بتعدد الوقائع وتنوع أبعادها. كما تؤمن أنه لا يوجد توافق تام بين فهم الباحث وخبرات "الآخر" (المبحوث). ويعلق دنزن Denzin على ذلك بالقول: "لا يمكن أبداً أن يوجد عرض دقيق نهائي لما يعنيه المبحوث ولما يقوله، فلا يوجد سوى نصوص (بحثية) مختلفة تتناول بالعرض خبرات مختلفة" (دنزن، ١٩٩٧، ونقلًا عن إيمرسون، ٢٠٠١، ص ٥٠). وترفض المذاهب الفكرية المابعد الحداثيّة و المابعد البنيويّة في الإثنوجرافيا - بشكل خاص - صحة تلك النظرة الإثنوجرافية التقليدية. إذ تؤكد هذه المذاهب الفكرية على أن الروايات التي تحويها الكتابات

الإثنوجرافية لا تعدو أن تكون حكايات رويت من خلال مجموعة معينة من الصفات المميزة للباحث في مجال العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي وما إلى ذلك. ويعلق دنزن ولنكولن Lincoln قائلين:

أسهم مفكرو ما بعد النبوية ومفكرو ما بعد الحداثة في تطوير التصور القائل بأنه لا توجد نافذة شفافة لرؤية الحياة الداخلية أو الخفية لفرد ما. ذلك أن أى نظرة مدققة يتم ترشيحها (أى تصفيتها وفلترتها) من خلال عدسات اللغة، والنوع الاجتماعى، والطبقة الاجتماعية، والعرق، والانتماء الإثنى. فلا وجود للملاحظات الموضوعية، إذ لا يوجد إلا الملاحظات الخاضعة للاعتبارات الاجتماعية الموجودة فى عالم كل من الملاحظ والمُلاحظ وفيما بين هذين العالمين. (ص ١٩)

يرى بعض مفكرى ما بعد الحداثة أن الواقع نفسه يتحول إلى ما نراه فى العرض فقط. ويعلق جبريوم Gubrium و هولشتين (١٩٩٧) بالكلمات التالية على ما يعرف بانقلاب ما بعد الحداثة وما ترتب عليه من "مأزق عملية عرض النتائج":

الواقع أن هذا التحدى يصل إلى مستوى الأزمة، أخذاً معه البحث الكيفى بعيداً، متجاوزاً نطاق الأسئلة ذات الأساس الإمبريقي التى تبحث عن "ماذا" و"كيف". فهذه الأزمة تتصل بالعرض نفسه، وذلك حال كون النزعة المتطرفة لما بعد الحداثة تقوم بإزاحة الواقع وإحلال العرض الذى يقدمه الباحث محله. ففي هذا السياق، يقوم السؤال الذى يبحث عن "كيف" بتغيير اتجاهه من التركيز على مادة الحياة الاجتماعية، وعملياتها، وتركيبها الداخلى، إلى بحث أساليب العرض التى يستعملها كل من المجتمع وعالم الاجتماع لنقل صورة الواقع الموضوعى (أو الذاتى). فالبحث لما بعد الحداثى يميل إلى تغيير اتجاهه بعيداً عن دراسة كيف يتفاعل أعضاء المجتمع لينتجوا حيواتهم وخبراتهم، وذلك حال كونه ملتفتاً بصورة أكبر تجاه ممارسات العرض والتصوير التى يستخدمها أولئك الباحثون الذين يزعمون أن لهم الحق فى تقديم ما هو "حقيقى". (ص ٧٦)

ويرى بعض مفكرى ما بعد الحداثة - كجان بودريار (١٩٨١)،
(١٩٨٨) - أن الحقيقة، فى الواقع، تتخذ صفة "ما فوق الواقع". إذ تصبح
الحقيقة مجموعة من الصور الذهنية، والتي لا تختلف عن تلك الصور التى
تنهال علينا بها وسائل الاتصال الإلكترونية، كالتلفزيون مثلاً، أو الألعاب
الإلكترونية القائمة على محاكاة الواقع. ففيها أصبح الزمان والمكان مختلطين
بلا نظام، وكذلك اختلقت أفكارنا المتعلقة بما يؤلف نظاماً مرتباً ترتيباً زمنياً
معيناً. ويعلق جبريوم وهولشتين على ذلك قائلين:

إن الحقيقة، أو قل إن الزمان والمكان الحداثيين "يتم تصعيدهما" إلى
الدرجة التى لا تتطابق فيها الأشياء مع النظام المرتبط عادة بما هو واقعى
فعلاً. وحيث إن الزائف الذى يحاكي الواقع يحل محل الفعل، تصبح العيانبة
مجرد مسألة صور ذهنية. ويُطاح بالوجود تنزوه الرياح فى مشروعات عديمة
العقل فعلاً. وتختفى الموضوعات التى لها أساس فى هذه الحياة، وتبلغ
الدلالات من التسطح درجة يفقد معها العرض أى صلة محددة بالأشياء.
ويُصبح الواقع ساحة هزلية من العلامات، وعلامات العلامات الأخرى،
والعلامات الأخرى الدالة على غيرها من العلامات. (ص ٧٨)

قد لا يتفق كل الإثنوجرافيين مع وجهة النظر هذه، كما يوجد منهم،
من أمثال جبريوم وهولشتين (١٩٩٧)، من يمثلون الإثنوجرافيين الذين يدعون
إلى اتخاذ موقف وسط عن طريق الاحتفاظ بصورة ما للواقع مع تطوير
الاستراتيجيات اللازمة لإدخال الرؤى الأخرى للعالم الاجتماعى فى الحسبان
(انظر، على سبيل المثال، جبريوم وهولشتين، ١٩٩٧) وهما يُعلقان قائلين:

لا يقتصر الأمر على أننا معارضون للتسليم التام بالنسبية المنفلتة أو
الجامحة وللتوجه الأنانى للفلسفة الشكية لما بعد الحداثة، وإنما نحن لا نريد فى
الوقت نفسه أن نتخلى عن الواقع، إذا جاز هذا التعبير. ففى نفس الوقت الذى
لا ننهب فيه ما بعد الحداثة نبذاً تاماً، فإننا نشارك فعلاً فى ... الالتزام بتوثيق
الحياة الاجتماعية، كما نؤمن بإمكانية الوصف ذى الأساس الإمبريقي لحياتنا
اليومية، فهذا هو الواجب الذى يستلزم طول الصبر والذى يتوجب على البحث
الكيفي أن يقوم به. وفى أعقاب ما بعد الحداثة، صار التحدى يكمن فى العناية

بهذه الأهداف فى ضوء المسائل الإستمولوجية الجديدة والاعتبارات التحليلية الدقيقة. (Gubrium & Holstein, 1997, p. 99)

وتضم هذه الاستراتيجيات: التأمل النقدى الذاتى الذى يقوم به الباحث، بمعنى: إلى أى مدى تتدخل تحيزاتنا الشخصية فى عملية البحث بما يؤدى إلى بداية "إلغاء مركزية" الإثنوجرافى الكامنة فى ثانياً عملية عرض المادة الإثنوجرافية. والواقع أن بعض الباحثين قد قدموا عروضاً للمادة الميدانية وفقاً لمرجعية ما بعد الحداثة سميت "النصوص المضطربة" messy texts (ماركوس Marcus، ١٩٩٤). فهذه هى الطرق البارة للوصول إلى أصوات المبحوثين من خلال التأمل النقدى فى طبيعة القوة داخل عملية البحث. ويقدم الكتاب الذى كتبه باتى لانر وكريس سميثز، وعنوانه "إزعاج الملائكة: نساء يعشن بمرض الإيدز" (*) (١٩٩٧)؛ يقدم لنا شاهداً جيداً لهذا النوع من أسلوب الكتابة النقدى. فقد أجرت لانر و سميثز مقابلات مع ٢٥ امرأة يعشن وهن مصابات بمرض الإيدز من سنة ١٩٩٢ حتى سنة ١٩٩٧. وقد قدمتاً نصاً يدمج أصوات هؤلاء النساء فى نسيج متشابك فى نفس الوقت الذى يعزل فيه سلطة الباحث تماماً من خلال تقسيمه للنص إلى طبقتين أو راقين. فالطبقة العليا هى أصوات المستجيبات، والطبقة الأدنى تتكون من الحكايات الشخصية للباحثين عن قيامهما ببحثهما، بجانب تأملاتهما فى مدى فهمهما للخبرات المعاشة لهؤلاء النساء، وهو الفهم الذى تم كذلك من خلال وضع حكاياتهن داخل سياق ثقافى أوسع نطاقاً. وتعلق لانر (٢٠٠٠) على ذلك قائلة:

أردنا أن نبتكر "نصاً مضطرباً" (أى لا نظام فيه)... وذلك فى نفس الوقت الذى حرصنا فيه على أن ننجز مهمتنا بتقديم كتاب يؤدى المهمة التى أرايتها هؤلاء النساء... يبدأ الكتاب بمقدمتين: تقوم المقدمة الأولى بالتعريف بالكتاب وتقوم الثانية بالتعريف بهؤلاء النساء، والتى قام كثير منهن بكتابة مقدماتهن الشخصية التى يعرفن فيها بأنفسهن. ويتألف صلب الكتاب من مجموعة من الفصول القصيرة التى تحكى عن بيانات المقابلة التى تدور حول

(*) Patti Lather and Chris Smithies, Troubling the Angels: Women Living with HIV/AIDS (1997).

الموضوعات المتعلقة بالوقائع اليومية لمعايشة هذا المرض، وبالعلاقات والجهود المبذولة لفهم هذا المرض في حيواتهن، وفهم قضايا الموت والاحتضار، وفهم دور جماعات الدعم... وتتناثر داخل هذه الفصول القصيرة الخاصة ببيانات المقابلة كتابات متداخلة وتعليقات كتبها القائمون برعاية هؤلاء النساء... ويظهر في الطبقة الأدنى من الكتاب نوع من التعليق على النصوص قمت فيه أنا وكريس - بوصفنا الباحثتين - بنسج حكاياتنا المتعلقة بإجرائنا لهذا البحث... وتتناثر في جميع أجزاء الكتاب بعض الكتابات الشخصية لهؤلاء النساء... وأخيراً، ينتهي الكتاب بخاتمة يقف منها القارئ على أحدث المعلومات عن كل واحدة من هؤلاء النساء. (ص ٢٨٦).

يدعو "دنزن" إلى ما يسميه "المرحلة السابعة" seventh moment في بناء المعرفة، التي تستعمل طرق "إثنوجرافيا الأداء" performance ethnography. و إثنوجرافيا الأداء تستخدم تشكيلة متنوعة من أساليب جمع البيانات للوصول إلى العدد الكبير من المعاني الموجودة داخل موقع البحث. وهو يؤكد على استعمالنا لجميع حواسنا: البصر، والسمع، والشم، واللمس من أجل الوصول - بالذات - إلى المعرفة الخاضعة (التي تم قمعها) لدى هؤلاء المقهورين (وهو ما يطلق عليه "الوصول إلى الإبستمولوجيات المحلية أو الأصلية". وفي الغالب الأعم سوف ننتبين أن مثل هذا الاتجاه يعبر حدود التخصصات العلمية، جالباً معه تقنيات جمع البيانات المستمدة من الفنون (كالرقص، والموسيقى) والإنسانيات (كالشعر، والكتابة الإبداعية) (See Denzin, 1997; McCall, 2000).

* * *

خاتمة

تزود الطريقة الإثنوجرافية الباحث بنافذة ينظر منها ليصل إلى فهم العالم الاجتماعي انطلاقاً من الموقع الممتاز لأولئك الذين يعيشون معنا في هذا العالم. وتقوم الكتابات الإثنوجرافية بتزويد القارئ بفهم متعمق لأحوال أولئك الأفراد الذين يقيمون في مكان ما من أحد المواقع الطبيعية. وتعد الملاحظة

بالمشاركة هي الوسيلة الأساسية لجمع البيانات، وذلك رغم وجود أشكال أخرى من البيانات التي يتم جمعها أيضاً من موقع البحث، كالوثائق مثلاً. وتعد كتابة المذكرات الميدانية وتحليلها من الملامح المهمة لتلك الطريقة. ويتطلب تحليل البيانات من الباحث أن يكون متفتحاً على الاكتشاف ومهيئاً له، وذلك لأن تحليل البيانات وجمعها يسيران متواكبين في الغالب الأعم. ويتطلب تفسير البيانات من الباحث حساسية فائقة لتشكيلة المعاني المتعددة في موقع البحث، وتتبعها للوقوف على وجهات النظر التي ينطلق منها كل معنى (فيما يتصل بالطبقة، والعرق، والنوع الاجتماعي، وما إلى ذلك). ومع أن طرق البحث الإثنوجرافية لا تصلح وحدها لصياغة أحكام عامة شاملة عن ظاهرة اجتماعية معينة، إلا أنها تزودنا بسياق مهم يساعدنا على فهم النتائج المستفادة من البحوث التي تجرى على نطاق واسع، كالمسوح الاجتماعية مثلاً. ويتبنى الإثنوجرافيون توجهات فكرية متعددة فيما يتعلق بفهم الواقع الاجتماعي، وذلك وفقاً لتخصص كل منهم ولتحيزاته وميوله النظرية. فنجد بعض الإثنوجرافيين أشد اهتماماً بالتغير الاجتماعي من البعض الآخر (أولئك هم المشتغلون بالإثنوجرافيا النقدية). بينما نلاحظ لدى طائفة أخرى منهم تركيزاً على دراسة الجماعات السكانية التي أغفلتها الإثنوجرافيا التقليدية، كالنساء مثلاً (وهؤلاء هم المشتغلون بالإثنوجرافيا النسوية). ومع ذلك، فإن ما يميز ويبرز سائر هذه الاتجاهات هو تأكيدها على أهمية التفسير - أي الوصول إلى المعنى المستمد من وجهة نظر أولئك الذين ندرسهم.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **ملاحظات للتحليل** • **Analysis Memos**
هي الأفكار التي تدونها لتساعدك في التفكير في كيفية مباشرتك لعملك، وفي المعاني التي تعنيها الأشياء.
- **مذكرات للتحليل** • **Analysis "Notes"**
تقوم هذه المذكرات بربط المذكرات الفورية بالوصف المكثف.

• الأنثروبولوجيا • Anthropology

فى هذا العلم ىجرى البحث فى ثقافات أجنبية للتوصل إلى فهم السكان المحليين، أى فهم العادات الاجتماعية، والقيم، والمصنوعات الفنية الخاصة بجماعة معينة وثقافتها كلها.

• فئات التصنيف • Codes

هى وسائل لتنظيم بياناتك عن طريق تصنيفها إلى فئات أو تمييزها بعلامات أو لافتات.

• الملاحظ الخالص • Complete Observer (الملاحظ فقط دون مشاركة)

تظل هوية الباحث مخفاة؛ ولا يتفاعل الباحث مع الأفراد الموجودين فى الموقع، ولكنه بدلاً من ذلك يقوم بملاحظة موقع البحث باستعمال معدات أو حيل معينة، مثل: كاميرا الفيديو المخفاة، أو ببقائه بعيداً عن الأنظار جالساً خلف مرآة ذات اتجاه واحد أو وراء ستارة حتى لا يكشف وجوده أحد.

• المشارك كلية • Complete Participant

يتفاعل الباحث - بصورة فعالة - مع أعضاء موقع البحث، ومع ذلك، فإن هوية الباحث تكون مجهولة لشركاء البحث الموجودين فى الموقع.

• البحث المستتر • Covert Research

وفيه لا يعلن الباحث عن هويته، وذلك من أجل أن "يمر" كما لو كان عضواً حقيقياً من أعضاء ذلك الموقع.

• الإثنوجرافيا النقدية • Critical Ethnography

يسعى البحث الذى ىجرى انطلاقاً من هذا المنظور الفكرى إلى فهم الحياة الاجتماعية من أجل تغيير الطريقة التى بها يقوم حائزو القوة بتهميش من هم أقل قوة.

• المنظور المسرحى • Dramaturgical Perspective

قام بتطوير هذا المنظور الفكرى إرفنج جوفمان (١٩٦٧)، أحد رواد التفاعلية الرمزية. ويهتم هذا المنظور بالأدوار التى يؤديها الأفراد للحفاظ على

التفاعلات الصغرى فى حياتهم اليومية. وخلاصة الأمر أنه - يجرى "تأدية" عرض (مسرحى) معين من أجل الاحتفاظ بهذه الأنماط من التفاعلات.

• Ethnographic Research البحث الإثنوجرافى

يسعى هذا البحث للوصول إلى فهم متعمق للطريقة التى بها يفهم الأفراد المنتمون لثقافات وثقافات فرعية مختلفة واقع حياتهم التى يعيشونها. "ويتوغل" الإثنوجرافيون فى صميم العالم الاجتماعى لسكان موقع بحثهم، حيث "يتواجدون فى هذا المكان" ويلاحظون ويسجلون الحياة الاجتماعية الجارية لأعضائه عن طريق تقدير "وصف مكثف" (جيرتز Geertz، ١٩٧٣) لهذا السياق الاجتماعى ولأحوال الحياة اليومية للناس الذين يعيشون فى هذه العوالم، منفقين قدراً كبيراً من الوقت فى متابعة التفاصيل الدقيقة للأحداث، وللناس، وللأنشطة الموجودة داخل موقع البحث.

• Exiting Strategies استراتيجيات الخروج (المغادرة)

وهى الخطط التى تتيح للباحث أن يترك الموقع بسهولة وبدون التسبب فى إيذاء الناس الموجودين فى موقع البحث.

• Field الميدان

يختلف هذا المفهوم فى الإثنوجرافيا تبعاً لنوع المشروع البحثى الذى يتم تنفيذه. فبالنسبة لعالم أنثروبولوجى يدرس ثقافة أجنبية كمالينوفسكى Malinowski، يكون هذا الميدان موقعاً ثقافياً. وبالنسبة لأندرسون Anderson، وهو يدرس حانة محلية أو "حياً سكنياً صغيراً"، تصبح هذه "الحانة" أو هذا "الحى السكنى" هو الميدان. فالميدان، باختصار، هو الموقع الذى يدرسه باحث ما.

• Field Notes المذكرات الميدانية

هى مادة مكتوبة تحكى عن الخبرات اليومية للباحث فى الميدان، يكتبها وهو لا يزال فى الميدان، سواء كتبها بصورة فورية وموجزة أم بعد فترة قصيرة من مغادرته الميدان.

• Gatekeepers حراس البوابة

حراس البوابة الرسميون هم الذين يمنحونك الإذن بدخول موقع البحث إذا كان لابد من الحصول على إذن رسمي (انظر كذلك حراس البوابة غير الرسميين).

• Inductive Process العملية الاستقرائية

هى عملية اكتشاف ما الذى تعنيه البيانات التى تجمعها.

• Informal Gatekeepers حراس البوابة غير الرسميين

هم أفراد يشغلون مواقع حاکمة فى مجتمع البحث، كما أن تأثيرهم على الآخرين فى ذلك المجتمع هو الذى يحدد مستوى دخولك. ولدى حراس البوابة غير الرسميين القدرة على إعطاء وجودك فى مجتمع البحث "دفعة إلى الأمام" أو إحباطه وتعويقه.

• Informants الإخباريون

هؤلاء الإخباريون أفراد فى مجتمع الدراسة يزودون الباحث بالمعلومات المهمة والنصائح الغالية.

• Interpretive Perspective المنظور التأويلي

كثيراً ما يعمل الإثنوجرافيون انطلاقاً من التراث الفكرى للتأويل. وقد تطور هذا المنظور كاعتراض مباشر على الإبستمولوجيا الوضعية وعلى تفسير تلك الإبستمولوجيا وتطبيقها للموضوعية. وتقوم نظرية المعرفة التأويلية على تفسير التفاعلات والمعنى الاجتماعى الذى يعزوه الناس لتفاعلاتهم (نيلسن Nielsen، ١٩٩٠، ص ٧). ومن الناحية الإبستمولوجية يؤمن هذا المنظور بأن المعنى الاجتماعى يتخلق أثناء التفاعل وعن طريق ما يقدمه الأفراد من تفسيرات لهذه التفاعلات. ومعنى ذلك أن الفاعلين الاجتماعيين المختلفين قد يفهمون الحقيقة الاجتماعية بصور مختلفة فعلاً، منتجين بذلك معان مختلفة وتحليلات مختلفة. ويقتضى هذا النوع من البحث بناء العلاقات بين الباحث وشركاء البحث (المبحوثين) الذين يعتبرون أعواناً له فى عملية البحث.

• الملاحظ كمشارك • Observer-as-Participant

يُطلب من الباحث هنا أن يكشف عن هويته في موقع البحث، إلا أن المدى الذي يبلغه الباحث في الاشتراك الفعال مع أعضاء الموقع يكون محدوداً.

• المذكرات الفورية • On-the-Fly (Notes)

هي المذكرات التي يمكن أن تتألف من بعض الكلمات أو العبارات الأساسية (المفتاحية) لمساعدتك على تذكر الأحداث أو الأفكار المهمة أثناء قيامك بإجراء الملاحظات. ويمكن النظر إلى هذه المذكرات باعتبارها نوعاً من التدوين السريع الذي تقوم بتفصيله وتفتيحه بعد أن تغادر الميدان.

• المواقع الطبيعية • Natural Settings

هي الأماكن التي يباشر فيها الأفراد حياتهم اليومية، وليست المعدة سلفاً التي "يتم تجهيزها" بمعرفة الباحث في بقعة محددة.

• المشارك كملاحظ • Participant-as-Observor

هنا يشارك الباحث مشاركة تامة في الأنشطة الجارية في موقع البحث وتكون هوية الباحث معروفة لأعضاء هذه الجماعة.

• المنظور الوضعي • Positivist Perspective

يسعى الباحث للوصول إلى "الحقيقة" التي تنتظر من يضع يده عليها بشرط واحد هو أن يظل الباحث موضوعياً، وذلك بالآ يسمح لاتجاهاته وقيمه الشخصية أن تتدخل في موقع البحث. ويعتبر جمع البيانات هنا، وبصفة أساسية، طريقاً ذا اتجاه واحد، حيث يطرح الباحث الأسئلة ويقوم المبحوثون بالإجابة على الأسئلة التي يطرحها الباحث.

• أنثروبولوجيا الفراغ • Proxemics

دراسة الطريقة التي يستخدم بها الأفراد الفراغ أو المكان.

• الملاحظة المشاركة • Participant Observation

هى أداة بحث أساسية للإثنوجرافيا ولتطبيقاتها، إذ يعيش الباحث فى الموقع الذى يدرسه أو يزوره زيارات مكثفة، فيقوم بملاحظة الأنشطة التى يزاولها أولئك الأفراد الذين يدرسه، كما يشاركهم ممارسة هذه الأنشطة.

• نقطة التشبع • Saturation Point

هى تلك اللحظة من البحث التى عندها لا يوجد فى الموقع شيء جديد، والتى قد يصل الأمر بالباحث فيها إلى فقدانه لمنظوره أو توجهه البحثى لو أنه بقى فى موقع البحث أى مدة أخرى.

• Theme • الموضوع الأساسى

نصل إلى الموضوع الأساسى عندما تبدأ فئات التصنيف فى التلاقى والاجتماع معاً وفى إظهار نمط أكبر وأشمل من البيانات. وبعبارة أخرى يتبلور الموضوع الأساسى عندما تتناسب قطع معينة من صورة اللغز مع بعضها البعض، وهو أمر يزودنا بفكرة عن حقيقة هذا اللغز ويتيح لنا أن نمضى قدماً نحو تحقيق هدفنا باستكمال هذه الصورة.

• "Thick Description" • "الوصف المكثف"

صك هذا المصطلح جليفورد جيرتز (Glifford Geertz) (١٩٧٣) ويشير إلى كل ما تستطيع أن تتذكره من الأمور المتعلقة بما حدث فعلاً فى الموقع. وتكون هذه التوصيفات عبارة عن صور حية شديدة التفصيل، يعتمد الباحث فى جمعها على استخدامه لحواسه.

• Triangulating Data • البيانات المتحصلة بعدة طرق

البحث عن مصادر للبيانات متعددة ومستقلة عن بعضها من شأنها أن تدعم فكرة تجول بذهنك. ومن هذه المصادر مثلاً: استعمالك للوثائق/ أو المقابلات بجانب استفادتك من ملاحظاتك.

• Urban Ethnography • الإثنوجرافيا الحضرية

هى دراسة حى سكنى فى مدينة ما أو دراسة مدينة معينة بأكملها.

* * *

أسئلة للمناقشة

- ١- ناقش معنى مصطلح "الإثنوجرافيا"، ومتى يكون من الملائم استعمالها كطريقة في البحث الاجتماعي.
- ٢- ما هي أهمية الأخذ بنموذج تأويلي (في مقابل النموذج الوضعي) عند القيام بالعمل الميداني الإثنوجرافي؟
- ٣- في البحث الميداني الإثنوجرافي، يتولد فهم الباحث من أعضاء الموقع الاجتماعي الجاري بحثهم. فإلى أي مدى يمكن لهذه الحقيقة - وبناءً على ذلك - أن تقوم بدور عملي في تمكين المبحوثين (كأن تقدم عوناً للجهود الاجتماعية للناشطين)؟
- ٤- ما هي أهمية المذكرات الميدانية في العمل الميداني الإثنوجرافي؟
- ٥- إلى أي مدى يمكن أن تؤثر ظروف الدخول إلى موقع اجتماعي معين على جمع البيانات؟
- ٦- كيف يقوم دورك في الموقع الاجتماعي بتحديد أنواع البيانات التي ستكون - أو التي لن تكون - قادراً على جمعها؟
- ٧- بافتراض أنك مهتم بدراسة إحدى الفرق الدينية، ناقش العوامل التي من شأنها أن تؤثر على طريقتك في تنفيذ مشروعك البحثي (ناقش مثلاً الاعتبارات الواردة في هذا الفصل، وكذلك الاعتبارات الأخرى التي لم يتعرض لها هذا الفصل). والأمر الأهم، أن تناقش العوامل التي سوف تؤثر على سبب قيامك بمشروعك البحثي وعلى مكان إجرائه وعلى طريقة تنفيذه.
- ٨- عند قيام الباحث بدراسة أعضاء موقع اجتماعي معين، قد يتم دعوته للاشتراك في طقوس أو عادات اجتماعية غير مألوفة له (وربما كان لا يوافق عليها). ناقش كيف تؤثر هذه العوامل على مشروعك البحثي.
- ٩- رغم أنه من الأهمية للباحث أن يظفر بالدخول في موقع اجتماعي ما من خلال أحد حراس البوابة (من أي نوع)، فإن المؤلفين ينبهون إلى أن من الأهمية ألا يعتمد الباحث اعتماداً مفرطاً على عضو واحد في موقع البحث. فلماذا هذا؟

١٠- كيف تؤدي القيود المفروضة على نجاحك في الدخول في المواقع الخاصة بفئة معينة؛ كيف تؤدي إلى التأثير على مدى قدرتك - كباحث - على فهم أعضاء تلك الجماعة الذين ترغب في دراستهم؟

١١- ناقش هذا الفصل الدور الذي ينبغي أن تقوم به - كباحث - أثناء تنفيذك عملية بحثك. فناقش العوامل التي تؤثر على الدور/ أو الهوية التي ينبغي أن تتخذها عند قيامك ببحثك. ما هو الدور الذي ستقوم به في الموقع؟ كثيراً ما يوجد نوع من التوتر بين رغبتك في الاقتراب من الأفراد الموجودين في موقع البحث مع الحفاظ في نفس الوقت على دورك كباحث، وهو الدور الذي يستلزم درجة ما من الانفصال. الأمر المهم هو أن تتوصل إلى تحقيق نوع من التوازن بين هذين الأمرين، وأن تدع الظروف المحيطة بمشروعك البحثي تحدد الدور/ أو الأدوار التي ستقوم بأدائها.

١٢- في هذا الفصل، يعلق إيمرسون (٢٠٠١) قائلاً: "لا يستطيع الباحثون الميدانيون - بالضرورة - أن يتجسروا جانباً ثم يقوموا بمراقبة التفاعل الاجتماعي بدون أي مشاركة مطلقاً لأطراف هذا التفاعل. كما أنه ليس بوسع الباحث الميداني أن يكتفي بإعلان موقف منعزل أو متباعد بمجرد إصداره أمراً بذلك" (ص ١٧). وعليه يتعين على الباحثين ألا يعزلوا أنفسهم تماماً عن الموقع الاجتماعي (كما لا يدمجوا أنفسهم تماماً فيه). هل توافق على هذا الحكم؟ ولماذا توافق؟ أو لماذا لا توافق؟ (فهل تتصور مثلاً أنه توجد حالة يكون من المفيد للباحث أن يندمج تماماً، أم يعزل نفسه عن الموقع الاجتماعي الذي يقوم بإجراء دراسته فيه؟

١٣- ناقش بعض الخيارات المتاحة للباحثين عندما يحاولون النجاح في الدخول في المواقع "الأكثر خصوصية".

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

• الملاحظة المشاركة • Participant Observation

<http://www2.chass.ncsu.edu/garson/pa765/particip.htm>

أولاً: يقدم هذا الموقع عرضاً لمقرر دراسي تقدمه جامعة نورث كارولينا لطلابها. ويحتوي على قائمة ببليوجرافية شاملة، و به وصلة مع مجلة تقدم معلومات عن الملاحظة المشاركة فضلاً عن عدد من الدراسات الميدانية.

http://wk.geocities.com/balibar_sanghera/qramparticipantobservation.htm/

ثانياً: يقدم هذا الموقع نظرة متعمقة إلى الملاحظة المشاركة من خلال استعراضه معلومات عن تاريخ ممارسة الملاحظة المشاركة، ودور الباحث، وكيفية تدوين المذكرات الميدانية بشكل صحيح، وتحليل المذكرات الميدانية.



المراجع References

- Addams, J. (1910). *Twenty years at Hull-House*. New York: Macmillan.
- Anderson, E. (1996). Jelly's place. In C.D. Smith & W. Kornblum (Eds.), *The field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 12-20). Westport, CT: Praeger.
- Anderson, E. (1976). *A place on the corner*. Chicago: University of Chicago Press.
- Anderson, N. (1923). *The hobo*. Chicago: University of Chicago Press.
- Baca Zinn, M. (2001). Insider field research in minority communities. In R. M. Emerson (Ed.), *Contemporary field research: Perspectives and formulations* (2nd ed., pp. 159-166). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Bailey, (2. A. (1996). *A guide to field research*. Thousand Oaks, CA.: Pine Forge Press.
- Baudrillard, J. (1988). *Cool memories*. New York: Verso.
- Baudrillard, J. (1981). *For a critique of the political economy of the sign*. St. Louis, MO: Telos.
- Booth, C. (1902). *Life and labour of the people of London*. London: Macmillan.
- Cressey, P. G. (1932). *The taxi-dance hall*. Chicago: University of Chicago Press.
- Daniels, A.K. (1967). The low-caste stranger in social research. In G. Sjoberg (Ed.), *Ethics, politics and social research* (pp. 267-296). Cambridge, MA: Schenkman.

- Deegan, M. j. (2001). The Chicago school of ethnography. In P Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland, & L. I. ofland (Eds.), *Handbook of ethnography* (pp. 11-25). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N. K., & Lincoln, Y. S. (2000). The discipline and plattice of qualitative research. In N. K. Denzin & Y S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed., pp. 1-28). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Douglas, J. (1979). Living morality versus bureaucratic fiat. In C. B. Klockars & F. W O'Connor (Eds.), *Deviance and decency* (pp. 13-33). Beverly Hills, CA: Sage.
- Emerson, R. M. (Ed.) (2001). *Contemporary field research: Perspectives and formulations* (2nd ed). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Emerson, R. M., & Pollner, M. (2001). Constructing participant/ observation relations. In R. M. Emerson (Ed.), *Contemporary field research: Perspectives and formulations* (2nd ed., pp. 239-259). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Famradt, J. (1998). Studying up in educational anthropology In K. Bennett deMarrais (Ed.), *Inside stories: Qualitative research reflection* (pp. 67-78). London: Lawrence Erlbaum.
- Fishman, P (1990). Interaction: The Work women do. In J. McCarl Nielsen (Ed.), *Feminist research methods: Exemplary readings in the social sciences* (pp. 224—238). Boulder, CO: Westview.
- Frazier E. F (1932). *The negro family in Chicago*. Chicago: University of Chicago Press.
- Galanter, M. (1989). *Cults: Faith, healing, and coercion*. New York: Oxford University Press.
- Geertz, C. (1973). *The interpretation of cultures*. New York: Basic Books.
- Glaser, B. G., & Strauss, A. L. (1967). *The discovery of grounded theory: Strategies for qualitative research*. Chicago: Aldine.
- Goffman, E. (1967). *Interaction ritual: Essays on face-to-face behavior* Chicago: Aldine.
- Goffman, E. (1961). *Asylums: Essays on the social situation of mental patients and other inmates*. Garden City, NY. Doubleday.
- Gold, R. L., (1958). Roles in sociological field observation. *Social Forces*, 36, 217-223.
- Gubrium, J. F., & Holstein, J. A. (1997). *The new language of qualitative method*. New York: Oxford University Press.
- Hammersley, M., & Atkinson, P. (1995). Documents. In *Ethnography: Principles in practice* (2nd ed., pp. 157—174). New York: Routledge.
- Hesse-Biber, S., & Leavy P. (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Horowitz, R. (1986, January). Remaining an outsider: Membership as a threat to research rapport. *Urban Life*, 14(4), 409-430.
- Hsiung, P. C. (1996). Between bosses and workers: The dilemma of a keen observer and a vocal feminist. In D. L. Wolf (Ed.), *Feminist dilemmas in fieldwork* (pp. 122—137). Boulder, CO: Westview.

- Humphries, L. (1976). Methods: The sociologist as voyeur. In P. Golden (Ed.), *The research experience* (pp. 100-114). Itasca, IL: F. E. Peacock.
- Kaya, N., & Feyzan, E. (1999). Invasion of personal space under the condition of short-term crowding: A case study of an automatic teller machine. *Journal of Environmental Psychology*, 19, 183-189.
- Kondo, D. K. (2001). How the problem of "crafting selves" emerged. In R. M. Emerson (Ed.), *contemporary field research* (2nd ed., pp. 188-202). Prospect Heights, IL: Waveland.
- Lather, P. (2000). Drawing the line at angels: Working the ruins of feminist ethnography. In E. A. St. Pierre & W. S. Pillow (Eds.), *Working the ruins: Feminist poststructural theory and methods in education* (pp. 284-311). New York: Routledge.
- Lather, P., & Smithies, C. (1997). *Troubling the angels: Women living with HIV/AIDS*. Boulder, CO: Westview.
- Lofland, J., & Lofland, L. (1984). *Analyzing social settings: A guide to qualitative observation and analysis* (2nd ed.). Belmont, CA: Wadsworth.
- Malinowski, B. (1922). *Argonauts of the Western Pacific*. Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Marcus, G. (1994). What comes (just) after "post"? In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 563-574). Thousand Oaks, CA: Sage.
- McCall, M. (2000). Performance ethnography: A brief history and some advice. In N. K. Denzin & Y. S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed.). (pp. 421-433). Thousand Oaks, CA: Sage.
- McKinney, J. C. (1966). *Constructive typology and social theory*. New York: Appleton-Century-Crofts.
- Myerhoff, B. (1978). *Number our days*. New York: Simon & Schuster.
- Rollins, J. (1985). *Between women: Domesticity and their employers*. Philadelphia: Temple University Press.
- Sleeter, C. E. (1998). Activist or ethnographer? Researchers, teachers, and voice in ethnographies that critique. In K. Bennett deMarrais (Ed.), *Inside stories: Qualitative research reflections* (pp. 49-57). London: Lawrence Erlbaum.
- Sleeter, C. E. (1992). *Keepers of the American Dream*. London: Falmer Press.
- Smith, R. Q. (1998). Revisiting Juanita's Beauty Salon: An ethnographic study of an African-American beauty shop. In K. Bennett deMarrais (Ed.), *Inside stories: Qualitative research reflections* (pp. 79-85). London: Lawrence Erlbaum.
- Sommer, R. (1969). *Personal space: The behavioral basis of design*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- Sullivan, P., & Elifson, K. (1996). In the field with snake handlers. In C. D. Smith & W. Kornblum (Eds.), *In the field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 33-38). Westport, CT: Praeger.
- Thrasher, F. M. (1927). *The gang*. Chicago: University of Chicago Press.

- Van Maanen, J. (1995). An end to innocence. The ethnography of ethnography. In J. Van Maanen (Ed.), *Representation in ethnography* (pp. 1-35). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Wax, R. (1971). *Doing fieldwork: Warnings and advice*. Chicago: University of Chicago Press.
- Whyte, W. F. (1996). On the evolution of street corner society. In A. Laureau and F. Schultz (Eds.), *Journey through ethnography: Realistic accounts of fieldwork* (pp. 9-74), Boulder, CO.: Westview Press. [Originally published as an "appendix" in W. F. Whyte's second edition of *Street corner society* (University of Chicago Press, 1955).]
- Whyte, W. F. (1943). *Street corner society: The social structure of an Italian slum*. Chicago: University of Chicago Press.
- Williams, T. (1996). Exploring the cocaine culture. In C. D. Smith & W. Kornblum (Eds.), *In the field: Readings on the field research experience* (2nd ed., pp. 27-32). Westport, CT: Praeger.
- Williams, T. (1989). *The cocaine kids*. New York: Addison-Wesley.
- Wolf, D. L. (Ed.). (1996). *Feminist dilemmas in field work*. Boulder, CO: Westview.

الفصل الثامن

تحليل المضمون

وطرق البحث غير التدخلية^(*)

... يتعين على البحث الذى يقوم به العلم الاجتماعى أن يواجه بُعد النشاط الإنسانى الذى لا يمكن حصره فى شعور شخص المبحوث المعزول. وموجز القول إن على العلم الاجتماعى أن يبحث عن شيء يقع خارج نطاق عالم الأفراد المتفرقين.

ليندساي بريور Lindsay Prior (٢٠٠١، ص ٣١٨)
يتم تعريف النصوص، إذن، بوصفها التجلى العلامتى أو
السيمبويطيقى للعمليات الاجتماعية المادية.

آر. إيديما R. Iedema (٢٠٠١، ص ١٨٧)

يعد تحليل المضمون واحداً من طرق البحث القليلة العدد جداً التى يمكن استخدامها كيقياً أو كمياً، مما يتيح الفرصة لظهور مجموعة كبيرة من الإمكانيات المنهجية. ونحن حتى هذه اللحظة كنا ولا نزال نستعرض طرق البحث الكيفية التى تعتمد على تحصيل البيانات مباشرة من الناس باستعمال مهارات إجراء المقابلات ومهارات إجراء الملاحظات. ولكن كيف يستطيع الباحثون الكيفيون أن يستخدموا المواد غير الحية كى يدرسوا العالم الاجتماعى؟ بمعنى كيف يمكن استخدام النصوص، بصورها المختلفة، كنقطة بدء لفهم العمليات الاجتماعية ولتوليد النظريات المتعلقة بالحياة الاجتماعية؟ وما هى مزايا استخدام البيانات غير الحية؟ هيا بنا نعد إلى مثالنا عن صورة

(*) ملحوظة للمؤلف: تم نقل أجزاء من هذا الفصل بتصرف من دراسة هس-بيير، وليفى، بى. (٢٠٠٤) "الطرق اللاتدخلية، والبحث البصرى، والدراسات الثقافية". المنشورة فى كتاب هس-بيير و بى. ليفى (محرران) بعنوان: اتجاهات فى البحث الكيفى: مختارات فى النظرية والتطبيق. نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد.

الجسد ونتفحص مدى إمكانية استخدام الباحث "للنصوص" كوسيلة لبحث هذا الموضوع؟

قد نكون مهتمين بدراسة قضايا صورة الجسد داخل مجتمع ذى بنية تدرجية هرمية كالمجتمع الأبوى (الذكورى) مثلاً. وبالتركيز على هذا الموضوع بصورة أشد تحديداً، سنجد أنفسنا مهتمين بالعلاقة بين الثقافة الشعبية الأمريكية وقضايا صورة الجسد القائمة وفقاً للنوع الاجتماعى والسائدة فى الولايات المتحدة. ومن شأن القيام باستعراض التراث العلمى المنشور حول الموضوع أن يكشف لنا عن أمور عديدة:

فنتبين - أولاً - أن الفتيات المراهقات والفتيات اللاتى فى سن التعليم الجامعى هن الجماعة السكانية الأعلى احتمالاً للمعاناة من اضطرابات تناول الطعام، ومن تناول الطعام بصورة غير منتظمة، ومن الصورة السلبية للجسد، ومن تدنى الشعور باحترام النفس المرتبط بالمظهر الخارجى.

ثانياً: تعد هذه المجموعة أشد المجموعات تأثراً، فيما يبدو، بما فى الثقافة الأمريكية من صور مثالية للجمال يتم توليفها وصياغتها فى وسائل الاتصال فيما يتعلق بما ينبغى أن تكون عليه اتجاهاتهن وسلوكياتهن.

ثالثاً: إن التعرض لوسائل الاتصال الجماهيرية واستيعاب رسائلها داخل النفوس يؤثران على اتجاهات الأفراد، ومن ثم يصحان جزءاً من السياق الذى يرون أنفسهم من خلاله. وبإدخال ذلك فى الاعتبار، فإننا قد نقرر دراسة الفتيات ووسائل الاتصال الجماهيرية. لذلك فإننا نميل إلى صياغة سؤال بحث من قبيل: ما هى العلاقة بين الصور التى تعرضها وسائل الاتصال والنماذج المثالية لجمال الأنثى؟

وكما سبق أن رأينا فى الفصول السابقة، فإن هذا النوع من الأسئلة البحثية يمكن تناوله من خلال مجموعة متنوعة من طرق البحث القائمة على المقابلات. وفى هذه الحالة سوف نحدد عينة الفتيات التى نقصدها ونسألهن عن استخدامهن لوسائل الاتصال، وعن النماذج المثالية لصورة الجسد عندهن، وعن القضايا المرتبطة بهذه الصورة، كما نسألهن عن تصوراتهن للعلاقة بين الثقافة الشعبية وما لديهن من صور شخصية للجسد. وقد يأتى أحد الأسئلة

على النحو التالى: بم تشعرين عندما تشاهدين صور الموديلات والممثلات؟ فهذا النوع من تصميم البحث يعطى الأولوية للطريقة التى يفكر بها الأفراد بصورة شخصية فى أجسادهن، والتى يتبعونها فى الشعور بهذه الأجساد فى علاقتها باستخدامهم لوسائل الاتصال، وتعكس المعرفة المتحصلة على هذا النحو خبرات أولئك الأفراد.

وهذه الطريقة مهمة، إلا أنها ليست سوى إحدى الطرق التى يستطيع الباحث الكيفى أن يستعملها فى دراسة هذا الموضوع. فقد يستعمل أحد الباحثين المهتمين بالوقوف على الكيفية التى يتم بها خلق الصور الثقافية وعرضها فى مجتمع معين طريقة تحليل المضمون. شاهد ذلك، أن الباحث الكيفى المهتم بموضوع: كيف تعكس الصور المبتوثة فى وسائل الاتصال وتصوغ صورة مثالية معينة لجمال الأنثى، وذلك بدلاً من أن يهتم بموضوع مدى استجابة النساء لتلك الصور؛ مثل هذا الباحث سوف يجد أن طريقة تحليل المضمون هى الأكثر نفعاً له. فهيا بنا نعد إلى مثالنا السابق وننظر فى الكيفية التى يمكن بها توظيف طريقة تحليل المضمون فى دراسته.

قد يرغب أحد الباحثين الكيفيين فى دراسة المجالات النسائية ليقوم بتفحص نقدى لصورة النساء فيها. وقد تتضمن بعض الأسئلة التوجيهية أسئلة من قبيل: ما هى أحجام أجساد النساء التى تعرضها هذه المجالات؟ وما هى الأوضاع الجسمية التى تُعرض فيها النساء؟ وما هو النص الذى يصاحب الصور البصرية؟ وخلافاً للباحث الذى يقوم بإجراء مقابلات متعمقة، يقوم الباحث فى هذا المشروع بدراسة كيف تخلق وسائل الاتصال الجماهيرية، وكيف تعكس، الصور المثالية لجسد الأنثى. فبؤرة البحث هنا تتركز على الأشكال الثقافية التى تبث فيها الصور المثالية للجمال، وعلى العمليات الثقافية التى تشكل هذه الصور المثالية وتصوغها. وعند استعمال هذا الأسلوب، فإن نقطة البدء بالنسبة للباحث لا تعود متمثلة فى الأفراد الذين يعيشون هم أنفسهم داخل سياق اجتماعى ما والذين سبق للصور المبتوثة فى وسائل الاتصال أن قامت "بطبعهم"، وهى تلك الصور التى تشكل جزءاً من عملية التنشئة الاجتماعية فى مجتمعهم. ويبين العلماء النقاد أن الأفراد يتم دمجهم من خلال ما فى ثقافتهم من علاقات بين القوة والمعرفة، وأن من اللازم

أن يستخدم الباحثون "النصوص" كنقطة ينطلقون منها للقيام بالمزيد من الفحص النقدي للقوة الاجتماعية (تايلور Taylor، ١٩٨٧).

دعنا نأخذ مثالاً على ذلك، لو فرض أن باحثاً فاتحك فى مناقشة موضوع ما، وقدم لك تشكيلة متنوعة من صور الصبيان والفتيات، فكيف يمكن أن تباشر أداء هذه المهمة؟ وكيف يمكن أن تجيب على الأسئلة التى تدور حول "الإيجابية فى مقابل السلبية"، وألوان الباستل فى مقابل الألوان الأساسية؟ وباعتبار أنك تعيش داخل ذلك السياق الذى تنتشر فيه هذه الصور وأنت قد تعرضت - لهذا السبب - لصور مشابهة على امتداد فترة طويلة من الزمن، فإن من المعقول أن نفترض أن هذه الصور - نفسها - التى يطلب منك فى هذا الوقت أن تجيب عنها تقوم - هى أيضاً - بنقل تصوراتك عن الصبيان والفتيات، أو قل عن الذكورة والأنوثة. وقد يقوم أحد الباحثين الكيفيين الذين يتجاوزون نطاق الرؤية المتأثرة بوسائل الاتصال، والتى يتبناها الأفراد الذين تمت صياغة رؤيتهم بالفعل من خلال المعايير المجتمعية؛ نقول: قد يقوم هذا الباحث باستخدام هذه المجالات ذاتها كنقطة بدء للبحث. ومن خلال قيام الباحث بتفكيك الصور المنشورة فعلاً للصبيان والفتيات فى المجالات الشعبية، يتجه إلى التساؤل عن العملية التى أدت إلى ظهور هذه الصور (وبفضلها صارت مطابقة للمعايير) كما يتساءل عن مدى تمثيلها للنموذج السائد (أو مدى تعارضها معه فى بعض الأحيان). وكما تستطيع أن ترى، فإنه تبعاً لطبيعة سؤال البحث وأهداف الباحث، قد تكون طريقة تحليل المضمون أكثر ملاءمة من إجراء المقابلات أو غيرها من الطرق القائمة على التفاعل المتبادل بين الباحث والمبحوث.

وكما يوضح هذا المثال السابق عن مجالات الآباء والأمهات، فإن بالإمكان استخدام تحليل المضمون فى دراسة الاختلافات. فهيا بنا نعد إلى مثالنا عن المجالات النسائية وصورة الجسد، والذى ركز فقط على طرق تصوير الإناث. فبدلاً من الاختصار على دراسة صور النساء، يستطيع الباحث - كذلك - أن يدرس الاختلافات فى الصور المثالية للجمال وطرق تصوير الجسد. مثال ذلك، ما هى الاختلافات الموجودة فى طريقة تصوير الذكور

والإناث من الموديلات والممثلين؟ وكيف تقوم هذه الصور التي تبثها وسائل الاتصال بالتأثير على الأفكار الثقافية المتعلقة بالذكورة والأنوثة (سواء من خلال تدعيمها أو خلقها خلقاً)؟

أجرى مالكين Malkin، و ورنيان Wornian، و كريزler Chrisler (١٩٩٩) دراسة كيفية قائمة على تحليل مضمون أغلفة ٢١ مجلة من مجلات الرجال ومجلات النساء الشعبية. وقد بحثوا ما جملته ٦٩ من أغلفة المجلات النسائية و ٥٣ من أغلفة المجلات الرجالية. وقد أظهر بحثهم أن ٧٨% من أغلفة المجلات النسائية تضمنت رسائل متعددة تتعلق بالمظهر الجسدى بينما لم يوجد فى أغلفة المجلات الرجالية أمثال تلك الرسائل. بالإضافة إلى ذلك، احتوى ٢٥% من أغلفة المجلات النسائية على رسائل متعارضة تتعلق بوزن الجسم والتغذية. ولعل الأمر الأشد إفساحاً أن وضع الرسائل المرتبطة بوزن الجسم فى أغلفة المجلات النسائية كان يشير إلى أن السعادة ترتبط بإنقاص الوزن، وهو الأمر الذى لم يشاهد فى أى من أغلفة المجلات الرجالية. شاهد ذلك، أن العناوين المتعلقة بإنقاص الوزن كانت موضوعة مباشرة بعد العناوين المتعلقة بتحسين نوعية حياة المرء، مما يخلق الانطباع بأن هذين الأمرين مرتبطان معاً. ومن شأن طريقة تحليل المضمون أن تدعم هذا النوع من البحث، لأنها تتيح إمكانية إجرائه بصورة كلية. ويتحقق ذلك بالبحث فى الصور المختلفة وكذلك البحث فى صلة هذه الصور بغيرها من الكلمات الأخرى و/أو الصور الأخرى. ويعنى ذلك أن هذه الطريقة تزودنا بمنظور فكرى أشمل مما نراه فى أى مجموعة من البيانات المستمدة من النصوص، والتي منها الصور. وأخيراً، فقد ظهرت صور النساء فى معظم المجلات الرجالية والنسائية. وكانت النساء اللاتى يظهرن على أغلفة كلا النوعين من المجلات فى غاية النحافة وتتطابق مع المعايير الثقافية للجسد المثالى للأنثى. ولهذا الوضع دلالات اجتماعية ضمنية كثيرة، كما أنه يثير أسئلة سوسيولوجية تتصل بالعلاقة بين النساء وأجسادهن داخل الثقافة الأمريكية.

إن الرسائل التى تبعث بها وسائل الاتصال فيما يتعلق بالمظهر الجسدى تختلف تماماً بالنسبة للرجال عن النساء. فقد وُجه إلى المظهر

الجسدى للنساء تركيز قوى جعله مساوياً للجمال، والحيوية الجنسية، والمكانة الاجتماعية، فى حين وجه قدر أقل من التركيز إلى المظهر الجسدى للرجال. (فريدمان Freedman، ١٩٨٦). ومن الممكن أن نرى هذه الرسائل - الموجهة تبعاً للنوع الاجتماعى - بوضوح فيما تنشره المجلات من فقرات وإعلانات... "بدلاً من أن تقتصر وسائل الاتصال الجماهيرية على تصوير ما فى مجتمعنا من صور مثالية لوزن الجسم وشكله، فإننا نراها تقوم - إلى حد ما - بفرض معايير مرتبطة بالنوع الاجتماعى، وهى المعايير التى تؤدى فى هذه الحالة إلى اختلافات بين الجنسين فى معدل تكرار بعض السلوكيات الحاسمة" (Anderson & DiDomenico, 1992, p. 286) (Malkin, Wornian & Chrisler, 1999, p. 647)

وكما نستطيع أن نرى، فإن تحليل النصوص كان - فى هذه الحالة - عظيم الفائدة فى الإسهام بإثراء معرفتنا بالاختلافات القائمة على النوع الاجتماعى، والتى تتردد داخل الأشكال الثقافية التى تنقلها وسائل الاتصال. ومنها على وجه الخصوص تلك الاختلافات المتصلة بصورة الجسد وما يرتبط بها من ظواهر. وبالإضافة إلى ما قام به مالكين، وورنيان، وكريزلر من كشف لحقيقة إحدى الظواهر الثقافية وشرح لتفاصيلها، فإنهم - بجانب ذلك - ولّدوا من واقع البيانات التى جمعوها نظرية تدور حول دلالات هذه الاختلافات للنوع الاجتماعى. فهنا بنا نتأمل مثلاً آخر.

وكما أن تحليل المضمون يقدم لنا خيارات كثيرة، فإن بالإمكان كذلك أن تتم دراسة موضوع الاختلافات الناجمة عن النوع الاجتماعى وموضوع صورة الجسد باستعمال البيانات الموجودة فى وسائط أخرى. مثال ذلك، أن بإمكان الباحث الكيفى أن يقوم بدراسة دقيقة للمواد السمعية البصرية، كالسينما أو التلفزيون، لكى يتأمل أى عدد من القضايا كذلك التى تعرضها أنواع معينة من الأفلام أو البرامج التلفزيونية من تصورات لصورة الجسد عند الرجال وعند النساء وما يتصل بها من تفاعلات.

قام لوزن Lauzen و دوزييه Dozier (٢٠٠٢) بدراسة تحليل مضمون ١٠٤ برنامج أو عرض تلفزيونى بُثت على الهواء خلال عامى

١٩٩٩/٢٠٠٠. وقد قاما بدراسة هذه العروض من أجل فحص أعداد وأنماط التعليقات التي جرت على السنة الشخصيات الرجالية والنسائية، وتلك التي وجهت إليهم والمتعلقة بالمظهر الجسدى. يضاف إلى ذلك أنهما بحثا عما إذا كان للنوع الاجتماعى لكتاب هذه البرامج ثمة تأثير على مقدار وأنواع التعليقات التي تناولت مظهر الجسد. وتذهب نتائج بحثهم إلى أن الشخصيات النسائية تتلقى قدراً أكبر من التعليقات الخاصة بالمظهر الجسدى من كل من الشخصيات النسائية والرجالية، كما تذهب إلى أن طبيعة هذه التعليقات تختلف عن نوعية تلك التي وجهت إلى الرجال. كما وجدوا أن توظيف الكاتبات فى كتابة هذه البرامج قد تسبب فى زيادة العدد الكلى لما جرى من تعليقات خاصة بالمظهر الجسدى.

إن الانشغال بالمظهر الجسدى قد يعكس محورية المظهر والجمال فى حياة جميع النساء بما فيهن الكاتبات. فالكاتبات يأتين بخبراتهم الحياتية فيقلنها إلى النصوص التي يقمن بتأليفها. فالنساء تتم تشنّتهن الاجتماعية على نحو يعطى أولوية للاهتمام بالمظهر الجسدى، لذلك فإن النساء يكتبن ما يعلمنه، فيقمن بإدماج أمور المظهر الجسدى كجانب مهم - بل ومحورى - من جوانب حياة الشخصيات النسائية والرجالية. ومن الأمور المتناقضة إلى حد ما، أنه على الرغم من أن حضور الكاتبات قد حطم الصورة النمطية الجامدة التي يقدمها سائر الكتاب من الرجال، فإن هذا الحضور قد تسبب كذلك فى زيادة معدل التعليقات التي قيلت عموماً، وخاصة ما دار منها حول الشخصيات النسائية (Lauzen & Dozier, 2002, p. 8)

ومع أننا لا نوافق، بالضرورة، على النتائج التي انتهى إليها الباحثان، إذ قد تكون هذه الظاهرة مرتبطة بالضغط المتزايد على النساء الكاتبات للإذعان للمثل المعيارية الجنسية الموجودة فى مجال خاضع لسيطرة الرجال؛ فإن هذه الدراسة تعد مثلاً واضحاً لتوليد النظرية التي تدور حول الاختلافات تبعاً للنوع الاجتماعى، وذلك باستخلاصها من البيانات السمعية البصرية التي عولجت بطريقة تحليل المضمون.

أما ديانا روز Diana Rose فهي باحثة تعيش في المملكة المتحدة، وقد استخدمت طريقة تحليل مضمون المواد السمعية البصرية لدراسة صور "الجنون" كما عرضتها برامج التلفزيون البريطاني. وفي الفقرة التالية المخصصة "لما خلف الكواليس" تحدثنا "روز" كيف آل بها الأمر إلى دراسة هذا الموضوع وإلى أين أوصلها:

خلف الكواليس مع ديانا روز

أمضيت ١٢ سنة أعمل في ميدان بحوث الصحة العقلية. وقبل ذلك سبق لى أن أجريت بحثاً عن العلاقة بين اللغة والتعليم وعن موضوع النوع الاجتماعي. ولكن كانت ثمة فجوة بين هذين النمطين من البحوث. وسبب هذا يرجع إلى إصابتي "باضطراب عاطفي مزدوج"^(*)، كما أنني أمضيت بعض الوقت وأنا معتلة الصحة إلى حد منعني من العمل. وقد عشت تلك الفترة على المعونات التي تصرفها الدولة للمحتاجين بجانب معاش بسيط.

كان أول بحثي في مجال الصحة العقلية هو رسالتي للحصول على الدكتوراه التي بدأت دراستي للحصول عليها في فترة متأخرة إلى حد بعيد من حياتي (إذ كنت حينذاك في الأربعين من عمري). وكان الموضوع الذي اخترته هو "صور الجنون التي يعرضها التلفزيون البريطاني". وكنت أرى أن هذا الموضوع موضوع "آمن"، أي أنه لن يتطلب مني أن أكشف عما أعانيه من مشكلات تتعلق بالصحة العقلية. فقد كنت واعية تمام الوعي بالوصمة التي يوصم بها المرضى العقليون. وبعد فترة أصبحت غير مرغوب في الجامعة وانكشف أمرى تماماً. فقد عرف كل إنسان من أين كنت أستمّد أفكارى. ولم أكن أعبأ بذلك فعلاً، فقد كان لدى التزام سياسى (أى مجتمعى عام - المراجع). فقد كان يوجد في ذلك الوقت نقد كثير في وسائل الاتصال لسياسة الرعاية الصحية في المجتمع، وكنت راغبة في كشف حقيقة مدى تحيز هذه السياسة. وبذلك فإننى لم أكن باحثة محايدة أبداً.

(*) Bipolar affective disorder.

فى السنة الأخيرة من دراسائى لتحضير الدكتوراه، عرضت على وظيفة فى مستشفى خيرى للصحة العقلية لى أجرى بحوثى فيه. وكان ذلك بسبب سببى تعرضى لمشكلات صحية عقلية، فقد كانت الإصابة بمرض عقلى مؤهلاً لى للحصول على هذه الوظيفة (روز، ٢٠٠٠). فقررت أن أقبل الوظيفة بصدق وإخلاص، وأن أكون صريحة فيما يتصل بمرضى وما تلقيتة من علاج له، وأن أنتفع بخبرتى بأنواع العلاج والخدمات فى إثراء عملى البحثى.

وقد أدى هذا بى إلى أن طورت إيستمولوجيا "للتمكن". ووفقاً لمفاهيم الفكر التنويرى، فإن المنتفعين بخدمات الصحة العقلية (ونحن لا نحب استعمال مصطلح "المريض") يكونون فى وضع مشابه لذلك الوضع الذى تعيش فيه النساء، والذى يصفه أصحاب نظرية المعرفة النسوية بأنه مجرد وضع أكثر سوءاً. إن افتقاد التفكير العقلى هو التعريف الذى يعرفنا به الأطباء العقليون والجمهور، فنحن فى نظرهم ليس لدينا قدرات عقلية، بل كل ما لدينا هو انفعالات جامحة لا سيطرة لنا عليها وحياة تسودها الفوضى. بل إنه مازال هناك أطباء أمراض عقلية يعتقدون أن المنتفعين بخدمات الصحة العقلية يحملون فى أدمغتهم أجزاء "ثقافية" cultural parts "تالفة وأنهم لهذا السبب أقرب إلى الحالة الأصلية البسيطة للإنسان. لذلك تسعى إحدى إيستمولوجيات التمكين إلى قلب هذه المعتقدات رأساً على عقب.

وكما تسهم الحركة النسائية فى إثراء الدراسات والبحوث النسوية، فإن حركة المنتفع / والمُنقذ user/survivor أسهمت فى إثراء تفكيرى الشخصى بنفس الطريقة تماماً. وقد تعرفت على هذه الحركة أول الأمر فى منتصف ثمانينيات (القرن الماضى) عندما كنت متعطلة عن العمل. لقد عملت هذه التجربة على إثراء مستوى الوعى عندى، وهى فى ذلك تشبه تماماً ما فعلته الحركة النسوية فى إثراء الدراسات النسوية. وقد آل بى الأمر إلى التأكد من أن الطريقة التى كنت أعالج بها وفقاً لنظام الصحة العقلية كانت طريقة جائرة. وأخيراً، قمت بتنظير نظام الصحة العقلية بوصفه يشكل أحد خطابات وممارسات الهيمنة مسئلة فى ذلك كتابات فوكو Foucault عن الجنون.

فما هي دلالات ذلك بالنسبة لممارستى البحثية؟ أعتقد أن هذه الرؤية قادتني إلى شكل من أشكال المشاركة في العمل البحثي. وهناك طريقتان لتحقيق هذه المشاركة:

أولاً: عندما يشارك منتفعون آخرون (أي مرضى) في بحثنا فإننا نكون قادرين على فهم أفكارهم لأننا كنا مثلهم، أي أننا نشاركهم خبراتهم. كما أننا، ومن وجهة نظر تتصل بمنهجية البحث، نحرص أشد الحرص على الفهم الدقيق لما يفكر فيه الأفراد والجماعات، إذ تكرر لجوؤنا - لمرات عديدة - إلى مراجعة محتويات بعض سجلات المقابلات أو محتويات مداولات جماعة من جماعات المناقشة المركزة. ويمثل هذا الأسلوب تطبيقاً جيداً للبحث الكيفي، كما تفيد أعظم الفائدة من احترامنا العميق لشركائنا في البحث. وهذا الأمر لا وجود له في الغالبية العظمى من بحوث الصحة العقلية، التي تمثل الاتجاه المسيطر.

والشكل الآخر من البحث القائم على المشاركة بين الباحث والمبحوث يتمثل في اشتراك المنتفعين بالخدمات الصحية (المرضى) كباحثين. وهنا يتم تدريب الأفراد الذين لديهم خبرة بسيطة - أو ليس لديهم خبرة - على القيام بالبحث، وذلك جنباً إلى جنب الباحثين ذوي الخبرة. ويتولى هؤلاء المنتفعون بالخدمات تصميم أدلة المقابلة معتمدين على خبرتهم الشخصية. ثم يستخدمون هذه الأدلة في إجراء المقابلات مع غيرهم من المنتفعين بالخدمات (المرضى). والفكرة العامة هنا هو أنه عندما يقوم بعض المرضى بإجراء المقابلات مع مرضى آخرين يكون الوضع أكثر صراحة وراحة، كما أن المعلومات المتحصلة عن هذا الطريق تختلف عن تلك التي يمكن للباحث المحترف أن يتحصل عليها.

إن طريقتي المفضلة لتحليل البيانات المستمدة من المشروعات البحثية الكيفية هي طريقة تحليل المضمون الكيفي. وتعد هذه الطريقة اختياراً منهجياً أكثر من كونها اختياراً استوحيته تجربتي كواحدة من المنتفعين بخدمات الصحة العقلية. ولا أعتقد أن من الممكن الوصول إلى مجموعة متكاملة من البيانات بدون وجود أفكار أو تصورات مسبقة. لا أعتقد أن ذلك ممكن أبداً.

ذلك أن وجود إطار تصنيفي - حتى وإن كان قائماً على الفحص الأولي للبيانات - يجعل الأفكار المسبقة للمرء واضحة صريحة. وفي البحوث التي قمت بها أو أشرفت على إجرائها تم تطوير كثير من فئات التصنيف التي استخدمناها وقمنا باستخلاصها من معرفتنا الشخصية بالمحنة، وبأنواع العلاج والخدمات التي تلقيناها.

قد يميل البعض إلى القول بأن إجراء البحث بهذه الطريقة يمثل نوعاً من التحيز، إلا أنني أتمنى أن ألتقى يوماً بباحث محترف في مجال الصحة العقلية - وهو المجال الذي يغلب عليه الطابع الكمي - يقوم بإجراء بحث لا يكون عزيزاً على قلبه، أو يكون له فيه نفع شخصي.

إن اشتراك متلقى الخدمات (المرضى) في البحث صار "موضة" واسعة الانتشار في الملكة المتحدة في وقتنا هذا. وأنا الآن مسئولة عن وحدة مكونة من خمسة باحثين كلهم من المنفعين بخدمات الصحة العقلية حالياً أو ممن كانوا كذلك فيما قبل. كما أنني ملتزمة حالياً بتطوير التصورات المثالية التي استعرضتها هنا بإيجاز.

والآن وقد ألمنا بفكرة عن مدى إمكان استعمال طريقة تحليل المضمون بصورة عامة، وعن مدى إمكان استعمالها على نحو مختلف عن الطرق الأخرى فيما يتصل بمثلنا عن صورة الجسد، فهيا بنا نبحث بدرجة أعمق: ما هي طرق البحث غير التدخلية unobtrusive methods، وكيف تطورت، وكيف يمكن توظيفها.

الطرق غير التدخلية:

الاتجاهات الكمية والاتجاهات الكيفية

تطورت طرق البحث غير التدخلية انطلاقاً من الافتراض القائل بأن بإمكاننا أن نحيط علماً بمجتمعنا عن طريق تمحيص العناصر والمواد المادية التي يتم إنتاجها داخل هذه الثقافة. معنى ذلك بعبارة أخرى أن بوسعنا أن نحيط علماً بالحياة الاجتماعية، سواء تمثلت في المعايير أو القيم أو التنشئة الاجتماعية أو التدرج الاجتماعي، وذلك عن طريق بحث الأشياء التي نصنعها

والتي تعكس العمليات الاجتماعية الكبرى كما تعكس نظرتنا للعالم. فالنصوص والموضوعات التي تنتجها جماعات الناس تحوى فى داخلها الأفكار الكبيرة التي لدى تلك الجماعات، سواء كانت أفكاراً يتفقون عليها أم يختلفون حولها. وتعتمد الطرق الرئيسية الأخرى للبحث الكيفى على جمع البيانات من الأفراد والجماعات من خلال استعمال طرق المعرفة القائمة على التفاعل معهم وملاحظتهم. وهنا تختلف طرق البحث غير التدخلية من حيث إنها تستخدم النصوص كمنطلق لعمليات البحث. وبصفة خاصة يستعمل البحث غير التدخلى الأشكال غير الحية للبيانات والتي تصنف - عموماً - باعتبارها "نصوصاً" أو أشياء من صنع الإنسان (بالمعنى الواسع للمفهوم). وثمة فائدتان لاستخدام الأشكال غير الحية للبيانات:

(١) أولهما أن تلك البيانات غير تفاعلية.

(٢) وثانيتهما أن هذه البيانات ذات وجود مستقل عن البحث.

(Reinharz, 1992, pp. 147-148)

ونظراً لأن هذه البيانات لا تتأثر من خلال تفاعل الباحث - على نحو ما يحدث فى المقابلات - ونظراً لأنها موجودة من قبل فى العالم يصرف النظر عن هذا البحث الجارى تنفيذه، فإن هذه البيانات تكون "طبيعية"، أو ذات وجود طبيعى. وتضفى هذه الصفة على البيانات مستوى متميزاً وفريداً من الأصالة والصدق، الذى يتأكد وجوده خلال العملية البحثية. فالباحثون لا يتطفلون على الحياة الاجتماعية عن طريق الملاحظة أو إجراء المقابلات بل يتناولون بالدراسة النصوص اللاتفاعلية الموجودة، وبهذا الشكل تصنف هذه العملية البحثية بأنها غير تدخلية. ومن الممكن دراسة شتى أنواع النصوص والمنتجات المادية، التى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الوثائق التاريخية، والصحف، والمجلات، والصور الفوتوغرافية، والكتب، واليوميات، والأعمال الأدبية، والموسيقى، والتلفزيون، ومواقع الإنترنت، وغيرها.

ومع أن طرق البحث غير التدخلية تضم طائفة واسعة الإمكانيات المنهجية، فإن طريقة تحليل المضمون - بمفهومها الكلى الشامل - تعد تاريخياً كبرى الطرق التى تدرج تحت هذا العنوان. وكان مصطلح تحليل

المضمون يشير - بصورة تقليدية - إلى دراسة النصوص المكتوبة. وكانت هذه الممارسة في بدايتها ذات طابع كمي، حيث كان الباحثون يميلون إلى عد مرات وُرُود موضوع أو عبارة معينة يكونون مهتمين بها، كالمصطلحات المتعلقة بالنوع الاجتماعي أو المصطلحات العرقية في صحيفة ما. وكان هؤلاء الباحثون القدامى يوصفون بأنهم من "عدادي الحبوب" "bean counters". والآن، لا يفكر كثير من الباحثين وفقاً للاتجاه الكيفي أو الكمي عندما يتطرقون إلى طريقة تحليل المضمون، إذ أن تحليل المضمون يدمج هذه المفاهيم معاً كما يمكن اعتباره طريقة مهجنة (أي تجمع صفات الطرق التي تولدت منها). وبهذا يمكن أن نتخيل أن تحليل المضمون بمثابة طريقة للتحليل ذات طبيعة مختلطة لا تتفك عنها، أو طريقة تشتمل دائماً على الإمكانات الواعدة لكل من التطبيقات الكيفية والكمية معاً. ويشير باور (Bauer ٢٠٠٠) إلى تحليل المضمون بوصفه "تقنية مهجنة" تمثل في حقيقتها دائماً - حتى عندما تنفذ بصورة كمية - اتجاهاً مهجناً في البحث. ويشرح باور هذا التصور على النحو التالي:

مع أن معظم تحليلات المضمون الكلاسيكية تصل إلى نروتها في صورة التوصيفات الرقمية لبعض ملامح النصوص المكتوبة، فإن الباحث كان يحرص على التفكير ملياً في "الأنواع" و"الصفات" و"الفروق" الموجودة في هذا النص قبل القيام بأي معالجة كمية له. وبهذه الطريقة يُقيم تحليل المضمون جسراً يصل النزعة الشكلية الإحصائية بالتحليل الكيفي لهذه المواد. وبالنسبة لما يشهده البحث الاجتماعي من فصل بين الكم/والكيف، يمثل تحليل المضمون تقنية تقوم بدور الوسيط في هذا الجدل العقيم الذي يدور حول مزايا كل طريقة من طرق البحث (ص ١٣٢).

ولكن بصرف النظر عن مدى تفكيرنا في تحليل المضمون كطريقة هجين بطبيعتها، أو كطريقة تجمع بين القدرات الاستنباطية والقدرات الاستقرائية، فلا شك أنه باستخدام هذه الطريقة في البحث استطاع العلماء الاجتماعيون أن يسهموا في إثراء المعرفة بأساليب لها شأنها، تتصف بالكفاءة الإحصائية والمقدرة الوصفية.

وقد استطاع الباحثون الكميون - سواء اقتصروا على الممارسة الكمية وحدها أو جمعوا بينها وبين الممارسة الكيفية - أن يبينوا أهمية تحليل المضمون كطريقة للحصول على "بيانات محكمة" عن الظواهر الاجتماعية الكبرى. وقد ساهم هذا النوع من البحوث بقدر كبير في إثراء المعرفة العلمية الاجتماعية، كما أثر على السياسة الاجتماعية بصورة مباشرة. وسوف نرى من خلال استعراض موجز لتاريخ طريقة تحليل المضمون، كيف يمكن أن تكون هذه الطريقة أداة فعالة لتعزيز التغيير الاجتماعي على مستوى السياسة الاجتماعية.

كان تحليل المضمون الكمي جزءاً متماً لعملية تكوين رصيدنا من المعرفة العلمية الاجتماعية، بما فيها المعرفة الموجهة لتحقيق العدالة الاجتماعية. وتتمثل قوة هذه الطريقة في أنها تمكن الباحثين من دراسة الأنماط المتكررة والموضوعات الأساسية المتضمنة داخل الموضوعات التي تنتجها ثقافة معينة. إذ يستطيع الباحثون أن يحلوا البيانات الموجودة سلفاً لكي يكشفوا عن العمليات الاجتماعية الكبرى ويحلوا ألغازها. وتعتبر الممارسة الكمية لطريقة تحليل المضمون ممارسة مهمة، لأنها تمكن الباحثين من تقديم نتائج بحوثهم وعرضها على هيئة رسوم بيانية وجداول تسهل قراءتها، وغالباً ما تكون في شكل رقمي. ولا يمكن الإقلال من شأن قوة هذا الشكل من البيانات عندما نحاول لفت الانتباه إلى الممارسات المنتظمة للظلم ولعدم المساواة الاجتماعية، وعندما نحاول تغيير السياسة العامة.

وفي ضوء ما قدمه تحليل المضمون الكمي من إثراء لمعرفتنا بالظلم الاجتماعي وعدم المساواة، فقد كان ولا يزال يُعد طريقة معيارية لتحليل دور النصوص التي تبثها وسائل الاتصال خلال عملية التنشئة الاجتماعية. من ذلك ما قام به جودن وجودن Gooden & Gooden (٢٠٠١) من دراسة موضوع صورة النوع من واقع دراسة ٨٣ من كتب الأطفال الشهيرة المنشورة خلال الفترة من سنة ١٩٩٥ حتى سنة ١٩٩٩. وقد أظهر بحثهما أن التصوير النمطي للجنس - خلال هذه السنوات الأربعة - كان أقل مما شهدته سبعينيات القرن العشرين. ومع ذلك، يظل التصوير النمطي للجنس سائداً في

كتب الأطفال. ونظراً لأن كتب الأطفال مصدر له شأنه في التشئة الاجتماعية، نجد هذا البحث يؤكد على أنه يتعين بذل المزيد من الجهد لجعل كتب الأطفال أكثر حيادية في تصويرها للنوع. فهذه الصور النمطية يمكن - في شكلها الحالي - أن تؤثر تأثيراً سلبياً على شعور الفتيات باحترام الذات وبالهوية الشخصية. زد على ذلك أن هذه النصوص تعزز الأدوار التقليدية للنوعين (للذكور والإناث). وقد تحد - لهذا السبب - من اختيارات الصبيان والفتيات للسلوكيات التي يعتقدون أنه مسموح بها لهم.

وأجرى مرسكين Mersikin (١٩٩٩) بحثاً قدم فيه تحليل مضمون كمي لمجلات المراهقين التي نُشرت من سنة ١٩٨٧ حتى سنة ١٩٩٧ لكي يتبين كيف تقدم الإعلانات موضوع العادات الصحية النسائية وموضوع الحيض بوسائل من شأنها أن تعمل على استدامة بعض الخرافات الثقافية أو هدمها. وكان مرسكين يريد بصفة خاصة أن يعرف المدى الذي بلغته الإعلانات في عرض، أو تقديم الحيض "كموضوع يجب الخشية منه وكأزمة صحية تدعو للشعور بالذنب وتدمر شعور المرأة باحترامها لنفسها" (ص ٩٤١). ويظهر هذا البحث أن الخرافات القديمة المتعلقة بالنوع، والتي تصور أجساد النساء كشيء ملوث أو بغيض لا تزال حية ومقبولة في الإعلانات، وإن كانت تلك الأجساد تصور في الجانب الإيجابي بطرق أكثر تحراً. وعلى الرغم من ذلك، فإن المعلنين لم يعيدوا تعريف الحيض كعملية جسدية إيجابية. زد على ذلك أن بحث مرسكين كشف عن أن الموديلات من الفتيات البيضاوات يحظين بالأفضلية في هذه الإعلانات، ومن ثم فإن الأمر يبدو وكأن النساء ذوات الأصول العرقية والإثنية الأخرى لسن مستهدفات من هذه الإعلانات. وترتكز قوة هذه الدراسة على استعمال الباحث للبيانات الكمية الخالصة.

وبالمثل يستخدم أسلوب تحليل المضمون التقليدي للمساعدة في صياغة السياسة الاجتماعية من خلال لفته الأنظار إلى بعض أشكال عدم المساواة المنظمة التي يجب أن تتغير. وشاهد ذلك أن توماس و تريبر Thomas and Treiber (٢٠٠٠) قاما بدراسة تحليل مضمون كمية لعدد ١٧٠٩ إعلاناً

أخذت من أربع مجلات، اثنتان منهما موجهتان للمستهلكات البيض، واثنان موجهتان للمستهلكات السود، بقصد الوقوف على الصور النمطية القائمة على اعتبارات العرق، والنوع الاجتماعي، والمكانة الاجتماعية. وقد توصل بحثهما إلى أن وسائل الاتصال التي تتوصل بالصورة تعرض عدداً قليلاً من الصور النمطية للنوع والعرق. من ذلك أن المبحوثات البيضيات يظهرن غالباً في مكانة اجتماعية أعلى من المكانة الاجتماعية التي تظهر فيها المبحوثات السود. ويرتب توماس و تريبر على ذلك ما يلي:

تظل الصور النمطية للعرق والنوع باقية كصور مبالغ فيها وشديدة التبسيط تستعمل لتسويق المنتجات. وقد بينا أن الإعلانات المنشورة في هذه المجلات تستعمل هذه الصور السطحية عندما تستهدف توجيه المنتجات إلى النساء، وإلى الرجال، وإلى السود، وإلى البيض. ذلك أن استعمال الصور النمطية في إعلانات المجلات يؤكد لجمهورها من القراء أن الجماعات الأثنية منزلة ينبغي أن تظل في مكانة اجتماعية أدنى. وفي هذه الدراسة، وجد أن كلاً من النوع الاجتماعي والعرق يمثلان مبدئين أساسيين قويين لتنظيم خبرة الحياة اليومية.

وتتمثل واحدة من السمات الأساسية للصور النمطية التي تبثها وسائل الاتصال في قدرتها على توليد النبوءات ذاتية التحقيق^(*)، وذلك على الرغم من

(*) النبوءة ذاتية التحقيق Self – Fulfilling Prophecy مفهوم أدخله روبرت ميرتون إلى ميدان علم الاجتماع (انظر كتابه: النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي الصادر عام ١٩٥٧)، يتفق مع النظرية الشهيرة المبكرة لصاحبها وليام إسحاق توماس والقائلة بأن الناس عندما يحددون المواقف على أنها حقيقة واقعة، يترتب على ذلك أن تصبح حقيقة فعلاً. ويعتبر ميرتون أن "النبوءة ذاتية التحقيق" تعد عملية أساسية ومهمة في المجتمع، مشيراً إلى أن البدء بتعريف موقف ما تعريفاً زائفاً يستدعي سلوكيات جديدة مترتبة على هذا التعريف، تحيل هذا التصور الزائف إلى أن يصبح حقيقة. فلكل السلوكيات تطيل أمد التصور الخاطئ.

للمزيد انظر: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، تحرير محمد الجوهري، مرجع سابق، مجلد ٣، ص ١٤٣٥ وما بعدها. (المراجع)

أن الصور النمطية في الإعلانات تقدم صورة غير صحيحة للعرق والنوع.
(ص ٣٧٠).

لاشك أن هذا البحث قد استمد قوةً من استخدامه لطريقة تحليل المضمون الكمي. فقد سهلت الرسوم البيانية الإحصائية الواضحة على الباحثين توليد نظرية مَقنعة فيما يتصل بالدلالات الاجتماعية لتتسنة الناس اجتماعياً من خلال الصور النمطية الضارة.

قام ويسوكي Wysocki وهاريسون Harrison (١٩٩١) بدراسة تحليل مضمون لبعض المجلات الدورية بقصد الكشف عن أنماط تصويرها لمرض الإيدز. وقد أتاحت هذه الطريقة للباحثين أن يدرسوا وسائل نقل المعلومات المتعلقة بالإيدز إلى الأطفال والمراهقين. وكثيراً ما يُستعمل البحث الذي من هذا النوع كأداة لتغيير السياسة الاجتماعية، حيث تستخدم البيانات التي يتم التوصل إليها "كدليل" على عدم فاعلية السياسة العامة. وبهذه الطريقة يستطيع الباحثون الملتزمون بالعدالة الاجتماعية أن يناضلوا من أجل حقوق أولئك الذين قد يكونون مهمشين، أو محرومين من حقوقهم السياسية، أو واقعين تحت أي شكل من أشكال الظلم داخل المجتمع. وإنَّ بإمكان الطرق غير التدخلية - إلى جانب ما تقوم به من كشف للأنماط المتكررة والموضوعات الأساسية- أن تساعد الباحثين على تقديم وصف تفصيلي للعمليات الاجتماعية الكبرى وتفسيرها.

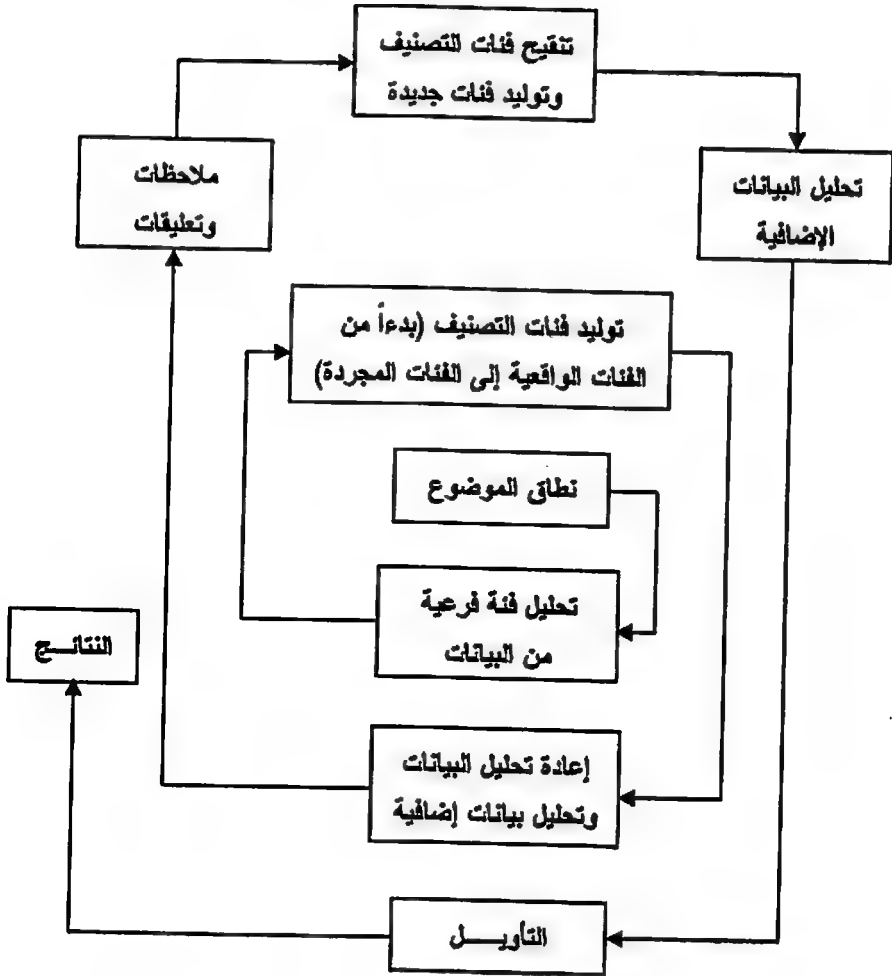
ومن الناحية التاريخية كان الباحثون يمارسون طريقة تحليل المضمون على أساس كمي، إلا أنه قد توفر لنا الآن تراثٌ من تحليل المضمون الكيفي، ومن البحوث التي تستخدم الأساليب المختلطة كذلك (أي التي تجمع بين التحليل الكمي والتحليل الكيفي للمضمون). ويتمثل الفارق الأساسي بين هذين الأسلوبين الكبيرين في تصميم البحث. فالاتجاهات الكمية في تحليل المضمون تتصف عموماً بأنها استنباطية وتتبع نموذجاً خطياً في تصميم البحث^(*). أما

(*) أي يقوم على عدد من الخطوات أو المراحل المتتابعة المحددة تحديداً دقيقاً. (المراجع).

الاتجاهات الكيفية في تحليل المضمون فتتبع ما نطلق عليه النموذج الحلزوني في تصميم البحث.

دعنا نبدأ بالنموذج الأول. عند استعمال أحد التصميمات الخطية يكون في ذهن الباحث مجموعة من الخطوات المحددة سلفاً لمتبعها في مسار خطي (أو رأسي) في كل مرحلة من مراحل البحث. أما التصميم الحلزوني - الذي يستخدمه الباحثون الكيفيون - فيتيح للباحثين وتعبير مجازي، أن يغوص داخل البيانات ويخرج منها أثناء متابعته العمل في البحث. ففي هذا النموذج يقوم الباحث بتوليد أنواع الفهم الجديدة، والتي تتصف بمستويات مختلفة من التحديد أو من الدقة والوضوح، وذلك أثناء كل مرحلة من مراحل المشروع، وأن ينتفع بتلك المعلومات في الرجوع مرة ثانية (إلى المراحل السابقة) من أجل الحصول على مزيد من المعلومات. وهذا النموذج يُشكل أسلوباً "حلزونياً" في بناء المعرفة في حالة ما إذا كان المرء يريد أن يجسد هذه العملية في صورة مرئية. وتصف الخريطتان المعروضتان على الصفحتين التاليتين مساراً أو تدفق المعلومات عبر مراحل عملية البحث في الدراسات الكمية والدراسات الكيفية، أي النماذج الخطية في مقابل النماذج الحلزونية. وتذكر أنه ليس من اللازم أن يتبع المرء هذه الخطوات بالتمام والكمال، لأنّ هذا الرسم يمثل وصفاً عاماً كل العمومية لهذين الاتجاهين، كما أن أي خطة بحث ينبغي لها أن تكون مناسبة بصفة خاصة لأهداف مشروع بحثي بعينه.

خريطة مسار عملية تحليل المضمون
النموذج الكيفي
(استقرائي)



الشكل رقم ١/٨: خريطة مسار عملية تحليل المضمون.

المصدر: بتصريف نقلا عن كتاب نيوندورف:

Neuendorf, K.A. (2001). The Content Analysis Guidebook. Thousand Oaks, CA: Sage.

خريطة مسار عملية تحليل المضمون
النموذج الكمي
(استنباطي)

١- سؤال البحث وفرضه



٢- صياغة المفاهيم

(ما هي المتغيرات المستعملة وكيفية تعريفها).



٣- العمليات الإجرائية

(وتستهدف الوصول إلى الصدق الداخلي والصدق الظاهري).

٣/أ- وحدة التحليل

٣/ب- القياس

- الفئات قد تكون شاملة

- أو متنافية (تستبعد بعضها بعضاً)

أو

- محددة مسبقاً



٤- فئات التصنيف.



٥- اختيار العينات

(اختيار عينة عشوائية لفئة فرعية من المضمون).



٦- الثبات (المنهجي)

يمكن استعمال: فئتين للتصنيف (لتحقيق ثبات الفئات)

أو استعمال برنامج كومبيوترى للتحقق.

٧- إذا تم تقرير الثبات بطريقة يدوية (خطوة رقم ٦) إذن قم بإجراء اختبار إحصائي.



٨- عمل الجداول وعرض النتائج

الشكل رقم ٢/٨: خريطة مسار عملية تحليل المضمون

المصدر: بتصرف نقلاً عن كتاب نيوندورف:

Neuendorf, K.A. (2001). The Content Analysis Guidebook. Thousand Oaks, CA: Sage.

في تحليل المضمون الكيفي يبدأ الباحث ببيانات في موضوع معين ليشرع في التساؤل عنها وتأملها انطلاقاً من موقفه الفكري الضمني ووجهة نظره الإستمولوجية. وبمجرد بدء هذه العملية يقوم الباحث بفحص علاقة هذا الموضوع كذلك بسؤال البحث. ولا يبدأ الباحث بفئات تصنيف مسبقة، وإنما يقوم بتوليد فئات التصنيف باستخراجها مباشرة من هذه البيانات. ومن الممكن أن تتراوح هذه الفئات ابتداءً من الفئات الواقعية (الحرفية) وانتهاءً بالفئات المجردة. ونظراً لأن فئات التصنيف تتبثق من خلال البيانات فإن الباحث يعود أدراجه مرة ثانية ليكرر تأمل البيانات باستخدام فئات التصنيف الجديدة. وينهمك كثير من الباحثين -كذلك- في كتابة الملاحظات والتعليقات على امتداد هذه العملية كوسيلة لتفسير البيانات وتأملها خلال متابعتهم للعملية البحثية. وهذا هو السبب في أننا نشير إلى الاتجاهات الاستقرائية بوصفها "عملية غوص داخل البيانات ثم خروج منها". ومن الممكن عرض المعرفة الناتجة عن هذه العملية بأساليب متعددة.

إن الأساليب الشديدة التنوع التي يمكن بها استعمال الطرق غير التدخلية لإنتاج أنواع مختلفة من البيانات - ذات القدرات الوصفية والتفسيرية- هي ما يميز تلك المجموعة من أدوات البحث وأشكالها المنهجية العامة. وعلى امتداد العقود الثلاثة الماضية قام الباحثون الكيفيون - من أصحاب رؤى إستمولوجية وفكرية مختلفة- بتوسيع نطاق مفاهيم طرق البحث اللا تدخلية وتوسيع نطاق استخدامها على نحو بالغ التأثير. ويرتبط الاهتمام المتزايد بتلك المجموعة من الممارسات ارتباطاً مباشراً بنمو الدراسات الثقافية وبالنقد المابعد الحداثي لبنية المعرفة العلمية الاجتماعية.

التحليل الكيفي للنصوص وعلاقته

بما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية

من الأمور المتعارف عليها، أن تحليل النص هو أكثر أشكال تحليل المضمون شيوعاً وانتشاراً. وتحليل النص هو أن يستخدم الباحث النصوص المكتوبة بوصفها الشكل الأساسي للبيانات (رغم أن الباحث قد يجمع بين

البيانات النصية والبيانات المرئية أو يربط طريقة تحليل النص بطريقة أخرى). وفي وقتنا الحاضر، يُستعمل مصطلح النص بمزيد من التوسُّع ليمتدَّ تلك الطائفة من الوسائط التي تظهر فيها النصوص الثقافية. وعلى امتداد العقود القليلة الماضية أدَّت المفاهيم العلمية الجديدة لطبيعة الحقيقة الاجتماعية ولطبيعة البحث الاجتماعي إلى زيادة تدقيق وتحسين طرق البحث غير التدخلية. ويمكن القول - على وجه الخصوص - أن الانتقادات التي وجهها مفكرو ما بعد الحداثة ومفكرو ما بعد البنيوية إلى البحث، قد أدَّت إلى التأثير على ممارسة طرق البحث غير التدخلية وذلك بتغيير المنظور الفكري الذي من خلاله يُمارس كثير من الباحثين طرق بحثهم.

والأمر في حقيقته، أن ما بعد الحداثة تفترض أنه حدث انتقال من حقبة الحداثة إلى حقبة ما بعد الحداثة، وهي التي يُعرِّفها فريدريك جيمسون Frederic Jameson (١٩٨٤) بوصفها "المنطق الثقافي للرأسمالية الحديثة"، والذي يشكل الصورة السائدة للقوة الاجتماعية. وفي هذه الحقبة الجديدة أصبحنا في مواجهة أشكال وسائل الاتصال التي يتألف منها ما يشير إليه جان بودريار بأنه نوع من "ما فوق الواقع" *hyperreality* والذي أصبح فيه "الواقعي" *the real* و"الخيالي" *the imaginary* مُشوَّشين إلى حد غير مسبوق. ففي مثل هذا السياق، يُصبح من المهم أن نتفحص الجوانب المادية للثقافة، كالنصوص مثلاً (بمعناها الواسع)، والتي يتم تطعيمها من خلال عمليات إنتاجها ونشرها - بعلاقات القوة الخاصة على امتداد التاريخ. ولكن ما الذي يعنيه مفكرو ما بعد الحداثة والمفكرون النقاد من دراسة القوة التي ملئت بها الأشياء حتى نشربتها؟

كان ميشيل فوكو Michel Foucault في طليعة من أثروا على مفاهيم القوة. وقد صاغ فوكو (١٩٧٨) نظرية مفادها أن القوة والمعرفة مرتبطتان ارتباطاً لا انفكاك له، وهو الأمر الذي يخلق شبكة مُعقدة من علاقات القوة - والمعرفة. وموجر القول إن كتاب فوكو يبين أن المعرفة كلها محكومة ببنيتها لأنها يتم إنتاجها داخل مجال من علاقات القوة المتغيرة. لذا يجب على المفكرين أن يستنطقوا النصوص الثقافية لكي يكشفوا عما فيها من

آثار رؤية العالم السائدة والموجودة في طوايا هذه الأفكار المتكررة والموجودة كذلك في "الأمر المسكوت عنها" (وهي الرؤية التي هُمشت أو أسقطت من النص، والتي وفقاً لتعبيرات أفري جوردون Avery Jordon "تسكن" دائماً ما هو موجود في النص). وعلى وجه الخصوص، يقوم الباحثون من أتباع هذا التوجه بدراسة الممارسات الخطابية الكامنة داخل النص، والتي يُقصد بها الأساليب الخاصة باستخدام اللغة داخل ثنايا النصوص. وقد اقترح فوكو طريقة بحث أركيولوجية^(*) للكشف عن كيفية اتخاذ نص ما شكله الحالي (Prior, 1997). وتعتمد هذه التقنية الخاصة على تتبُّع خطوات عملية إنتاج النص وتداوله. ويُبين ستوارت هول Stuart Hall (١٩٨١) أن الهيمنة إنما يتمُّ إعمالها بفعل النصوص الثقافية ومن خلالها. ويواصل هول عرض فكرته ليُبين أن النصوص الشعبية لديها هي الأخرى قدرة على "المعارضة"، وليبين كذلك أن الهيمنة يتمُّ مساءلتها، ومقاومتها، وتحديها داخل النصوص أيضاً. فالنصوص لا تقتصر على تقديم صورة الواقع الاجتماعي، بل تعد كذلك عنصراً فاعلاً في تشكيل هذا الواقع (هول، ١٩٨١) أو تشكيل "ما فوق الواقع". ويؤكد بريور (١٩٩٧) أن بإمكاننا أن "نعرف العالم من خلال ما يتضمنه النص من نظم تصويرية" (ص ٦٧).

ثمة اتجاهات مماثلاً في الرؤية النقدية لعملية بناء المعرفة العلمية الاجتماعية، أسهم في التأثير على الطريقة التي يُفكر بها العلماء في موضوع الحقيقة الاجتماعية، ويتمثل هذا الاتجاه في تطور وظهور فكر ما بعد البنيوية. وقد كان جاك ديريدا Jacques Derrida (١٩٦٦) في موقع الصدارة من هذا التطور. وقد صك ديريدا مصطلح التفكيك، والذي يُعد طريقة للقيام بالنقد الداخلي للنصوص. وحاصل الأمر أن الاتجاه التفكيكي في تحليل النصوص يهدف إلى كشف ما هو مخفيٌ أو مسكوت عنه داخل النص. (ولكنه، وبلغه جوردون "يسكن" النص). ويقوم التفكيك على فكرة أن معنى الكلمات إنما يظهر في العلاقة بين التماثل والاختلاف. ففي أي نص، يتم تأكيد بعض الأمور، كالحقيقة مثلاً، والمعنى، والتأليف/السلطة. ومع ذلك، فإنه يوجد على

(*) أي دراسة عمليات توليد المعرفة عبر مراحل تطورها (المراجع).

الدوام ثمة "شيء آخر" يتعارض مع ما هو مؤكد. وهذا الشيء "الآخر" - الذي تم إسقاطه أو إخفاؤه - يبدو (في الظاهر) غائباً عن النص، إلا أنه في الواقع موجود داخل طوايا هذا النص كـمعنى مختلف أو مؤجل. ومن خلال عملية التفكير يتم الكشف عن هذه المعاني المختلفة والمؤجلة. وبهذا الشكل لا يكون هدف التفكير مجرد العثور على "حقيقة" النص، بل الأصح تحديد الفروض والمسلمات الموجودة داخل هذا النص (كالمعنى، والحقيقة، والتأليف/السلطة) وتقرض لوسي إيريجاري Luce Irigary (١٩٨٥) أن التفكير يمثل أحد وسائل "دفع الآلة الفكرية" (ص ٧٨). وتبين هذه العملية - بصفة أساسية - أن معنى أي نص لا يكون معنى واحداً أو محدداً أبداً.

وإزاء النقد الما بعد الحداثي و المابعد البنيوي لبناء المعرفة، وهو النقد الذي أثر إيجابياً على نمو الدراسات الثقافية، نجد أن كثيراً من الباحثين الكيفيين الذين يستخدمون طريقة تحليل النص اليوم إنما يفعلون ذلك من أجل تقديم تحليل نقدي للنص محل البحث (ينتقد صورة القوة). وقد سبق أن ناقشنا حالاً موضوع التفكير، ونظراً لوجود اتجاهات أخرى كثيرة بإمكان الباحثين أن يأخذوا بها، فإننا سوف نناقش تحليل الخطاب و "القراءات السيميولوجية للنصوص".

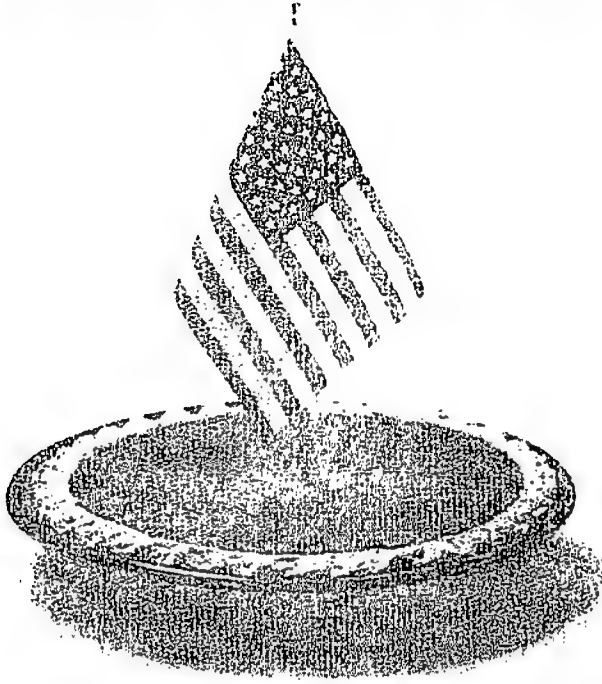
ونتيجة لتأثر تحليل الخطاب بفلسفة ما بعد الحداثة وبالإنثوميثودولوجيا، وبعلم اللغة، أصبح يُعدُّ إستراتيجية يستخدمها الباحث المهتم بالكشف عن المعاني الاجتماعية الموجودة في ثنايا اللغة وفي أساليب الخطاب. وبتعبير آخر نقول: يهتم تحليل الخطاب بعملية التواصل. ويرى فوكو أن أنواع الخطاب هي الممارسات التي تتكون من الأفكار، والإيديولوجيات، والمدلولات referents (أي: الأشياء المشار إليها عبر الرموز) التي تُشكل - بصفة منتظمة - كلاً من الأشخاص والموضوعات المشار إليها في الحديث. ومن ثم فإن أنواع الخطاب تُعدُّ مكوناً من مكونات الواقع الاجتماعي. ويقوم كثير من الباحثين الكيفيين بتحليل الخطاب عند دراستهم للنصوص، قاصدين من ذلك الكشف عن الأفكار المخبوءة في طوايا اللغة المكتوبة. ويستطيع الباحثون أن يدرسوا كيف يتم إنتاج الخطاب السائد

وكيف يتم نشره، وما هي الموضوعات التي يستبعدنها، وكيف يتم إخضاع بعض المعارف داخل هذا الخطاب، وما إلى ذلك. ويرتكز هذا النوع من البحوث إلى أصول تتمثل في الفهم لما بعد الحدائي و لما بعد البنيوي الذي يذهب إلى أن اللغة تعكس القوة. زد على ذلك أن بنية المجتمع كامنة داخل ثانيا اللغة (والأشكال التعبيرية). ويستطيع الباحث الكيفي الذي يقوم بإجراء تحليل الخطاب الوارد في النصوص أن يتبع "النموذج الحلزوني" لبناء المعرفة فيغوص في أعماق النص ويخرج منه قاصداً من ذلك اكتساب فهم أعمق للإيديولوجيا المطوية داخل النص ولكيفية استخدام اللغة في خلق المعاني الاجتماعية.

وتُعدّ القراءات السيميولوجية للنصوص اتجاهاً آخر في التحليل. يذهب رولان بارت Roland Barthes (١٩٩٨) إلى أن التحليلات السيميولوجية لأشكال التعبير تعد جزءاً لا بدّ منه للبحث الاجتماعي. ذلك أن التحليلات السيميولوجية تدرس طريقة بناء المعنى من خلال عملية تحليل الدلالة أو التعبير الضمني. وقد ابتكر بارت نظاماً ثلاثي الأجزاء للوصف التفصيلي للطريقة التي بها يتم تحويل الناس، والأماكن، والأزمنة، والأحداث (وهي الأشياء المدلول عليها the signified) إلى دوال Signifiers (وهي المفاهيم) التي يتم غرسها -حينئذ- داخل حشد من العلامات (أي التعبيرات) (هس-بيير، وليفي، ٢٠٠٤). وتُعدّ هذه العملية الثلاثية الأجزاء - من وجهة نظر المفكر السيميولوجي- هي الطريقة التي بها تُصبح الممارسات التأويلية ذات الطابع الثقافي ممارسات طبيعية، أي تتخذ مظهر الحقيقة عندما يتم تشكيلها في الواقع تشكيلاً اجتماعياً مطابقاً لمعايير المجتمع وقيمه.

إن بإمكان الباحثين أن يحلّلوا العلامات أو التعبيرات المنتجة داخل مجتمع معين بقصد تفكيك عمليات بناء المعنى التي خلقت هذه العلامات. وتجري هذه العملية، عموماً، في إطار البيئة الاجتماعية المحيطة التي تنتج النص و تتداوله. ونعني بهذا الكلام أن الباحثين - إلى جانب قيامهم بتحليل النصوص المعزولة عن سياقها- يستطيعون تحليل كيف يتم بناء المعنى داخل نص معين من خلال وضع الكلمات بجانب الكلمات الأخرى، أو وضع الصور

TIME



شكل ٣/٨

بجانب الصور الأخرى، أو وضع الصور والكلمات معاً. ذلك أن المعنى لا يتم بناؤه من عنصر واحد فقط من عناصر النص وحده، بل كذلك من خلال الطريقة التي تنتظم بها عناصر النص في علاقتها ببعضها (خالقةً بذلك مختلف المضامين أو المعاني). وموجز القول أن التحليلات السيميولوجية للنصوص تركز على كشف العمليات الاجتماعية لصنع المعنى. وبإدخالنا في الاعتبار أن المفكرين المابعد الحداثيين يتصورون وجود "أزمة في التعبير" ناجمة عن التدفق المتلاحق للصور والنصوص في داخل الثقافة الشائعة؛ فإن هذا النوع من البحوث تزداد شعبيته باضطراد، وبالذات بين هؤلاء المهتمين بدراسات وسائل الاتصال. فهنا بنا ننظر في مثال للتحليل السيميولوجي للنصوص.

لو أننا ابتكرنا قراءةً سيميولوجية لغللاف مجلة تايم Time الموجود على الصفحة السابقة، فما الذي يمكن أن يُصوره هذا الغلاف؟ دعنا نبدأ بالصورة: إنها صورة فطيرة قرع عسلي مغروزٍ فيها العلم الأمريكي. فهذه الصورة مؤلفة من صورتين (الفطيرة والعلم) كما أنها تخلق معنى معيناً يربط بين هاتين الصورتين من خلال وضعهما بهذا الوضع. فهاتان الصورتان هما العلامتان (أي: التعبيران) ولكن ما هو المدلول الذي يُستدل عليه من دمج هاتين الصورتين لإنشاء صورة واحدة؟ وما هي الدوال Signifiers (أي المفاهيم) المتضمنة في هذه العلامة (أي هذه الصورة)؟ أمّا العلم الأمريكي فيتضمن مفهوم الوطنية، وبذلك يُشار به إلى الوطنية داخل فطيرة القرع العسلي. ولكن هذا لا يعدو أن يكون مجرد جزءاً من القصة. ذلك أن الوصول إلى فهم كامل يُوجب علينا أن نمنع النظر في هذه الصورة مرتبطة بالكلمات. فقد كان العنوان الوارد تحت هذه الصورة يقول: "عيد الشكر سنة ٢٠٠١: في الأسبوع القادم سوف تقوم العائلات الأمريكية بإعداد موائدها، وعدّ النعم التي لديها، كما سنكتشف إلى أي مدى تغيرت حياتها، وإلى أي مدى لم تتغير؟ من الواضح أن هذه الصورة، ومعها تلك الكلمات (المذكورة بالعنوان)، مقصود منها إثارة المشاعر الوطنية في أول عيد شكر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. فالكلمات والصور تعمل معاً لتخلق معنى معيناً - هو المدلول (الحادي عشر من سبتمبر) الذي يتم اختزاله داخل الدال (وهو هنا مفهوم الوطنية) الذي يتم تقديمه في هذه الصورة التعبيرية (وهي صورة العلم المغروز في فطيرة القرع العسلي). ويرفض أحد الاتجاهات السيميولوجية في تحليل المضمون فكرة المعنى الطبيعي مفضلاً على ذلك القيام باختبار كيف يتم بناء المعنى على أساس ثقافي. فإذا أخذنا نفس صورة العلم الأمريكي المغروز في فطيرة القرع العسلي، ونتصور أن هذه الصورة تم عملها سنة ١٩٩١، أي قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ بعشر سنوات. ماذا لو أن نفس هذه الصورة كان مكتوباً بجانبها الكلمات التالية؟: "الناشط الأمريكي الوطني البارز يتساءل عن المعنى الحقيقي لعيد الشكر".

أما بالنسبة لتصورنا الافتراضي فيكون لنفس الصورة معنى مختلف، فقد رُكِّبت وعُرضت لكي تحمل هذا المعنى المختلف. فبدلاً من أن تثير الشعور بالوطنية الطاغية في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، تهدف هذه الصورة المفترضة إلى استدعاء التأمل العميق في موضوع: كيف تأسست الولايات المتحدة، وفي موضوع الإبادة الجماعية (للهنود الحمر - المترجم)، وفي تساؤل أكثر رقة وحساسية عن الوطنية.

يعمل ليندساي بريور أستاذاً لعلم الاجتماع بجامعة ويلز، في كارديف، وهو مؤلف لكتب متعددة، منها كتاب بعنوان "استخدام الوثائق في البحث الاجتماعي: إنتاجها، واستخدامها، وتداولها". وقد كتب بريور كتابات مستفيضة عما يعنيه استعمال تحليل المضمون، وعما تعنيه دراسة الأشكال غير الحية للبيانات، وعن الركائز النظرية لمتل هذه الدراسة. وهو يعالج هذه القضايا في الفقرة التالية الخاصة بما خلف الكواليس.

خلف الكواليس مع ليندساي بريور

كُنْتُ ولا أزال مفتوناً بالأساليب التي يتمُّ بها ترتيب الفراغات الموجودة داخل المباني، وهو ما يفسر سبب أنني أدرج - دائماً - تصميمات المستشفيات أو المعارح (جمع مشرحة - المترجم) وغير ذلك في دراساتي (بريور ١٩٨٩، ١٩٩٣). فالعناصر التي تتكون منها مقدمة المسرح وكواليسه، والمداخل والمخارج، والمناطق التي يُمكن للنساء فقط دخولها أو يُمكن للرجال تركها، والحُجرات التي تُعدُّ للأطفال وتحدد أين يُمكنهم، أولاً يمكنهم، أن يتعلموا أو يلعبوا أو يناموا.. كل هذه الأمور لها أهميتها القصوى. لذلك، فإنَّ دراسة ترتيب الفراغ المادي الذي فيه يعيش الناس ويعملون يُعد عندي أمراً أولياً هاماً يسبق أي دراسة إثنوجرافية، كما أنني أجد - على الدوام - أن مما يستحق الاهتمام أن أجد التصميم المعماري للمواقع الرئيسية التي يتقرر أن يتمَّ فيها مثل هذا العمل الإثنوجرافي. ويحدث هذا حتى على الرغم من أن المبنى سيُستعمل بطرق لم تخطر ببال من قاموا ببنائه وتشبيده. والحق أن وجوه التشابه ووجوه الاختلاف التي يُمكن ملاحظتها بين طرق استخدام

موقع معين ومقاصد مُصمم هذا الموقع يمكنها في أغلب الأحيان أن تسلط الضوء على التغيرات الأساسية في رؤية الناس للأشياء عبر الزمن. فتصميمات المستشفيات - مثلاً - تبين على وجه التأكيد أبرز التغيرات التي طرأت على مفهوم "المرض" والاعتلال على امتداد العقود. كذلك يمكن ملاحظة مثل هذه التغيرات في أدق التفاصيل، كتحديد مواضع النوافذ في جناح بأحد المستشفيات.

رغم أن الناس يفكرون من خلال الأشياء كما يفكرون من خلال الكلمات، فإن من الأهمية كذلك أن نلاحظ أن الناس يرتبون الأشياء عن طريق استعمال الكلمات وكذلك عن طريق استخدام مقولتي الزمان والمكان، وهو الأمر الذي يُفضي بنا إلى مصدر ضخم آخر من مصادر البيانات العلمية الاجتماعية: ألا وهو الوثائق. وإني لأجد على الدوام أن من الأمور المُحيرة لماذا يعمد الناس عادة -عندما يكونون بصدد إجراء بحث علمي اجتماعي- إلى استبعاد دراسة الوثائق، مفضلين عليها المقابلات الشخصية. ولعل لهذا الوضع صلة بقدمى علماء الأنثروبولوجيا الذين عملوا في مجتمعات كانت الوثائق المكتوبة فيها أمراً مُهملاً أو غير موجود. أنا لا أدري بالضبط. ومع ذلك، فإنه يكاد أن تتضمن كل دراسة للعالم الاجتماعي المعاصر وثائق من نوع ما. وفي البحوث التي أجريتها كانت الوثائق التي تهمني أكثر من غيرها تتمثل في تلك المذكرات والتوصيفات التي يكتبها الأخصائيون الصحيون (أعضاء الفريق الطبي) عن الأفراد الذين يقومون برعايتهم. وأعني بذلك الأمور التي يكتب عنها الأطباء والممرضون عندما يلتقون "بالمريض"، بمن فيهم أولئك المرضى الذين فارقوا الحياة. فكيف يشرح الأطباء الموت - مثلاً - بعبارات رسمية؟ إننا نعلم أنهم يكتبون ذلك على شهادة الوفاة، ولكن كيف يعرفون ماذا يكتبون في تلك الشهادة؟ وما هو نوع الأمور التي لا يمكنهم أن يكتبوها في تلك الشهادة؟ وعادة ما تؤدي أمثال تلك الأسئلة بالمرء إلى دراسة الأنواع الأخرى من الوثائق وهي الوثائق التوليدية، والتي منها على سبيل

المثال قوائم تصنيف الأمراض^(*). وتعد مثل هذه القوائم وغيرها من التصنيفات "الشاملة" ذات قيمة لا تُقدَّر لأهميتها، وذلك لعدة أسباب:

وأول هذه الأسباب أنها تتغير على فترات مُنتظمة، وبذلك يمكن للمرء أن يتتبع التفكير الجاري فعلاً. مثال ذلك أن "الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية" - وهو نشرة تصدرها الجمعية الأمريكية للطب العقلي - يُوثق طرق التفكير في الاضطرابات العقلية منذ سنة ١٩٥٢ وحتى يومنا هذا.

ثانياً: تشكل هذه الوثائق الشاملة الإطار الذي في نطاقه يتصرف الأفراد سواء في الشارع أو في المراكز الصحية. فإذا كان أحد الأمراض العقلية غير مذكور في هذا الدليل فلا يمكن - في هذه الحالة - تشخيصه، ولا يمكن إعطاؤه شهادة طبية، ولا يمكن علاجه. فالأمراض العقلية تدرج ضمن هذا الدليل وترفع منه، مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج تثير الاهتمام. وب نفس الطريقة توجد قائمة دولية (أي تصنيف دولي) للأمراض والحالات التي يمكن أن يموت الناس بسببها. فإذا كانت إحدى الحالات المرضية غير مدرجة في هذه القائمة، فإن الناس - في هذه الحالة - لا يمكن أن يعتبروا قد ماتوا بسببها. ولعلك ستكون سعيداً أن تسمع أن الكبر في السن والفقر غير مدرجين في هذه القائمة.

إذن، فالقضية التي تشغلني هي: كيف يقوم الأفراد بعرض وترتيب أحوال العالم الذي يعيشون فيه في الوثائق، وكيف تستعمل هذه الوثائق، تبعاً لذلك، في التفاعل الاجتماعي. لذلك أجد نفسي تواقاً بصفة خاصة لملاحظة طريقة الأفراد في استخدام وفهم القواعد التي تتضمنها هذه الوثائق (بريور، ١٩٨٩). وكما سبق لي أن بينت في مكان آخر (بريور، ٢٠٠٣)، فإن فكرة استخدام الوثائق وتداولها يمكن أن تشكل موضوعاً أساسياً متكاملًا/أي محورياً

(*) هناك أدلة وقوائم عديدة لتصنيف الأمراض، منها ما هو ذو طابع عام، ومنها المحدود بحدود مجال أو نوع معين من الأمراض. من ذلك الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض العقلية DSMIII، الذي أصدره الاتحاد الأمريكي للطب النفسي عام ١٩٨٠، وقد تم تنقيح هذه النسخة مجدداً في عام ١٩٨٥. كان الدليل الأصلي قد ظهر لأول مرة في عام ١٩٥٢، ثم صدرت نسخة منقحة منه في عام ١٩٦٨. ويحدد هذا الدليل التشخيصي معايير محددة لكل مرض بهدف تمكين الطبيب من التشخيص الدقيق لما يعرض له من حالات. راجع موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، مجلد ٢، ص ٧٢٢. (المراجع)

فكرياً كاملاً للبحث في حد ذاته. مع العلم بأن مثل هذا البحث يمكن أن يتم كله بدون اللجوء إلى إجراء مقابلة واحدة. ومع ذلك، وحتى لو كان المرء موجوداً في صميم التفاعل البشري تماماً، فلا يوجد ثمة داع يلزم الباحث بالقيام بإجراءات تدخلية من قبيل إلقاء الأسئلة على المبحوثين. وبدلاً من ذلك، يستطيع المرء -غالباً- أن يحصل على بغيته من التسجيل المُحكم لهذه البيانات التي تتم بصورة طبيعية في ثنايا الأنشطة الروتينية، وذلك على نحو ما يحدث مثلاً في الدراسات الخاصة بعملية اتخاذ القرار في مجال الصحة (Wood, Prior & Gray, 2003).

في بلفاست، وهي المدينة التي أجريت فيها جانباً كبيراً من دراستي للوفاة والأمراض العقلية، كانت توجد عبارة شاع استعمالها أثناء سنوات السبعينيات والثمانينيات، ألا وهي: "قل ما شئت، ولكن لا تقل شيئاً" (*). فهذه النصيحة بالأقول يقول المرء شيئاً هي نصيحة بالتزام الحذر فلا يكشف عن تفاصيل أموره. وهي نصيحة بالأقول يكشف المرء الكثير عن هويته، أو عن آرائه في الأمور السياسية أو الدينية، أو يجهر برأيه في أي شيء مطلقاً مما قد تبتلع تلك الدوامة الناجمة عن الصراع الطائفي (بين الكاثوليك والبروتستانت) الذي كان يشكل خلفية الحياة اليومية في هذه المدينة. ويمكن القول - في سياق هذا الكتاب - إن هذا الحرص الشديد على ألا يقول المرء شيئاً، إنما هو تذكرة للباحث الاجتماعي بأن طرح الأسئلة على الأفراد قد لا يأتي دائماً بإجابات - أو على الأقل، قد لا يأتي بإجابات صادقة موثوق فيها. والأهم من ذلك، أن طرح الأسئلة قد يكون تذكرة للباحث بأنه حتى لو ظل الناس مُصرين على ألا يقولوا شيئاً، فثمة عالمٌ بأكمله من البيانات المتوفرة في كل مكان حولنا، تنتظر أن يجمعها الباحث ذو البصيرة الحادة والقدرة على الملاحظة المنظمة.

المراجع

- * بريور. ل. (١٩٨٩). "التنظيم الاجتماعي للوفاة. الحوار الطبي والممارسات الاجتماعية في بلفاست". لندن ونيويورك، دار نشر مكميلان وسانت مارتين.
- * بريور. ل. (١٩٩٣). "التنظيم الاجتماعي للمرض العقلي". لندن: سيدج.

(*) Whatever you say say nothing!

* برير ل. (٢٠٠٣). "استخدام الوثائق في البحوث الاجتماعية". لندن: سيدج.
* وود، Wood، و برير، و جراي Gray.J. (٢٠٠٣) اتخاذ القرارات في
عيادة لعلاج سرطان الجهاز التناسلي، مقال في كتاب "المخاطر الصحية
والمجتمع"، ٥ (٢) ص ١٨٥-١٩٨.

البحوث البصرية: الصور الفوتوغرافية، والصور، والبحوث البصرية التفاعلية(*)

بإمكان الباحثين الكيفيين أن يستخدموا أشكال التعبير البصرية باعتبارها نقطة بدء البحث العلمي الاجتماعي. وقد سبق أن ناقشنا استخدام الصور التي تنشرها وسائل الاتصال، كأغلفة المجلات أو الإعلانات مثلاً، فإن وسائل الاتصال ليست إلا مصدراً واحداً للصور المرئية. فجانبا الصور التي تنتجها وسائل الاتصال، يستطيع الباحثون دراسة الصور الفوتوغرافية. وإذا أردنا مزيداً من التفصيل، فإن الباحث يستطيع استخدام الصور الفوتوغرافية المتاحة سلفاً وكذلك تلك التي يتم تصويرها لتتناسب مع هدف البحث (حيث يلتقطها الباحث نفسه أو يلتقطها شخصاً ما يستأجره الباحث). وفي هذا القسم من الكتاب سنناقش هذه الأشكال المختلفة من البحوث البصرية وكيف يتوجب على الباحث أن يفهم الصور في علاقتها بإطارها الإستمولوجي (المعرفي) لكي يصوغ مشروعاً بحثياً متماسكاً بصورة كلية.

عند اشتغالك بالصور الفوتوغرافية وغيرها من الصور المرئية، يتعين عليك أن تُعِن النظر في كيفية فهم - بالمعنى الواسع لكلمة فهم- هذه الصور التي تشغل بها. ويُبين بروسر Prosser وشوارتز Shwartz (١٩٩٨) أن من الممكن فهم الصور الفوتوغرافية بطريقتين مختلفتين: (١) "كتسجيلات أو سجلات بصرية"، و (٢) "كيوميّات بصرية". وهذا التمييز أمر مهم، كما أنه يرتبط أوثق الارتباط بموقفك الإستمولوجي. فإن اخترت أن تعتبر الصور الفوتوغرافية بمثابة تسجيلات أو سجلات بصرية فقد خلعت عليها معنىً من

(*) انظر حول الموضوع المرجع التالي: جان بول كولن وكاترين دو كليبل، السينما الإثنوجرافية. سينما الغد، ترجمة غراء مهنا، مراجعة وتقديم علياء شكرى، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢. (المراجع)

معاني السلطة. فهذا يشبه العبارة القائلة: "إن الصورة تساوي ألف كلمة". فالتسجيل - بمعنى آخر - إنما هو تعبير عن جانب معين من جوانب الواقع الاجتماعي .. فهو جانب من الواقع الاجتماعي تم الإمساك به وفهمه. وإن قررت أن تفهم الصور الفوتوغرافية على أنها يوميات بصرية، فأنت تعني ضمناً أن التصوير الفوتوغرافي عبارة عن وسيط أو أداة يستخدمها الفاعلون المرتبطون بهذه الصور، أولئك الذين التقطوها وأولئك الذين يرونها انطلاقاً من منظورات فكرية معينة. وفي إطار هذا الفهم يستخدم الباحث الصور الفوتوغرافية على نحو أشبه بالذكرات التي يدونها في الميدان على عجل، والتي تنطبع بطابع الموقف الفكري للباحث داخل المشروع البحثي.

وليس حتماً أن يكون أيّ من هذين الاتجاهين اتجاهًا صائباً أو حتى اتجاهًا أفضل من غيره، بل يُضاف إلى ذلك أنهما سيتأثران بالالتزامات المعرفية والنظرية للباحث. شاهد ذلك، أن باحثاً يعمل انطلاقاً من إطار فكري متأثر بفلسفة ما بعد الوضعية ويدرس الصور التي نُشرت عن الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر قد يعتبر تلك الصور الفوتوغرافية بمثابة تسجيلات بصرية التقطت من أجل ذلك المشروع البحثي المعين. وهو بهذا الصنيع، يكون قادراً على أن يفهم هذه الصور بوصفها سجلات مادية لواحد من أشد الأيام ظلمة في تاريخ العالم. ويمكن أن تستعمل هذه الصور الفوتوغرافية "كأدوات لإنعاش الذاكرة". في ظل هذا الإطار الفكري المابعد الوضعي (هس-بيبر، وليفي، ٢٠٠٤، ص ٣١٢). وكما هو معهود، فإن الباحثين الذين يعملون انطلاقاً من المنظورات الفكرية النقدية، كالفلسفة النسوية وفلسفة ما بعد الحداثة، يكون من الأرجح أن ينظروا إلى هذه الصور الفوتوغرافية باعتبارها يوميات بصرية متأثرة برؤيتهم عن صنعها وعن سياق الرؤية.

مثال ذلك، أن باحثاً أخذاً بفلسفة ما بعد الحداثة ومُهِتما بدراسة كيف تمّ بناء المعاني المتصلة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر في الصحف الأمريكية قد ينظر إلى الصور المنشورة في الصحف بوصفها يوميات بصرية. وفي هذه الحالة، يكون من شأن هذا الباحث أن يتعمق في بحث القوة

الاجتماعية المطوية داخل هذه الصور الفوتوغرافية، والدلالات التي تتكون من خلال وضع الصور الفوتوغرافية في أماكن معينة في كل صفحة على حدة وفي الصحيفة ككل، وذلك من خلال وجهة نظر الباحث نفسه وهو ينظر إلى هذه الصور الفوتوغرافية. ومن خلال موضوعة هذه الصور بهذه الطرق، يستطيع الباحث أن يبدأ في إمطة اللثام عن الأفكار المتعلقة بكيفية تكوين الحادي عشر من سبتمبر، وكيفية بثها، وكيفية استهلاكها بطرق خلقت ذاكرة جمعية أساسية لهذا الحدث المهم.

وبدلاً من استخدام الصور الفوتوغرافية المتوفرة سلفاً، يستطيع الباحثون كذلك أن يقوموا بدور المصور الفوتوغرافي ويلتقطوا صوراً فوتوغرافية تقوم بعد ذلك بدور البيانات. وقد يقوم الباحثون المهتمون بدراسة التغير الاجتماعي بعمل المصورين الفوتوغرافيين من أجل توثيق صور الأشكال المختلفة للتغير الاجتماعي ثم تفسيرها بعد ذلك. وقد يحدث ذلك، مثلاً، لدراسة التغيرات المصاحبة لعملية تحضر منطقة معينة، أو لدراسة مدى تأثير التغير الاجتماعي والاقتصادي على إحدى البيئات السكنية، أو أحد المراكز الثقافية، أو على أحد مواقع العمل.

إذا كنت مهتماً بمعرفة أو الكشف عن الطبيعة الدقيقة للتغير، ففي هذه الحالة يُمكن للصور الفوتوغرافية الملتقطة على امتداد فترات زمنية منتظمة من نفس المكان بالتحديد؛ يمكنها أن تكون صوراً كاشفة ودالة. فالتغيرات التي تحدث في الأحياء الأحياء السكنية الحضرية، أو في تنسيق الموقع الطبيعي، أو في محتويات مكان ما، كحالة إحدى الأشجار، أو حالة أحد الحوائط، أو حالة جسم إنسان ما "قبل" و "بعد" أحد التغيرات المهمة، يمكن أن تكون لها قوة وقيمة الشواهد أو قدرة على الإقناع بشرط أن يتم إثبات وقوعها أو الاستشهاد بها بأسلوب ملائم، أو عندما يتم تدوينها بالتفصيل في ضوء اعتبارات الزمان والمكان والملابسات. (Loizos, 2000, p. 96).

كذلك يمكن إجراء البحث التاريخي عن طريق الجمع بين الصور الفوتوغرافية الموجودة سلفاً والصور التي التقطها الباحث بقصد توثيق وتحليل التغير.

ويُصبح التأمل النقدي (الانعكاسية) أمراً لا بد منه عند الاستعمال التقليدي لطريقة بحث غير تدخلية على النحو المذكور هنا. أولاً، لأن هذه حالة نادرة من الحالات التي يكون البحث فيها تدخلياً ولكنه يكون تفاعلياً. إذ أن الباحث يؤثر على الواقع الاجتماعي بحضوره وبالنقاطه للصور الفوتوغرافية. وبالإضافة إلى ما يطرأ على البحث البصري من تحوله من بحث لا تفاعلي إلى بحث تفاعلي، فإن هذه البيانات يتم إنتاجها مباشرة، انطلاقاً من الموقع المتميز الذي يحتله الباحث. وهنا تأمل جيداً قول بول باير Paul Byer (١٩٦٤) الذي يؤكد فيه أن "الكاميرات لا تلتقط الصور [إنما البشر هم الذين يفعلون ذلك]". على أن هذا القول لا يصدق إلا عندما يكون الباحث هو الشخص الذي يلتقط هذه الصور. وهكذا تصبح ممارسة التأمل النقدي، والذي يعني التعمق في البحث مع كشف الباحث لموقعه داخل هذه العملية؛ تصبح أمراً ذا أهمية حاسمة.

دعنا نعد إلى المثال الخاص بالصور الفوتوغرافية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. ولنفترض أنك تريد أن تدرس عملية استعادة أحداث ١١ سبتمبر بعد وقوعها مباشرة و/أو عملية البحث عن الناجين. فإن إحدى طرق القيام بهذا العمل أن تذهب إلى موقع مركز التجارة العالمي وإلى موقع مبنى البنتاجون وتلتقط لهما صوراً فوتوغرافية، والتي تكون في هذه الحالة بمثابة البيانات التي ستعتمد عليها. بل إنه قد يصل بك الأمر إلى أن تعتبر ما التقطته من الصور الفوتوغرافية بمثابة مذكرات ميدانية بصرية. وتوجد طرق أخرى لاستخدام تحليل المضمون بأساليب تفاعلية، ومنها مثلاً طريقة تحليل المضمون باستخدام الكمبيوتر، وهي الطريقة التي سنناقشها في قسم لاحق بهذا الفصل. أما الآن، فهيا بنا نرجع إلى دراسة الصور المرئية بالفعل.

يستطيع الباحثون كذلك أن يجمعوا بين الأساليب الكيفية والأساليب الكمية في التحليل البصري بقصد استجلاء بعض القضايا الاجتماعية، من قبيل قضية "النفقات" في العرض. ويمكن القيام بهذا العمل عن طريق تطبيق طائفة من الرؤى النظرية وإتاحة الفرصة لكثير من الاتجاهات المنهجية.

وقد كان بدرسون Pederson (٢٠٠٢) مهتماً بالتغطية الصحفية المصورة للأبطال الرياضيين والبطلات الرياضيات من طلبة الجامعات. وكان بدرسون، وهو يفهم وسائل الاتصال الجماهيري والرياضة بوصفهما اثنتين من

"أبرز النظم الاجتماعية وأشدّها هيمنة" (٣٠٤)؛ كان بدرسون يريد أن يقارن تغطية الصحافة للألعاب الرياضية الرجالية والنسائية للتعرف على مدى إظهار الذكورية المهيمنة في التغطية الصحافية للألعاب الرياضية. وقد درس بدرسون ٨٢٧ صورة فوتوغرافية أخذت من ٦٠٢ صحيفة اختيرت عشوائياً، كما فحص مقدار ونمط الصور الفوتوغرافية المُقدّمة لتغطية أخبار الأبطال والبطلات الرياضيين. واستعملت هذه الدراسة نوعاً من التحليل الوصفي لهذه الصور الفوتوغرافية من أجل التأكد من بعض المعلومات، والتي منها مثلاً: ما إذا كانت هذه الصور الفوتوغرافية تمثل لقطات ساكنة (للأبطال بعيداً عن الملاعب) أم لقطات حركية (أثناء اللعب)، وهو الأمر الشديد الأهمية في دراسة النوع الاجتماعي و أسلوب العرض في وسائل الاتصال. وقد انتهى بدرسون إلى اكتشاف وجود تفاوت وعدم مساواة في التغطية الصحافية للألعاب الرياضية وفقاً لبعده النوع الاجتماعي، كما يذهب إلى أن التغطية بالصور الفوتوغرافية تُعيد تأكيد الذكورية المهيمنة. وهكذا أتاح استعمال طرق البحث غير التدخلية لبدرسون أن يطرح سؤالاً علمياً اجتماعياً وأن يُجيب عليه، وهو السؤال المتعلق بعدم المساواة الاجتماعية، وهو الأمر الذي ما كان يمكن الوصول إليه دون استخدام هذه الطرق.

فهذا مثال واضح لكيفية استعمال الصور المنشورة في وسائل الاتصال الجماهيري كمطلق للبحث. إلا أنه بمجرد أن تقرر ما الذي تريد دراسته وما هي البيانات التي سوف تستخدمها، يصبح تصميم البحث أمراً حاسماً لتنفيذ الدراسات البصرية. وتتركز القضية الأساسية - فيما يتعلق بتصميم البحث - على عملية التحليل. فلنفترض أنك قررت دراسة الصور التي تنقلها وسائل الاتصال الجماهيري للجمال الأنثوي، وأنت اخترت عينة من مجلات الأزياء/أو مجلات الموضة. فما هي وحدة التحليل في بحثك؟ جرت العادة أن تكون الصور والإعلانات الفردية هي وحدة التحليل الخاصة بهذا البحث. ولكن كيف سيتم تصنيف هذه البيانات البصرية؟ توجد استراتيجيات كثيرة يستطيع الباحثون الكيفيون استعمالها في تصنيف البيانات البصرية. فكما رأينا في مثال بدرسون كانت فئات التصنيف التي يمكن استخدامها هي "اللقطات الساكنة"، و"اللقطات الحركية". وبالمثل، يستطيع الباحثون وضع فئات لتصنيف الصفات المتعلقة بالنوع الاجتماعي، والعرق، وغيرها من الخصائص الاجتماعية.

ويمكن إجراء هذه العملية انطلاقاً من اتجاه يأخذ بمفاهيم النظرية الموثقة، التي فيها تتبثق فئات التصنيف من باطن التحليل، أو - بدلاً من ذلك - يمكن استعمال فئات التصنيف المستقرة في ذهن الباحث سلفاً.

ونقدم فيما يلي تمريناً يهدف إلى إطلاعك على عملية إجراء تحليل مضمون بصري، وذلك على الرغم من أن بالإمكان كذلك تحويله ليناسب تحليل المضمون السمعي البصري. كما يمكن تعديل هذا التمرين ليتناسب مع مجموعات معينة من المهارات، أو يمكن تكيفه بحيث يكون جزءاً من خطة بحث استطلاعي أو تمهيدي.

تمرين على تصنيف الإعلانات

نقترح العمل في هذا التمرين في فرق، كل فرقة من شخصين، لإضافة بُعد الثبات لعملية البحث. وليقم كل فردين بتصنيف ١٠ إعلانات (حيث يمكن استخدام أي عدد من استراتيجيات اختيار العينات). وينبغي على كلا الباحثين أن يتفقا على الشخصية أو الشخصيات الأساسية في الإعلان، ثم يقوم كل واحد منهما، مستقلاً عن الآخر، بتصنيف الخصائص التالية: نوع (ذكر أو أنثى) الشخصية أو الشخصيات الأساسية، وأساس المصادقية، والموقع/ أو المكان، وفئة المنتج، والآراء المطروحة لصالح هذا المنتج. وفيما يلي تفصيلات فئات التصنيف المنقولة بتصرف عن ماك آرثر McArthur ورسكو Resko (١٩٧٥). وهذا التمرين يمكن تحويله وتنفيذه بمعرفة مجموعات أو بواسطة أفراد.

- الشخصية الأساسية: يقصد بالشخصيات الأساسية الأفراد الذين يقومون بدور رئيسي في الإعلان، كما يتضح من عرضها في صورة بصرية بارزة. فإن وُجد في الإعلان أكثر من شخصين من البالغين فاختر منهم من يبدوون محوريين بالنسبة للإعلان (حيث تتجذب إليه عينُ الناظر). فإن لم يكن واضحاً من هما الشخصان الأشد محورية، يمكنك أن تتنقى شخصيات أساسية من كلا الجنسين أو من المجموعة العرقية الممثلة. فإن لم يكن موجوداً سوى شخصيتين فقط من البالغين، فإنه ينبغي إدراج كليهما ضمن إحدى فئات التصنيف.

- أساس المصادقية: عند تحديد من تكون الشخصية الأساسية يتعين عليك أن تتدبر الطريقة التي يجب أن تبرر بها قرارك هذا. وعادة ما يندرج أساس مصادقية الشخصية الأساسية تحت ثلاث فئات كبرى: (١) مستخدم المنتج، و(٢) الحجة، و(٣) الآخر. وتكون الشخصية الأساسية مستخدمة

للمنتج إذا كان قد تمّ تصويرها باعتبارها المستخدم الأساسي للمنتج أو للخدمة المُعلن عنها. وتكون الشخصية الأساسية حُجّةً عندما يتمّ وصفها باعتبار أن لديها المعلومات المتعلقة بالمنتج المُعلن عنه. وتكون الشخصية الأساسية فرداً آخر إذا كان قد جرى إقناعها من قِبَل شخصية محورية أخرى لكي تستخدم هذا المنتج. معنى ذلك، عندما يتمّ تقديم الشخصية الأساسية كزبون محتمل.

• الدور: ينبغي تصنيف الشخصيات الأساسية تبعاً للأدوار الرئيسية التي تقدم فيها، كدور المدرس، أو العامل، أو أحد الوالدين، أو أحد الزوجين، أو الطفل، أو ما إلى ذلك.

• الموقع/أو المكان: ينبغي تصنيف الشخصيات الأساسية وفقاً للمكان الذي توجد فيه، كالمنزل، أو مقر العمل، أو الدكان، أو في الهواء الطلق، أو في مكان لقضاء العطلات، أو المدرسة، أو في حفلة موسيقية، إلى آخره.

• نمط المنتج: ينبغي تصنيف المنتج ضمن الفئة التي تكون أنسب له وأقرب إليه (كأن تكون فئة منتجات التجميل، أو المنتجات الغذائية، أو المنتجات المنزلية، أو منتجات وسائل النقل، أو المنتجات التكنولوجية، إلى آخره).

• براهين الإقناع: (قد تكون بعض هذه البراهين أقرب صلة بالإعلانات السمعية البصرية، لذلك عليك أن تقوم بتكييفها وفقاً لذلك). ينبغي تصنيف البرهان المؤيد للمنتج. وقد يكون هذا البرهان المقدم مستنداً إلى دليل واقعي أو دليل علمي يهدف إلى حث المستهلكين على استخدام هذا المنتج لما فيه من فوائد "مُجرّبة" أو مزايا يتفوق بها على غيره. كما قد يقوم البرهان على آراء تتكون من شهادات شخصية تحث المستهلكين على استخدام هذا المنتج. وفي بعض الحالات قد لا توجد أي براهين لتأييد المنتج، كما أن الإعلان لا يقدم أي دعاوى تؤكد صدقه فيما يتصل بجودة المنتج. وفي هذه الحالة تقتصر الشخصية الأساسية في الإعلان على عرض هذا المنتج أو خلق جوّ حوْلَه.

القلب يدق ٧٢ مرة في الدقيقة

أي: ١٠٠,٠٠٠ مرة في اليوم

أي: ٣٥ مليون مرة في السنة



من القلب إلى القلب
إن خفتان قلبك لهما معجزة دائمة.
وهذا هو السبب الذي جعلنا نصنع
من القلب للقلب الذي يحتوي على
عناصر مفيدة لصحة القلب أكثر مما
هو موجود في أي طعام مكون من
الحبوب. يحتوي على المزيد من
الفوائد للشرايين السليمة، والمزيد
مما يقي من ارتفاع الضغط، ومما
يخفض الكوليسترول: إن كل ملعقة
من هذا الطعام المحمص المكون من
دقيق الشوفان والمجلى بالمسل
موجودة هنا لتقول: إن الحياة
جميلة.
للمزيد من أجل قلبك

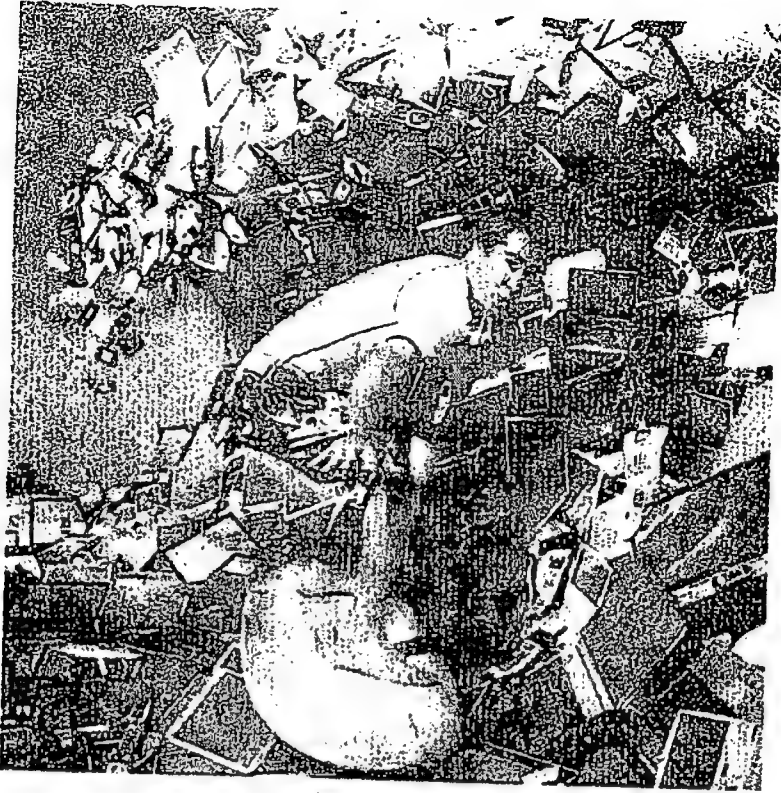
شكل (٤/٨)

وبدلاً من التمرين المذكور أعلاه والذي يتسم بمزيد من التعمق، حاول
أن تحلل إعلانات المجلات التالية، والتي أخذت من مجموعة من المجلات

المُوجَّهة إلى مجموعات سكانية مختلفة. حاول تحليلها مستخدماً التمرين المذكور أعلاه. ثم قم بمحاولة تحليلها انطلاقاً من منظورات فكرية مختلفة. جَرِّب تطبيق اتجاه تفكيكي، ثم قم بقراءة هذه النصوص إنطلاقاً من منظور فكري سيميولوجي لتعرف: ما هي الدلالات التي يعمل هذا الأسلوب في العرض على خلقها عن طريق غرس المفاهيم المستخلصة (كالجمال مثلاً) في هذه العلامات؟ وكيف يقوم المفكر النسوي بتأويل هذه الإعلانات؟ وهل يؤدي استعمالك "لعدسات" مختلفة إلى رؤية هذه الإعلانات وفهمها على نحو مختلف؟



شكل (٥/٨)



شكل (٦/٨)

التحليل السمعي البصري: العمل مع "الميادين المركبة"

هناك كثير من الباحثين من مختلف التخصصات الذين يستخدمون المادة السمعية البصرية باعتبارها البيانات التي يعالجونها. فإن كان الباحث مهتما بدراسة السينما أو التلفزيون فإنه يستطيع أن يقوم بتحليل مضمون للمادة السمعية البصرية. ورغم أن البيانات السمعية البصرية يمكن بحثها كما تُبحث غيرها من الأشكال السردية، فإنها تمثل شكلاً فريداً، ولهذا السبب فإنه يتعين إعمال مجموعة معينة من الاعتبارات. فما يجعل البيانات السمعية البصرية متميزة عن أنواع النصوص التي سبق أن ناقشناها هو أنها تتكون من عناصر مركبة، تشمل عناصر بصرية، وعناصر صوتية، وأخرى حوارية. ويشير "روز" Rose (٢٠٠٠) إلى المادة السمعية البصرية باعتبارها "ميداناً

مركباً" بسبب تميز مكوناتها، وإن كانت مكونات مترابطة. زد على ذلك أن هذه البيانات متحركة.

وعند تصميم البحث باستعمال البيانات السمعية البصرية تظهر اعتبارات معينة. فالقضايا المتصلة باختيار العينات تكون متسقة (أي تجري على نفس المنوال) عند القيام بتحليل مضمون استعمال أي نوع من المادة. فهناك بعض الأمور التي يتعين أخذها في الاعتبار، مثل المجال الذي تختار منه العينات، ومقدار العينات المختارة، ومدى عشوائية اختيار العينات. مثال ذلك، لنفترض أننا مهتمون بالتغطية الإخبارية التلفزيونية للهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر. هنا يتعين علينا أن نقرر أي الشبكات التلفزيونية التي سوف نختار منها العينات. ثم علينا أن نقرر ما الذي سوف نختاره كعينات. وقد نستعمل أسلوب التغطية الشاملة للمادة التي أذيعت خلال إطار زمني معين، كأسبوعين مثلاً. أو يمكننا استعمال التغطية للمادة التي أذيعت خلال ساعات محدّدة من اليوم على امتداد عدد مختار من الأيام. ويمكننا كذلك أن نختار برامج إخبارية معينة، تكون هي بياناتنا التي نعتمد عليها في دراستنا. وفيما عدا قضايا اختيار العينات، قد يتوجب علينا أن نقرر ما هي وحدة التحليل وماذا سيكون الأسلوب المتبع في تصنيف المادة. ذلك أن عملية التصنيف تعدّ واحدة من أهم القرارات عند استخدام البيانات المتحركة.

وكما سلفت الإشارة في الفصلين الأول والثاني يعمد الباحثون في إطار عملية تصميم البحث إلى صياغة سؤال للبحث، وهو السؤال الذي يكون مرتبطاً بهدف البحث. وفي حالة تحليل المضمون للمادة السمعية البصرية، يقوم الباحثون كذلك بصياغة تعريف لنوع التعبير الذي يريدون دراسته. وبعد صياغتهم لتعريف إجرائي، يتوجب على الباحثين أن يقرروا وحدة التحليل وخطة التصنيف، وهي الأمور التي تتسم بقدر من التعقيد بسبب ما تتسم به البيانات السمعية البصرية من طبيعة مركبة متعددة الأبعاد. فهنا بنا نتأمل أحد الأمثلة.

كان راماسوبرامانيان Ramasubramanian و أوليفر Oliver (٢٠٠٣) يريان دراسة صورة العنف الجنسي في الأفلام الهندية. وقد اختارا

هذا الموضوع لأن مُعدّل العنف الجنسي الذكوري المُوجّه للنساء يرتفع في الثقافات التي يُهيمن عليها الذكور، بما فيها الهند. فالتحرش الجنسي العلني ضد النساء، والذي يُشار إليه بمصطلح "استفزاز حواء"، أمر شائع في المدن الهندية. وقد كشف استعراض التراث البحثي المنشور -كذلك- عن وجود عاملين مهمين مسئولين عن ذلك هما:

(١) أنه توجد علاقة بين ما تعرضه وسائل الاتصال من موضوعات عن العنف الجنسي والاعتداء الذي يحدث في الحياة الواقعية و "أساطير الاغتصاب"، وهي الأساطير التي تُضفي شرعية ثقافية على الانتهاك الجنسي للنساء.

(٢) أظهرت البحوث السابقة التي أجريت على الأفلام الهندية أنه كان يتمّ الربط -دائماً- بين العنف والسلوك الجنسي، وأن العنف الجنسي كان يُنظر إليه كأمر عادي مقبول، بل كان يُصوّر أحياناً كأمر "متوقع" في العلاقات الغرامية.

وهكذا قرر راماسوبرامانيان وأوليفر أن يُحلا مضمون الأفلام الهندية حول موضوع العنف والسلوك الجنسي، ومن ثمّ قاما بتحليل صور السلوك الجنسي في الأفلام. وقد بدءا أولاً ببلورة تعريف لنوع التعبير الذي كانا يبحثان عنه. فقاما بمشاهدة عدد من الأفلام كاملة بحثاً عن المشاهد الجنسية الموجودة فيها. وعرفّا المشهد الجنسي على النحو التالي: "هو المشهد الذي يمارس فيه اثنان أو أكثر من شخصيات الفيلم أنشطة كممارسة الجنس، أو التقبيل، أو المعانقة، أو المداعبة الجنسية، أو عرض الاتصال الجنسي، أو التعري، أو الاشتراك في حديث جنسي، أو الاستحمام بطريقة مثيرة للشهوة، أو ارتداء ملابس مثيرة أو كاشفة لتفاصيل الجسد، أو أن تُعرض هذه الشخصيات كموضوع جنسي للتحديق فيه" (٢٠٠٣، ص ٣٣٠).

بعد أن انتهيا من صياغة التعريف الإجرائي لنوع المشهد الذي يبحثان عنه، كانت الخطوة التالية أن يحددا وحدة التحليل. وكانت وحدات التحليل التي حدداها هي الشخصيات والمشاهد الفيلمية. وتمّ تصنيف الشخصيات التي تكلمت وشاركت في المشاهد الجنسية. وكانت طريقة التصنيف هنا وفقاً للنوع

(ذكر/أنثى) ولنمط الدور الذي تلعبه الشخصية. وبعد ذلك، تم تصنيف سمات الشخصيات، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد مشاهدة الفيلم كاملاً. وقد تم تعريف المشاهد بأنه "فعل متواصل يتم في مكان واحد باعتباره موقفاً واحداً أو وحدة من وحدات الحوار في الفيلم" (٢٠٠٣، ص ٣٣٠). ثم زيدت المشاهد الجنسية تفصيلاً إلى فئتين هما: (١) المشاهد الجنسية التي يتم فيها الفعل الجنسي برضاء الطرفين، و (٢) المشاهد الجنسية المتسمة بالعنف. وكانت طريقة تصنيف المشاهد تتكون من قائمة بالمتغيرات التي اعتبرها الباحثان ذات صلة بهذا الموضوع. وكانت فئات التصنيف تشمل: النوع الاجتماعي، ودور الشخصية (في الفيلم)، ووجود العنف الجنسي، ومدى حدة العنف الجنسي (ابتداءً من الدرجة المعتدلة وانتهاءً بالدرجة الحادة، بما في ذلك البدء بدرجة التحرش وينتهي بدرجة الاغتصاب)، والجناة الرئيسيين والضحايا الرئيسيات ومدى هزلية/ أو جدية المشهد.

وقد أوضحت نتائج بحثهما أن عدداً لا يستهان به من المشاهد الجنسية في الأفلام الهندية تحتوي على عنف جنسي بصرف النظر عن الجمهور المستهدف من عرض الفيلم (بمن فيهم من يعدون أطفالاً دون سن الثانية عشرة). يُضاف إلى ذلك أنه تكاد الإناث أن يكنَّ وحدهن ضحايا العنف الجنسي الصادر من الرجال. أما الأمر الأشد إزعاجاً، فهو أن الطريقة التي يُصوَّرُ بها العنف الجنسي تجعل منه أمراً طبيعياً وعادياً. إذ لا يمارس العنف الجنسي "الفتيان الأشرار" فقط، بل يمارسه كذلك أولئك الذين يتم تصويرهم باعتبارهم أبطال الفيلم. فالعنف الجنسي يُعرض بوصفه علامة على الذكورة.

ومع أننا استعرضنا الطريقة التي بها قام هذا المشروع المحدد ببلورة تعريف لأنواع التعبير قيد البحث، ثم قام بتحديد وحدة التحليل، وصمَّم خطة لتصنيف المادة، فإنه توجد طرق أخرى لتحديد وحدة التحليل وإستراتيجية التصنيف.

ومع أن طريقة استعمال تغيُّر المشهد طريقة شائعة بين دارسي الأفلام السينمائية وبرامج التلفزيون، فإن طريقة تغيير لقطة الكاميرا تُعدُّ اختياراً آخر. يُضاف إلى ذلك أن بإمكان المرء أن يحدد وحدات التحليل اعتماداً على

نظام ذي إطار زمني معين. وقد يكون ذلك مناسباً في مثالنا عن دراسة التغطية الإخبارية لأحداث ١١ سبتمبر. وهنا قد تختار وحدة التحليل كل خمس دقائق من فترة التغطية مثلاً. ويساعد على تحديد "وحدة التحليل" الملائمة نوعية البيانات السمعية البصرية المستخدمة (أي الأفلام، ونشرات الأخبار، وما إلى ذلك) وكذلك الارتباط بأهداف البحث.

أما فيما يتصل بعملية التصنيف فيمكن استعمال استراتيجيات مختلفة للقيام بها، وذلك اعتماداً على مدى ما ستؤول إليه الدراسة من حيث كونها دراسة استنباطية أم دراسة استقرائية. ومن المفيد هنا أن نفكر في الأسلوب الاستقرائي والأسلوب الاستنباطي بوصفهما قطبين على طرفي متصل واحد، وليساً بديلين يتعين اختيار أحدهما دون الآخر. ومن الممكن صياغة فئات التصنيف، كالفئات المستعملة في هذه الدراسة عن الأفلام الهندية، وذلك قبل البدء بتحليل البيانات. وفي هذا الاتجاه الاستنباطي يكون أمام الباحث - قبل أن يبدأ بحثه - مجموعة من طرق التصنيف التي يبحث عنها ليختار من بينها. وعند استعمال هذا النوع من الاستراتيجية، يكون من المفيد مساهمة باحثين آخرين في صياغة قائمة فئات التصنيف هذه. يُضاف إلى ذلك أن من الممكن تعزيز الصدق والثبات عن طريق قيام مصنفين متعددين بتصنيف نفس البيانات، وهو ما حدث في الدراسة الخاصة بالأفلام الهندية، حيث قام شخصان - كل على حدة - بتصنيف مجموعة البيانات، ثم جلسا معاً ليناقشا نقاط الاختلاف والتضارب بينهما، حتى وصلا إلى إجماع. فإذا استعملت قائمة فئات تصنيف جاهزة، فإننا نقترح إضافة فئة مثل "آخر/و آخرون" أو "متنوع" في حالة ما إذا وجدت معلومات إضافية ذات صلة في البيانات التي لم تأخذها في الحسبان قبل تحليل البيانات. وتتوقف الفائدة المرجوة من هذا التصنيف الإضافي على مدى خدمته لأهداف البحث. ومن الاعتبارات الأخرى التي تحدد ذلك مدى رغبتك في أن تكون قادراً على تكرار هذه الدراسة والوصول إلى مستوى التعميم. وكذلك يستطيع الباحثون أن يدمجوا الاستراتيجية الاستنباطية بالاستراتيجية الاستقرائية. مثال ذلك، أن الباحث يستطيع أن يحدد بعض فئات التصنيف قبل القيام بالتحليل - ثم يقوم - وأثناء اشتغاله بالتحليل، بتعديل هذه الفئات. وقد يتضمن هذا الإجراء حذف أو استبعاد بعض فئات التصنيف التي لم يعد يراها مناسبة، والإبقاء على الفئات التصنيفية القائمة على

لغة البيانات قيد البحث، وإضافة فئات جديدة لتصنيف المعلومات التي لم يكن معروفاً قبل ذلك أنها موجودة، أو القيام بأي توليفة من فئات التصنيف المشار إليها.

وعلى الجانب الاستقرائي من هذا المتصل يستطيع الباحثون أن يبتكروا فئات تصنيفية أثناء قيامهم بتحليل وتفسير البيانات. ويمكن القيام بذلك بالاستعانة بالنظرية الموثقة، أو باستعمال ما يشبهها من النموذج الحزوني الذي يتضمن الغوص داخل البيانات ثم الخروج منها، والذي شرحناه في موضع سابق من هذا الفصل. وفي هذه الحالة تتبثق أو تتبلور فئات التصنيف بصورة مباشرة من واقع البيانات. وبهذا الشكل، يقوم الباحث بتحليل جزء من البيانات ويصوغ فئات التصنيف المبنية على ما هو موجود في البيانات، مستعملاً في أغلب الأحيان لغة النص نفسه كفئات للتصنيف. وباستعمال الباحث لبعض الفئات المناسبة، يعود أدراجه بين تفاصيل البيانات، ثم يراجع بعد ذلك جزءاً آخر من تلك البيانات ليرى ما إذا كانت هذه الفئات التصنيفية "صالحة تماماً" وتضيف شيئاً جديداً في حدود ما تتيحه البيانات. وقد يبدأ الباحث بفئات تصنيفية حرفية شديدة التحديد، وفي أثناء هذه العملية يُطوّر فئات تصنيف أوسع نطاقاً، أو "فئات كبرى" تقع في نطاقها الفئات الفرعية. ومن الممكن أن نسلك الطريق المعاكس - وإن كان ذلك أقل احتمالاً - حيث تبدأ بفئات التصنيف الكبرى ذات القاعدة العريضة، وعندما تعود إلى البيانات تتأملها، فمن الممكن أن تتفح فئاتك التصنيفية، وأن تضيف الجديد من الفئات الأشد تحديداً.

إن اختيار استراتيجية التصنيف - خاصة في حالة تعقّد العمل مع ميدان مركّب ومتعدد الأبعاد - سوف يتوقف على طبيعة أهداف البحث وعلى الصياغة النظرية لموضوعه. فالمكونات المنهجية والمعرفية (الإبستمولوجية) لمشروع البحث ينبغي أن تكون متناسبة مع بعضها ومترابطة بأقصى ما يمكن من الأحكام.

وهناك قضية أخيرة يتعين أخذها في الاعتبار أثناء مراحل التصنيف، والتحليل، والتفسير، وعرض النتائج، ألا وهي: قضية الترجمة. فجميع أنواع البحوث الكيفية تقدم قدراً هائلاً من البيانات، مثلها في ذلك مثل "الوصف المكثف" الشائع في البحوث الإثنوجرافية، وكذلك مئات بل آلاف الصفحات

التي يتم إنتاجها باستعمال مختلف طُرُق المقابلات. فهذه البيانات تتعرض بعد ذلك لعملية اختزال بمقتضاها تُختَصَرُ المقادير الضخمة من البيانات، بحيث يمكن لهذه البيانات أن تحكي قصة ما أو تبين جانباً معيناً من جوانب الحياة الاجتماعية. كذلك يتطلب تحليل مضمون المواد السمعية البصرية إجراء عملية اختصار. مثال ذلك أن الباحث لا يقوم فعلاً بإعادة تقديم كل ما تمت دراسته من عروض التليفزيون والأفلام بتمامها، فالمرء لا يحتاج للبحث لمجرد أن يقدم هذه المادة بنفس الوضع التي هي عليه. والفارق الأساسي بين اختصار البيانات السمعية البصرية وغيرها من أشكال البيانات الكيفية، هو أن عملية ترجمة المواد السمعية البصرية تصبح لازمة عند انتقالنا من وسيط إلى وسيط آخر (روز، ٢٠٠٠). ففي الأمثلة الأخرى التي سبق أن عرضنا لها تكون البيانات الأصلية في صورة نصوص، وكذلك تكون المعرفة الناتجة عنها في صورة نصوص مكتوبة. أما في حالة البيانات السمعية البصرية فإننا ننقل من الصور المتحركة، والصوت، والكلمات إلى الكلمات المكتوبة فقط. وبهذا الشكل نقوم - بالإضافة إلى اختزالنا أو تبسيطنا للمقدار الضخم من البيانات السمعية البصرية - نقوم كذلك بترجمتها، كما لو كنا نترجمها إلى لغة أخرى. لذلك ينبغي على الباحثين أن يكونوا على دراية بهذا الأمر وهم يعملون عقولهم في تقديم أفضل تفسير وأفضل طريقة لعرض نتائجهم. وهذا سبب آخر يبين الأهمية البالغة لتوضيح استراتيجيات التصنيف.

تحليل المضمون باستخدام الكمبيوتر

هل هو طريقة غير تدخلية، وكيف يمكن القيام به بما يتفق مع الأخلاق؟

يتمثل أحد التطورات الحديثة في تحليل المضمون في استعمال البيانات القائمة على الكمبيوتر. ولما كان هذا النوع من البيانات شبيهاً بالبيانات السمعية البصرية، فإنه يبدو في صورة ميدان مركب متعدد الأبعاد (وإن كان هذا لا يحدث في سائر الأحوال). فالبيانات القائمة على الكمبيوتر تكون من نوعية شديدة التفرد، كما أنها تثير مجموعة خاصة بها من القضايا الخلافية،

لأنها تقوم - في نفس الوقت - بدفع ممارسة البحث الكيفي في اتجاهات جديدة أثناء إثارتها للأسئلة القديمة العهد المتصلة بالأخلاقيات.

ونلاحظ أولاً أنه يُمكن لتحليل المضمون باستخدام الكمبيوتر أن يكون طريقة غير تدخلية، ولكنه ليس كذلك فقط بالضرورة، إذ من الممكن أن يكون طريقة تدخلية أيضاً. وحتى عندما تكون هذه الممارسة غير تدخلية، قد تتور بعض الهواجس الأخلاقية التي لا نجد لها وجوداً عند استخدام الأشكال الأخرى من تحليل النصوص. فكثيراً ما يتم الحصول على بيانات الكمبيوتر من مختلف مواقع الإنترنت، ومن صفحات الرسائل المفتوحة message boards، ومن غرف الدردشة. فهنا بنا نلقي نظرة على مواقع شبكة الإنترنت وعلى صفحات الرسائل أولاً.

وتعتبر مواقع شبكة الإنترنت وصفحات الرسائل المفتوحة (حيث يستطيع الأفراد أن يرسلوا رسائل تكون متاحة لأي إنسان يدخل هذا الموقع)؛ تعتبران من أشكال البيانات المستمدة من الكمبيوتر. وقد تكون مواقع الشبكة عبارة عن ميادين مركبة تضم من بين ما تضم الرسوم البيانية والكلمات، كما ينبغي تصنيفها على هذا الأساس. أما صفحات الرسائل فتقوم أساساً على النصوص، كما هو الحال بالنسبة لأي رسائل. فإن كنا مهتمين بالذهاب إلى إحدى صفحات الرسائل المفتوحة لدراسة ردود أفعال الناس على قضية مارتا ستوارت Martha Stewart وما كان فيها من قرار المحلفين وحكم القاضي، فإن بإمكاننا ببساطة أن ندخل إلى أحد المواقع ونطبع المادة التي يتضمنها. وعندئذ يكون بالإمكان تحليل هذه البيانات النصية (أي المكتوبة) باستعمال ما سبق مناقشته في هذا الكتاب من التوجهات الفكرية المختلفة. ويُعدُّ هذا النوع من البحث بحثاً غير تدخلية، كما أن المعلومات الموضوعة على صفحات الرسائل الموجودة على مواقع الشبكة قد وضَّعها أفراد يعلمون أن من الممكن أن يطلع عليها أي إنسان، كما أن من الممكن لأي أحد أن يستعملها. فهنا بنا نلقي نظرة على أحد الأمثلة الخاصة باستعمال هذا النوع من البيانات.

اهتم هارمون Harmon و بورنجر Boeringer (١٩٩٧) بالتعرف على المحتوى (أو المضمون) الجنسي على الإنترنت. فأشكال الصور الإباحية

الموجودة على الشبكة تُعتبر أشكالاً جديدة نسبياً. ولهذا قررا القيام بتحليل مضمون هذه المواقع كنوع من البحث الاستكشافي. وبعد استعراض أولي لمواقع الإنترنت قررا اختيار ٢٠٠ "رسالة" Postings من أحد مواقع الشبكة تكون ذات محتوى جنسي مكشوف. وتشير الرسائل إلى المعلومات (أي التعليقات وما إليها) الموضوعية على هذا الموقع. وقد قرر الباحثان أن أربعة من الرسائل غير قابلة للاستخدام، ومن هنا انتهيا إلى عينة قوامها ١٩٦ رسالة جُمعت على امتداد فترة أسبوعين. ثم قاما باستخدام إحدى طرق التحليل التفصيلي لهذه الرسائل سطوراً سطوراً مستخدمين في ذلك فئات تصنيف تم تطويرها باستخلاصها مباشرة من هذا النص. وعمداً في تحليلهما هذا إلى تخصيص فئة تصنيفية لكل سطر من سطور النص مثل: "ممارسة الجنس مع الأطفال" وغير ذلك من أنواع الانحرافات "الفنتزية" (*). وعندما فرغا من عملية التصنيف دُهِلَا من وجود التعبيرات الغريبة التي ليست محل اتفاق عام والموجودة بكثرة في هذه الرسائل.

وقد بلغت عملية البحث ونتائجه من الإزعاج حداً جعل أحد الباحثين يسعى للحصول على نوع من "الإذن المهني" من أحد المستشارين الجامعيين، الأمر الذي يبين أن الباحثين الذين يستعملون طريقة تحليل المضمون معرضون لمواجهة بعض المآزق الانفعالية التي يواجهها الباحثون الميدانيون وغيرهم من الباحثين الكيفيين. مثال ذلك، أن باحثاً لتحليل المضمون يدرس تصوير بعض الأحداث المأساوية، كأحداث ١١ سبتمبر مثلاً، قد يعاني مشكلات انفعالية أو سيكولوجية تعزى -عادة- إلى ممارسة الطرق التفاعلية، كالإثتوجرافيا. لذا ينبغي أن ينتبه الباحثون لهذه الأمور وهم يختارون موضوعات بحوثهم.

وتُعد الدراسة التي قام بها هارمون و بورنجر مثلاً ممتازاً لاستعمال تحليل المضمون الكيفي كطريقة لتناول البيانات في أحد الميادين الجديدة. ويُعد

(*) fetishes: وهي هنا تشير إلى معنى خاص هو الانحرافات الجنسية التي تتمثل في تركيز الشهوة الجنسية على عضو من الجسد، أو على شيء له صلة به، كالملابس، والجوارب، والأحذية، إلى آخره. (المراجع)

الشكل الكمبيوتر للبيانات، في الواقع، جزءاً مما يتم دراسته. ذلك أنه يمثل طريقة بحث تستعمل البيانات القائمة على الكمبيوتر بأسلوب يتوافق مع مبادئ البحث غير التدخلية. ومع ذلك، توجد أشكال أخرى للبيانات القائمة على الكمبيوتر والتي قد تتجاوز هذه القواعد، مما يثير عدداً كبيراً من الاعتبارات الأخلاقية.

ويستطيع الباحثون الكيفيون أن يدرسوا التفاعل الجاري فعلاً باستعمالهم لغرف الدردشة كموقع للحصول على البيانات الاجتماعية. والأمر المثير للاهتمام فيما يتصل ببيانات غرف الدردشة هو أنه رغم أنها تُعتبر "حوارا" إلى الحد الذي يجعل الأفراد المتعددين يكتبون ردود أفعالهم فيها بأسلوب سلس متدفق، فإنها مع ذلك لا تماثل الحديث المباشر وجهاً لوجه. فالناس يكتبون بطريقة مختلفة عما اعتادوا أن يتكلموا به (بما في ذلك أنهم يكتبون على نحو أبطأ من الكلام). وبالمثل، لا يستطيع الأفراد في غرف الدردشة أن يروا بعضهم بعضاً، كما أنهم يستخدمون هويات مُجهّلة ناجمة عن هذه التكنولوجيا. فمن المعهود هنا أنك لا تعرف في الواقع - إلى من تتحدث في غرفة الدردشة (من حيث نوعهم الاجتماعي، وسنهم، وما إلى ذلك). وبمقدور الباحثين الذين يستعملون البيانات المُستمدة من المناقشات التي تدور في غرف الدردشة أن يقوموا بعملهم بأسلوبين: إما كملاحظين أو كمشاركين (وهو الأقرب شَبْهاً بما يحدث في البحث الإثنوجرافي). فهناً بينا تلقي نظرة على الأسلوب الأول في البداية.

بإمكان الباحث أن يلاحظ مناقشات غرف الدردشة ويقوم بتحليل الخطاب (مان Mann و ستيرورات Stewart، ٢٠٠٠). وتظهر بيانات غرف الدردشة كنص مكتوب سطرًا سطرًا، وذلك على الرغم من أن البيانات تتكون في صورة حوار دائر بين طرفين بوساطة الكمبيوتر. وفي هذا النوع من البحوث يقوم الباحثون بدور "البصّاص أو مُختلس الرؤية" "Voyeur" إلى التفاعل (مان و ستيرورات، ٢٠٠٠). فالباحث يمكنه أن يُخفي وجوده عن المتحاورين، وسوف يمضي الحوار بصرف النظر عن البحث، وبذلك يكون الباحث مُحافظاً على مبادئ البحث غير التدخلية. ومع ذلك، فإن هذا النوع من البحث القائم على اختلاس الرؤية يثير بعض القضايا الأخلاقية فعلاً. من تلك

القضايا: ما هي الدلالات المترتبة على متابعة حوارات بغرض البحث؟ وهل من الصواب بالنسبة للأفراد الذين يشاركون في مناقشات غرف الدردشة أن تُستعمل تلك المعلومات بدون الحصول على موافقة صريحة منهم؟ وهل من الممكن الحصول على الموافقة الصريحة في حالة دراسة إحدى غرف الدردشة في حين يدخل الأفراد هذه الغرفة ويخرجون منها بشكل روتيني؟ وبالمثل، إذا كان بمقدور المشاركين في غرف الدردشة أن يتخذوا لأنفسهم هويات زائفة، فكيف للباحث أن يعرف ما إذا كان يوجد فيهم أفراد قُصّر (لم يبلغوا سن الرشد) أم لا؟ تلك بعض القضايا التي يتوجب على المرء أن يُمعن النظر فيها عند التفكير في هذا النوع من البحوث.

ويمكن للباحثين كذلك أن يكشفوا عن شخصياتهم، وبهذا الشكل يمكنهم أن يشاركوا - إلى حد ما - في نقاش غرف الدردشة. وفي المقابل يُمكن للباحثين أن يشاركوا في نقاش غرف الدردشة، وهنا تصبح هذه المشاركة جزءاً من النص الذي سيستعملونه كبيانات لهم، وذلك بدون أن يكشفوا هم عن شخصياتهم. وفي هذه الحالة لا يبقى البحث بحثاً غير تدخلٍ، إذ بات الباحث يؤثر تأثيراً مباشراً على تطور هذه البيانات. ويثير هذا التصرف قضايا تتعلق بالأخلاقيات، والسرية، والإفصاح، وتأثير الباحث على نتيجة البحث، وهي القضايا التي يتوجب إمعان النظر فيها بدقة بالغة.

ونظراً لأن التكنولوجيا القائمة على شبكة الإنترنت آخذة في التزايد، فمن المرجح أن تظهر البيانات المستمدة من الكومبيوتر في أشكال وتوزيعات أكثر عدداً مما هي عليه. وعليه يبقى تحديد مدى إمكان دراسة البيانات الأحدث بطريقة غير تدخلية تكون - في نفس الوقت - ملتزمة بالأخلاقيات؛ يبقى في حاجة إلى مزيد من النظر. إذا اتفقنا على ذلك فإن اتباع المبادئ الأساسية للبحث الملتزم بالأخلاقيات - على نحو ما بينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب - سوف يساعد الباحثين الكيفيين على شق طريقهم والتقدم في هذه المجالات الجديدة، من خلال طرح عدد كبير من الأسئلة العلمية الاجتماعية والإجابة عليها.

* * *

خاتمة

نرجو أن يكون هذا الفصل قد زدك بقدر من المعرفة عن جانب من الطرق الكثيرة التي يستطيع بواسطتها الباحثون الكيفيون القيام بدراسة النصوص كمنطلق للبحث أو كجزء من خطة بحث متعدد الطرق. والميزة الرئيسية للعمل بالبيانات غير الحية هو أنها تُتيح لنا أن نتجاوز نطاق الإحساسات التي يشعر بها الأفراد تجاه الموضوع، وهي الإحساسات التي رغم أهميتها الشديدة - لا تشكل المنطلق الوحيد لبناء المعرفة. فعن طريق استنطاق النصوص انطلاقاً من تشكيلة متنوعة من المواقف المعرفية (الإبستمولوجية) والنظرية يستمر العلماء الاجتماعيون في طرح المزيد من أسئلة البحث وفي تقديم رؤى جديدة بشأن الحقيقة الاجتماعية والواقع الاجتماعي.

* * *

تعريف بالمصطلحات

- **تحليل المضمون**
• **Content Analysis**
هو التحليل المنظم للنصوص.
- **البحث التفاعلي**
• **Interactive Research**
عندما يؤثر الباحث على الحقيقة الاجتماعية بسبب حضوره (كأن يلتقط صوراً، مثلاً)، ومن ثمّ تقدم البيانات انطلاقاً من الموقع المتميز الذي يحتله الباحث مباشرة.
- **النموذج الخطي**
• **Linear Model**
هو طريقة لتصميم البحث يكون فيها لدى الباحث مجموعة محددة سلفاً من الخطوات التي تلتزم مساراً رأسياً تتتابع خلاله كل خطوة من خطوات عملية البحث.
- **كتابة الحواشي والملاحظات**
• **Memo Writing**
طريقة يستعملها الباحث الذي يتبع النموذج الحزوني في تصميم البحث كأسلوب لتأويل البيانات والتفكير فيها أثناء مضيه قُدماً في خطوات البحث.

• النموذج الحلزوني Spiral Model •

هو طريقة من طرق تصميم البحوث التي تتيح للباحث - لو استعملنا لغة المجاز - أن يغوص داخل البيانات ويخرج منها وهو ماضٍ في عمله لتنفيذ خطوات البحث. وفي هذا النموذج يقوم الباحث بتوليد رؤى ومفاهيم جديدة ذات مستويات مختلفة من التحديد والخصوصية، وذلك أثناء كل مرحلة من مراحل المشروع. كما يقوم الباحث في هذه الطريقة باستخدام هذه المعلومات في الرجوع مرة ثانية إلى البيانات والحصول على المزيد من المعلومات.

• الترجمة Translation •

هذه هي العملية التي يتم فيها اختصار الكم الكبير من البيانات النصية (المُسجَّلة على هيئة كتابات). وفي حالة تحليل النصوص البصرية أو النصوص السمعية البصرية، يشير مصطلح الترجمة إلى تدوين البيانات الموجودة في أحد هذين الوسيطين (الوسيط البصري أو وسيط الصور المتحركة) في هيئة كلمات، كما لو كنا نترجم هذه البيانات من لغة إلى لغة أخرى.

* * *

أسئلة للمناقشة

- ١- كيف أثر نمو الدراسات الثقافية وما بعد الحداثة في استعمال طريقة تحليل المضمون؟ ما هي أوجه الالتقاء بين هذه الأنواع من التراث النظري وهذه الطريقة المنهجية، وخاصةً فيما يتصل بطبيعة المعرفة وبنائها؟
- ٢- ما هو الأمر الفريد في الاشتغال بالبيانات غير الحية؟ وكيف تؤثر هذه البيانات على أسئلة البحث وعلى المعرفة الناتجة عنها؟
- ٣- ما معنى القول بأن تحليل المضمون يُعد "تقنية مُهجنة"؟ كيف يمكن ربط الاتجاهات الكيفية بالاتجاهات الكمية في مجال تحليل المضمون؟ وما هي مزايا هذا الربط؟
- ٤- اشرح الفرق بين الاتجاه الخطي (الكمي) والاتجاه الحلزوني (الكيفي) في تحليل المضمون.

- ٥- ما هي القضايا الخاصة التي تثار عند استعمال البيانات البصرية والبيانات السمعية البصرية؟ اشرح عملية "الترجمة" التي تحدث عندئذ.
- وما هي الاستراتيجيات المختلفة الخاصة بمعالجة هذا النوع من البيانات؟
- ٦- ناقش الممارسات حديثة الظهور في مجال طرق البحث غير التدخلية؟ وما هي القضايا الأخلاقية التي تثيرها تلك الاتجاهات الجديدة؟.

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- **Cultural Studies Central** مركز الدراسات الثقافية

<http://www.culturalstudies.net/>

يوفر هذا الموقع فرصة التعلم التفاعلي، فبوسعك المشاركة في مناقشات إلكترونية (عبر النت). ويقدم هذا الموقع وصلات لمشروعات الشبكة الثقافية، ووصلات أخرى عديدة متصلة بهذا الميدان. ونعتقد أن هذا الموقع يتيح للمشاهد طائفة واسعة من الاختيارات.

- **Cultural Studies Study Group** مجموعة الدراسات الثقافية

<http://members.tripod.com/~warlight/>

يبدو أن هذا الموقع مملوك لجهة خاصة ولكنه يقدم مناقشات، ومقالات، ووصلات لمختلف أنواع الدراسات الثقافية، كالدراسات الثقافية عن الشباب، والاتصال الجماهيري، والثقافة الجماهيرية (الشائعة).

- **The Critical and Culrural Studies Division of NCA** قسم الدراسات النقدية والثقافية بـ NCA

<http://www.vcsun.org/CCS/>

يبدو هذا الموقع مناسباً ومفيداً لمن يبحثون عن معلومات عن الدراسات الثقافية. وتنتشر هذه المؤسسة نشرة دورية، كما ينظم اجتماعات ومؤتمرات عن هذا الميدان. كما يتضمن الموقع عدداً من الوصلات المرتبطة بالموضوع.

- **Cognitive Cultural Studies** الدراسات الثقافية المعرفية

<http://cogweb.ucla.edu/>

يصدر هذا الموقع عن جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس، ويقدم للمشاهد

مواعيد عقد المؤتمرات، والندوات، والأوراق البحثية المرتبطة بالميدان. كما يحوي الموقع قوائم ببليوجرافية شاملة، بما في ذلك وصلات للمزيد من المعلومات.

* * *

المراجع Reference

- Barthes, R. (1998). Myth today. In S. Sontag (Ed.), *A Barthes reader* (pp.93-149). New York: Hill and Wang.
- Bauer, M. (2000). Classical content analysis: A review. In M. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image and sound* (pp. 131-151). London: Sage.
- Byers, P. (1964). Still photography in the systematic recording and analysis of behavioral data. *Human Organization*, 23, 78-84.
- Derrida, J. (1966). The decentering event and social thought. In A. Bass (Trans.), *Writing the difference* (pp. 278-282). Chicago: University of Chicago Press.
- Foucault, M. (1978). *The history of sexuality: An introduction, volume 1*. New York: Vintage Books.
- Gooden, A. M., & Gooden, M. A. (2001). Gender representation in notable children's picture books: 1995-1999. *Sex Roles: A Journal of Research*, 13, 89.
- Hall, S. (1981). Notes on deconstructing "the Popular." In J. Storey (Ed.), *Cultural studies & the study of popular culture*. Athens: University of Georgia Press.
- Harmon, D., & Boeringer, S. B. (1997). A content analysis of Internet-accessible written pornographic depictions. *Electronic Journal of Sociology*, 3 (1). Retrieved from <http://www.sociology.org/content/v01i003.001/boeringer.html>.
- Hesse-Biber, S., & Leavy, P. (2004). (Eds.) *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Iedema, R. (2001). Analysing film and television: A social semiotic account of *Hospital: An Unhealthy Business*. In T. van Leeuwen & C. Jewitt (Eds.) *Handbook of visual analysis* (pp. 183-204). London: Sage.
- Irigaray, L. (1985). The power of discourse and the subordination of the feminine. In . Porter & C. Burke (Trans.), *This sex which is not one* (pp. 68-85). Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Jameson, F. (1984). Postmodernism, or, the cultural logic of late capitalism. *New Left Review*, 146, 59-92.
- Lauzen, M. M., & Dozier, D.M. (2002). You look mahvelous: An examination of gender and appearance comments in the 1999-2000 prime-time season. *Sex Roles: A Journal of Research* 9, 429-438.
- Loizos, P. (2000). Video, film and photographs as research documents. In M. W.Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image, and sound* (pp. 93-107). London: Sage.
- Malkin, A. R., Wornian, K., & Chrisler, J.C. (1999). Women and weight: Gendered messages on magazine covers. *Sex Roles: A Journal of Research*, 40(7-8), 647-656.

- Mann, C., & Stewart, F. (2000). Chapter 4: Introducing online methods. In *Internet communication and qualitative research: A handbook for researching online* (pp. 65-98). London: Sage.
- McArthur, L.Z., & Resko, B. G. (1975). The portrayal of men and women in American television commercials. *The Journal of Social Psychology*, 97, 209-220.
- Merskin, D. (1999). Adolescence, Advertising And the ideology of menstruation. *Sex Roles: A Journal of Research*, 40 (11), 941-957.
- Pedersen, P. M. (2002). Examining equity in newspaper photographs. *International Review for the Sociology of Sport*. 37 (3-4),303-318.
- Prior, L. (2004). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In S. Hesse-Biber & P. Leavy (Eds.), *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 317-333). New York: Oxford University Press.
- Prior, L. (1997). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In D. Silverman (Ed.), *Qualitative research: Theory, method and practice* (pp. 63-79).
- Prosser, J. & Schwartz, D. (1998). Photographs within the sociological research process. In J. Prosser (Ed.), *Image-based research: A sourcebook for qualitative researchers* (pp. 115-130). London: Falmer Press.
- Ramasubramanian, S., & Oliver, M. B. (2003). Portrayals of sexual violence in popular Hindi films, 1997-99. *Sex Roles: A Journal of Research*, 10, 327-336.
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.
- Rose, D. (2000). Analysis of moving images. In M. W. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image and sound* (pp. 246-262). London: Sage.
- Taylor, C. (1987). Interpretation and the sciences of man. In P. Rabinow & M. W. Sullivan (Eds.), *Interpretive social sciences. A second look* (pp. 33-81). London University of California press.
- Thomas, M. E., & Treiber, L. A. (2000). Race, gender, and status: A content analysis of print advertisements in four popular magazines. *Sociological Spectrum*, 20, 357-371.
- Wysocki, D. S., & Harrison R. (1991). AIDS and the media: A look at how periodicals influence children and teenagers in their knowledge of AIDS. *Health Education Journal*, 22, 20-23.

الفصل التاسع

البحث القائم على طرقٍ مختلفة

يمثل النص المستخلص التالي تقريراً قدمه أحد مراسلي الأخبار في إذاعة الـ بي. بي. سي. (*) عن الجهود التي بذلها سكان قرية تايلاندية لإعادة بناء مجتمعهم في أعقاب واحدة من أسوأ الكوارث الطبيعية التي أصابت جنوب آسيا.

عند النظرة الأولى، قد يعتبر أهالي جزيرة خانج براسانج *Khlang Prasang* الصغيرة أنفسهم سعداء الحظ.

فهذه الجزيرة، كأغلب جزر ساحل تايلاند الغربي أصابها إعصار التسونامي الآسيوي المدمر، إلا أنه لم يمُت أحدٌ من أبناء هذا المجتمع المحلي البالغ عددهم أربعمئة.

بيد أن التسونامي هذا غير حياة عدد من الناس أكثر من عدد من كانوا في ذلك الوقت يتفجعون على أحبائهم الراحلين. فبعيدا عن المنتجعات الشهيرة والشواطئ المخصصة للسياح، تواجه حاليا مئات من المجتمعات المحلية الصغيرة مثل خانج براسانج تحدياً طويل الأمد وعسيراً لإعادة البناء.

قبل هذه الكارثة، كان لشعب خانج براسانج مصدران للدخل هما: صيد السمك والسياحة.

أما الآن فهم يكافحون لتحصيل المال من مصدر آخر غير هذين المصدرين.

يقول دونجيت هافاه *Donjit Hafah*: "إننا نخشى أن يطوينا النسيان، كما أن كل المساعدات مآلها الذهاب إلى جزيرة "في في" *Phi Phi* وغيرها من المناطق التي أصيبت بقدر أكبر من التدمير".

بعد مُضي أسبوعين على إعصار التسونامي، لا يزال أهالي خانج براسانج يعانون من الصدمة العصبية الناجمة عن تجربتهم هذه.

(*) BBC: هيئة الإذاعة البريطانية (المترجم)

يقول ساماري كونلونج Samari Koonlong: "لا أزال عاجزاً عن النوم. فأنا لا أزال أتخيل مجيء إعصار تسونامي آخر. ذلك أن الأمواج وأوضاع المد والجزر لا تزال غير عادية، كما أنني في غاية الفرع". ويقول مَاد أونبوتر Maad Oonbutr: "قضيت الليلة البارحة ولا شغل لي إلا مراقبة الأمواج. كنت ساعتها أفكر في الأطفال الذين كانوا يجرون في اتجاه البحر عندما أتى هذا التسونامي، وكيف أنهم كانوا على وشك الغرق...". (McGowan, 2005).

في يوم ٢٦ ديسمبر سنة ٢٠٠٤ ضرب إعصار تسونامي ضخم جنوب آسيا. لقد كان إحدى كبريات الكوارث الطبيعية في التاريخ المُدَوَّن. وفي أعقابها انطلقت جهود الإغاثة الخاصة والعامة من جميع أنحاء العالم لمعاونة الناجين وللمساعدة في إعادة بناء البنى التحتية التي تشتت الحاجة إليها أكثر من غيرها. وتُحذَر التقارير الصحفية من الصدمة السيكولوجية الحادة التي أعقبت الكارثة، والتي انتشرت بين الناجين. ويُحذَر أحد التقارير المُذاعة من سي. إن. إن CNN من النتائج التي تعقب التسونامي وتتصف بصفات الصدمة النفسية، وخاصةً ما يُصيبُ منها صغار السن من الناجين.

ويقول الدكتور مايكل واسرمان Michael Wasserman، وهو طبيب أطفال يعمل في مستشفى مؤسسة أوكسنر الخيرية في مدينة نيو أورليانز بولاية لويزيانا: "إن النتائج السيكولوجية مَهولة.. إن الأطفال يفهمون معنى النظام في الكون. ولأسباب لا يستطيع أي إنسان أن يسيطر عليها، تقوم أنت بانتزاع هذا الفهم وطرحه بعيداً. فقد تَمَرَّتْ عَالَمَهُمْ (سي. إن. إن، ٢٠٠٥).

وليس من الواضح لنا كيف يقوم الناجون بالتغلب على الأوضاع التي أعقبت هذا الحادث المدمر. فبينما تقدم التقارير التي تَبْنُها وسائل الاتصال معلومات مقتضبة على هيئة نوادر وحكايات، فإن الأمر يحتاج إلى المزيد من المعلومات للمساعدة إلى جانب جهود الإغاثة. فالعلماء الاجتماعيون يُمكنهم أن يُزودوا هيئات التمويل وهيئات الإغاثة بفهم أكمل لمدى ما أحدثته هذه المأساة من تأثيرات ضارة بالاقتصاد وبالأشخاص على مستوى القرية وعلى مستوى

الأمة، كما يمكنهم أن يقدروا على نحو دقيق طبيعة الخبرات المعاشة لهؤلاء الذين تأثرت حياتهم بهذه الكارثة تأثراً حاداً. وسوف تزودنا أسئلة البحث التالية ببعض البيانات المهمة عن هذه الجهود:

- كم عدد الأفراد الذين ماتوا كنتيجة مباشرة لهذه الكارثة؟ وما هي القرى التي أضررت؟ وما هو مدى تدمير الممتلكات؟ ومن هم الناجون وفقاً لخصائصهم السكانية كالسن، والجنس، والطبقة، إلى آخره؟
- كيف يقوم الناجون بتدبير أمور حياتهم يوماً بيوم؟ وما هي خبراتهم المعاشة؟ وما هي احتياجاتهم وهمومهم الخاصة؟

البحث ذو الطرق المختلطة

قد يكون أسلوب البحث ذي الطرق المختلطة مُطلقاً جيداً نبدأ به دراستنا، وتعد الطرق المختلطة أحد التصاميم البحثية لجمع البيانات و/أو تحليل البيانات. وعادةً ما يشير هذا المصطلح إلى استعمال كل من الطرق الكيفية والطرق الكمية في دراسة واحدة، أو بصورة متعاقبة في دراستين أو أكثر. ويكمن وراء تطبيق هذه التصميم البحثي منطق هام مفاده أن "الكل أكبر من مجموع أجزائه" (Greene & Caracelle, 1997b, p.13). ويشير جرين و كاراسلي في نفس الكتاب إلى أن إجراء "حوار" بين مختلف طرق البحث ونماذجها الفكرية التي تمثلها تعزز الوصول إلى نتائج شاملة و عميقة ومنطقية بدرجة تفوق ما يمكن أن يحققه منفرداً أي نموذج فكري (سواء كان تأويلياً أم مُنتمياً لما بعد الوضعية) (ص ١٠)، وانظر كذلك جرين، وبنجامين Benjamin وجوديير (Goodyear, ٢٠٠١). ويشير الدليل الجديد لطرق البحث المختلطة الذي وضعه تشكري وتدلي (Tashakkori & Teddlie, Handbook of Mixed-Methods, 2003) إلى خطط البحث ذات الطرق المختلطة باعتبارها "الحركة المنهجية الثالثة" (٢٠٠٣، ص ١٠ من المقدمة). وهذا يعني ضمناً أن على الباحث، والذي يكون في العادة مُدرباً على استعمال طريقة بحث واحدة فقط أو يكون له من الخبرة في إحدى الطرق ما يفوق خبرته في غيرها من الطرق؛ عليه أن يتجاوز الحدود التي تيسر له فيها اتباع

طريقته، وأن يفكر خارج نطاق روتينيات طريقته التي اعتاد ممارستها كل يوم. وبهذا المعنى، فإن من المحتمل أن يؤدي قيام الباحث بتطبيق الطرق المختلطة إلى حد تخلي ذلك الباحث عما كان لديه قبلاً من ممارسات تتعلق بفلسفته وبمنهجيته في البحث وبطرق البحث التي يستعملها.

يتيح الجمع بين طريقتي بحث مختلفتين عمل مشروع بحث تعاوني، بمقتضاه تمكن إحدى الطريقتين الطريقة الأخرى من أن تكون أكثر فعالية، وبمقتضاه تقوم كلتا الطريقتين مجتمعتين بتقديم فهم أكمل لمشكلة البحث (Greene & Caracelli, 1997a) وانظر مؤلف Sieber ١٩٧٣، للاطلاع على نموذج مبكر للتعاون الموجود في مزج طرق البحث الخاصة "بالعمل الميداني" وتلك الخاصة "بالبحث المسحي". كما يمكن للخطط ذات الطرق المختلطة أن تساعدنا على الوصول إلى المعرفة الخاضعة والمستضعفة، وعلى إسماعنا أصوات أولئك الذين تجاهلت البحوث العلمية النظر في آرائهم وأفكارهم، وذلك بهدف تقديم "توع من التعددية في الاهتمامات، والأصوات، والمنظورات الفكرية" (جرين و كاراسلي، ١٩٩٧/ ب، ص ١٤). ومن شأن الجمع بين عدة طرق أن يساعد البحث - في كثير من الأحيان - في معالجة المشكلات الفائقة التعقد والتي تحتوي على طبقات مختلفة من الفهم قد تتطلب هي الأخرى مستويات مختلفة من الأساليب التحليلية.

إن اختيار طريقة بحث معينة أمر شديد الارتباط بمشكلة البحث. فبعض الطرق تكون أكثر فعالية في الوصول إلى فهم أنماط معينة من الأسئلة وإلى الوقوف على أبعاد محددة لواحد من أسئلة البحث. وتفيد طرق البحث الكيفية في التعرف على "الخبرات المعاشة" للفرد، وذلك عن طريق طرح أسئلة كهذا السؤال: "إلى أي مدى يعتبر الناجون من كارثة التسونامي أن الصدمة النفسية التي كابدها ستكون صدمة طويلة الأمد؟". وتحتاج الطرق الكيفية لجمع البيانات إلى خطة تحليلية تتعامل - غالباً - مع بيانات النصوص بحثاً عن المعنى، ولكنها "ليست" مفيدة بالذات في الوقوف على "الصورة الإجمالية أو الكلية". أما طرق البحث الكمية - كالمسوح الاجتماعية مثلاً - فتجيب على أسئلة من قبيل: "ما مقدار"؟ و "ما هو معدل حدوث كذا؟" كما

تتيح الطرق الكمية للباحث أن يختبر الفروض وأن يستخلص التعميمات من البيانات. غير أن استخدام طريقة بحث مختلطة عرضة لأن يخضع كما سنبين فيما بعد - لبعض "القيود العملية" (Brannen, 1992, p. 17) تتعلق بتكلفة إجراء مثل هذا البحث، وبتدريب الباحثين، والمتصلة كذلك بنوع التمويل المتاح للقيام بتنفيذ هذا النمط من خطط البحث.

عند اختيارنا لخطة بحثنا لدراسة كارثة التسونامي يتعين أن نبدأ بطرح السؤال/ أو الأسئلة الخاصة ببحثنا هذا، من قبيل: "كم عدد الذين ماتوا كنتيجة مباشرة لهذه الكارثة؟ وما هي القرى التي أُضيرت؟ وما هو مدى الدمار الذي وقع؟ ومن هم الناجون (وفقاً لخصائصهم السكانية (كالتسن، والجنس، والطبقة، إلى آخره)؟ فهذه المجموعة من الأسئلة تبحث عن بعض البيانات الرقمية، مثل: "ما هو عدد كذا؟" و"ما مدى انتشار كذا؟". والطريقة الكمية كالمسح السكاني للجوانب الاجتماعية والاقتصادية للسكان، وكذلك مقارنة هذه الأرقام السكانية بآخر الإحصاءات القومية والإقليمية وبيانات السكان؛ كل ذلك سوف يوفر سياقاً يتم داخله تقدير مدى هذه الكارثة على مستوى القرية وعلى مستوى الأمة. وتزود هذه الطريقة الباحث "بصورة إجمالية" تكون بمثابة الخلفية لرؤية الخبرات التي عاشها الناجون. وثمة مجموعة أخرى من الأسئلة عن: "كيف يقوم الناس في المناطق المضارة بتدبير أمور حياتهم يوماً بيوم؟ وما هي الخبرات التي عاشوها؟ ومن أجل توجيه هذه المجموعة من الأسئلة، فقد ترى ضرورة البدء بدراسة استكشافية لعينة من القرى التي أُضيرت بهذه الكارثة. فهذه الأسئلة تسعى إلى التعرف على القضايا المتعلقة بالتفسير أو التأويل. وهنا سوف تحتاج إلى الإصغاء إلى حكايات هؤلاء الأفراد الذين عاشوا هذه الكارثة مباشرة، فتصغي إلى اتجاهاتهم، ومشاعرهم، وهمومهم. وقد تدخل في حسابك استعمال طائفة متنوعة من الطرق التفسيرية كطريقة المقابلات المتعمقة، أو جماعات المناقشة المركزة، وكذلك طريقة الملاحظة بالمشاركة، وهي الملاحظات التي يتم جمعها من قطاع مُستعرض من الأفراد المختارين من القرى الأساسية التي دمرها إعصار التسونامي. وتتيح هذه الأساليب في جمع البيانات الوصول إلى

فهم أكمل لما أحدثته هذه الكارثة من أثرٍ على حياة الأفراد، بما في ذلك التعرف على قدرة هؤلاء الناس على معالجة مشكلة فقدانهم لأقاربهم وأصدقائهم، ومواجهة الخسارة الاقتصادية والتدمير الذي لحق بممتلكاتهم ومعيشتهم. ومن شأن هذا النوع من طرق البحث أن يمكن الباحث من أن يتعرف بعمق على الاحتياجات الخاصة والهموم التي تشغل الأفراد الناجين وأن يفهم الفروق الدقيقة في حكاياتهم التي يحكونها عن نجاتهم، وفي طبيعة مشاغلهم وهمومهم، وذلك على المدى القريب وعلى المدى البعيد كليهما. ولب الموضوع أننا نقوم باستعمال خطة ذات طرق بحث مختلطة، عن طريق الجمع بين البيانات الكيفية والبيانات الكمية معاً عند محاولة الإجابة على أسئلة بحثنا. فها بنا نزداد تعمقاً في دراسة لماذا وكيف ينبغي لنا أن نمضي قُدماً باستعمال هذا النمط من التصميم البحثي.

• ما هي مبررات استخدام تصميم ذي طرق بحث مختلطة؟

يناقش جرين و كاراسلي وجراهام (Graham) (١٩٨٩) خمسة أسباب محددة يمكن أن تدفع الباحثين إلى استخدام أحد الأساليب القائمة على استعمال الطرق المختلطة.

السبب الأول - وربما الأهم - هو مبدأ تعدد الطرق^(*). وهذه الاستراتيجية تتضمن استعمال أكثر من طريقة بحث لدراسة نفس سؤال البحث. وفيها يسعى الباحث للوصول إلى "نقطة التقاء" النتائج المتحصلة باستخدام الطرق المتعددة لتعزيز من مصداقية هذه النتائج. ونلاحظ هنا على هامش هذه النقطة إنه من المهم مراعاة أننا حين نستعمل مصطلح التعدد في هذا السياق ليعني استعمال "طرق مختلفة" (أي تعدد الطرق)، إلا أن المصطلح قد آل به الأمر إلى أن يعني "استعمال" رؤى نظرية مختلفة" (أي تعدد الرؤى النظرية)، كما يعني هذا المصطلح استعمال المصادر المختلفة للبيانات التي تستخدم نفس الطريقة كما تستخدم طرقاً مختلفة (أي تعدد البيانات) (Denzin, 1978).

(*) المصطلح الأصلي Triangulation يعني حرفياً استخدام ثلاث طرق بحث مختلفة، ولكنه بات اليوم يعني تعدد طرق البحث المستخدمة. (المراجع).

وتطبيقاً لهذا الأسلوب نقول: إننا في حالة هذا المشروع البحثي لدراسة كارثة التسونامي، قد نختار أن نجري بحثاً سيكولوجياً كمياً من نوع البحوث التي تُجرى "بالورقة والقلم" من أجل التحقق من سلامة أحوال هؤلاء الذين نجري معهم مقابلاتنا، هذا في نفس الوقت الذي نجري فيه مقابلة متعمقة أكثر شمولاً. فهذه المقاييس السيكلوجية - والتي هي مقاييس ذات طابع كمي أوضح - من شأنها أن تخدم كاختبارٍ لصدق نتائج البحث السيكلوجي المتعمق التي جمعناها من مقابلاتنا المكثفة.

ويتمثل السبب الثاني لاستعمال خطة قائمة على طرق بحث مختلطة في اعتبارها خطة تكميلية، والتي بمقتضاها يسعى الباحث لاكتساب فهم أكمل لمشكلة البحث و/أو لتوضيح نتيجة معينة من نتائج البحث. ذلك أن طرق البحث المختلطة تستخدم من أجل مساندة وتعزيز فهم الباحث لمشكلة البحث فهما شاملاً. وقد يوجد مثال على ذلك حين يستخدم أحد الباحثين دراسة كيفية لكارثة التسونامي لكي يتحقق من الخبرات المعيشية والمشاعر الدفينة لدى الناجين من الكارثة، وذلك في نفس الوقت الذي يضطلع فيه الجزء الكمي من البحث بإجراء دراسة مسحية لتحديد كيف يشعر القرويون المتأثرون بهذا الحادث بفعالية جهود الإغاثة ولمعرفة اتجاهاتهم وقيمهم العامة فيما يتصل بالسياسات الاجتماعية المتبعة في المساعدة على إعادة بناء قراهم.

ويتمثل العامل الثالث في التطوير، إذ تساعد النتائج المستمدة من تطبيق طريقة بحث ما على تطوير الطريقة الأخرى أو زيادة كفاءتها (جرين وآخرون، ١٩٨٩، ص ٢٩٥). وفي مثالنا عن دراسة التسونامي، سيكون الباحث قادراً على استعمال نتائج البحث المتحصلة من الدراسة الكيفية الاستكشافية في تطوير استبيانٍ مسحي للدراسة الكمية.

ومن الأسباب الأخرى التي تذكر بخصوص تبرير استعمال طرق البحث المختلطة عامل المبادرة، حيث تقود نتائج دراسة معينة إلى إثارة المزيد من الأسئلة، أو تكشف عن وجود بعض التناقضات، التي يقتضي الأمر إيضاحها. وحينئذ يتم إطلاق دراسة جديدة لتضيف رؤى جديدة لفهم الظاهرة قيد الفحص والدراسة (جرين وآخرون، ١٩٨٩، ص ٢٦٠). وفي مثالنا عن

دراسة كارثة التسونامي، قد يتبين لنا وجود قدر من التناقض بين بعض نتائج البحث الكيفي فيما يتصل برؤية الرجال والنساء الكوارث الطبيعية، وقد تختلف الاتجاهات المتعلقة بتدبير الأمور عقب الكارثة تبعاً للنوع الاجتماعي والمنشأ القومي لهؤلاء الناجين. وقد تؤدي هذه النتائج المتفاوتة -فعلاً- إلى تفسير لنتائج البحث يتفاوت بدوره بناءً على الجنس والقومية. والواقع أن مثل هذه النتائج قد تساعد على إطلاق بحث جديد تماماً.

ويفضى بنا هذا الوضع إلى سبب خامس يبرر إجراء البحث ذي الطرق المختلطة هو ما نسميه "التوسع". ويتم اللجوء إلى التوسع "بغرض توسيع عناصر الدراسة ونطاقها" (جرين وآخرون، ١٩٨٠، ص ٢٥٩). فقد يريد الباحث أن يقارن الاختلافات تبعاً للنوع الاجتماعي والموجودة فيما يقوم به الرجال والنساء من معالجات للمشكلات التي يواجهونها أثناء مختلف أنواع الكوارث. لذلك، وعلى سبيل المثال، قد يقرر أحد الباحثين أن يوسع نطاق الدراسة لتشتمل على مقابلات يجريها مع الناجين من الهجوم الإرهابي في ٩/١١، قاصداً من ذلك دراسة أوجه الشبه و الاختلاف في أساليب معالجة المشاكل تبعاً للنوع الاجتماعي والقومية من ناحية وتبعاً لنوع الكارثة من ناحية أخرى. ففي هذه الحالة لا يكون هدف الباحث أن يزيد من صدق دراسته بل أن يوسع نطاق الدراسة لتستوعب طائفة أكبر وأوسع من الأغراض.

هل ثمة حروب بين النماذج الفكرية؟

إن لأسئلة البحث جذورها الراسخة في كل من الفهم الكيفي والفهم الكمي لطبيعة العالم الاجتماعي (النكولن وجوبا، ٢٠٠٠). كما أن خلط طرق البحث يقتضي خلط النماذج الفلسفية. فالنموذج هو أحد طرق المعرفة، فهو نافذتنا التي نرى منها العالم الاجتماعي. ولهذا يعمل التصميم ذو طرق البحث المختلطة على مزج الفروض والمسلّمات الفلسفية الكيفية والكمية معاً، خاصة عندما تكون هذه المسلّمات ذات صلة بالقضايا المتعلقة بطبيعة الفرد والمجتمع وبمشكلة "الموضوعية والذاتية". وكثيراً ما يؤثر الموقف الفكري للباحث على قراراته المتعلقة بكيفية استعماله لإحدى الطرق المختلطة، أي: إن كان

يستعملها أم لا ومتى يستعملها، وعلى قراراته المتعلقة بالأسباب التي تبرر له استعمالها. وغالباً ما تكون طرق البحث الكمية مرتكزة إلى أصول متجذرة في أحد النماذج الوضعية الذي يتبنى مُسَلِّمات معينة فيما يتصل بطبيعة العالم الاجتماعي - والتي تُسَلِّم بأنه توجد حقيقة اجتماعية واحدة "موجودة بالخارج" تنتظر اكتشافها من خلال التزام الباحث بالموضوعية، بحيث لا يسمح للمشاعر، والقيم، والاتجاهات أن تتدخل في عملية البحث. (للاطلاع على مناقشة أوفى لهذه القضايا انظر تشكوري Tashakkori وتدلي Teddlie، ١٩٩٨). أما طريقة البحث الكيفية فتصوغ نموذجاً تأويلياً يؤمن بوجود حقائق متعددة فيما يتصل بالعالم الاجتماعي؛ فجمع المعارف هنا يكون عملاً متحيّزاً دائماً، كما يتم حث الباحث على أن يكون على نفس مستوى المبحوث ضمن الجهد المبذول لرفع مستوى "البناء المشترك للمعنى". وقد يجد الباحث الشديد التمسك بالوضعية أو ما بعد الوضعية أن من العسير عليه أن يخلط طرق البحث معاً، وهو الأمر الذي يقتضي ضمناً أن يتجاوز اتجاهه ليدخل في نطاق اتجاه بحثي كافي.

ويعرف هؤلاء الباحثون الذي يجدون أنه من العسير أو من المحال أن يعبروا هذه الحدود الفلسفية والمنهجية، يُعرفون باسم "الصقائين" (دعاة الوضوح والصفاء)^(*) الذين يرون أن هاتين الطريقتين مُستقلتان ويستحيل الجمع بينهما فلسفياً. أما هؤلاء المعروفون باسم "البراجماتيين" فغالباً ما يؤمنون باستعمال خطة ذات طرق مختلطة إن كانت ستُحسن من مستوى فهمهم لمشكلة بحثهم، مع قلة الانشغال بالركائز الفلسفية لأي منظور فكري بحثي من هذين المنظورين. ويلاحظ تشكوري وتدلي (١٩٩٨) أن البراجماتيين: ... يرون أن سؤال البحث أهم من طريقة البحث أو رؤية العالم التي يُفترض أنها تشكل أساس طريقة البحث. ويُفضل معظم الباحثين الأكفاء معالجة أسئلة بحثهم بأي أداة بحث متاحة مستخدمين العقيدة البراجماتية التي تؤمن: المهم الأداة التي "تحقق نتيجة مؤثرة" (ص ٢١).

(*) نسبة مجازية إلى الصفاية أو المذهب الصفاي Purism الذي يدعو إلى العودة إلى الأشكال الواضحة الصافية في اللغة وفي فن الرسم (المراجع).

وكثيراً ما نجد ميلاً لوصف هذه الاختلافات بعبارات من قبيل: "حروب النماذج الفكرية" Paradigm wars (انظر تشكري وتدلي، ١٩٩٨، ٢٠٠٥)، إلا أن كثيراً من الباحثين الذين يؤيدون واحداً من هذين الموقفين الفكريين المتطرفين، لا ينظرون إليهما باعتبارهما نوعاً من الثنائية، بل باعتبارهما واقعين على امتداد خط متصل (أحد طرفيه أصولي صفائي، والطرف الآخر براجماتي) ولكن توجد على امتداده مجالات توافق والتقاء بين هذين المنظورين الفكريين.

وقد أشار جوبا Guba (١٩٨٥) منذ وقت مبكر إلى تعذر التوافق بين هذين النموذجين الفكريين. وهو يعلق على ذلك قائلاً: "إننا نتعامل مع فرضية أساسية من نوع 'إما/أو'، حيث يتوجب على المرء أن يلتزم بالولاء لنموذج فكري واحد منهما، إما هذا أو ذاك" (جوبا، ١٩٨٥، ص ٨٠، نقلاً عن بايمان Byman، ١٩٨٨، ص ص ١٠٧-١٠٨). مثال ذلك، أن بعض الباحثين قد يستعمل كلتا الطريقتين، إلا أنه يحرص على أن يظلا دراستين مستقلتين (انظر بالذات مورس Morse، ٢٠٠٣). وقد يؤيد باحثون آخرون استعمال كلتا الطريقتين، لكنهم يؤثرون منظوراً فكرياً فلسفياً منهما على الآخر عندما يصلون إلى مرحلة تأويل نتائج بحوثهم. والحق أن بإمكان المرء أن يتخيل مجموعة من "المواقف الفكرية من النماذج" التي تتضافر معاً عندما يستعمل الباحث اتجاهها قائماً على طرق البحث المختلطة في البحث الاجتماعي. بل إن الرؤية القائمة على النموذج الفكري للباحث قد تتغير على امتداد مسار أي مشروع بحثي معين. ولو أنني كنت وضعي المذهب بحكم تنشئتي العلمية، وكنت مع ذلك مفتحاً لتقبل الطرق المتعددة، فقد أبدأ بخطة متعددة الطرق وأكون مفتحاً لتقبل الأساليب الكيفية، وأنا أؤثر مع ذلك نتائج بحثي الكمية على النتائج الكيفية إذا كانت (هذه الأخيرة) متعارضة مع نتائج بحثي الكمية. أو في حالة ما إذا كنت وضعياً براجماتياً: قد أكون مفتحاً للاستعانة باتجاه التأويلات المتعددة الموجودة في بياناتي القائمة على الطرق المختلطة، وذلك أثناء تطلي للوصول إلى تأويل أكثر دقة لنتائج بحثي الكمية. والحق أنني حينئذ - "أتخلى عن قدر يسير من الوضعية" لأظفر بفهم أكثر عمقا وتأكيذاً لبياناتي. وقد يكون التغير الذي يحدث في وجهة نظر أي باحث، قد يكون في الغالب تغيراً تدريجياً متصاعداً وليس تغيراً حاداً أو عنيفاً، إلا أنه بمرور الوقت، سوف يتبين وجود انقلاب واضح ودقيق في تفكير هذا الباحث وفي

ممارسته للبحث الاجتماعي. وقد يحدث هذا التغير كذلك في مراحل مختلفة داخل عملية البحث (كمرحلة صياغة المشكلة/ أو مرحلة جمع البيانات/ أو مرحلة تحليل البيانات/ أو مرحلة تفسير أو تأويل البيانات).

خطط البحث ذات الطرق المختلطة

يقدم دافيد مورجان David Morgan (١٩٩٨) بعض الاستراتيجيات العملية لتصميم خطة دراسة ذات طرق مختلطة. وهو يقترح أربع خطط بحث ذات طرق مختلطة تقوم على التتابع (أي الترتيب الزمني)، كما تقوم على الأهمية النسبية (أي درجة الأولوية) الخاصة بكل طريقة. وفي تصميمك لخطة مشروعك، يكون عليك أن تتخذ عددا من القرارات المتصلة بتصميم خطتك الخاصة ذات الطرق المختلطة. وبإمكانك القيام بذلك عن طريق سؤالك لنفسك السؤالين التاليين:

- ما هي طريقة البحث الأساسية وما هي طريقة البحث الثانوية (أي التكميلية)؟.

- ما هي الطريقة التي تأتي أولاً وما هي الطريقة التي تأتي ثانياً؟

يلاحظ مورجان (١٩٩٨) أن الكيفية التي يُجيب الباحث بها على هذين السؤالين تقدم لنا أربع خطط بحث ممكنة ذات طرق مختلطة. ومع ذلك، فمن المهم ملاحظة أن هناك عددا كبيرا آخر من الخطط ذات الطرق المختلطة، والتي تجمع بين الطرق الكيفية والطرق الكمية ذات المعايير المختلفة. إذ تقوم بعض

الجدول ١/٩: الجمع بين الكيفي والكمي

- | |
|--|
| تصميم رقم (١): تصميم أو خطة كيفية ثانوية تعقبها خطة كمية أساسية. |
| تصميم رقم (٢): تصميم أو خطة كمية ثانوية تعقبها خطة كيفية أساسية. |
| تصميم رقم (٣): تصميم أو خطة كمية أساسية تعقبها خطة كيفية ثانوية. |
| تصميم رقم (٤): خطة كيفية أساسية تعقبها خطة كمية ثانوية. |

المصدر: منقول بتصرف من دافيد مورجان (١٩٩٨)

الخطط ذات الطرق المختلطة بالجمع بين الطرق بصورة متزامنة، أي في نفس الوقت، إلا أنها تحتفظ بالتمييز بين الأولى/الثانوي (انظر كريزول، ٢٠٠٣). وهذا التمييز - بين الأساسى والثانوي - الذي يقترحه مورجان لا يأخذ في اعتباره إلا بُعد التعاقب (أي الترتيب الزمني) أي بالدراسة التي تتم بعد الدراسة الأخرى. إلا أن غيره من الباحثين الذين يستعملون طرق البحث المختلطة ويجرون دراساتهم بصورة متزامنة (في نفس الوقت)، كثيراً ما يضعون كلتا الطريقتين على قدم المساواة بدون التمييز بين الطريقة الأساسية والطريقة الثانوية (كريزول، وفترز Fetzters، وإيفانكوف Ivankova، ٢٠٠٤، ٢٠٠٣، ١٩٩٩). بل إن ثمة آخرين يرون أن بعض قضايا إحدى الطريقتين (الكيفية أو الكمية) تكون متضمنة في الطريقة الأخرى، مع إعطاء الطريقة المتضمنة درجة أدنى من الأهمية. وقد يصل الأمر بهذه الطريقة الأخيرة (المتضمنة) إلى أن تجيب على سؤال بحث مختلف (عن السؤال الأصلي للبحث)، إلا أن كلتا الطريقتين تستعملان لتحليل هذه البيانات (كريزول وآخرون، ٢٠٠٣، ص ٢٢٩). كما أن بالإمكان المزج بين دراستين كيفيتين ودراستين كميتين. ويشير تدلي وتشكري إلى هذا النمط من الخطط باعتبارها خطأ "متعددة الطرق".

ونحن نقدم ترميز دافيد مورجان (١٩٩٨) لعملية خلط طرق البحث مع التنبؤ للمحاذير المذكورة آنفاً. وبإمكاننا أن نرى من خلال الجدول ١/٩ الاحتمالات الأربعة الممكنة لتصاميم البحث.

الخطط ذات الطرق المختلطة، مع أمثلة لها

يتضمن التصميم أو الخطة الأولى (والمكونة من خطة كيفية ثانوية تعقبها خطة كمية أساسية) تتضمن القيام بتنفيذ العنصر الكيفي لمشروع البحث أولاً، إلا أننا تحتفظ به باعتباره عنصراً ثانوياً بالنسبة لأهداف المشروع. والطريقة الكمية هي الطريقة الأساسية، إلا أنها تستخدم كنوع من المتابعة للدراسة الكيفية. ويوفر استعمال خطة كيفية قبل الخطة الكمية للباحث الذي ليست له دراية واسعة بموضوع البحث؛ يوفر له الفرصة لأن يولد بعض

الأفكار/ أو الفروض التي قد تتناسب - بصورة أخص- مع الجزء الكمي من المشروع. ويوجد مثال إيضاحي لهذا الشكل من خطط الدراسة ذات الطرق المختلطة في مشروع بحثي أجراه كوتنر Kutner، و ستاينر Steiner، وكوربت Corbett، و يانجن Jahnigen و بارتون Barton (١٩٩٩) على مرضى في مرحلة الاحتضار.

فقد كان هؤلاء الباحثون مهتمين بفهم الخبرات المعاشة لهؤلاء الراقدين في مرحلة الاحتضار. ففي هذه المرحلة من المرض، غالباً ما يكون المقصود "بالرعاية" بذل اهتمام أكبر بعقل المريض وجسده واحتياجاته الروحية، مع اهتمام أقل بالتدخلات الطبية. إذ أن من المهم أن نفهم الخبرات المعاشة للمرضى المحتضرين، وأن ننقل مثل هذه الاحتياجات مباشرة لهؤلاء الذين يقومون على رعايتهم، خاصة أطباءهم. كما كان لدى أولئك الباحثين رغبة في أن يتمكنوا من تعميم نتائج دراستهم على المجموعة السكانية الأوسع نطاقاً من المرضى في مرحلة الاحتضار.

يبدأ تصميم البحث بدراسة قائمة على المقابلات الاستكشافية الكيفية (وهذا هو الجزء الكيفي الثانوي) لعدد ٢٢ من المرضى في مرحلة الاحتضار، باستعمال المقابلات ذات النهاية المفتوحة بغرض الوصول إلى فهم الهموم التي تشغل المرضى المحتضرين. وتمكن المعلومات الكيفية - التي تجمع من هذه المقابلات - الباحثين من ابتكار مجموعة من الأسئلة ذات النهايات المغلقة وذات النهايات المفتوحة، ومجموعة من المقاييس التي لا تقوم على "سيناريوهات" افتراضية وإنما تقوم مباشرة على خبرات جماعة المرضى المحتضرين. وبتعبير آخر نقول، إن الجزء المسحي من هذه الدراسة (أي الجزء الكمي الأساسي) كان "مرتكزاً" على الخبرات المباشرة لمجموعة من المرضى في حالة الاحتضار. وكانت الدراسة الكمية هي الدراسة الأساسية، وكانت تتألف من مسح مقنن لعدد ٥٦ من المرضى المحتضرين. وكان الهدف من المسح هو تقدير مدى ارتباط السمات الشخصية للمريض بالفجوة الموجودة بين المريض وتوقعات الأطباء بالنسبة لرعاية المرضى في حالة الاحتضار. وقد خلص الباحثون إلى أن بالإمكان أن يكون لدى الأطباء والمرضى - في

كثير من الأحيان - قيمٌ مختلفة فيما يتصل بمعنى الاحتضار. فعلى حين يركز الأطباء على الجوانب "الطبية" للمرض، فإنه في أحيان كثيرة لا تحظى احتياجات المرضى المتعلقة بالأمور الاجتماعية والشخصية إلا بقدر ضئيل من العناية، كما أنها تفوق في أهميتها المسائل الطبية المرتبطة بها. والحق أن الأمر الذي تُظهره البيانات الكيفية هو أن المرضى المحتضرين لديهم معلومات قيمة عن العناية الخاصة والتدخلات التي يحتاجون إليها من أجل أن يشعروا بالقدرة على السيطرة على أمور حياتهم اليومية، إلا أن الأطباء كثيراً ما يغفلون عن استخلاص هذه المعلومات القيمة منهم.

وفي التصميم أو الخطة الثانية - حيث يأتي الكمي الثانوي متبوعاً بالكيفي الأساسي - فتستخدم الدراسة الكيفية بصورة ثانوية، وتكون الدراسة الكيفية هي الدراسة الأساسية. وفي هذه الحالة، تستعمل الدراسة الكمية لتمييز جماعات بحثية معينة أو قضايا معينة التي تحتاج إلى مزيد من الاستكشاف المتعمق. والمثال على هذا النمط من البحث دراسة أُجريت على اتجاهات الأطباء الممارسين العموميين عند مناقشتهم لقضية التدخين مع مرضاهم. كان المؤلفون يريدون أن يميزوا مجموعة من الأطباء الممارسين العموميين الذين يتبنون تشكيلة متنوعة من الاتجاهات المختلفة. وقد قامت الدراسة الكمية (الثانوية)، والمعتمدة على أحد المسوح المختصرة للاتجاهات لدى ٣٢٧ من الأطباء الممارسين العموميين؛ قامت بمساعدة الباحثين على تحديد مجموعة متنوعة الاتجاهات من المستجيبين الذين أمكنهم بالفعل أن يجروا معهم مقابلات كيفية، وهو ما ضمن لهم الوصول إلى فهم متعمق للقضايا المتعلقة بالتدخين لدى أنماط مختلفة من الأطباء الممارسين العموميين (Coleman, Williams & Wilson, 1996).

ويشير مورجان (١٩٩٨) إلى أن التصميم أو الخطة الثالثة ذات النهج الكمي الأساسي والمتبوع بالنهج الكيفي الثانوي، يتم تصميمها بحيث تكون الدراسة الكمية هي النمط الأساسي للبحث، مع جعل الدراسة الكيفية هي الدراسة الثانوية. وكثيراً ما يُستعمل هذا النمط من التصميم حينما توجد حاجة لتوفير إيضاح/ أو تفصيل وتدقيق لنتائج البحث المستمدة مما انتهت إليه

الدراسة الكمية. إذ أن الدراسة الكيفية تساعد على فهم بعض الأمور التي منها مثلاً: النتائج السلبية، بجانب ما يُسمَّى بالنتائج "الغريبة" أو "النائية" outliers (أي النتائج التي تبدو غير متناسبة مع الفرض الإجمالي للدراسة أو مع توجهها النظري العام). والحق أن البيانات الكيفية يمكن استعمالها لتكملة البيانات الكمية حتى تساعد الباحث الكمي في "إنقاذ" بياناته عن طريق فهمه "للنتائج الخاطئة" الموجودة في بياناته المَسْحِيَّة (Weinholtz, Kacer & Rocklin, 1995).

ونجد نموذجاً لهذه الخطة في مشروع بحث عن اندماج العائلات المهاجرة في المجتمع السويدي (Bjeren, 2004). والبيانات الأساسية لهذه الدراسة مستمدة من مسحين اجتماعيين كميين (أي أن البيانات الكمية فيهما هي البيانات الأساسية) كان هدفهما جمع معلومات عن بعض المهاجرين الوافدين إلى السويد من المولودين في تلك البلاد، وذلك من واقع البيانات المتاحة (وهي دراسة سابقة واسعة النطاق عن الرعاية التي يتلقاها المهاجرون الوافدون) ومن مسح كمي واسع النطاق لعدد ٣٤٠٨ من البالغين (من المولودين داخل السويد ومن المولودين خارجها) عن الحياة العملية والحياة العائلية لهؤلاء الأفراد. وقد كان الباحثون يريدون أن يقارنوا الظروف الاقتصادية والاجتماعية لشباب المهاجرين الوافدين من بولندا وتركيا بالظروف المماثلة لنظرائهم من المولودين داخل السويد. وقد استخدمت الدراسة الكيفية (الثانوية) كطريقة مساعدة لتوضيح بعض القضايا المتصلة "بديناميات العائلة" وبالعلاقات المجتمعية بين "جاليات" المهاجرين الأتراك والمهاجرين البولنديين. يُضاف إلى ذلك أنه أجريت عينة مناسبة من المقابلات، كما رُصدت بعض الملاحظات الرسمية وغير الرسمية مع شباب المهاجرين الوافدين ومع بعض والديهم. ويلاحظ المؤلفون أن هذه الدراسة الكيفية:

... تشير إلى وجود تناقضات، وإلى مجالات ينبغي إعطاؤها مزيداً من الاهتمام، وإلى العواقب التي قد تترتب على عدم الاستجابة للمسوح الاجتماعية. وفي الاتجاه المقابل، دل تحليل بيانات المسح على أن بعض النتائج المستمدة من الدراسات المكثفة تبدو ذات مصداقية محدودة، وربما

يعكس هذا التحليل نوعية القيود التي تحيط بإجراء مثل هذه الدراسات أو تعكس القضايا الأشد عمقاً والمتصلة بالاختلافات بين ما يُظهره الناس من صور لأنفسهم وبين ما يشعرون به فعلاً. (Bjeren, 2004, p.6).

إن إحدى النتائج البحثية المهمة التي بدأ أن البيانات المسحية تفتقدُها، تتمثل في فهم أهمية الدين في حياة المهاجرين الوافدين. إذ يلاحظ المؤلفون أن السويد مجتمع علماني لا يولي أهمية كبيرة للمشاعر الدينية التي قد يُنظرُ إليها باعتبارها من أشكال النكوص إلى الأزمنة البعيدة (Bjeren, 2004, p.7). ومن الأمور المثيرة للاهتمام أن نلاحظ هنا أن الدراسة الكمية أجراها علماء سكان في حين أجرى الدراسة الكيفية علماء أنثروبولوجيا. وهذا يثير السؤال عن التأهيل العلمي المطلوب للاشتراك في تنفيذ خطة ذات طرق مختلطة، مع العلم بأن أسلوب الطرق المختلطة يتطلب كذلك اشتراك باحثين من فروع متعددة من العلوم. وقد يثير هذا الوضع -كذلك- قضايا تتعلق بالتواصل بين الباحثين الذي لا يتشاركون في نفس المنظورات الفلسفية والتوجهات المتعلقة بطرق البحث.

في التصميم أو الخطة الرابعة للبحث - أي الخطة ذات البيانات الأساسية الكيفية والمتبوعة بدراسة كمية - تكون الدراسة الكيفية هي أساس البحث تتبعها دراسة ثانوية ذات طابع كمي. وتستخدم هذه الدراسة الكمية في اختبار النتائج المتحصلة من دراسة عدة مجموعات مختلفة، وذلك بهدف التحقق مما إذا كانت النتائج الكيفية يمكن أن تتسحب إلى بعض المجموعات الأخرى أم لا (مورجان، ١٩٩٨، ص ٣٧٠). وتهتم الدراسة متعددة الطرق التي قام بها جيوييا وتوماس (Gioia and Thomas 1996) بالكيفية التي يُميز بها المسؤولون عن إدارة الجامعات القضايا المهمة التي تؤثر على الجامعات التي تتعرض "لتغير استراتيجي". وهي نموذج للتصميم أو الخطة الرابعة والأخيرة، من الخطط المختلطة الطرق، التي تناولناها في هذا الفصل. فالباحثان استخدمتا طريقة كيفية - وهي دراسة حالة واحدة لفريق إداري بإحدى الجامعات - للتوصل إلى فهم الخبرات المعاشة لرجال الإدارة العليا في التعليم العالي. وتمكن دراسة الحالة الكيفية الباحثين من تمييز "الصورة"

و"الهوية" كمحورين أساسيين لهما أهمية خاصة في مساعدة المسؤولين الإداريين على تمييز وتحديد التغييرات الاستراتيجية التي ستحتاج إليها الجامعات وهي في خضم التعرّض لتغييرات تنظيمية حادة. إذ تدور في أذهان المسؤولين الإداريين بالجامعات فكرة مؤداها أن تبني صورة مرغوبة للجامعات يرتبط أوثق الارتباط بطريقة النظر إلى مؤسساتهم في المستقبل. وقد كان لهذين العاملين أهميتهما كذلك في فهم الطريقة التي يصنف بها كبار المسؤولين قضايا الجامعة: فإما أن تكون قضايا استراتيجية (وهي القضايا التي من شأنها دفع الجامعات للأمام) وإما أن تكون قضايا "سياسية" (وهي القضايا التي تكون في الغالب قضايا ذات طبيعة داخلية ومُعززة "للوضع القائم"). وقد تمت صياغة النتائج الكيفية في ضوء مجموعة من الفروض المتعلقة بالعلاقات بين الهوية، والصورة، والتأويلات (أي: الاستراتيجية في مقابل السياسي). ثم اختبرت هذه الفروض في مسح كمي لعينة من ٦١١ من كبار المسؤولين الإداريين الجامعيين تم اختيارهم من ٣٧٢ كلية وجامعة عبر الولايات المتحدة. وفي هذه الخطة البحثية ذات الطرق المختلطة، تصبح البيانات الكيفية عنصراً حاسماً في فهم مشكلة البحث، كما تقوم الدراسة الكمية بمساعدة الباحثين في "الاختبار النهائي" للنتائج المستخلصة من الدراسة الكيفية بحيث يمكن تعميم نتائجها لتشمل مجموعة أكبر من المسؤولين الإداريين بالجامعات. ومُجمل القول إن نتائج المسح أكدت أهمية العلاقة بين الصورة والهوية في أذهان كبار المسؤولين الإداريين، كما أن بالإمكان أن تصبح هذه النتائج عدسة مهمة من خلالها يستطيع المسؤولون الإداريون رؤية التأويلات التي تمكنهم من بلورة القضايا الرئيسية التي ينبغي عليهم العناية بها في مناخ من التغيير الاستراتيجي.

مشكلات وآفاق الخطط ذات الطرق المختلطة

برزت - حديثاً - مجموعة من القضايا المتصلة بعملية المزج بين طرق البحث المختلفة. فبعض الباحثين لا يتضح لهم ماذا يفعلون عندما تكون النتائج المستمدة من كل طريقة غير متفقة مع نتائج الطرق الأخرى، أو عندما

لا تلقى الدراسة الكيفية قبولاً أو اعترافاً. وفي هذا الصدد تذهب برانن (Brannen, 1992,p.27) إلى أنه قد يحدث - حتى في الدراسات التي يكون العنصر الكيفي فيها أساسياً- أن تتفوق النتائج الكمية في قوتها وتتسلط على النتائج الكيفية. ونجدها (١٩٩٢) تستشهد بدراسة أجريت عن خدم المنازل (Cragg & Dawson, 1981) وتلاحظ أن المكوّن الكيفي في هذه الدراسة لم يلقَ مدحاً وإطراءً بسبب مافيه من أفكارٍ نظرية عميقة، وإنما بسبب كبر حجم العينة الكيفية!

يتسبب القيام بهذا النوع من البحث في تحمّل تكاليف اقتصادية، إذا أخذنا في الاعتبار مقدار الوقت والطاقة المطلوبين لاستيفاء أي مشروع. يُضاف إلى ذلك قضية ما إذا كانت البحوث التي يقوم بها باحثون أفراد يمكن أن تتوفر لها مجموعة المهارات المطلوبة لخط الطرق أم لا (برانن، ١٩٩٢، ص ٢٠). ويلاحظ زلر Zeller (١٩٩٣) أن "... لدى معظم الباحثين نوعاً من الولاء لطريقة بحثه. فالباحثون يكونون مرتاحين نفسياً للعمل داخل نطاق خبرتهم المنهجية، وقد يراودهم شعور بالضعف تجاه العمل خارج هذا النطاق" (ص ١١٠). والواقع أنه قد تجرّى بعض هذه الدراسات - المختلطة الطرق - على يد فريقين بحث مختلفين قد تتكامل أو لا تتكامل نتائجهم البحثية. وكذلك مُستهلكو هذا النوع من البحوث قد يكونون على علم بطرق البحث التي يستعملها كلا الفريقين أو لا يكونون على علم بذلك، ولهذا السبب فإن من المهم أن يأخذ الباحث الوقت الكافي لتقديم المفاهيم التي قد تكون غريبة على الأفراد الذين لا تتوفر لهم الدراية بنموذجٍ فكريٍّ مُعين. وبإدخالنا في الحسبان أن هذه الدراسات تتخذ موقفاً ملتبساً من النموذجين الفكريين المختلفين والطريقتين البحثيتين المختلفتين، فإنه توجد تلك القضية الأخرى والمتمثلة في أن مثل هذا البحث سوف يضطر إلى دخول معمة النشر في المجالات العلمية الأكاديمية، والتي قد يكون الكثير منها مُعادياً لخط طرق البحث (برانن، ١٩٩٢).

بعض المسارات المستقبلية في البحث المختلط الطرق

مع ظهور البرامج الجاهزة لتحليل البيانات الكيفية بمساعدة الكمبيوتر، والمعروفة باسم CAQDAS^(*) (See Fielding & Lee, 1998; and Hesse-Biber & Maietta, 2005) أخذت بعض المسارات الجديدة في التحليل تلمس الحدود الفاصلة بين الطرق الكيفية والطرق الكمية. فقد أصبح الآن بوسع الباحث أن يعالج بياناته الكيفية، والتي منها مثلاً المادة المدونة في سجلات المقابلات والتي هي بيانات نصية (أي: مكتوبة) ليبتكر من هذه البيانات "متغيرات"، وهي عملية تعرف باسم "تكميم البيانات" (أي تحويل البيانات الكيفية إلى كمية - المراجع). وتقوم برامج الكمبيوتر الجاهزة والخاصة ببرامج التحليل الكيفي؛ تقوم بمساعدة الباحث في خلق بيانات "المتغير" القائمة على (فئات تصنيف) المادة الكيفية، ومن ثم جعل تلك المعلومات صالحة لإجراء التحليل الإحصائي عليها. كما تتيح بعض البرامج الجاهزة الكيفية الأخرى للباحث أن يستجلب - بصورة مباشرة - بيانات كمية، كالبيانات التي جمعت من مسح ما مثلاً، ليضعها في برامجه الكمبيوترية، الأمر الذي يتيح للباحث أن يعمل - في نفس الوقت - مع قاعدة بيانات كيفية وقاعدة بيانات كمية. ونظراً لأن برامج تحليل البيانات الكيفية تواصل تقديمها نحو التكميم (اكتساب الطابع الكمي)، فإنه توجد تقنيات برمجية تتيح للباحث أن يولد نظرياته عن المادة الكيفية وأن يختبرها. وتستخدم بعض البرامج الذكاء الاصطناعي - أي نظم الخبرة القائمة على المعرفة. والآن يستطيع البرنامج المسمى "مختبر الفرض" Hypothesis tester - والذي هو أحد تطبيقات برامج "البحث الفائق" HyperRESEARCH - أن يمكننا من وضع المقدمات أو الفروض التي من نوع "إن كان كذا/ فالنتيجة كذا" "if/then". ويُعزز برنامج البحث الفائق استعمال قواعد الإنتاج لمساعدة الباحثين في توليد وخلق العلاقات بين قطاعات النص التي تم تصنيفها فعلاً، وفي صياغة واختبار الفروض المتعلقة بطبيعة هذه العلاقات (هس-بيبر، و دوبيوي Dupuis, 1995). والبرنامج المسمى "إثنو" ETHNO (Heise, 1991;

(*) CAQDAS=Computer-Assisted qualitative data analysis software.

Heise & Lewis, 1988) عبارة عن أحد البرامج الجاهزة التي تصوغ "تحليلاً لبنية الحدث" يقوم باختبار توقّيت أحداث مُعينة وبتحليل التتابع الزمني المنطقي للعلاقات بين الأحداث، وذلك بناءً على السرديات السببية الموجودة داخل البيانات.

عملية التكميم: أي تحويل فئات التصنيف (الكيفية)

إلى متغيرات (كمية): مثال على ذلك

تعد فئات التصنيف الكيفية بمثابة "لافتات" تُعطى لقطاعات البيانات النصية، والمستخرجة من النص الذي يحوي مادة إحدى المقابلات أو غيرها من البيانات السردية (كالمجلات، والصحف، إلى آخره) التي يمكن تحويلها إلى أرقام. وبذلك التحويل تصبح المادة التي كانت كيفية من قبل بيانات كمية (أي: "متغيراً") تساعد على تطبيق تقنيات التحليل الإحصائية. وهذه هي التقنية التي تسمى "التكميم". (كان ماليز Miles و هيوبرمان Huberman، ١٩٩٤، أول الباحثين الذين استخدموا هذا المصطلح، وانظر كذلك ساندلوسكي Sandelowski، ٢٠٠٠، ص ٢٥٣). ونجد المثال التطبيقي لهذه التقنية في التحليل الذي قامت به هس-بيبر وكارتر Carter (٢٠٠٠) لعدد ٥٥ فتاة مضى على تخرجهن من الجامعة سنتان ممن أُجريت معهن مقابلات تناولت موضوع أنماط تناولهن للطعام والاهتمامات المتصلة بصورة الجسد لديهن (انظر هس-بيبر، ١٩٩٦). فالمؤلفتان مهتمتان باستكشاف هذه البيانات بغرض فهم السؤال التالي:

• هل توجد علاقة بين ما يبديه أفراد العائلة والأصدقاء من ملاحظات ناقدة

وظهور أعراض الاضطراب في تناول الطعام بين الفتيات؟

تكشف البيانات الكيفية عن أنه، في الوقت الذي يكون فيه بعض أفراد الأسرة والأقران مؤيدين لبدانة الفتاة ولصورة الجسد هذه، فإن بعضهم ينتقدون ذلك تماماً. وفيما يلي نص مُستخلص من عدد من المقابلات التي أجرتها هس-بيبر (١٩٩٦، نقلاً عن هس-بيبر وكارتر، ٢٠٠٤). ففي النص المستخلص الأول، يمكننا أن نلاحظ كيف كانت والدّة جوانا مؤيدة لصورة جسد ابنتها:

جوانا: إن كل ما تريده أمي هو أكون سعيدة. فبإمكاني أن أزن ٥٠٠ رطلاً طالما أنا سعيدة. فقد كان تركيزها دائماً منصباً على صحتي، أكثر منه على مظهري. لذلك كانت تعليقاتها -دائماً- أكثر نزوعاً لذلك الدعم الإيجابي. ومن النادر جداً أن أتذكر فعلاً أنها وجهت لي ما يمكن أن يكون تعليقات سلبية علي مظهري. فالغالب على موقفها أنه موقف تشجيعي. إن أمي تحب أن تقول كلاماً كهذا: "إن لك وجهاً جميلاً، إن لك يدين جميلتين". فهي تحب أن تركز على ما أتفرد به من صفات.

وفي الجانب المقابل، تحكي جوان وبيكي حكايات عن مدى انتقاد أسرهم لبدائنتهما ولصورة جسديهما:

جوان: يميل أشقائي وشقيقتي إلى أن يدوروا حولي ويحدثون أصواتاً مزرعة بغیضة.. ويميل والدي لأن يقول: "عليك أن تخفضي وزنك". وأنا أتمنى أن أحاول ذلك، كما أتمنى أن أنجح في هذه المحاولة.

بيكي: يحب أشقائي أن يشيروا إلى أمي، وهي تحب أن تقول لي: "إن شقيقك روب يرى أنك أصبحت بدينة"، ثم تردف قائلة: "ربما ينبغي عليك أن تكفي عن الإفراط في تناول الطعام". وقد علّق أبي على وزن جسمي كثيراً. ولم تكن تعليقاته سيئة أبداً. بل كانت إيجابية دائماً. فهو يميل لأن يقول: "إنك تبدين في حالة طيبة، لقد تخلّصت من بعض الوزن". وكان يعلق دائماً على الفتيات الحسنات. وبذلك علمت أنه يهتم بأن أبدو في شكل طيب أيضاً. وكنت أربح في أن يفهم أنني أستطيع أن أكون جميلة كسائر الفتيات اللاتي كان يمتدحهن. فكنت أربح أن يكون فخوراً بي لهذا السبب، كما كنت أعلم أنه كذلك فعلاً.

ومع ذلك، فسرعان ما أصبح من العسير على هاتين الباحثتين، بعد قيامهما بإجراء ٥٥ مقابلة، أن يوجدا علاقات واضحة تربط بين هذه البيانات. فالواقع أن استعمال التحليل الكيفي للإجابة على سؤال كمي أصبح عسيراً بسبب ازدياد أعداد المقابلات. وكما ذكرنا قبل ذلك، فإن البيانات الكيفية تصلح للوصول إلى فهم الخبرات، إلا أن القضية هنا تتعلق بالسببية: "هل توجد علاقة بين "س" (الانتقاد) و "ص" (اضطرابات تناول الطعام)؟". ففي هذه

المسألة يصبح "الانتقاد" هو المتغير المستقل (أي السبب) وتُصبح "اضطرابات تناول الطعام" هي المتغير التابع (أي النتيجة).

ونتيح لنا عملية التكميم أن نتناول البيانات الكيفية بصورة أكثر كمية عن طريق قيامنا بتحويل بياناتنا الكيفية (أي فئات التصنيف المستخدمة) إلى بيانات كمية (أي متغيرات). فيها بنا نرى كيف تتم هذه العملية.

عملية الربط بين الكيفي والكمي (تكميم الكيف بالكم)

الخطوة الأولى: تصنيف النص

قامت كل من هس- بيبر وكارتر (٢٠٠٤)، في سعيهما لتمييز الأنماط المحورية في هذه المقابلات الخمسة والخمسين؛ قامتا بتصنيف هذه الأنماط باستعمال حزمة البرامج الجاهزة المعروفة باسم "البحث الفائق" HyperRESEARCH الخاصة بتحليل البيانات الكيفية (هس - بيبر، ودوبوي، و كيندر Kinder، ١٩٩١). مثال ذلك، أن حديث جوان عن عائلتها والذي تقول فيه: "يُحبُّ والدي أن يقول: "لا بد أن تُخفزي وزنك" قد أُعطي تصنيفاً كيفياً هو: "الانتقادات الوالدية - أو انتقادات الأقران- أو الأشقاء" (بي. بي. إس. سي) (*). (انظر تحليل البيانات في الفصل العاشر، وذلك للوقوف على مزيد من الوصف التفصيلي لعملية التصنيف الكيفي). وقد نُفذت تقنية تصنيف مشابهة لخلق فئات تصنيف "لاضطرابات تناول الطعام" وهكذا.

الخطوة الثانية: تحويل فئات التصنيف إلى متغيرات (أي تحويل الكيفي إلى كمي)

في هذه المرحلة حُولت فئات التصنيف الكيفية إلى متغيرات كمية. وقد لاحظت الباحثتان أن ١٦ مقابلة من المقابلات أوضحت أن أحد الوالدين أو أحد الأقران أو أحد الأشقاء كان ينتقد عادات تناول الطعام لدى المبحوثات وينتقد صورة أجسادهن، قد أُعطيت فئة التصنيف PPSC (الخاص بالانتقادات الصادرة من الوالدين أو الأقران أو الأشقاء). وهنا قام برنامج كومبيوتري

(*) PPSC= Parents- or- Peers-or-Siblings Criticals.

للتحليل الكيفي بتحول "المتغير" المذكور (بي. بي. إس. سي) عن طريق إعطاء هذه المقابلات الستة عشر القيمة "نعم" وإعطاء الـ ٣٩ مقابلة الأخرى القيمة "لا". وقد نفذ نفس الإجراء بقصد الحصول على متغيرات أخرى مثل: "اضطرابات تناول الطعام" (EATDIS) ولتحديد متغيرات لها قيمة "نعم" ومتغيرات لها قيمة "لا" (انظر هس- بيبر وكارتر، ٢٠٠٤، ص ٨٩، وذلك لوقوف على المزيد من التفاصيل).

الخطوة الثالثة: نقل فئات التصنيف المكممة إلى حزمة برامج إحصائية جاهزة للتحليل الكمي

تم بعد ذلك نقل فئات التصنيف المكممة (والتي حُوِّلت الآن إلى متغيرات) إلى حزمة برامج جاهزة إحصائية سعياً إلى الحصول على مختصرات كمية للعلاقات المحورية التي تم التعرف عليها في سؤال البحث. ويمكننا أن نرى طرفاً من النتائج التي توصلت إليها هذه العملية في الجدول ٢/٩.

فالجدول ٢/٩ يُظهر، بصفة خاصة، وجود علاقة قوية بين بي بي إس سي (أي الانتقادات الصادرة من الأسرة والأقران) وما هو مُسجل من أعراض اضطرابات تناول الطعام (EATDIS): كعرض الشره المرضي، وعرض فقدان الشهية. والواقع أن الباحثين واصلنا العمل لتدقيق هذه العلاقة عن طريق البحث في المتغيرات المكممة (الكيفية التي حولت إلى كمية) الأخرى التي تصوّرنا أنها ربما تكون مرتبطة بهذه النتيجة، ولزيادة تأكيد هذه النتيجة عن طريق البحث عن عوامل أخرى قد تضعف أو تدعم وجود علاقة بين الانتقاد وظهور أعراض اضطرابات الأكل. ومما يثير الانتباه، أن الباحثين اكتشفنا أنه حين يكون أحد الوالدين بدينا وينتقد جسم ابنته، فإن كلماته تكون أضعف تأثيراً مما لو كان غير بدين.

جدول ٢/٩: العلاقة بين الإصابة بأحد اضطرابات الأكل (EATDIS) والنشأة مع آباء وأمهات وأقران وأشقاء "منتقدين" لجسد الفتاة وعاداتها في الأكل (PPSC) الانتقادات الصادرة من الوالدين أو الأقران أو الأشقاء (PPSC)

لا		نعم	اضطرابات تناول الطعام EATDIS
١٢,٨	٥٦,٣	نعم	
(٥)	(٩)		
لا		نعم	
٨٧,٢	٤٣,٨		اضطرابات تناول الطعام EATDIS
(٣٤)	(٧)		
%١٠٠	%١٠٠		
(٣٩)	(١٦)	ن=٥٥	

جدول مأخوذ من هس - بيبر وكارتر، ٢٠٠٤، ص ٨٩.

مكنت عملية التكميم الباحثين من الإيضاح التام للظروف التي في ظلها تكون العلاقة الأصلية بين الانتقاد واضطرابات الأكل أقوى وأشد (عندما تكون الأم غير بدينة) أو أضعف (عندما تكون الأم بدينة). وتلاحظ المؤلفتان أنه يوجد:

تفاعل بين بي بي سي إس (أي الانتقادات الصادرة من الوالدين، والأقران، والأشقاء) وكون أحد الوالدين بدينا (أو غير بدين)، عند تقرير مدى احتمال إصابة الفتاة التي تتم مقابلتها بأحد اضطرابات الأكل. وبصورة أكثر تحديداً وجدنا أن الانتقادات لا يكون لها أهمية في الواقع إلا في سياق الأسرة التي يكون فيها الوالدان غير بدينين. ومُوجز القول، يبدو أن انتقاد أحد والدي الفتاة لابنته وهو بدين، يكون قليل التأثير على إصابة ابنته بأحد اضطرابات الأكل، بينما يكون لدى الابنة ذات الوالدين النحيفين احتمال قوي للإصابة بالشره المرضي أو بفقدان الشهية للطعام. (هس - بيبر وكارتر، ٢٠٠٤، ص ٨٩).

استخدام المتغيرات الكمية في تحسين مستوى التحليل الكيفي مباشرة:

تكيف البيانات (تحويلها من الكمي إلى الكيفي)

كيف يتسنى للباحث استخدام المعلومات الكمية بصورة مباشرة في التحليل الكيفي لبياناته؟ هذا هو الوضع الذي تجري فيه معالجة النتائج المأخوذة من البيانات الكمية بإدخالها مباشرة في تحليل كيفي. ويُستعمل مصطلح "التكيف" Qualitizing للإشارة إلى عملية تحويل البيانات الكمية إلى بيانات كيفية (انظر تشكري وتدلي، ١٩٩٨، وهما اللذان صكاً هذا المصطلح للمرة الأولى، وانظر كذلك ساندلوسكي، ٢٠٠٠، ص ص ٢٥٣-٢٥٤). ويقوم "تكيف" البيانات الكمية برفع مستوى فهم الباحث للبيانات الكمية عن طريق وضعها في سياق كيفي، خالفاً بذلك نوعاً مُهجّناً من التحليل. كما أن البيانات الكمية تزود الباحثين بمجموعة من المتغيرات التي بها يُصنّفون بياناتهم الكيفية إلى فئات كمية ليرفعوا مستوى قابلية نتائجهم للتعميم. فقد يرغب الباحث الذي يحول بياناته إلى كيفية في رفع مستوى فهمه للمتغيرات الكمية عن طريق إدخال هذه المتغيرات في سياق كيفي.

وقد اشتملت الدراسة التي قامت بها هس-بيير (١٩٩٦) عن صورة الجسد عند النساء واضطرابات الأكل على كل من البيانات الكيفية والكمية معاً. إذ قامت الباحثة بإجراء مقابلات مع عينة من الشابات اللاتي مَضَى على تخرجهن في الجامعة سنتان، أعقبتهن بأن كلفت مبحوثاتها بأن يقمن بأنفسهن بملء بيانات استبيان يتعلّق بميول النساء تجاه الأكل، كما يتضمن طائفة من المقاييس الكمية لاضطرابات الأكل. وقد تمت مُضاهاة المقابلات والاستبيانات بالنسبة لكل مبحوثة على حدة، ممن تناولتهن في دراستها. وقد ابتكرت هس-بيير نوعاً من "تتميط الأكل" (أي: مقياساً من مقاييس الأكل) بناءً على البيانات الكمية التي تحصلت عليها. ووفرت لها البيانات الكيفية المستمدة من المقابلات المكثفة نوعاً من "التأكيد والتدعيم" الأكثر تفصيلاً لدلالة مقياس الأكل المذكور الذي ابتكرته هس-بيير. يضاف إلى ذلك أن هذا المقياس الكمي قد زودها بفئات كمية لاستعمالها في تمييز مُفردات عينتها الكيفية وفي رفع مستوى

إمكانية تعميم نتائج بحثها الخاصة بأنماط الأكل لدى النساء. وقد استعملت هس - بيبر النتائج المستمدة من الدراسة الكمية للوصول إلى بعض الاستنتاجات المتعلقة بالبيانات الكيفية.

خطوات عملية التكيف (تحويل الكمي لكيفي)

الخطوة الأولى: جمع البيانات: كيف ستجمع بياناتك الكمية؟ هل سيتم ذلك بالتوازي مع البيانات الكيفية الرئيسية (في نفس الدراسة، وفي الوقت رقم ١)؟ أم في دراستين مختلفتين (في الوقت رقم ١ والوقت رقم ٢)؟ وما هي البيانات التي سوف تجمعها أولاً؟ وهل ينبغي أن تجمع كل نوع من البيانات على حدة بامتداد (باستعمال خطة طولية ذات طرق بحث مختلطة، في الوقت رقم ١، وفي الوقت رقم ٢، والوقت رقم ٣، وهكذا)؟ وقد عمدت هس-بيبر (١٩٩٦) إلى جمع نوعي البيانات كليهما في نفس الدراسة عن طريق إجراء مقابلات متعمقة تتناول اضطرابات الأكل لدى خريجات الجامعة (QUAL وهي الدراسة التي كانت البيانات الكيفية فيها هي البيانات الرئيسية) بجانب قيامها بإجراء استبيان مقنن عن ميولهن تجاه الطعام (QUANT وهو يمثل الدراسة التي تكون البيانات الكمية فيها هي البيانات الرئيسية) حيث كانت تسلمهن هذا الاستبيان لاستيفائه بعد إجراء المقابلة المتعمقة مباشرة.

وترى هس-بيبر (١٩٩٦) أن كلا نوعي البيانات كان يُعدّ رئيسياً بالنسبة لبحثها (أي كفي رئيسي وكمي رئيسي). وقد بنت خطتها في التحليل على أساس مشكلة بحثها. ومع ذلك، فإن ما فعلته إنما هو مجرد طريقة واحدة، من بين طرق كثيرة بها يمكنك الجمع بين البيانات الكمية والبيانات الكيفية، كما أنها تُثير القضية الخاصة بكيفية قيامك بتحقيق التكامل التام بين نوعي البيانات كليهما في خطتك الخاصة بالتحليل. وإن القضايا الخاصة بهذا التكامل تتغلغل إلى لب المقصود من "تكيف" بياناتك الكمية (أي تحويلها إلى كيفية).

الخطوة الثانية: حدد نمط ومستوى دمج البيانات الكمية: إن "التكيف" (تحويل الكمي إلى كفي) يتضمن إدخال المتغيرات الكمية في تفاعل مع البيانات الكيفية، كما يتم تنفيذه - في العادة - عندما يرغب الباحث في استعمال طرق

متعددة لدراسة بياناته، أو عندما يرغب في توضيح مفاهيم معينة في دراسته، وذلك عن طريق طرحه لهذين السؤالين التاليين على نفسه:

- هل تريد أن تستعمل البيانات الكمية لتضفي على بياناتك الكيفية مزيداً من الوضوح والتحديد؟
- هل تريد أن تستعمل البيانات الكيفية لتضفي على بياناتك الكمية مزيداً من الوضوح والتحديد؟

فهذان السؤالان يُفسران الطرق المختلفة للتحويل إلى كيفي. إذ يتعين على السؤال الأول أن ينصب على استعمال المتغيرات الكمية داخل دراسة كيفية لتبث/ أو توفر نوعاً من الفهم الأعمق لمعنى فئات التصنيف الكيفية. فهيا بنا نعدُ إلى دراسة هس- بيير (١٩٩٦). فقد قامت بجمع الدرجات التي حصلت عليها المستجيبات في الاختبار الخاص باتجاهات الأكل (EAT)^(*) وفي قائمة اضطرابات الأكل (EDI)^(**) لتصوغ متغيراً ثنائياً كمياً تسميه اضطرابات الأكل وله فئتان "نعم" و "لا". فقد كانت تريد أن تفهم مدى توافق هذا المتغير الكمي مع مقياس مشابه استمدته من بياناتها الكيفية عن اضطرابات الأكل، وهو فئة استقرائية أسمتها فئة اضطرابات الأكل^(***). فأين يوجد الاتفاق؟ وأين يوجد الاختلاف (الناجم عن تعدد الطرق المستخدمة لإثبات هذا المفهوم)؟ (وقد يساعدها هذا التصرف على توضيح معنى فئتها التصنيفية الأخيرة الخاصة باضطرابات الأكل). فالهدف هو المساعدة في إضفاء معنى أوضح على فئاتها التصنيفية الكيفية.

ويُتضمن السؤال الثاني "معنى" المتغير الكمي الموجود في سياق ما. فما معنى أن تحصل إحدى المبحوثات على درجة عالية في المتغير ED الخاص باضطرابات الأكل؟ وقد نستعمل هذا المتغير لتصنيف المبحوثات بناءً على عدد من فئات التصنيف الكيفية الخاصة بصورة الجسد من أجل اكتساب فهم أعمق للسياق الذي تتحدث فيه المبحوثات عن مشاغلهن المتعلقة بأجسادهن باستعمال الفئات الموجودة في المتغير الخاص باضطرابات الأكل. و بادماجنا

(*) Eating Attitude Test.

(**) Eating Disorders Inventory.

(***) EATDIS=Eating Disorders.

لمتغيرنا الكمي هذا في بياناتنا وفئاتنا التصنيفية الكيفية يصبح بوسعنا تحقيق المزيد من وضوح المعنى على المستوى المحدود/ أو المايكرو وعلى المستوى الكبير/أو الماكرو.

من المزايا المهمة لاستعمال خطة للتحليل قائمة على البيانات المختلطة أنها تمكن الباحث من إدراك العلاقات المعقدة في بياناته الكيفية. ذلك أن القدرة على تحويل البيانات الكيفية إلى كمية ودمج البيانات الكمية في التحليل الكيفي توفر نوافذ تحليلية مختلفة لاكتشاف الأنماط المتكررة داخل البيانات الكيفية والخروج من هذه الأنماط بأرقام دقيقة يمكن إخضاعها للمعالجة بالأساليب والطرق الإحصائية. كما أنها توفر سياقاً لفهم المتغيرات المستخرجة بطريقة كمية. ومع ذلك، فإن استعمال هذه الأساليب التكميلية/ التكيفية لتغيير شكل البيانات وتحليلها يتسبب في إثارة طائفة من القضايا التي تتجم عن تخطي الحد الفاصل بين عالم التحليل الكيفي وعالم التحليل الكمي.

شاهد ذلك أنه توجد قضايا نظرية (كالقضايا الإستمولوجية/ والقضايا المتعلقة بطرق البحث)، كما توجد قضايا ذات طابع أكثر عملية (كقضية كيفية اختيار تحليل إحصائي مناسب للمتغيرات الكيفية^(*))، وكيفية تفسير نتائج البحث؛ هذه القضايا جميعها بتعيين إدخالها في الحساب عندما يطبق الباحث هذه التقنيات الجديدة. ذلك أن تغيير شكل فئات التصنيف الكيفية والتعامل معها أو معالجتها باعتبارها "متغيرات" يمثل انتهاكا لبعض مسمكات القياس المهمة المتعلقة بكيفية جمع المتغيرات الكمية (كالقضايا الإحصائية المتعلقة باختيار العينة العشوائية مثلاً) خاصة عندما تتعارض بيانات الباحث مع الأشكال القياسية للسؤال، وذلك كما هو الحال في المقابلات ذات النهاية المفتوحة، وفي الكثير غيرها من أشكال البحث الكيفي. فنجد مثلاً في الدراسة التي عرضنا لها من قبل عن اضطرابات الأكل، هس- بيبر وكارتر (٢٠٠٤) تلاحظان أنه في الوقت الذي ناقشت فيه كثيرات من الفئات اللاتي جرت مقابلتهن مدى انتقاد والديهن وأقرانهن وأشقائهن لصورة أجسادهن - الأمر الذي دفع الباحثين إلى تحويل هذه "الفئة التصنيفية" إلى "متغير" أسمته بي بي إس سي PPSC(أي:

(*) أي المتغيرات التي تمت بلورتها من البيانات الكيفية بعد تحويلها إلى كمية (المراجع).

الانتقاد الصادر من الوالدين أو الأقران أو الأشقاء) - فإنه لم يتم سؤال كل الفتيات اللاتي جرت مقابلتهن عن هذه القضية بأسلوب قياسي موحد، على النحو الذي يجري العمل به في أي مسح كمي. كما أن الباحثين لم تبذلا جهداً لإبراز هذه القضية الخاصة في كل مقابلة فردية. لذلك، فإن الخطأ في القياس يُشكل همّاً حقيقياً وشغلاً شاغلاً عند أي إنسان يتبع الطريق الذي نقترحه في هذا الفصل.

وتوجد وجهات نظر مضادة لهذه الانتقادات. أولاً، قد يذهب الكثيرون إلى أن الفتيات اللاتي تجري مقابلتهن يملن إلى تضخيم تلك الأمور في حياتهن. ومن ثم تكون الباحثة في غنى عن القلق الزائد من مسألة عدم توجيهها انتباه كل فتاة تُقابلها إلى كل "فئة تصنيفية" على حدة (هس-بيير وكارتر، ٢٠٠٤). كما يوجد القلق الآخر فيما يتصل بكيفية تحليل هذا النوع من البيانات. فهل ينبغي استعمال الأساليب الإحصائية المعيارية، والتي منها مثلاً المقاييس الإحصائية السائدة لقياس مقدار الارتباط بين متغيرين، كمقياس مربع كاي/أو كاي تربيع، أو غيره من الأساليب الإحصائية الأكثر تعقيداً، كالتحليل اللوغاريتمي الخطي؟

يتعين معالجة كل قضية من هذه القضايا بالرجوع إلى الأهداف الأساسية لمشروع البحث ذي الطرق المختلطة، وبالرجوع كذلك إلى ما يقوم به الباحث من تأمل نقدي ذاتي لموقفه الإستمولوجي. فالذي يُعدُّ قيّداً أو قصوراً عند باحث يُعد فرصة مواتية عند آخر، وذلك اعتماداً على أهداف الباحث ووجهة نظره الإستمولوجية. فقد يتخوف الباحث الوضعي من فكرة تحويل فئات التصنيف (الكيفية) إلى متغيرات (كمية)، كما أنه -بالتأكيد- سوف يعد هذا التحويل بمثابة انتهاك جسيم لمعايير القياس الوضعية. وفي مقابل ذلك، قد يكون الباحث الكيفي الذي تلقى - إلى جانب دراسته الكيفية - تدريباً كمياً، قد يكون مُفتحاً على أشكال التحليل الوضعية، حيث يستعمل المتغيرات المُكممة (الكيفية التي حولت إلى كمية) كأداة استرشادية مهمة يمكن أن تكشف له عن العلاقات المحتملة التي من الممكن استكشافها بصورة أوفى في بعض الدراسات المتميزة المستوى والمستمدة من كلا الاتجاهين الكيفي والكمي معاً. والواقع أن مثل هذا التحليل يمكنه رفع مستوى الركائز العلمية الوضعية للبحث عن طريق تكرار الدراسات، كما يمكنه في الدراسة

المكررة أن يتأكد من أن "فئات التصنيف التي وَجَدَ الباحث أنها هي الأهم في الدراسة السابقة قد طُرحت على كل الأفراد الذين أُجريت معهم المقابلات. يُضاف إلى ذلك أننا عن طريق استخلاص المتغيرات (الكمية) من مادة دراستنا الكيفية، نقوم بالتحديد الدقيق لفئات التصنيف المهمة التي يمكن -مثلاً- إعادة صياغتها كبنود في بحث مسحي قائم على الاختيارات المُحددة، أو دمجها في دراسات كيفية تستعمل أسلوباً في المقابلة أكثر توجيهاً للمبحوثين وأكثر تركيزاً على الاختيارات المحددة.

وينبغي أن يُنظر إلى التكميم (تحويل الكيفي إلى كمي) أو التكييف (تحويل الكمي إلى كيفي) باعتبار كل منهما "وسيلة لصياغة أساليب مُتاحة تضيف قوة وحساسية إلى الحكم الفردي عندما يحاول المرء أن يستكشف ويصف النماذج النمطية الموجودة في مجموعة ما من الملاحظات" وينسب Weinstein و Tamur ١٩٧٨، نقلاً عن مايلز و هوبرمان ١٩٩٤، ص (٤١).

* * *

خاتمة

تمثل خطط البحث ذات الطرق المختلطة فرصة واعدة للباحث الذي يريد أن يعالج المشكلات المعقدة التي لها مستويات متعددة -فردياً وكذلك اجتماعياً - إذ يمكنها أن ترفع مستوى المعلومات المجموعة، كما يمكنها أن تقوم بتعزيز صدق كل من المشروعات البحثية الكيفية والمشروعات البحثية الكمية على السواء. وثمة فكرة تذهب إلى أن استعمال كلا الأسلوبين يتيح للباحث أن يستخرج الأفضل في كلتا الطريقتين (بزيادة صدق دراسة معينة من خلال استعمال طرق متعددة للبحث، مثلاً)، وذلك في نفس الوقت الذي يقوم فيه بالتعويض عن نقاط الضعف في الطريقة الأخرى. والفكرة - وكما أشرنا من قبل - هي أن "الكلُّ أكبر من مجموع أجزائه". إذا اتفقنا على ذلك، فلا بد من القول بأن ثمة طائفة من التنبيهات - ابتداءً من التنبيهات النظرية وانتهاءً بالتنبيهات العملية - التي يتعين على المرء أن يُدخلها في حسابه عند استعمال خطط بحث ذات طرق مختلطة. ذلك أن الطرق المختلطة تظمس الخط القائم

بين النماذج الفكرية للبحث، كما أنه ليس واضحاً مدى وجوب اهتمام الباحثين بهذه الخطط. كما أنه يوجد هؤلاء "البراجماتيون" الذين يدعون إلى استعمال أي طرق تقيد عملياً، مع قلة الالتفات أحياناً لقضايا الإبيستمولوجيا وقضايا المنهج. بينما يرى آخرون - ممن يسمون "الصفائيين" أو دعاة النقاء المنجي والنظري - أن مثل هذا التجاوز للحدود الفاصلة بين النماذج يمثل انتهاكاً لصميم أسس الفكر العلمي. ويتخذ كثيرون غيرهم مواقف وسط بين هاتين النظريتين تقع على خط متصل ممتد ومتدرج، يوجد على كل طرف منه واحد من هذين الموقفين وتتدرج على امتداده شتى الآراء والمواقف من هذه المسألة.

إن الطرق المختلطة ليست تريباقاً، أي ليست نوعاً من الدواء السحري الذي يصبه المرء على المشروع البحثي ليجعله يعمل بكفاءة وينجح. فالطرق المختلطة إنما هي أساليب للوصول إلى بناء المعرفة. وما زاد عن ذلك فليس بالضرورة أن يكون أفضل؛ إذ قد لا يكون الكل/أو المجموع أكبر من أجزائه. والواقع، وكما يتضح من المقابلة التي أجريناها ونذكرها في فقرة "خلف الكواليس" (في موضع لاحق من هذا الفصل) تحذرنا جانيس مورس Janice Morse - وهي باحثة كيفية رائدة - من الاعتقاد بأن الطرق المختلطة تمثل بديلاً عن التفكير النظري الواضح والدقيق وعن التحليلات الثاقبة المتعمقة. وهي تثير - مُجدداً - تلك القضايا المهمة التي عالجناها من قبل في هذا الفصل والتي يتعين أن تكون ذات صلة بتكلفة تنفيذ مشروع بحثي مُختلط وبالتدريب المطلوب للقيام بهذا العمل.

ومن هذه القضايا مثلاً قضية إلى أي مدى يُمكن لباحث معين أن يكون متمكناً من كلتا الطريقتين؟ وهل يكون الأمر ضاراً أكثر مما يكون نافعاً حينما لا يكون الباحثون مُدرّبين تدريباً كافياً على كلتا الطريقتين؟ يُضاف إلى ذلك، أن "مورس" تثير قضايا ناجمة عن التوقعات التي تنتظرها الجهات الممولة من الباحث، وعن الضغط الذي قد يشعر به بعض الباحثين حتى يُنفذ خطة ما من خطط البحث المختلطة الطرق بناءً على توصية/أو تكليف الجهة الممولة، وقد تكون هذه الخطة مستقلة عن مشكلة البحث (انظر برانن Brannen، ١٩٩٢،

ص ٢٠)! ولعل الكلمة الصائبة التي ذكرتها مورس في مقابلتها هي كلمة "الهراء/أو التخاريف" للإشارة إلى رأي من يتصورون أن أي طريقة - بمفردها - تحتوي على كل الأجوبة المطلوبة على مشكلات البحث. أما الأمر الذي لم تكن مورس حاسمة فيه فهو أهمية ألا يفقد الباحث رؤيته للإسهام الذي توأصل الطرق الكيفية بتقديمه - وهي في صورتها النقية الخالصة - لفهمنا لطبيعة الواقع الاجتماعي (انظر كذلك مورس، ١٩٩٦) والحق أن مداومة الانتباه لجوهر هذا الرأي تمثل ما هو مطلوب منا حتى نقادي أن نضل طريقنا ونحن نسعى لبناء المعرفة.

خلف الكواليس مع جانيس مورس

خلف الكواليس مع جانيس مورس، وهي إحدى الرائدات في ميدان البحوث الكيفية في أمريكا الشمالية. فقد أنشأت "المعهد الدولي للمناهج الكيفية، بجامعة ألبرتا، كندا، في ١٩٩٨ (<http://www.ualberta.ca/~iiqm/>). ونقتصر هنا على تقديم نصٍ مُستخلصٍ صغيرٍ من المقابلة الكاملة التي سبق أن أجراها عالم الاجتماع المكسيكي سيزار سيسنيروس Cesar Cisneros في حلقتين نشرتا في يناير ومايو ٢٠٠٤.

الطرق المختلطة و "الدافع النظري"

سيسنيروس: ما هي رؤيتك لمسيرة تطور الطرق المتعددة؟ وكيف سيتعامل الباحثون الكيفيون مع هذا التنوع والاختلاف؟
مورس: أرى أنها بسبيلها للوقوع في فوضى رهيبية، إلا أنها سوف تُرتب أمورها تماماً في نهاية الأمر.

سيسنيروس: ما هو نوع "الفوضى الرهيبية" التي تتحدثين عنها؟

مورس: أرى أن الناس يفتقر إلى المهارات التحليلية اللازمة لمعالجة البيانات الكيفية والبيانات الكمية كليهما. ولا أظن أنه قد بذلت جهود كافية في مجال التطوير النظري، بل ولا أظن أن هناك عدداً كافياً من الناس يرغبون - مجرد رغبة - في إحداث التطور النظري، وهم قانعون تماماً بما يقدمونه من

توصيفات^(*). فأننا أتصور أن الضغط لتطبيق الطرق المختلطة، من أجل الحصول على تمويل للبحث، أصبح الآن يُهيمن أو يطغى على أهداف البحث الكيفي. وأظن أن جهات التمويل التي نقول إنها تمول البحوث الكيفية، إنما تقصد بالفعل أنها تمول الطرق المختلطة. ومع ذلك فإن هذا الوضع هو الذي يضع البحوث الكيفية في موقع متدنٍ.

سيسنيروس: ما هي الدلالات الإمبيريقية لاستعمال الطرق المختلطة؟ أعني أن كل واحد منا، وهو يواجه تَعَقُّدَ العالم الواقعي سيجد نفسه - بالتأكيد - أشد حاجة إلى الطرق المختلطة والمتعددة.

مورس: لا أظن أنه يتوجب علينا جميعاً أن نستسلم لهذه الضغوط. فأننا أرى أنني يجب أن أستعمل الطرق المتعددة إذا كانت خطة البحث تقتضي ذلك، وليس لمجرد إرضاء الجهات الممولة.

سيسنيروس: هل نفعل ذلك لأننا بحاجة إلى هذا النوع من البحوث متعدد الطرق لننتج المعرفة؟

مورس: كلام فارغ... هُراء... فالمعرفة الأساسية تتحصل أيضاً من القيام بالبحوث الكيفية وحدها.

سيسنيروس: ولكن هل يحتاج البحث الكيفي للطرق المتعددة؟

مورس: لا، إنه لا يحتاج للطرق المتعددة، والصواب أن نقول إن الجهات الممولة تشترط استخدام طرق البحث المتعددة، وأن بعض القضايا المطروحة في البحوث قد تتطلب استخدام الطرق المتعددة.

* * *

(*) تقصد تقارير البحوث التي تقتصر على الوصف دون التحليل (المراجع).

تعريف بالمصطلحات

- **Complementarity** **الاكتمال**
من أسباب استعمال خطة ذات طرقٍ مختلطةٍ مطلب تحقيق الاكتمال الذي عن طريقه يسعى الباحث لاكتساب فهم أتمٍّ لمشكلة البحث و/أو لتوضيح نتيجة معينة من نتائجه.
- **Concurrent** **المتزامن (أو المصاحب)**
يحدث التزامن أو المصاحبة عندما تستعمل طريقتان في نفس الوقت، ولكن مع الحفاظ على التمييز بين الطريقة الرئيسية والطريقة الثانوية.
- **Data Triangulation** **تعدد البيانات**
يحدث ذلك عند الاعتماد على مصادر مختلفة للبيانات بتطبيق نفس الطريقة أو بتطبيق الطرق الأخرى.
- **Development** **التطوير/ أو الإظهار**
ويحدث عندما تساعد النتائج المستمدة من إحدى الطرق في تطوير الطريقة الأخرى أو تدعيمها وزيادة كفاءتها.
- **Equal Footing** **المساواة (بين الطرق)**
ويحدث عندما توضع كلتا الطريقتين على قدم المساواة بدون التمييز بين طريقة أساسية وطريقة ثانوية.
- **Expansion** **التوسع**
يحدث اللجوء إلى التوسع بغرض توسيع مجال الدراسة ومداها. وقد يشمل تفسير سبب استعمال الطرق المختلطة.
- **Heuristic Device** **الوسيلة الاسترشادية**
قد يكون الباحث الكيفي الذي تلقى - كذلك - تدريباً كمياً، مُفتحاً على التحليلات الوضعية ومتقبلاً لها، حيث يستعمل المتغيرات المكتملة (المحولة من كيفي إلى كمي) كأداة أو وسيلة استرشادية مهمة تكشف عن العلاقات المحتملة التي يمكن استكشافها بصورة أوفى وأتم في الدراسات الأكثر تميزاً وإحكاماً والمأخوذة من كلا الاتجاهين الكيفي والكمي.

• الإثارة أو الحفز • Initiation

يتمثل أحد أسباب استعمال الطرق المختلطة في عملية الإثارة أو الحفز، وذلك حين تتسبب نتائج دراسة بحثية معينة في إثارة التساؤلات، أو عندما تحتوي على تناقضات تتطلب التوضيح.

• تعدد طرق البحث • Methods Triangulation

هو استعمال طرق البحث المختلفة المتعددة.

• مزج النماذج الفلسفية • Mixing of Philosophical Paradigms

تقوم خطة البحث ذات الطرق المختلطة بمزج الفروض والأسس الفلسفية الكيفية والكمية، وخاصة ما كان منها متصلاً بالقضايا المعنية بطبيعة الفرد والمجتمع، من قبيل مشكلة: "الموضوعية والذاتية".

• المدمج/أو المتضمن • Nested

يحدث ذلك عندما يتم "دمج" أو تضمين طريقة بحث (كيفية أو كمية) في الأخرى مع إعطاء الطريقة المدمجة درجة أدنى من حيث الأولوية. وقد يصل الأمر إلى استخدام الطريقة المدمجة في الإجابة عن سؤال بحثي آخر، وذلك على الرغم من أن كلتا الطريقتين تستخدمان في تحليل البيانات.

• المواقف الفكرية النظرية • Paradigmatic Standpoints

قد يصل الأمر بالموقف الفكري النظري للباحث (أي المتصل بمسلماته الإستمولوجية والفلسفية) إلى أن يتغير على امتداد مسار أي مشروع بحثي معين.

• عملية التكميم (تحويل الكيفي إلى كمي) • Quantizing Process

تُتيح لنا عملية التكميم أن ننظر إلى البيانات الكيفية بصورة أكثر اتصافاً بالطابع الكمي، وذلك عن طريق تحويل بياناتنا الكيفية (أي: فئات التصنيف) إلى بيانات كمية (أي: متغيرات).

• الدراسات المتعاقبة (في ترتيبها الزمني) • Sequential (Time-Ordering) Studies

وذلك عندما تجري الدراسات واحدة بعد الأخرى.

• Synergistic

• التعاوني/أو التبادلي

يُتيح الجمع بين طريقتي بحث مختلفتين إنشاء مشروع بحثي تعاوني، حيث تُمكن إحدى الطريقتين الطريقة الأخرى من أن تكون أكثر فعالية، كما تقومان معاً بتقديم فهم أوفى وأتمّ لمشكلة البحث (جرين، و كارسلي، ١٩٩٧، وانظر سيبر Sieber، ١٩٧٥، للاطلاع على مثال مبكر للتعاون الذي يمزج بين طريقة "البحث الميداني" وطريقة "البحث المسحي").

• Triangulation

• استعمال طرق متعددة للبحث

تشتمل هذه الاستراتيجيات على استعمال أكثر من طريقة بحث لدراسة نفس مشكلة البحث. حيث يسعى الباحث للوصول إلى "نقطة التقاء" لنتائج البحث، حتى يرفع من مستوى مصداقية هذه النتائج.

• Theoretical Triangulation

• استعمال منظورات فكرية متعددة

وقد آل الأمر بهذا المصطلح إلى أن يعني استعمال رؤى نظرية مختلفة في دراسة واحدة.

* * *

أسئلة للمناقشة

- ١- استعرض بعض المبررات التي تفسر لماذا قد يعتمد الباحث إلى استخدام الاتجاه القائم على طرق البحث المختلفة؟
- ٢- كيف يتسنى لطرق البحث أن "تتحدث مع بعضها البعض"؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

• Glossary of Mixed-Methods Terms/Concepts

• معجم مصطلحات ومفاهيم الطرق المختلطة

<http://www.fiu.edu/~bridges/glossary.htm>

يعد هذا الموقع مصدراً للوقوف على المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالبحوث التي تستخدم مزيجاً من طرق البحث. ويتبنى هذا الموقع

المصطلحات الواردة في كتاب تشكرى و تبدلى: المدخل إلى الطرق المختلطة في البحوث الاجتماعية والسلوكية (٢٠٠٣).

- **Research Design and Mixed Method Approach A Hands-On Experience** تصميم البحوث وأسلوب الطرق المختلفة: خبرات الممارسة الفعلية

<http://www.socialresearchmethods.net/tutorial/sydenstricker/bolsa.html>

يفيد هذا الموقع في التعرف على استخدام طرق البحث المختلطة كما تمارس فعلا في البحوث.

- **Employing Multiple Methods** استخدام الطرق المختلفة

<http://writing.colostate.edu/references/research/observe/pop4b.cfm>

يقدم هذا الموقع دليلا للكتابة باستخدام طرق البحث المختلطة.

* * *

References المراجع

- CNN. (2005, 10 January). *Treating children's emotional wounds*. Retrieved from <http://www.cnn.com/2005/WORLD/asiapcf/01/05/tsunami.children.cope/>
- Bjerer, G. (2004, November 25-27). *Combining social survey and ethnography integration research: An example*. Paper presented at the 2nd conference of the EAPS Working Group on International Migration in Europe, Rome, Italy.
- Brannen, J. (1992). Combining qualitative and quantitative approaches: An overview. In J. Brannen (Ed.), *Mixing methods: Qualitative and quantitative research* (pp. 3-36). Aldershot, UK: Avebury Press.
- Byman, A. (1988). *Quantity and quality in social research*. London: Unwin and Hyman.
- Cisneros-Puebla, C.A. (2004, September). "Let's do more theoretical work...": Janice Morse in conversation with César A. Cisneros-Puebla [96 paragraphs]. *Forum Qualitative sozial-forschung/Forum: Qualitative social research* [Online Journal], 5(3), Art. 33. Available at: <http://www.qualitative-research.net/fqs-texte/3-04/04-3.33.e.htm>
- Coleman, T., Williams, M. & Wilson, A. (1996). Sampling for qualitative research using quantitative methods: Measuring GP's attitudes towards discussing smoking with patients. *Family Practice*, 13, 526-530.
- Cragg, A., Dawson, T. (1981, May). Qualitative research among homeworkers. Research Paper No. 21. London: Department of Employment.
- Creswell, J. W. (2003). *Research design: Qualitative and quantitative approaches* (2nd ed.) Thousand Oaks, CA: Sage.
- Creswell, J. W. (1999). Mixed-method research: Introduction and application. In G.J. Cizek (Ed.), *Handbook of educational policy* (pp. 455-472). San Diego, CA: Academic Press.

- Creswell, J. W., Fetters, M.D., & Ivankova, N. V. (2004, January/February). Designing a mixed methods study in primary care. *Annals of Family Medicine*, 2 (1), 7-12.
- Denzin, N. K. (1978). *The research act: A theoretical introduction to sociological methods*. New York: McGraw-Hill.
- Fielding, N. G., & Lee, R. M. (1998). *Computer analysis and qualitative research*. London: Sage.
- Gioia, D. A. & Thomas, J.B. (1996). Identity, image, and issue interpretation: Sensemaking during strategic change in academia. *Administrative Science Quarterly*, 41, 370-403.
- Greene, J. C., Benjamin, L., & Goodyear, L. (2001). The merits of mixing methods in evaluation. *Evaluation*, 7(1), 25-44.
- Greene, J. C., & Caracelli, V. J. (Eds.). (1997a). *Advances in mixed-method evaluation: The challenges and benefits of integrating diverse paradigms (New Directions for Evaluation # 47)*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Greene, J.C., & Caracelli, V.J. (1997b). Defining and describing the paradigm issues in mixed-method evaluation. In J. C. Greene & V.J. Caracelli (Eds.), *Advances in mixed-method evaluation: The challenges and benefits of integrating diverse paradigms (New Directions for Evaluation # 74)* (pp. 5-17). San Francisco: Jossey-Bass.
- Greene, J.C., Caracelli, V.J., & Graham, W.F. (1989). Toward a conceptual framework for mixed-method evaluation designs. *Educational Evaluation and Policy Analysis*, 11, 255-274.
- Guba, E.G. (1985). The context of emergent paradigm research. In Y.S. Lincoln (Ed.), *Organizational theory and inquiry* (pp. 79-104). Newbury Park, CA: Sage.
- Guba, E. G., & Lincoln, Y.S. (1994). Competing paradigms in qualitative research. In N. K. Denzin & Y. S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 105-117). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Heise, D. (1991). Event structure analysis: A qualitative model of quantitative research. In N. Fielding & R. Lee (Eds.), *Using computers in qualitative research* (pp. 136-463). London: Sage.
- Heise, D., & Lewis, E. (1988). *Introduction to ETHNO*. Raleigh, NC: National Collegiate Software Clearinghouse.
- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet? The cult of thinness and the commercialization of identity*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S. & Carter, G. L. (2004). Linking qualitative and quantitative analysis: The example of family socialization and eating disorders. In G. L. Carter (Ed.), *Empirical approaches to sociology: A collection of classic and contemporary readings* (4th ed., pp. 83-97). Boston: Pearson/Allyn & Bacon.
- Hesse-Biber, S., & Dupuis, P. (1995). Hypothesis testing automation for computer-aided qualitative data analysis. In U. Kelle (Ed.), *Computer-aided qualitative data analysis: Theory, methods and practice*. London: Sage.
- Hesse-Biber, S., Dupuis, P., & Kinder, T.S. (1991). HyperRESEARCH: A computer program for the analysis of qualitative data with an emphasis on hypothesis testing and multimedia analysis. *Qualitative Sociology*, 14(4), 289-306.
- Hesse-Biber, S., & Maietta, R.C. (2005). *When methods meets technology: A critical examination of qualitative software evolution*. Thousand Oaks, CA: Sage.

- Johnson, B., & Christensen, L. (2000). *Educational research: Quantitative and qualitative approaches*. Boston: Allyn and Bacon.
- Kutner, J. S., Steiner, J. F., Corbett, K. K., Jahnigen, D. W., & Barton, P. L. (1999). Information needs in terminal illness. *Social Science & Medicine*, 48, 1341-1352.
- Li, S., Marquart, J.M., & Zercher, C. (2000). Conceptual issues and analytic strategies in mixed-method studies of preschool inclusion. *Journal of Early Intervention*, 23-116-132.
- Lincoln, Y.S., & Guba, E. G. (2000). Paradigmatic controversies, contradictions, and emerging confluences. In N.K. Denzin & Y.S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed., pp. 163-188). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Lincoln, Y.S. & Guba, E.G. (1985) *Naturalistic inquiry*. Beverly Hills, CA: Sage.
- McGowan, K. (2005, 10 January). Thai village struggles to rebuild. *CNN*. Retrieved from <http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr/-/1/hi/world/asia-pacific/4160753.stm>
- Miles, M. B., & Huberman, A. M. (1994). *Qualitative data analysis* (2nd ed.) Thousand Oaks, CA: Sage.
- Morgan, D. (1998). Practical strategies for combining qualitative and quantitative methods: Applications to health research. *Qualitative Health Research*, 8, 362-376.
- Morse, J. (2003). Principles of mixed methods and multimethod research design. In A. Tashakkori & C. Teddlie (Eds.), *Handbook of mixed methods in social and behavioral research* (pp. 189-208). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Morse, J. (1996). Is qualitative research complete? *Qualitative Health Research*, 6, 3-5.
- Sandelowski, M. (2000). Combining qualitative and quantitative sampling, data collection and analysis techniques in mixed-methods studies. *Research in Nursing and Health*, 23, 246-255.
- Sieber, S. D. (1973). The integration of field work and survey methods. *American Journal of Sociology*, 78(6), 1335-1359.
- Tashakkori, A., & Teddlie, C. (Eds.). (2003). *Handbook of mixed methods in social and behavioral research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Tashakkori, A., & Teddlie, C. (1998). *Mixed methodology: Combining qualitative and quantitative approaches*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Teddlie, C., & Tashakkori, A. (2003). Major issues and controversies in the use of mixed methods in the social and behavioral sciences. In A. Tashakkori and C. Teddlie (Eds.), *Handbook of mixed methods in social and behavioral research* (pp. 3-50). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Weinholtz, D., Kacer, B., & Rocklin, T. (1995). Salvaging qualitative research with qualitative data. *Qualitative Health Research*, 5, 388-397.
- Weinstein, E. A., & Tamur, J.M. (1978). Meanings, purposes, and structural resources in social interaction. In J. G. Manis & B. N. Meltzer (Eds.), *Symbolic interaction* (3rd ed., pp. 138-140). Boston: Allyn & Bacon.
- Zeller, R. A. (1993). Combining qualitative and quantitative techniques to develop culturally sensitive measures. In D. G. Ostrow & R. C. Kessler (Eds.), *Methodological issues in AIDS behavioral research* (pp.95-116). New York: Plenum Press.

القسم الثالث

التحليل والعرض

الفصل العاشر

تحليل وتفسير البيانات الكيفية^(*)

في الفقرة التالية، يُميز الإثنوجرافي مايكل آجار Michael Agar بين التحليل والتفسير:

في الإثنوجرافيا.. تتعلّم شيئاً ما ("تجمع بعض المعلومات")، ثم تحاول أن تستخرج منها معنى (التحليل)، ثم تعود لتتظر ما إذا كان هذا التفسير معقولاً أو مفهوماً في ضوء الخبرة الجديدة ("تجمع مزيداً من البيانات") ثم تنقح تفسيرك أي ("تقوم بمزيد من التحليل") وهكذا باستمرار. فالعملية جَلبية، وليست خطية. (١٩٨٠، ص ٩).

إن عملية تحويل بياناتك إلى ما يُطلق عليه هاري ولكوت Harry Wolcott مصطلح "البيانات المفهومة" (١٩٩٤، ص ١) تستدعي إمعان النظر في كيفية إجابتك على الأسئلة التالية (هس - بيبروليفي، ٢٠٠٤، ص ٤٠٩):

- كيف تعرف ما إذا كنت ركزت على المحاور الرئيسية (أو التيمات الرئيسية) التي تحتوي عليها المادة المسجلة للمقابلات التي قمت بها، أو التي يحتوي عليها تقريرك الميداني الإثنوجرافي؟
- هل لفئات التحليل التي جمعتها معنى؟
- ما هو نمط التحليل الذي ينبغي عليك أن تتبناه؟
- هل ينبغي عليك القيام بدراسة وصفية أم تقوم بالمغامرة خارج نطاق النتائج الوصفية باستعمالك لتفسيرك الشخصي؟
- ما هو مقدار التفسير؟

(*) ملحوظة المؤلف: بعض أجزاء هذا الفصل منقولة بتصرف من مقالة بعنوان تحليل، وتفسير، وكتابة البيانات الكيفية" والواردة في كتاب شارلين ناجي و هس - بيبر وبارتريشيا ليفي (محررات) (٢٠٠٤) بعنوان: "اتجاهات في البحث الكيفي، مختارات في النظرية والتطبيق"، نيويورك، مطابع جامعة أكسفورد.

خطوات تحليل وتفسير البيانات الكيفية

في الوقت الذي نزودك فيه ببعض "الخطوات" التي تُدخلها في حُساباتك وأنت ماضٍ في تحليلك، ينبغي ألا تتصور أن التحليل الكيفي يسير بطريقة تشبه الطرق الواردة في كتب الطهي. إذ لا توجد طريقة صحيحة واحدة للقيام بالتحليل. فقد لاحظ سي. رايت ميلز C.Wright Mills منذ وقت مبكر، أن التحليل الكيفي إنما هو في النهاية "مهارة عقلية". (ميلز، ١٩٥٩، نقلًا عن تش Tesch، ١٩٩٠، ص ٩٦). وكما تعلق ريناتا تش (١٩٩٠) فإن "التحليل الكيفي من الممكن - بل وينبغي - أن يمارس بأسلوب فني، بل حتى بأسلوب "سلس"، إلا أنه يستلزم قدرًا كبيراً من المعرفة المنهجية والكفاءة الفكرية" (ص ٩٧). ويرى نورمان دنزين (٢٠٠٠) أنه يوجد "فن للتفسير".

ويمكن أن يوصف هذا الفن بأنه انتقال من الميدان إلى النص إلى القارئ. وتتيح ممارسة هذا الفن للباحث الميداني بوصفه بناءً بارعاً ... أن يُترجم ما حصله من معلومات في صورة عمل نصي (مكتوب) ينقل هذا الفهم (فهمة للمعلومات) إلى القارئ. (ص ٣١٣).

وبإدخال هذه التنبيهات في الاعتبار، سوف نعود إلى تفكيرك عملية تحليل البيانات وتفسيرها باعتبارها سلسلة من الخطوات، مُبتدئين بخطوة - تحضير البيانات (الخطوة رقم ١).

الخطوة رقم ١: مرحلة تحضير البيانات

من المهم أن تفكر في ما هي البيانات التي سوف تُحللها، وفيما إذا كانت - أو لم تكن - ستزودك بفهم لمشكلة بحثك. فلو أنك كنت تقوم بإجراء مقابلات أو جماعات مناقشة مركزة - مثلاً - فقد يتعين عليك أن تقوم باستساخ بياناتك؛ بنقلها من صورة إلى أخرى. وقد تحتاج إلى إدخال وتخزين هذه البيانات في إحدى أنواع قواعد البيانات. ويمكنك أن تتحصل على نسخ مطبوعة مما أدخلته في قاعدة بياناتك وتبدأ في القراءة الدقيقة لها من أولها لآخرها، وقد تقوم أثناء ذلك بتصحيح أي خطأ يحدث في أي بند من بنود البيانات.

تدوين بياناتك

إن عملية التدوين ليست عملية سلبية، فطريقة جمعنا لبياناتنا تكون ذات أهمية حاسمة للتحليل والتفسير. فإن كنتَ تقوم بإجراء مقابلة أو عقد جلسة جماعة مناقشة مركزة - مثلاً - فإن طريقتك في جمع البيانات سوف تؤثر عدداً من القضايا المحورية، نذكر منها:

- هل ستسجل جلسة المقابلة التي تقوم بها بالفيديو أم على أشرطة التسجيل الصوتي، أم ماذا ستفعل؟
 - هل ستدون كامل بيانات الجلسة؟ أم أنك ستقتصر على تلخيص الفقرات الأساسية أو تدوين بعض الاقتباسات الأساسية؟ وهل ستحصر اختيارك في تلك الفقرات التي ترى أنها بمثابة قضايا بحثية أساسية، أم ماذا ستفعل؟
 - هل ستدون كل أنواع البيانات التي تجمعها (فتشتمل على كل البيانات اللفظية بما في ذلك: الضحك، وحالات التوقف عن الكلام، والانفعالات كالخزن أو الغضب، وتشتمل كذلك على البيانات غير اللفظية كالإشارات بالأيدي، ونحوها)؟
 - من الذي سيقوم بتدوين بياناتك؟
 - ما هو القطع المستخدم في التدوين وشكله؟ وكيف ستمثل - في النص المدون - صوت مبحوث ما، أو معلومات غير لفظية، وما إلى ذلك؟
- وغالباً ما تكون طريقة الباحث في إجابته على هذه الأسئلة خاضعة لسؤال بحثه وكذلك لنوع الإطار النظري الذي يؤمن به فيما يتصل بالمقابلة باعتبارها عملية من عمليات بناء المعنى. فقد يستغنى باحث وضعي - في الواقع - عن بعض هذه الأسئلة، ناظراً إلى عملية التدوين باعتبارها شكلاً بسيطاً من نقل اللغة "الشفاهية" إلى اللغة "المكتوبة"، وهو أمر يكاد يكون بمقدور أي إنسان القيام به إذا كان يستطيع الإصغاء إلى شريط التسجيل ولديه مهارات جيدة في الكتابة على الآلة، مثلاً. وفي هذه الحالة يُنظرُ إلى ما هو مدون باعتبار أنه هو "الحقيقة" كما يعتقد أن كل مدونة تحتوي على تطابق تام دقيق بين ما قيل شفاهة والكلمة المكتوبة على الآلة.

وقد لا يرى هؤلاء الذين تغلب عليهم وجهة النظر التأويلية أن عملية التدوين تكون بمثل هذه الشفافية والوضوح (انظر ميشلر Mishler، ١٩٩١). والواقع أنهم يميلون للتأكيد على أهمية وجهة نظر الباحث وتأثيره على عملية التدوين نفسها. أما هؤلاء الباحثون الذين يغلب عليهم الإطار النظري الخاص بتحليل الخطاب أو الإطار الفكري اللغوي فيسيكونون متنبهين كل الانتباه لنقص الشفافية في عملية التدوين، وذلك من خلال إدراكهم لأهمية المستويات المتعددة للمعنى والموجودة في عملية التدوين التي تشمل أموراً مثل: لحظات التوقف عن الكلام، والأسلوب الذي يقال به شيء ما، وكذلك الإشارات غير المنطوقة التي تبدر من المبحوث للدلالة على أمور أخرى وراءها.

يعي الباحثون النسويون، مثل مارجوري ديفول Marjorie Devault (٢٠٠٤) كل الوعي أهمية الإصغاء إلى البيانات عند القيام بتدوين المقابلات التي أجريت، خاصة مع تلك الجماعات التي حجب المجتمع المهيمن حياتها اليومية وأسدل عليها ستاراً من التجاهل. وتعلق ديفول على أهمية الإصغاء لتلك اللحظات التي تتخلل المقابلة وتكون المبحوثة فيها مترددة أو تقول للباحثة: "إنك تفهمين ما أقصده، أليس كذلك؟". وهي ترى أن تلك اللحظات هي عين اللحظات التي يكون فيها الباحث قادراً على كشف ما تخفيه المبحوثات من معانٍ، وهنّ المبحوثات اللاتي غشاهنّ الخطاب المسيطر بحجب غطت على حياتهن ولغتهن. وهي توصي بالانتفاع بالحكمة التالية التي اكتسبتها أثناء قيامها بإجراء مقابلات مع النساء تتناول الأنشطة اليومية التي يزاولنها في بيوتهن، خاصة العمل الذي يقمن به لتغذية عائلتهن:

كثيراً ما تكون الكلمات المتاحة غير مناسبة، لذلك تتعلم النساء أن "يترجمن" عندما يتكلمن عن خبراتهن. ونظراً لأنهن يتصرفن بهذا الشكل، فإن جانباً من حيواتهن "يخفي" لأنه لا يكون متضمناً في لغة هذا الوصف. ولاستعادة هذه الأجزاء من حيوات النساء، يتوجب على الباحثين أن يُطَوِّروا طرقاً للإصغاء لما حول الكلمات ولما وراءها. وأنا استعمل لفظ "الإصغاء" .. بمعنى واسع، وذلك للإشارة إلى ما نقوم به أثناء إجراء المقابلة، وللإشارة كذلك إلى الساعات التي نقضيها بعد ذلك ونحن نصغي إلى أشرطة التسجيل أو

ونحن ندرس السجلات المدونة، بل إنني أستعمل هذا اللفظ بمعنى أشد اتساعاً للإشارة إلى الأساليب التي نتبعها عند تفسير ما يرد على ألسنة المبحوثات من كلمات يصفن بها حيواتهن... وكلما كانت المقابلات تمضي في طريقها قُدماً، كلما زاد افتتاحني ببعض ما في حديث مبحوثاتي من صفات وملامح مُميزة. فقد كن يتكلمن بطريقة ملموسة تماماً عن التفاصيل العادية للحياة اليومية، إلا أنهن كن في كثير من الأحيان يقلن أموراً بطرق تبدو غير كاملة بشكل غريب.... فقد كن يفترضن أنني مُلمّة بأنواع معينة من المعارف (فيقلن مثلاً: "مثل كذا، وأنت تعرفين، والباب الخاص في صحف يوم الخميس"، وهي إشارة ضمنية لحقيقة أن كثيراً من الصحف في الولايات المتحدة التي تُصنّر في طبعات يوم الخميس تتضمن وصفات غذائية ومقالات ونصائح عن الطعام ونظام الحمية)... لقد بدأت أعطي المزيد والمزيد من الانتباه للطرق التي تُقال بها الأمور (ديفول، ٢٠٠٤، ص ٢٣٣ - ٢٣٤).

تلاحظ ديفول أن الكلمات المترددة، مثل: "أنت تعرفين، أليس كذلك؟" قد تُطرح - في الواقع - فلا تُذكر في أثناء نقل الباحث لبياناته من صورة لأخرى، ولكن هذه الكلمات هي - في حقيقة الأمر - عينُ اللحظات التي تكون فيها مجموعة الكلمات "المعتادة" لدى هؤلاء النساء غير كافية، وعين اللحظات التي تحاول فيها إحدى المبحوثات أن تتكلم، عن خبرتها وتجد اللغة قاصرة عن ذلك (ص ٢٣٥). وتُعلق ديفول على كتاباتها التي دونت فيها المقابلات التي أجرتها مع النساء عن موضوع تغذية عائلاتهن، تُعلق على هذه الكتابات بأنها "... مليئة بالإشارات الخاصة بقول النساء "إنك تعرفين أليس كذلك؟"، وذلك ضمن جُمْل كهذه الجمل: "إنني شديدة الحرص على تغذيتها، كما تعلمين، بنوع ما من طعام الإفطار". فهذه العبارة تبدو كأنها ملصق عابر في كلامهن، إلا أنها قد لا تكون فارغة من المعنى تماماً كما تبدو في ظاهرها. والواقع أنني أعلم فعلاً ما تعنيه هذه العبارة. فأنا لم أستعمل هذه العبارات بصفة منتظمة في تحليلاتي، إلا أنني أتصور الآن أن بإمكانني استعمالها. وبدراستي الآن لهذه النصوص المدونة أدرك أن هذه الكلمات تُقال كثيراً في المواقع التي ترد فيها عقب النطق بالوصلات في كلامنا أثناء المقابلات. ففي كثير من

الحالات، تبدو عبارة "أنت تعلمين أليس كذلك؟" أنها تعني أموراً مثل "حَسَنًا، إن هذه الجزئية أو النقطة التالية سيكون فيها شيء من الخداع. وأنا لا أستطيع أن أحكيها بصورة صريحة، ولكن ساعديني على الخروج من هذا المأزق قليلاً، وقابليني في منتصف الطريق وستدركين ما أعنيه" (ص ٢٥٥).

إن عملية تدوين بيانات البحث ونقلها من صورة لأخرى إنما هي عملٌ تفاعليٌّ، كما أنه يُشرك القارئ في عملية الإصغاء، والتحليل، والتأويل. فالتدوين ليس عملاً سلبياً، بل إنه يُزود الباحث بفرصة ثمينة لأن يشترك مع مادته البحثية بصورة مباشرة ابتداءً من جَمْع البيانات. كما أنه يضمن أن يكون الباحث مُتنبهاً، منذ وقت مبكر، إلى تأثيره على عملية جمع البيانات وإلى أن لديه فرصة للاتصال بهذه البيانات بأسلوب موثق وأكد من شأنه أن يهيئ الفرصة لإمكانية تحسين مستوى الثقة في الأساليب التي استخدمها في جمع البيانات وفي صدق تلك الأساليب.

وعند هذا الحد، إن لم تكن قُمتَ بعملك على النحو المذكور حتى الآن، فقد تكونُ في حاجة لتنظيم مذكراتك الميدانية ومقابلاتك وفق نظامٍ زمنيٍّ على أساس: التاريخ باليوم، والساعة، والمكان. استوثق من أنك رَقمتَ صفحات عملك المكتوب. وقد تحتاج كذلك إلى التفكير فيما إذا كنت محتاجاً لاستعمال أحد برامج الكمبيوتر الجاهزة للمساعدة في التحليل، وذلك لأن بعض البرامج قد تستلزم منك أن تدخل بياناتك في شكل معين، كأن تكون في صورة فقرات مثلاً، بينما لا تستلزم غيرها منك أن تقوم بهذا العمل.

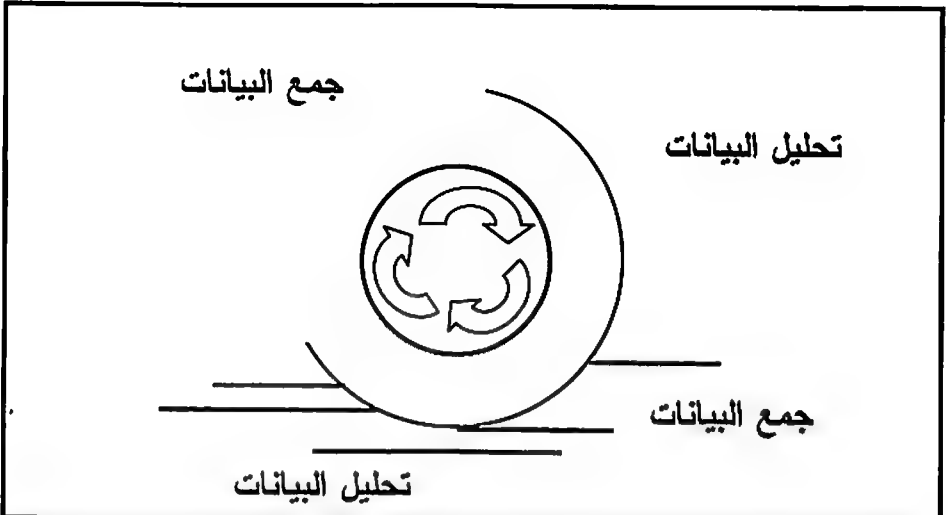
الخطوتان رقم ٢ ورقم ٣:

مرحلة استكشاف البيانات ومرحلة اختزال البيانات

تعمل هاتان المرحلتان متعاونتين معاً يداً بيد. ففي مرحلة الاستكشاف تقومُ بقراءة بياناتك النصية (المكتوبة) و/أو بياناتك البصرية أو السمعية وتفكر فيها. وأثناء عملية التفكير في بياناتك، قد تبدأ في تجويد نصك المكتوب عن طريق تسليطك الضوء على ما تشعرُ أنه مهم. وقد تدونُ هذه الأفكار في صورة حاشية أو تعليق. ونود أن نؤكد أهمية الوصف أثناء هذه المرحلة. فقد

تبدأ بكتابة موجز لما جمعتَ من بيانات حتى هذه اللحظة . دون (في صورة حواشٍ) أي أفكار ترد في ذهنك وأنت تقرأ مذكرات الميدانية، ومقابلاتك، وما إلى ذلك. ما هي الأمور التي تتوافق مع بعضها؟ وما هي الأمور الإشكالية؟ ينبغي أن تفكر في استعمال بعض وسائل الإيضاح البصرية - كالرسوم البيانية- لتساعدك في قلب النظر في أفكارك. ما هي أكثر الاقتباسات إحياء في بياناتك؟ أوجز هذه الشواهد وأعط كذلك بعض الأمثلة لما تقصده منها. فكل هذه الأساليب الخاصة "بالتجول الأول خلال البيانات" ينهمك في استعمالها الباحثون الذين يريدون أن يحصلوا على صورة أدق لبياناتهم من أجل بناء النظرية، ولكي يصبحوا قادرين على استخلاص بعض النتائج.

كما أنك قد تبدأ بتصنيف بياناتك. وبالإمكان أن تبدأ عملية التصنيف بمجرد أن تبدأ في جمع بعض البيانات، فلا تنتظر حتى يتم جمع كل بياناتك. فإن بإمكان قدر قليل من جمع البيانات وتحليلها أن يكشف عن بعض الأنماط المهمة، على نحو ما سنراه في النص المستخلص من إحدى المقابلات التي أجريت مع فتاة بالغة سوداء تتناول القضايا الخاصة بصورة الجسد. فجمع البيانات وتحليلها عمليتان متداخلتان وتبادليتان؛ فهما تعملان بصورة تفاعلية.



الشكل ١٠/١ رسم إيضاحي للعملية التفاعلية في تحليل البيانات

التصنيف والتحليل:

الاتجاه القائم على النظرية الموثقة

إن عملية التصنيف والتحليل التي نصفها فيما بعد قائمة على نموذج ملتزم باتجاه النظرية الموثقة في تحليل البيانات الكيفية. ويزودنا عمل كاثي تشارماز Kathy Charmaz - الذي استخدمت فيه النظرية الموثقة - باستراتيجية مهمة لاستخلاص المعنى من البيانات الكيفية (تشارماز، ٢٠٠٤). والنظرية الموثقة شكل من أشكال التحليل كان جلاسر Glaser وشرأوس Strauss (١٩٦٧) أول من طوره. ويبدأ هذا المنظور الفكري في التحليل بالتعامل الموسع مع البيانات، وينتهي بنظرية يتم توليدها من واقع هذه البيانات، أو يتم توثيقها وتأكيدتها على أساس هذه البيانات. وتستقطر تشارماز أفكار النظرية الموثقة في مجموعة موجزة من التعليمات التحليلية المفصلة خطوة بخطوة. وهي تصحب القارئ خلال عملية جمع البيانات، وعملية التحليل، وكتابة الحواشي والتعليقات. وتعمل كافة أجزاء عملية التحليل هذه بصورة تفاعلية فتؤثر كل منها على الأخرى. فالمرء وهو يجمع البيانات، يقوم بتحليلها. تقول تشارماز: "يبدأ المرء هذه العملية بوضع "تصنيف مفتوح". ويتكون نظام التصنيف هذا من القراءة الحرفية للبيانات سطراً سطراً. فيبدأ بالتصنيف الدقيق لكل سطر، ولكل جملة، ولكل فقرة. وترى تشارماز (٢٠٠٤) أنك قد تطرح الأسئلة التالية أثناء قيامك بهذه العملية للمساعدة فيما تقوم به من تصنيف.

- "ما الذي يحدث؟"
- "ما الذي يفعله الناس؟"
- "ما الذي يقوله هذا الشخص؟"
- "ما هي الأسس والمسلمات التي تستند إليها هذه الأفعال وهذه الأقوال؟"
- كيف يعمل البناء والسياق على دعم، أو تأكيد، أو تعويق، أو تغيير هذه الأقوال والأفعال؟" (تشارماز، ٢٠٠٤، ص ٥٠٧)

وبمضى هذه العملية قد بدأ الباحث فى رؤية فئات تصنيفية أكثر تطوراً وتبلوراً وتركيزاً على المضمون من خلال عملية كتابة الحواشى والتعليقات.

كتابة الحواشى والتعليقات

بكتابة الحواشى والتعليقات يستطيع المرء أن يرفع مستوى فئة التصنيف إلى مستوى الفئة. ونقوم فكرة الاستعانة بالنظرية الموثقة على القراءة الدقيقة لكل البيانات، وأن تكتشف ما فيها من الفئات والمفاهيم الرئيسية، وأن تكتشف فى النهاية خواص هذه الفئات والعلاقات القائمة بينها. وتعد كتابة الحواشى والتعليقات جزءاً متمماً من أجزاء عملية استخدام النظرية الموثقة، كما تساعد الباحث فى تجويد وتدقيق أفكاره المتعلقة ببياناته وفئاته التصنيفية. والوضع الأمثل أن تجرى كتابة الحواشى والتعليقات فى كافة المراحل أثناء عملية التحليل. كما أن من الممكن للقراءة الشاملة وتصنيف الحواشى أن تساعد الباحث فى خلق التكامل بين أفكاره، بل قد يصل بها الأمر إلى أن نقوم باستحداث أفكار وعلاقات جديدة داخل البيانات.

ويمثل اتجاه النظرية الموثقة واحدة فقط من استراتيجيات التحليل الكثيرة (كالتحليل السردى وتحليل الخطاب مثلاً) التى قد يستعملها المرء فى تحليل البيانات الكيفية. إذ لا توجد طريقة صائبة أو طريقة مخطئة فى تركيب البيانات، وكثيراً ما يحدث أن يقفز الباحث جيئة وذهاباً بين جمع البيانات وتحليلها، وكتابة الحواشى والتعليقات. وقد اقترحنا نحن كذلك بعض استراتيجيات التحليل الخاصة فى نهاية كل طريقة بحث عرضنا لها فى كتابنا هذا. ومع ذلك، فإن اتجاه النظرية الموثقة يعد أسلوباً شائع الاستعمال يتسع ليستوعب العديد من اتجاهات طرق البحث، ابتداءً من تحليل المقابلات والمذكرات الميدانية وانتهاءً بتحليل البيانات غير التدخلية.

يعتبر التصنيف جزءاً محورياً من اتجاه النظرية الموثقة، كما يتضمن استخراج المعنى من البيانات غير الرقمية، كالنصوص المكتوبة، ووسائل الاتصال المتعددة، كالوسائل السمعية والبصرية. ولو فرض أننا نصف كيف تنفذ عملية التصنيف بالفعل، كأن تنفذ مثلاً فى المواد النصية (المكتوبة) كالمقابلات، فستبدو شيئاً من هذا القبيل. تتألف عملية التصنيف - فى العادة -

من تمييز "القطع" أو "القطاعات" الموجودة في بياناتك النصية (التي هي في هذه الحالة نصوص ما أجريته من مقابلات) وإعطاء كل واحدة من هذه (القطع/ أو القطاعات) عنواناً (أى: فئة تصنيفية). والتصنيف هو استراتيجية التحليل التي يستعملها كثير من الباحثين الكيفيين لتساعدهم في تحديد مواقع الموضوعات الأساسية، والأنماط، والأفكار، والمفاهيم الأساسية التي قد تتطوى عليها بياناتهم. ويمثل تحليل البيانات الكيفية تحدياً واضحاً للباحث الكيفي. ولعل أفضل طريقة لمباشرة العمل في هذا الموضوع أن يقال أنه يوجد العديد من الأشكال المختلفة للتحليل، والتي لها أهداف مختلفة كثيرة، وفقاً لما تقررره مشكلة البحث المحددة تحديداً دقيقاً.

مثال لعملية التصنيف

هيا بنا نعود إلى مثالنا الإيضاحي عن صورة الجسد.

فقد جمعت هس-بيير (١٩٩٦) مقابلات وملاحظات بالمشاركة في بحثها عن: كيف ترى المراهقات الأمريكيات السود صورة الجسد عندهن (هس - بيير، وهولنج، وليفي، لفجوى Lovejoy، ٢٠٠٤). ولم يكن لديها أى "قروض" محددة كانت تريد أن تختبرها من واقع هذه البيانات، بل كانت مهتمة باكتشاف الآتى:

• كيف ترى المراهقات الأمريكيات السود صورة الجسد لديهن؟

امضت الباحثة ساعات كثيرة تلاحظ المراهقات الأمريكيات السود وتقابلهن في عديد من المراكز الاجتماعية المحلية بإحدى المدن الداخلية في شمال شرق الولايات المتحدة. وتحصلت على ساعات من المقابلات والملاحظات التي أجرتها على المراهقات الأمريكيات السود وسجلت مذكرات ميدانية عن الأمور الجارية في كل مركز اجتماعي على حدة لمدة سنوات. وينبغي لجمع البيانات وتحليل البيانات أن يمضيا في طريقهما معاً - فبمجرد أن تبدأ في جمع أول مجموعة صغيرة من البيانات من الميدان، يكون من المهم أن تبدأ في محاولة فهمها. وفي قيامك بمثل هذه الدراسة، قد تبدأ عملية التحليل بالقراءة الاستيعابية حتى تكون على دراية بالبيانات التي تجمع بعد كل زيارة للمركز الاجتماعي. وأثناء قراءتك لهذه البيانات قد تهتم بوضع الملاحظات أو تسليط الضوء على أى أمر ترى أن له صلة بتصورك الخاص

بكيفية رؤية المراهقات الأمريكيات السود لهوياتهن وكيف يرين صورة الجسد لديهن. والواقع أن وضع الملاحظات على النص المكتوب معناه أن تحدد أماكن تلك الأجزاء من البيانات التي تعتقد أنها مهمة. وهذا يمكنك من أن تعطى اسماً أو فئة تصنيفية لكل قطاع من هذه القطاعات. وقد تحتوي بعض قطاعات النص على أكثر من فئة واحدة. ويتصف أسلوبك في التصنيف بأنه ذو نهاية مفتوحة و"كلى". وهدفك من ذلك هو الحصول على فهم عميق وصحيح لمشكلة البحث. ذلك أنه ليس لديك مجموعة جاهزة من فئات التصنيف. وسوف يكون أسلوبك في التحليل أسلوباً استقرائياً أساساً، كما سيتطلب منك أن تغوص داخل النص باحثاً عن الموضوعات الأساسية، أو المفاهيم أو أبعاد المفاهيم التي سوف تتبثق من خلال البيانات. ومن المرغوب فيه أن تبحث - بصفة خاصة - عن الطرق الشائعة أو الأنماط المعتادة للسلوك التي بها يتوافق الأفراد (وهم هنا المراهقات الأمريكيات السود) مع صورة الجسد لديهن ومع هوياتهن.

• كيف تصنف البيانات؟

عندما نتكلم عن التحليل فلعلك تشعر بأن المناقشة تمضي قدماً في ضوء مصطلحات تعتبر - إلى حد ما - مصطلحات فنية إجرائية، وأنت على حق في ذلك. فعادة ما يبدأ التحليل بالبحث عن فئات تصنيف وصفية داخل البيانات التي جمعها الباحث، وينتهي بالأمل في توليد مجموعة من المفاهيم (أي الفئات) الأساسية التي تكون من الناحية التحليلية وثيقة الصلة بموضوع الهوية وصورة الجسد عند الفتيات الأمريكيات السود.

نص مستخلص من مقابلة مع مراهقة أمريكية سوداء، مع بعض فئات التصنيف المبدئية	
(انظر هس - بيبر، وآخرون، ٢٠٠٤).	
النص المستخلص	فئة التصنيف المبدئي
• لا أرى أن على المرأة النموذجية أن	المرأة النموذجية
• وكأى أمر شخصي، أرى أن المرأة النموذجية لها شخصيتها وسمتها المميز، إن الأمر يتعلق بكيفية التصرف	أهمية الشخصية

المظهر الخارجى أمر ثانوى	• منظرى لا يزعجنى، إنما هى شخصيتى فحسب
أهمية الشخصية	• شخصيتى، أتمنى أن تكون لى شخصية جيدة
أهمية الشخصية	• وأن يكون لدى أفراد يحبوننى، فإن لم يحبونى لشخصيتى، أو بسبب مظهرى فقط،
افتقاد ملاحظة الشخصية	فلابد أنه ينقصهم شيء ما
تقدير الذات	• آه لو كنت تملك هذا الشعور [تقدير الذات]
لا تبال بما يقوله الآخرون	• فكثيراً ما لا تبالى برأى الناس فيك
أتباهى بنفسى	• إننى يا هذا لأتباهى بتقديرى لذاتى،
تجلس منتصبه الظهر	• ولست كمن يقول "يا خيبتى" فأنا أجلس منتصبه الظهر تماماً، وهذا يظهر تقديرى لنفسى تماماً
ترتدى ما تريد ارتدائه	• إننى أنثى وسوف أرتدى للمدرسة الملابس التي تدل على الحماسة
تضع أقرطاً ضخمة	• إننى أضع فى أُننى هذه الأقرط الضخمة،
هى لا تبالى بما يقوله الآخرون	• وهذا يظهر تقديرى لنفسى، فأنا لا أبالى بما تقوله عني
تقدير الذات الداخلى:	• أوه، حسناً، هذا ما أراه، أنا لا أبالى بشيء،
الشخص نفسه	فأنا لا ألتصق مع أى شيء ولا مع أى طريقة
تقدير الذات الداخلى:	• فأنا نفسى، لماذا لا أستطيع أن أتصرف وفقاً لذلك؟
ترتدى ما تريد	• ولماذا لا أستطيع أن أرتدى ملابسى بهذا الشكل؟

وكما يمكنك أن ترى من المثال المذكور أعلاه عن التصنيف، فإن بعض الفئات التصنيفية الواردة فى القائمة فئات منقولة حرفياً، فهذه الكلمات تظهر أيضاً داخل النص، كما أنها تكون فى العادة فئات وصفية. والفئات الأخرى الواردة فى القائمة تنسم بمزيد من الطابع التفسيري (ومنها مثلاً فئة

التصنيف الخاصة بتقدير الذات الداخلى). وهذه الفئات التصنيفية ليست مرتبطة ارتباطاً شديداً بالنص نفسه، إلا أنها تبدأ بالانطلاق من أفكار الباحث المتصلة باستنباط التفسير. ويعتمد نمط التصنيف هذا على "التصنيف الأشد تركيزاً". ويتيح التصنيف الأكثر تركيزاً للباحث بناء المفاهيم وتوضيحها. ففي التصنيف المركز يختبر الباحث كل البيانات الموجودة فى فئة ما، ويقارن كل جزئية من البيانات التى يدلى بها المبحوث بكل جزئية أخرى، وينتهى بصياغة تعريف عملى واضح لكل مفهوم، ثم يُطلق عليه فى هذه الحالة اسماً معيناً. وبصير هذا الاسم هو فئة التصنيف (تشارماز، ١٩٨٣، ص ١١٧). ويقتضى التصنيف المركز من الباحث أن يطور مجموعة من الفئات التحليلية ولا يقتصر على إعطاء البيانات عناوين تبعاً لموضوعاتها. ويصبح تعديل وتطوير فئات التصنيف أمراً مهماً من أجل بلورة فئات تصنيفية أكثر تجريداً بهدف توليد بنى نظرية كلية. وعلى ذلك فإننا نقوم فى المثال السابق، مثلاً، بتمييز الفئة المسماة "التقدير الداخلى للذات". إلا أننا نستطيع كذلك أن نرى فئات تصنيفية أخرى قد تساعدنا فى توضيح معنى هذا المفهوم انطلاقاً من وجهة نظر المبحوث.

الانتقال من "فئات التصنيف المبدئية" إلى "فئات التصنيف المركزة"	
• فئة التصنيف المبدئى (أى فئة التصنيف الحرفى)	يتطور ليصبح فئة التصنيف التحليلية (المركزة).
• لا تبال بما يقوله الآخرون	التقدير الداخلى للذات، تتجاهل ما هو خارجى عنها.
• التباهى بالنفس	هوية متخمة برؤية النفس، الإيمان بالقدرات الشخصية.
• الجلوس منتصبه الظهر	هوية متخمة برؤية النفس، الافتخار بالذات.
• ترتدى ما تريد ارتدائه	التقدير الداخلى للذات، تتجاهل ما هو خارجى عنها.
• ارتداء أو وضع الأقراط الضخمة	التقدير الداخلى للذات، تتجاهل ما هو خارجى عنها.

أثناء تقدمك في عملية التصنيف سيكون لديك فرصة للتوسع في الطرق المختلفة التي يستعملها المبحوثون في حديثهم عن "التقدير الداخلي للذات" باعتباره "عملية". ولكي تنتقل من مستوى التحليل الأمل إلى الطابع الحرفي إلى مستوى التحليل النظري أو المفاهيمي، يمكنك أن تضع علامات تبرز ما تراه طرقاً مختلفة أو متشابهة يستعملها المبحوث في حديثه عن فكرة "التقدير الداخلي للذات". والواقع أن بإمكانك أن تبدأ بوضع الحواشي والتعليقات المتصلة بهذه الفكرة (انظر الحاشية الخاصة بالتقدير الداخلي للذات فيما بعد). وبمداومتك على تحليل المزيد والمزيد من المقابلات وكتابة الحواشي والتعليقات المتصلة بما هو موجود في بياناتك، فإنك قد تستخرج أبعاداً تحليلية متعددة أو فئات تصنيفية فرعية لمفهوم "التقدير الداخلي للذات" (كالفئة الفرعية المعنونة: "يتجاهل ما هو خارجي عنه").

وبقيام الباحث بكتابة الحواشي والتعليقات على فكرة "التقدير الداخلي للذات"، يتشجع على تنظيم معنى هذا المفهوم وتنظيم طرق ارتباطه بالعوامل الأخرى. والواقع أن فئة التصنيف "التقدير الداخلي للذات" قد وجد أنها مرتبطة بفئة التصنيف المسماة: "يجب تخفيف الضغوط الثقافية"، وفئة التصنيف المسماة "النزعة العرقية". وقد تبين الباحثون الذين أجروا هذه الدراسة (انظر هس - بيبير وآخرون، ٢٠٠٤) أنه غالباً ما تحمي المراهقات الأمريكيات السود أنفسهن من الضغوط الثقافية التي تفرضها عليهن المعايير الغربية البيضاء في الجمال، وذلك عن طريق تبنيهن لموقف يميل "للتقدير الداخلي للذات". وقد اتضح أن عملية "التقدير الداخلي للذات" تمثل استراتيجية مبكرة للتغلب على المشكلات يتعلمها الأطفال الصغار داخل مجتمعاتهم المحلية ليتغلبوا على التفرقة العنصرية الواقعة عليهم من المجتمع الكبير (هس - بيبير وآخرون، ٢٠٠٤). فهيا بنا نذهب إلى "خلف الكواليس" ونبحث حاشية كتبت لهذا المشروع.

حاشية على موضوع التقدير الداخلي للذات

"هو نمط مثير للاهتمام وله دلالاته من أنماط الاستجابة التي ظهرت في المقابلات، وقد أدرجناه تحت فئة التصنيف "التقدير الداخلي للذات".

وتصف هذه الفئة التصنيفية توجهها معيناً تقوم فيه النفس بتقييم نفسها وفقاً لمجموعة من المعايير الداخلية الخاصة وليس وفقاً للأحكام (الخارجية) للآخرين. ومن المعروف أن هذا النمط من الاستجابة ظهر مرتبطاً بالمسائل المتعلقة بما إذا كانت المبحوثة منزعة من وزنها أو مظهرها أو تشعر بضغط عليها يأتيها من أقرانها أو من وسائل الاتصال لتبدو أو تتصرف بشكل معين. وكما هو معهود، فقد ردت المبحوثات على هذا النوع من الأسئلة بنوع من الإصرار على أنهن لا يعبان برأى الآخرين فيهن (تتجاهل ما هو خارجي عنها)، أو الإصرار على أنهن غير مشغولات إلا بمدى شعورهن بالرضا عن أنفسهن (تصغى للداخل)، أو بالجمع بين هذين الاعتبارين (تتجاهل ما هو خارجي عنها، وتصغى للداخل). مثال ذلك قول واحدة منهن: (أنا لا أعبأ بما يقوله الآخرون، طالما أبدو في عيني بصورة طيبة، فلا أهمية لما يقوله الناس). وقد ذكرت تسع عشرة مبحوثة عبارات يمكن وصفها باعتبارها كاشفة عن التوجه الخاص "بالتقدير الداخلي للذات".

وغالباً ما تحتوي هذه العبارات على التأكيد على أن المبحوثات تحب الشكل الذي يبدن فيه أو يشعرن بالرضا عن أنفسهن، كما تتضمن التأكيد على أنهن لا يرغبن في التغيير من أجل إرضاء الآخرين. وقالت بعض المبحوثات إنهن تعلمن هذا الاتجاه/ أو هذه النزعة من أمهاتهن/ أو آبائهن. وقالت إحدى المبحوثات إنها تعلمت هذا الاتجاه من الممثل بيل كوسبي، وهو نموذجها في التمثيل، حيث قالت: "كنت أتابع هذا العرض التليفزيوني الذي قال فيه لابنته إنها ينبغي ألا تقلق لما يقوله الصبيان لها. وكل ما عليها هو ألا يزعجها إلا رؤيتها لنفسها".

ومن الأمور التي لها دلالتها، أن هذه الاستراتيجية أو هذا الاتجاه يحمي هؤلاء الفتيات من أحكام الآخرين، كما أنه قد يجعلهن أقل تأثراً بالمعايير الغربية البيضاء للجمال وبالنزوع إلى فقدان أنفسهن وهن يبذلن كل الجهد لإرضاء الرجال وشد انتباههم. والواقع أن عدة مبحوثات قلن إنهن لا يشعرن بأنهن مضطرات لإرضاء الرجال (فيما يتصل بلون البشرة، وحجم الجسد، وغير ذلك من جوانب المظهر) لأنه من الأهم في نظرهن أن يشعرن

بالرضا عن أنفسهن. ولم يتضح من هذه المقابلات مدى استناد هذه الاستراتيجية على نوع ما من الإنكار الدفاعي أم على التقبل الحقيقي للنفس وعلى النضج. فقد يكون هذا الاتجاه استراتيجياً للتغلب على المشكلات تم تطويرها في المجتمع الأسود كرد فعل على العنصرية وعلى الحط من قدر السود في المجتمع. فعلى سبيل المثال، عندما سُئلت إحداهن عما يعنيه في نظرها أن تكون أنثى سوداء، قالت إن هذا معناه "أن أكون جادة فيما أفعله، كما أنك تعرفين أنه لا يمكن - في الواقع - أن أنزعج لما يفكر فيه الآخرون". كما أن هذه الاستراتيجية قد تتطور كرد فعل على ما تصفه كثيرات من هؤلاء الفتيات من استفزاز بغضب دائماً يتعرضن له من جانب أقرانهن (انظر الفئة التصنيفية: "تأثير الأقران المتعلق بالمظهر والوزن"). وقد تم التوصل إلى عدة فئات تصنيفية فرعية للاستعانة بها في المزيد من تأمل المعنى الإجمالي لمفهوم التقدير الداخلي للذات.

فئات تصنيف فرعية للتقدير الداخلي للذات

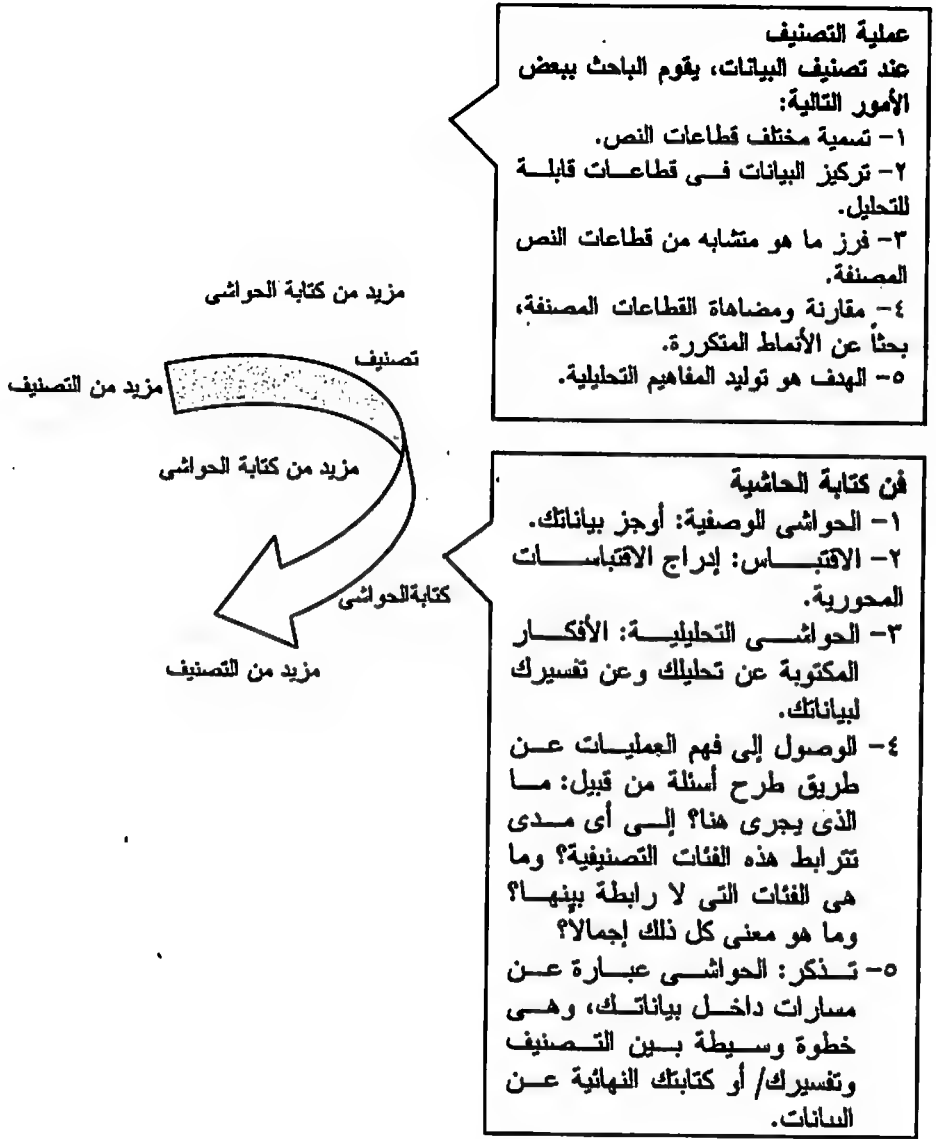
- **التقدير الداخلي للذات:** تتجاهل ما هو خارجي عنها- حيث تشير المبحوثة إلى أنها لا تعباً أو لا تنزعج من أحكام الآخرين بشأنها. فهي لا ترغب في التغيير من أجل إرضاء الآخرين.

- **التقدير الداخلي للذات:** تصغى إلى الداخل- حيث تشير المبحوثة إلى أن ما يهمها هو: كيف تشعر بنفسها أو بما هو في داخلها. وغالباً ما تؤكد المبحوثة أن الأمر المهم هو أنها تهوى/ أو تحب/ أو تشعر أنها راضية عن نفسها.

- **التقدير الداخلي للذات:** تتجاهل الخارج وتصغى للداخل- حيث تشير المبحوثة إلى أنها لا تعباً بتصورات الآخرين عنها لأنها تشعر بالرضا عن نفسها، أو أن الأمر المهم عندها هو - فقط - صورتها عند نفسها. (مج لفجوى Meg Lovejoy) (انظر هس - بيبر وآخرون، ٢٠٠٤).

التصنيف وكتابة الحواشي: عملية دينامية

تتألف عملية التصنيف الكيفية من دوائر تبدأ بوضع فئات التصنيف، فكتابة الحواشي والتعليقات، ثم العودة إلى التصنيف، وذلك على نحو ما نلاحظ في الشكل ٢/١٠.



الشكل (٢/١٠) التصنيف وكتابة الحواشي: عملية ديناميكية.

الخطوة رقم ٤: التفسير/ أو التأويل

من المهم ملاحظة أن التحليل والتفسير ليسا بالضرورة مرحلتين متميزتين عن بعضهما في عمليات البحث الكيفي، وذلك كما رأينا في حالة

التحليل القائم على النظرية الموثقة. فالعملية أكثر سيولة من ذلك بكثير، وذلك لأن الباحث غالباً ما يشتغل - فى نفس الوقت - بعملية جمع البيانات، وتحليل البيانات، وتفسير نتائج البحث. وتعتبر كتابة الحواشى والتعليقات - كما رأينا فى الكلام عن النظرية الموثقة - رابطة مهمة بين التحليل والتفسير. فمع أولى الملاحظات التى يسجلها الباحث فى الميدان أو مع المقابلات المبكرة التى يجريها، سوف تتيح الكتابة المبكرة للحواشى والتعليقات أن ينظر الباحث أى الأفكار تبدو مقبولة وأى الأفكار يتعين مراجعتها. ويورد دافيد كارب David Karp التعليق التالى عن الكتابة المبكرة للحواشى:

سوف تسمع الناس - فى البداية بصورة خاصة - يقولون أشياء لم تخطر على بالك أبداً. فابحث بعناية عن الاتجاهات الكبرى التى لم يحدث لك أبداً أن سرت فيها. وينبغى أن يكون معدل كتابة الحواشى القصيرة معدلاً كبيراً خصوصاً فى بداية عملك. وإنى لأؤيد الحواشى المتعلقة "بالأفكار" أو "المفاهيم"، والتى تطرح - للمرة الأولى - فكرة حديثة الظهور. ومن المعهود أن مثل هذه الحواشى تملأ ما بين صفحتين إلى ثلاث صفحات. (اتصال شخصى، بكارب، سبتمبر، ٢٠٠٤).

وقد لاحظ كارب (فى هذا الاتصال الشخصى نفسه) أنه بعد تأملك للأفكار الموجودة فى الحواشى وتصنيفك للمقابلات - أى عندما ترى أنك قادر على "الإمساك بموضوع أساسى ما" - فهذا هو وقت بداية ما يسميه "حاشية البيانات":

وأقصد بحاشية البيانات تلك الحاشية التى تدمج الموضوع (الأساسى) بالبيانات وبأى كتابات سابقة متاحة تتناسب مع ذلك الموضوع. وأقصد بحاشية البيانات شيئاً يبدأ بأن يتخذ شكلاً قريباً من ورقة البحث. وراع دائماً فى كتابتك لأى حاشية بيانات أن تحشد من الأفكار المتعلقة بنقطة معينة عدداً أكبر مما سوف تستعمله فعلاً فى كتابة ورقة بحث. فإذا توصلت إلى وضع فكرة كبرى، وشعرت أن لديك عشر قطع جيدة من البيانات المناسبة لهذه الفكرة، فميز كل هذه البيانات لكى تفحصها وتستعملها فيما بعد. كذلك، تأكد من أنك قمت بتمييز

الكلمات التي قالها أفراد والتي لا تتطابق مع النمط العام (اتصال شخصي مع كارب، سبتمبر ٢٠٠٤).

وبقيام الباحث بالاشتغال بالبيانات الكيفية، سواء أكانت هذه البيانات جمعت من الملاحظات المستمدة من العمل الميداني أو من إجراء المقابلات المكثفة، نلمس بوضوح أن مهمة الباحث هي الارتباط الوثيق بهذه البيانات - فهي تعنى جمع البيانات من أفراد أو من مجموعات من الأفراد. وفي أثناء انتقالنا من مشكلات جمع البيانات وتصنيف البيانات إلى قضايا التفسير والتدوين النهائي لنتائج البحث، تبدأ في الظهور أسئلة أخرى تتعلق بتفسير البيانات الكيفية. وفي الصميم من عملية التساؤل هذه تقع قضايا القوة والتحكم في عملية التفسير.

وكما ذكرنا في فصول عديدة، فإن بعض الباحثين الكيفيين يتبعون نموذجاً "علمياً" في البحث، مستعملين إجراءات بحثية نمطية وفقاً للأسس المتبعة في العلوم الطبيعية ومتبعين المعتقدات التي تقوم عليها الفلسفة الوضعية. وفي ظل هذا الإطار الفكري يلزم الباحث أن يكون "موضوعياً"، بمعنى أنه لا يسمح لقيمه أن تتدخل في عملية البحث. ووفقاً لهذا النموذج من البحث يظل الباحث "موضوعياً" من أجل أن يظفر بفهم "حقيقي" للواقع. وذلك كما لو كان "الواقع" أو الصورة "الحقيقية" ستظهر بمجرد التزام الباحث بالإخلاص للعقيدة العلمية "للموضوعية".

ومع ذلك، فإن قدراً كبيراً من البحوث الكيفية يتعامل مع الملاحظة وإجراء المقابلات، وهاتان طريقتان تتطلبان تفاعلاً مستمراً بين الباحث والمبحوث. لذلك فإن الباحث يستطيع أن يؤثر في عملية البحث في مراحل متعددة على امتداد مسار البحث - ابتداءً من اختيار مشروع البحث/ أو مشكلته، ومروراً بنمط خطة البحث، وانتهاءً بتحليل النتائج وتفسيرها. وتوجد "ديناميات قوة" مهمة داخل العلاقة القائمة بين الباحث الذي يجري المقابلة والمبحوث الذي تتم مقابلاته، وهي الديناميات التي يمكنها التأثير على تفسير نتائج البحث، وهي نقطة تناولناها بالمعالجة الشاملة في مناقشتنا لمقابلات التاريخ الشفاهي. وفي الفصل الخاص بإجراء المقابلات المتعمقة لاحظنا أن

بإمكان بعض الصفات الاجتماعية للباحث والمبحوث أن تؤثر على قضايا القوة والسلطة في عملية البحث. وقد رأينا كذلك في الفصل الخاص بالبحث الإثنوجرافي كيف أن بإمكان هذه الصفات أن توجه مسار مشروع البحث بأكمله، ابتداء من الظفر بالدخول إلى الموقع، ومروراً بالعلاقات الاجتماعية الموجودة في مجتمع البحث، وانتهاء بالطريقة التي يتبعها المرء في مغادرة موقع البحث.

والآن نلتفت إلى طريقة مهمة أخرى يمكن بها لخصائص الباحث الاجتماعية أن تؤثر على البحث من خلال النظر إلى قضايا التفسير. وإن من القضايا المحورية التي يتعين التعمق في دراستها في هذه المناقشة التي نتناول تفسير النتائج قضية: مدى تأثير الفروق في القوة بين الباحث والمبحوث على نتائج البحث وعلى تقدير الباحث لما تعنيه هذه النتائج (أي على عملية التفسير).

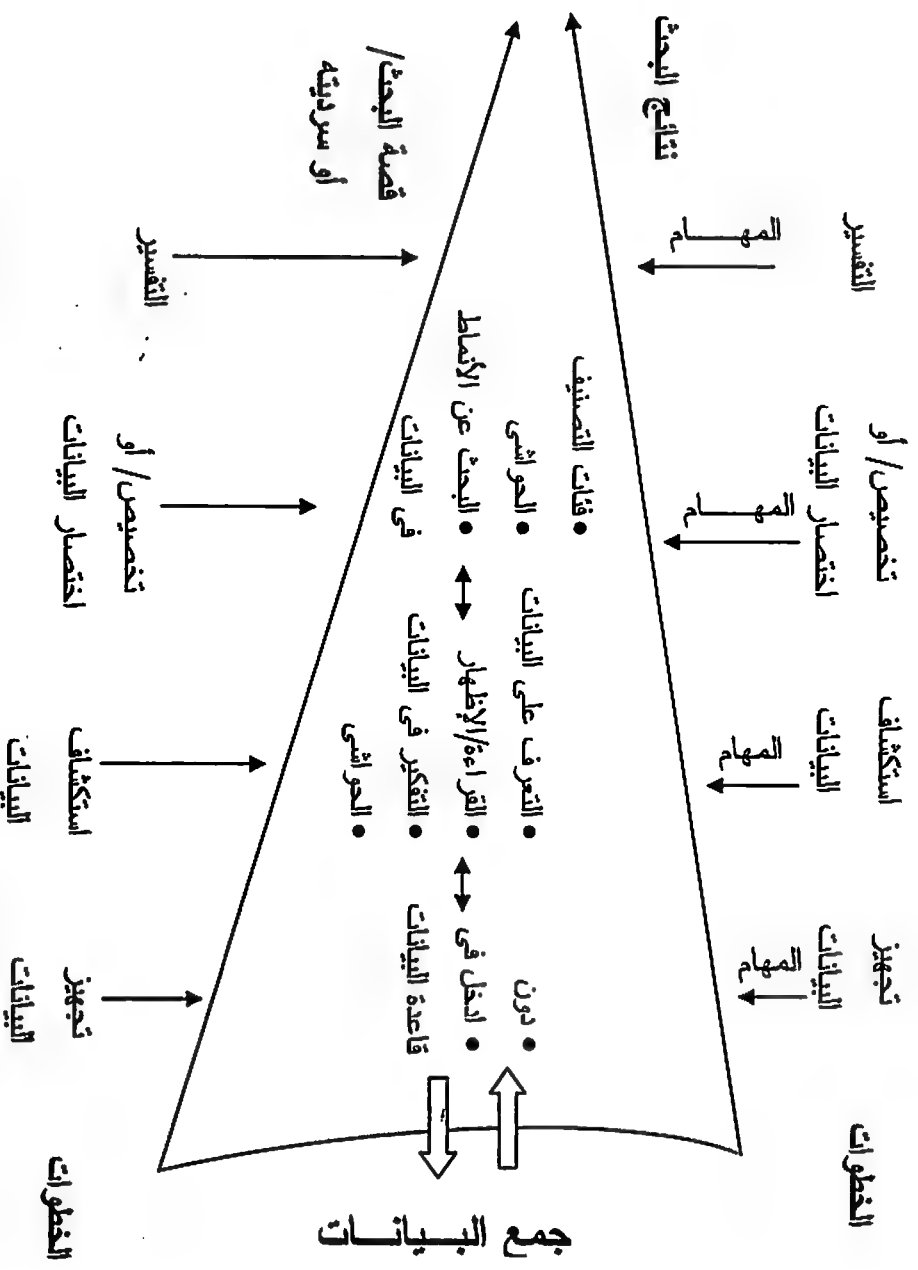
• ما هي القوة التي يملكها الباحث في تحديد من هم الذين سوف يُسمع صوته في تفسير نتائج البحث؟

إن لهذا السؤال أهمية محورية في عمل كاثرين بورلاند Katherine Borland (١٩٩١). فهي تستكشف مجال الصراعات التفسيرية في السرد الشفاهي الذي أجرته مع جدتها، بياتريس هانسون. فقد طلبت من جدتها أن تحكي قصة الرحلة إلى مناطق بانجور، و مين، و فيرجروننز، والتي تصحب فيها والدها إلى حلبة السباق، وهو حدث ظل يتكرر على امتداد ٤٢ سنة مضت. وتهتم بورلاند بفهم المستويات المختلفة "لصناعة المعنى" التي تحدث في رواية وفي تفسير السرديات الشفاهية. وهي تعترف بأنه توجد مستويات متعددة لتفسير السرديات. "فالحكاية السردية التي من المستوى الأول" - أي الحكاية التي ترويها جدتها - تنقل الطريقة الخاصة التي تكون بها جدتها معنى الحدث. ومع ذلك، يوجد مستوى ثان للمعنى الخاص بهذه السردية. وهو المعنى الذي تنشئه / أو تركبه الباحثة، وهو معنى السردية الذي تم "فلترته" من خلال خبرة الباحثة وتجربتها. وتقوم بورلاند بتفسير القصة التي تحكيها جدتها، ولكنها وهي تصغي لهذا السرد، تقوم بإعادة تشكيله عن طريق فلترته

قصة جدتها من خلال ما عندها في حياتها الخاصة من خبرات داخلية وخبرات خارجية. وهى تفعل ذلك وفى ذهنها توقعات أقرانها من الباحثين الذين توجه إليهم ملاحظتها التى تقول فيها: "يجب علينا أن نظهر درجة من الكفاءة العلمية" (بورلاند، ١٩٩١، ص ٧٣). وتستخدم بورلاند "عدسة" نظرية (أى: رؤية فكرية) قائمة على أساس النوع الاجتماعى لتفسر قصة جدتها باعتبارها رواية نسوية. ومع ذلك، فإن جدتها لا توافق على تفسيرها. وفى تناول الباحثة بورلاند لهذه القضايا المتصلة بالسلطة أو ملكية القصة نجدها تثير قضايا تتصل بمن له السلطة فى تفسير الروايات السردية.

وإجابة هذا السؤال - عند بورلاند - تكمن فى نمط من التصرف المتوازن الدقيق. فيورلاند تفصح لجدتها عن تفسيرها، وتبدأ بذلك عملية تبادل الأفكار والتفسيرات. ومن الواضح أنه ينبغى ألا تظل أى قصة "مفتقرة إلى التواصل". وبعبارة أخرى نقول: ينبغى لوجهة نظر الراوى أن تكون حاضرة داخل التفسير. ورغم أنه ليس بالإمكان حل كل الخلافات فى الرؤى، فإن من المهم أن يتعرض الباحث للتحدى/ أو الاعتراض الناجم عن وجهة نظر الراوى. ذلك أن تبادل وجهات النظر هو الذى يمكنه تزويدنا بطرق جديدة لفهم بياناتنا.

ويلخص الشكل (٣/١٠) ما سبق أن تكلمنا عنه بخصوص المراحل "الأربع" لعملية تحليل البيانات وتفسيرها. ونستطيع أن نلاحظ أنه كلما انتقلنا من خطوة لأخرى فإننا نبدأ فى اختصار بياناتنا وتصغير حجمها. فالتصنيف يساعد فى اختصارنا لبياناتنا، وكتابة الحواشى والتعليقات تساعدنا فى التفكير فى: كيف ننظم بياناتنا داخل فئات وأنماط مفهومة.



الشكل (٣/١٠) خطوات تحليل البيانات وتفسيرها: نموذج إيضاحي.

صدق التفسير وثباته

الآن وقد فسرت بياناتك الكيفية، هل تعلم أن تفسيرك لها يتسم بالصدق والثبات؟ وعند التفكير في صدق نتائج البحث، يمكنك أن تضع تفسيراتك في مواجهة الدعاوى المعرفية المنافسة وتنتظر إلى أي مدى تصمد نتائج بحثك أمامها. كما ينبغي أن تقدم أدلة قوية لأي دعاوى معرفية تستمدها من بياناتك. اسأل نفسك:

• ما هي العوامل التي تجعل نتائج البحث تبدو معقولة في نظرك؟
وبجانب ذلك، نقترح أن تأخذ بما قدمه كفيل (Kvale 1996) من نموذج ذي ثلاثة أجزاء خاص بالحكم على صدق البيانات الكيفية: الصدق كبراعة مهنية والصدق التواصل، والصدق البراجماتي. وقد سبق مناقشة هذه الأبعاد في الفصل الثاني من هذا الكتاب بالتفصيل، إلا أنه في هذه المرحلة من البحث نقترح اتباع الخطوات التالية أو الإجابة عن الأسئلة التالية (مستمدة من كفيل):

- هل تروى حكاية مقنعة؟
- حاول بلورة رؤى نظرية تكون مستمدة من تفسيرك للبيانات.
- هل وصلت إلى بياناتك بالتزامك بالأمانة، أي هل تحققت من صحة الإجراءات التي اتبعتها؟
- ابحث عن الحالات السلبية (أي التي لا تؤيد نتائجك).
- اجعل تفسيراتك متاحة للمناقشة (بالموافقة والخلاف) بين من لهم الحق في المناقشة (كالعلماء الآخرين في مجتمع العلوم الاجتماعية).
- إلى أي مدى تؤثر نتائج بحثك على هؤلاء الذين ساهموا فيه، وإلى أي مدى تؤثر نتائجك على السياق الاجتماعي الأوسع الذي أجرى فيه البحث؟

وما أن تستوفي القيام بكل فقرات هذه القائمة من أساليب المراجعة والتدقيق، وتتجاوب نتائج البحث معك، فإن عنصر الصدق يكون قد نال حقه الواجب من التفكير وإمعان النظر. وكما رأينا في الفصل الثاني من هذا

الكتاب، فإن عنصر الثبات يختلف في البحث الكيفي عنه في البحث الكمي، لأن البحث الكمي يكون من السهل تكراره. فإن أدخلت هذا الاعتبار في حساباتك، وأنت تعالج عنصرى الصدق والثبات، فاسأل نفسك هذين السؤالين:

- هل يوجد "اتساق داخلي" (نيومان Neuman، ٢٠٠٣)؟ وهل تضيف البيانات جديداً؟

وعندما يكون لبياناتك معنى مقنع، وعندما تكون طرق بحثك مناسبة لمشكلة البحث/ أو سؤاله، وعندما تكون خطواتك الإجرائية قد نفذت بأسلوب سليم منهجياً، يمكنك أن تتقدم منتقلاً من مرحلة التفسير إلى مرحلة الكتابة النهائية لنتائج بحثك.

برامج الكمبيوتر واستخدامها في تحليل البيانات الكيفية

نظراً لأن الباحثين يجمعون - خلال بحثهم - صفحات كثيرة العدد من التصوص، فقد يحتاجون إلى برنامج كمبيوتر لتحليل تلك البيانات. ومع ذلك فقد نشور بعض المسائل الخلافية المهمة - المتعلقة بالتحليل والتفسير - عند استعمال مثل هذه الأداة التحليلية (هس - بيير، وليفى، ٢٠٠٤، ص ٤١٠):

- هل ينبغي للباحث أن يستعمل أحد برامج الكمبيوتر الجاهزة أساساً؟ والأهم هو أنه: ليس الغالب على التحليل أنه ذو طابع فني؟
- هل ستتدخل برامج الكمبيوتر الجاهزة في العملية الإبداعية للتحليل؟
- هل سيؤدي استخدام الباحث لبرامج الكمبيوتر الجاهزة إلى أخذه بعيداً عن بياناته؟

وعندما يبدأ الباحثون عملية تحويل بيانات بحوثهم إلى منتج نهائى، فإنهم قد يجدون أن تحليلهم عمل بالغ التعقيد تغطي عليه أكداً متراكمة من البيانات البحثية التى تتكون من البيانات المكتوبة التى لم تحلل والتى كثيراً ما يبلغ عددها آلاف الصفحات المكتوبة. ويعلق مايلز Miles و هيوبرمان Huberman على ذلك قائلين:

من المشكلات المزمنة للبحث الكيفي أنه يؤدي - بصورة رئيسية - عن طريق استعمال الكلمات، وليس الأرقام. والكلمات أكبر حجماً من الأرقام

كما أنه يغلب عليها احتمال تعدد المعانى. وهذا الوضع يزيد من صعوبة معالجتها والاشتغال بها. والأسوأ من ذلك، أن معظم الكلمات تكون عديمة المعنى ما لم ينظر القارئ خلفاً و أماماً إلى بعض الكلمات الأخرى... أما الأرقام، فى مقابل ذلك، فتكون - فى العادة - أقل غموضاً كما أنه من المحتمل معالجتها بجهد ونفقات أقل. لذلك لا نعجب كثيراً عندما نجد الباحثين يفضلون الاشتغال بالأرقام وحدها، أو ترجمة الكلمات التى يجمعونها إلى أرقام بقدر ما يمكنهم من السرعة... [ومع ذلك] فإن تحويل الكلمات إلى أرقام، وما يعقبه من طرح الكلمات بعيداً من شأنه أن يصيب الباحث بكل أنواع الإزعاج... فالتركيز على الأرقام وحدها يحول انتباهنا من الجوهر إلى الأرقام الحسابية، وبهذا الشكل فإنه يطيح بعيداً بالمفهوم الكيفى برمته، وقد يكون من الأفضل أن يبدأ المرء بحثه بالأرقام فى المقام الأول. (١٩٨٤، ص ٥٤٦)

إن بإمكان الباحث أن يحسن مستوى تحليله لبحثه إذا استعمل حزم البرامج الكمبيوترية. وكما يلاحظ فيلدينج Fielding ولى Lee (١٩٩٨)، فإن عمل الباحثين على امتداد العقدين الماضيين يتم تحويل هيئته عن طريق برامج الكمبيوتر الجاهزة. ويمكننا تصنيف برامج الكمبيوتر الجاهزة إلى نوعين رئيسيين. يتألف الأول منهما من برامج ذات طبيعة عامة أو شاملة لم تصمم خصيصاً للبحث الكيفى. ويندرج تحت هذه الفئة ثلاثة أنواع فرعية: "تبرامج معالجة الكلمات" Word processors تساعد الباحث فى كتابة وتنظيم المذكرات الميدانية والمقابلات، كما تساعد فى تطوير مخطط تنظيمى لهذه البيانات. وتستطيع "برامج استرجاع النصوص" Text retrievers القيام - على وجه السرعة - بعمل تصنيف شامل لطائفة من البيانات بغية العثور على "نمط خاص" داخلها أو العثور على "خيوط" يربط مجموعة من السمات المميزة لتلك البيانات لتمكن الباحث من وضع يده على بعض الموضوعات الأساسية أو الموضوعات العامة الموجودة داخل هذا القدر الكبير من البيانات. ويعتبر النوع الأخير من البرامج ذات الطبيعة العامة أو الشاملة "برامج إدارة قواعد النصوص" "textbase" managers. وهى عبارة عن نظم قواعد

بيانات ضخمة تسهل استرجاع المعلومات شبه المصنفة، والتي تم إدخالها في صورة "تسجيلات" records (جمع "تسجيلة") و"حقول" fields.

والنوع الثانى هو تلك البرامج الجاهزة المصممة خصيصاً لتحليل البيانات الكيفية. وتضم حزم البرامج هذه أربعة أنواع فرعية هي: (١) "برامج التصنيف والاسترجاع"، و(٢) "برامج بناء النظرية القائمة على فئات التصنيف"، و(٣) "برامج بناء شبكات المفاهيم"، و(٤) "برامج تخطيط النصوص". وتتيح البرامج المسماة برامج التصنيف والاسترجاع تخصيص فئات تصنيفية لقطاعات معينة من النص. وتسهل استرجاع الفئات التصنيفية باستعمال دوال بحث بوليانية Boolean معقدة (كأن تستعمل مثلاً دالة "و"، "أو"، "لا" لفلترة بياناتك). وتتيح برامج بناء النظرية القائمة على فئات التصنيف للباحث أن يحل العلاقات المنتظمة بين هذه البيانات، وهذه الفئات التصنيفية. وتوفر بعض البرامج اتجاهات منظومياً قائماً على عدد من القواعد يدخل في الحساب اختبار بعض الفروض الموجودة في البيانات. وتتيح برامج بناء شبكات المفاهيم وبرامج تخطيط النصوص للباحثين أن يستخلصوا بعض الروابط الموجودة بين الفئات التصنيفية في بياناتهم، ويرى الباحثون أن هذه الخدمة البحثية إنما هي بمثابة دعم "إضافي" بجانب برامجهم الخاصة ببناء النظرية القائمة على الفئات التصنيفية. ويشير مايلز و هيوبرمان إلى الاستعمالات التالية لبرامج الكومبيوتر الجاهزة في تحليل البيانات الكيفية.

استعمالات برامج الكومبيوتر الجاهزة في الدراسات الكيفية

كتابة المذكرات في الميدان

التدوين النهائى للمذكرات الميدانية أو نسخها.

التحرير: تصحيح المذكرات الميدانية، أو بسطها والتوسع فيها، أو مراجعتها.
التصنيف: وضع كلمات أساسية / أو مفتاحية، أو بطاقات تعريف tags على قطاعات النص، لتيسير استرجاعها مستقبلاً.

التخزين: الحفاظ على النص داخل قاعدة بيانات منظمة.

البحث والاسترجاع: تحديد مواضع قطاعات النص ذات الصلة ببعضها البعض وجعلها متاحة للفحص والاختبار.

"ربط" البيانات ببعضها: ربط قطاعات البيانات ذات الصلة ببعضها البعض، مكونين بذلك فئات، أو عناقيد، أو شبكات من المعلومات.

كتابة الحواشي والتعليقات: كتابة التعليقات التأملية على بعض جوانب هذه البيانات كأساس للتحليل الأعمق فيما بعد.

تحليل المضمون: حساب مرات تكرار، وتعاقب، ومواضع بعض الكلمات والعبارات.

عرض البيانات: وضع البيانات المنتقاة أو المختصرة في شكل مركز ومنظم، كشكل المصفوفة أو الشبكة، وذلك لتحضيرها للفحص فيما بعد.

استخراج النتائج والتحقق من صحتها: مساعدة المحلل في تفسير البيانات المعروضة وفي اختبار النتائج أو تأكيدها.

بناء النظرية: تطوير أو بلورة تفسيرات منهجية للنتائج تتسم بكونها متماسكة من ناحية المفاهيم. كما تشمل هذه النقطة عملية اختبار الفروض.

تحديد الرسوم البيانية: إنشاء الرسوم البيانية أو التخطيطية التي تصور النتائج أو النظريات.

إعداد التقارير المرحلية أو النهائية.

(المصدر: مايلز، و هيوبرمان، ١٩٨٤، ص ٤٤).

ويلاحظ فيلدنج و لى Lee (١٩٩٨) أن تطور ميدان البرامج الجاهزة الكيفية قد ازداد بمرور الوقت، وأنه يوجد الآن جمهور قومي ودولي متنام وكثيف من مستخدمي هذه البرامج. ويتسبب الاستعمال المتزايد لبرامج الكمبيوتر كأدوات في التحليل الكيفي في إثارة عدد من الهواجس المتعلقة بطرق البحث وبالجوانب النظرية والتي تتصل كلها بتحليل وتفسير البيانات الكيفية. وتناقش شارلين هس - بيير (١٩٩٥) خمساً من المخاوف التي كثيراً ما يبديها النقاد في مناقشة استعمال برامج الكمبيوتر. وأول هذه المخاوف أن برامج الكمبيوتر سوف تفصل الباحث الكيفي عن هذه العملية الإبداعية (في التحليل والتفسير). وتشير هس - بيير إلى أن بعض المحللين يشبه ممارسة البحث الكيفي بممارسة "العمل الفني". فكما أن الفنان يفضل فرشاة أو قلماً أو

ورقاً من نوع معين، فكذلك يفعل بعض الباحثين الكيفيين. ومن هنا ينظر البعض إلى استعمال تكنولوجيا الكمبيوتر باعتبارها أمراً لا يتوافق مع الفن. ويوجد تخوف قوى من أن استعمال برامج الكمبيوتر الجاهزة سوف يحول الباحث إلى "كائن بشرى لا يمارس التفكير ولا يعرف المشاعر". ومن المخاوف الأخرى التى تناقشها هس - بيبير أن الخط الفاصل بين التحليل الكمي والتحليل الكيفى سوف ينطمس بسبب فرض منطق البحث المسحى على البحث الكيفى وبسبب التضحية بالتحليل المتعمق لعينة أكبر.

وتتجمل مثل هذه المخاوف من كون برامج الكمبيوتر الجاهزة أصبحت تتيح للباحث التصنيف السهل والاسترجاع السهل لأعداد كبيرة من الوثائق. فحجم البيانات التى أصبح من الممكن أن تتجمع اليوم فى بعض الدراسات الكيفية يمكن مقارنته بحجم بيانات البحث الكمي. من هنا يساور البعض خوف من أن البحث الكيفى سوف يتم اختزاله إلى بحث كمي.

وتشتمل قضايا أخرى نوقشت فى هذا المجال على قضية الخوف من احتمال أن يؤدي استعمال الكمبيوتر إلى فرض تعريف خاص لأى ميدان معين من ميادين الدراسة. ذلك أن أبنية برامج الكمبيوتر تضع شروطاً على الطريقة التى ينبغى على مشروع البحث أن يتبعها فى مسيرته. ويتسبب ذلك فى إثارة مخاوف بعض النقاد من أن برامج الكمبيوتر الجاهزة سوف تحدد أنماط الأسئلة المطروحة كما ستقرر خطاً محددة لتحليل البيانات.

ومن المخاوف الأخرى أن الباحثين سوف يكونون - حينئذ - ملزمين بأن يكونوا أكثر تحملاً لمسئولية تحليلهم. ذلك أن برامج الكمبيوتر الخاصة بتحليل البيانات الكيفية تقتضى من الباحثين أن يكونوا أكثر صراحة ووضوحاً فى الإجراءات وفى العمليات التحليلية التى يقومون بها لعرض بياناتهم وتفسيراتهم. وسوف تؤدي مطالبة الباحثين الكيفيين بأن يكونوا أكثر وضوحاً وصراحة فيما يتصل بطرق البحث لديهم وكذلك مطالبتهم بأن يقبلوا تعريض تفسيراتهم لاختبارات الصدق والثبات؛ كل ذلك سوف يؤدي ولا شك إلى إثارة بعض المناقشات والموضوعات الخلافية: فهل ينبغى أن توجد اختبارات

صارمة للصدق والثبات في البيانات الكيفية؟ كما تناقش هس - بيبر مسألة الخوف من فقدان السرية بسبب استعمال البيانات المعالجة بالوسائط المتعددة.

ما هي برامج الكمبيوتر الموجودة،

وما هو البرنامج الذي ينبغي على المرء أن يختاره؟

وتقترح هس - بيبر و كروفتس Crofts (في كتاب لهما تحت الطبع) المجموعة التالية من الأسئلة التأملية لتتفكر فيها وأنت تتقن أحد برامج الكمبيوتر الكيفية الجاهزة. وهذه القائمة مستمدة جزئياً من المعرفة الدقيقة التي تحتوى عليها مؤلفات ريناتا تش Renata Tesch (١٩٩٠) و إيبان وايتزمان Eban Weitzman وماثيو مايلز Mathew Miles (١٩٩٥)، وجون وايتزمان John Weitzman (٢٠٠٠) وجون كريزول John Creswell وراى مايتا Ray Maietta (٢٠٠٣) عن استعمال برامج الكمبيوتر وتطوير برامج كومبيوتر صممت خصيصاً لهذا الغرض.

ويرتكز المنظور الفكرى الذى تتبناه هس - بيبر و كروفتس على المنظور الفكرى الخاص بمستخدم هذه البرامج. إذ أن من المهم للمستخدم أن يحدد أولوية الأسئلة التى تعد الأوثق اتصالاً بجدول أعماله البحثية.

١- "ما هو نوع نظام الكمبيوتر الذى تفضل العمل به أو تشعر أنك ترتاح عندما تعمل به أكثر من غيره؟ وهل يدعم هذا البرنامج نظامك فى التشغيل؟ وهل تريد رفع مستوى نظامك أو ربما تشتري جهاز كومبيوتر جديد لتستوفى متطلبات برنامج محدد؟ وهل يروق لك شكل الواجهة أو السطح البينى لأحد البرامج وما تشعر به نحوه؟ وما الذى يثيره فيك هذا البرنامج على المستوى النفسى العميق؟"

٢- "هل يتجاوب شكل هذا البرنامج وشعورك نحوه مع أسلوبك الخاص فى البحث؟ وما هو أسلوبك فى التحليل؟ وكيف تخطط لإجراء تحليلك، وكيف يمكن أن يكون للكمبيوتر مكانه المناسب فى هذا الأسلوب؟ وكيف يتسنى لكل برنامج أن يدعم تحليلك (أو يعوقه)؟ وكيف يتحقق ذلك فعلاً؟ مثال ذلك، هل تخطط لتصنيف معظم بياناتك - ما هو نمط التصنيف

الذى تريد القيام به؟ وما هى الطريقة التى بها تفضل استرجاع بياناتك، وما مدى أهمية أن تكون قادراً على البحث فى النص الكامل الذى استخلصت منه هذه البيانات، ما مدى أهمية ذلك فى نظرك؟ وهل أنت شخص بصرى؟ هل تحب أن ترى العلاقات والمفاهيم المختارة معروضة فى أحد أنواع الرسوم البيانية أو الشبكات؟ وهل تتوقع "تكميم" أى قدر معين من بياناتك؟"

٣- "ما هو مشروع البحث - أو ما هى مجموعة المشاريع البحثية - التى تتوقع استعمالك لبرنامج كومبيوتر فيها؟ مثال ذلك ما هو نمط البيانات التى يتكون منها مشروعك - أهى بيانات نصية، أم موجودة فى وسائط متعددة؟"

٤- "إلى أى مدى تريد أن يساعدك برنامج الكومبيوتر؟ وما هى المهام التى تريد ميكنتها؟ وما هى المهام المحددة التى تريد معالجتها بالكومبيوتر؟ وربما تكون غير محتاج لكل المزايا المقترنة بهذه البرامج. فما هى توقعاتك عما سيكون هذا البرنامج قادراً عليه فى مساعدتك فى عملك؟ وهل توقعاتك هذه عملية؟"

٥- "ما هى الموارد المتاحة لك لتحقيق ذلك؟ ما هى البرامج التى يمكن لجهاز الكومبيوتر الخاص بى أن يدعمها؟ وما هى البرامج التى أستطيع أن أتحمل تكلفتها؟ ما هى الموارد المتاحة لك (التمثلة فى الوقت، والموظفين، والجوانب المادية) اللازمة لتعلم استعمال هذا البرنامج؟"

٦- "ما هى تصوراتك السابقة عن هذه البرامج؟ وإلى أى مدى أثرت آراء المستخدمين الآخرين، أو تسويق المنتج، أو مصادر المعلومات الأخرى المتصلة ببرامج الكومبيوتر الخاصة بتحليل البيانات الكيفية؛ إلى أى مدى أثرت هذه الأمور على اختياراتك؟ وهل تعتبر فروضك المتصلة بالبرامج دقيقة؟ وما الذى تزداد رغبتك فى تعلمه / أو معرفته عن برامج معينة؟"

٧- "ما هى الأسئلة / أو الهواجس التى من بين ما عدناه سابقاً هنا هى الأهم فى نظرك؟ وكيف تود ترتيب أولويات العوامل - من حيث أهميتها لديك - عند التفكير فى شراء برنامج كومبيوتر؟ وما هى الأسئلة التى ترى

أنها أهملت في العرض السابق؟" (هس - بيبر و كروفتس، من مؤلف لهما تحت الطبع).

إن إمعان التفكير في هذه الأنماط من مشاغل مستخدمي برامج الكمبيوتر قبل محاولة اختيار برنامج لتحليل البيانات الكيفية يضع أولئك المستخدمين في الوضع الذي يجعلهم يقومون بتقييم نقدي، يقدمونه لأنفسهم، يقدرون فيه مدى احتمال تكامل كل برنامج مع برامجهم البحثية الخاصة بهم. وعن طريق قيام المستخدم بتجربة نسخ العروض المجانية لهذه البرامج واستكشاف مزايا كل برنامج، وكذلك عن طريق النظر في تجارب الزملاء في استخدام هذه البرامج؛ عن هذا الطريق يستطيع الباحث أن يقدر مدى احتمال أن تكون هذه البرامج مفيدة له. ويساعد استعراض القائمة التي أوردناها وفحصها بدقة؛ يساعد على رفع مستوى تمكين المستخدم وزيادة قدرته على الاستفادة من هذه البرامج. وإن من المهم كذلك الإشارة إلى أنه ليس بإمكان أى أداة تكنولوجية - ومهما كانت مزاياها - أن "تجز" وحدها ما تريده من تحليل. (هس - بيبر، و كروفتس، من عمل لهما تحت الطبع).

إن أجهزة الكمبيوتر تعدنا بإحداث ثورة في الطريقة التي يتبعها الباحثون في تحليلهم، إلا أنها تقدم - كذلك - مجموعة من المحاذير التي يتعين أن ينتبه إليها التحليل الكيفي. فالباحث الذي يستخدم هذه البرامج ينبغي عليه أن يقدر ما فيها من جوانب القوة وجوانب الضعف، بالإضافة إلى تقديره للدلالات التي ينطوي عليها استعمال برامج الكمبيوتر الجاهزة في تحليل البيانات الكيفية. ونحن نوصي بأن تجرب استعمال هذه البرامج عندما تتاح الفرصة لذلك، وترى إلى أى مدى يمكن أن تفيدك هذه البرامج. ومن مواقع الشبكة موقع مفيد لاستئصال (تحميل) نسخ إيضاحية مجانية للمنتجات التجارية والبرامج المجانية، ويعرف باسم CAQDAS^(*) (برامج تحليل البيانات الكيفية بالكمبيوتر)، وهو متاح على:

<http://caqdas.soc.surrey.ac.uk/> ويشتمل هذا الموقع على معلومات عظيمة القيمة عن طريقة اختيار حزم برامج الكمبيوتر، ومعلومات ورش

(*) CAQDAS = Computer Assisted Qualitative Data Analysis Software.

عمل عن كيفية الاستخدام العملى لتلك البرامج، وتشكيلة متنوعة من المصادر لمعرفة المزيد عن كيفية استخدام برامج التحليل الكيفى بالكومبيوتر.

التفسير والتدوين النهائى للبيانات الكيفية:

حكايات واقعية وحكايات غير واقعية

- كيف يستطيع الباحث أن يقدم صورة دقيقة عن يدرسهم؟

تعد كارول بيلى Carol Bailey (١٩٩٦) مقارنة بين نمطين للتدوين النهائى لمشروع البحث، الأول عبارة عن "حكاية واقعية" والآخر عبارة عن "حكاية غير واقعية". وفى كتابة الحكاية "الواقعية" يقوم المؤلف بالكتابة فى نطاق أحد أجناس الكتابة التقليدية الذى يتخذ غالباً شكل إحدى المواد العلمية التى تكتب للنشر فى مجلة علمية، كأن تكون ورقة علمية أو تقريراً بحثياً أو رسالة فى حجم الكتاب. ومن المفترض أن تمثل أصوات المبحوثين يكون انعكاساً "حقيقياً" لوجهة نظرهم. فالباحث يركب عناصر قصة واقعية بوصفها الصوت غير المجسد للسلطة. وبعد هذا الاتجاه فى الكتابة اتجاهاً "رسمياً" يتبع معايير الكتابة التقليدية - التى قد يراها المرء فى كتاب مدرسى يلتزم المواصفات القياسية - عند التدوين النهائى لنتائج البحث. فالأمر الذى نتحدث عنه هنا هو عبارة عن "نموذج نظرى" للكتابة تقوم أسسه الإبستمولوجية فى جوهرها على أساس التسليم بأن ثمة "حقيقة" موجودة فى مكان ما تنتظر أن يكتشفها الباحث. وتشرح بيلى أسلوب كتابة "الحكاية الواقعية" بمزيد من التفصيل فيما يلى:

أولاً: تتناول الكتابة الأعضاء الموجودين فى مجتمع البحث، أما التفاصيل المتصلة بالمؤلف فتكون غائبة عن جملة النص. ذلك أن هذا النص يكتب كما لو أن أى إنسان كان موجوداً فى الموقع كان سيعيش نفس الخبرات، ولذلك، فإن السمات الشخصية للمؤلف، بل حتى وجوده، تكون غير ذات صلة بهذه الحكاية.

ثانياً: تحتوى الحكايات الواقعية على تفاصيل ملموسة لما وقع من أمور، وعن معدل تكرارها، وما هو نظام حدوثها وتتابعها، ومن الذين يقومون

بها. وليس الهدف هو تسجيل كل شيء حدث، بل هو تمييز الأنشطة والأنماط المعهودة للسلوك في هذا الموقع.

ثالثاً: تقوم الحكايات الواقعية بتقديم وجهات نظر أفراد مجتمع البحث. فيقوم المؤلف بتضمين الحكاية الواقعية الأقوال والعبارات المقتبسة، والتفسيرات الصادرة من أولئك الأفراد، والملخصات المستمدة من المقابلات غير الرسمية، وما يرويها أفراد المجتمع من حكايات ويقدمونه من تفسيرات للأحداث.

وأخيراً: تحتوي الحكايات الواقعية على تفسيرات تبين طبيعة مجتمع البحث. فالبحث الميداني تتم كتابته كما لو كان القارئ يفهم معنى مجتمع البحث في تلك الآونة من منظور أفراد مجتمع البحث أنفسهم. (بيلي، ١٩٩٦، ص ١٠٦)

إن النزعة ما بعد الحداثية في الكتابة تمضي في اتجاه مضاد للنموذج الوضعي" في كتابة البحث، كما تسعى لتجاوز الحدود الفاصلة بين ما يُعد "حقيقياً" وما يُعد "غير حقيقي"، مما يجعلها تفرض على الباحثين - في كثير من الأحيان - أن يناضلوا من أجل الوصول إلى الطريقة التي بها يدونون نتائج بحثهم تدويناً نهائياً دقيقاً. ويذهب هذا المنظور الفكري إلى أن قوة الباحث وسلطته تكونان مائلتين دائماً في ثنايا عملية البحث، كما أنهما تؤثران على طريقة صياغة الحكاية. ففي الواقع، توجد "أزمة في عرض النتائج" أطلقها الباحثون ما بعد الحداثيين وغيرت - بالفعل - الطرق التي اختارها بعض الباحثين لتقديم نتائج بحوثهم. فالنزعة ما بعد الحداثية في الكتابة ترى أن كافة نتائج البحث إنما يتم نقلها من خلال القيم الشخصية للباحث، ومن خلال أسلوبه، ومنظوره الأخلاقي (شابيرو Shapiro، ١٩٨٥-١٩٨٦، منشور في ريتشاردسون Richardson، ١٩٩٥، ص ١٩٩).

ويتحدث ريتشاردسون (١٩٩٥) عن بعض أساليب الكتابة التي تسعى لأن تدخل في حسبانها ديناميات القوة الموجودة في علاقة الباحث بالمبحوث، وذلك لإسماع القراء أصوات المبحوثين، ومن أجل خلق فضاء يتسع لرواية عدد كبير من الحكايات، والتي تُعتبر كل حكاية منها على حدة، في أفضل

الظروف، مصدراً لتزويدنا بفهم جزئى فقط لطبيعة العالم الاجتماعى محل الدراسة. ومن الأهداف المهمة لهذا النمط فى الكتابة أن يتم - بالذات - إدخال أصوات هؤلاء المقهورين فى الحساب كى تُسمع وأن يتم كذلك توفير فضاء للباحث ليمعن التفكير فى دوره الخاص ضمن عملية البحث. وقد ظهرت أجناس غير تقليدية ومختلفة فى أسلوب الكتابة كثمرة من ثمار إيمان النظر فى نزعة ما بعد الحداثة. إذ يرى لوريل ريتشاردسون (١٩٩٥، ص ٢٠٠) أن الشكل السردى فى الكتابة نمط مفيد - بالذات - فى "تفسير النتائج وعرضها". فالشكل السردى "يعكس الخبرة الإنسانية العامة للزمان ويربط الماضى بالحاضر والمستقبل" (ريتشاردسون، ١٩٩٥، ص ٢١٨). ويستطيع أحد أشكال السرد أن يجعل "الأفراد، والثقافات، والمجتمعات، والعصور التاريخية مفهومة ككيانات كلية"، وذلك لأنه يتيح للناس أن يروا أنفسهم كجزء من منظومة أكبر (ريتشاردسون، ١٩٩٥، ص ٢٠٠). وبهذه الطريقة يدعم هذا السرد الحوار، فهو: "يميط اللثام عن المشكلات الشخصية باعتبارها قضايا عامة، وبذلك يسهم فى صنع هوية جمعية والتوصل إلى حلول جمعية" (ريتشاردسون، ١٩٩٥، ص ٢١٦).

ويرى نورمان دنزن أن ثمة "مرحلة" جديدة من مراحل الكتابة آخذة فى الظهور فى حقبة ما بعد الحداثة. فنجد الباحثين يحولون نتائج بحوثهم الإثنوجرافية إلى أساليب "أدائية" مختلفة يستعبرونها من فنون الأدب والإنسانيات، فيخلقون بذلك جنساً أدبياً فى الكتابة لا يختلف عن ذلك الجنس الأدبى الخاص بالأداء المسرحى (دنزن، ٢٠٠٠). إن الكتابة التجريبية والكتابة التقليدية لا تمثلان بديلين منفصلين يتعين الاختيار بينهما. فقد يقرر الباحث أن ينتقل إلى نموذج تجريبى فى بعض أجزاء بحثه فى نفس الوقت الذى يكون فيه محافظاً على نموذج أكثر تقليدية فى جوانب أخرى من كتابته. وبإمكاننا أن ننظر إلى التحليل، والتفسير، والتدوين النهائى للبحث باعتبارها عملية متكررة أو مستمرة. إذ بالإمكان أن يحدث الانتقال من نموذج تقليدى فى الكتابة إلى نموذج تجريبى فى مراحل مختلفة أثناء عملية البحث. وقد يتطلب التحول إلى نموذج أكثر تجريبية أن ينفق المرء وقتاً ليعيد فيه تنظيم وتجهيز مهاراته

البحثية والكتابية. وقد يتوجب على بعض الباحثين الذين يعملون داخل نطاق جنس أدبي أكثر تجريبية؛ قد يتوجب عليهم أن يدخلوا في جدال مع بعض ناشري المجلات والكتب العلمية ولا يؤمنون بهذا الشكل من أشكال الكتابة العلمية (وذلك على الرغم من أن كثيراً من المؤلفات المكتوبة بالأسلوب التجريبي تنشرها بالفعل بعض دور نشر المجلات العلمية الأساسية ودور النشر العادية). كما أن الباحث الذي يكتب ورقة بحث في مقرر تعليمي ما أو يكتب فكرة أطروحة جامعية قد يجد أن أستاذه أو المشرف على رسالته مشدود إلى أحد أساليب الكتابة التي يغلب عليها الطابع التقليدي الشائع (انظر بيلي، ١٩٩٦، ص ١٠٨).

وقد أدت النزعة ما بعد الحداثية في الكتابة بصورة عامة إلى تشجيع كثير من الباحثين - حتى هؤلاء الذين يلتزمون بأحد أشكال الكتابة التقليدية - على الكتابة بأسلوب يتسم بالمزيد من الطابع التأملية النقدي. وتطرح الكتابة التأملية أسئلة من قبيل: كيف سأقدم نفسي في عملية البحث هذه؟ وإلى أى مدى تدخلت تحيزاتي، وقيمي، وجهات نظري الشخصية في انتقائي للأسئلة التي أطرحها؟ وفي تحديد البيانات التي أجمعها وأحللها؟ وفي تحديد ما ألاحظه وما لا ألاحظه؟ وما هو مقدار ما عرضته من رؤيتي وآرائي أنا؟ وما معنى أنني لم أدع الآخرين يعبرون عن أنفسهم؟ فالكتابة بأسلوب تأملية نقدي تعني أن يكون لديك إدراك جيد لتأثير وضعيتك الخاصة على البحث الذي تجريه.

وأياً ما كانت طريقة الكتابة التي وقع عليها اختيارك، فمن المهم ألا يغيب عنك أبداً أنك راوٍ مسئول عن حكاية قصة شخص آخر. فأنت في حاجة إلى العثور على طريقة لفهم مقادير ضخمة من البيانات الكيفية بأسلوب يكون متوافقاً مع هذه البيانات التي جمعتها وساعدت في إيجادها. فهيا بنا ننضم إلى دافيد كارب في مشهد أخير من مشاهد ما وراء الكواليس.

خلف الكواليس مع دافيد كارب

بوسعك الآن أن تتخيل ملفاً ضخماً سميماً يبدو شبيهاً بهذا [يظهر المؤلف ملفاً مكوناً من عدة مئات من الصفحات]. وأنا الآن أكتب عن

الالتزامات، وعليه فأنا الآن بصدد كتابة فصل عن الالتزامات. وهذا ملف يحتوى على كل البيانات المستمدة من عملي الحالي عن الالتزامات. حسناً، إننى أود أن أقدم مثل هذا العمل. كما أن من الممكن - حينئذ - أن أقضى ما يقرب من شهر وأنا جالس أقرأ هذه الصفحات الطوال. ولو أننى فتحت هذا الملف تماماً، فسوف ترى أننى أدون ملاحظاتي على كل الصفحات تقريباً، أسجل فيها تعليقاتي على المادة. وسبب اهتمامي بتدوين تلك الملاحظات أننى أجرى حواراً مع هذه المادة. كما أننى أحاول أن أحيط نفسي بهذه المادة... أحاول أن أعيش معها، وأن أكون معها لمدة تقرب من شهر كما ترى. فأنا أعنى بذلك أن السؤال الملح الذي يشغلني وأنا أدون ملاحظاتي على كل هذه الصفحات التي بلغت المئات من المادة العلمية هو: "ما هو نوع القصة التي يمكنني أن أحكيها مستخلصاً إياها من هذه البيانات؟"، وما هي أوجه الانتظام أو التماثل التي أراها في هذه المادة؟

فأنت ترى أن كل ما نكتبه إنما هو، في الحقيقة، قصة نحكيها. فنحن نحاول أن نحكي قصة مقنعة، لكنها لا بد أن تكون محكومة بما تجمع لديك من بيانات. وأعنى بذلك أنه لا يمكنك أن تحكي أى قصة (من وحي الخيال). ثم إن السبب الذي يجعلني أقضى شهراً وأنا أقرأ كل هذه المادة وأتحدث بهذا الشكل مع هذه البيانات، هو محاولة أن أشق طريقى الذي يقودني إلى الوقوف على الأشكال الأساسية، والأبعاد الأساسية لقصة مشوقة، قصة حقيقية، عن خبرة معاناة الإصابة بالاكتهاب.

إننى أقوم بأمور كأن أنشئ فهرساً لكتاب ما. فبعد أن أقرأ كل هذا الكم من المادة، بعد أن فرغت من وضع ملاحظاتي على الهوامش، فإننى أخلق - بالمعنى الحرفي للكلمة - الشيء المساوى لفهرست أحد الكتب. وبهذا الشكل، قد أتمكن من العثور على ما بين ٢٥-٣٠ فئة وتحديد الصفحات التي أجد فيها البيانات المتعلقة بكل فئة من هذه الفئات. والأمر الذي تحاول القيام به وأنت تجوس خلال هذا الكم الهائل من المادة هو أن تصل إلى الوضوح، وتستمر في التماس هذا الوضوح، أعنى وضوح رؤية ما هو موجود فعلاً. وعند مرحلة ما تتوقف وتقول لنفسك: "هذه هي ما أتصور أنها قصة معقولة

تتسق مع هذه البيانات، قصة تحكى عن خبرة العيش مع الاكتئاب". وحينئذ أنشئ نوعاً من السيناريو، أى أنشئ نوعاً من الرؤية العامة لما قد ينتهى إليه هذا الفصل. وأخيراً، وفى هذه اللحظة، أبدأ فى القيام بالكتابة.

وهذا أمرٌ مختلف تماماً، وذلك لأنك تتعلم من خلال عملية الكتابة. فقد يكون لديك سيناريو حول ما سوف يؤول إليه هذا العمل، ولكن بمجرد أن تباشِر الكتابة وتبدأ فعلاً فى استعمال هذه البيانات فى رواية القصة، فسوف تكتشف أن هذه القصة ربما يؤول بها الأمر إلى صورة مختلفة قليلاً عن السيناريو الذى كان فى ذهنك، أو أنها لم تنجح تماماً بالطريقة التى كنت تتصورها عنها فى بداية الأمر. كما أننى أؤمن فى الواقع بما يقوله هوى بيكر Howie Becker فى كتابه عن الكتابة: وهو أن الكتابة ليست هى عملية تدوين ما تتصوره، إنما هى عملية تعريفك بما فى ذهنك فعلاً. لذلك، فإننى أرى أن فعل الكتابة الحقيقى هو الذى يعرفنى بما يتعين على كتابته. وكما ترى، فإن ما أحاول عمله هو إعطاء صورة عن العمل الكيفى الذى تم إنجازه، حيث يتوجب عليك - دائماً - أن تحرص على الاقتراب قدر ما تستطيع من البيانات الخاصة بالقضايا التى ترى أنها مهمة. ويبدأ الأمر بأن تنشئ دليلاً للمقابلة، وبعد ذلك تضع ملاحظاتك بشكل واف على أولى المقابلات التى أجريتها، وهكذا باستمرار. بل إنه أثناء نسخى لهذه المقابلات، وقد قمت فعلاً بنسخ كل هذه المقابلات، أجد أنه تتأبى مشاعر مختلطة تجاه هذا الأمر. إلا أنه توجد ثمة قيمة "حقيقية" فى أن تقوم بنسخ هذه المقابلات بنفسك. فهذا العمل ما هو إلا طريقة مختلفة للاقتراب الوثيق من البيانات.

أن الأساس الجوهرى لكل ذلك هو أن تبقى قريباً، هل تفهمنى؟ وهو ما يعنى تدوين الحواشى والملاحظات فى كل وقت. وقد تكون الحاشية عبارة عن جملة واحدة. وأحياناً ما ترى أنه خطرت لك فكرة، وعندما تشرع فى كتابتها تجد أنها استغرقت منك خمس صفحات، أو تجدها استغرقت فقرة واحدة فى بعض الأحيان، أو تقدم أحياناً على عمل تقييم أوسع نطاقاً تسائل فيه نفسك: ما الذى فى ذهنى الآن فيما يخص هذه النقطة؟". هيا بى أكتب حاشية عن أحد الموضوعات الأساسية. إننى أرى أن موطن القوة الأعظم للتحليل

الكيفى هو أن كلاً من عملية جمع البيانات وعملية تحليل البيانات تسيران معاً جنباً إلى جنب. وإذا لم تداوم على بذل الجهد فى تحليل هذه المادة، ابتداءً من لحظة البداية تماماً.... أو إذا اكتفيت بجمع بياناتك وانتظرت حتى النهاية لتقوم بالتحليل، فإنك تسيء استعمال القوة العظيمة لهذه الطريقة. بل إن هذا الكلام يسرى على كل مراحل هذا العمل العلمى المحكم، وسيبقى عليك أن تبلغ المرحلة التى يتعين عليك فيها أن تدون دفاتر بياناتك الميدانية - أو هذه على الأقل الطريقة التى أعمل بها - وأن تداوم على معالجتها بصورة مكثفة. وفى الوقت الذى تصل فيه إلى هذه المرحلة، ستصبح قادراً - حقاً - على فهم ما فى هذه المقابلات.

الخاتمة

ونحن نختم هذا الفصل، نود أن نزودك بقائمة ينبغى عليك مراجعتها عندما تبدأ فى القيام بمشروع بحثك. وليست قائمة الأسئلة هذه قائمة شاملة تحيط بكل شيء، بل المراد منها إلقاء الضوء على بعض العوامل المهمة التى ينبغى عليك أن تدخلها فى حسابك كى تستطيع الوصول إلى فهم صائب لتقييمك الشخصى لمشروع بحثك فى مجمله.

وهذه هى قائمة الفحص الخاصة بالتقييم والمحتوية على الأسئلة التى ينبغى عليك أن تطرحها على نفسك وأنت تضع اللمسات الأخيرة على مشروع بحثك. وبإمكانك أن تعتبر هذه الأسئلة بمثابة مجموعة من الإرشادات لتقييم مشروع بحثك.

• السؤال الشامل للبحث

هنا نتساءل: هل صيغ سؤال بحثى صياغة واضحة؟ وهل هذا السؤال بالغ الاتساع؟ أم بالغ الضيق؟

• قضايا المصادقية

هنا نتساءل: لماذا ينبغى على أى إنسان أن "يشترى" (يتقبل ويصدق) قصتك؟ وأن يثق بقصتك؟ وما هى بعض المعايير الخاصة بتقدير صدق دراستك البحثية؟ وهل يقر المبحوثون بخبراتهم الشخصية الواردة فى تحليلك

وتفسيرك للبيانات؟ ولماذا يقررون أو لماذا لا يقررون؟ هل تتبع أسلوباً محدداً لفحص عملك؟ هل يستطيع القارئ أن يتتبع الخطوات التحليلية التي تقدمها كدليل على المصداقية؟

• دلالة عملك وجدواه

هنا نتساءل: ما هي دلالة بحثك؟ وإلى أي مدى يرتبط بحثك بالدراسات البحثية الأخرى؟ إلى أي مدى يمكن تطبيق بحثك على تخصصك العلمي الذي تنتمي إليه، وعلى التخصصات العلمية الأخرى؟ ما هي بعض دلالات مشروعك البحثي وأهميته للسياسة الاجتماعية؟

• جمع البيانات

هنا نتساءل: هل تتناسب هذه البيانات - التي تم جمعها - مع سؤال

البحث؟

• طريقة البحث

هنا نتساءل: هل تعد طريقة البحث (بين بالتفصيل طريقة/ أو طرق البحث التي تستعملها للإجابة على سؤال بحثك) هل هي متوافقة مع الغرض (أي: مع سؤال البحث)؟ ما مدى ما يتصف به بيانك لاستراتيجياتك في جمع البيانات من شمولية وجودة؟

• العينة

كيف تم اختيار المبحوثين؟ وهل يعتبر هؤلاء المبحوثون اختياراً صحيحاً يعتد به لهذا البحث؟

• الأخلاقيات

هنا نتساءل: كيف تتم معالجة قضايا المبحوثين من البشر؟

• التحليل

هنا نتساءل: كيف توصلت إلى نتائج بحثك الخاصة؟ هل ورد ذكر استراتيجيات التحليل الخاصة؟ هل نفذت فعلاً ما قلت أنك سوف تقوم به؟ هل اتجاهات تحليل البيانات متوافقة مع سؤال بحثك؟

• التفسير

هنا نتساءل: هل بإمكان القراء أن يصلوا إلى معنى ما (أي صورة كلية شاملة) لما تدل عليه بياناتك، وذلك باستمدادها من نتائج بحثك المكتوبة؟

وهل نتائج بحثك موضوعة في سياق التراث العلمى المنشور عن هذا الموضوع؟

وتتساءل: هل تتناسب الشواهد مع بياناتي؟ وهل تُعد بياناتي متوائمة مع الموضوع؟

النتائج / التوصيات

هنا تتساءل: هل تعكس النتائج ما انتهى إليه بحثك من حقائق؟ هل قدمت بعض التوصيات الخاصة بالبحث في هذا المجال في المستقبل؟ هل ترى أنك مسئول إلى حد ما عما تراه من بعض أوجه القصور في بحثك؟

إن تحليل البيانات الكيفية وتفسيرها يسيران كعملية تكرارية - تنتقل من إحداها إلى الأخرى والعكس - هذا مع الحرص على ألا تتسى التعبير المجازى الوارد في الفصل السابع من هذا الكتاب عن جميع أجزاء الصورة اللغز، والمجاز الحلوونى الذى ناقشناه فى الفصل الأخير. ذلك أن بإمكان قطعة صغيرة من البيانات أن تقطع معك شوطاً طويلاً فى جميع المعنى، كما أن على المرء ألا يقع تحت إغراء القيام بجمع مقدار كبير للغاية من البيانات فى نفس الوقت الذى يكون فيه عاجزاً عن تأمل هذه البيانات واحدة واحدة. فالمطلوب هو وجود روح إبداعية مع مجموعة من مهارات التحليل والتفسير. وتعتبر عملية التصنيف وكتابة الحواشى تقنيتين قويتين ينبغى عليك استعملهما فى عملية فهم وتفسير بياناتك. وربما تلاقى بعض البدايات الزائفة، كما قد تعيش لحظات اكتشاف وتوليد للأفكار النظرية فى تحليل وتفسير بياناتك. فهذا النمط من العمل ليس "للجناء". فهو كثيراً ما يتطلب تنبهاً للتفاصيل وصموداً فى مواجهة الفوضى، كما يتطلب "موهبة خاصة" فى الصبر على اللبس والغموض. ويقتضى منك التدوين النهائى للبحث أن تكون كثير التأمل والتفكير فى وضعيتك - أى فى مجموعة السمات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بك والتى سخرت جهودك فى سبيل إدخالها فى تحليلك وتفسيرك لبياناتك. إنها رحلة تستحق القيام بها، وذلك لأن هذه الرحلة تُفضى إلى فهمنا وإدراكنا للواقع المعاش لهؤلاء الذين نقوم ببحث أحوالهم.

* * *

تعريف بالمصطلحات

• Analytical Categories

• فئات التحليل

تتطلب عملية التصنيف المركز أن يطور الباحث مجموعة من الفئات التحليلية بدلاً من الاكتفاء بوضع عناوين البيانات وفقاً لنوع الموضوع.

• Analytical Codes

• فئات التصنيف التحليلية

لا تكون فئات التصنيف التحليلية شديدة الارتباط بالنص في حد ذاته، إلا أنها تبدأ في الاعتماد على رؤية الباحث المتعلقة باستخراج أو استنباط التفسير.

• Analytical Dimensions

• الأبعاد التحليلية

كلما زاد عدد المقابلات التي تقوم بتحليلها، زادت فرصة أن تظفر بالوصول إلى أبعاد تحليلية عديدة لمفهوم معين.

• Coding

• التصنيف

يتكون التصنيف عادة من تمييز "قطع" أو "قطاعات" في بياناتك النصية وإعطاء كل قطعة - أو كل قطاع - عنواناً (أي: كود أو فئة تصنيف). والتصنيف هو الاستراتيجية التحليلية التي يستعملها كثير من الباحثين الكيفيين كي تساعد على تحديد مواقع الموضوعات الأساسية، والأنماط، والأفكار، والمفاهيم التي قد تكون موجودة في ثايات بياناتهم.

• Descriptive Codes

• فئات الوصف

عادة ما يبدأ التحليل بالبحث عن فئات الوصف الموجودة في ثايات البيانات، وهو الأمر الذي يزرع الأمل في توليد مجموعة من المفاهيم الأساسية (أي: الفئات الأساسية) التي تكون ذات طابع تحليلي أقوى وأوضح.

• Focused Coding

• التصنيف المركز

من شأن استخدام أسلوب التصنيف المركز أن يسهل بناء المفاهيم وتوضيحها. ففي التصنيف المركز يقوم الباحث بفحص كل البيانات الداخلة في فئة ما ويقارن كل جزئية من هذه البيانات بكل جزئية أخرى، وفي النهاية يقوم بوضع تعريف وافٍ بالغرض لكل مفهوم، وبعد ذلك يتم إطلاق اسم عليه.

• فئات التصنيف الحرفية • Literal Codes

تظهر هذه الكلمات كذلك فى ثنايا النص نفسه ومن ثم يقوم الباحث باستخدامها كفئات تصنيف. وعادة ما تكون فئات وصفية.

• ديناميات القوة • Power Dynamics

تتطوى العلاقة بين الباحث والمبحوث على ديناميات قوة مهمة يمكنها أن تؤثر على تفسير نتائج البحث. وقد أشرنا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب عن إجراء المقابلات المتعمقة إلى أن بمقدور سمات اجتماعية معينة بين الباحث والمبحوث أن تؤثر على قضية القوة وقضية السلطة (التحكم) فى عملية البحث.

* * *

أسئلة للمناقشة

- ١- ناقش مزايا وعيوب استعمال أدوات التحليل التى تعتمد على الكمبيوتر.
- ٢- كيف يمكن القيام بعملية التصنيف بأفضل صورة عند تحليل البيانات؛ وهل توجد أى عيوب فى استعمال التصنيف؛ وهل يوجد وضع/ أو حالة تكثر فيها فئات التصنيف بشكل مفرط، وهل بالإمكان أن يثير هذا الوضع مشكلات معينة؟
- ٣- ما هو الفضل الذى يدين به الباحث للمبحوثين أثناء مرحلة التحليل، وهل ينبغى أن يكون للمبحوثين رأى فى الطريقة التى يتم بها تمثيلهم؟
- ٤- كيف تؤثر العلاقة بين الباحث والمبحوث على عملية التفسير؟
- ٥- اشرح اتجاهات النظرية الموثقة فى تحليل البيانات. ما معنى أن تكون هذه العملية استقرائية؟
- ٦- ما هى العلاقة بين التحليل، والتفسير، وكتابة تقرير البحث؟
- ٧- كيف يتحقق الباحث الكيفى من صدق نتائج بحثه؟

* * *

مواقع مختارة على الإنترنت

- Computer – Assisted Qualitative Data Analysis Software
- برامج تحليل البيانات الكيفية بالكمبيوتر

<http://caqdas.soc.surrey.ac.uk/training.htm>

يقدم هذا الموقع ورش عمل ودورات تدريبية (وكذلك معلومات عامة) عن برامج التحليل باستخدام الكمبيوتر بالتطبيق على تحليل البيانات الكيفية. وهو موقع عظيم الأهمية لأولئك المهتمين بالتعرف على التحليل باستخدام الكمبيوتر.

* * *

المراجع References

- Agar, M. (1980). *The professional stranger: An informal introduction to ethnography*. New York: Academic Press.
- Bailey, C. A. (1996). *A guide to field research*. Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
- Borland, K. (1991). That's not what I said': Interpretive conflict in oral narrative research. In S. Berger Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's worlds: The feminist practice of oral history*. New York: Routledge.
- Charmaz, K. (1983). The grounded theory method: An explication and interpretation. In R. M. Emerson (Ed.), *Contemporary field research: A collection of readings* (pp. 109-126). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Charmaz, K. (2004). Grounded theory. In S. Hesse-Biber & P. Leavy (Eds.), *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 496-521). New York: Oxford University Press.
- Creswell, J. W., & Maletta, R. C. (2003). Qualitative research. In D. C. Miller & N. J. Salkind (Eds.), *Handbook of design & social measurement*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Denzin, N., (2000). The practices and politics of interpretation. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Devault, M. (2004). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. In S. Hesse-Biber & M. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research*. New York: Oxford University Press.
- Fielding, N., & Lee, R. (1998). Introduction: Computer analysis and qualitative research. In *Computer Analysis and Qualitative Research*. London: Sage.
- Glaser, B. G., & Strauss, A. L. (1967). *the discovery of grounded theory: Strategies for qualitative research*. Chicago: Aldine.
- Harrington, W (Ed.). (1997) A writer's essay: Seeking the extraordinary in the ordinary. In *Intimate journalism* (pp. xvii-xlvi). Thousand Oaks, CA: Sage.

- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet? the cult of thinness and the commercialization of identity*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S. (1995). Unleashing Frankenstein's monster: The use of computers in qualitative research. *Studies in Qualitative Methodology* (Volume 5). Westport, CT: JAI Press.
- Hesse-Biber, S., & Crofts, C. (forthcoming). Computer-aided software for qualitative data analysis: An historical overview and contemporary perspectives. In S. N. Hesse-Biber & R. Maietta (Eds.), *When methods meets technology*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Hesse-Biber, S. N., Howling, S. A., Leavy, P., & Lovejoy, M. (2004). Racial identity and the development of body image issues among African American adolescent girls. *The Qualitative Report*, 9(1),49-79.
- Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (Eds.). (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Kvale, S. (1996). *InterViews. An introduction to qualitative research interviewing*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Miles, M. B., & Huherman, A. M. (1984). *Qualitative data analysis: An expanded sourcebook* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Miles, M. B., & Weitzman, E. A. (1996). The state of qualitative data analysis software: What do we need? *Current Sociology*, 44,3(2),206-224.
- Mills, C. W. (1959). *The sociological imagination*. New York: Oxford University Press.
- Mishler, E. G. (1991). Representing discourse: The rhetoric of transcription. *Journal of Narrative and Life History*, (1), 255-280.
- Neuman, L. (2003). *Social research methods: Qualitative and quantitative approaches* (3rd ed.). Boston: Allyn & Bacon.
- Quinn Patron, M. (2002). *Qualitative research & evaluation methods* (3rd ed.). London: Sage.
- Richardson, L. (1998). Writing: A method of inquiry. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Collecting and interpreting qualitative materials* (pp. 345-371). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Richardson, L. (1995). Narrative and sociology. In J. Van Maanen (Ed.), *Representation in ethnography* (pp. 198-221). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Robson, C. (2002). *Real world research* (2nd ed.). Oxford: Blackwell.
- Shapiro, M. (1985-1986). Metaphor in the philosophy of the social sciences. *Cultural Critique*, 2, 191-194.
- Tesch, R. (1990). *Qualitative research: Analysis types and software tools*. London: Falmer Press.
- Weitzman, E. A. (2000). Software and qualitative research. In N. Denzin & Y. S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed. pp. 803-820). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Weitzman, E., & Miles, M. (1995). *Computer programs for qualitative data analysis: A software sourcebook*. London: Sage.
- Wolcott, H. (2001). *Writing up qualitative research* (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Wolcott, H. (1994). *Transforming qualitative data: Description, analysis and interpretation*. Thousand Oaks, CA: Sage.

الفصل الحادى عشر

الرابطه البحثية

التركيز المستمر وبناء المعرفة

يتسم البحث الكيفى بتفرده من حيث المحتوى، والمجال الذى يركز عليه، وكذلك من حيث الشكل. وقد بدأنا هذا الكتاب ببيان أن البحث الكيفى عملية كلية متكاملة تقوم صراحة بدمج الإستيمولوجيا، والنظرية، وطريقة البحث معاً من أجل تطوير اتجاهات متفرده فى دراسة العالم الاجتماعى. ويمكن النظر إلى العلاقة بين الإستيمولوجيا والنظرية وطريقة البحث باعتبارها "رابطه"، أعني رابطه بحثية. وكما سبق أن بينا فإننا نعنى بالعملية الكلية أن البحث - بدءاً من مرحلة اختيار الموضوع وحتى العرض النهائى لنتائج البحث - يحتوى على سلسلة من الاختيارات المترابطة فيما بينها والتي تؤثر كلها فى بعضها البعض. من هنا تحظى فكرة الرابطه البحثية بالمحل الأول من اهتمام الباحث الكيفى، كما أن الطريقة التى بها تطرح الرؤى أو المواقف الفكرية والإستيمولوجية - بحيث تكون ذات صلة بعملية البحث - تؤثر تأثيراً عميقاً على عملية بناء المعرفة، والتي تتضمن انتقاء أدوات البحث أو طرقه الملائمة واستخدامها. وعندما ننظر إلى البحث باعتباره عملية كلية يصبح بوسعنا توجيه الاهتمام إلى طائفة من العوامل التى تؤثر على عملية بناء المعرفة، بما فيها:

- اهتماماتنا الخاصة فيما يتعلق بموضوع البحث.
- الفروض الخاصة بما يمكن معرفته حول الموضوع وبمن يمكن أن يكون عارفاً به.
- الاعتبارات الأخلاقية.
- أنواع أسئلة البحث التى نريد أن نطرحها ولمن توجه هذه الأسئلة.
- الأدوات المتاحة لجمع البيانات.
- الاعتبارات العملية، كالوقت، والمال، والمسار المهنى، والسلامة البدنية، والحالة الانفعالية المواتية.

ولست طرق البحث إلا جانباً واحداً من جوانب المجهود البحثي. إذ يتحتم أن يتضافر سؤال البحث وطريقة البحث معاً على الدوام وأن يكون بينهما "تلاؤم محكم". ومن بين الاختيارات العديدة المتاحة للباحثين الكيفيين، ابتداءً من المنظورات الفكرية ومروراً بطرق البحث وانتهاءً بأساليب وأشكال عرض المادة، تتطلب عملية البحث الكيفي - في الواقع - الإبداع، ولهذا ينظر إليها باعتبارها حرفة تحتاج إلى براعة. وقد قمنا من خلال التعبير المجازي الخاص "بالرقص مع البيانات" dancing with data (بمعنى التهاور والتناغم معها) والتعبير المجازي الخاص "بالاتجاهات الحلزونية" في البحث؛ قمنا بتوضيح العملية التي بها يقوم الباحثون الكيفيون ببناء المعرفة وتوليد النظرية من خلال عملية يصلون بها إلى التعرف على هذه البيانات، والغوص فيها والخروج منها، والانغماس في الممارسة الاستقرائية والتأملية في أحيان كثيرة. ولعله من المناسب أن نعود الآن إلى المثال الذي بدأنا به هذا الكتاب.

بعض الأساليب الكيفية في دراسة أحد الأوبئة: خلق المعرفة الحيوية

تَخِيلُ وباءَ يَكْتَسَحُ الكرة الأرضية، إلا أن هذا الوباء لا يُشَبِّهُ أي وباءٍ عُرِفَ من قَبْل. وللمرض الذي يسبب هذا الوباء عواقب مدمرة للجسم، كما أنه، وخلافاً لكثير من الأمراض الأخرى، يتضمن مرحلة تسمى عادة مرحلة "الميت الحي". ومن المُحْزِن أنه لا يوجد دواء للشفاء من هذا المرض المُوهِن للجسم، كما أن معدل الوفيات في تزايد إلى الحد الذي يجعل بعض الجماعات السكانية تفقد أعداداً لا يُستهان بها من الأفراد. فبدون الشفاء منه، يكون المستقبل المُرتَقَّب مستقبلاً مُظْلِماً. ولكن بعيداً تماماً عما لهذا المرض من خطورة في سرعة انتشاره بالعدوى وفي ارتفاع معدلات الوفيات المرتبطة به؛ يوجد ما يجعله -بالفعل- مختلفاً عن الأمراض الأخرى، وهو ما يتمُّ ربطُهُ به من معانٍ اجتماعية ووصمة تلحق من يصاب به، وهي الأمور التي تختلف عَنِ الثقافات. إذ توجَد -علاوة على المضاعفات الاجتماعية للمرض -مجموعة من الملابس الاجتماعية ذات الطبيعة التربوية والصحية

والاقتصادية، التي لا يتم ربطها بالأوبئة الأخرى -كالسرطان مثلاً- والتي تُلَازِم في كثير من الأحيان هذا المرض الطويل الأمد. زد على ذلك، وكما هو الحال مع مرض السرطان، أن يصل الأمر إلى أن البنى العائلية تتأثر وتتبدل بسبب هذا المرض، حيث تنعكس الأدوار حينما يقع الشباب فريسة للمرض، وحين يتوجب على كبار السن وعلى الأطفال أحياناً أن يضطلعوا بعبء رعاية هذا الشاب الذي يُعاني الموت. كما أن هذا الوضع ليس سوى الجزء الظاهر من قمة جبل الجليد، أما ما دون ذلك فهو الأعظم والأخطر. ولا شك أنه ليس علينا أن "نتخيل" مثل هذا الوباء، فإن لدينا مثيلاً له وهو : فيروس نقص المناعة البشري/ أو الإيدز، والذي لا توجد جماعة بمنجاة منه. ولكن من وجهة نظر البحث العلمي، تخيّل مدى ما يمكن أن تصل إليه معرفتنا من قصور لو أننا اعتمدنا فقط على طرق البحث الكميّة في بناء المعرفة بهذا المرض.

فالبُحث الكمي بمقدوره أن يدلنا على معدلات الإصابة بالمرض ومعدلات انتشاره، وبالمجموعات السكانية الأرجح احتمالاً لأن تتخرب في "سلوك خطير" كـبعض الممارسات الجنسية أو تعاطي المخدرات. بل إن بمقدور البحث الكمي أن يدلنا على أنواع السلوكيات الخطيرة التي يرتفع احتمال انخراط القطاعات المختلفة من السكان فيها. ولا حاجة بنا فعلاً إلى أن نتخيل مدى قصور معرفتنا بالإيدز لو أننا اعتمدنا فقط على البحث الكمي، فقد حَدَثَ ذلك منا على امتداد أكثر من عشر سنوات، وكنتيّة لذلك حصلنا على إجابات لأسئلة مهمة. فقد ساعد البحث الكمي على الإجابة على الأسئلة البحثية التي منها مثلاً: من هو الفرد الذي يُعتبَر الأشد تعرضاً لخطر الإصابة، وما هي السلوكيات الخطيرة التي يشارك الأفراد في ممارستها؟

ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه المعلومات المهمة، فإن البحث الكمي لا يستطيع أن يقدم إجابات على بعض الأسئلة من قبيل: لماذا ينخرط بعض الناس في ممارسات جنسية خطيرة، وإلى أي مدى يؤثر السياق الاجتماعي، والبيئة، والتعليم على الناس من الناحية الجنسية، وكيف تسهم الهوية الجنسية للفرد في تشكيل السلوك الجنسي، وما هي طبيعة الخبرة الخاصة التي يمر بها

الفرد عند إجراء اختبار الإصابة بالمرض ويتأكد له أنه مصاب فعلاً بالإيدز، وما هي الخبرات المعيشية للمصاب بالإيدز، وما هي الصورة التي يتخذها السلوك الجنسي عندما يؤكد التشخيص وجود المرض، وما هي الخبرة الخاصة بالوصمة الاجتماعية المتعلقة بالإصابة بفيروس نقص المناعة، وما هي الخبرة الخاصة التي يعايشها من يقدم الرعاية الصحية لأحد الأحبة من المصابين بالإيدز، بما تتضمنه هذه الخبرة من أي شكل من أشكال إعادة بناء الأسرة، وانقلاب الأدوار، والعُسْر المالي، وما إلى ذلك؟

هذه كلها مجرد جُزء من الأسئلة والقضايا التي لا يمكن معالجتها من خلالها وسائل البحث الكمية، ولكنها الأسئلة التي يُطرحها ويُجيب عليها الباحثون الكيفيون في مختلف الميادين، بما فيها علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا والرعاية الصحية، والتربية، ودراسات النوع الاجتماعي. فالمعرفة التي تُثمرها هذه الجهود المتعددة التخصصات تقوم بتقديم إضافة هائلة لمعرفتنا بالإيدز والطريقة التي بها نستطيع استحداث طرق جديدة للوقاية الفعّالة، والخدمات الفعّالة، والتدخل المؤثر والإصلاح الاجتماعي. فهنا بنا نلقي نظرة على جُزء من البحث الذي قدمه الباحثون الكيفيون - المنتمون إلى تخصصات متعددة ومتعاونة - لكي نحصل على صورة أفضل لمدى أهمية ما يسهم به البحث الكيفي في إثراء معرفتنا. ودعنا نلقي بصفة خاصة - نظرة على مدى قدرة الباحثين الكيفيين على "النفوذ إلى" فهم الانخراط في ممارسة جنسية محفوفة بالمخاطر، وفهم خبرة تقديم الرعاية الصحية، باستعمالهم طرقاً لولاها لظل هذا الفهم عصياً على الإدراك.

فقد أجرى دانييل وايت Daniel Wight وباتريك وست Patrick West (١٩٩٩) دراسة للمقارنة بين كفاءة البحث المسحي في مقابل كفاءة المقابلات المتعمقة في دراسة للسلوك الجنسي للذكور العاديين ومفاهيم هؤلاء الذكور عن الجنس. ونظراً لأن وايت وست من المتخصصين في علم الاجتماع الطبي، فقد كانا مشغولين بالطريقة المثلى التي بها نستطيع جمع المعلومات عن السلوك الجنسي في ظل ظروف انتشار مرض الإيدز. وقد اشتملت دراستهما على ٥٨ رجلاً من ذوي الممارسات الجنسية الطبيعية في

جلاسجو. وفي نهاية إحدى السنوات تم إجراء مسح اجتماعي عليهم، وفي نهاية السنة التالية أجريت معهم مقابلات متعمقة. وقد وصل وايت و وست إلى نتيجة مفادها أن البيانات المستمدة من المقابلة المتعمقة (الكيفية) قد وفرت قدراً من الصدق أكبر مما وفره البحث المسحي (الكمي). وتوضح هذه النتيجة التي وصلا إليها قضيتين مهمتين:

القضية الأولى أنه يوجد، على المستوى المادي، قدر كبير من المعرفة التي يمكننا تحصيلها - عن طريق البحث الكيفي - عن بعض الموضوعات المهمة، كموضوع السلوك الجنسي عند البشر وموضوع السلوك المخوف بالخطر. كما تزودنا هذه المعلومات بمستوى من العمق والوصف التفصيلي الذي يُعدُّ أمراً حيوياً لتوسيع قاعدة معرفتنا. والقضية الثانية، أن مسألة الصدق تجعلنا نعود للتفكير في القضايا التي تحدثنا عنها في الفصلين الأول والثاني من هذا الكتاب. ففي الوقت الذي يغلب فيه استعمال البحث الكمي الذي يُجرى على أساس الفلسفة الوضعية باعتباره معلماً ومؤشراً للعمل "العلمي"، فضلاً عن اتخاذه نموذجاً عند وضع تعريفات الصدق، ننتبن اليوم - مع ذلك - أن هناك قدراً كبيراً من البحوث التي تدل على أن بمقدور البحث الكيفي الذي يُجرى بطريقة جيدة أن يزودنا بنتائج أكثر صدقاً من النتائج التي تأتي بها البحوث الكمية المناظرة.

ويستعمل الباحثون الكيفيون في فروع العلم المختلفة المقابلات المتعمقة باعتبارها طريقتهم البحثية الأساسية، وذلك في توليد المعرفة المتصلة بمرض الإيدز. فقد قام مارك دافيز Mark Davis (٢٠٠٢) بدراسة مهمة تمزج البحث الصحي والبحث التربوي معاً. وكانت دراسته تهدف إلى التعرف على حكايات التبرير التي يقصها المثليون من الرجال الذين يمارسون سلوكاً جنسياً مخوفاً بالمخاطر. ولهذا قام دافيز بإجراء ١٦ مقابلة متعمقة مع ١٦ من الرجال المثليين، وكان بعضهم مصاباً بالإيدز والبعض الآخر غير مصاب به. قامت هذه المقابلات "باستكشاف الطرق التي بها كان يتم فهم وتفسير مخاطر الإيدز، وشرح السياق الاجتماعي (دافيز، ٢٠٠٢، ص ٢٨٧). فهذا النوع من

البحث يُعدّ مكملًا لفهمنا للسلوك الجنسي وما ينطوي عليه من مخاطر، وللطريقة التي بها نساعد على حماية الناس من الإصابة بهذا المرض.

ومن أجل خلق تعليم وقائي فعال، وبرامج للتدخل، ورسائل صحية ثقافية تتجارب مع ظروف الأشخاص المعرضين للخطر، يكون من الأمور الحيوية أن نفهم - على وجه الحقيقة - عملية اتخاذ القرار عند هؤلاء الأفراد. وهذا الفهم يجعل البحث الكيفي أمراً جوهرياً لا بد منه. ففي الوقت الذي يدلنا فيه الباحثون الكميون على الجماعات التي يزداد احتمال انخراطها في سلوكيات جنسية معينة، فإنه ليس بوسع هذه الطرق الكمية أن تطلعنا على أسباب ذلك. ولاشك أن الطرق الكمية في بناء المعرفة لا تستطيع أن تجيب على أشد الأسئلة الاجتماعية إلحاحاً في وقتنا هذا، خاصة تلك الأسئلة من قبيل: لماذا يستمر الأفراد في الانخراط في سلوك جنسي مخوف بالمخاطر؟ وما الذي يدفعهم لذلك؟ وما هي الضغوط التي يواجهونها؟ وكيف يشرح الأفراد السياقات التي يتخذون فيها قراراتهم الجنسية وكيف يبررونها؟ وكما حاولنا توضيحه على امتداد هذا الكتاب، فإن البحث الكيفي ليس مجرد زيادة تُضاف إلى البحث الكمي، بل الأصح أنه يساعدنا على طرح تشكيلة متنوعة من أسئلة البحث ومن الإجابة عليها، مُضيفاً بذلك إضافة هائلة إلى رصيدنا من المعرفة عن أي موضوع من الموضوعات.

عند التفكير في تاريخ البحث في مرض نقص المناعة البشري/ أو الإيدز، يتضح لنا السبب في أن قاعدتنا المعرفية عنه كانت محدودة جداً، وهو أن معظم البحوث عنه كانت تجري بمعرفة علماء الطب الحيوي، وكان القليل من هذه البحوث هو الذي يتم بمعرفة العلماء الاجتماعيين وحدهم. ومن الأمور الأساسية التي أسهمت بها بحوث علوم: الأنثروبولوجيا، والنفوس، والاجتماع في اطلاعنا على هذه القضية وإرشادنا إلى الطريقة التي نستحدث بها البرامج الوقائية الفعالة، وذلك من خلال الكشف عن أمر أساسي وهو أن الاتصال بين طرفي العلاقة الجنسية يُعدّ عنصراً حاسماً من عناصر الممارسات الجنسية المحفوفة بالمخاطر.

ولتوضيح هذه النقطة نقول: إن أغلب برامج التعليم كانت قائمة دائماً على افتراض أن طرفي العلاقة الجنسية إنما هما فردان يتصرفان على نحو رشيد و يتحدثان بحرية وصراحة عن قضاياهما ومشاغلهما، وما إلى ذلك. هذا على الرغم من أن البحوث التي تؤكد صحة ذلك بحوث قليلة العدد. مثال ذلك أن الأدوار القائمة على النوع الاجتماعي تؤثر على التواصل بين الأفراد في مجال العلاقات الحميمة بطرق مختلفة كثيرة على النحو الذي قد يعوق مثل هذا الاتصال "الصريح والعقلاني"، وهو ذلك النوع من الاتصال الذي نتخيله عند وضعنا للبرامج الوقائية. وقد أضاف الباحثون الكيفيون من شتى العلوم الاجتماعية، والصحة، والتعليم قدراً هائلاً من المعرفة إلى فهمنا للسياق الذي فيه يتواصل الأفراد مع شركائهم في العلاقة الحميمة وفيه يتخذون القرارات الشخصية الخاصة بهما. وهذه المعرفة لم يكن يتيسر الوصول إليها بدون استعمال طرق البحث الكيفية. يُضاف إلى ذلك أن الباحثين من مختلف التخصصات العلمية قد قاموا بالفحص الدقيق للطريقة التي تتبعها الجماعات المعرضة لهذه المخاطر بالذات في التفكير في مسألة السلوك الجنسي وفي تعريفنا بسلوكياتهم.

وفي هذا المسار، التقى فريق من الباحثين من تخصصات علمية مختلفة - بمن فيهم متخصصين في علم الاجتماع، وعلم النفس، والصحة - التقوا لدراسة العلاقة بين أدوار النوع الاجتماعي والقابلية للتعرض للإصابة بمرض نقص المناعة البشري بين بعض ذكور وإناث (من جماعات "العجز") في كل من بلغاريا والمجر. فهذه الجماعة هي أكبر أقلية عرقية في وسط وشرق أوروبا، كما أنها تتسم ببعض السلوكيات الجنسية التي تنطوي على خطورة كبيرة. ومع ذلك، فإنه قبل أن يقرر كيلي Kelly وآخرون (٢٠٠٤) أن يستعملوا طريقة المقابلات المتعمقة في دراسة هذه الجماعة، لم يكن معروفاً إلا القليل عن السياق الثقافي والاجتماعي الذي كان يُمارس فيه السلوك الجنسي. ولكن بعد إجراء ٤٢ مقابلة متعمقة اكتشف الباحثون قدراً كبيراً من المعرفة عن المعايير الجنسية داخل هذه الجماعة. مثال ذلك، أن الخيانة التي تصدر من الرجال أمر شائع، على حين اتضح أن النساء لا يكنّ نشيطات

جنسياً إلا مع أزواجهن. فهذا النوع من المعلومات - وكثير مثله من معلومات "الوصف المُكثَّف" التي تُبين كيف يفكر الرجال والنساء في هذه المعايير وكيف يتعاملون معها... إلخ - نقول: هذا النوع من المعلومات يُعدُّ حيويّاً لبلورة البرامج التعليمية الفعالة المُوجَّهة لهذه المجموعة السكانية المعرضة للخطر. يُضاف إلى ذلك، أن هذه الدراسة تُعدُّ مثالاً نموذجياً للطريقة التي بها تتخطى الطرق الكيفية الحدود الفاصلة بين التخصصات العلمية وتُيسِّر طرح أسئلة البحث المتعددة التخصصات وأسئلة البحث المتداخلة التخصصات.

كما أن البحث الكيفي يستطيع أن يضيف أفكاراً عميقة جديدة ومهمة إلى أسئلة البحث القديمة التي لم تكن تُعالج قبل ذلك إلا بالطرق الكمية فقط. فعلى امتداد فترة طويلة من الزمن دلَّ البحث على أن الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال (وخاصة الجنس المحفوف بمخاطر كبيرة) والأفراد الذين يتعاطون المخدرات (وخاصة باستعمال إبر الحقن) يكونون معرضين لخطر العدوى بفيروس نقص المناعة البشرية. ولكن ماذا عن الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال ويتعاطون المخدرات في نفس الآن معاً؟ في هذه الحالة، تُعزى معدلات انتقال عدوى المرض إلى الممارسات الجنسية، ومع ذلك، فإن العلاقة بين الممارسات الجنسية وتعاطي المخدرات لم تحظْ بالقدر المناسب من الفحص الدقيق (Clatts & Sotharan, 2000, p. 169).

ولفهم العلاقة المعقدة بين الممارسات ذات الخطورة بين الرجال الذين يشتركون في كل من الجنس المثلي وتعاطي المخدرات، ولفهم طبيعة هذه الممارسات قام كلاتس و سوزران بإجراء بحثٍ إثنوجرافي يتعلّق بالصحة العامة لدى هذه المجموعة السكانية. وتُعتبر هذه المجموعة بالذات عَصية على الوصول إليها لتحقيق أهداف التدخل نظراً لأنه لا يُعرف إلا القليل عن هويّتهم وعن محال إقامتهم (٢٠٠٠، ص ١٧١). كانت الطريقة الأساسية التي استخدمها كلاتس و سوزران هي طريقة الملاحظة بالمشاركة حتى يتمكنوا من الحصول على معرفة مباشرة عن الممارسات والمعتقدات الخاصة بهذه المجموعة، وعن سلوكياتهم، وعن الأسس المنطقية لتلك السلوكيات. وقد كان استعمال الملاحظة بالمشاركة كطريقة لفهم السلوكيات الخطيرة مكملاً لعملية

"فك الاشتباك" (أي: إزالة الالتباس والتعقيد) بين العوامل المختلفة المسؤولة عن التعرض لعدوى الإصابة بالأمراض التي تنتقل بالممارسة الجنسية^(*). وهذا الهدف البحثي، والذي يتفق مع ظروف هذه المجموعة المراد دراستها يقدم لنا مثلاً واضحاً عن متى تكون الطرق الكيفية ضرورية لملاء فجوة في المعرفة الراهنة. لذلك كان البحث الإثنوجرافي هو الطريقة التي يمكن أن تعالج هذه المشكلة البحثية على أفضل الوجوه.

إن البحث الإثنوجرافي ليس طريقة مفردة (أي مقصورة على أداة بحث واحدة)، بل هو مجموعة من الأدوات البحثية الموجهة لدراسة الظواهر الاجتماعية داخل البيئات الطبيعية التي توجد فيها، وذلك من خلال التفاعل مع المبحوثين باستعمال لغاتهم داخل بيئاتهم. وعلى المستوى النظري العام، يختلف هذا التراث البحثي "الطبيعي" عن النماذج التجريبية المستعملة في البحث المعلمي و العيادي والتي تقترض، مثلاً، أن جميع التأثيرات البيئية "معروفة" ومن الممكن تثبيتها لكي يتسنى "عزل" التأثيرات التي يتوصل إليها الباحث عن طريق الاستدلال العقلي، أو عزل تأثير الاهتمامات النظرية للباحث. وعلى العكس من ذلك، يقوم البحث الإثنوجرافي "بالطرح الإشكالي" للتأثيرات التي تحدثها البيئة المادية والاجتماعية في الأفراد المبحوثين، ومن ثم يولي أهمية منهجية لملاحظة المجموعة السكانية التي يدرسها وهي داخل بيئتها الطبيعية. وهذا التوجه المنهجي مُستمد من المُسلمة التي تقول إن الظواهر السلوكية مترابطة بطرق معقدة يمكن اختزالها دائماً إلى مجموعة بسيطة من العلاقات القابلة للعزل عند إجراء التجارب عليها. (كلاتس وسوذران، ٢٠٠٠، ص ١٧٠).

من الواضح - إذن - بناءً على هذه المقارنة بين التجارب الكمية والبحث الإثنوجرافي الكيفي أن البحث الكيفي ضروري لدراسة كثير من الظواهر الاجتماعية. وقد كان البحث الإثنوجرافي أمراً محورياً لا بد منه في تأسيس معرفة لها معناها في حالة هذا المشروع البحثي المتداخل التخصصات

(*) STD = Sexually Transmitted Diseases.

تدلنا على ما يلي: ما هي الممارسات، والأفكار، والمشاعر، والمبررات التي تدفع إلى تعاطي المخدرات بين الرجال الذين ينخرطون - إلى جانب ذلك - في ممارسة الجنسية المثلية، وما هي العلاقة بين هذه الممارسات وبين القابلية للإصابة بفيروس نقص المناعة (الإيدز).

وهكذا زوّدنا البحث الإثنوجرافي الذي أجراه كلاتس و سوزران بقدر كبير من المعلومات المهمة والتي لم تكن معروفة من قبل عن هذه المجموعة السكانية. وهذا النوع من المعلومات التي جَمَعّاها يشهد لقوة البحث الكيفي. مثال ذلك، أن بحثهما الإثنوجرافي أتاح لهما أن ينتبها إلى تمييزات مهمة بين فئات عامة من السلوك يشيع بين الناس الاعتقاد بأنها فئة واحدة من فئات السلوك. وقد ختم كلاتس وسوزران دراستهما ببيان مدى أهمية البيانات الكيفية الوصفية عند التفكير في استحداث أشكال ناجحة فعالة من الوقاية، والخدمات، والتدخل الموجهة إلى مجموعات سكانية معينة (٢٠٠٠، ص ١٧٨).

في نفس الوقت الذي ساعدنا فيه البحث الكيفي على الإحاطة بمعلومات جديدة عن الجماعات السكانية التي أصيبت إصابة شديدة بهذا الوباء، لعب البحث الكيفي دوراً حيوياً في تحصيل المعرفة عن الأفراد الذين لا تقع أعيننا عليهم و الذين أثر عليهم الإيدز، وأعنى بذلك مقدّمي الرعاية لأولئك المرضى. فهذا المرض شديد التفرد في كونه يؤثر على كل من العلاقات الشخصية والنظم الاجتماعية بطرق عميقة التأثير. ومما يندرج ضمن التأثير الشخصي والاجتماعي للإيدز تلك المجموعة من المعاني الاجتماعية والثقافية المرتبطة بهذا المرض، فهو مرض ذو مكوّن اجتماعي، وهو الوصمة المرتبطة بهذا المرض والتي تُعدّ من وجهة نظر العلوم الاجتماعية مُشكلة تماثل مُشكلة المرض نفسه. كما أن هذا الوباء يكشف عن موقف متفرد لتقديم الرعاية للمصابين به. ففي الوقت الذي يكون فيه المرضى في حاجة دائمة للرعاية عند الإصابة بأي مرض طويل الأمد، فإن هذا المرض وما يتفرد به من سمات اجتماعية وبدنية خاصة يكشف عن حالة فذة من تقديم الرعاية يتعين علينا استكشافها.

فبالنسبة لمن يباشرون العمل في هذا المجال، وبغد إدخال المدى العمري لهؤلاء الأفراد الذي يعانون من المرض بمعدلات أكثر من غيرهم؛

بإدخال ذلك في الحساب تكشف لنا العلاقة الخاصة بتقديم الرعاية - في أحيان كثيرة- عن نوع من انقلاب الأدوار الاجتماعية. إذ نجد في حالة الإصابة بمرض الإيدز أنه في كثير من الأحيان يقوم بدور تقديم الرعاية للشخص المصاب والداه الكبار السن أو أبنائه صغار السن (D'Cruz, 2004, p.414). يضاف إلى ذلك، أنه يمكن القول إن تقديم الرعاية لفرد مصاب بالإيدز أثقل وطأة من تقديم الرعاية للمصابين بأمراض أخرى بسبب:

(١) طول الفترة الزمنية التي يعيشها "الميت الحي".

(٢) ولأن هذا المرض يستهدف أساساً شباب المراهقين ممن يكونون منتجين اقتصادياً ونشطين جنسياً،

و(٣) بسبب المعاني الثقافية المرتبطة بهذا المرض (أي بسبب الوصمة المرتبطة بالإصابة بهذا المرض) (دكروز، ٢٠٠٤، ص ٤١٤).

فإذا أدخلنا في اعتبارنا تلك الصفة المتفردة التي يتصف بها تقديم الرعاية لشخص مصاب بهذا المرض، وعدد التخصصات العلمية المعنية بهذا المرض وتأثيره الاجتماعي، وتأثيره النظامي (المؤسسي)، بجانب تأثيره على العلاقات بين الأفراد، فإنه يكون من العجيب أن ما أجرى من فحوص إمبريقية لهذا الجانب من جوانب المرض قليل جداً.

لهذا قررت برميلا دكروز Premilla D'Cruz، والتي تعمل في مجال السلوك التنظيمي بخلفية من العلوم الاجتماعية، قررت أن تقوم بمشروع بحثي كيفي عن خبرة الأسرة بتقديم الرعاية للمصابين بمرض نقص المناعة أو الإيدز في الهند، حيث تصل الإصابة بالإيدز إلى معدلات وبائية (دكروز، ٢٠٠٤، ٤١٤). وقد قامت دكروز بإجراء مقابلات متعمقة (في جلسات متعددة) وأجرت ملاحظات إثنوجرافية مع ١٩ من أعضاء الأسر ممن كانوا يقدمون الرعاية أو ممن كانوا يتلقونها. وحصلت كروز على مبروتها من خلال العينة العمدية، والتي ناقشناها في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وقد أثرت أهمية الأخلاقيات المتبعة في العملية البحثية تأثيراً حقيقياً وبطرق مباشرة في البحث الذي قامت به دكروز، وذلك إذا أخذنا في الاعتبار الوصمة الاجتماعية المرتبطة بالإيدز والقضايا المتصلة بالسرية العلاجية والخصوصية التي واجهتها خلال عملية اختيارها للمبحوثين المشاركين. وبفضل التزامها

بمبادئها الأخلاقية، وذلك عن طريق استعمالها للموافقة الصريحة عن علم وبنائها للألفة، استطاعت إنجاز هذا المشروع الذي كان بمثابة تحدٍ حقيقي. فقد استعملت دكروز اتجاهها فينومينولوجيا لأنها كانت مَعْنِيَةً بفهم "الخبرة" الشخصية والمعاني الذاتية والتفسيرات أو التأويلات الفردية. وعندما كانت تجري المقابلات داخل بيت المبحوث كانت تقوم كذلك بتسجيل الملاحظات الإثنوجرافية لكي تفهم "سياق الموقف" الذي يتم فيه تقديم الرعاية (دكروز، ٢٠٠٤، ص ٤١٥). ومن خلال قيامها بالجمع بين المقابلة المتعمقة، وإجراء الملاحظات، واستعمال أحد الاتجاهات الظاهرية (الفينومينولوجية)، حصلت دكروز على قدر كبير من البيانات الكيفية التي صنفتها وفقاً لموضوعاتها الأساسية بعد قيامها بعملية من عمليات "الغوص في أعماق البيانات"، على النحو الذي عرضنا له في الفصل العاشر من هذا الكتاب. والنتيجة هي نجاحها في الوصول إلى فهم أكبر كثيراً لعملية تقديم الرعاية لشخص مصاب بفيروس نقص المناعة أو الإيدز وللطرق المختلفة التي بمقتضاها يخبرُ الناس دور مقدم الرعاية مع إدخال السياق الاجتماعي لهذا المرض في الحُساب. ويمكن الاستفادة بهذا البحث في مواصلة تطوير المشاريع البحثية المهمة عن هذا الموضوع وعن الموضوعات المتصلة به.

خاتمة: الرؤية الكيفية لبناء المعرفة

إن ما يمكننا أن نتبينه بوضوح من المثال الخاص بالبحث الذي يتناول فيروس نقص المناعة البشري أو الإيدز هو أن البحث الكيفي يمثل اتجاهًا مهمًا في بناء المعرفة. وهو مثال ممتاز للطريقة التي بها قام باحثون من مختلف التخصصات: الأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والرعاية الصحية، والتربية؛ حيث قام أولئك الباحثون بابتداع طرق لاستعمال الاتجاهات الكيفية في بناء المعرفة بغرض إلقاء الضوء على مختلف الجوانب الخفية لأزمة الإصابة بمرض الإيدز. وقد أتاحت هذه الاتجاهات للباحثين أن يضعوا أيديهم على المعارف المقهورة أو الخاضعة التي استمدوها من الجماعات المهمشة في كل من الولايات المتحدة وخارجها، كما أتاحت لهم أن يجروا بحوثهم انطلاقاً من رؤى أو منظورات إبستمولوجية وفكرية متعددة حتى تتلاءم مع أهدافهم. وتظهرُ المقارنة بين البحث الكمي والبحث الكيفي أنه بدون

البحث الكيفي فإنه يوجد الكثير الذي لا يمكننا أن نحيط به عن هذه الظاهرة الاجتماعية، أو عن أي ظاهرة اجتماعية أخرى.

لقد ركز هذا الكتاب على الاتجاه الكيفي في بناء المعرفة، أو على النموذج التأويلي الكيفي. وقد قمنا، بصفة خاصة، بالفحص الدقيق للعلاقة بين الإستمولوجيا، والنظرية، ومنهجية البحث، وطريقة البحث -أو ما أسميناه الرابطة البحثية- في عملية بناء المعرفة. وإن ما تعلمناه من خلال هذا الكتاب، والذي برهنا عليه باستعراض المثال الذي ختمنا به الكتاب والمتعلق بالبحث في مجال مرض فيروس نقص المناعة/ أو الإيدز عبر التخصصات العلمية المتعددة؛ ما تعلمناه هنا هو أن الاتجاهات الكيفية في بناء المعرفة تعد جزءاً مهماً في خلق المعرفة الجديدة، والتي توسع من نطاق المعرفة القديمة أو تفندها، كما تعد جزءاً مهماً من إيضاح وتفسير الرؤى والتوجهات النظرية التي لم تكن جلية قبل ذلك. وبجانب التفسير السببي الذي يميز البحث الكمي ويعبر عنه عادة، يوفر البحث الكيفي بيانات وصفية حية استكشافية وإيضاحية، كما أنه كثيراً ما يستعمل لتوليد النظرية.

وقد ركز هذا الكتاب على كل من طرق البحث الكيفية التقليدية وخطط البحث ذات الطرق المختلطة التي تجمع بين كل من النموذج الفكري الكيفي والنموذجي الفكري الكمي. ويُعد حقل الطرق الكيفية حقلاً دائماً التغير نظراً لأن التوجهات النظرية الجديدة، والتي منها مثلاً ذلك التحول نحو ما بعد الحداثة ونحو النزعات واسعة النطاق التي تتجه لبناء مجتمع تتم عولمته ورقمته بصورة متزايدة؛ نقول: يُعد حقل الطرق الكيفية حقلاً دائماً التغير نظراً لأن هذه التوجهات النظرية الجديدة تطالب الباحثين أن يطرحوا أسئلة جديدة قد لا تطرحها طرق البحث التقليدية على نحو ملائم. فطرق البحث ليست كيانات ساكنة ثابتة - وذلك كما سبق أن بينا - إنما هي تتسم "بالمرونة والقابلية الشديدة للتغير".

وتوجد في وقتنا هذا طرقٌ كيفية بازغة (مستحدثة وقوية) قيد التأسيس تنتشر بين سائر التخصصات العلمية، وقد حاولنا الإشارة إلى بعضها في ثانيا كتابنا هذا. ونحن نسمى هذه الطرق "بازغة" emergent لأنها طرق جديدة أو صور مهجنة من تقنيات كيفية ثبتت صحتها بالتجربة. فتخيّل مدى ما يُمكن لبعض هذه الطرق أن تقدمه لتواصل الإسهام في إثراء معرفتنا عن مرض

الإيدز وعن غيره من القضايا الاجتماعية المهمة. مثال ذلك، أن في كتابنا القادم بعنوان "الطرق البازغة في البحث الاجتماعي: النظريات، والطرق ومناهج البحث"^(*). نتكلم عن طريقة تسمى: "بحث المذكرات اليومية" التي استحدثها هايرز Hyers، وسويم Swim، وماليت Mallet (٢٠٠٥).

وبموجب هذه الطريقة يحتفظ المشاركون في البحث (المبحوثون) بمذكرة يومية يُسجلون فيها أفكارهم، ومشاعرهم وملاحظاتهم عن موضوع معين. فتحليل مدى ما يمكن لهذه الطريقة أن تسهم به في فهمنا لرعاية طفل أو شخص يعاني الموت لإصابته بالإيدز، أو فهمنا لخبرة المعيشة مع شخص مصاب بهذا المرض أو مثيله والتعامل مع ما يحدث كل يوم من التمييز في المعاملة (من محاباة أو تحامل). وهذه الطريقة مجرد واحدة من الطرق الكيفية الكثيرة البازغة التي ستواصل توسيع نطاق قاعدتنا المعرفية. وتواصل هذه الطرق تطورها لكي تعالج المخاوف، والأسئلة، والقضايا التي كشفت عنها المواقف النظرية والإبستمولوجية الجديدة. وبهذا الأسلوب يتأكد لنا بوضوح أن البحث الكيفي عملية كلية شاملة، ليس فقط في الممارسة العملية، وإنما كذلك من حيث تطورها، إذ يتم استحداث المزيد من الطرق لكي تقوم بعملها في إطار النظريات الجديدة.

* * *

المراجع References

- Clatts, M., & Sotharan, J. (2000). Challenges in research on drug and sexual risk practices of men who have sex with men: Applications of ethnography in HIV epidemiology and prevention. *AIDS and Behavior*, 4(2), 169-180.
- Davis, M. (2002). HIV prevention rationalities and serostatus in the risk narratives of gay men. *Sexualities*, 5(3), 281-299.
- D'Cruz, P.(2004). The family context of care in HIV/AIDS: A study from Mumbai, India. *The Qualitative Report*, 9(3), 413-434.
- Hyers, L. L., Swim, J.K.& Mallett, R.M. (forthcoming). The personal is political: Using daily diaries to examine everyday gender-related experiences. In S. N Hesse-Biber & P. Leavy (eds.): *Emergent methods in social research*. Sage.
- Kelly, J. A., Amirkhanian, Y.A., Kabakchieva, E., Csepe, P., Seal, D.W., Antonova, R., et al. (2004). Gender roles and HIV sexual risk vulnerability of Roma (Gypsies) men and women in Bulgaria and Hungary: An ethnographic study. *AIDS CARE*, 16(2), 231-246.

(*) Emergent Methods in Sociol Research: Theories, Methods and Methodologies.

- Wight, D., & West, P. (1999). Poor recall, misunderstandings and embarrassment: Interpreting discrepancies in young men's reported heterosexual behavior. *Culture, Health & Sexuality*, 1(1), 55-78.

تعريف بمؤلفتي الكتاب

شارلين هس - بيبر

أستاذ علم الاجتماع بكلية بوسطن في تشيس نت هل، ماساشوستس. نشرت أعمالاً كثيرة عن تأثير العوامل الاجتماعية الثقافية عن صورة الجسد عند المرأة. ومن بينها كتابها "هل أصبحت نحيفة بما فيه الكفاية؟ عبادة النحافة و تسليع الهوية" (١٩٩٦) وهو العمل الذي اختارته مجلة "تسويس" كأفضل كتاب أكاديمي لعام ١٩٩٦. وشاركت في تحرير كتاب "الاتجاهات النسوية في النظرية ومنهج البحث: مدخل متعدد التخصصات" (١٩٩٩)، وكذلك كتاب "اتجاهات في البحث الكيفي: مدخل في النظرية والممارسة" (٢٠٠٤). كما شاركت في تأليف كتاب "دليل البحوث النسوية"، وشاركت في تحرير كتاب "الطرق البازغة في البحث الاجتماعي" (وكلاهما تحت الطبع عن دار نشر سيدج). وهي محررة كتاب "مدخل إلى البحوث النسوية" (تحت الطبع عن دار سيدج أيضاً)، كما شاركت في تطوير برنامج "البحث الفائق" HyperResearch، وهو برنامج كمبيوتر لتحليل البيانات الميدانية الكيفية.

باتريشيا ليفي

أستاذ مساعد علم الاجتماع وعلم الإجرام في كلية ستونهيل في إيستون، ماساشوستس. وقد نشرت عدة أعمال في مجالات: النظرية النسوية والنظرية النقدية، والذاكرة الجمعية، والثقافة الجماهيرية، وطرق البحث الكيفية والنسوية. كما شاركت في تأليف كتاب "دليل البحوث النسوية"، وشاركت في تحرير كتاب "الطرق البازغة في البحوث الاجتماعية" (وكلاهما تحت الطبع عن دار نشر سيدج).

* * *

تعريف بمؤلفي فقرات "خلف الكواليس"

- **كارول بيلي:** أستاذ مساعد علم الاجتماع وبرنامج دراسات المرأة في معهد فيرجينيا الفني العالي وجامعة ولاية فرجينيا. تهتم بحوثها بمجالات السلوك المنحرف ودراسات النوع (الاجتماعي).
- **كارولين إليس:** أستاذ علوم الاتصال وعلم الاجتماع بقسم الاتصال في جامعة جنوب فلوريدا. وقد اشتركت مع آرثر بوختر في تحرير كتاب "وجهة النظر الإثنوجرافية: الإثنوجرافيا الذاتية، والأدب، وعلم الجمال" (٢٠٠٢) كما اشتركت مع ألتاميرا في تحرير مجموعة كتب عن "البدائل الإثنوجرافية". ووضعت كتاباً بعنوان "المفاوضات النهائية: قصة الحب، والفقد، والمرض المزمن" (١٩٩٥). وتشمل اهتماماتها الحالية دراسة المرض والألم والتقدم في العمر.
- **دانا جاك:** حصلت على درجة الدكتوراه في التربية من جامعة هارفارد ١٩٨٥، وبعد أن كانت قد حصلت على درجة الماجستير في الخدمة الاجتماعية من جامعة واشنطن في عام ١٩٧٢. ومارست مهنة الإرشاد النفسي. ألقت كتاب "وراء القناع: التدمير والإبداع في العدوان النسائي" (١٩٩٩)، وكتاب "تسكين النفس" (١٩٩٣). كما شاركت في تأليف كتاب "الرؤى الأخلاقية والقرارات المهنية: القيم المتغيرة لدى جماعة من المحاميات والمحامين" (١٩٨٩) مع راند جاك. كما نشرت وكتبت كثيراً في ميدان منهج البحث والنوع.
- **دافيد كارب:** حصل على درجة الدكتوراه من جامعة نيويورك في عام ١٩٧١. من مؤلفاته كتاب "عبء التعاطف" (٢٠٠٢)، "حديث عن الحزن: الاكتئاب، والانعزالية، ومعنى المرض" (١٩٩٧)، "الهوية الحضرية: علم اجتماع الحياة الحضرية" (١٩٩٤)، "سوسيولوجيا الحياة اليومية" (١٩٩٣)، "خبرات دورة الحياة: علم النفس الاجتماعي للشيخوخة" (١٩٩٣)، وأخيراً: "حرفة البحث: مقدمة في طرق البحث الاجتماعي" (١٩٩٢). يعمل كارب حالياً أستاذاً لعلم الاجتماع بكلية بوسطن.

• ساره ماديسون: حصلت على درجة الدكتوراه فى نظم الحكم والعلاقات الدولية من جامعة سيدنى (أستراليا) فى عام ٢٠٠٤. شاركت فى تأليف كتاب "الحديث عن الحركية السياسية: المعرفة العملية والتوتر الخلاق فى حياة الحركات الاجتماعية" (تحت الطبع)، بالاشتراك مع شبان سكالمر. تتركز اهتماماتها البحثية الحالية فى نظرية الحركات الاجتماعية، ودراسات النوع (الاجتماعى)، والسياسة العامة. تعمل الآن مدرساً لعلم السياسة وللسياسة العامة الأسترالية بمعهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة نيوساوث ويلز.

• ليندساي بريور: أستاذ علم الاجتماع بجامعة ويلز، فى كارديف. تولى مسؤولية إدارة برنامج بحوث المخاطر والصحة فى كلية الطب بجامعة ويلز، وذلك خلال الفترة من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٢. من مؤلفاته: "الوثائق فى البحوث الاجتماعية: إنتاجها، واستخدامها، وتبادلها" (٢٠٠٢)، "التنظيم الاجتماعى للصحة العقلية" (١٩٩٣)، و"التنظيم الاجتماعى للموت" (١٩٨٩). يعمل حالياً فى عدد من المشروعات البحثية المتصلة بقضايا الصحة. ومن تلك المشروعات بحوث عن: تقدير المخاطر فى علم الوراثة، ووصف العقاقير المضادة للاكتئاب فى مرحلة الرعاية الأولية، اتجاهات العامة نحو مصل الأنفلونزا، تقويم العامة لإصابات المخ الموجهة، اتجاهات العامة نحو متلازمة التعب المزمن، وأخيراً كيف يتعرف مقدمو الرعاية الطبية على أعراض الألزهايمر لدى المرضى بمتلازمة الاكتئاب.

• ديانا روز: باحث رئيسى فى فريق متابعة المستخدمين بمركز سانسبورى للصحة العقلية فى لندن. حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن، ونشرت وكتبت كثيراً عن طرق البحث الكيفى، واللغويات الاجتماعية، وبحوث التلفزيون، والصحة العقلية.

• جوليا جونسون روتنبرج: أستاذ التربية بكليات سيدج فى الولايات المتحدة. تتركز مجالات تدريسها وبحوثها فى دراسة وممارسة عمليات إعداد المعلم، ودراسة الفئات المختلفة من التلاميذ. وإلى جانب عمل د.

رويتبرج في الولايات المتحدة، قامت بالتدريس في جامعة كيب تاون (في جنوب إفريقيا)، وفي جامعة ليسوتو (في مملكة ليسوتو). كما عملت أستاذاً زائراً بالمعهد الهولندي للدراسات المتقدمة في هولندا، حيث اشتركت مع زملائها بجامعة ليدن في دراسة بعض قضايا تعليم الفئات المتنوعة ثقافياً.

- باري ثورن: أستاذ علم الاجتماع ودراسات المرأة بجامعة كاليفورنيا، بركلي، حيث تولت هناك - أيضاً - إدارة مركز بحوث الأسر العاملة. كان قد سبق لها تولى التدريس بجامعة جنوب كاليفورنيا وجامعة ولاية ميتشجان. ألقت كتاب: "لعبة النوع (الاجتماعي): البنات والأولاد في المدرسة" (١٩٩٣). كما شاركت في تحرير كتاب "علم الاجتماع النسوي: تواريخ حياة حركة اجتماعية" (١٩٩٧)، وكتاب "إعادة النظر في الأسرة: بعض الأسئلة النسوية" (١٩٩٢) وكتاب "اللغة، والنوع الاجتماعي، والمجتمع" (١٩٨٣). تعمل حالياً في إعداد دراسة إثنوجرافية للطفولة في منطقة متقاربة الدخول ومتنوعة عرقياً في أوكلاند، كاليفورنيا.

المترجم فى سطور

أ.د. هناع الجوهري

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة، والخبرة الدولية فى التنمية الاجتماعية.

اهتمت منذ بداية عملها الأكاديمي بدراسة أشكال الحياة والعمل الجديدة، فدرست "ظاهرة الأعمال الإضافية غير الرسمية بين موظفى الحكومة والقطاع العام" (١٩٨٩) و"أثر المتغيرات الاجتماعية والثقافية فى تشكيل نوعية الحياة فى المجتمع المصرى" (١٩٩٤). كما اهتمت بحياة ومشكلات سكان العشوائيات فى مدينة القاهرة، وحياة فقراء المدينة، وظواهر الحرمان الاجتماعى... إلخ. ورافق ذلك كله اهتمام متصل بدراسة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمشكلات البيئية، وأخرجت كتاباً عن "التنمية الحضرية" (٢٠٠٦) وكتاباً عن "ثقافة التحايل. دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى" (٢٠٠٤)، ويحوى تقرير البحث الذى أجرته فى إطار مشروع "التراث والتغير" الكبير الذى نفذه مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة. هذا فضلاً عن دراسات "الشباب والإنترنت" (٢٠٠٠)، و"مجتمع الماكدونالدز" (٢٠٠٥) وغيرها كثير مما لا يتسع المجال لحصره هنا.

ولكن نخص بالذكر اضطلاعها بترجمة "موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية" (٢٠٠٩)، وكتاب "البحث الميدانى الإثنوجرافى فى العلوم الاجتماعية" (٢٠١٠). وتشارك حالياً فى ترجمة الطبعة الثانية من "موسوعة العلوم الاجتماعية" (تحت الطبع - ٢٠١١). وجميع هذه الأعمال عن المركز القومى للترجمة بالقاهرة.

المراجع فى سطور

أ.د. محمد الجوهري

- أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة.
- عميد كلية الآداب، جامعة القاهرة ورئيس جامعة حلوان الأسبق.
- أشرف وشارك فى عدد كبير من البحوث والندوات العلمية والمؤتمرات الدولية والعربية فى ميادين: علم الاجتماع، دراسات التراث الشعبى، التنمية الاجتماعية، الدراسات الثقافية.
- مثل مصر، على امتداد أربعة عشر عاماً، فى المؤتمر العام لليونسكو بباريس.
- رأس "المجلس الدولى لدراسة التحولات الاجتماعية" التابع لليونسكو (١٩٩٥-١٩٩٧).
- ألف ونشر ١٢١ بحثاً ودراسة.
- ترجم وشارك فى ترجمة ٣٨ عملاً.
- أشرف على ٥٥ رسالة دكتوراه، و٥٢ رسالة ماجستير.

التصحيح اللغوى: أيمن صابر
الإشراف الفنى: حسن كامل